



مصطفى لطفي المنفلوطي

المنظرة



قدم لها بدراسة
الدكتور طه وادي



الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان



الصفوة

النظرية



مصطفى لطفي المنفلوطي

النظرة

تحقيق وضبط

إدارة النشر العربي

قدم لها بدراسة

الدكتور طه وادي

أستاذ الأدب العربي الحديث

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان



© الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان ، ١٩٩١

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

تعد حقوق النشر لهذه الطبعة ملكاً للشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان ،
ولا يجوز إعادة نشر أي جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه أو تسجيله بأية وسيلة ،
أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الأولى ١٩٩١



المحتويات

الصفحة	الصفحة	الصفحة
أ	كلمة الناشر	٩٥
١	أدب المنفلوطي :	٩٧
	الإشكالية والواقع ، دراسة أعدها	٩٨
	الدكتور طه وادي	٩٩
٣٥	المقدمة :	١٠٠
	بقلم مصطفى لطفي المنفلوطي	١٠٢
١٤٨-٥٥	الجزء الأول :	١٠٤
٥٧	الغد	١٠٦
٥٨	الكأس الأولى	١١٠
٦٠	الدفين الصغير	١١٠
٦١	مناجاة القمر	١١٣
٦٢	أين الفضيلة ١٩	١١٥
٦٤	الغني والفقير	١١٧
٦٥	مدينة السعادة	١١٨
٦٨	أيها المحزون	١٢٠
٦٩	إلى الدبر	١٢٢
٧١	الرحمة	١٢٤
٧٣	رسالة الغفران	١٢٥
٧٨	عبرة الدهر	١٢٧
٨١	أفسدك قومك	١٢٩
٨٢	الصدق والكذب	١٣١
٨٥	النظامون	١٣٣
٨٦	الحرية	١٣٤
٨٧	عبرة الهجرة	١٣٦
٨٨	الإنصاف	١٣٧
٨٩	المدنية الغربية	١٣٨
٩٠	يوم الحساب	١٤٣
٩٣	الشعرة البيضاء	١٤٤
	الصبياد	٩٥
	الانتحار	٩٧
	الجمال	٩٨
	الكذب	٩٩
	غرفة الأحزان	١٠٠
	الشرف	١٠٢
	الحب والزواج	١٠٤
	الإسلام والمسيحية	١٠٦
	أهنا أم عزاء ؟	١١٠
	الزوجتان	١١٠
	في سبيل الإحسان	١١٣
	أدب المناظرة	١١٥
	الإحسان في الزواج	١١٧
	لا همجية في الإسلام	١١٨
	البخيل	١٢٠
	البعوض	١٢٢
	الجرع	١٢٤
	الاتحاد	١٢٥
	النبوغ	١٢٧
	البائسات	١٢٩
	البيان	١٣١
	السريرة	١٣٣
	زيد وعمرو	١٣٤
	أبو الشمقمق	١٣٦
	دورة الفلك	١٣٧
	تأبين فولتير	١٣٨
	العلماء والجهلاء	١٤٣
	الرجل والمرأة	١٤٤

الصفحة	الصفحة
١٤٦	الدعوة
١٤٩-٢٦١	الجزء الثاني :
١٥١	الحياة الذاتية
١٥٣	العبرات
١٥٤	دمعة على الإسلام
١٥٦	السياسة
١٥٧	خداع العناوين
١٦٠	الإغراق
١٦١	اللقبطة
١٦٤	الصندوق
١٦٦	الغناء العربي
١٦٩	التوبة
١٧٢	الحسد
١٧٣	الوفاء
١٧٤	خبايا الزوايا
١٧٦	الجامعة الإسلامية
١٧٩	القمار
١٨٠	الأوصياء
١٨٣	العام الجديد
١٨٥	سحر البيان
١٨٩	الكبرياء
١٩٠	الانتحار
١٩١	الحياة الشعرية
١٩٢	رباعيات الخيام
١٩٤	إلى تولستوي
١٩٦	مقدمة « مختارات المنفلوطي »
١٩٩	وارحمته !
٢٠٠	خطبة الحرب
٢٠٢	الإنسانية العامة
٢٠٣	أدوار الشعر العربي
٢٠٤	حوائيت الأعراض
٢٠٦	الرثاء
٢٠٩	الشعر
٢١٣	الشهيدتان
٢١٥	الدعاء
٢١٧	ليلة في التمثيل
٢١٨	الكوخ والقصر
٢١٩	حول سرير الموت
٢٢٢	غدر المرأة
٢٢٤	الضاد
٢٢٥	سياحة في كتاب
٢٢٧	دمعة على الأدب
٢٢٨	الصحافة
٢٣٠	التمائيل
٢٣٤	مدرسة الغرام
٢٣٥	أمس واليوم
٢٣٩	المرقص
٢٤١	البعث
٢٥٤	الرسائل
٢٥٦	الكلمات
٢٦٣-٣٦٩	الجزء الثالث :
٢٦٥	البيان
٢٦٨	الناشئ الفقير
٢٧٢	قتيلة الجوع
٢٧٣	الأدب الكاذب
٢٧٥	إيقون الصغيرة « مترجمة »
٢٧٦	الملاعب الهزلية
٢٨٠	الشيخ علي يوسف

الصفحة	الصفحة
عواطف البنين ٣٢١	العظمة ٢٨٢
الرشوة ٣٢٢	حرية الانتقاد ٢٨٤
القضية المصرية (من مايو ١٩٢١ إلى مارس ١٩٢٢) ٣٢٣-٣٤٧	يوم العيد ٢٨٥
العاصفة ٣٢٣	من الشيوخ إلى الشبان ٢٨٦
حكم القوة ٣٢٥	الموتى « مترجمة » ٢٨٩
إلى خصوم سعد باشا ٣٢٧	الزهرة الذابلة ٢٩١
عمرة الدهر ٣٤١	الوجهاء ٢٩٣
إلى أعدائنا ٣٤٢	جرجي زيدان ٢٩٥
إلى سعد باشا في منفاه ٣٤٥	احترام المرأة ٢٩٩
« الفتاة والبيت » ٣٤٨	الانتقام « مترجمة » ٣٠١
الضمير ٣٤٨	الخطبة الصامتة ٣٠٩
عجائز « بوشنج » ٣٥٠	اللفظ والمعنى ٣١٠
الأربعون ٣٥١	الآداب العامة ٣١١
الشيخوخة المتسرعة ٣٥٣	المؤتمر الإسلامي ٣١٤
الماضي والحاضر ٣٥٥	الجاهليتان ٣١٥
منتخبات من شعر المؤلف ٣٥٨	في أكوخ الفقراء « مترجمة » ٣١٦
	الشيخ محمد عبده بين العلماء ٣٢٠

كَلِمَةُ النَّاشِرِ

« الصَّفْوَةُ » سِلْسِلَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ سَلَامِيلِ الشَّرَكَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْعَالَمِيَّةِ لِلنَّشْرِ - لُونْجَمَان ، تُضَافُ إِلَى الْمَكْتَبَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَتَرْمِي إِلَى نَشْرِ صَفْوَةِ أَعْمَالِ الْمُؤَلِّفِينَ فِي مُخْتَلِفِ الْعُصُورِ .

فَمِنْ بَيْنِ أَعْمَالِ أَيِّ مُؤَلِّفٍ عَظِيمٍ ، مُكَثِّرًا أَوْ كَانَ أَوْ مُقِلًّا ، ثَمَّةُ أَعْمَالٍ تَتَمَيَّزُ وَتَذِيْعُ ، وَتَتَعَدَّدُ طَبْعَاتُهَا ، وَتَحْطَى بِنَصِيبٍ مِنَ الشُّهُرَةِ وَالذَّبِيعِ يَفُوقُ غَيْرَهَا مِنْ أَعْمَالِهِ ، وَلَا مَرَّةً فِي أَنْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ سَتَظَلُّ أَبَدًا حَيَّةً فِي وَجْدَانِ الْقَارِئِ .

هَذِهِ الْأَعْمَالُ سَوْفَ تُتَنَاحُ لِلْقُرَّاءِ فِي سِلْسِلَةِ « الصَّفْوَةِ » فِي صُورَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ حَيْثُ مَنَظَرُهَا وَمَخْبَرُهَا . وَهِيَ هِيَ ذِي « النَّظَرَاتِ » وَ « الْعِبَرَاتِ » وَ « الْفَضِيلَةِ » أَوْ بُولِ وَفَرْجِنِي « الْمَصْطَفَى لَطْفِي الْمُنْقَلُوطِي » ، نَسْتَهْلُ بِهَا سِلْسِلَةَ « الصَّفْوَةِ » فَتَقْدِّمُهَا لِلْقُرَّاءِ فِي حُلَّةٍ قَشِيَّةٍ آيَةَ الْمَنَظَرِ الْجَدِيدِ .

أَمَّا الْمَخْبَرُ فَأَيُّهُ النَّصُّ الَّذِي قَامَ مُحَرَّرُو إِدَارَةِ النَّشْرِ الْعَرَبِيِّ بِالشَّرَكَةِ ، بِتَحْرِيرِهِ وَتَصْحِيحِهِ وَتَحْقِيقِهِ تَحْقِيقًا دَقِيقًا ، وَتَعْلِيقٍ مَا يَلْزَمُ مِنْ حَوَاشٍ بِالتَّعْقِيبَاتِ وَشُرُوحٍ مَا قَدْ يَغْمُضُ مِنْ مُفْرَدَاتٍ ، وَكَذَلِكَ ضَبْطِ الْأَشْعَارِ ضَبْطًا نُحُوياً وَعَرُوضِيّاً ، وَضَبْطِ مَوَاطِنِ اللَّبْسِ فِي الْمُثَنِّ وَالْحَوَاشِي ، فَضْلاً عَنِ التَّرْجُمَةِ لِلشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي رُبَّمَا التَّرْجُمَةُ لَهَا .

وَقَدْ قَامَ الدُّكْتُور طه وادي ، أَسْتَاذُ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ الْحَدِيثِ بِكُلِّيَّةِ الْأَدَابِ بِجَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ ، بِإِعْدَادِ دِرَاسَةٍ قِيَمَةٍ عَنِ الْمُنْقَلُوطِي وَأَدَبِهِ زَيْنَ بِهَا صَدْرُ هَذِهِ الطَّبْعَةِ .

إِنَّ التَّارِيخَ الْبَيْلِيُوغَرَفِيَّ لِكِتَابِ « النَّظَرَاتِ » طَوِيلٌ ؛ إِذْ يَبْدَأُ عَامَ ١٩١٠ عِنْدَمَا صَدَرَ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ وَتَتَابَعَتْ طَبْعَاتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى هَذِهِ الْأَيَّامِ .

هَذِهِ هِيَ « النَّظَرَاتُ » ، فَإِلَى الْمُلْتَقَى مَعَ كِتَابٍ آخَرَ فِي « الصَّفْوَةِ » .

وجدي رزق غالي

مدير النشر العربي

الشركة المصرية العالمية للنشر - لُونْجَمَان

أدب المنفلوطي

الإشكالية و الموقع

دراسة أعدها

الدكتور طه وادي

أستاذ الأدب العربي الحديث

كلية الآداب - جامعة القاهرة

١- مدخل وإشكالية

يُعدُّ مصطفى لطفى المنفلوطي (١٨٧٦-١٩٢٤) واحداً من الأدباء الكبار ، الذين أسهموا بدور مؤثّر في تطوير النثر العربي الحديث ، لا في مصر وحدها وإنما على صعيد الوطن العربي كله من المحيط إلى الخليج . إن الناقد الأدبي حين يتأمّل هذه الظاهرة اللافتة - ظاهرة التأثير القوي لأدب المنفلوطي - يجد أنها ظاهرة أدبية فريدة تدعو إلى قدر من التساؤل والتفكير ، وإلى قدر آخر من الدهشة التي تحتاج إلى تفسير ؛ ذلك أن التفكير في دور المنفلوطي الأدبي يثير لدى الناقد - بدايةً وابتداءً - قضايا ثقافية هامة ، مثل :

(١) أنه كان حريصاً على التمسك بتقاليد مجتمعه الصعيدي وقيمه ، ويدعو إلى الإصلاح الاجتماعي ، وإلى مناصرة البؤساء ومساندة الفقراء ، وإلى ما هو أخطر من هذا - يدعو إلى تعليم المرأة ، والدفاع عن حق الإنسان في الحياة والعيش الكريم : « ... كأنما كنت أرى أن بين حياتي وحياة أولئك البائسين المنكوبين شبيهاً قريباً وسبباً متصلاً .. »^(١)

وهو يرثي لحال المرأة قائلاً : « إن المرأة المصرية شقية بائسة ، ولا سبب لشقاؤها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها . إنها لا تحسن عملاً ، ولا تعرف باب مرتزق ، ولا تجد بين يديها سلعة تتجر بها وتقتات منها ... »^(٢)

(٢) وهو مع كونه أزهرياً معممًا حرص - طوال حياته - على زيه العربي وعمامته وقططانه وعباءته ، كان داعية إلى « الحب » ، وكان يؤكد في كل ما كتب على أهمية السعادة العاطفية ، كأنما لم يخلق الإنسان إلا من أجل الحب ، والعاطفة : « يا مائدة الحب العظيمة ، هنيئاً للذين يذوقون طعمك ، ويتناولون ثمارك ، ويرتشفون ككوسك ... »^(٣) بل إنه يرى أن الحب يجب أن يُعلم وأن تُلقى فيه المحاضرات ؛ إذ : « ليس في الفنون ما هو أحقّ بالمحاضرات من الحب »^(٤)

(٣) كيف يُمكن لأديب « محافظ » تعلّم في الأزهر ، وتغذّى فكره وخياله على ثقافة التراث العربي دون سواها ، وكان يصدر في كل ما كتب مستلهمًا - بقوة - عبير هذه الثقافة التراثية : مضمونًا وشكلًا ، قيمًا وأساليبًا ، صورًا وتراكيبًا - أن يعدّ رائدًا من رواد التجديد الأدبي ، ويحقق للأدب ما عجز عنه بعض المثقفين ثقافة أوربية حديثة ؟ من هنا مضى بالدعوة النظرية وبالإبداع المتحقق يحارب التمسك بالألفاظ المعجمية الغريبة ، وقواعد البلاغة الشكلية ، مؤكداً أن الأدب الجيد ليس باللفظ أو البلاغة ، وإنما بالقدرة على التعبير عن المعنى : « أشعر الشعراء عندي وأكتب الكتاب ... أوصفهم لحالات نفسه ، أو أثر مشاهد الكون فيها ، وأقدرهم على تمثيل ذلك وتصويره للناس تصويرًا صحيحًا ، كأنما هو يعرضه على أنظارهم عرضًا أو يضعه في أيديهم وضعًا »^(٥)

(١) مصطفى المنفلوطي : النظرات ، هذه الطبعة ، ص ٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣ .

(٣) المنفلوطي : الشاعر ؛ أو سيرانو دي برجرارك بيروت ، دار الثقافة ، د.ت. ص ١٢٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠١ . (٥) المنفلوطي : النظرات ، هذه الطبعة ، ص ٦ .

(٤) لم يكن المنفلوطي كاتباً روائياً ولا أديباً قصصياً ؛ لأنه كان في المقام الأول « كاتب مقال » و « معرباً » يتصرف واسع لبعض الروايات والقصص . لكنه مع ذلك صنع للرواية العربية ، في مصر وكل أقطار الوطن العربي ما عجز عن صنعه أي كاتب من كتابها الحقيقيين ؛ ذلك أن فن « الرواية » كان يُوصم بوصمة ازدراء واحتقار لمن « يتجرأ » ويقوم بكتابتها . غير أنه استطاع أن « يظهر » فن الرواية من الرجز والدنس والازدراء والنظرة الدونية ، التي كانت الرواية موصومة بها هي ومن يجرؤ على كتابتها^(١) .

إن المنفلوطي ، رغم قصر عمره (مات دون الخمسين) ، وقلة عدد أعماله الأدبية : مؤلفة ومترجمة (سنة) ، و تقارب محاورها الفكرية وأساليبها التعبيرية ، كان أشد تأثيراً في معظم الذين أصابتهم حرفة الأدب : شعراً ونثراً - خلال النصف الأول من القرن العشرين . وأكثر الناس تأثراً به هم كتاب الرواية ، يتساوى في ذلك الواقعيون المجددون ، أمثال نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشوقوي ؛ والرومانسيون التقليديون ، أمثال محمد عبد الحليم عبد الله ويوسف السباعي . أكثر من هذا أنه أقوى الأدباء العرب - قاطبة - انتشاراً وقراءة ؛ فقد طبعت بعض أعماله حتى اليوم حوالي ثلاثين مرة . ولم يكن أدب المنفلوطي مقروءاً فحسب ، وإنما كان الكثيرون يحفظونه عن ظهر قلب ، يتساوى في ذلك الأدباء والهواة ، الرجال والنساء ، الشباب والشابات ؛ بل إن كثيراً من عبرات العيون وخطرات القلوب ، قد تفاعلت وانفعلت مع أبطال المنفلوطي وبطلاته ، الذين كانوا ينشدون « الفضيلة » « تحت ظلال الزيزفون » ، ويذرفون « العبرات » ويناقشون الآراء و « النظرات » ، ويضحون بالحياة « في سبيل التاج » - تاج حرية الوطن !

وهذا يعني أن معظم قراء المنفلوطي كانوا يرون في أدبه انعكاساً لبعض همومهم الخاصة ومهامهم العامة ، ويدون أنه هو نفسه كان صادق الحس فيما يعبر عنه بالنسبة لقرائه وجمهوره ؛ لذلك لم يكن غريباً أن يكتب في إهداء كتاب العبرات : « الأشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة بائس مثلي ، أن يمحو شيئاً من يؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات ؛ عليهم يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى » .

من هذا كله يتضح أن أدب المنفلوطي ، حتى بعد هذه الفترة الطويلة نسبياً من وفاته (١٩٢٤) ، يثير (إشكالية) ، تحتاج إلى تفسير موضوعي ، يبين كيف استطاع ، رغم كل ما قدّمناه من احتراسات ، أن يشغل الواقع الثقافي ، ويؤثر في الإطار الأدبي منذ كتب حتى اليوم .

وما لا ريب فيه أن الظواهر الثقافية ظواهر (معقدة) ، تحتاج إلى وعي شامل بكل ما يشكلها ويحيط بها ويتنسب إليها ، حتى يتسم تفسيرنا لهذه الإشكاليات بقدر من الحياد العلمي المفترض في الناقد الموضوعي ، الذي ينبغي أن يكون مثل القاضي : واعياً في طرح أسئلته واستفساراته ، نبيلاً في

(١) من المعروف أن محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦) مؤلف أول رواية ناضجة في الأدب العربي الحديث قاطبة - وهي رواية « زينب » - عندما نشرها ، أول مرة سنة ١٩١٤ ، استحي أن يكتب اسمه عليها ، ولم يجرؤ على نسبتها إلى نفسه إلا عند الطبعة الثانية سنة ١٩٢٨ . فقد خشي أن « تجني صفة الكاتب القصصي على اسم المحامي ... » ، لذلك نشرها باسم مستعار هو : « مصري فلاح » . (محمد حسين هيكل : زينب - مناظر وأخلاق ريفية . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧ . ص ٧)

٥ الواقع الكرنفالي

غايته ومقاصده ، دقيقاً في أدلته وشواهدة ، عادلاً في آرائه وأحكامه . وحتى يتحقق للنقاد ذلك ، لا بُدَّ أن يكون على معرفة شاملة بالواقع ، الذي تشكلت في رحمه الظاهرة الأدبية ، وبالقيمة الحقيقية التي يمثلها تراثُ الأديب الذي يدرسه ، وبالتأثير الذي أحدثه في مسيرة النوع الأدبي الذي يبدع فيه .

* * *

٢- الواقع الكرنفالي

مما لا ريب فيه أن المنفلوطي بدأ يثبت وجوده ، ويحقق حضوره - بقوة - في الواقع الثقافي ابتداء من سنة ١٩١٠ تقريباً ، فقد صار معروفاً للجميع بأنه « المحرر العربي » الأول ، لأي وظيفة يتقلدها سعد زغلول . كما أصبحت الجرائد والمجلات تتسابق في نشر مقالاته وقصصه المؤلفة والمترجمة . ثم أخذت كتبه تتوالى في الصدور منذ نشر الجزء الأول من « النظرات » سنة ١٩١٠ .

ويبدو أن حركة المنفلوطي كانت تواكب حركة واقعه العام من حيث النهضة والارتقاء والرغبة في تحقيق التقدم ؛ فقد نشطت حركة المجتمع المصري ، الذي بدأت فيه « الطبقة الوسطى » الوليدة ، تأخذ دورها في القيادة باعتبارها « صاحبة المصلحة الحقيقية في البلاد »^(١) . كما بدأت مصر تشهد قيام أحزاب سياسية مثل الحزب الوطني ، وحزب الأمة ، وحزب الإصلاح ، على المبادئ الدستورية . وإذا كانت بعض هذه الأحزاب لم تستمر ولم تؤد دوراً مؤثراً ، فإن هناك أحزاباً أخرى أكثر أهمية ، بدأت تقوم بدور أكبر خطورة في حركة الواقع ؛ فبعد صدور دستور سنة ١٩٢٣ ، ظهر أهم حزبين في مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين ، وهما :

١- حزب « الوفد » بقيادة سعد زغلول ثم مصطفى النحاس ، وكان يصدر جريدة « الوفد » .

٢- حزب « الأحرار الدستوريين » بقيادة عدلي يكن ، ثم عبد الخالق ثروت ، ومحمد حسين هيكل ، وكان يصدر جريدة « السياسة » .

كما بدأت الحركة السياسية تنشط بسبب كثرة التنظيمات من ناحية ، ومن ناحية أخرى بسبب ظهور بعض الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، التي تعرضت لها البلاد في النصف الأول من القرن العشرين .

وقد صاحب هذه الحركة السياسية الملتهبة ازدهاراً صحفية وثقافية وطباعية - ربما - أكثر صخباً وتأثيراً ؛ فقد زاد عدد الصحف والمجلات السياسية والأدبية والثقافية العامة ، كما قويت حركة الترجمة ، و اتسع مجالها لتشمل معظم ميادين الفكر والأدب والعلم . كما أن التأليف ، ولا سيما التأليف الأدبي في الشعر والرواية والقصة القصيرة والمسرح النثري والشعري ، قد زاد الإنتاج فيه بصورة لافتة . وقد واكبت هذه الحركة الأدبية حركة نقدية نشطة ، يقودها بعض النقاد والأدباء وبعض أساتذة الجامعة المصرية الوليدة أمثال : خليل مطران ، و عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد

(١) طه وادي : شعر ناجي ؛ الموقف والأداة . ط ٣ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٩٠ . ص ٢١ .

القادر المازني ، وطه حسين ، ومحمد حسين هيكل ، ومصطفى صادق الرافعي ، وأحمد حسن الزيات ، ومحمد المويلحي ، وعبد العزيز البشري ، ومحمد الخضر حسين ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، وأحمد زكي أبو شادي ، وغيرهم .

كما أن هذه المرحلة بدأت تشهد لأول مرة - أيضاً - ظهور بعض الجماعات الأدبية ، مثل شعراء « مدرسة الديوان » وهم عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني وعبد الرحمن شكري ، ومبايعة أحمد شوقي بإمارة الشعر سنة ١٩٢٧ ، ثم قيام جماعة « أبوللو » سنة ١٩٣٢ .

ولم يكن الأدب والنقد سيران وحدهما في هذا الموكب الاحتفالي ، وإنما كانت هناك أيضاً نهضة في المسرح الدرامي والغنائي بجهود فرق كل من سلامة حجازي ، وسليمان الحداد ، وأبو خليل القباني ، وأولاد عكاشة ، وجورج أبيض ، وعبد الرحمن رشدي ، وأمين صدقي ، ونجيب الريحاني ، وعزيز عيد ، وسيد درويش .

وقد شارك في التأليف للمسرح في هذه المرحلة : إبراهيم رمزي ، وأحمد شوقي ، وأنطون الجميل ، وبيديع خيرى ، وتوفيق الحكيم ، وفرح أنطون ، ومحمد تيمور .

كذلك شهدت هذه المرحلة نهضة فن الغناء ، حيث انتقل من وسيلة للترفيه عن السكارى والعابثين إلى فن محترم ، يقوم على كلمة مهذبة ، ولحن جيد ، وأداء معبر . كما خرج الغناء من إطار التعبير عن العاطفة إلى القيام بدور وطني ، يسهم في إذكاء جذوة الحماسة في كثير من المعارك والمناسبات العامة . وقد اضطلع ببعض هذا العبء في مجال تطوير الغناء فنانون كبار أمثال حامد مرسي ، ومنيرة المهدية ، وسلامة حجازي ، وسيد درويش ، ثم محمد عبد الوهاب ، والسيدة أم كلثوم .

بل إن أمر النهضة الثقافية والفنية قد تعدى كل ذلك إلى الفن التشكيلي ، حيث ظهر الفنان العظيم محمود مختار ، الذي أعاد بروائعه الفنية - مثل تمثال نهضة مصر وسعد زغلول والفلاحة وضريح سعد وغيرها - إلى الأذهان شذى عبقرية الفنان الفرعوني القديم .

كما أن الجامعة المصرية التي تأسست سنة ١٩٠٨ أخذت تؤثر في نواحي الحياة كافة ، سواء على مستوى الأساتذة أو الخريجين أو الطلبة .

ألسنا على حق - إذن - حين نقول : « إن الواقع المصري كان يشهد موكباً كارنفالياً على كل المستويات » ؟ نعم كانت الحياة قاسية في ظل الاحتلال والقصر ، وعدم وضوح الرؤية - بقدر كافٍ - أمام بعض التنظيمات السياسية العلنية والسرية .

ولكن كان هناك برلمان ، ودستور ، وأحزاب ، وصحافة ، وجامعة ، ومجلات ، وحركة طباعة ونشر ، وأدب ، ونقد ، ومسرح ، وسينما ، وفن تشكيلي ، وغناء ، وإذاعة .

في إطار هذا الواقع الاجتماعي والسياسي والفكري والفني ، الذي يزخر بموكب النهضة والتقدم على كل المستويات ، كأنما تحول الواقع كله - على حد تعبير الناقد الروسي « ميخائيل باختين » - إلى احتفال كرنفالي صاخب ، تتحول بعض عناصره إلى تقاليد أدبية وتقنيات إبداعية ، تمثلت في أعمال كثير من أدباء العصر وفنانيه .

ويبدو أن هذه الحركة ، حركة موكب الاحتفال الكرنفالي للواقع ، قد أسهمت في نشأة الرواية الحديثة ، التي شارك فيها المنفلوطي بدور ما ، وهذه قضية تحتاج إلى وقفه خاصة في بحث نقدي آخر .

* * *

٣- جدل الموقف والأداة بين « النظرات » و « العبرات »

هناك مجموعة من الشخصيات في تاريخنا الأدبي الحديث ، احتلوا - دون سواهم - منزلة ، لم يصل إليها أحد في إطار النوع الأدبي ، الذي يدعون فيه ، بل إنهم يعدّون « عباقرة » ذلك المجال ، ولم يستطع أحد حتى اليوم أن يتجاوزهم أو يلحق بشهرتهم . وهذه الشخصيات العبقريّة ، هي :

١- أحمد شوقي : في الشعر .

٢- توفيق الحكيم : في المسرح .

٣- طه حسين : في الدراسة الأدبية .

٤- نجيب محفوظ : في الرواية .

٥- يوسف إدريس : في القصة القصيرة .

٦- مصطفى لطفي المنفلوطي : في المقالة الأدبية .

المنفلوطي - إذن - أشهر كاتب مقالة أدبية في العصر الحديث ، ولم ينل أحد قبله أو بعده ، مثل ما نال من شهرة وانتشار ؛ حيث إن تراثه الأدبي - ومنه مقالاته - لا يزال يُعاد طبعه ، ويجد جمهوراً قارئاً حتى اليوم .

وقد اختار المنفلوطي من مقالاته المختلفة التي نُشرت في بعض الجرائد ، ومن أهمها جريدة « الصاعقة » التي كان يرأس تحريرها أحمد فؤاد ^(١) ، وجريدة « المؤيد » التي كان يرأس تحريرها الشيخ علي يوسف ^(٢) ، بعض المقالات ، وأعاد نشرها في كتابه « النظرات » بأجزائه الثلاثة ، التي صدرت طبعاتها الأولى في السنوات : ١٩١٠ و ١٩١٢ و ١٩٢١ . ويمكن أن نضيف إلى « النظرات » كتاب « العبرات » ، وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩١٥ . ورغم أن محتوى « العبرات » يختلف عن « النظرات » ؛ لأنه يحتوي على بعض قصصه الموضوع والمترجم . ومع وعينا بالخلافات الجوهرية والسمات الفارقة لما بين المقالة والقصة ، إلا أن أسلوب الكاتب لا يختلف كثيراً في تناول كل منهما إلى حد كبير ، بل إنه أعاد نشر بعض ذلك القصص المؤلف والمترجم في أجزاء مختلفة من « النظرات » . وهذا يدل على أن المؤلف نفسه لم يجد فارقاً كبيراً بين ما يحتويه كل من الكتائين اللذين يشتملان على مقالات عامة ، أو مقالات قصصية ، كما سنفصل فيما بعد .

(١) راجع مقالا بعنوان « فؤاد الصاعقة » في : عباس محمود العقاد : رجال عرفتهم . القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٦٣ . ص ٢٦٤

(٢) المرجع السابق ص ١١ .

ويمكن أن نلخص موقف المنفلوطي أو رؤيته الأدبية لا في هذين الكتابين فحسب ، بل في كل ما كتب - تقريباً - فنقول إن موقفه هو « موقف المصلح » ، الذي يدعو إلى الإصلاح بشكل ليس فيه تورية أو تكتنية ؛ فالمنفلوطي في كل ما كتب كان داعية إلى إصلاح المجتمع والتمسك بالفضيلة ومساعدة الفقراء والمساكين ومحاربة الرذيلة ، والمحافظة على كرامة المرأة وعدم تعريضها للمشكلات ، حتى لا تسقط أو تنزل . ويتصل بهذه الدعوة أيضاً ، من قرب أو بعد ، دعوته إلى إصلاح أساليب الكتابة الأدبية وعدم التفريق بين اللفظ والمعنى ، وأن طريقة التعبير في النثر لا تختلف عنها في الشعر ، لأن : « الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر ، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغ تعرض الكلام فيما يعرض له من شؤون وأطوار ، لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ... »^(١)

وإذا كان المنفلوطي يدعو إلى إصلاح المجتمع وأسلوب الكتابة ، فإنه لم يكد يتطرق إلى حديث السياسة في أي موضوع من الموضوعات المختارة في « النظرات » و « العبرات » .

ويبدو أن القصيدة التي أدخلته السجن في نوفمبر سنة ١٨٩٧^(٢) ، قد جعلته حذراً من الكتابة السياسية ، كما أنه يعلل سبب نفوره من السياسة بقوله : « يعلم الله أنني أبغض السياسة وأهلها بغضني للكذب والغش والخيانة والغدر . أنا لا أحب أن أكون سياسياً ، لأنني لا أحب أن أكون جلاداً ، لا فرق عندي بين السياسيين والجلادين ، إلا أن هؤلاء يقتلون الأفراد ، وأولئك يقتلون الأمم . »^(٣)

المنفلوطي إذاً كان داعية إلى الإصلاح ، غير أن كل الأدباء - بمعنى ما - يدعون إلى الإصلاح والعدالة والحرية ، ويناضلون من أجل تغيير ما هو فاسد في المجتمع ، وينشدون عالماً أفضل ، ويشيرون بواقع أسعد ، أي أن الأدب له ، بالضرورة عند كل أديب ، مهما قل أو جل شأنه ، وظيفة نبيلة ، تهدف إلى تطوير المجتمع وتغيير الواقع . لكن الأدباء يختلفون اختلافاً واسعاً بحسب الفلسفة الفكرية ، التي تشكل الموقف الأدبي لكل منهم . وهذه الاختلافات ، في حقيقتها ، فروق جوهرية بين الفلسفة الإحيائية السلفية المحافظة ، والفلسفة الليبرالية الفردية الرومانسية ، والفلسفة الواقعية الشمولية الملتزمة .

ومعنى هذا أن المذاهب الأدبية لا تخرج عن ثلاثة مواقف هي :

- ١- الموقف السلفي في الفكر ، ويعكسه مذهب الإحياء في الفن ، الذي يعبر عن الغير .
- ٢- الموقف الليبرالي في الفكر ، ويواكبه مذهب التعبير عن الذات في الفن .
- ٣- الموقف الواقعي في الفكر ، ويصاحبه المذهب الشمولي الملتزم المعبر عن قضايا المجتمع في الفن .

وبناءً على ذلك ، فإن المذهب الأدبي الذي يصدر بوحى منه المنفلوطي هو الموقف « الإحيائي » ؛

(١) النظرات ، هذه الطبعة ، ص ٢١٠ .

(٢) محمد أبو الأنوار : مصطلحي المنفلوطي ، حياته وأدبه . القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٨٥ . ج ٣ ، ص ٢٩٣ .

(٣) النظرات ، هذه الطبعة ، ص ١٥٧ .

وعلى هذا فإن كل ما كان يدعو إليه ، إنما يستمد مبادئه وقيمه من تراث السلف الصالح بالمعنى الشمولي لكلمة تراث ، حيث يدخل فيها ما هو ديني (القرآن والسنة) ، وفكري (الفلسفة الإسلامية وكل مجالات الفكر العربي) ، وفني (الشعر والنثر والغناء والموسيقى) . ومن هنا فإن كل ما دعا إليه كاتبنا من مبادئ الإصلاح ، كان يستلهمها من فكر التراث وتقاليد المجتمع العربي المسلم . وعلى هذا نستطيع القول بأنه -على مستوى الموقف الأدبي- كان أدبياً سلفياً بشديد المحافظة ؛ لذلك كان يدعو إلى تثبيت عادات المجتمع الشرقي ومثله ، ويعادي بالتالي كل مظاهر الحضارة الغربية الوافدة على مستوى الفكر والسلوك . ومن هنا كان يرفض خروج المرأة إلى الحياة ويعادي وجود المسارح ويسمّيها « الملاعب الهزلية » ، فيقول : « نزلت بالأمة المصرية نازلة المقاذر العامة ، التي يسمونها الملاعب الهزلية ، وما هي في شيء من الهزل ولا الجد ، ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ، ولا بأي فن من الفنون الأدبية ... »^(١)

فالمنفلوطي يرى (بصفة عامة ، ويجب أن نعرف أن هذا الرأي قاله في آخر حياته) أن كل المفاصد الأخلاقية تأتي من تقليد الغرب ، فيقول :

« أصبحت أعتقد أن مفاصد الأخلاق والمدنية الغربية شيكان متلازمان ، وتوأمان متلاصقان ، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه ... »^(٢)

وإذا كان الموقف الأدبي يرتبط بأداة التعبير ارتباط العلة بالمعلول ، فإننا نستطيع على ضوء شرحنا لموقف المنفلوطي - كما فسّرناه آنفاً - القول بأن جماليات المقال الأدبي عنده لا تختلف كثيراً عما نراه من أسلوب للكتابة عند أعلام النثر في التراث العربي القديم والحديث ، أمثال : عبد الحميد الكاتب والجاحظ وأبو حيان التوحيدي وابن العميد والقاضي الفاضل ورفاعة الطهطاوي وعبد الله فكري ومحمد المولحي ، وغيرهم .

ومعنى هذا أن المنفلوطي ، رغم كثرة دعواته إلى إصلاح الكتابة الأدبية والبعد عن التقليد ، لم يستطع أن يحقق ما كان يدعو إليه . فهو يذكر أن سبب ما له من فضل في الكتابة يرجع إلى ما أكّده بقوله : « لأنني استطعت أن أتفكّر من قيود التمثّل والاحتذاء . وما نفعتني في ذلك شيء مثل ما نفعتني ضعف ذاكرتي والتواؤم عليّ ، وعجزها عن أن تمسك إلا قليلاً من المقروءات التي كانت تمرّ بي . فلقد كنت أقرأ من منشور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ ، ثم لا ألبث أن أنساه ، فلا يبقى منه في ذاكرتي إلا جمال آثاره وروعة حسنه ورنة الطرب به . »^(٣)

ومع أن كاتبنا يذكر أنه استطاع أن يفكّر من قيود التمثّل والاحتذاء ، وبالتالي لم يقلد غيره ، إلا أننا نحسّ معه أننا إزاء إحياء جديد لأساليب النثر العربي التقليدية ، التي تعتمد على المزاجية بين الجمّل ، والمقابلة بين العبارات ، والحرص على السجع ، والتساوي بين الجمّل لتحقيق قدر من التوازي في الإيقاع ، مع الحرص على جمال المفردات اللغوية ، وحشد بعض المحسنات البديعية خاصة الجناس والطباق والتراصف ، وإثارة بعض الصور البلاغية المحفوظة أو الواردة في الشعر والقرآن والحديث النبوي ، بالإضافة إلى توظيف « التناص » أو « التضمين » بشكل مقصود من مصادر التراث

الديني والأدبي .

وهذه السمات التي نجدها عند المنفلوطي هي ذاتها التي قد نجدها عند أبي حيان التوحيدي الذي يقول ، على سبيل المثال ، في مقدمة كتابه « الإمتاع والمؤانسة » :

« قال أبو حيان التوحيدي : نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين ، و وصل إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين ، وظفر بالفوز والنعيم من قطع طمعه من الخلق أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبيه وعلى آله الطاهرين .

« أما بعد .. فإني أقول منبهاً لنفسي ، ولئن كان من أبناء جنسي ؛ من لم يطع ناصحه بقبول ما يسمع منه ، ولم يملك صديقه كله فيما يمثله له ، ولم يتقد ليبيانه فيما يُرينه إليه ، ويطلعه عليه ، ولم ير أن عقل العالم الرشيد ، فوق عقل المتعلم البليد ، وأن رأي المجرب البصير ، مُقدّم على رأي الغمر الغرير ؛ فقد خسر حظه في العاجل ، ولعله أيضا يخسر حظه في الآجل ... » (١)

وإذا كانت قوة الموهبة وكثرة الخبرة ، تعصمان التوحيدي من أن تبدو الصنعة عنده متكلفة ، فإن التكلف يبدو بشكل أوضح عند كاتب مثل بديع الزمان الهمذاني ، على سبيل المثال ، الذي يقول ، في « المقامة الأصفهانية » : « حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بأصفهان أعترمُ المسير إلى الري ، فحللتها حلول الفتي ، أتوقع القافلة كل لمحة ، وأتربح الراحلة كل صبحه ، فلما حُمّ ما توقعته ، نودي للصلاة نداء سمعته ، وتعين فرضُ الإجابة ، فانسَلْتُ من بين الصحابة ، أغتنم الجماعة أدركها ، وأخشى فوت القافلة أتركها ، لكنني استعنت ببركات الصلاة ، على وعشاء الفلاة ، فصرتُ إلى أول الصفوف ، ومثلت للوقوف ، وتقدّم الإمام للمحارب ، فقرأ فاتحة الكتاب ... » (٢)

من هذا كله يتضح أن أسلوب المقال الأدبي وغيره عند المنفلوطي مستمد من السمات العامة للنثر العربي ، الذي يعتمد في الغالب على « الصنعة » والحرص على المحسنات ، حتى لو أضر ذلك بالمعنى أحياناً . وهذا يعني - ببساطة شديدة - أن المنفلوطي كان محافظاً في موقفه ومقلداً في أسلوب كتابته ، أي أن الموقف عنده يتسق مع الأداة ، وأنه كان أسيراً لفلسفة الإحياء قلباً وقالباً ، تلك المدرسة التي تؤمن بكل ما آمن به السلف الصالح لدرجة الخضوع والخنوع . فهذه المدرسة تؤمن في النثر ، كما آمنت في الشعر ، بالوظيفة الأخلاقية للأدب ، وإذا كان المنفلوطي يدعو إلى الفضيلة فإن البارودي الشاعر يدعو إلى مكارم الأخلاق ، فيقول (٣) :

والشعر ديوانُ أخلاق يلوحُ به ما خطّه الفكرُ من بحثٍ وتنقيح

ولا شك أن حرص المنفلوطي فيما كتب على التقليد والمحافظة ، هو الذي أغاظ ناقدًا مثل إبراهيم عبد القادر المازني ، فأخذ ينقده نقداً عنيفاً بقوله :

(١) أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق وشرح : أحمد أمين وأحمد الزين . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ . ج ١ ، ص ١ .

(٢) أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني : مقامات الهمذاني ، تحقيق وشرح الشيخ محمد عبده . ط ٦ بيروت ، دار المشرق ، ١٩٦٩ . ص ٥١ .

(٣) محمود سامي البارودي : ديوان البارودي ، تحقيق وشرح علي الجارم ومحمد شفيق معروف . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧١ . ج ٢ ، ص ١٥١ .

« ماذا في كتابات المنفلوطي مما يستحق أن يعدّ من أجله كاتباً وأديباً ، إلا إذا كان الأدب كله عبثاً في عبث لا طائل تحته ؟ سمعتُ بعض السخفاء من شيوخنا المائقين ، يقول : « إن في أسلوبه حلاوة . » ولو أنه قال « نعومة » لكان أقرب إلى الصواب ، ولو قال « أنوثة » لأصاب المحزّ . وهذا كلام يكاد يعدّه من لا عهد له بغير كلام المقلّدين من الألفاظ والأحاجي ... »

ويرى مرة أخرى : « أنه متكلف متعمّل يتصنع العاطفة كما يتصنّع العبارة عنها . »

كما يأخذ عليه قدرًا من التساهل في استعمال الألفاظ وكثرة استخدام المفعول المطلق ، والنعت ، والحال ، وغير ذلك مما يعدّه النحاة من « مكملات الجملة » ، وليس من أركانها الأساسية . ويعلّق المازني على ذلك قائلاً : « كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فإن العالم أغنى في باب الأدب من أن يحتمل هذا الحشو ويصير عليه ... لكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطي ؛ لأن اللغة عنده ليست إلا زينة يعرضها ، وحلي يُخيّل بها ، لا أداة لنقل معنى أو تصوير إحساس أو رسم فكرة ... »^(١)

وإذا كان المازني ناقدًا يقف من المنفلوطي وأسلوبه موقفًا معاديًا ، فإن هناك عشرات من النقاد وآلاف من القراء كانوا - ولا يزالون - معجبين بالرجل وأدبه . « والواقع أن الأسباب التي اعتمد عليها المازني في هجومه على المنفلوطي ، هي نفسها السّر في إعجاب القراء به . فالإغراق في العاطفية المسرفة يتلاءم مع إحساس القارئ المفتقر إلى الثقافة الجادة ، التي تجعله يحسّ بالحياة إحساسًا عميقًا ، يستمد جذوره من تجربة الحياة نفسها ، كما أن أسلوبه الكلاسي جعله شديد القرب والاتصاف بالقراء المتصلّين بالثقافة العربية ، ومنحه بينهم مكانة لم يصل إليها غيره من المؤلفين أو المترجمين ... »^(٢)

* * *

٤- المقالة القصصية

ذكرنا من قبل أننا نعدّ كتاب « العبرات » مكملًا لكتاب « النظرات » ، وعلى هذا فإنه يعدّ الجزء الرابع منه ؛ وإذا كان كتاب « العبرات » يشتمل على ما أسماه المؤلف « مجموعة روايات قصيرة بعضها موضوع أي مؤلف (وهو أربع قصص) وبعضها مترجم (والصفة الأدق هي معرّب) ؛ لأن الترجمة تعني الأمانة في نقل النصّ من لغة إلى أخرى ، أما التعريب فيطلب بالضرورة قدرًا من التصرف في نقل النصّ (وهو يضمّ خمس قصص) .

ونحن لا نقيم وزنًا كبيرًا لاستخدام المؤلف لمصطلح « رواية قصيرة » ، وهو يعني به « قصة قصيرة » ؛ لأن « المعيار الفني » الذي كان يفرّق به معظم أدباء عصره بين الرواية الطويلة والقصة القصيرة ، هو

(١) إبراهيم المازني وعباس محمود العقاد : الديوان في الأدب والنقد . ط ٣ القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧٢ . ج ٢ ، ص ٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٤ ، ١٠٦ .

(٢) عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة . ط ٤ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ . ص ١٨٦ .

الحجم الكمي لعدد الصفحات^(١). ولكن الحجم فقط حدٌ تحكيمي أو افتراضي ؛ لأن المعيار الفني للتفريق بينهما ، يقوم على طريقة التناول وطبيعة التصوير . فالرواية تصور حياة مجموعة من الشخصيات في فترة طويلة ، وهي تهتم بتصوير حياة أولئك الشخصيات تصويراً خارجياً وداخلياً ، في إطار زمان ومكان محددين ؛ ومن هنا تمتلك الرواية قدرة هائلة على الوصف والتحليل والتصوير الشامل ؛ وهذا ما يتيح لكاتبها فرصة واسعة لتقديم وجهة نظره - من خلال شخصياته - في أمور كثيرة مثل التاريخ والسياسة والمجتمع والاقتصاد وحياة الأسر وعلاقات الأفراد ، والتعبير عن عاطفة الحب وغيرها من القضايا الذاتية . لذلك يصبح من الصعب تحديد شكل خاص للرواية ، أو موضوعات أثيرة لديها ، فالروائي العظيم فيه الكثير من سمات المؤرخ السياسي ، وعالم الاقتصاد ، وباحث الاجتماع ، والمحلل النفسي ، والمعلم التربوي ، بل إنه يحمل قدرًا من سماحة الأب ، وحنان الأم ، وعاطفة المحب ، وتحمل خادماً البيت ، وحارس المكان ، ومنظم الوقت . إنه - الروائي - مثل « المايسترو » الذي يقود مجموعة مختلفة من الموسيقيين (الشخصيات) يعزف كل واحد منهم بألة خاصة ، تصدر إيقاعاً مختلفاً (لأن لكل منهم دوراً متميزاً عن غيره) . ورغم اختلاف آلات العزف ، فإن على قائد الأوركسترا « المايسترو » أن يكون اللحن في مجمله منسجماً ، لا نشاز فيه . وهذا يعني أن شكل الرواية يشبه - إلى حد غير قليل - الوعاء ، الذي يمكن أن تصب فيه مواد مختلفة . ويعبر « أوكونور » عن ذلك بقوله : « إن الرواية لها شكل جوهري ، هو الشكل الذي نراه في الحياة ، شكل التطور الزمني للشخصية أو الحدث ، في حين أن كاتب القصة القصيرة لا يعرف شيئاً اسمه الشكل الجوهري ، فهو لا يطمح في تصوير الحياة الإنسانية في مجموعها ، بل إن عليه دائماً أن يختار نقطة ما ، يتناول الحياة من زاويتها .^(٢) »

وعلى هذا فإن أهم ما يميز القصة القصيرة ، غير الحجم ، هو أنها : « تجربة أدبية تعبر - بالنثر - عن لحظة في حياة إنسان ، فهي إذاً فن يقوم على التركيز والتكثيف في وصف لحظة واحدة . وهذه اللحظة قد تمتدّ زمنياً لساعات أو أيام أو أسبوع ، أو ربما شهر أو أكثر ، غير أن القاص لا يهتم فيها بالتفاصيل ، التي يهتم بها الروائي ، لكنه يمضي قُدماً من أجل تعميق اللحظة التي يصورها ، لكي تعطي إيحاء مركّزاً حول ما تدل عليه .^(٣) »

بناءً على ما سبق يبدو الفارق الفني شاسعاً بين نوعين أدبيين من جنس واحد ، هما الرواية novel والقصة القصيرة short story ، فالرواية تصوّر (حياة شاملة) ، وتترك لدى قارئها انطباعات وتأثيرات وتفسيرات مختلفة . أما القصة القصيرة التي تصوّر (لحظة) في حياة شخصية مأزومة ، فإنها يجب أن تترك تأثيراً خاصاً أو وحدة انطباع ، نتيجة الاقتصاد والتحدّد في الوصف والتصوير ، من هنا تتسم القصة القصيرة بتطابق تام بين المضمون والشكل .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى ما كنّا نناقشه من أن كتاب «العبرات» مكمل لكتاب «النظرات» ،

(١) راجع في مجال التفريق بين القصة القصيرة والرواية :

- شكري عياد : فن القصة القصيرة في مصر . ط٢ القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٧٩ . ص ٣١-٥٩ .

- طه وادي : دراسات في نقد الرواية . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ . ص ١٧-٢٥ .

(٢) شكري عياد : فن القصة القصيرة في مصر ، ص ٤٧ .

(٣) طه وادي : دراسات في نقد الرواية ، ص ٢٢ .

ولم إلى أن الكاتب - مثل معظم أدباء عصره - لم يكن على وعي كامل بما بين الرواية والقصة القصيرة من فروق فنية . ونضيف إلى ذلك أن الروايات أو القصص التي تشتمل عليها « العبرات » - مؤلفة ومعربة - توجد نظائر وأشباه لها كثيراً في الأجزاء الثلاثة للـ « نظرات » - ناهيك عن أن بعضها نفسه مكرر بنصه وعنوانه ، ولا سيما في الجزء الثالث . وما نريد أن نصل إليه الآن هو أن هناك مجموعة من النصوص لا نريد تحديد نوعها الآن - ذات ملامح تعبيرية وفنية ووظيفية متقاربة إلى حد كبير ، وهذه النصوص كان الكاتب يعدّها « مقالة » مرة ، ويعدّها أخرى « قصة مؤلفة » ، وثالثة « قصة مترجمة » ، ورابعة - فيما نرى نحن - يمكن أن تعدّها « صورة قصصية » أو « وصف حادثة » أو « خبراً قصصياً » . وهذه النصوص المختلفة تجمع بين سمات نوعين مختلفين من الإبداع والكتابة ، هما المقالة والقصة .

ومن المعروف أن « المقالة » نوع من الكتابة ، يناقش قضية اجتماعية بشكل واضح ومباشر ، وهي قطعة نثرية محدودة الطول ، تكتب بطريقة أقرب إلى العفوية والتلقائية ، خاصة إذا كانت مقالة أدبية تعبر عن وجهة نظر كاتبها ، وليست مقالة علمية أو موضوعية .

وإذا كانت المقالة تناقش قضية اجتماعية بأسلوب عفوي مباشر ، فإن القصة تصوّر - تجربة إنسانية تصويراً فنياً ، يعتمد على الرمز والتلميح دون التصريح ؛ لأن المباشرة تُزهِق روح الفن .

وعلى هذا فإن هناك مجموعة كبيرة من النصوص في تراث المنفلوطي المقالّي والقصصيّ ، والمؤلف والمترجم ، يمكن أن نحدد جنسها الأدبي على أساس أنها نصوص في منزلة بين النوعين : المقالة والقصة ؛ ولذا فإنها تقع في دائرة مصطلح « المقالة القصصية » ؛ فماذا نعني بهذا المصطلح ؟

« كثيراً ما يذكر اصطلاح « المقالة القصصية » على أساس أنه مرادف للـ « صورة القصصية » ، ولكننا في الواقع نبتين شكلين أدبيين متميزين : أحدهما ، وهو الصورة القصصية ، يماثل شكل القصة القصيرة في كونه تعبيراً موضوعياً يعتمد على رسم الشخصية والحدث ، وإن كان يرسمها بطريقة وصفية غير درامية ، ويبقيها أقرب إلى دائرة الملاحظة والتأمل منها إلى دائرة الانطباع .

« أما الشكل الثاني ، وهو المقالة القصصية ، فهو في أهم خصائصه نوع من المقالة ، لكونه تعبيراً مباشراً عن فكر كاتبه ، لكنه يتميز عن أنواع المقالة الكثيرة الأخرى بخاصيتين : الأولى أنه أميل إلى الذاتية ؛ فكاتبه يطلق العنان لخواطره ومشاعره ، كأنه شاعر ينظم قصيدة غنائية ، والثانية أنه يمزج التعبير عن الخواطر والمشاعر بالسرد والوصف ؛ فيحدث في الأسلوب ضرباً من التنوع ، ويخفف من الطابع الذاتي الذي يغلب على هذا اللون من المقالات . والتعبير البياني في هذا الضرب من المقالات يحتل المكان الأول قبل التعبير من خلال الأحداث ، أو من خلال الشخصيات .^(١) »

وبناءً على ما سبق يمكن القول بأن النصوص التي يشتمل عليها كتابا « النظرات » و « العبرات » ، تنقسم إلى نوعين أدبيين متقاربين إلى حد ما في السمات الأسلوبية للتعبير اللغوي ، وهما :

أ - المقالة الأدبية .

ب - المقالة القصصية .

وإذا كان هذان النوعان متقاربين في الأسلوب ، فإنهما متطابقان إلى حدٍّ ما في الوظيفة الإصلاحيّة التي يهدفان إليها ، والتي غالباً ما يصرّح بها المنفلوطي في ثنايا المقالة ، أو بين عناصر المقالة القصصية ، فهو على سبيل المثال يعظ من لا يؤمنون بالحبّ ، حتى لو كانوا من رجال الدين ، في قصة « الشهداء » المعربة ، بقوله :

« إن كنتم تريدون أن تعيش على وجه الأرض بلا حبّ ، فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفّاقة ، ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون ، فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حبّ ، ما دامت لنا أفئدة خافقة . »^(١)

والمنفلوطي ليس وحده الذي كتب المقالة القصصية ، وإنما كان يشاركه في إبداعها بعض الكتاب ، أمثال إبراهيم المازني في (صندوق الدنيا ، قبض الريح ، ع الماضي ، خيوط العنكبوت ، سبيل حياة ، أحاديث المازني) وطه حسين في (المعذبون في الأرض ، جنة الشوك) ومحمد حسين هيكل في (ثورة الأدب ، في أوقات الفراغ) وعبد العزيز البشري في كتابه (في المرأة) .

ومعنى ذلك أن هذا النوع من الكتابة الأدبية ، وهو المقالة القصصية ، كان يندع فيه بعض كتّاب هذه المرحلة ، وليس المنفلوطي وحده ، وذلك ما يؤكد حاجة الواقع الاجتماعي والثقافي إلى مثل هذا النوع من الكتابة الإنشائية - القصصية ، التي وجد فيها أولئك الكتّاب وسيلة أدبية صالحة للتعبير عن آرائهم المختلفة في إصلاح المجتمع ، لا سيما إذا ما أدركنا أن الجمهور الذي كتب له جمهور يمثل معظمه الطبقة الوسطى ، والمقالة القصصية قادرة على التأثير فيهم ؛ فهي تحمل من المقالة الوضوح والمباشرة وجمال التعبير ، ومن القصة التشويق والإثارة وقوة التأثير .

هذا الجمهور هم قراء المنفلوطي وعشاق أدبه ، الذين وجدوا فيما كتب تعبيراً صادقاً عن أشواقهم الروحية وقيمهم الأخلاقية ، التي لا يملكون على المستوى الشعري المثالي سواها ؛ إذ ليس ثمة شيء يمكن أن يتمسكوا به سوى الفضيلة والشرف ، بعد أن ضاعت منهم - دون أي أمل في الوصول - مصادر الثروة ومناصب الوجاهة . وقد اكتشف كتّابهم - بذكاء ووعي - أن المقالة القصصية هي أقرب سبيل يمكن أن يصلوا به إلى جمهورهم . وهذا هو سرُّ وجود المقالة القصصية عند المنفلوطي وغيره من كتّاب المرحلة وما بعدها ؛ بل إنه سرُّ شهرة المنفلوطي إلى اليوم .

* * *

٥- المنفلوطي معرباً للرواية

عُرب المنفلوطي - بطريقته الخاصة - أربعة أعمال أدبية ، خرجت في شكل روايات ، ولافت نجاحاً جماهيرياً واسعاً على امتداد الوطن العربي كله حتى اليوم ، وهي :

١- ماجدولين ، أو تحت ظلال الزيزفون (١٩١٧)

رواية ألفها الكاتب الفرنسي ألفونس كار Alphonse Karr بعنوان « Sous les Tilleuls » ، وقد

(١) المنفلوطي : العبرات . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر-لوجمان ، ١٩٩١ . ص ٤٨ .

عربها المنفلوطي عن ترجمة صديق له ، يدعى محمد فؤاد كمال . ويرتكز مضمونها على محورين : أحدهما عاطفي ، والثاني اجتماعي . أما الأول فيمثل صراعاً بين الحب الحقيقي الطاهر والحب الزائف ، والثاني يمثل صراعاً بين الفقر والغنى ، ويترتب عليه أن السعادة ليست في الغنى والجاه والمظهر ، لكنها في العمل والكفاح والإخلاص للقيم . وبطل الرواية « استيفن » شاب يرى السعادة في العمل والكفاح والحب الطاهر ، ويعيش قصة حبّ عفيف مع « ماجدولين » الجميلة ، لكن والدها « مولر » رفض زواجها به بسبب فقره ، رغم علمه بأن هناك قصة حبّ بينهما . وتتزوج الفتاة الغريبة من « إدوارد » الغني ، كما أراد أبوها ، لكن ذلك الزوج الغني سرعان ما فقد ماله كله ، فمات منتحراً . وحاولت ماجدولين أن تعود إلى حبيبها ، بعد أن تحسنت حالته المادية ، لكن كبرياء أبيه عليه ذلك فرفض ، مما دفع الحبيبة إلى أن تنتحر غرقاً . (الموت والقتل والانتحار كثير جداً في مثل هذا الأدب الميلوتراجيدي) . وقد حاول الحبيب إنقاذها لكنه لم يستطع ، فمات حزناً عليها (هكذا !) ويعلّق المنفلوطي على ذلك بقوله : « كذلك انتهت حياة هذا الرجل العظيم الذي قتل الحب جسده ، ولكنه أحيأ نفسه ، وسجلها في سجل النفوس الخالدات » .^(١)

٢- في سبيل التاج (١٩٢٠)

هذه الرواية كانت في أصلها مسرحية بعنوان « Pour la Couronne » كتبها الأديب الفرنسي فرانسوا كوبيه François Coppée سنة ١٨٩٥ . وبطلها ، كما يذكر المترجم حسن بك الشريف في المقدمة : « فتى تعارضت في نفسه عاطفتان قويتان : حبّ الأسرة وحبّ الوطن ، فضحّي بالأولى فداء للثانية ، ثم ضحّي بحياته فداء لشرف الأسرة » .^(٢)

ولا شك أن المضمون الوطني للرواية ، هو الذي جعله يهديها إلى سعد زغلول ، الذي وصفه بالشجاعة والثبات والعزيمة والغيرة والإخلاص والتضحية ، وهي نفسها صفات « قسطنطين » ، بطل الرواية ، فقد كانا شهيدتين فداء لوطنيهما ؛ لذلك تمنى أن تكون هذه الرواية مؤسدة لروح كل منهما . ويتلخص مضمون الرواية في أن « قسطنطين » ابن القائد « برانكومير » يكتشف أن زوجة أبيه قد حرّضت أباه على خيانة وطنه ، حتى تقبض ثمن الخيانة ، وحتى لا يرث الابن قسطنطين - من زوجة غيرها - حكم البلاد عندما يصبح والده حاكماً لبلاد البلقان ، خاصة بعد إنقاذه لفتاة فقيرة من يد الأتراك ، وجه لها رغم ما بينهما من فوارق طبقيّة ، ورغم رفض أبيه وزوجته لهذا الحب غير المتكافئ ؛ وهنا يردّ المنفلوطي مدافعاً على لسان بطله : « إني لا أعرف شرفاً غير شرف النفس ، ولا نسباً غير نسب الفضيلة » .^(٣)

و يواجه الابن أباه ساعة تنفيذ خطة الخيانة ، ويتم - تحت جنح الظلام - صراع حاد بين الابن الوطني والأب الخائن ، حيث يدافع الابن عن أرض الوطن وشرف الأسرة ، بينما يقاتل الأب من أجل العرش ، ومن أجل إرضاء زوجته . وينتهي هذا الصراع العائلي بأن يقتل الابن أباه فداء للوطن ، ولكن الزوجة الشريرة أشاعت بأن زوجها قتل في المعركة ، بينما كان ابنه الخائن يتفاوض مع

(١) للمنفلوطي : ماجدولين . بيروت ، دار الثقافة ، د.ت. ص ٢٢٦ .

(٢) للمنفلوطي : في سبيل التاج . بيروت ، دار الثقافة ، د.ت. ص ١١ .

(٣) للصدر السابق ، ص ٣٠ .

الجاسوس التركي . وقد حُكِمَ على الابن بالإعدام ؛ فقبل قدره بشجاعة . وهكذا فإن « قسطنطين » قتل أباه من أجل الوطن ، ثم رضي أن يُقتل فداءً لأبيه وسمعة أسرته . وهنا برزت الحبيبة الوفية الفقيرة « ميلترا » لحظة سخط الجماهير عليه ، وطلبت منه أن يعترف بالحقيقة ، فأبى وأصرَّ على التضحية ، فأخرجت الخنجر من بين ملابسها ، وطعنته ثم طعنت نفسها .

٣- الشاعر ، أو سيرانو دي برجراك (١٩٢١)

هذه الرواية - مثل « في سبيل التاج » كانت في الأصل مسرحية - ألفها الأديب الفرنسي إدمون روستان Edmond Rostand عام ١٨٩٨ بعنوان « Cyrano de Bergerac » . وقد ترجمها عن الأصل الفرنسي صديق المنفلوطي ، عبد السلام الجندي ، الذي طلب منه أن يهذب أسلوبها ، فحوّلها المنفلوطي من القالب التمثيلي إلى القصصي ، « ليستطيع القارئ أن يراها على صفحات القرطاس ، كما يستطيع المشاهد أن يراها على مسرح التمثيل »^(١)

وكما أهدى المنفلوطي الرواية الوطنية « في سبيل التاج » إلى سعد زغلول ، أهدى هذه الرواية التي يقوم بدور البطولة فيها « شاعر » إلى الشعراء ؛ لأنه يرى أن النفس الشعرية هي أجمل شيء في العالم ، وأبدع صورة رسمتها ريشة المصور الأعظم في لوح الكائنات .

يدور مضمون هذه الرواية - التي نشرت بعد سنة واحدة من نشر رواية « في سبيل التاج » ، مما يُوحى بإقبال الجماهير عليها من ناحية ، ومن ناحية أخرى يدلُّ على تفرُّغ المنفلوطي لهذه الأعمال وحرصه على الكتابة فيها - حول الحبِّ العفيف الصامت ، الذي يكنه الشاعر/الفارس « سيرانو دي برجراك » لابنة عمه « روكسان » الجميلة المرفهة . وكان من الممكن أن تنمو قصة الحبِّ بينهما لولا دمامة وجهه وكبر أنفه : « فكأن أنفه سبب شقائه في جهتين ، أنه وقف عقبة بينه وبين غرامه ، وأنه كان المنفذ العظيم الذي ينحدر منه أعداؤه وخصومه إلى السخرية والتهكم عليه ، وهو لا يطيق ذلك ولا يحتمله »^(٢)

وقد أحبت « روكسان » الضابط « كرستيان » ، لأنه على نقيض ابن عمها ؛ يملك حسن الوجه وجمال المنظر ، ومع ذلك فقد كان بليد المشاعر ، عاجزاً عن التعبير ، وكان زميلاً لابن العمِّ في الجيش . ومن العجيب أن « سيرانو » يقبل أن يقف « كرستيان » صامتاً أمام « روكسان » ، بينما يقوم هو بإلقاء عبارات الحبِّ والهيام . وقد أجاد تمثيل الدور إلى أن تمَّ الزواج ، بعد أن باركه ابن العم نفسه إكراماً للمحبة ، التي يكفيه منها الحبُّ الصامت العفيف . ورغم أن هذا الزواج غير قائم على الحبِّ والتفاهم ، إلا أن « سيرانو » الشاعر/الفارس والمحِبُّ النبيل آثر ألا يتزوج من رفضته في يوم من الأيام ، وظل كلاهما يبكي حبَّ المحروم وحظه التَّعَس .

٤- الفضيلة ، أو پول وفرجينى (١٩٢٣)

وهي في الأصل رواية فرنسية للكاتب الفرنسي برناردين دي سان بيير Bernardin de Saint-Pierre بعنوان « Paul et Virginie » وقد اعتمد كاتبنا في تعريبها على ترجمة الشاعر الأديب المترجم محمد

(١) المنفلوطي : الشاعر . بيروت ، دار الثقافة ، دت. ص ٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ .

المنفلوطي معرّباً للرواية ١٧

عثمان جلال سنة ١٨٧٢ بعنوان « الأمانى والمنة في حديث قبول و ورد جنة » . وربما استعان أيضاً بالترجمة الثانية التي تمت على يد الكاتب المسرحي فرح أنطون ، وهذا ظن لا نملك له دليلاً قوياً سوى أن هذه الترجمة الثانية ، وهي بعنوان « بولس وفرجيني » قد نشرت في القاهرة ، قبل أن يقوم المنفلوطي بعمله هذا بعدة سنوات . ويبدو أن هذه الرواية « سعيدة الحظ » فقد ترجمها بعد ذلك أديب ثالث هو إلياس أبو شبكة ، ونشرها سنة ١٩٣٣ بعنوان « بول وفرجيني » .

وهذه الرواية تدعو إلى نفس الفضائل التي كان المنفلوطي حريصاً على الدعوة إليها في كل ما كتب ، وهو يعلن ذلك في الإهداء قائلاً :

« يعجبني من الفتى الشجاعة والإقدام ، ومن الفتاة الأدب والحياء ؛ لأن شجاعة الفتى ملاك أخلاقه كلها ؛ ولأن حياء الفتاة جمالها الذي لا جمال لها سواه . فأنا أهدي هذه الرواية إلى فتیان مصر وفتياتها ، ليستفيد كل من فريقيهما الصفة التي أحب أن أراها فيه ، وليضعها حياتهما المستقبلية على أساس الفضيلة ، كما وضعها بول وفرجيني » .

وأحداث هذه الرواية تقع في جزيرة موريشيس ، وهي قرية من جزيرة مدغشقر في القرن الإفريقي ؛ هذا من حيث المكان ، أما من حيث الزمان الذي وقعت فيه فهو سنة ١٧٢٥ . وهذا تأكيد لما يقوله المترجم - على لسان المؤلف - من أن حوادثها صحيحة ، وليس فيها من الخيال إلا النسق والترتيب . أما مسيرة الأحداث فتدور حول أرملة تقيتاً مصادفة في الجزيرة ، وهما مرغريت وهيلين ، فصارتا صديقتين ، ونشأ ولدهما بول وفرجيني أخوين ، ثم حبيبتين بعد أن بلغا سن الصبا والشباب ، وبعد استطرادات كثيرة ترحل فرجيني إلى عمة ثرية لها في باريس ، وهنا تسنح للكاتب فرصة للتعبير عن توهج العاطفة وحرارة الشوق وحنين الأرواح ولوعة القلوب خلال مدة الرحلة وهي ثلاث سنوات ؛ فكان الرحلة كانت متنفساً للتعبير الوجداني عن الحب . وبينما تصعد بنا الرواية في هذا الاتجاه إذ بها تهبط بنا إلى سطح المأساة بعودة فرجيني . فقد اشتدت العواصف بالسفينة وهي على بُعد قريب من الجزيرة . وتموت فرجيني غرقاً ، ويموت بعدها بول حزناً وغماً ؛ كأنما الروحان مرتبطان بمصير قدرتي واحد وخطي روحي واحد ؛ فإما الحياة سوياً ، وإما الموت سوياً . فمثل هذا الموت عفة وشفقاً وتضحية أفضل ألف مرة من الحياة ! (الموت والانتحار كثير جداً في روايات المنفلوطي وكتابات ، حيث يضع القدر نهاية لأبطال لا يصنعون لأنفسهم شيئاً !)

والمنفلوطي يختم الرواية بوداع بالك من الراوي للشهيدتين بول وفرجيني :

« سلام عليك أيها الولد الطيب الكريم ، الذي نشأ في تربة ساذجة بسيطة ، فنشأ ساذجاً بسيطاً ، لا ينال الناس بشر ولا يعتقد في الناس شراً ، ولا يضمر في نفسه إلا الوفاء والإخلاص ، حتى لكلبه وشاته ، والكوخ الذي يؤويه ، والظل الذي يفيء إليه !

« سلام عليك أيها الفتاة الشريفة الطاهرة ، التي صيغ قلبها من الرحمة والشفقة ، فبكت البائس والفقير ، واليتيم الذي لا عائل له ، والأرملة التي لا معين لها ، بكاء صادقاً لا تسمعه إلا أذن الليل ، ولا ترعه إلا عيون الكواكب ، ولم يكن صدقها في أدبها وحيائها بأقل من صدقها في رحمتها وإحسانها ، ففرت من قارة إلى أخرى حياء من نفسها ، ثم فرت من العالم بأجمعه ضناً

بجسمها أن تلمسه يدٌ منقذها !»^(١)

ويبدو أن المنفلوطي نفسه قد تأثر قبل غيره بما كتب ؛ لذلك نجد بعد أن تنتهي الرواية ينظم قصيدة حولها ، يبدأها بقوله (٢) :

يا بني القفر سلام عاطر من بني الدنيا عليكم وثناء
* * *

٦- الفضيلة نموذجاً

حتى تتضح القيمة الحقيقية لأدب المنفلوطي بصفة عامة ، ورواياته الأربع المعرّبة بصفة خاصة ، يجب أن نتحمّل بوعي البُعد التاريخي لها ، وهو العقدان الثاني والثالث من القرن العشرين وما تلاهما. وهذه الأعمال في ذلك الزمان كانت فتوحات أدبية يلتفتها القراء من المحيط إلى الخليج ، فيحفظون كثيراً من أجزائها عن ظهر قلب ، ويذرفون العبرات مع مآسيها العاطفية والاجتماعية والوطنية . وكم من عيونٍ بكتْ ، وقلوبٌ خفقت ، وعبارات حُفظت ، تأثراً لما أصاب أبطال رواياته ، أو لما حدث من تفاعل مع معاني أدبه ومقالاته .

ومع أن المنفلوطي كان بالنسبة للروايات وبعض القصص مترجماً ، أو معرباً ، إلا أن ترجمته كانت ترجمة خلاقة حيّة مؤثرة ، بل إننا نظن ظناً - لا يغني عن الحق شيئاً - وهو أن معظم ترجمات المنفلوطي ، لم تنل في تاريخ أدبها وبين جمهورها وفي لغتها الأم (الفرنسية) مثل ما نالته من شهرة وانتشار على يد المنفلوطي العظيم في الوطن العربي !

وسوف نتوقف عند رواية « الفضيلة » في محاولة نقدية لاكتشاف أهم سمات الرواية ، كما قدّمها المنفلوطي بأسلوبه الخاص إلى جمهوره العربي .

إن هذه الروايات الأربع منقولة - حقيقة - عن أصل فرنسي ، غير أن المنفلوطي خلقها خلقاً فنياً جديداً ، يتناسب مع طبيعة الجمهور ، الذي كان يكتب له . المنفلوطي - إذاً - معربٌ نال شهرة لم ينلها مؤلف خلال النصف الأول من القرن العشرين ، باستثناء أحمد شوقي أمير الشعراء ؛ أي أن أهم أدبيّين نالا شهرة جماهيرية واسعة هما : شوقي الشاعر ، والمنفلوطي الكاتب . وبالطبع فإن هذه الشهرة الجماهيرية ، كما هي الحال في أمثلة أدبية كثيرة ، ليست لها كبير علاقة بالقيمة الفنية لتراث بعض المشاهير .

وفي تحليلنا للرواية لن نقف عند كل عناصر البناء ، وإنما عند أهم تلك العناصر ، وهي : الحدث والشخصية والراوي .

بناء الحدث

لعل أهم سمة يمكن أن نكتشفها للوهلة الأولى بالنسبة لبناء الحدث الروائي والقصصي في تراث المنفلوطي المؤلف والمترجم ، هو أنه بناء « هش » ، يفقد منطق السببية ؛ فالحدث يبدأ في الغالب

(١) المنفلوطي : الفضيلة . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لوجمان ، ١٩٩١ . ص ١٨٥ . (٢) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

- مثل كثير من الحكايات الشعبية - بداية مفتعلة ، ثم يتطور تطوراً عشوائياً بلا منطق أو فلسفة ، وإنما هناك مصادفة قدرية عارضة ، ومبالغ فيها في أغلب الأحيان . وعلى هذا نجد أحداث الرواية مفعمة بالمصائب والأحزان ، كأنما القدر قد كتب على من فيها اللعنة ؛ من هنا تتحرك مسيرة الحدث من كارثة إلى أخرى ، دون سبب مفهوم ، أو منطق معقول .

والحدث الروائي والقصصي عنده يدور في إطار المشكلات العائلية والأزمات الفردية ، ومن هنا يدور في فراغ بعيداً عن حركة الحياة والأحياء ، حيث نجد أن الأحداث ، في رواية « الفضيلة » ، تدور في جزيرة بعيدة ، كأنما يريد الكاتب أن يقطع كل الأواصر ، التي تربط بين أحداثه وشخصياته والحياة من حولهم . كما أن من يعيشون معهم من شخصيات ثانوية غرباء عنهم ؛ مما يساعد كثيراً على قطع دابر أية علاقة بين الحدث الروائي والإطار الاجتماعي للواقع الذي يدور فيه ، وهذا قريب مما يحدث في الحكايات الشعبية ، حيث يدور الحدث في مكان « هلامي » لا ملامح له ، ولا يؤثر في الشخصيات ولا يؤثر فيه ؛ ولذلك يسهل فقدان منطق السببية ، وتصبح أية حركة أو انتقال مبالغ فيها مقبولة بالنسبة لحدث يتم في « لا مكان » ، وأيضاً في حالة عدم انعدام وعي شبه مطلق بالزمان . وما لا ريب فيه أن حالة عدم الوعي - فنياً - بالزمان والمكان ، تؤدي إلى المسيرة العشوائية وغير المبررة بالنسبة للحدث والشخصيات . إن الشخصيات في الرواية - كما هي في الواقع - إذا لم يكن ثمة قضية تربطهم بالزمان والمكان ، فلن تكون هناك مشكلة جوهرية يحركون بها مسيرة الحدث من أجل صياغة فنية جيدة له . فالحدث (المتصالح) مع الزمان والمكان حدث يقوم على بناء هش ومنطق ساذج ؛ لأنه في الغالب ينقل الصراع من الأرض ومن عالم البشر إلى السماء ، وإلى مشيئة القدر ؛ من هنا يصبح الحدث والشخصية كما يقول المنفلوطي : « مثل ريشة تقذف بها الريح في يوم عاصف ».

ويساعد على غياب المنطق كثيراً في بناء الحدث عند المنفلوطي ، اعتماده - الواعي أو غير الواعي - على شخصية الراوي . وهذا الراوي ، الذي يحكي ، يُوهم القارئ بأنه يروي له خبراً أو يسرد حادثة ؛ وعلى هذا فإنه غير مطالب بالصدق الفني ؛ لأن الراوي سبق أن أوهم القارئ بأنه ينقل خبراً سمعه أو شاهده ، أو ربما شارك في صنعه . ولا شك أن اعتماد الكاتب هذا الاعتماد المطلق على شخصية الراوي ، يوهم بأنه غير مطالب أمام قارئه بمنطق الصدق الفني لصياغة الحدث ، كما يبرر تدخل المؤلف كثيراً ليقول لقارئه ما يريد مباشرة ، سواء في أثناء السرد أو الحوار ، أو في خلال تشكيله للحدث أو تصويره للشخصية .

وإذا ما حاولنا أن نطبق هذا الفهم على رواية « الفضيلة » ، نجد أن الحدث يبدأ من نقطة غير مقنعة فنياً ، حيث تلتقي السيدتان « مرغريت » و « هيلين » - « مدام دي لاتور » في جزيرة مُنعزلة ، وهذا البعد عن العالم يذكّرنا بأحداث رواية « حي ابن يقظان » للكاتب الأندلسي أبو بكر بن طفيل (٥٨١هـ / ١١٨٦م) أو رواية « روبنسون كروزو » للكاتب الإنجليزي دانيال ديفو (١٧١٩) . وتشاء المقادير أن يكون لإحدهما ولد والأخرى بنت ، حتى تنمو قصة الحب العفيف بينهما في أحضان الطبيعة العذراء ، فكان الحب الطاهر لا ينشأ إلا في جو نقى صافٍ ؛ لأن العودة إلى الطبيعة معناها

العودة إلى البكارة والطهارة وهذه فكرة رومانسية خالصة .

وبعد أن ينمو الحب في هدوء وتلقائية بين أحضان الطبيعة ، تظهر مصادفة قدرية أخرى تفرق بين المحبين ؛ إذ تطالب عمة فرجيني بسفرها إلى باريس ، حتى تعلمها وتعوضها عن فقد الأب ، وتغيب هناك ثلاث سنوات (طبعاً الزمن لا قيمة له في مثل تلك الروايات العاطفية ، وإنما هو مجرد رقم يوحي بطول مدة الفراق بين المحبين) . وهنا يجد الكاتب الفرصة سانحة للتعبير عن تباريح الشوق ، ومكابدات العشق ، كأنه شاعر ينظم قصيدة ، من ذلك ما قاله پول لفرجيني قبيل السفر : « وماذا أصنع أنا من بعدك أيتها الغادرة القاسية ، إذا ظللت أفتش عنك في كوخك ومخدعك ، وتحت ظلال الأشجار ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفي جميع الأماكن التي أعلم أنك تأوين إليها ؛ لأجلس إليك ساعة ، أتمتع فيها بلذة حديثك ، وحلاوة سمرك ، فلا أراك في واحد منها ؟

» ومن لي بمن يستقبلني حينما أعود من المزرعة تعباً لاغياً ، فيتسم تلك الابتسامة العذبة الجميلة ، التي تذهب بجميع أوجاعي وآلامي ؟ ومن ذا الذي يصحبني في هدوء الليل وسكونه إلى شاطئ البحر ، وقد بسط القمر أشعته على أمواجه المتبسطة ، وصبغها بلونه الفضي الجميل ، فيجلس بجانبني على رملة من رماله الميثاء ، فيسمعني تلك الأناشيد الساحرة الخالبة التي تستغرق شعوري وجداني ، وتملك عليّ مداركي وعواظي ، ويخيل إليّ حين أسمعها أنها هابطة من الملأ الأعلى ، وأنها نغمات الحور الحسان في فرايس الجنان ؟

« إنني لا أستطيع أن أعيش من بعدك يا فرجيني ، ولا أستطيع أن أسألك أن تصحبيني معك في سفرك ، فأنت أجل من ذلك شأنًا ، وأعظم خطراً ، ولقد أفضت إليّ أمي اليوم بسر حياتك وسر حياتي ، فعلمت أنك فتاة شريفة جداً ، وأنتي فتى وضيع جداً ، لا أصلح أن أكون أناك لك ، بل لا أصلح أن أكون عشيرك وجليسك . وإنما أسألك أن تأذني لي بركوب السفينة التي تركبونها ؛ لأكون ملاحاً من ملاحها ، أو خادماً من خدمها ؛ فأراك على البعد فأجد في رؤيتك راحتي وسلوتي ، وأعدك وعداً صادقاً لا أعدر فيه ولا أحت ، أنني لا أجالسك ، ولا أدنو منك ، ولا أتصل بك بوجه من الوجوه ، إلا إذا عرض لك خطر من الأخطار ، فإنني أبذل لك في تلك الساعة جميع ما تملك يدي ، وما تملك يدي غير حياتي ، فأبذلها لك طيب النفس عنها .»^(١)

وهذا الحوار الطويل الذي اكتفينا بهذا الجزء منه ، لا يعكس منطقاً ، ولا يوهم بواقعية ، بل أكثر من هذا إنه على مستوى المضمون ، لا يقدم معنى جديداً أو فكرة مفيدة ، وإنما كل ما جاء فيه - أي الحوار - تكرر ورد في الرواية أكثر من مرة ، وفي أكثر من مناسبة . فكل ما جاء هنا لا يقدم جديداً على مستوى الدلالة ، وتفصيل الحدث ، وصياغة الحكمة ، وتبقى الفائدة الوحيدة - لمثل هذا الحوار أو تلك المقطوعات الأدبية - وهي إظهار قدرة الكاتب على التعبير العاطفي والإنشاء المصنوع لإظهار بلاغته الأسلوبية ومهاراته اللغوية .

ولعل أقوى المواقف مبالغاً وزيفاً فنياً ، في مسيرة الحدث ، هو تلك النهاية الملبودرامية والمليوتراجيدية في الوقت نفسه ؛ إذ تهب الرياح والأعاصير ، فجأة ودون مبرر ، في اللحظة التي

(١) الفضيلة . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لوجمان ، ١٩٩١ . ص ١٥٤ .

ظهرت فيها السفينة ، التي تحمل فرجينى عند العودة ، فكان لحظة ظهور الأمل هي نفسها لحظة وأده بالنسبة للحبيب المسكين بول ، ويموت الجيبان بعد صراع عاتٍ وقاسٍ مع القدر ، كأنما ذلك رمز لصراع الفقراء مع قوى يجهلون بها ، لكنها مع هذا لا تأخذها بهم رحمة أو شفقة .

ومعنى هذا ، بعبارة أخرى في مجال تفسير الحدث الروائي ، هو أن الفضيلة والعفة والطهارة وغيرها من الفضائل الخيرة ، لا تحمي الفقراء والمساكين من القوى الضارية التي تسلبهم حياتهم وأمنهم وحبهم . ونظراً لأن هؤلاء البؤساء الفقراء ، الذين كان يكتب عنهم المنفلوطي ولهم ، لا يدركون - بسبب قصور في الوعي المعرفي - حقيقة من يظلمونهم من طغاة السياسة وعتاة الاقتصاد ، لذلك كانوا يظنون أن القدر هو الذي يظلمهم وليس البشر ، وربما كان هذا أحد أسباب نجاح أدب المنفلوطي وانتشاره الواسع ؛ لأنه عرف طبيعة من يكتب إليهم ، فقد كان لا يكتب أدبه للخاصة وإنما : « للفتات الدنيا من الطبقة المتوسطة ، التي أصبحت تكوّن القسم الأكبر من الجمهور القارئ في زمنه . الفئات العليا من الطبقة المتوسطة ، كانت آخذة في التخلّي السريع عن ثقافتها القومية ، واصطناع لغة أجنبية ، في حين أن الطبقات الكادحة من عمال وفلاحين كانت محرومة من التعليم أصلاً . وكانت حياة الطبقة الدنيا مأساة دائمة ، فهم صغار الموظفين في حكومة الاحتلال ، يتجرعون كأس الذل يوماً بيوم من يد المستعمر ، وهم صغار الملاك وصغار التجار ، تسلمهم الامتيازات الأجنبية فرائس سهلة للمرابي الأجنبي . وكانت صفوف هذه الطبقة تزداد بمن ينضم إليها كل حين من حطام الطبقة المتوسطة العليا ، الذين تسربت ثرواتهم يشقى الطرق إلى أيدي الأجانب . لا جرم كانت هذه الطبقة تطلب في وقت واحد من يعظها ومن يكيها ، من يقول لها إن الحياة الدنيا متاع زائل ، وكل شيء سائر إلى فساد ، وإن الشرفاء ذوي القلوب المخلصة والضمائر النقية ، لم تقسم لهم السعادة في هذه الدار الفانية . وحول هذه المعاني دارت معظم كتابات المنفلوطي ^(١) . »

نتهي من كل ما سبق إلى أن بناء الحدث الروائي ، كما شكله المنفلوطي في رواية « الفضيلة » وفي غيرها من أعماله القصصية ، الطويلة والقصيرة ، يذكّر من حيث السداجة الفنية والبساطة المنطقية ببناء الحدث في « الحكاية الشعبية » ، لا من حيث سهولة التشكيل وعفوية ترتيب الأحداث وتطورها فحسب ، وإنما من حيث التيمات أو العناصر التي تقوم عليها الحكاية الشعبية أيضاً . وهذا ما يتضح من التيمات التي حددها الناقد الروسي فلاديمير بروب في مجال تحليله الشكلي لبناء الحكاية ، أو ما أسماه « مورفولوجيا الحكاية » ، حيث حدّد عناصر مختلفة يتشكل منها حدث الحكاية ، ويقوم بها أبطالها الخيرون والشريريون .

وعند مقارنة روايات المنفلوطي بهذه العناصر ؛ نجد أن الكثير منها يتطابق مع التيمات التي حددها بروب لبناء الحكاية الشعبية ، ومع وظائف تلك التيمات المختلفة ^(٢) .

ملامح الشخصية

« يرتبط الحدث بالشخصية في الأعمال القصصية ارتباط العلة بالمعلول ، وعلى هذا فإن الرواية =

(١) شكري عياد : تطور فن القصة القصيرة ، ص ١١٤ .

(٢) لمزيد من التفصيل في هذا المجال يُراجع : فلاديمير بروب : مورفولوجيا الحكاية الخرافية ، ترجمة وتقديم أبو بكر باقادر وأحمد نصر . طبعة النادي الثقافي بجهة ١٩٨٩ . ص ٩٢ وما بعدها .

فعل (حدث) + فاعل (شخصية) . الحدث إذا شيء هلامي إلى أن تشكله الشخصية - بحسب حركتها - نحو مسار محدد ، يهدف إليه الكاتب ^(١) .

وقد شرحنا - من قبل - الطريقة التي يحرك بها المنفلوطي الحدث ، وبقي أن نتعرف على الكيفية التي يصور بها ملامح الشخصية ؛ فمن المعروف أن الكاتب الجيد هو الذي يستطيع أن يخلق شخصيات مقنعة فنيًا ، والإقناع الفني يمكن قياسه بناء على أن الشخصية تعكس سمات « نموذج » بشري مشابه لها في عالم الحقيقة . إن الخيال الفني مهما خلق ، فإنه ضد الوهم والخرافة ، ومن هنا فإنه ليس هناك خيال فني بلا منطق أو حد ، وهو كما يعرفه « كولردج » : « تلك القوة التركيبية السحرية ، التي أفردنا لها لفظة الخيال ، تكشف لنا عن ذاتها في خلق التوازن أو التوفيق بين الصفات المتضادة أو المتعارضة ، بين الإحساس بالجدة والرؤية المباشرة والموضوعات القديمة المألوفة ، بين حالة غير عادية من الانفعال ودرجة عالية من النظام ، بين الحكم المتيقظ أبدًا وضبط النفس المتواصل والانفعال العميق ^(٢) . »

والشخصية الروائية عند المنفلوطي ، مهما اختلف النموذج الإنساني الذي تمثله : غنى أو فقر ، كبرًا في السن أو صغرًا ، رجلاً كان أو امرأة ، شاعرًا أو محاربًا ، خيرًا كان أو شريكًا - (وبالمناسبة فإننا نلاحظ أن الشخصيات الشريرة قليلة جدًا في روايات المنفلوطي ، لسبب بسيط هو أن القدر وحده - في الغالب - عدو البشر) - فإنها جميعًا تشترك في سمة واحدة ، هي (السلبية) الشديدة في التصرف إزاء الأحداث ، بل إن هذه السلبية تبدو سلبية مطلقة ، فلا تستطيع أن تخارب شرًا ، أو تحقق خيرًا . إنها شخصيات خيرة ، طيبة ، مؤمنة ، متطهرة ، ومع ذلك ينتظرها مصير قاتم شديد القسوة .

وهذه الشخصيات - في الغالب - يشل من حركتها « عيب » جسدي أو أخلاقي ليست مسئولة عنه . فسيرانو دي برجرارك في « الشاعر » كامل في كل شيء إلا قبح الوجه وكبر الأنف ، ويول في « الفضيلة » لا يعرف لنفسه أبًا ولا أصلًا ، وقسطنطين في « في سبيل التاج » تموت أمه فتحاربه زوجة أبيه ، واستيفن في « ماجدولين » يملك الكثير من الصفات الحميدة مثل الرغبة في العمل والكفاح والاعتقاد بأن السعادة ليست في الجاه أو الثروة ، لكنه فقير .

إن أبطال روايات المنفلوطي يذكروننا ببطل المسرح اليوناني القديم ، حيث يحمل البطل عيبًا لا ذنب له فيه ، ورغم هذا يكون ذلك العيب سبب سقوطه المدمر .

وقد ترتب على هذا العجز وعدم القدرة على المواجهة والسلبية إزاء الأحداث بالنسبة لمكونات الشخصية ، أن الكاتب لم يكد يهتم بتحديد الوصف الجسدي أو الشكل المادي أو العمر الزمني لها أو وصف ملابسها أو لحظة تناولها الطعام أو الشراب . ولا نجد مع توالي الأحداث أننا نكتشف بعدًا جديدًا يحدد بعض ملامح الشخصية ، بدرجة نستطيع معها القول إن شخصيات المنفلوطي « أبطال » من حيث المساحة التي يحتلونها في عالم الرواية ، لكنهم ظلوا مع ذلك شخصيات « مسطحة » فنيًا ، أي أنه شغل بالكم عن الكيف .

(١) طه وادي : دراسات في نقد الرواية ، ص ٣١ .

(٢) ريتشاردز ، أ . أ . : مبادئ النقد الأدبي ، ترجمة وتقديم مصطفى بلوي ، مراجعة لويس عوض . القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، ١٩٦٣ . ص ٣١٢ .

وفي الحقيقة لم يهتم بأكثر من بيان دورها خلال مسيرة الحدث ، ومعنى هذا أنه لم يستطع أن يقدم الشخصية ، بحيث تكون ناضجة فنياً ، بطريقة تساعد القارئ على تمثيل هيئتها المادية ومكوناتها النفسية ؛ فالمنفلوطي لم يُعِنَ إلا بالوصف الإنشائي لما تقوم به الشخصية أو تفعله ، أما تحديد ملامحها فهذا شيء لم يحاوله ولم يخطر له على بال . ونحن إذ نطلب منه ذلك ، فإننا نريد منه شيئاً فوق طاقته الفنية ، بل وطاقة بعض كتّاب الرواية الحقيقيين في عصره أمثال محمد حسين هيكل وإبراهيم عبد القادر المازني وجرجي زيدان .

ومن أمثلة التقديم المسطح للشخصية ما قاله في وصف مدام دي لاتور ، أم فرجيني : « وهي فتاة نبيلة ، جميلة الصورة ، كريمة الخلق ، طيبة العنصر ^(١) » . ويقول مرة أخرى في معرض تقديم شخصية مرغريت ، أم پول : « امرأة صالحة ، كريمة ، رقيقة الحال ^(٢) » .

ويقول في وصف فرجيني : « طفلة جميلة كأنها النجم اللامع في سطوعه وإشراقه ^(٣) » . كذلك يصور پول بقوله : « وكان پول وهو في الثالثة عشرة من عمره ، كأنه في الخامسة عشرة قوة ونشاطاً وهمة وعزيمة وذكاء وفطنة ، فكان لا يملُ العمل نهاره ولا ليله ^(٤) » .

وبالطبع فإن هذه العبارات الإنشائية القُصْفاصة ، لا تساعد على تمثيل صفات الشخصية أو معرفة ما يريد الكاتب أن يقوله عنها بالضبط ، وهذا القصور في رسم ملامح الشخصية أمر تتساوى فيه صورة المرأة وصورة الرجل . ونخرج من كلتا الصورتين بانطباع واحد ، هو أنه يقدم الشخصية بطريقة تذكرنا بطريقة راوي أو مؤلف الحكاية الشعبية ، الذي لا يقدم وصفاً مفصلاً لشخصياته بقدر ما يقدم جُملاً إنشائية عامة ، تقرّب السامع إليها أو تنقّره منها .

ونحسُّ من صورة المرأة - ربما أكثر من صورة الرجل - أنها قريبة جداً من رُوح الحكاية الشعبية ؛ لأن معظم النساء عند المنفلوطي جميلات بطريقة تذكرنا بـ « ستّ الحُسن والجمال » ، كما أنها تجتمع بين الجمال المادي والكمال الأخلاقي - في أغلب الأحيان - يؤكد هذا أن فرجيني بطلة رواية « الفضيلة » أثرت الموت غرقاً على أن تترك يد رجل غريب تلامس جسدها (هكذا كأنما الشخصية واعية عند الغرق ، على حين هي في اللحظات العادية ، في الرواية تكون مغيبة ، أو مثل الشاة الوديعه !) وسوف نقدم وصفاً لهذا المشهد بأسلوب المنفلوطي :

« وما هي إلا لحظات حتى خلا سطح السفينة من كل شيء إلا من فرجيني ، واقفة في مؤخرتها ، تنتظر قضاء الله فيها ، ورجل بحار واقفاً في مقدمتها قد خلع ملابسه ، ثم لمح فرجيني واقفة موقفها هذا ، فأبى له كرمه وفاؤه إلا أن يمدُّ لها يد المعونة لينقذها ، فمشى إليها ، وجثا بين يديها ، وطلب منها أن تخلع ثوبها ؛ ليحملها على ظهره ، ويسبح بها .

أ تدري ماذا كان بعد ذلك ؟

« كان أنَّ غلبَ الحياءُ على الفتاة ، حينما رأت رجلاً عارياً بين يديها ، يريد أن يضمّها عارية إلى جسمه ، فأشاحت بوجهها عنه ، وأشارت برأسها أنَّ لا . فصاح الناس (الواقفون على الشاطئ على

(١) الفضيلة ، هذه الطبعة ، ص ١١٥ . (٢) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٩ . (٤) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

بعد كيلو متر على الأقل ، والعواصف شديدة ، بالطبع في البحر فقط ؛ لأن الذين على البر لا يبدو أنهم يحسّون بها) من كل جانب : « أنقذها ! أنقذها ! » فوثب الرجل قائماً على قدميه ، ومدّ يده إلى ثوبها ليجرّدها منه .

« وهنا ، وأأسفاه (لاحظ صوت الراوي) أقبلت موجة عظيمة كالجبل الأشم ، (لاحظ التشبيه المحفوظ) تندفع نحو السفينة اندفاع القضاء النازل ، وتزمر في اندفاعها زمجرة الليث الهصور ، (لاحظ العبارات المسكوكة) فذعر البحار إذ رآها ، وطاش عقله ، وما لبث أن قفز من مكانه ، وألقى بنفسه في الماء .

« أما فرجينى فلم تخف ولم تطش ، بل لبثت في مكانها كما هي ، وقد علمت أن الساعة آتية لا ريب فيها (لاحظ الاقتباس من القرآن) فضمت قميصها إلى جسمها بيد ، و وضعت يدها الأخرى على قلبها ، وسبحت بنظرها في الفضاء ، فأصبح منظرها منظر ملك كريم ، يطير بجناحيه في جو السماء .^(١)

هكذا نستطيع القول : إن المنفلوطي قد استخدم في تصوير ملامح الشخصية نفس الأدوات الفنية البسيطة ، التي استعان بها في رسم مسيرة الحدث ، وطريقة المنفلوطي في تقديم كلا العنصرين (الحدث والشخصية) تذكّرنا بسمات التشكيل التلقائي البسيط للقص في الحكاية الشعبية ، ومعنى ذلك أن المنفلوطي روائياً قد خرج من عباءة التراث ، ولا سيما التراث الشعبي ، وعلى هذا أيضاً فإن الجمهور حين أقبل على قصصه ورواياته ، فإنما كان يتلوق إحياء جديداً موصى لإبداع قديم أصيل ، عاش في وجدانه ، ولا يزال مسيطراً عليه . لقد وظّف المنفلوطي الطريقة المألوفة لذوق الجمهور العربي في الحكى الشعبي ، لكنه قدّم في هذا الشكل القومي الشعبي مضامين جديدة ؛ أي أنه جمع بين الأصالة والمعاصرة في القص في آن واحد ، وهذا سبب آخر من أسباب إقبال القراء عليه . فإذا أضفنا إلى هذا أن الموضوعات التي كتب فيها ، كانت مثارة بقوة في عصره ، مثل : الموقف من الحضارة الغربية ، ومشاكل التعليم والعمل ، والمرأة بين التحرر والمحافظة ، ومحاربة الاستعمار أو مهاندته ، والصراع بين الغنى والفقر ، وعلاقة الفقر بالشرف والأمانة والغنى والجاه بالانتهازية وعدم الالتزام بالأخلاق ، وضياح الفقراء في الحياة ، ومعنى السعادة والتكافل الاجتماعي - فإن هذا يضيف عاملاً آخر من عوامل إقبال القراء على كتابات المنفلوطي .

ولا شك أن موضوعات المنفلوطي ، ورأيه المنحاز إلى موقف المحافظة و صفّ الفقراء ، يعد عاملاً آخر ساعد على انتشار أدبه .

القص بطريقة المقالة

حين نتأمل رواية « الفضيلة » ، أو غيرها من الروايات ، نجد أن كاتبنا قد وظّف طريقة معينة في « القص » وتشكيل عالم الرواية ؛ ذلك أنه كتب الرواية بطريقة تحرير المقالة ؛ فقد قسم الرواية إلى فصول ، تأخذ رقماً حسابياً ، ثم أتبع ذلك الرقم بعنوان ، أي أن الرواية تتكون من الأرقام والعناوين التالية ، على سبيل المثال :

(١) الفضيلة . القاهرة ، الشركة المصرية العالمية للنشر - لوجمان ، ١٩٩١ . ص ١٧٦ .

- (١) جزيرة موريس (٢) الشيخ
(٣) مدام دي لانور (٤) مرغريت
(٥) الحياة الطبيعية (٦) حياة الطفولة ... إلخ

ومعنى هذا أن المنفلوطي لم يستطع أن يُفَلِّت من صفته الأساسية ، وهي أنه كاتب مقال بالدرجة الأولى . وقد اعتمد على هذه الطريقة ذاتها في كتابة الرواية ، حيث قَسَمَهَا إلى عدة فصول أو مقالات محدودة الطول إلى حد كبير ؛ بل إن بعضها لا يتجاوز صفحتين ، وإن طال فلا يزيد على عشر صفحات ، ومعنى هذا أن حجم كل فصل يكاد لا يتجاوز حجم المقال المألوف عنده .

ولا ريب في أن هذه الطريقة كانت تساعد الكاتب على أن يَجُودَ عباراته اللغوية ، ويحسن جملة الإنشائية ، لأن الأسلوب اللغوي يعدُّ أولى السمات الأدبية التي غزا بها تراثُ المنفلوطي وجدانَ جمهوره ؛ لأنه دخل إليهم من باب التعبير البلاغي ، الذي يعتمد على كل ما هو مألوف ومعروف في أساليب النثر العربي القديم .

وتدل هذه الطريقة - طريقة كتابة الرواية بتكنيك المقال - على أن المنفلوطي لم يكد يغيّر منهجه في الكتابة ، وطريقته في التعبير البياني ، الذي يتلاءم مع معظم نماذج النثر الأدبي في إطار مدرسة الإحياء .

وإذا كان المنفلوطي قد دخل تاريخ الأدب الحديث من باب المقالة الأدبية فقد ظل عليه عاكفا ؛ لذلك فهو يكتب القصة والرواية بتكنيك المقالة ، كما أنه - أحيانا - يمزج طريقة كتابة المقال ببعض أدوات القص ، وهذا ما يؤكد وحدة الملكة الأسلوبية عند الأديب الواحد مهما تعددت الأنواع التي يكتب فيها . ألسنا على حق إذا حين نقرر أن المنفلوطي لم يكد يغيّر خطته في الكتابة ، أو طريقته في التشكيل ، أو أسلوبه في التعبير منذ البدء حتى الختام ؟ وهذا أمر منطقي لأن الأديب شخصية واحدة ، و من هنا يظل المقلد مقلداً ، والمجدد مجدداً من البداية إلى النهاية . وأسلوب المنفلوطي في الكتابة قريب من أسلوب : حسن العطار ، ورفاعة الطهطاوي ، وعبد الله فكري ، وعلي فهمي رفاعة ، وعبد الله النديم ، ومحمد عبده ، وعلي يوسف ، وسعد زغلول ، ومحمد المويلحي وغيرهم .

* * *

٧- موقع المنفلوطي على خارطة الأدب الحديث

حين نحاول أن نقوم دور إنسانٍ ما في تاريخ الأدب ، يجب أن نفرّق بين نوعين من الأدباء :

أ- أديب ساعده الجاه والمنتصب والدور العام في المجتمع على أن ينتشر أدبه ويُذاع ، ويطلع وينشر، لكن مكانة الرجل مع هذا لم تستطع - ألبتة - أن تعطي لأدبه قيمة أو تمنح أعماله خلوداً . ومعنى هذا أن المرء مهما أوتي من نفوذ أو جاه أو ثروة أو شهرة لا يستطيع بمنصبه أو شهرته أن يهب أدبه قيمة ليست فيه .

ب- أدباء لم يملكوا إلا قلمًا به يكتبون ، ولم تكن لهم مكانة مرموقة ، أو وظيفة خطيرة ؛ بل إن بعضهم كان يعيش على هبات يعطيها لهم بعض ذوي الفضل لكنهم رغم الفقر المادي والتواضع الاجتماعي كانوا أدباء كبارًا ، واستطاعوا - بقوة الملكة وسلطان الموهبة - أن يفرضوا وجودهم الفني وخلودهم الأدبي .

وإلى هذه الفئة الأخيرة من الأدباء والفنانين ينتمي أدينا المنفلوطي ، الذي لم يكمل تعليمه في الأزهر ، وبدأ يعرف كاتبًا قبل أن ييسط سعد زغلول حمايته عليه وصحبته له في أي ديوان عمل به . والوظيفة التي كفلها له سعد كانت وظيفة مُحَرِّرٍ ، أو بالمعنى المألوف حاليًا « سكرتير » .

وعلاقة المنفلوطي بسعد زغلول ، الذي عينه محررًا للقسم العربي ، في وزارة المعارف و وزارة الحقانية و مجلس النواب ، تذكّرنا بوظيفة « كاتب ديوان الإنشاء » ، تلك الوظيفة التقليدية التي أنشئت منذ القرن الأول الهجري ، وأهم مَنْ عمل بها حينذاك عبد الحميد الكاتب . وقد شغلها بعد ذلك بعض أدباء كبار مثل سهل بن هارون و ابن العميد والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل وبيدع الزمان الهمداني وعبد الله فكري ، ولم يكن مطلوبًا لهذه الوظيفة من مؤهّل سوى حُسن صياغة العبارة وجمال الأسلوب ؛ ولعل هذا ما ساعد على ظهور الصنعة الأدبية في النثر العربي .

حلقة الوصل

من هنا نبدأ ونريد أن نقول : إن المنفلوطي صاحب أسلوب أدبيٍّ متميّز ، له سمات واحدة ، أو متقاربة على الأقل ، يكتب به المقال والقصة والرواية المترجمة والشعر ، بطريقة تذكّر بكثير من خصائص النثر العربي في القديم وفي الحديث - أعني في إطار « مدرسة الإحياء » التي ينتمي إليها كاتبنا ، ومن أهمها :

العناية باللغة على مستوى المفردات المتداولة لأن فصاحة اللغة مطلب جمالي في حدّ ذاته ، وقصّر الجملة ، حتى تؤثر القيمة الموسيقية للسجع ، مع الحرص على بعض المحسنات البيعية ولا سيما الترادف والطباق والمقابلة والجناس والتورية ، كذلك يحرص الكاتب على أن يستخدم بعض الصور البيانية مثل التشبيه والاستعارة والكناية . وتحسُّ وأنت تقرأ كثيرًا من هذه الصور البيانية أنها مقتبسة من التراث الديني أو الأدبي ، أو على الأقل مُشكّلة على نفس النسق اللغوي ، الذي كانت تتشكل به هذه العناصر التخيلية .

ومما حرص عليه - أيضًا - كُتّاب النثر العربي ، « التّناسُّ » أي اقتباس نصوص من سياق آخر والاستشهاد بها ، وهو معروف في البلاغة القديمة باسم « التضمين » ومعناه أن يُضمّن النصُّ بآية قرآنية ، أو حديثٍ نبوي أو بيت شعر ، أو مثل من الأمثال ، أو قول من الأقوال المأثورة .

وإذا كان هذا هو ما أخذهُ الكُتّاب من علمي البيان والبديع ، فإنهم قد أخذوا من علم « المعاني » خاصية هامة ، وهي التعدد في نوعية الجُمَل بين الخبر والإنشاء ، والجُمَل ذات المعنى الحقيقي والمعنى المجازي .

وهذا معناه - ببساطة شديدة - أن معظم كُتّاب النثر في التراث العربي كانوا أسرى لعناصر علوم البلاغة . وفي الحقيقة ليست هناك تراكيب أدبية دونَ توظيف جيّد لموضوعات البلاغة ، لكن هناك

فرقاً شاسعاً بين أن تقدم هذه السمات ببساطة وتلقائية ، وأن ترد بكثرة وتعمد ؛ ولعل هذا هو ما حوّل الصنعة الأدبية التي كانت تقوم على السهل الممتنع إلى تصنع متكلف يزهد دلالة المعنى . ويؤكد هذا الرأي أستاذنا شوقي ضيف حين يقول :

« إن التنافس بين الكتاب ، والحرص على وظيفة كاتب الديوان ، دفع الكتاب إلى أن يصلوا بنثرهم إلى مرتبة تكاد ترفع الحواجز بينه وبين الشعر ، فهو نثر منظوم أو هو شعر منشور . وماذا يفصل بينه وبين الشعر ؟ إنه يعتمد على الموسيقى - موسيقى السجع ، كما يعتمد على زخرف البديع ، وإنهم ليلغون في ذلك ، حتى تتحوّل رسائلهم إلى ما يشبه الوشي الخالص ، فهي حلّى وتنميق وبيدع وترصيع .

« وإن الإنسان ليخيّل إليه كأنما تحوّلت صناعة النثر في تلك العصور عن طبيعتها الأولى تحوّلاً تاماً ؛ إذ أصبحت أشبه ما تكون بصناعة أدوات الترف والزينة ، فهي تحفّ تُمنقّ في أروع صورة للتنميق ، وكل كاتب يتوفر على إحداث هذه التحف توفراً يتيح له أن يشارك في آياتها وبدائعها ... » (١)

بهذا الأسلوب الإنشائي الفصيح المزخرف كان المنفلوطي يكتب مقالاته ورواياته ، ومؤلفاته وترجماته ، ومن خلال هذه العلاقة الأسلوبية التراثية غزا المنفلوطي وجدان قرائه ، ودخل قلب جمهوره .

إن المنفلوطي - رغم بعض دعواته إلى إصلاح المجتمع وتجديد الأدب - لم يكد يستطيع أن يخرج من إطار فلسفة الإحياء في الفكر والفن ؛ لذلك فهو كاتب محافظ ينجح إلى التقليد والمحاكاة لتراث العصور الذهبية في الكتابة الأدبية .

وعلى هذا فإنه يعدّ حلقة الوصل بين الكلاسيكية الحديثة ، التي تُعنى بالصياغة اللفظية والزخرفة الإنشائية ، مع الحرص على نقاء المفردة اللغوية وبعدها نسبياً عن لغة الحياة ولغة الصحافة (وهذا ما جعله يشرح بعض المفردات في الهامش في بعض كتبه) مع محاكاة كل خصائص الصنعة الأسلوبية والمدرسة الرومانسية ، التي تحاول إحداث ثورة تنادي بضرورة أن تكون اللغة وسيلة تعبير ليس إلا ، وأن يكون الأدب مجالاً للتعبير عن العواطف الإنسانية ، وأن يتعد عن التقليد والمحاكاة .

وكون المنفلوطي حلقة وصل بين مدرسة الإحياء المحافظة ، ومدرسة التجديد الرومانسيّة الثائرة ، جعل جمهور الإحياء يفضلونه على كل من عاداه ، ويرون فيه كاتبهم الأول ، كما جعل كثيراً من جمهور الرومانسية لا يرفضونه ، وإنما يتعاملون مع أدبه بقدر كبير من السماحة والمصالحة . ولا نبالغ إذ نقول إنه - رغم إحيائيته - كان أقوى صوت بشر بالرومانسية في مجال النثر ، وجعل قراء الأدب يتقبلونها قبولاً حسناً .

ومعنى هذا من جانب آخر أن المنفلوطي المحافظ نال شهرته الأدبية في عصر سيادة الرومانسية . أكثر من هذا أنه كان منتشراً بدرجة أكبر كثيراً من كل كتاب الرومانسية في عصره ، أمثال محمد حسين هيكل وإبراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد ، وغيرهم .

وكما أسس المنفلوطي الكاتب المحافظ شهرته في عصر الرومانسية ، كذلك كان الأمر بالنسبة لأحمد شوقي الشاعر ، الذي حصل شهرة لم يحصلها كل شعراء الرومانسية في عصره ، أمثال عبد الرحمن شكرى وعباس العقاد وإبراهيم المازني وخليل مطران وغيرهم ، وأكثر من هذا أنه نال إمارة الشعر العربي سنة ١٩٢٧ في أثناء فترة المدّ الرومانسيّ .

أليس هذان المثالان : المنفلوطي وشوقي كافيين لأن نقول : « إن الموهبة الفنية للأديب تمنحه خلوداً ، يتجاوز إطار المدرسة التي ينتمي إليها والعصر الذي يعيش فيه » ١٩

بناء على كل ما سبق ننتهي إلى أن المنفلوطي يعدّ رائداً من رواد تجديد النثر ، من خلال تطوير أسلوب المقال الأدبيّ ، وما قدّمه في هذا المجال يعدّ - بالإضافة إلى ما أنجزه إبراهيم عبد القادر المازني وطه حسين - الحلقة الأخيرة في تاريخ النثر الفنيّ في الأدب العربيّ . كما أنه أسهم بما عرّب من روايات نالت شهرة واسعة ، وأثّرت على كثير من الأدباء العرب والمسلمين ^(١) في تثبيت جذور فن الرواية الحديثة في بيئة محافظة ، ومنحه نوعاً من شرعية الوجود ، لأنه قدّم هذا الفن الجديد الذي لم يكن معترفاً به بشكل صريح ، وخاصة من قادة التيار السلفي وجمهوره الواسع العريض ، برؤية أخلاقية محافظة ، وأسلوب لغويّ بليغ .

وإذا كان المنفلوطي في كل ما كتب من مقالات وقصص وروايات ، يدعو إلى التمسك بالفضائل الأخلاقية والقيم النبيلة ، وفي مقدمتها الحبّ العذريّ فإن ذلك يعكس نوعاً من الاحتجاج العاطفيّ على ما شاع في المجتمع من فساد ومشكلات ؛ لأن الدعوة إلى الفضيلة ، والبحث عن ملاذ روحيّ ، ونشيدان الحب الأفلاطونيّ ، تمثل رغبة غير صريحة في السخط على ما ظهر في المجتمع من أزمات ، سواء بسبب الحضارة الغربية الغازية أو القوى الحاكمة غير العادلة ، كما تمثل أملاً في الرقيّ بالمجتمع ، حتى يحقق السعادة لأكثر عدد من الناس ؛ لأن البحث عن الفضيلة والحب في واقع لا يوجد بهما ، أمر يعكس في جوهره رغبة الأديب في الوصول بمجتمعه إلى عالم أفضل ، يحقق الإيمان بالمثل والعدالة والرحمة والمحبة والسعادة لأبناء المجتمع ، الذين يكتب عنهم ولهم . وهذا جوهر ما حاول أن يصوّره المنفلوطي ، ويدعو إليه ، وهذا أيضاً سرّ خلود تراثه الأدبيّ حتى اليوم .

طه وادي

الدقي ، الجيزة - نوفمبر ١٩٩٠

أستاذ الأدب العربي الحديث

كلية الآداب - جامعة القاهرة

(١) أدب المنفلوطي أثر في أدب الكاتب الإندونيسيّ الحاج عبد المالك بن الحاج عبد الكريم أمر الله المعروف بحامكا . حسين محمد أبو بكر : أدب المنفلوطي وأثره في أدب حامكا . رسالة ماجستير ، قُدمت إلى كلية الآداب - جامعة القاهرة ، سنة ١٩٨٢ - إشراف الأستاذ الدكتور طه وادي .

ملاحق خاصة بدراسة المنفلوطي وأدبه

١- تواريخ هامة في أدب المنفلوطي

- ١٨٩٧ * بدأ المنفلوطي ينشر بعض مقالاته الأدبية في بعض الصحف ، ولا سيما « الصاعقة » و « المؤيد » . وبدأت شهرته تتأكد من خلال مقالاته التي يدعو فيها إلى الإصلاح بأسلوب أدبي يجمع بين حُسن الصنعة وتلقائية الموهبة . ولا ريب في أن أسلوب المنفلوطي السهل الممتنع ، تأليفاً وترجمةً ، هو الذي أعطاه بعض ما يحمل من شهرة أدبية واسعة على امتداد الوطن العربي كله ، منذ ظهوره إلى اليوم .
- ١٩١٠ * صدرَ الجزء الأول من « النظرات » ، وهو مجموعة مختارة من مقالاته الأولى المنشورة في الصحف المصرية .
- ١٩١٢ * صدر كتاب « مختارات المنفلوطي » ، وهو عبارة عن بعض نماذج أدبية مُختارة ؛ لتكون مساعدة على تثقيف طلاب المدارس وهواة القراءة الأدبية .
- ١٩١٢ * صدر الجزء الثاني من « النظرات » ، وهو يتكون من مجموعة أخرى من المقالات في موضوعات متنوعة .
- ١٩١٣ * أعيد طبع الجزء الأول من « النظرات » بعد أن نفذت الطبعة الأولى .
- ١٩١٥ * ظهرت الطبعة الأولى لكتاب « العبرات » ، وهو يشتمل على مجموعة من القصص الموضوعية (المؤلفة) والمترجمة (المعربة) ، وهي تهدف إلى بيان بعض مبادئ دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي والتهديب الأخلاقي .
- ١٩١٧ * صدرت الطبعة الأولى من رواية « ماجدولين » أو « تحت ظلال الزيزفون » تأليف الكاتب الفرنسي « ألفونس كار » ، وقد ترجمها محمد فؤاد كمال ، صديق المنفلوطي .
- ١٩٢٠ * صدرت الطبعة الأولى من رواية « في سبيل التاج » ، وهي في الأصل مسرحية للأديب الفرنسي « فرانسوا كوييه » وقد ترجمها له حسن الشريف .
- ١٩٢١ * ظهرت الطبعة الأولى من رواية « الشاعر » أو « سيرانو دي بروجراك » ، وهذه الرواية ألّفها الأديب الفرنسي « إدمون روستان » ، وهي في الأصل مسرحية ترجمها محمد عبد السلام الجندي ، ثم أخذها المنفلوطي وعربها بطريقته وجعلها رواية .
- ١٩٢١ * طبع الجزء الثالث من « النظرات » ، وقد صودر الكتاب ؛ لأنه كان يشتمل على بعض المقالات السياسية ، المؤيدة لسعد زغلول ، والمدافعة عنه

في أثناء فترة نفيه خارج الوطن إلى « مالطة » .

١٩٢٣ * صدرت الطبعة الأولى من رواية « الفضيلة » أو « پول و فرجينى » ، وقد ألفها الكاتب الفرنسي « برناردين دي سان بيير » ، وقد اعتمد المنفلوطي في تعريبها على ترجمة محمد عثمان جلال لها بعنوان « الأمانى والمئة » في حديث قبول و ورد جنة « سنة ١٨٧٢ » ، وترجمة فرح أنطون لها بعنوان : « بولس وفرجينى » ، وهي آخر عمل أدبي كتبه المنفلوطي قُبيل وفاته .

* * *

٢- تواريخ هامة في حياة المنفلوطي

(١٨٧٦-١٩٢٤)

الاسم : السيد مصطفى بن محمد بن حسن بن محمد بن لطفي المنفلوطي .
وقد أضيف إلى اسمه لقب « السيد » لكونه من « الأشراف » الذين ينتهي نسبهم إلى « الحسين بن علي بن أبي طالب » (رضي الله عنهما) كما يضاف إلى اسمه أيضاً لقب « المنفلوطي » نسبة إلى مسقط رأسه ، وهو مدينة « منفلوط » - محافظة أسيوط .

والده : السيد محمد بن محمد بن محمد لطفي ، قاضي « منفلوط » ، وأحد أعيانها ، وهو من أسرة توارث أبناؤها منصب القضاء ونقابة « الأشراف » وريادة الصوفية .

والدته : السيدة « هانم علي حسين الشوريجي » وهي من عائلة تركية تمصّرت .
وقد طُلِّقت من أبيه وتزوجت رجلاً غيره ، وربما كان لذلك تأثيرات قوية على نفسه وأدبه .
مولده : ٣٠ ديسمبر ١٨٧٦ / ١٠ من ذي الحجة ١٢٩٣ هـ .

التعليم : تلقى تعليمه الأوّل وحفظ القرآن الكريم في مكتب الشيخ جلال الدين السيوطي ، وفي سنة ١٨٨٧ بعث به أبوه إلى الأزهر في القاهرة ، وقد مكث فيه عشر سنوات ١٨٨٨-١٨٩٨ يدرس علوم الدين واللغة ، لكنه لم يُكمل دراسته في الأزهر ، حيث ضاق بعلومه الجافة وتعليمه التقليدي ، فكان يترك ذلك إلى قراءة بعض كتب الأدب وحفظ بعض قصائد الشعر . وفي مقدمة « النظرات » (ج١) قائمة بأسماء من كان يقرأ لهم ، ويعجب بهم من الأدباء والشعراء ، وهذا ما ساعده على كتابة الشعر وهو في السادسة عشرة . ومن قراءاته الأدبية المبكرة :

« العقد الفريد » لابن عبد ربه - « الأغاني » للأصفهاني - « زهر الآداب » للحصري - « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » للجرجاني . كما قرأ لعبد الحميد الكاتب وابن المقفع وابن خلدون وابن الأثير والآمدي .

ومن الشعر قرأ دواوين : المتنبي والبحري وأبي تمام والشريف الرضي وغيرهم .

علاقته بمحمد عبده : التقى المنفلوطي أستاذه سنة ١٨٩٥ تقريباً ، ويبدو أنه قد تعرّف به من خلال تدريس علوم البلاغة ، ولا سيما كتب عبد القاهر الجرجاني . وقد نقل تلمذته له من الأزهر إلى بيت الإمام ومجالسه ، ولازمه ملازمة الابن للأب والمريد للقطب ، وتلمذ عليه تلمذة مباشرة وشاملة ، بطريقة شكلت بعض ميوله الأدبية وفكره السياسي ونهجه الإصلاحى . وقد تعرّف عن طريقه بسعد زغلول والشيخ علي يوسف وغيرهما من رجال السياسة والصحافة والأدب . وكان هؤلاء الثلاثة : محمد عبده و سعد زغلول و علي يوسف من أهم الشخصيات التي أثرت في تكوين شخصية المنفلوطي الإنسان والأديب والموظف .

السجن (نوفمبر ١٨٩٧) : سجن المنفلوطي مدة سنة أو ستة شهور بعد التخفيف ، على إثر تأليف قصيدة في هجاء الخديو عباس حلمي عند عودته من تركيا سنة ١٨٩٧ ، ويبدو أن السيد محمد توفيق البكري والصحفي أحمد فؤاد قد شجعا على نظم القصيدة ، ومطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيذ وملك - وإن طال المدى - سيبيد
رحلت و وجه الناس بالبشر باسم وعدت وحرّ في القلوب شديد

١٩٠٥ : عاد إلى بلده حزينا بعد وفاة أستاذه الإمام في هذه السنة ، وكان في منفلوط يقرأ ويقيم ندوات أدبية في بيته ، ويراسل بعض الجرائد ، ومن أهمها جريدة « الصاعقة » سنة ١٩٠٦ وجريدة « المؤيد » سنة ١٩٠٧ . ولكن « المؤيد » كانت الجريدة التي نشر فيها معظم مقالاته في هذه المرحلة ، ومن خلالها بدأ يبرز اسمه الأدبي ، لأنه كان ينشر شعره ونثره في الصحف منذ سنة ١٨٩٦ تقريباً .

أكتوبر ١٩٠٨ : عاد إلى القاهرة ، وأخذ يواصل كتاباته الأدبية في الصحف .

١٩٠٩ : عينه سعد زغلول ناظر (وزير) المعارف آنذاك في وظيفة « المحرر العربي » للوزارة ، وقد ساعده على ذلك إعجاب سعد به ، حيث تعرف عليه في مجالس الإمام ، كما أن شهرة المنفلوطي الأدبية كانت قد تأكدت لدى الجمهور منذ وقت مبكر .

١٩١٠ : انتقل سعد زغلول ناظراً للحقانية (العدل) فأوجد له وظيفة جديدة فيها هي « المحرر العربي » ونقله معه إليها .

١٩١٣ : انتخب سعد زغلول وكيلاً للجمعية التشريعية فأخذه معه ضمن « قلم السكرتارية » إلى أن أغلقت الجمعية بسبب قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) ولكنه ظل موظفاً بالحكومة إلى سنة ١٩٢١ ، حيث كتب مجموعة من المقالات الوطنية نشرها في « النظرات » ، يدافع فيها عن سعد زغلول في أثناء نفيه ، وهذا ما جعل عبد الخالق ثروت يصادر الكتاب ويفصل صاحبه من الوظيفة في قلم السكرتارية في الجمعية التشريعية . ويبدو أن بعض رجال الوفد قد سعوا لإعادته إلى الوظيفة ، رغم توقف أعمال الجمعية التشريعية .

١٩٢٣ : أصبح سعد زغلول رئيساً للوزارة ، فعين المنفلوطي رئيساً لفرقة السكرتارية في مجلس الشيوخ ، بمرتب قدره خمسون جنيهاً مصرياً ، في وقت كان الجنيه المصري فيه أعلى قيمة من الجنيه الإسترليني ومن الجنيه الذهب !

١٢ يوليه ١٩٢٤ : مات المنفلوطي - فجأة - بسبب تسمم الدم (البولينا) . وكان ذلك يوم سبت ، وقد مات في اليوم الذي حدث فيه اعتداء على سعد زغلول ؛ فكأنه مات وفاءً لصاحب الفضل عليه !

زواجه وصفاته : تزوج المنفلوطي للمرة الأولى في سن مبكرة ، وهو طالب في الأزهر ، بالسيدة « أمنة أبو بكر الشيخ » وهي من منفلوط ، ومن أسرة غنية ، وقد توفيت سنة ١٩١٠ ، و ورث عنها بعض الأراضي الزراعية . ثم تزوج بعد ذلك بسيدة قاهرية ، هي « رتيبة حسني » ، وقد أنجب المنفلوطي من زوجته البنين والبنات ؛ ولكن بعض أبنائه ماتوا صغاراً ، فرتاهم رثاء حاراً يدل على قوة تأثره بفقدهم .

كما أنه كان يتسم بالتواضع وهدوء الطبع والعفة ورقة الشعور وحب الناس ، والكرم وحسن الضيافة ؛ لأنه كان صاحب مجلس يقد إليه الكثيرون .

وكان ساجداً في عواطفه الذاتية وفيما لأصدقائه من المصريين والعرب ، لا يعرف المهادنة في بعض مواقفه الوطنية ؛ فقد كان لا يخشى الخديو أو الإنجليز أو خصوم سعد زغلول وحزب الوفد . وتعمكس كتاباته الأدبية المختلفة بعض هذه الصفات التي ذكرناها .

* * *

٣- أهم الدراسات المتعلقة بأدب المنفلوطي

إبراهيم عبد القادر المازني (بالاشتراك مع العقاد) : الديوان في الأدب والنقد . القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧٢ .

أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي . القاهرة ، دار النهضة ، ١٩٧٢ .

أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث في مصر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨ .

أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها . بيروت ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٣ .

أنيس المقدسي : تطور الأساليب النثرية . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٠ .

بطرس البستاني : أدباء العرب . بيروت ، ١٩٣٧ .

حسين محمد أبو بكر : أدب المنفلوطي وأثره في الأدب الإندونيسي « حامكا » . رسالة ماجستير بآداب القاهرة ، إشراف د. طه وادي ، ١٩٨٢ .

سعد ميخائيل : أدباء العصر . القاهرة ، العمران ، (د.ت)

- سيد حامد النساج : تطور فن القصة القصيرة في مصر . القاهرة ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٨ .
- شكري عياد : القصة القصيرة في مصر . القاهرة ، دار المعرفة ، ١٩٧٩ .
- شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر في مصر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩ .
- صلاح عبد الصبور : ماذا بقي منهم للتاريخ ؟ القاهرة ، دار الثقافة العربية ، ١٩٦١ .
- الطاهر أحمد مكي : القصة القصيرة : دراسة ومختارات . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥ .
- طه وادي : مدخل إلى تاريخ الرواية المصرية . القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٧١ .
- طه وادي : صورة المرأة في الرواية المعاصرة . ط٣ . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥ .
- طه وادي : دراسات في نقد الرواية . القاهرة ، الهيئة المصرية ، ١٩٨٩ .
- عبد المحسن بدر : تطور الرواية العربية في مصر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ .
- مارون عبود : جلد وقدماء . بيروت (د.ت.)
- مارون عبود : أدب العرب . بيروت ، ١٩٦٠ .
- محمد أبو الأنوار : مصطفى المنفلوطي ؛ حياته وأدبه . القاهرة ، مكتبة الشباب ، ١٩٨١-١٩٨٥ . ج٣ .
- محمد زغلول سلام : دراسات في القصة العربية الحديثة . منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ .
- محمد شلبي : مصطفى المنفلوطي الأديب الاشتراكي . القاهرة ، دار الكتب ، (د.ت.)
- محمود حامد شوكت : الفن القصصي في الأدب المصري الحديث . القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٦ .

المقدمة : بقلم مصطفى لطفي المنفلوطي

يسألني كثير من الناس - كشأنهم في سؤال الكتاب والشعراء - كيف أكتب رسائلتي ؛ كأنما يريدون أن يعرفوا الطريق التي أسلكها إليها فيسلوكها معي ، وخير لهم ألا يفعلوا ؛ فإنني لا أحب لهم ، ولا لأحد من الشادين^(١) في الأدب أن يكونوا مُقيدين في الكتابة بطريقتي ، أو طريقة أحد من الكتاب غيري . وليعلموا - إن كانوا يعتقدون لي شيئاً من الفضل في هذا الأمر - أنني ما استطعت أن أكتب لهم تلك الرسائل التي يعلمونها ، بهذا الأسلوب الذي يزعمون أنهم يعرفون لي الفضل فيه ، إلا لأنني استطعت أن أتفككت من قيود التمثيل والاحتذاء . وما نفعني في ذلك شيء ما نفعني ضعف ذاكرتي والتواؤم علي ، وعجزها عن أن تمسك إلا قليلاً من المقروءات التي كانت تمر بي . فلقد كنت أقرأ من منشور القول ومنظومه ما شاء الله أن أقرأ ، ثم لا ألبث أن أنساه فلا يبقى منه في ذاكرتي إلا جمال آثاره وروعة حسنه ورثته الطرب به .

وما أذكر أنني نظرت في شيء من ذلك لأحشو به حافظتي ، أو أستعين به على تهذيب بياني ، أو تقويم لساني ، أو تكثير مادة علمي باللغة والأدب ، بل كل ما كان من أمري أنني كنت أمراً أحب الجمال وأفتتن به كلما رأيته في صورة الإنسان ، أو مطلع البدر ، أو مغرب الشمس ، أو هجعة الليل ، أو يقظة الفجر ، أو قمم الجبال ، أو سفوح التلال ، أو شواطئ الأنهار ، أو أمواج البحار ، أو نغمة الغناء ، أو رنة الحدا ، أو مجتمع الطيار ، أو منتثر الأزهار ، أو رقة الحس ، أو علوية النفس ، أو بيت الشعر ، أو قطعة النثر . فكنت أمر بروض البيان مرّاً ، فإذا لاحت لي زهرة جميلة بين أزهاره ، تتألق في غصن زاهر بين أغصانه ، وقفت بين يديها وقفة المعجب بها الحاني عليها ، المستهتر بحسن تكوينها وإشراق منظرها ، من حيث لا أريد اقتطافها أو إزعاجها^(٢) من مكانها ، ثم أتركها حيث هي وقد علقته بنفسي صورتها إلى أخرى غيرها .

وهكذا حتى أخرج من ذلك الرّوض بنفس تطير سروراً به ، وتسيل وجداً عليه ، وما هو إلا أن درت ببعض تلك الرياض بعض دورات ، ووقفت على أزهارها بعض وقفات ، حتى شعرت أن قد بدلت بنفسي نفساً غيرها ، وأن بين جنبي حالاً غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل . فأصبحت أرى الأشياء بعين غير التي كنت أراها بها ، وأرى فيها من المعاني الغريبة المؤثرة ما يملأ العين حسناً ، والنفس بهجة .

فقد كنت أرى الناس فرأيت نفوسهم ، وأرى الجمال فرأيت لُبه وجوهه ، وأرى الخير فرأيت حسنه ، وأرى الشر فرأيت قبحه ، وأرى النعماء فرأيت ابتساماتها ، وأرى البأساء فرأيت مدامعها ، وأرى العيون فرأيت السحر الكامن في محاجرها ، وأرى الثغور فرأيت الخمر المترققة بين ثناياها .

وكنت أرى الشمس فرأيت خيوطها الفضية الهفافة بين السماء والأرض ، وأرى القمر فرأيت شعاعه كأنما يهيم أن ينبسط حتى يفيض عن جوانبه فيضاً ، وأرى الفجر فرأيت بياضه وهو يدب في تجاليد^(٣) الظلام ديب المشيب في تجاليد الشباب ، وأرى النجوم فرأيت عيونها الذهبية تطل على

(١) الشادي : طالب العلم والأدب .

(٢) أزعجه : اقتلعه من مكانه .

(٣) التجاليد : الجسم .

الكون من فُروج قميص الليل ، و أرى الليل فرأيتُهُ وهو يهوي بأجنحته السوداء إلى الأرض هُوي الكرى إلى الأجفان .

و كنتُ أسمعُ خريِرَ المياه فسمعتُ مناجاتها ، وحفيفَ الأوراقِ ففهمتُ نغماتها ، وتغريدَ الأطيّار فعرفتُ لغاتها ؛ فأحببتُ الأدبَ حباً جماً ملأ ما بين جانحتي . فلم تكن ساعةً من الساعاتِ أحبُّ إليَّ ولا أثرٌ عندي من ساعةٍ أدخلتُ فيها بنفسي ، وأمسكتُ عليَّ بابي ثم أسلمتُ نفسي إلى كتابي ، فيخيلُ إليَّ كأنني قد انتقلتُ من هذا العالم الذي أنا فيه إلى عالمٍ آخر من عوالم التاريخ الغابر ، فأشاهدُ بعيني تلك العصورَ الجميلة ؛ عصورَ العربية الأولى . وأرى العربَ في جاهليتها بين خيامها وأخبيتها ، وأطناها^(١) وأعوادها ، وإبلها وشائها ، وشيحتها وقيصومها ، وأرى مساجلاتها ومنافراتها ، وجبها وغرامها ، وعفتها ووفاءها ، وصبرها وبلاءها ، وخداها وغناها ، وأسواقَ شعرائها ، ومواقفَ خطبائها ، وفقرها وإفلالها ، وشحوبَ وجوهها ، وسُمرّةَ ألوانها ، وضوى أجسامها ، وتردُّدها في بيئتها بين حمارة^(٢) القيقظ وصبارة^(٣) البرد ، وتنقلها من صحراء إلى ريف ، ومن مشى إلى مصيف ، ومن نجدٍ إلى وهد ، ومن شرفٍ إلى غور ، وانتجاعها مواقعَ الغيث ، ومنابتَ العُشب ، وقناعتها من الطعام بأخفان التمر وقعب^(٤) اللبن وأصنوع^(٥) الشعير . فإذا جدَّ الجدُّ أكلتِ القِدَّ^(٦) واشتوتِ الجلد ، وتبلّغت بالضَّبِّ واليربوع وعراقيب الآبال^(٧) وأظلاف الأبقار ، واكتفاءها من اللباس بأكسية الكرايس^(٨) وأردية الأشعار ، وقمص الأوبار ، فإذا أعوزها ذلك لبست الظلَّ ، وافترشت الرمل ، غير ناقمة ولا ساخطة ولا متبرمة بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده ، ولا باكية حظها من رخاء العيش وليته .

ثم أراها بعد ذلك وقد أنعم الله عليها بنعمة المدنية الإسلامية ؛ فأرى رعدَ عيشها ، ولينَ طعامها ، واعشوشابَ جانبها ، وعذوبةَ مواردها ومصادرها ، وسرورها وغبطتها بما أفاء الله عليها من ذخائر الفرس وأغلاق الرُّوم ، وامتلاء قصورها باللؤلؤ المنظوم من القيان ، واللؤلؤ المنشور من الولدان .

وأرى مجالسَ غنائها ، ومجامعَ أنسها ، ومسارحَ لهوها ، ومجالات سيقها ، وملاعبَ جيادها ، ومذاهبَ طرائدها ، ومواقفَ حجها ، وازدحامَ شعرائها على أبواب أمرائها ، وجوائزَ أمرائها في أيدي شعرائها ، وانطلاقَ ألسنتها بوصف ما تشاء من الأعواد والبرابط^(٩) والمعازف والمزاهر ، والأقداح والدنان ، والموائد والصُحف ، وألوان الطعام حلوه وحامضيه ، وأصنافِ الشَّرابِ حلاله وحرامه ، والطُيور المحلقة في الأجواء ، والسفن الدَّاهية في الدَّماء^(١٠) ، والرياض الخضراء ، والغابات الشَّجْراء ، والقصور وتمائيلها ، والبحيرات وأسماكيها ، والأنهار وشواطئها ، والأزهار ونفحاتها ، والغيوث وقطراتها ، ودبيبِ الحبِّ في القلبِ ، والغناء في السَّمع ، والصَّهْبَاء في الأعضاء ، وخلجة الشَّكِّ ، ولمحة الفكر ، وبارقة المني .

ثم لا أشاء أن أرى بين هذا وذاك خلقاً عذباً ، أو أدباً غضاً ، أو حباً وفيّاً ، أو مُجوناً مُستظرفاً ، أو

(١) الطَّنْبُ : حَيْلٌ يُتَّخَذُ بِهِ الْخِيَاءُ وَالسُّرَادِقُ وَنَحْوُهُمَا . (٢) الحمارة : شِدَّةُ الْحَرِّ . (٣) الصَّبارَةُ : شِدَّةُ الْبَرْدِ .

(٤) القَعَابُ : جَمْعُ قَعْبٍ ، وَهُوَ الْقَدَحُ الضَّخْمُ . (٥) أصنوع : جَمْعُ صَاعٍ ، وَهُوَ كِمِيَالٌ .

(٦) القِدُّ : السَّيْرُ يَقْدُ مِنْ جِلْدٍ . (٧) الآبال : جَمْعُ لَيْلٍ . (٨) الكرايس : جَمْعُ كِرْيَاسٍ ، وَهُوَ ثَوْبٌ غَلِيظٌ مِنَ الْقُطْنِ .

(٩) البرابطُ : جَمْعُ بَرَبَطٍ ، وَهُوَ الْعُودُ مِنْ آلَاتِ الْعَزْفِ . (١٠) الدَّماء : الْبَحْرُ .

جواراً مُستملحاً ، إلا وجدته . ولا أن أسمع ما تهتف به العاتقُ في خِدرها ، وما يحلو به الحادي في أعقاب إبله ، وما يتغنى به العاشقُ ، وما يهذي به الشاربُ ، وما يترنم به الشادي ، وما يساجل به المايح^(١) إلا سمعته . ولا أن أعلم ما يهجسُ في نفس المحبِّ إذا اشتملَ عليه ليّله ، والحاير إذا ضلَّ به سبيله ، والثاكل إذا فُجعت بواحدِها ، والموتور^(٢) إذا حيلَ بينه وبينَ واتره ، والكريم إذا لاحَ له منظرٌ من مناظر البؤس والشقاء ، والغريب في دار غريته ، والسجين بين جدران سجنه ، والخائف إذا وقف بين الرضا والغضب ، والمقدم للقتل إذا وقف بين الرجاء واليأس ، واليائس إذا أعوزته القوتُ ، واليائس إذا أعوزه الموتُ ، والعزير إذا ذلَّ ، والمشرِف إذا هوى ، والشريف إذا عبث بشرفه عابثٌ ، والغيور إذا لمس عرضته لاسمٌ ؛ إلا علمته . ولا أن أعرفَ خلقَ الدهر في تنقله بالناس ، ما بين رفَع وخفض ، وجدة وفقر ، ونعيم وبؤس ، وإقبال وإدبار ، ولا أثر يديه السوداء في خراب القصور ، وخلاء الدور ، وإقفار المغاني ، وتصويح الرياض ؛ إلا عرفته .

فكنتُ أجد في نفسي من اللذة والغبطة بذلك كله ، ما لا يقوم به عندي كلُّ ما ينعم به الناعمون من رَعَد في العيش ورخاء ، حتَّى ظننتُ أن الله (سبحانه وتعالى) قد صنع لي في هذا الأمر ، وأنه لما علم أنه لم يكتب لي في لوح مقاديره ما كتب للسعداء والمجودين من عباده ، من مالٍ أو جاهٍ أعيش في ظلِّه ، وأنعم بثمرته ، زخرف لي هذا الجمال الخيالي البريء من الريبة والإثم ، وزوَّره^(٣) لي تزويراً بديعاً ، و وضع لي فيه من الملائد والمحاسن ما لم يضع لغيري ؛ رحمةً بي وإرعاءً عليّ أن أهلك أو يهلك لي بين اليأس القاتل ، والرجاء الكاذب . وهكذا لا أزال محلقاً في هذا الجو البديع من الخيال ، أضحك مرةً وأكتئب أخرى ، وأتغنى حيناً وأبكي أحياناً ، حتَّى يرميني الباب بعض الطارقين أو يستعيد إليّ نفسي مُستعيداً .

ولم يكن حولي لذلك العهد ممَّن يستعين بمثلهم مثلي على الأدب أحد ؛ لأنني كنتُ أعيش في مُفتتح عهدي به - ولم أكن زاهمت^(٤) - إذ ذاك الثالثة عشرة من عمري - بين أشياخ أزهرين من الطراز القديم ، لا يروون رأيي فيه ، ولا يتعلّقون منه بما أتعلّق ، فكانوا يرون أن التوفّر عليه أو الإمام به عملٌ من أعمال البطالة والعبث ، وفتنة من فتن الشيطان . فكان الذين يتولّون أمري منهم لا يزالون يحولون بيني وبينه ، كما يحول الأب بين ولده وبين ما يعرض له من فتن الهوى ، ونزغات الصبوة ؛ ضناً بي - يزعمون - أن أنفق ساعة من ساعات دراستي بين لهو الحياة ولعبها ؛ فكنت لا أستطيع أن ألّم بكتابي إلا في الساعة التي آمن فيها على نفسي أن يلموا بأمرى ، و قليلاً ما كنت أجدها . وكثيراً ما كانوا يهجمون مني على ما لا يحبون ، فإذا عثروا في حقيقتي ، أو تحت سادتي ، أو بين لفائف ثوبي ، على ديوان شعرٍ أو كتاب أدبٍ خيل إليهم أنهم قد ظفروا بالدينار في حقيبة السارق ، أو الزجاجة في جيب الغلام ، أو العشيق في خدر الفتاة ، فأجد من البلاء بهم ، والغصص بمكانهم ، ما لا يحتمل مثله مثلي . وهم لا يعلمون - أحسن الله إليهم - أنهم وجميع من يدور به جدارٌ مسجدهم حسنة من حسنات الأدب ، الذي ينقمون منه ما ينقمون ؛ ويدّ من أياديه البيضاء على هذا المجتمع البشري .

(١) المايح : المستقي على البئر . (٢) الموتور : من قتل له قتل ولم يأخذ بثأره . (٣) زوَّره : حسنه وقومه .

(٤) زاهم : قارب .

فلولا الأدبُ ما استطاع أئمتهم المجتهدون فهم آيات الكتاب المنزل ، ولا استنباط تلك الأحكام التي دونها لهم ، وتركوها بين أيديهم يستغلونها كما يستغل المالك ضيعته ، ويعيشون في ظلها عيش السعداء المترفين . ولولاهُ ما استطاع علماءهم اللغويون أن يورثوهم هذه العلوم اللغوية ، التي يدرسون اليوم نحوها وتصريفها وبيانها ومعانيها في مجالس علمهم ، ويُدِلُّون بمكانهم منها على الناس جميعاً .

كما لا يعلمون أن الأدب هو خير ما يستعين به متعلم على علم ، وأن الذوق الأدبي الذي يستفيده المتأدب من دراسة الأدب ومزاويلته ، هو الميزان الذي يزن به ما يحاول فهمه من عبارات العلوم وأساليبها ، والدليل الذي يتسمته وترسم مواقع أقلامه في فهم أصول الدين ؛ ليكون مجتهداً إن استطاع ، أو واقفاً على منازع المجتهدين ، واللسان الذي يستعين به على الإفضاء بأدق أغراضه وأعمقها وأقصاها مكاناً من قلبه ؛ ليكون إنساناً ناطقاً ، ومعلماً نافعاً . ولو أن هؤلاء الزارين^(١) على الأدب من علماء الدين وشيوخه - وهم اليوم والحمد لله قليل بل هم في طريق الفناء والانقراض - قد تعلقوا منه بما كان يتعلق به أسلافهم وأئمتهم من قبل كئالوا به في دينهم خيراً كثيراً ، ولا استدفعوا به عن أنفسهم في أمره شراً عظيماً . فما زال الدين واضح المنهج قائم الحجة ، وما زالت آيات الكتاب ومتون الأحاديث سائرة هنيئة ، لا يلحقها الريب ولا يحيط بها الشك ، ولا تطير بجنابها الأوهام والظنون ، حتى جهل علماء الدين الأدب ؛ ففسدت أذواقهم ، وضلت أفهامهم ، فكثرت بينهم التأويل والتخريج ، وهت تلك العقدة الوثيقة بين الألفاظ والمعاني ، واسترخت عراها من أيديهم ؛ فأصبح كل لفظ في نظرهم محتملاً لكل معنى حتى ما يأتي أحدهما على الآخر شيئاً . وتهاوت ذلك الحاجز الحصين الذي كان قائماً بين الحقيقة والمجاز ، والحقيقة والخيال ، فبغى بعض الكالم على بعض ، وعاث كل منهما في تربة صاحبه إقبالاً وإدباراً ، وجيئةً وذهوياً ، وصعوداً ونزولاً ، فاستطاع الواغولون في الدين والناصيون له أن يدخلوا عليه من الأحاديث المنحولة ، الغريبة في أساليبها عن مناهج العرب ومناحيهم ما لا يضبطه الحساب كثرة ؛ فهلك الأمة بين هذا وذاك هلكاً لا تزال تتجرع كأسه المريرة حتى اليوم .

فالحمد لله أولاً وللأدب ثانياً على نجاتي منهم فيما كانوا يرومون بي ، ويحاولون مني ، بل أحمد الله إليهم كذلك ؛ فقد كفيت بهم وبسوء رأيهم في الأدب ، ونقمتهم عليه ، شر من يدخل بيني وبين نفسي في المفاضلة بين شاعر وشاعر ، وكاتب وكاتب ، أو الموازنة بين أسلوب وأسلوب ، وديباجة وأخرى . فلم يكن لي عون على ذلك كله غير شعور نفسي ، وخفوق قلبي خفقة السرور أو الألم ، إن مر بي ما أحب أو ما أكره من حسنات القول أو سيئاته ، من حيث لا أعرف سبيل ذلك ولا متأه . فكان شأني في ذلك شأن السامع الطروب ، الذي تطربه نغمة وترعجه أخرى ، فيطير بالأولى فرحاً ، وبالثانية جزعاً ، ولقد يكون ضعيف الإمام بضروب الإيقاع وقواعد النغم . فكنت لا أقرأ إلا ما أفهم ولا أفهم إلا ما أشعر أنه قد خرج من فم قائله خروج السهم من القوس فإذا هو في كبد الرمية ولها ، فإن رأيت أن المعنى قد قام دونه ستار من التراكيب المتعاطلة^(٢) ، والأساليب الملتوية ، علمت أن القاتل إما ضعيف المادة اللغوية فهو يعجز عن الإفضاء بما في نفسه ؛ لأنه لا

(١) الزارين : العائنين الحسينيين ؛ يقال زرى عليه أي عاب عليه . (٢) المتعاطلة : المعقدة والصعبة .

يعرف كيف يُفضي به ؛ وإما جاهل لم يستو له المعنى الذي يريده كل الاستواء ، ولم يتر في جوانب نفسه حتى يستقر في قراره منها ، فهو يتخيله تخيلاً ويجمعه ^(١) ويهدي به هدياً فلا سبيل له إلى الإفصاح عنه . وإما داهية محتال قد علم أن المعنى الذي يجول في نفسه ، ويشتمل عليه خاطره تافه مردول ، وكان لا بد له أن ينقّه ^(٢) على الناس ويزخرقه لهم ويزوره ^(٣) في أعينهم ، فهو يكسوه أسلوباً غامضاً ليكدهم ويجهدهم في سبيله ، حتى إذا ظفروا به بعد ذلك خيل إليهم أنهم قد ظفروا بمعنى غريب ، أو خاطر بديع ، ووجدوا فيه - عند الوصول إليه - من اللذة والمتعة ما يجد الظام في ضحضاح ^(٤) الماء الكدر إذا أبعث النجعة في طلبه ، ووصل إليه بعد الجهد والإشقاء .

ولما عاجز ضعيف القوة النفسية قد علم أن ضعفاء الأفهام من الناس - وهم سواد الأمة ودعماؤها - لا يرضون عن معنى من المعاني ، ولا يستنون ^(٥) قيمته ، ولا يقيمون له وزناً ، إلا إذا جاءهم في جلد من الألفاظ المتكرسة المتقبضة ، وأنهم إذا ورد عليهم أثمن المعاني وأعلاها ، وأكرمها جوهرًا ، وأطيبها عنصرًا ، في ثوب من الأساليب الرقيقة الشفافة ، ذهب بهم الوهم إلى أنه ما جاءهم على هذه الصورة إلا لأنه ساقط مبتذل ، أو سوقي مطروق ، فاحتقروه وازدروه . وكان يرى ، لضغف حيلته وسقوط همته ، أن لا بد له من موافاة رغبتهم ، وبلوغ رضاهم ، والنزول على حكمهم ، فتجمل لهم باللكنة ^(٦) والعي ^(٧) ، وتملقهم بالغموض والإبهام .

ولما أعجمي يظن أن اللغة العربية حروف وكلمات ، وهو لا يعرف منها غيرهما فينطق بشيء هو أشبه الأشياء بما يترجمه بعض المترجمين من اللغات الأعجمية ترجمة حرفية ، فإن نعت ^(٨) عليه غرابة أسلوبه واستعجامة والتواءه على الفهم ؛ كان مبلغ ما ينضج به عن نفسه أن المعاني العصرية والخيالات الحديثة لا يستطيع إلباسها إلا كسية البدوية ، والأردية العربية ، كأنما هو يظن أن المعاني والخواطر خطط وأقسام ، ويقاع وضياح ، هذا للشرق وهذا للغرب ، وهذا للعرب وهذا للعجم . أما الحقيقة التي لا ريب فيها فهي أن الرجل لا ينتزع تلك المعاني من قرارة نفسه ، ولا يصور فيها صورة عقله ، وإنما هو مترجم قد عثر بتلك المعاني في اللغة الأعجمية التي يعرفها ، لاصقة بألوانها الأصلية ، فلما أراد أن يفضي بها إلى العرب - وكان غير مضطلع بلغتهم ولا متمكن من أساليبهم - عجز عن أن ينزع عنها ألوانها اللاصقة بها ، فنقلها إليهم كما هي إلا ما كان من تبديل حرف بحرف ، أو كلمة بأخرى ، من حيث يظن أنه يهتف بشيء قام في نفسه ، أو يفضي بخاطر من خواطر قلبه .

ولما شحيح يأبى له لؤم نفسه ونخب فطرته أن يمنح الناس منحة سائغة هنيئة ، دون أن يكدرها عليهم بالمطل والتسويف ، والممانعة والمحاولة . والشح خلق إذا نزل منزله من نفس صاحبه أقام من نفسه حارساً يقظاً على كل حاسة من حواسه الباطنة والظاهرة ، حتى لا يجد فيه واجد مصطنعاً ، ولا يظفر منه معتصر بيلة ، فيضن بعلمه ، كما يضن بماله ، ويقبض لسانه عن النطق ، كما يقبض يده عن الإنفاق ، ويصرد ^(٩) عطاءه تصريداً ليستديم به حاجة الناس إليه ، كما يجيع كلبه ليتبعه .

(١) ججم الشيء في صدره : أخفاه ولم يده . (٢) ينقّه : يجمله نافعاً أي والجا . (٣) زوره الشيء : حسنه وزخرفه .

(٤) الضحضاح : الماء القليل في قعر البئر . (٥) استننى قيمته : رآها سنية رقيقة . (٦) اللكنة : صعوبة الإفصاح بالعربية .

(٧) العي : العجز عن بيان المراد . (٨) نعى عليه : عابه . (٩) صرد العطاء : أعطاه قليلاً قليلاً .

ولعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ ، على العَجْزَةِ والجاهِلينَ ، والمُحْتالينَ والكاذِبينَ ، والأَشِحَاءِ والباطِلينَ .

وكانَ أشعرُ الشعراءِ عندي وأكتبُ الكُتَّابَ ، سواءً في ذلكِ المتقدِّمِ والمتأخِّرِ والنَّايَةِ والعامِلِ ، أوصفَهُم لحالاتِ نفسِهِ أو أثرَ مَشاهدِ الكَوْنِ فيها ، وأقدَرَهُم على تمثيلِ ذلكِ وتصويرِهِ للناسِ تصويراً صحيحاً ، كأنَّما هو يعرضُهُ على أنظارِهِم عَرَضاً ، أو يضعُهُ في أيديهِم وَضْعاً . فإن ظَنَنْتُ أَنَّ القائلَ كاذِبٌ فيما يقولُ ، أو أنه يرسمُ صورةَ غيرِ الصَّورةِ التي تتدلَّجُ في نفسِهِ ، أو أنه لغويٌّ يفرُّ من ضَعْفِ أسلوبِهِ وفسادِ نَظْمِهِ إلى أَكَمَةٍ من الألفاظِ الغريبةِ ، والتراكيبِ المُستوعِرةِ ، يَكْمُنُ وراءَها ، أو ناقلٌ يتخذُ الكتابةَ حَقِيقَةً يحشوها بالمسائلِ العلميَّةِ أو الوقائعِ التاريخيَّةِ حَشْواً ، أو مترجمٌ ينقلُ عن اللُّغةِ الأعجميَّةِ التي يعرفُها آراءَ عُلَمائِها وخيالاتِ شعرائِها ، وكأنَّما هو صاحبُها ، أو شعرتُ أنه قد مرَّ بخاطِرِهِ ، وهو يتطبَّقُ بكلمتهِ ، أن يكونَ بليغاً فيها أو مُبدِعاً لِيُعجِبَ الناسَ منها ، كانَ كُلُّ حظِّهِ مِنِّي أن أعرفَ له قُدْرَتَهُ في العلمِ ، ومنزلتَهُ من الذِّكاءِ والفَهْمِ ، إن أحسنَ فيما يقولُ ، ولكنني لا أعدُّه كاتباً ولا شاعراً . لذلكِ كانَ أغزلُ الغزلِ عندي غزلُ العاشِيقينَ ، وأفضَلُ الرِّثاءِ رِثاءُ الثَّاكِلينَ ، وأشرفُ المدحِ مدحُ الشَّاكِرِينَ ، وخيرُ العِظاتِ عِظاتُ المُخلصينَ ، وأجملُ البِكاءِ بِكاءُ المنكوبينَ ، وأحسنُ الهجاءِ هجاءُ الصَّادِقيْنَ ، وأبرعُ الوصفِ وصفُ الرَّاثينِ المُشاهِدِينَ .

ولا أدري ما الذي كانَ يُعجِبني في مُطالعاتي من شِعْرِ الهُمومِ والأحزانِ ، ومواقِفِ البؤسِ والشَّقَاءِ ، وقِصَصِ المحزونينَ والمنكوبينَ خاصَّةً . فقد كانَ يُعجِبني كُلُّ العَجَبِ ويُكيِّني أحرَّ البِكاءِ وأشجاءَ شِقَاءِ المُهلَّولِ في الطلبِ بثأرِ أخيه ، وشِقَاءِ امرئِ القَيْسِ في الطلبِ بثأرِ أبيهِ ، وبِكاءَ جَلِيلَةَ أختِ جَسَّاسٍ على زوجها وأخيها ، وبِكاءَ عَدِيٍّ بنِ زَيْدٍ على نفسِهِ في سِجْنِ النُّعْمانِ ، وبِكاءَ مُتَمِّمِ ابنِ نُؤَيْرَةَ على أخيه مالِكٍ حتى دُمعت عَيْنُهُ العَوْرَاءُ ، وبِكاءَ ليلَى بنتِ طريفٍ على أخيها الوليدِ ، وهَيْامُ أُمِّ حَكِيمٍ زوجِ عَيْبَدِ اللهِ بنِ العباسِ في المواقِفِ والمواسمِ تنشُدُ طفلِها الذَّيَّحِينَ ، وبِكاءَ الشَّريفِ على المناذِرَةِ في خرائبِ الحِجْرةِ ، وبِكاءَ أبي عُبَادَةَ على الأكاسيرَةِ في خرائبِ المِدادنِ ، وبِكاءَ الرُّضِيِّ على بني هاشمٍ ، وبِكاءَ العَبْلِيِّ على بني أُمَيَّةٍ ، وبِكاءَ الرُّقَاشِيِّ على بني بَرْمَكٍ ، وذُلُّ أبي فِرَاسٍ في أسْرِهِ ، والمُعْتَمِدِ بنِ عُبَادٍ في سِجْنِهِ ، وبِكاءَ الوَزيزِ ابنِ زَيْدٍ على نفسِهِ مرَّةً وعلى ولادَةٍ أُخرى ، وبِكاءِ ابنِ مُناذِرٍ على عبدِ المَجدِ ، والبُحْثَرِيِّ على المُتَوَكِّلِ ، وابنِ اللَّبَّانَةِ على ابنِ عُبَادٍ ، والتَّيْمِيِّ على يَزِيدَ بنِ مَزِيدٍ ، ومَرْوانَ بنِ حَفْصَةَ على مَعْنِ بنِ زَائِدَةَ ، وجُنُودِ المَجنونِ بَلَيْلَةَ ، وجُلُوسَهُ في جَنَابِ الحَيِّ منفرداً عاريّاً مَذْهُوبَ اللَّبِّ مُشْتَرَكٌ ^(١) العقلِ ، يَهْذِي ويخَطِّطُ في الأرضِ ويلعبُ بالترابِ ، ثم هيامُهُ بعد ذلكِ مع الوحشِ في البرِّيَّةِ لا يَأْكُلُ إلا ما نَبِتَ فيها من بَقْلِ ، ولا يشربُ إلا مع الظِّباءِ إذا وردتِ مناهِلُها ، وراحتهِ إلى الطريقِ يصعدُ مع مُصْعَدِهِ ، وينحدرُ مع منحدَرِهِ ، حتى هلكَ في أرضِ ^(٢) مُقَشَّعَةٍ مغْبَرَةٍ بين الصُّخُورِ والأحْجارِ .

وشِقَاءُ قَيْسِ لَبْنَى يَلْبَناءَ بعد أن طَلَّقها بَرّاً بوالده ونزولاً على حُكْمِهِ ، وَذَهَابُ الحَبِّ به بعد ذلكِ كُلِّ مَذْهَبٍ ، حتى هَلَكَ بين الوفاءِ للفضيلةِ والوفاءِ للحُبِّ ، وموقفُ جَمِيلِ بنِ مَعْمَرٍ بين يَدَيِ أبيهِ وهو يعتَبُّ عليه أشدَّ العُتْبِ وأمرُهُ في استهتارِهِ بحَبِّ بُثَيْنَةَ ، ومخاطبَتِهِ بنفسِهِ في الإلمامِ بِحَبِّها فيقولُ :

(١) مُشْتَرَكُ العقلِ : مُخْتَطِطُهُ ومُتَبَسِّطُهُ .

(٢) أرضٌ مُقَشَّعَةٌ : مُجْبِيَّةٌ ، لم يزل عليها مطرٌ .

« يا أبت هل رأيت قبلي أحداً قدّر أن يدفع عن قلبه هواه ، أو ملك أن يسلي نفسه ، أو استطاع أن يدفع ما قضي به عليه ؟ والله لو قدّرت أن أمحو ذكركها من قلبي ، أو أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، وإنما هو بلاءٌ بليت به لحين قد أتيت لي ، وأنا أمتنع من طروق هذا الحَيِّ والإلام به ولو ميت كمدك ، وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه . »

وبكاء النبي ﷺ عندما سمع قيس بن عاصم يحدث عن نفسه أنه كان يمدُّ يده في الجاهلية ، وأن واحدةً منهنّ ولدتها أمها وهو في سفر فدفعتها إلى أخوالها ضناً بها على الموت ، وإشفاقاً عليها ، فلما عاد وسألها عن الحمل قالت له إنها ولدت مولوداً ميتاً ، ثم مضت على ذلك سنون عدّة حتى كبرت البنت ويفت ، فزارت أمها ذات يوم فرأها عندها فأعجب بجمالها وعقلها وذكاها ، وسألها عنها فحدثته حديثها على وجهه ، ولم تكتمه شيئاً منه ؛ طمعاً في أن يضمها إليه ويمنحها رحمته وعطفه فأمسك عنها أياماً ، ثم تغفل أمها عنها ذات يوم ، وخرج بها إلى الصحراء حتى أبعد ، فاحترق لها حُفرةٌ وجعلها فيها ، فجعلت تقول : « يا أبت ما تريد أن تصنع بي ؟ وما هذا الذي تفعل ؟ » وهو يهيل عليها التراب ولا يلتفت إليها ، وهي تنهت وتقول : « أ تاركى أنت يا أبت وحدي في هذا المكان ، ومنصرف عني ؟ » حتى واراها وانقطع أنينها .

وبكاء الأعرابية التي مات منها ولدها في دار غربة فدفنته ، ثم وقفت على قبره تودّعه وتقول : « والله يا بني لقد غدوتك رضيعاً ، وفقدتك سريعاً ، وكأن لم يكن بين الحالين مدةٌ ألتد بعيشك فيها ، فأصبحت بعد الغضارة والنضارة ، وروّقت الحياة والتنسّم بطيب روائحها ، تحت أطباق الثرى جسداً هامداً ، ورُفائاً سحيقاً ، وصعيداً جرّوا . اللهم إنك قد وهبت لي قرة عين فلم تمتنعني به كثيراً ، بل سلّبتني وشيكاً ، ثم أمرتني بالصبر ، وعدتني عليه الأجر ، فصدقت وعدك ، ورضيت قضاءك ، فأرحم اللهم غربته ، وأنس وحشته ، واستر عورته ، يوم تنكشف الهنات والسوات . واكُكّل الوالدات ! ما أمض حرارة قلوبهن ، وألقى مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقل أنسهن ، وأشدّ وحشتهن ، وأبعدهن من السرور ، وأقربهن من الأحران ! »

وشقاء ذينك البائسين المنكوبين ؛ عروة بن حزام وعفراء بنت عقال ، ومناصبته الدهر لهما وانقطاع سبيله بهما ، حتى أصبحت زوجاً لغيره ، وأصبح من بعدها هائماً مخيلاً ، يرمي بنفسه المرامي ويقذف بها في فيجاج^(١) الأرض ومخارمها^(٢) ، حتى بلغ منزلها ذات يوم ؛ فتنكر حتى زارها وهو يظن أن زوجها لا يعلم من أمره إلا أنه أحد الأضياف الغرباء ، فلما علم أنه يعرف حقيقة أمره ، وأنه على ذلك لا يتهمه ولا يتنكر له عزم على الانصراف حياءً منه ، وقال لها : « يا عفراء ، أنت حظي من الدنيا وقد ذهبت فذهبت دنياي بذهابك ؛ فما قيمة العيش من بعدك ، وقد أجمل هذا الرجل عشتري واحتمل لي ما لا يحتمله أحدٌ لأحد حتى استحيت منه ، وإنني راحلٌ من هذا المكان ، وإنني عالمٌ أنني أرحل إلى منيتي ! » وما زال يبكي ويبكي حتى انصرف ، فلما رحل نكس بعد صلاحه وتماسكه ، وأصابه غشي وخفقان ، فكان كلما أغمي عليه ألقى على وجهه خماراً لعفراء ، كانت زودته إياه ، فيفيق حتى بلغ حيّه ، وأمسك عاماً كاملاً لا يسمع منه سامعٌ كلمةٌ ولا أنه ، حتى بلغ منه اليأس فسقط مريضاً ، فمر به بعض الناس فرأه ملقى بجانب خباته ، فسأله عما به فوضع يده

(١) الفِجَاج : جَمْعُ فَج ، وهو الطريق الواسع البعيد . (٢) المخارم : جَمْعُ مَخْرَم ، وهو الطريق في الجبل أو الرمل .

على صدره وقال :

كَأَنَّ قِطَاةً عَلِقَتْ بِجَنَاحِهَا عَلَى كَيْدِي مِنْ شِدَّةِ الْخَفَقَانِ

ثم شَهَقَ شَهَقَةً كَانَ نَفْسُهُ فِيهَا ، فَلَمَّا بَلَغَ عَفْرَاءَ خَيْرِهِ قَامَتْ إِلَى زَوْجِهَا ، وَقَالَتْ لَهُ : « قَدْ كَانَ مِنْ خَيْرِ ابْنِ عَمِّي مَا كَانَ ، وَقَدْ مَاتَ فِيَّ وَبِسَبِي وَلَا بُدَّ أَنْ أَنْذِبَهُ وَأَقِيمَ مَأْتَمًا عَلَيْهِ . » فَقَالَ : « افْعَلِي . » فَمَا زَالَتْ تَنْذِبُهُ ثَلَاثًا حَتَّى مَاتَتْ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ .

وَشَقَاءُ سَعْدِ الْوَرَّاقِ بَحْبُ عَيْسَى النَّصْرَانِيِّ حِينَمَا عَلِمَ أَنَّ أَهْلَهُ قَدْ بَنَوْا لَهُ دِيرًا بِنَوَاحِي الرِّقَّةِ لِيَتَرَهَّبَ فِيهِ ، وَيَحْتَجِبَ عَنِ النَّاسِ ؛ فَضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا بِمَا رَحِبَتْ ، وَأَحْرَقَ بَيْتَهُ وَفَارَقَ أَهْلَهُ وَإِخْوَانَهُ ، وَلَزِمَ صَحْرَاءَ الدَّيْرِ عُلَّةً يَجِدُ السَّبِيلَ إِلَى الْوَصُولِ إِلَيْهِ ، فَاِمْتَنَعَ عَلَيْهِ ذَلِكَ بَعْدَ مَا ذَلَّ لِلرُّهْبَانِ وَتَخَضَّعَ لَهُمْ ، وَتَأْتَّى لَهُمْ بِكُلِّ سَبِيلٍ فَلَمْ يُجِدْهُ ذَلِكَ شَيْئًا ، فَصَارَ إِلَى الْجَنُونِ وَخَرَقَ ثِيَابَهُ وَأَصْبَحَ عُريَانًا هَائِكًا ، لَا شَأْنَ لَهُ إِلَّا أَنْ يَقِفَ بِكُلِّ طَائِفٍ يَرَاهُ عَلَى شَجَرَةٍ ؛ فَيُنَاشِدُهُ اللَّهُ أَنْ يُلْغِ رِسَالَتَهُ إِلَى عَيْسَى ، حَتَّى رَأَى بَعْضُ النَّاسِ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ مِيتًا إِلَى جَانِبِ الدَّيْرِ .

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ مَوَاقِفِ الْبُؤْسِ وَمَصَارِعِ الشَّقَاءِ ، كَأَنَّمَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الدُّمُوعَ مَظْهَرُ الرَّحْمَةِ فِي نَفُوسِ الْبَاكِينَ ، فَلَمَّا أَحْبَبْتُ الرَّحْمَةَ أَحْبَبْتُ الدُّمُوعَ لِحَبِهَا ؛ أَوْ كَأَنَّمَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الْحَيَاةَ مُوْطِنَ الْبُؤْسِ وَالشَّقَاءِ ، وَمُسْتَقَرُّ الْأَلَامِ وَالْأَحْزَانِ ، وَأَنَّ الْبَاكِينَ هُمْ أَصْدَقُ النَّاسِ حَدِيثًا عَنْهَا ، وَتَصَوِيرًا لَهَا ، فَلَمَّا أَحْبَبْتُ الصَّدَقَ أَحْبَبْتُ الْبُكَاءَ لِأَجَلِهِ ؛ أَوْ كَأَنَّمَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ بَيْنَ حَيَاتِي وَحَيَاةِ أَوْلَئِكَ الْبَائِسِينَ الْمُنْكَوِبِينَ شَبْهًا قَرِيبًا وَسَبَبًا مُتَّصِلًا ، فَأَنْسَيْتُ بِهِمْ وَطَرَيْتُ بِنَوَاحِيهِمْ طَرَبَ الْمَحَبِّ بَنُوْحَ الْحَمَائِمِ ، وَبُكَاءِ الْغَمَائِمِ ، أَوْ كَأَنَّمَا كُنْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى بَعْضِ قَطَرَاتِ مِنَ الدَّمْعِ أَنْفَرَجُ بِهَا مِمَّا أَنَا فِيهِ ، فَلَمَّا بَكَى الْبَاكُونَ وَبَكَيْتُ لِبُكَائِهِمْ وَجَدْتُ فِي مَدَامِعِهِمْ شِفَاءَ نَفْسِي ، وَسُكُونًا لَوْعَتِي ؛ أَوْ كَأَنَّمَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ جَمَالَ الْعَالَمِ كُلِّهِ فِي الشَّعْرِ ، وَأَنَّ الشَّعْرَ هُوَ مَا تَفَجَّرَ مِنْ صُدُوعِ الْأَفْعَدَةِ الْكَلِمَةِ ^(١) فَجَرَى مِنْ عَيُونِ الْبَاكِينَ مَعَ مَدَامِعِهِمْ ، وَصَبَدَ مِنْ صُدُورِهِمْ مَعَ زَفَرَاتِهِمْ .

تِلْكَ أَيَّامِي الَّتِي سَعِدْتُ بِهَا بِرَهَةٍ مِنَ الدَّهْرِ ، وَمَرَّ لِي فِيهَا أَحْسَنُ مَا مَرَّ لِأَحَدٍ ، وَالَّتِي لَا أَزَالُ أَذْكُرُهَا بَعْدَ مُرُورِ تِلْكَ الْأَعْوَامِ الطُّوَالِ ، فَكَأَدُ أَشْرَقَ بِدَمْعِي لَذِكْرَاهَا ، ثُمَّ انْتَشَيْتُ فَوَجَدْتُ يَدِي صِغِيرًا مِنْهَا ، وَإِذَا أَنَا بَيْنَ يَدَيِ هَذَا الْعَالَمِ الْمَظْلَمِ الْمُقْشَعْرِّ - عَالَمِ الْحَقِيقَةِ وَالْأَلَمِ ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَ الْغَرِيبِ الْحَائِرِ إِلَى بَلَدٍ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ وَلَا سَكَنَ لَهُ فِيهِ ؛ فَارْتَيْتُ مَخَازِيَهُ وَشُرُورَهُ وَظِلْمَةَ أَجْوَاثِهِ ، وَاغْبِرَارَ سَمَائِهِ ، وَقَتَالَ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى الذُّرَّةِ وَالْحَبَّةِ ، وَالنَّسْمَةِ وَالْهَبْوَةِ ^(٢) ، وَاتَسَاعَ مَسَافَةِ الْخُلْفِ بَيْنَ دَخَائِلِ الْقُلُوبِ وَمَلَامِحِ الْوُجُوهِ ، وَسُلْطَانِ الْقُوَّةِ عَلَى الْحَقِّ ، وَغَلْبَةِ الْجَهْلِ عَلَى الْعِلْمِ ، وَإِقْفَارِ الْقُلُوبِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَجَمُودِ الْعَيُونِ عَنِ الْبُكَاءِ ، وَعَجْزِ الْفُقَرَاءِ عَنْ قُتَاتِ مَوَائِدِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَتَمَضُّغِ الْأَغْنِيَاءِ بِلُحُومِ الْفُقَرَاءِ .

وَرَأَيْتُ التَّرَائِيَّ بِالرَّذِيلَةِ حَتَّى ادَّعَاهَا لِنَفْسِهِ وَأَنْطَلَحَهَا إِيَّاهَا مَنْ لَا يَتَخَلَّقُ بِهَا طَلِبًا لِرِضَى النَّاسِ عَنْهُ بِرِضَاهِ عَنْهَا ، وَرَأَيْتُ الْبَرَاءَةَ مِنَ الْفَضِيلَةِ حَتَّى قَرَّبَهَا صَاحِبُهَا مِنْ وَجْهِ السَّآخِرِينَ بِهِ وَالنَّاقِمِينَ عَلَيْهِ فَارَّارَ الْعَارِي بِسَوَاتِهِ ، وَالْمُؤَسَمُ بِخَيْرِيَّتِهِ .

(١) الْكَلِمَةُ : الْمَجْرُوحَةُ . (٢) الْهَبْوَةُ : الْغَبْرَةُ .

ورأيتُ الرَّجُلَ والمرأةَ وقد سرا^(١) كلٌّ منهما ثوبَهُ عن جسمه وألقاهُ بين يديه ، ثم تَقَابَضا فلبستُ قُبَاهُ ولبسَ غُلَّالَتَهَا ؛ فأصبح امرأةٌ لها من النساءِ التَّكْسُرُ والتَّبَرُّدُ ، وأصبحتُ رجلاً له من الرجالِ التَّوَقُّعُ والتَّشَطُّرُ^(٢) .

ورأيتُ الدِّينَ ، وهو دَوْحَةُ السَّلامِ الخضراءُ التي يستظلُّ بها الضَّاحُونَ^(٣) من لَفَاحَاتِ الحياة و زَفَرَاتِهَا ، قد استَحَالَ في أيدي النَّاسِ إلى سِيَهَامِ مَسْمُومَةٍ يحاولُ كلٌّ منهم أن يُصِيبَ بها كبدَ أخيه فلا يخطئها .

ورأيتُ ضلالَ الأسماءِ عن مُسمَّياتِها ، وحيرةَ مُسمَّياتِها بينها واضطرابَ الحدودِ والتَّعَارِيفِ عن أماكِنِها ومواقِفِها ؛ حتَّى دَخَلَ فيها ما لم يكنْ دَاخِلًا ، وخرج منها ما لم يكنْ خَارِجًا ، فسُمِّيَ الشُّحُّ^(٤) اقْتِصَادًا ، والكَرَمُ إِسْرَافًا ، والحِلْمُ جَبْنًا ، والسَّامَجَةُ جَرَأَةً ، والسَّفَاهَةُ بَرَاعَةً ، والفَجُورُ قُوَّةً ، والتَّبَدُّلُ حُرِيَّةً ، واشتبهتُ طرقَ الفضيلةِ ومسالكَها على مَنْ يريدُ رُكُوبَها لأنَّه يجدُ على رأسِ كلِّ واحدةٍ منها زعيمًا من زعماءِ الخديعةِ والكذبِ ، يصرفُه عنها إلى غيرها .

وكنْتُ أرى أنَّ الأدبَ حالٌ قائمةٌ بالنَّفْسِ ، تمنعُ صاحبَها أنْ يُقدِّمَ على شرٍّ أو يحدثَ نفسَهُ به ، أو يكونَ عونًا لفاعليهِ عليه ، فإنْ ساقَتْهُ إليه شهوةٌ من شهواتِ النَّفْسِ ، أو نزوةٌ من نزواتِها وجَدَ في نفسه عندَ عَشْيَانِهِ ومخالطَتِهِ من المَقْصُصِ^(٥) والارتماضِ^(٦) ما يَنْغُصُ عليه عيشَتَهُ ، ويُقَلِّقُ مضجَعَهُ ، ويَطِيلُ سَهْدَهُ وألمَهُ ، فإذا هو صورةٌ من صورِ الجوارحِ وعَرَضٌ من أعراضِ الجسمِ لا دَخَلَ له في جوهرِ النَّفْسِ ، ولا علاقةٌ بينهُ وبينَ الحسِّ والوجدانِ .

فأكثَرَ النَّاسَ عندَ النَّاسِ أدبًا ، وأقوَمَهُم خُلُقًا ، وأطهرَهُم نفسًا ، مَنْ لا يفي على شَرَطٍ أنْ يَدَعَ ، وَمَنْ يكذبُ على أنْ يكونَ كَذِبُهُ سائغًا مهذبًا ، وَمَنْ يملأُ صدرَهُ مَوْجِدَةً^(٧) وحقَّدًا على أنْ يكونَ بِسَامًا ضحوكَ السِّنِّ ، وَمَنْ يسرقُ على أنْ يستطيعَ العبثَ بموادِّ القانونِ وخداعَ القضاةِ عنها ، وَمَنْ ييغُضُ النَّاسَ جميعًا بقلبه ، على أنْ يحبَّهُم جميعًا بلسانه ، وَمَنْ يحفظُ تلكَ المصطلحاتِ اللفظيةَ ، وتلكَ الصُّورَ الجافَّةَ مِنَ الحركاتِ الجسميَّةِ التي تواضعَ عليها المتكَلِّفونَ في الزَّيَّارةِ والاستِزارةِ ، والهناءِ والعزاءِ ، والمؤاكلةِ والمنادمةِ ، وأمثال ذلك مما يرجعُ العلمُ به غالبًا إلى صِغَرِ النَّفْسِ وإسفافِها ، أكثَرَ مما يرجعُ إلى علوِّها وكمالِها . فداخِلني من ذلك هَمٌّ عظيمٌ لم أستطعُ أنْ أملكَ نفسي معه ، كأنما خيَّلَ إليَّ - لقربِ عهدي بما أرى - أنني أرى شيئًا عجيبًا ، أو منظرًا غريبًا ، أو كأنما كنتُ أحسبُ أنْ عالمَ الخيالِ الذي كنتُ فيه ، إنما هو صورةٌ صحيحةٌ لعالمِ الحقيقةِ الذي أنقلُ إليه ، فأزعِجُني ما رأيْتُ من هذا الاختلافِ العَظِيمِ بينهما ؛ فأرسلْتُ الكلمةَ إثرَ الكلمةِ كما يتنَفَّسُ المتنَفِّسُ أو يئنُّ الحزينُ ، فرأى ذلك بعضُ النَّاسِ فسمَّوْا ما رأوه كلامًا ، ثم ما زالوا يستحسنونَ ما أقولُ ويغرونني بأمثاله ، وما زلتُ أطمعُ فيهم وأرجو أنْ أصيبَ ما في نفوسِهِم حتَّى رأيتُني كاتبًا .

ولقد كانَ لهذا الأدبِ الذي تولَّيتُ نفسي به أثرٌ باقٍ عندي إلى هذه الساعةِ التي أكتبُ فيها رسالتي هذه ، فإنِّي لا أحسنُ حتَّى اليومِ أنْ أكتبَ كلمةً يُفْضِي بها إليَّ غيري ، أو أعبرَ عن معنى لا

(١) سَرَا الثَّوبُ عن جسمه : ألقاهُ عنه . (٢) تَشَطَّرُ : صارَ شاطرًا ، والشَّاطِرُ هو من أعيا أهلَهُ خبيثًا .

(٣) الضَّاحِي : المتكشِّفُ للشمسِ . (٤) الشُّحُّ : البخلُ . (٥) المَقْصُصُ : الألمُ .

(٦) الارتماضُ : اشتدادُ القلقِ ، والحزنُ . (٧) الموجدةُ : الغضبُ .

يقوم بنفسه ، أو أبكي على مَنْ لا يُحزنني فراقه ، أو أندب مَنْ لا يفجعني موته ، أو أستنكر ما أستحسن ، أو أستحسن ما أستنكر . كما لا أستطيع أن أمر بمشهد من تلك المشاهد التي تهيج في نفسي حزناً شديداً ، أو طرباً كثيراً ، فأملك نفسي عن محاولة الإفضاء بما تركه عندي من خير أو شر . وما أعلم أنني كتبت كلمة في شأن من الشؤون إلا وكان بعض تلك المشاهد منشأها في قلبي ؛ فقد كنت رجلاً لا أحب الكذب ولا أحمل نفسي عليه ما وجدت منه بدءاً ، فأبغضت الكاذبين بغض الأرض للدم ، فكان من همي أن أقاتلهم على الصدق قتالاً مستحراً^(١) حتى أصل بهم إلى إحدى الحسنيين : إما أن يكونوا صادقين ، وإما أن يعلم الناس أنهم كاذبون .

وكننت إنساناً بائساً لم يترك الدهر سهماً من سهامه النافذة لم يرمني به ، ولا جرعة من كؤوس مصائبه وزاياه لم يجرعني إياها ، فقد ذقت الدلّ أحياناً ، والجوع أياماً ، والفقر أعواماً . ولقيت من بأساء الحياة وضرائها ما لم يلق بشراً ، فشعرت بمرارة الحياة في أفواه المساكين ، ورأيت مواقع سهام الدهر في أكباد البائسين والمنكوبين ؛ فكان من همي أن أبكي كل بائس ، وأندب كل منكوب ، وأطلب رحمة القوي للضعيف ، والغني للفقير ، والعزير للدليل .

وقدّر لي فيما مرّ بي من أيام حياتي ، أن رأيت بعيني مَنْ وقفت بين يديه امرأة ذليلة تبكي وتضرع إليه أن يرضخ لها بقليل من المال ؛ لتستعين به على ستر ما كشف ابنه من سوءة ابنتها ، فأبى ذلك عليها ، وقال لها وهو يحسب أنه يعلم ما يقول : « أيتها المرأة لا حقّ لابنتك عندي ولا عند ولدي ؛ فلم يكن حظها منها فيما كان من أمرهما بأكبر من حظها منه . » ورأيت مَنْ تزوج فتاة كان يمسك في نفسه لأهلها حقدًا قديماً ، فما دنا منها ليّلة البناء^(٢) بها حتى صدّ عنها صارخاً : « أيتها الناس إنّ الفتاة مريّة . » وكان كاذباً فيما يقول ، ولكن صدقه الناس ، فانتقم لنفسه بذلك شرّ انتقام وأقذعه .

ورأيت مَنْ دخلت إليه امرأة من أولئك النساء المربيات تسأله بعض المعونة على أمرها ، فأمر بطردها ذهاباً بنفسه أن تسوء بمكانها ، وكان هو الذي أفسدها على نفسها ؛ فنزل بها فسادها إلى هذه المنزلة من السقوط ثم الفقر ، فلما جدّ الجدّ حاسبها على لقمة تتذوقها في بيته ، ولم يحاسب نفسه على عرض كان يأكله في بيتها أكلاً ؛ فكان بي منذ ذلك العهد أن أنظر إلى المرأة بعين غير التي ينظر بها الناس إليها ، وأن ألتمس لها من العذر - وإن زلت بها قديم - ما لا يلتمسه لها أحد ، وأن أنتصفت لها من الرجل كلما وجدت السبيل إلى ذلك ، حتى يُدبّل^(٣) لها الله منه . وكنّت من شؤون عيشي في حالة لا أستطيع معها أن أعترل الناس الاعتزال كله ، ولا أن أختار لعشرتي مَنْ أشاء من خيارهم وذوي المروءة فيهم ، فلبستهم^(٤) على علائهم فما حفظ لي صديق عهداً ، ولا صان لي صاحب سرّاً ، ولا استندت مرة فنفس عني دائن ، ولا دنت قوفي لي مدين ، ولا ردّ لي مستعير عارية ، ولا شكر لي شاكر صنيعة ، ولا فرج لي كرتي مفرج إلا إذا استقطر ماء وجهي إلى القطرة الأخيرة منه ، ليأخذ أكثر مما أعطى ، ويسلب فوق ما وهب .

ووجدت في طريق حياتي مَنْ خالطني مخالطة الزائر للمزور ، حتى أمكنته الفرصة فسرق مالي

(٢) بَنَى بها : دخل بها .

(١) قَاتَلَ مُسْتَحَرّاً : قتال شديداً .

(٤) لَيْسَ النَّاسُ : عاش معهم .

(٣) أَدَالَ مُلَانًا : تصرّ وعُلبه عليه وأظفّره به .

بعد ما تحرم^(١) بطعامي وشرابي ؛ ومن كان يتردد وجهه في وجهي فأكره أن أردّه بالأمل الخائب ، فلما عجزت عن ذلك مرة أضمر لي في قلبي من الشر ما لا يضر مثله الرجل إلا لمن يغلبه على ثراث أبيه وأمه ، أو يخضب لحيته من دم مفرقه ؛ ومن نصّب^(٢) لي وعري^(٣) بمحادثي ومماطلي^(٤) لأنه كان يحمل في رأسه فتكة لم يجد في طريقه من يحملها عنه ويستخذي^(٥) له فيها سواي ؛ ومن أخذ نفسه بالنيل مني والغضب من شأني لأنه كان يشكو الخمول والضعة ، وكان لا بد له من أن يكون نابهاً مذكوراً ، فاتفق له أن رأى عاتقي بين يديه فظن أنه أعلى العواتق وأبعدها مذهياً في جو السماء ، فعلاه ليشرف منه على الناس فيعرفوا مكانه ، فوالله ما تخللت^(٦) ولا نبوت^(٧) به ؛ بقياً عليه وضناً به أن يسقط سقطه لا يعل منها ؛ ومن كان لا يكبر شأني إلا إذا اتقاني فإذا أضاء ما بيني وبينه كنت في عينه أصغر منه في عين نفسه ؛ ومن كان يقبل ويدبر بإقبال الدهر علي وإدباره عني ، ثم لا يستحي من ذلك حتى استحيي له منه ، فعركت بجنبي^(٨) أكثر ما كرهت من ذلك ، ولكنني لم أرض لنفسي أن أنزل في القرارة^(٩) والغفلة دون المنزل التي يندخ فيها الغر الكريم ، فأصبح رأيي في الناس غير رأيهم في أنفسهم ورأي بعضهم في بعض ، وخفت أن يصيب كثيراً من الضعفاء والمحدودين^(١٠) أمثالي مثل ما أصابني ، فكان من همي أن أنيش دفائنهم خيراً كانت أو شراً ، وأن أكشف أثوابهم عن أجسامهم ، وأجسامهم عن نفوسهم ، حتى يترأوا ويتكاشفوا فيتواقوا ويتحاجزوا ؛ فلا يهنا خادع بخدعته ، ولا ييكى مخدوع على نكته ، ولا يتخذ بعضهم حُمراً يركبونها إلى أغراضهم ومطامعهم .

وكان منشغي في قوم بداءة سدج لا يتغون بدينهم ديناً ، ولا بوطنهم وطناً ، ثم ترامى بي الأمر بعد ذلك وتصرفت بي في العيش شؤون جمّة ؛ فخضعت لكثير من أحكام الدهر وأقضيته ، إلا أن أكون ملجداً في ديني ، أو زارياً على وطني . فاستطعت ، وقد غمر الناس ما غمرهم من هذه المدينة الغريبة ، أن أجلس ناحية منها وأن أنظر إليها من مرقب عالٍ ، وكنت أعلم أن من أعجز العجز أن ينظر الرجل إلى الأمر نظرة طائفة حمقاء ، فإما أخذه كله وإما تركه كله ، فرأيت حسناتها وسيئاتها ، وفضائلها وذنابلها ، وعرفت ما يجب أن يأخذ منها الآخذ وما يترك التارك ، فكان من همي أن أحمل الناس من أمرها على ما أحمل عليه نفسي ، وأن أنقم من هؤلاء العجزة الضعفاء تهالكهم^(١١) لها ، واستهتارهم بها ، وسقوط نفوسهم أمام ذنابلها ومخازيها ، وإلحادها وزندقتها ، وشحها وقسوتها ، وشرها وحريصها ، وتبذلها وتهتكها ، حتى أصبح الرجل الذي لا بأس بعلمه وفهمه إذا حزبه^(١٢) الأمر في مناظرة بينه وبين من يأخذ برذيلة من الرذائل لا يجد بين يديه ما ينضح^(١٣) به عن نفسه إلا أن يعتمد عليها في الاحتجاج على فعل ما فعل ، أو ترك ما ترك ، كأنما هي القانون الإلهي الذي تثوب إليه العقول عند اختلاف الأنظار ، واضطراب الأهواء ، أو القانون المنطقي الذي تورن به التصديقات والتصورات لمعرفة صوابها وخطئها وصحیحها وفاسدِها ، وحتى

(١) تحرم فلان بفلان : عاشره ومالحه وتأكلت الحرمة بينهما . (٢) نصّب فلان لفلان : عاداه .

(٣) عري : تمادى في غضبه . (٤) المماطة : المخاصمة والمشاكمة . (٥) استخذي : خضع وذل .

(٦) تخللت : تحرك وزال عن موضعه . (٧) نبا : تباعد . (٨) عرك بجنبي : أحمل ذنب صاحبه . (٩) القرارة : الغفلة .

(١٠) المحدود : المحروم ، ويراد به سبي الحظ . (١١) التهالك : الإقبال على الشيء في حرص شديد .

(١٢) حزبه الأمر : اشتد عليه . (١٣) ينضح عن نفسه : يدفع عنها .

أصبح السيد في منزله يستنحي من خادمة مطبخه الأوروبية أن تطلع منه على جهل ببعض عاداتها وعادات قومها حتى في لبس الرداء ، وخلع الحذاء ، أكثر مما يستحي من الله ومن الناس أن يهجموا منه على أرذل الرذائل ، وأكبر الكبائر ، وحتى أصبح تاريخ المشرق وتاريخ علمائه وأدبائه وفلاسفته وشعرائه صورة من أقيح الصور وأسمجها ، في نظر كثير من الشرقيين الذين أصبحوا يفخرون بجهل تاريخهم إن جهلوه ، ويؤاؤون بجهله إن علموه ، وحتى قدر ذلك الغلام الرومي خادم الحان أو القهوة منفرداً على ما لم تقدر عليه الأمة جميعها مجتمعة ، فحملها على النزول إليه لتحلته بلغته ، قبل أن تحمله على الصعود إليها ليحدثها بلغتها ، وهو إلى أن يرضأها ويستدنيها أحوج منها إلى أن تردلف^(١) إليه وتنزل على حكمه .

فذلك ما تراه في رسائل النظرات منتشراً ههنا وههنا ، قد شعر به قلبي ففاض به قلبي من حيث لا أكذب الناس عن نفسي ، ولا أكذب نفسي عنها ، ولو كان بي أن أكذبهم لكذبتهم فيما يرضيهم ، وما أعلم أنني أخطأهم به وأنال به الأثرة الخالدة في نفوسهم ، ولو أردت ذلك منهم لما كان بيني وبين خاصتهم ، إن أردت الخاصة ، إلا ثلاث كلمات : السخرية بالآديان ، واحتقار تاريخ المشرق ، والقول بتبرج المرأة وسفورها ، ولا كان بيني وبين عامتهم ، إن أردت العامة ، إلا ثلاث أخرى : سب الكفار ، وعبادة الأضرحة ، والجمود على كل قديم .

وعندي أن الكاتب المسخر الذي لا شأن له إلا أن يكتب ما يفضي به الناس إليه ، صانع غير كاتب ، ومترجم غير قائل ، لا فرق بينه وبين صائغ الذهب وثاقب اللؤلؤ ، كلاهما ينظم ما لا يملك ، ويتصرف فيما لا شأن له فيه .

على أن خير ما ينتفع به الأديب من أدبه أن يترك ، يوم وداعه لهذه الدنيا ، صفحة يقرأ فيها الناطرون في تاريخه من بعده من أبنائه وشيعته وذوي رحمه صورة نفسه ، ومضطرب آماله ، ومسرح أحلامه . فإذا كان كل شأنه في حياته أن يكون مرآة تتقلب فيها مختلفات الصور ، أو وبيعة^(٢) تتمسح بها أحواد الأقلام ، كان خسارته عظيماً ، لا يقوم به كل ما يريح الراحون من مالي أو يؤثلون^(٣) من جاه ، والتاريخ أضن^(٤) من أن يحفظ بين دفتيه من مجد الأديان إلا مجد أولئك الذين يودعون نفوسهم صفحات كتبهم ، ثم يموتون وقد تركوها نقيّة بيضاء من بعدهم . وحياء الكاتب بحياة كتابته في نفوس قرائها ، ولا تحيا كتابته كاتب سيعلم الناس من أمره - بعد قليل - أنه يكذبهم عن نفسه وعن أنفسهم ، وأنه رواغ متخلج^(٥) بأمرهم اليوم بما ينههم عنه غداً ، ويرى في ساعة ما لا يرى في أخرى ، وأنه يستبكي ولا يبكي ، ويسترحم ولا يرحم ، ويحرك النفوس وهو ساكن ، ويشير الثائرة وهو سالم ، فيستريون به ، ويحارون في مصادره وموارده ، ثم يحملون أمره على شر حاله ، ثم ينقطع ما بينهم وبينه .

والبيان ليس سيلة من السلع التي يتنقل بها تجارها من سوق إلى سوق ، ومن حانوت إلى آخر ، ولكنه حركة طبيعية من حركات النفس تصدر عنها عفواً بلا تكلف ولا تعمل صدور النور عن الشمس ، والصدى عن الصوت ، والأريج عن الزهر ، وشعاع لامع يشرق في نفس الأديب إشراق

(٢) الوبيعة : خرقعة يمسح بها القدم .

(٤) المتخلج : المضطرب في مشيته .

(١) تردلف : تدنو وتتقلم .

(٣) أثل : كثر ماله ، والشيء أصله .

المصباح في زجاجته ؛ وينبوع نزار^(١) يتفجر في صدره ثم يفيض على أسلات^(٢) قلمه . وهو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود ، ولو أن أمراً من ذلك كائن لكان أبرع الكتاب وأشعر الشعراء ، أغزرهم مادة في العلم أو أعلمهم بقواعد اللغة أو أجمعهم لتونها أو أحفظهم لفصيح القول ورائع . أما العلم فأكثر المؤلفين الذين تركوا بين أيدينا هذه الأسفار التي نقرأها في الشريعة والحكمة والمنطق وغيرها كانوا علماء ، ما يتدافع في ذلك اثنان ، وما قد مرّت علينا وعلى ما تركوه بين أيدينا القرون والحب ، وأكثرنا عاجز عن فهم أكثر ما كانوا يكتبون . وأما المحفوظات فما نعلم أحداً أحفظ لكتاب الله من جماعة القراء ولا أحفظ للحديث من الفقهاء ولا أقل منهم إلماماً بالأدب ولا أبعد منهم عنه مكاناً . وأما اللغة فما عرفنا بين المتقدمين والمتأخرين من رواياتها وحفاظها ، والمتوقفين على تدوينها وتحقيقها ، والمنقطعين لدرس قواعدها وفنونها ، من عرفت له البراعة والتفوق في تخيير الرسائل ، أو قرض الشعر ، أو القوة القلمية في التصنيف في غير ما أخذوا أنفسهم به . وكان الخليل بن أحمد إذا سئل عن نظم الشعر قال : « ياباني جيده وأبي رديقه » . وكان الأصمعي يحفظ ثلث اللغة ، وأبو زيد الأنصاري يحفظ نصفها ، وأبو مالك الأعرابي يحفظها كلها ، وكذلك كان شأن النضر بن شميل وأبي عبيدة وابن دريد والأزهري والصاغاني وابن فارس وابن الأثير صاحب النهاية والجريري والفيروزبادي ، وأمثالهم من علماء اللغة والنحو ، وما سمعنا لواحد منهم في إحدى الصناعتين^(٣) شيئاً مذكوراً . وقال أبو العباس المبرد في بعض أحاديثه : « لا أحتاج إلى وصف نفسي ؛ لعلم الناس بي أنه ليس أحد من الخافقين^(٤) تخلج في نفسه مشكلة إلا لقيني بها ، وأعدني لها ، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس ، لا يخفى عليّ مشتبه من الشعر والنحو والكلام المنشور والخطب والرسائل ، وربما احتجت إلى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة فأجعل المعنى الذي أقصده نصّب عيني ، ثم لا أجد سبيلاً إلى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغني أن عبيد الله بن سليمان ذكرني بجميل ، فحاولت أن أكتب إليه رقعة أشكره فيها وأعرض ببعض أموري ، فأتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها ، وكنت أحاول الإفصاح عما في نفسي فيصرف لساني إلى غيره » . اهـ .

بل لو شئت لقلت إنه ما أفسد على المكتبي وأبي تمام كثيراً من شعرهما ، ولا على المعري كثيراً من منظومه ومنشوره ، ولا على الحريري مقاماته ، ولا على ابن دريد مقصودته ، إلا غلبت اللغة عليهم واستهناهم بها وشغفهم بتدوينها في كل ما يكتبون ؛ فقد كانوا هم وأمثالهم من حبائس^(٥) اللغة وأنصائها^(٦) في كثير من مواقفهم يؤلفون ويدونون ، من حيث يظنون أنهم ينظمون أو يكتبون . ولا تزال نفسي تشتمل على لوعة من الحزن لا تفارقها حتى الموت ، كلما ذكرت أن الأدب العربي كان يستطيع أن يكون خيراً مما كان ؛ لو أن الله كتب للزوميات المعري النجاة من قبضة اللغة وأسر الالتزام . وإنك لا تكاد ترى اليوم من شعراء هذا العصر وكتابه الذين يأخذون بزمام هذا المجتمع العربي ، ويقومون عالمه ويقعدونه بقوتهم القلمية في شؤونه السياسية والاجتماعية والأدبية كافة ، من يعد من حفاظ اللغة العربية وثقاتها ، أو من يسلم له مقال من مأخذ لنحوي أو معجم^(٧) للغوي ، وهم

(١) نزار : غير متدق . (٢) الأسلات جمع أسلة ، وهي طرف الشيء المستقي . (٣) الصناعتان : الشعر والنثر .

(٤) الخافقان : المشرق والمغرب . (٥) الحبايس : جمع حباسة ، وهو شبه حوض يجمع فيه الماء .

(٦) الأنصاء : جمع نظرو ، وهو البعير المهزول ، ويستعمل للإنسان أيضاً . (٧) المعجم : العيب .

على ذلك عندي أدخل في باب البيان ، وألصق به وأمس به رحماً ، من أولئك الذين يستظهرون متون اللغة ، ويحفظون دقائقها ويحيطون بمتاريفها ومتواردها ، ويتباصرون بشاذها وغريبها ، ويحملون في صدورهم ما دق وجل من مسائل نحوها وتصريفها . فإذا عرض لهم غرض من الأغراض في أي شأن من شؤون حياتهم ، وأرادوا أنفسهم على الإفضاء به ؛ أرتج^(١) عليهم فأغلقوا ، أو تقفروا وتشدقوا ، فكأنهم لم ينطقوا . والفرق بين الأدباء واللغويين أن الأولين كاتبون ، والآخرين مصححون ، فمثلهما كمثل النساج وعامله ، هذا ينسج الثوب وهذا يلتقط زوائده ويمسح عنه زبیره^(٢) ، أو كمثل الشاعر والعروضي ، هذا ينظم الشعر وهذا يعرضه على تفاعيله وموازينه .

وليس البيان ذهاب كلمة ومجيء أخرى ، ولا دخول حرف وخروج آخر ، وإنما هو النظم والنسق ، والانسجام والاطراد ، والماء والروني ، واستقامة الغرض وتطبيق المفصل ، والأخذ بالنفوس وامتلاك أزمه الهواء . فإن صح ذلك لامرئ فهو الكاتب القدير ، أو الشاعر الجليل ، فإن زلت به قدم في وضع حرف مكان حرف ، أو غلب على لسانه دخيل ، أو خرج من يده أصيل ، أو كان ممن يفوته العلم ببعض قواعد اللغة أو بعض وجوه الاستعمال فيها ، كان ذلك عيباً لا حقا بعلمه أو بحافظته ، لا ببيانه وفصاحته . ومتى صدر القائل في قوله عن سجية وطبع ؛ أصبح شأنه شبيهاً بشأن العرب الأولين ، وكان من شأنهم أن يسبقهم إلى كلامهم الخطأ اللفظي في بعض الأحيان ، وكان السبب في ذلك - كما يقول أبو علي الفارسي - أنهم كانت تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، وربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد من حيث لا يشعرون . وكما أن الجسم لا يغير صورته ولا يقلب سحنته أن تطير منه ذرة وتخل أخرى محلها لثمتلها ، كذلك لا يغير صورة الكلام ولا يذهب بنسقه خروج أصيل ، أو دخول دخيل ، ولقد قيل لأحد الكتاب الإنجليز : « نراك كثير الإعجاب بالكاتب » كبلنغ وهو رجل كحانة لا يحفل بقواعد اللغة ؛ فأجاب : « إن سطرًا واحدًا مما يكتبه » كبلنغ « أضمن عندي من قوانين اللغة جميعها ، وليس من الرأي أن أحرم نفسي التمتع بأدبه إكراماً لسواد عيون الغراماطيق^(٣) الإنجليزي^(٤) ! »

وقضل الأدباء على اللغة في سيورتها وذبيوعها وتداولها وخلودها أكبر من فضل اللغويين عليها في ذلك ؛ لأنهم هم الذين يمهّدون سبلها ، ويعبدون^(٥) طرقها ، ويستندون نافرًا ، ويجمعون شاردًا ، وينظمون لألفها ، نظم الثاقب لألفه في السلك ، فيأخذها الناس عنهم من أخصر الطرق وأقربها ، وأشهاها إلى النفس ، وأعلقها بالقلب . وقليل من الناس من يأخذ مادّة اللغوية من معاجم اللغة ، أو يكتسب ملكة الإعراب من كتب النحو والتصريف ، وما كانت اللغة عدوة للأدب ، ولا كان الأدب عدواً لها ، بل هي أساسه وقوامه الذي يقوم به . ولكن المشتغلين بها ، والمتفرّفين على دراستها ، والمنقطعين لاستظهارها ، والنظر في دقائقها ، والتعمق في أطوارها ، لا يزال يغلب عليهم الولع بها ، والقناء فيها ، حتى تصبح في نظرهم مقصداً من المقاصد ، لا وسيلة من الوسائل .

وللبیان وسائل كثيرة غير وسيلة اللغة ، فمن لا يأخذ نفسه بجميع وسائله لا يصل إليه ، والتربية العلمية كالتربية الجسميّة ؛ فكما أن الطفل لا ينمو جسمه ، ولا ينشط ولا تبسط أعضاؤه ، ولا تنتشر

(١) أرتج عليهم : استغلق عليهم الكلام .

(٢) زبیره : الزبیر : الرغب والوبر الذي يعلو النسوجات .

(٣) الغراماطيق : اللغويون .

(٤) الإنجليزي : اللغويون .

القوة في أعصابه إلا إذا نشأ في كهوه ولعبه ، وقفزه و وثبه ، كذلك الكاتب لا تنمو ملكة الفصاحة في لسانه ، ولا تأخذ مكانها من نفسه إلا إذا ملك الحرية في التصرف والافتنان والذهاب في مذاهب القول ومناحيه كما يشاء وحيث يشاء ، دون أن يسيطر عليه في ذلك مسيطر إلا طبعه وسجيته . واللغوي لا يزال يحوط نفسه بالحذر والخوف ، والوساوس والبلابل ^(١) ، فإن مشى خيّل إليه أنه يمشی على رملة ميثاء ^(٢) ، وإن تحرك خيّل إليه أن تحت قدميه حفرة جوفاء ، حتى يقعد به خوفه وسواسه عن الغاية التي يريد الوصول إليها . على أن الكاتب لا يبلغ مرتبة الكتابة إلا إذا نظر إلى الألفاظ بالعين التي يجب أن ينظر بها إليها ، فلم يتجاوز بها منزلتها الطبيعية التي تنزلها من المعاني ، وهي أن تكون خدماً لها وخولاً ^(٣) ، وأتواً وظروفاً ، فإذا كتب تركها وشأنها وأغفل أمرها حتى تأتي بها المعاني وتقتادها طائعة مرغمة . والمعاني هي جوهر الكلام ولبّه ، ومزاجه وقوامه ، فما شغل الكاتب من همته بغيرها أزرى بها حتى ثقلت من يده فثقلت من يده كل شيء .

و بعد ، فاعلم والمحفوظات والمقروآت والمادة اللغوية ، والقواعد النحوية ، إنما هي أعوان الكاتب على الكتابة و وسائله إليها ، فالجاهل لا يكتب شيئاً لأنه لا يعرف شيئاً ، ومن لا يظطلع بأساليب العرب ومناحيها في منظومها ومنثورها سرت العجمة إلى لسانه ، أو غلبته العامية على أمره . ومن قلّ محفوظه من المادة اللغوية قصرت يده عن تناول جميع ما يريد تناوله من المعاني . ومن جهل قانون اللغة أغمض الأغراض وأبهمها ، أو شوه جمال الألفاظ وهجتها ، ولكنها ليست هي جوهر الفصاحة ، ولا حقيقة البيان ، فأكثر القائمين عليها ، والمضطلعين بها ، لا يكتبون ولا ينظمون ، فإن فعلوا كان غاية إحسان المحسن منهم أن يكون كصانع التماثيل الذي يصب في قالبه تمثالاً سوياً متناسب الأعضاء ، مستوي الخلق ، إلا أنه لا روح فيه ولا جمال له لأنه ينقصه بعد ذلك كله أمر هو سرّ البيان ولبّه ، وهو الذوق النفسي والفطرة السليمة ، وأتى لهم ذلك وما دخلت الفلسفة أيّاً كان نوعها على عمل من أعمال الفطرة إلا أفسدته ، وما خالط التكلف عملاً من أعمال الذوق إلا شوه وجهه ، وذهب بحسنة وروائه !

ولقد قرأت ما شئت من منشور العرب ومنظومها ، في حاضرها وماضيه ، قراءة المثبت المستبصر ، فرأيت أن الأحاديث ثلاثة : حديث اللسان ، وحديث العقل ، وحديث القلب . فأما حديث اللسان فهو تلك العبارات المنمقة ، والجمل المزخرفة ، أو تلك الكلمات الجامدة الجافة التي لا يعني صاحبها منها سوى صورتها اللفظية ، فإن كان لغوياً تفرّ وتشدق ، وتكلف وأغرب ، حتى يأتلك بشيء ، خير ما يصفه به الواصف أنه متن مشوش من متون اللغة لا فصول له ولا أبواب . وإن كان بديعياً جنس ورصع وقابل وشع وزاوج ، وافق في الإتيان بالكلمة مهملتها كلها أو معجمة كلها ، أو راح بين الإهمال والإعجام فيخيّل إليك وأنت تراه ينطق بما ينطق به كأنما هو يصنعه بيديه صنعاً ، أو يصفقه تصفيكاً ، ثم لا يبالى بعد ذلك باستقامة المعنى في ذاته ولا بمقدار ما لهُ من الأثر في نفس السامع . وهذا الحديث هو أسقط الأحاديث الثلاثة وأذناها ، وأجدرها أن ينظمه الناظم في سلك الصناعات اليدوية ، التي لا دخل للعقل ولا للفهم في شيء منها ، وأن ينظم صاحبها في سلك

(١) البلابل : جمع بلابل ، وهو شدة الهم والوساوس .

(٢) الميثاء : اللينة ، السهلة . (٣) جمع الخوّل ؛ وهو المتعهد للشيء ، المصلح له .

جماعة الصيادلة الذين لا شأن لهم إلا بتحليل المواد وتركيبها ، وجمعها وتفريقها ، والمزاوجة بين مقاديرها ، والموازنة بين أفعالها ، من حيث لا يكون لقوة التصور ، ولا لذكاء القلب ، دخل في هذا أو ذاك .

وأما حديث العقل فهو تلك المعاني التي ينحتها الناجون من أذهانهم نحاً ، ويقتطعونها منها اقتطاعاً ، ويذهبون فيها مذهب المعايه والتحدي والتعمق والإغراب ، ويسمونها تارة تخيلاً ، وأخرى علواً ، وأخرى حسن تعليل ، إلى كثير من أمثال هذه الأسماء والألقاب التي تتفرق ما تتفرق ثم يجمعها شيء واحد هو الكذب والإحالة . آية ما بينك وبينها أنك إذا رأيته شعرت أنك ترى أمامك شيئاً غريباً عن نفسك ، وعن نفس صاحبه ، وعن نفوس الناس جميعاً ، وأن صاحبه لا يريد منه إلا أن يطرلك أو يضحكك أو يدهشك أو يعجبك من ذكائه وفطنته ، واقتداره على تصوير ما لا يتصور ، وإيجاد ما لا يكون ، وهو أمر لا علاقة له بجوهر الشعر ، ولا حقيقة الكتابة ، وربما انعكس عليه حتى غرضه هذا فنفرَكَ وأكذَبَ ، وملاً قلبك غيظاً وقيحاً ، كأن يقول :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لَمَا رَأَيْتَ عَلَيْهَا عَقْدَ مُتَطَقٍ

فإن الجوزاء لا تنتطق ، ولو كان هذا الذي نراه يستدير بها نطاقاً فهو شيء متصل بها قبل أن يخلق الممدوح ويخلق آباؤه الأزلون والآخرين إلى آدم وحواء . والكواكب ليست أشخاصاً أحياء يتخذ منها الناس خدماً وخزناً لأنفسهم ، ولو كانت كذلك لاستحال عليها - وهي من سكان السماء - أن تهبط إلى الأرض لتخدم سكانها ، فقد كذب وأحال أربع مرات في بيت واحد ، ثم عجز بعد هذا كله أن يترك في نفس السامع صورة تمثل جلال ممدوحه ، وعظم شأنه ؛ فهو في الحقيقة إنما يريد بيته هذا أن يمدح نفسه بالإبداع وقوة التخيل ، لا أن يمدح ممدوحه برفعة الشأن وعلو المقام . أو يقول :

ما به قتل أعدائه ولكن بقي إخلاف ما تزجو الذئاب

فإن الذي يحمل في صدره قلباً رحيماً مشفقاً على الذئاب من الجوع ، مستعظماً أن يخلفها ما عودها إياه من طعام وشراب ؛ لا يمكن أن يكون هو نفسه ذئباً ضارياً يريق دماء الناس ويمزق أحشاءهم ، ويقطع أوصالهم ، ليملاً بها بطون الوحش . ولا يوجد بين الأسباب التي تخمل الناس على القتل سبب يشبه هذا السبب الذي ذكره ، على أن المحسن لا يكون مُحسناً إلا إذا وهب ما يهب من ماله ، ومن خزائن بيته ، فأما أن يقتل الناس تقتيلاً ويمتل بهم ثم ينعم بجثثهم على الجائعين والظماء من وحوش الأرض وذئابها فذلك شيء هو بالجنون أشبه منه بالإحسان . أو يقول :

لا يدوق الإغفاء إلا رجاء أن يرى طيف مستميج رواح

فإن النوم قوام الإنسان وعماد حياته ، ولازم من لوازمه اللاحقة به ، أراد ذلك أم لم يرد ؛ فإن كان لا بد من دخوله في باب الاختيار فإن من أبعد الأشياء عن التصور والفهم أن يكون ما يحمل لإنسان على طلب النوم رجاءه أن يرى فيه الأحلام والرؤى ، فإن فعل فلا يدخل في باب أغراضه

وأمانيه أن ينأى خيال جماعة المتسولين والمتكئين وهم ملء الأرض وهباء الجو ، وأرصاد الأعتاب ، وأعقاب الأبواب ، لا تنفتح الأعين إلا عليهم ، ولا تمتلئ الأنظار إلا بهم ، فهم لم يبلغوا في الضن بأنفسهم والعزف بها مبلغ من لا يراه الرائي ولا يعثر به إلا إذا ألقى في طريقه حبات الأحلام ليصطادها بها .
أو يقول :

لم يتخذ وكذا إلا مبالغة في صديق توحيد من لم يتخذ وكذا

فإن الأولاد لا يتخذون اتخاذاً ، وإنما ينعم الله بهم على من يشاء من خلقه إنعاماً . وأكثر ما تقذف به الأرحام من النسمات إنما هو قمرة من ثمرات الحب يأتي بها عفواً ، لا نبته من نبات الأرض يذر الزارع بذورها ليستنبتها ، والله تعالى غني برؤيته ووضوح آثارها عن الاستدلال عليها بنطفة يقذفها قاذفها في بعض الأرحام ، فإن كان لا بد في إثبات رؤيته من دليل يدل على مخالفته للحوادث في الصفات والأفعال ، فالأدلة على ذلك كثيرة لا يضبطها الحساب كثرة ، وربما كان أهونها وأضعفها أنه لا يتخذ وكذا وأنهم يتخذون ، على أن المتخذين كثيرون قد ضاق بهم بطن الأرض وظهرها ، فالمسألة مفروغ منها قبل أن يخلق هذا الممدوح ويخلق ولده ، فلا فضل له في الإتيان بشيء جديد .

أو يقول :

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دقنهم في التراب طيباً

فإن الأزهار التي تستمد حياتها ونماءها من جثث الموتى ورميمهم لا يمكن أن تكون طيبة الريح ، على أن الأزهار مريحة قبل أن يدفن هؤلاء الموتى في قبورهم ، فلم يزد في كلمته هذه على أن أتى بخيال ضعيف مبتذل ، هو أشبه الأشياء بخيال العامة الذين يرون أن بعض الأزهار ما خلق إلا إكراماً لبعض النبيين .

أو يقول :

تتلف في اليوم بالهبات وفي الساع ما تجنيه في سنتك

فقد أراد أن يصف ممدوحه بالكرم وصفاً فوق ما يصف الناس ، ويأتي في ذلك بما لم يأت به غيره ؛ فأنزله منزلة مجانيين المسرفين الذين لا يحسنون الموازنة بين أرزاقهم ونفقاتهم . ولو تقدمت هذه التهمة بهذه الصورة إلى قاضٍ من قضاة المال كما كان له بد من الحجر عليه ، والقضاة يرضون في مثل هذه الأحكام بدون إنفاذ دخل السنة جميعها في ساعة واحدة أو يوم واحد .

أو يقول :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الممات

أصاروا الجوقبك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات^(١)

(١) جمع سافية ، وهي الريح بما تحمل .

فإن شيئاً من ذلك لم يكن ؛ فالقبر لا يضيّق بأحد ، والجو لا يكون قبرا ، والريح ليست كفناً ، والرجل لا يزال مصلوباً غير مقبور ، ولا يزال عارياً غير مدرج في كفن .

وأما حديث القلب فهو ذلك المنشور أو المنظوم ، الذي تسمعه فتشعر أن صاحبه قد جلس بجانبك ليتحدث إليك كما يتحدث الجليس إلى جليسه ، أو ليصور لك ما لا تعرف من مشاهد الكون ، أو سرائر القلوب ، أو ليفضي إليك بغرض من أغراض نفسه ، أو لينفس عنك كربة من كرب نفسك ، أو ليوافي رغبتك في الإفصاح عن معنى من المعاني الدقيقة ، التي تلتج في صدرك ثم يتكأ ذلك^(١) ، الإفصاح عنها ، من حيث لا يكون للصناعة اللفظية ، ولا الفلسفة الذهنية دخل في هذا أو ذاك ، حتى ترى حجاب اللفظ قد رق بين يديك دون المعنى حتى يفنى كما تفنى الكأس الصافية دون ما تشتمل عليه من الخمر ، فإذا الخمر قائمة بغير إناء ، أو كما تفنى صفحة المرآة الصقيلة بين يدي الناظر فيها ، فلا يرى إلا صورته ماثلة بين يديه ، ولا لوح هناك ولا زجاج . وهو أرقى الأحاديث الثلاثة وأشرفها ، وهو الذي يريده المريدون مهما اختلفت عباراتهم ، وتنوعت أساليبهم ، من تعريف كلمة البيان .

ولقد كان من أكبر ما أعانني على أمري في كتابة رسائل النظرات أشياء أربعة أنا ذاكرها لعل المتأدب يجد في شيء منها ما ينتفع به في أدبه :

« أولها » أنني ما كنت أحتفل من بين تلك الأحاديث الثلاثة بحديث اللسان ولا حديث العقل ، أي أنني ما كنت أتكلف لفظاً غير اللفظ الذي يقتاده المعنى ويتطلبه ، ولا أقتش عن معنى غير المعنى الطبيعي القائم في نفسي ، بل كنت أحدث الناس بقلممي كما أحدثهم بلساني . فإذا جلست إلى مكتبي خيل إلي أن بين يدي رجلاً من عامة الناس مُقبلاً عليّ بوجهه ، وأن من أشهى الأشياء وأقربها في نفسي أن لا أمرك صغيراً ولا كبيراً مما يجول بخاطري حتى أفضي به إليه ، فلا أزال أتلصص الحيلة إلى ذلك ولا أزال أتأني إليه بجميع الوسائل وألح في ذلك إلحاح المشفق المجهد ؛ حتى أظن أنني قد بلغت من ذلك ما أريد ، فلا أقيّد نفسي بوضع مقدمة الموضوع في أوله ، ولا سرد البراهين على الصورة المنطقية المعروفة ، ولا التزام استعمال الكلمات الفنية التزاماً مطرداً إبقاء على نشاطه واجمامه ، وإشفاقاً عليه أن يمل ويسأم فينصرف عن سماع الحديث أو يسمعه فلا ينتفع به .

« وثانيها » أنني ما كنت أحمل نفسي على الكتابة حملاً ، ولا أجلس إلى مكتبي مطرقاً مُفكراً ماذا أكتب اليوم ، وأي الموضوعات أعجب وأعرب ، وألذ وأشوق ، وأبها أعلق بالنفوس ، وألصق بالقلوب ؟ بل كنت أرى فأفكر فأكتب فأنشر ما أكتب فأرضي الناس مرة وأسخطهم أخرى من حيث لا أعمد سخطهم ، ولا أطلب رضاهم .

« وثالثها » أنني ما كنت أكتب حقيقة غير مشوبة بخيال ، ولا خيالاً غير مرتكز على حقيقة ؛ لأنني كنت أعلم أن الحقيقة المجردة من الخيال لا تأخذ من نفس السامع مأخذاً ، ولا تترك في قلبه أثراً . وأحسب أن السبب في ذلك أن أكثر ما تشتمل عليه النفوس من العقائد والمذاهب ، والآراء والأخلاق ، والخواطر والتصورات ، إنما هو أثر من آثار الخيالات الذهنية التي تتراءى في سماء الفكر ،

(١) تكأته الأمر : شق عليه وصحب .

ثم لا تزال بها الأيام تكسوها طبقة بعد طبقة من غبار القدم ، حتى تصبح حقيقة من الحقائق الثابتة في الأذهان . وكما أن الحديد لا يقل إلا الحديد ، واللون لا يذهب به إلا لون غيره ، كذلك الخيال لا يذهب به ولا يزعه من مكانه إلا الخيال . وللخيال الأثر الأعظم في تكوين هذا المجتمع الإنساني وتكييفه بالصورة التي يريدها ، فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد في قلب العاشق ، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندي في ساحة الحرب ، ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات ، ولا ابتدعت المبتدعات ، ولولا خيال الرحمة ما عطف غني على فقير ، ولا حنا كبير على صغير ، كما كنت أعلم أن الخيال غير المرتكز على الحقيقة إنما هو هبوة طائرة من هبوات الجو لا تهبط أرضاً ، ولا تصعد إلى سماء .

« ورابعها » أني كنت أكتب للناس لا لأعجبهم ، بل لأنفعهم ، ولا لأسمع منهم : « أنت أحسنت » بل لأجد في نفوسهم أثراً مما كتبت . والناس كما قلت في بعض رسائل خاصة وعامة : أما خاصتهم فلا شأن لي معهم ، ولا علاقة لي بهم ، ولا دخل للكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم ، فلا أفرح برضاهم ، ولا أجزع لسخطهم ؛ لأنني لم أكتب لهم ، ولم أتحدث معهم ، ولم أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي ، بل أنا أتجنب جهد المستطاع أن أسمع منهم شيئاً مما يتعلق بي من خير أو شر ؛ لأنني راض عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي أكتب بها ، فلا أحب أن يكدرها عليّ مكدر ، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلتي فلا أحب أن يشككني فيها مشكك . ولم يهينني الله من قوة الفراسة ما أستطيع به أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم ، فأصغي إلى الأول لأستفيد علمه ، وأعرض عن الثاني لأتقي غشه ، فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له أن يفرغ منها في ساعة معينة ، ثم علم أن على يمين الطريق التي يسلكها روضة تعتق أغصانها ، وتشتجر أفنانها ، وأن على يساره غاباً تزار أسودّه ، وتعمي ذئابه ، وتفتح أفاعيه وصلاله ، فمضى قدماً لا يلتفت يمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه وبصره ، ولا يسرة مخافة أن يهيج بنظره فضول تلك السباع المفعية ^(١) ، والصلال ^(٢) الناشرة ، فتعرض دون طريقه . وأما عامتهم فهم بين ذكي قد وهب الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب ، ولين الوجدان ، ما يعده لاستماع القول واتباع أحسنه ، فأنا أحمد الله في أمره ، وضعيف قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبه ، ولا يسمع إلا ما يطربه ، فأكل أمره إلى الله ، وأستلهمه صواب الرأي فيه ، حتى يجعل الله له من بعد عسر يسراً .

مصطفى لطفي المنفلوطي

(١) أقمى السبع يقمى ، فهو مقيم : جلس على استه وبسط ذراعيه مفترشاً رجله وتناصباً يديه .

(٢) الصلال جمع صرل ، وهو حية من أحيات الحيات تتميز بعتقها المبطط العريض الذي ينتفخ عند الغضب .

الجزء الأول

مَجْشَمُهُ^(٤) ، متلفع بفضل إزاره ، ينظر إلى آمالنا وأمانينا نظرات الهزء والسخرية ، ويتسم ابتسامات الاستخفاف والازدراء ، يقول في نفسه : لو علم هذا الجامع أنه يجمع للوارث ، وهذا الباني أنه يبنى للخراب ، وهذا الوالد أنه يلد للموت ، ما جَمَعَ الجامع ، ولا بنى الباني ولا ولد الوالد !

ذَلِكُ الإنسان كل عقبة في هذا العالم فاتخذ نفقاً في الأرض وصعد بسُلْمٍ إلى السماء ، وعقد ما بين المشرق والمغرب بأسباب^(٥) من حديد وخيوط من نحاس ، وانتقل بعقله إلى العالم العلوي ، فعاش في كواكبه وعرف أغوارها وأنجادها ، وسهولها وبطاحها ، وعامرها وغامرها ، ورطبها وبابسها ، ووضع المقاييس لمعرفة أبعاد النجوم ومسافات الأشعة ، والموازين لوزن كرة الأرض إجمالاً وتفصيلاً ، وغاص في البحار فعرف أعماقها وفحص تربتها وأزعج سكانها ونبش دفائنها وسلبها كنوزها وغلبها على لآلئها وجواهرها . ونفذ من بين الأحجار والآكام إلى القرون الخالية ؛ فرأى أصحابها وعرف كيف يعيشون ، وأين يسكنون ، وماذا يأكلون ويشربون ، وتسرب من منافذ الحواس الظاهرة إلى الحواس الباطنة فعرف النفوس وطبائعها ، والعقول ومذاهبها ، والمدارك ومراكزها ، حتى كاد يسمع حديث النفس وديبب المني ، واخترق بذكائه كل حجاب ، وفتح كل باب ، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزاً مقهوراً لا يجزؤ على فتحه ، بل لا يجسر على قرعه ؛ لأنه باب الله ، والله لا يُطْلَعُ على غيبه أحداً .

أيها الشيخ المثلّم بلثام الغيب ، هل لك أن ترفع عن وجهك هذا اللثام قليلاً لترى صفحة^(٦) واحدة من صفحات وجهك المكنع ، أو لا فاقترّب منا قليلاً علّنا نستطيع أن نستشف صورتك من وراء هذا اللثام المسبّل دوننا ؛ فقد طارت قلوبنا شوقاً إليك ، وذابت أكبادنا وجداً عليك ؟

الغَدُ

عرفتُ أنني فكرت ليلة أمس فيما أكتب اليوم ، وعرفتُ أنني آخذُ الساعة بقلمِي بين أناملِي وأن بين يديّ صحيفة بيضاء ، تسود قليلاً قليلاً كلما أجريت القلم فيها ، ولكني لا أعلم هل يبلغ القلم مداه أو يكبو^(١) دون غايته ؟ وهل أستطيع أن أتمم رسالتي هذه ، أو يعترض عارض من عوارض الدهر في سبيلها ، لأني لا أعرف من شؤون الغد شيئاً ، ولأن المستقبل بيد الله ؟

عرفتُ أنني لبست أثوابي في الصباح وأنها لا تزال فوق جسمي حتى الآن ، ولكني لا أعلم هل أخلعها بيدي أو تخلعها يدُ الغاسل .

الغد شيخ مُبهم يترأى للنّاظر من مكان بعيد ، فربما كان ملكاً رحيماً ، وربما كان شيطاناً رجيماً ، بل ربما كان سحابة سوداء ، إذا هبّت عليها ريح باردة حللت أجزائها وفرقت ذراتها فأصبحت كأنما هي عدم من الأعدام التي لم يسبقها وجود .

الغد بحر خيضم زاهر يُعَبّ عبابه^(٢) ، وتصطبغ أمواجه ، فما يدريك إن كان يحمل في جوفه الدرّ والجوهر ، أو الموت الأحمر ؟

لقد غمض الغد عن العقول ودق شخصه عن الأنظار ، حتى لو أن إنساناً رفع قدمه ليضعها في خروجه من باب قصره لا يدري أ يضعها على عتبة القصر ، أم على حافة القبر ؟

الغد صدر مملوء بالأسرار الغزار تحوم حوله البصائر ، وتتسقطه^(٣) العقول ، وتستدرجه الأنظار ، فلا ييوح بسر من أسرارهِ إلا إذا جادت الصخرة بالماء الزلال !

كأنني بالغد وهو كامن في مكمنه رايبض في

(٤) مجسم الطائر : موضع جثومه ؛ أي تلبده بالأرض .

(٥) الأسباب : الحال وكل ما يوصل بين الشيئين .

(٦) صفحة الشيء : جانبهِ .

(١) كبا : سقط على وجهه .

(٢) عبابه : يرتفع موجه .

(٣) تسقط البحر : أخذه شيئاً فشيئاً .

لأن حياة المدمنين حياة متشابهة متماثلة لا فرق بين صبيحها ومساءها ، وأمسها وغدها ، ذهاب إلى الحانات ، فشرب فخمار^(١) ، فنوم فذهاب ، كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها ، والمنظر المتكرر لا يلفت النظر ولا يشغل الذهن حتى إن بعض من ينام على دورة الرّيح يستيقظ عند سكونها ، وكان أخرى أن يوقظه دورانها .

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلا من قلبي إلا بعد أن سكنت دورته ، وهدأت حركته ، فلم أعد أراه مُعزّداً في الحانات ولا مطّرحاً في مدارج الطرق ولا معتقلاً في أيدي الشرط^(٢) . هنالك سألت عنه فقليل لي إنه مريض ، فلم أعجب من شيء كنت أعدّ له الأيام والأعوام ، كما يعدّ الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب .

دخلت عليه أعوده ، فلم أجد عنده طبيباً ولا عائداً لأنه فقير ، والأطباء يظهرون الرحمة بالفقراء ، ويبتلون حبّ الصفراء والبيضاء^(٣) ، والأصدقاء يخافون عدوى المرض وعدوى الفقر ، فلا يعودون المريض ولا يزورون الفقير .

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه ، لأنني لم أجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف بأجنحته في غرفه وقاعاته ، ولم أر دُخان المطبخ ولم أسمع ضوضاء الخدم ولا بكاء الأطفال ولا رنين الأجراس ، فكأنني دخلت القبر أزور الميت ، لا المنزل أعود الحي !

ثمّ تقدمت نحو سرير المريض فكشفت كِلته^(٤) البالية عن خيال لم يبق منه إلا إهاب^(٥) لاصقٌ بعظم ناحل ، فقلت : « أيها الخيال الشاخص ببصره إلى السماء قد كان لي في إهابك هذا صديقٌ محبوب فهل لك أن تدلّني عليه ؟ » فبعد لأيٍ ما^(٦) حرّكت شفّتي وقال : « هل أسمع صوت فلان ؟ » قلت :

(١) الفخّار : صنداع الشراب .

(٢) الشرط : أعوان الأمير ومفرده شرطي .

(٣) الصفراء والبيضاء : الذهب والفضة .

(٤) الكِلّة : العطاء الرقيق . (٥) الإهاب : الجلد .

(٦) يقال فعله بعد لأيٍ أي بعد مشقة ، وما زائلة .

أيها الغد ، إن لنا آمالاً كباراً وصغاراً ، وأمانياً حسناً وغير حسان ، فحذّنا عن آمالنا أين مكانها منك ، وخبرنا عن أمانينا ماذا صنعت بها ؟ أ أدلّتها واحتقرتها ، أم كنت لها من المكرمين ؟

لا ، لا ! صُنْ شرك في صدرك ، وأبقِ لثامك على وجهك ، ولا تحدّثنا حديثاً واحداً عن آمالنا وأمانينا حتى لا تفجّعنا فيها فتفجّعنا في أرواحنا ونفوسنا ؛ فإنّما نحن أحياء بالآمال وإن كانت باطلة ، وسعداء بالأمانى وإن كانت كاذبة :

وليست حياة المرء إلا أمانيا

إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر

* * *

الكأس الأولى

كان لي صديق أحبه وأحب منه سلامة قلبه ، وصفاء سريرته ، وصدقه ووفاءه في حالي بعده وقربه ، وغضبه وحلمه ، وسخطه ورضاه ، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات ، فأنا اليوم أبكيه حياً أكثر مما كنت أبكيه لو كان ميتاً ، بل أنا لا أبكي إلا حياته ، ولا أتمنى إلا مماته ، فهل سمعت بأعجب من هذه الخلّة الغريبة في طبائع النفوس !؟

علقتُ حبالِي بجباله حقبة من الزمان عرفته فيها وعرفني ، ثم سلك سبيلاً غير سبيله فأنكرته وأنكرني حتى ما أمرّ بياله ؛ لأن الكأس التي علّق بها لم تدع في قلبه فراغاً يسع غيرها وغير العالقين بها ، وربما كان يدفعني عن مُحيلته دفعاً إذا تراعت فيها ؛ لأنه إذا ذكرني ذكر معي تلك الكلمات المرّة التي كُنْتُ ألقاه بها في فائحة حياته الجليدة ، وما كان له وهو يهيم في فضاء سعادته التي يتخيّلها أن يكثر على نفسه بمثل هذه الذكرى صفاء هذا الخيال .

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئاً جليداً ؛

والجنون .

« غرهم من الصحة ذلك اللون الأحمر الذي يتركه الشراب وراءه في الأعضاء ، وهو يتغلغل في الأحشاء ، ومن الفصاحة الهذر والهذيان ، ومهرج^(١) القول وبذاءة اللسان ، ومن الإقدام العريضة التي لا تسكن إلا في غرفة السجن ، ومن السعادة اللحظات القليلة التي يغشى فيها على عقل الشارب ؛ فيعمى عن رؤية ما يحيط به من الأشياء كما هي ، فتعكس في نظره الحقائق حتى يتخيل الشتم طرفة^(٢) والصفع تحية فيضحكه من ذلك ما يضحك الأطفال والمرورين^(٣) .

« أي سرور لمن يعيش في منزل لا يزور الابتسام نغراً من نغور ساكنيه ؟ أي سرور لمن يودعه أهله كل يوم في صباحه بالحسرات ، ويستقبلونه في مساءه بالزفرات ؟ أي سعادة لمن يمشي دائماً في طريقه مثلولاً متممجة^(٤) يتسرب في المنعطفات والأزقة ويعوذ بألواذ^(٥) الجدر والأسوار فراراً من نظرات الجزار ، وتهكمات العطار ، وصرخات الخمار ؟

« ولقد كنت أرى هؤلاء الأشقياء في فائحة حياتي التعة ، فكان يمر بخاطري ما يمر بخاطر أمثالي أنهم قتلى الإدمان لا قتلى الشراب ، وكنت أقدر لنفسي القصص فيه ، إن قدر لي في أمره شيء حتى لا أبلغ مبلغهم ولا أنزل منزلتهم ، فلما شربت أخطأ العد وضاع الحساب ، وفسد التدبير ، واختلف التقدير ، وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع يمثل ما خدعت به ، ولولا الكأس الأولى ما هلك ، ولا شكوت الذي شكوت ، ولولاها ما عافني الأصدقاء ، ولا زهد في الأقرباء ، فكن أنت وحدك صديق السراء والضراء .

فعاذته على ذلك ثم تركته في حاله .

تصم السميع وتعمي البصير

و يسأل من مثلها العافية

(١) الهجر : الفحش . (٢) الطرفة : للملحة المستحسنة .

(٣) للمرور : الذي هاجت مرته ويطلق على المجنون .

(٤) متممجة : مثنيك . (٥) ألواذ الجبل : جانبته والجمع ألواذ .

« نعم . ثم تشكو ؟ » فزفر زفرة كادت تتساقط لها أضلاعه وأجاب : « أشكو الكأس الأولى . » قلت : « أي كأس تريد ؟ » قال : « أريد الكأس التي أودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي ، وما أنا ذا اليوم أودعها حياتي . » قلت : « قد كنت نصحتك وعظمتك وأذرتك بهذا المصير الذي صرت إليه اليوم ، فما أجديت عليك شيئاً . » قال : « ما كنت تعلم حين نصحتني من غوائل هذا العيش التكد أكثر مما كنت أعلم ، ولكنني كنت شربت الكأس الأولى فخرج الأمر من يدي . كل كأس شربتها جتتها علي الكأس الأولى ، أما هي فلم يجتها علي غير ضعفي وقصور عقلي عن إدراك خداع الأصدقاء والمخطأ .

« لم تكن شهوة الشراب مربة في الإنسان كبقية الشهوات فيعتز في الانقياد إليها كما يعتز في الانقياد إلى غيرها من الشهوات الغريزية ، فلا سلطان لها عليه إلا بعد أن يتناول الكأس الأولى ، فلم يتناولها ؟ يتناولها لأن الخونة الكاذبين من خللانه وعشوائه خدعوه عن نفسه في أمرها ؛ ليستكملوا بانضمامهم إليهم لذتهم التي لا تتم إلا بقراع الكؤوس وضوضاء الاجتماع . ولو علمت كيف خدعوه وزينوا له الخروج عن طبعه ومألوفه ، وأي ذريعة تذرعوها بها إلى ذلك ، لتحققت أنه أبله إلى النهاية من البلاء ، وضعيف إلى الغاية التي ليس وراءها غاية .

« أنا ذلك الأبله وذلك الضعيف فاسمع كيف خدعني الأصدقاء وزينوا لي ما يزينه الشيطان للإنسان :

« قالوا : « إن حياتك حياة هموم وأكدار ، ولا دواء لهذه الأدواء إلا الشراب . » وقالوا : « إن الشراب يزيد رونق الجسم ويبعث نشاطه ، وإنه يفتق اللسان ، ويعلم الإنسان البيان ، وإنه يشجع الجبان ويبعث في القلب الجرأة والإقدام . » هذا ما سمعته فصدقته وخدعت به ، صدقت أن في الشراب أربع مزايا : السعادة والصحة ، والفصاحة والإقدام ، فوجدت فيه أربع رزايا : الفقر والمرض والسقوط

عنك ، ولا لسانَ فتستطيع أن تشكو إليّ مرارة ما تذوق .

الدفين الصغير

لقد كان خيراً لي ولك يا بُنيّ أن أكِلَ إلى الله أمرَكَ في شفائك ومرضك ، وحياتك وموتك ، وألا يكونَ آخر عهدك بي يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التي كنت أجشّمك لإياها ، فلقد أصبحتُ أعتقد أنني كنت عوناً للقضاءِ عليك ، وأنّ كأسَ المنية التي كان يحملها لك القدر في يده ، لم تكن أمرٌ مذاقاً في فمك من قارورة الدواء التي كنت أحملها لك في يدي .

ما أسمح وجهَ الحياة من بعدك يا بُنيّ ، وما أفصح صورةَ هذه الكائنات في نظري ، وما أشدّ ظلمة البيت الذي أسكنه بعد فراقك إياها ! فلقد كنتُ تَطْلُعُ في أرجائه شمساً مشرقة تضيءُ لي كلَّ شيءٍ فيه ، أمّا اليوم فلا ترى عيني مما حولي أكثر مما ترى عينك الآن في ظلمات قبرك .

بكي الباكون والباقيات عليك ما شاءوا ، وتفجعوا ما تفجعوا ، حتى إذا استنفدوا ماء شؤونهم ، وضعت قواهم عن احتمال أكثر مما احتملوا ، لجأوا إلى مضاجعهم فسكنوا إليها ، ولم يبقَ ساهراً في ظلمة هذا الليل وسكونه غير عيين قريحتين : عين أليك الثاكل المسكين ، وعين أخرى أنت تعلمها .

لقد طال عليّ الليل حتى ملته ، ولكنني لا أسأل الله أن يفرج لي سواده عن بياض النهار ، لأنّ الفجیعة التي فُجِعَتْها بك يا بُنيّ لم تبقَ بين جنبيّ بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك ، فليت الليل باقٍ حتى لا أرى وجه النهار ! بل ليت النهار يضيءُ فقد مللت هذا الظلام !

دفنتك اليوم يا بُنيّ ودفنتُ أخاك من قبلك ، ودفنتُ من قبلكما أخويكما ، فأنا في كل يوم أستقبل زائراً جديداً ، وأودّع ضيفاً راحلاً ، فيا لله لقلب قد لاقي فوق ما تلاقي القلوب ، واحتمل فوق ما تحتمل من فواحش الخطوب !

لقد اقتلذ كل منكم يا بُنيّ من كبدي فِلْذة ، فأصبحتُ هذه الكبد الخرقاء مزقاً مبعثرة في زوايا

الآن نفضت يديّ من تراب قبرك يا بُنيّ وعدت إلى منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب ، لا أملك إلا دمعاً لا أستطيع إرسالها ، وزفرة لا أستطيع تصعيدها .

ذلك لأن الله الذي كتب لي في لوح مقاديره هذا الشقاء في أمرك ، فرزقني بك قبل أن أسأله إياك ، ثم استلبك مني قبل أن أستعفيه منك ، قد أراد أن يتمّ قضاءه فيّ وأن يجرّني الكأس حتى ثمالتها ، فحرمني حتى دمعاً أرسلها ، أو زفرة أبصدها ، حتى لا أجد في هذه ولا تلك ما أتفرّج به مما أنا فيه . فله الحمد راضياً وغازباً ، وله الشفاء منعماً وسالماً ، وله مني ما يشاء من الرضى بقضائه ، والصبر على بلائه .

رأيتك يا بُنيّ في فراشك عليلاً فجزعت ، ثم خفت عليك الموت فجزعت ، وكأنما كان يخيّل إليّ أنّ الموت والحياة شأن من شؤون الناس ، وعمل من الأعمال التي تملكها أيديهم ، فاستشرت الطبيب في أمرك فكتب لي الدواء ، و وعدني بالشفاء ، فجلست بجانبك أصبّ في فمك ذلك السائل الأصفر قطرة قطرة ، والقدر ينتزع من بين جنبيك الحياة قطعة قطعة ، حتى نظرتُ فإذا أنت في يديّ جثة باردة لا حراك بها ، وإذا قارورة الدواء لا تزال في يديّ فعلمت أنني قد ثكلتك ، وأن الأمر أمر القضاء ، لا أمر الدواء .

سأنام يا بُنيّ بعد قليل على فراش مثل فراشك ، وسيعالج مني المقدار ما عالج منك ، وأحسب أن آخر ما سيبقى في ذاكرتي في تلك الساعة من شؤون الحياة وأطوارها ، وخطوبها وأحداثها ، هو النلم العظيم الذي لا أزال أكابد أله على تلك الجرع المريرة التي كنت أجركك إياها بيدي ، وأنت تجود بنفسك فريد وجهك ، وتخلج أعضائك ، وتدمع عيناك ، وما لك يد فتستطيع أن تملأها إليّ لتدفعني

كما يمدّها السائلون ، وقولوا له : « اللهم إنك تعلم أن هذا الرجل المسكين كان يحبنا وكنا نحبه ، وقد فرقت الأيام بيننا وبينه ، فهو لا يزال يلاقي من بعدنا من شقاء الحياة وبأسائها ما لا طاقة له باحتماله ، ولا نزال نجد بين جوانحنا من الوجد به ، والحنين إليه ، ما ينغص علينا هناء هذه النعمة التي ننعّم بها في جوارك بين سمعك وبصرك ، وأنت أرحم بنا وبه من أن تعذبنا عذاباً كثيراً ، فإما أن تأخذنا إليه أو تأتينا به إلينا . » لا بل لا تطلبوا منه إلا أن يأتي بي إليكم ؛ فإن الحياة التي كرهتها لنفسى لا أرضاها لكم ، فعسى أن يستجيب الله من دعاكم ما لم يستجب من دعائي ، فيرفع هذا الستار المسبل بيني وبينكم ، فنلتقي كما كنا .

* * *

مُناجاة القمر

أيها الكوكبُ المثل من علياء سمائه ؛ أ أنت عروس حسناء تُشرف من نافذة قصرها ؟ وهذه النجوم المبشرة حوليك قلائد من جمان ، أم ملك عظيم جالس فوق عرشه ؟ وهذه النيرات حور وولدان ، أم فص من ماس يتلأأ ؟ وهذا الأفق المحيط بك خاتم من الأنوار ، أم مرآة صافية ؟ وهذه الهالة الدائرة بك إطار ، أم عين ثرة نجاثة (٢) ؟ وهذه الأشعة جداول تتدفق ، أو تنور مسجور (٣) وهذه الكواكب شرر يتألق ؟

أيها القمر المنير :

إنك أثرت الأرض وهادها ونجادها ، وسهلها وعرها ، وعامرها وغامرها ، فهل لك أن تشرق في نفسي فتتير ظلمتها ، وتبدد ما أظلمها من سحب الهموم والأحزان ؟
أيها القمر المنير :

القبور ، ولم يبق لي منها إلا ذمء (١) قليل لا أحسبه باقياً على الدهر ، ولا أحسب الدهر تاركه دون أن يذهب به كما ذهب بأخواته من قبل .

لماذا ذهبت يا بني بعدما جثمت ؟ ولماذا جثمت إن كنتم تعلمون أنكم لا تقيمون ؟

لولا مجيئكم ما أسفت على خلو يدي منكم ؛ لأنني ما تعودت أن تمتد عيني إلى ما ليس في يدي ، ولو أنكم بقيتم بعدما جثمت ما تجرعت هذه الكأس المريرة في سبيلكم .

لقد كنت أرضى من الدهر في أمركم أن يتزحزح لي عن طريقي التي أسير فيها ، وأن يزوي وجهه عني فلا أراه ولا يراني ، ولا يحسن إلي ولا يسيء ، ولا يتقدم إلي بخير ولا شر ، ولا يترأى لي مبسماً ولا مقطباً ، ولا ضاحكاً ولا باكياً ، لو أنه رضي مني بذلك . ولكنه كان أذكى قلباً ، وأنفذ بصراً من أن يفوته العلم بأنني ما كنت أبكي على النعمة لو لم تكن في يدي ، وما كنت أجد مرارة فقدانها ، لو لم أذق حلاوة وجودها . وكان لا بد له أن يجري في سنة الشقاء التي أخذ على نفسه أمراً الله أن يجريها بين عباده ، فلمّا عجز عن أن يدخل إلي من باب الطمع دخل إلي من باب الأمل ، فهو يمنحني المنحة فأغبط بها حقبة من الدهر ، حتى إذا علم أن بذرة الأمل التي غرسها في نفسي قد نمت وأزهرت ، وأنني قد استعذبت طعم النعمة التي آتاني ، كرّ علي فانتزعها من يدي أنعم ما أكون بها ، كما تنتزع الكأس الباردة من يد الظامئ الهيمان ؛ ليعظم وقع السهم في كبدي ، ويفدح سلب النعمة من يدي ، ولولا ذلك ما نال مني مثلاً ، ولا وجد إلي سبيلاً .

يا بني إن قدر الله لكم أن تتلاقوا في روضة من رياض الجنة ، أو على شاطئ غدير من غدرانها ، أو تحت ظلال قصر من قصورها ، فاذكروني مثل ما أذكركم ، وقفوا بين يدي ريكماً صفاً واحداً كما يقف بين يديه المصلون ، ومدوا إليه أكفكم الصغيرة

(٢) نجاثة: شديدة الانصباب . (٣) مسجور: مقيد، وممتلى .

(١) الذمء: بقية الروح في المنيح .

آه ! لقد طلع الفجر ففارقني مؤنسي ، وارنخل
عني صديقي ، فمتى تنقضي وحشة النهار ، ويقبل
إليّ أنس الظلام ؟

* * *

أَيْنَ الْفَضِيلَةُ ؟

قرأت في بعض الروايات أن فتى قضى حقبة من
دهره مولعاً بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في
حياته ، وإنما تخيل في ذهنه صورة ألفها من شتى
المحاسن ومتفرقاتها في صور البشر . فلما استقرت
في مخيلته تجسّمت في عينيه ، فرأها فأحبها حباً
ملك عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه ، وذهب به كل
مذهب ، فأنشأ يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها
أعواماً طوالاً حتى وجدها .

لا أستطيع أن أكذب هذه القصة لأنني أنا ذلك
الفتى بعينه ، لا فرق بيني وبينه إلا أنه يسمى ضالته
الفتاة وأسميها الفضيلة ، وأنه فتش عنها فوجدها
وفتشت عنها حتى عيّت بأمرها فما وجدت إليها
سبيلاً .

فتشت عن الفضيلة في حوانيت التجار فرأيت
التاجر لصاً في أبواب بائع ، وجدته يبيعي بدينارين
ما ثمنه دينار واحد ، فعلمت أنه سارق للدينار الثاني ،
ولو وُكِّل إليّ أمر القضاء ما هان عليّ أن أعاقب
لصوص الدراهم وأغفل لصوص الدينارين ؛ ما دام كل
منهما يسلبني مالي ويتفكّلي عنه .

أنا لا أنكر على التاجر ربحه ؛ ولكن أنكر عليه
أن يتناول منه أكثر من الجزء الذي يستحقّه على
جهد نفسه في جلب السلعة ، وبذل راحته في
صونها وإحرازها ، وكل ما أعرف من الفرق بين
حلال المال وحرامه أن الأوّل بدلُ الجِدِّ والعمل ،
والثاني بدلُ الغش والكذب .

فتشت عن الفضيلة في مجالس القضاء ، فرأيت

إن بيني وبينك شبهاً واتصلاً ، أنت وحيد في
سمائك ، وأنا وحيد في أرضي ، كلانا يقطع شوطه
صامتاً هادئاً منكسراً حزينا ، لا يلوي على أحد ،
ولا يلوي عليه أحد ، وكلانا يبرز لصاحبه في ظلمة
الليل فيسايره ويناجيه . يراني الرائي فيحسبني سعيداً
لأنه يغترّ بابتسامة في ثغري ، وطلاقة في وجهي ،
ولو كُشف له عن نفسي ورأى ما تنطوي عليه
من الهموم والأحزان ، ليكن لي بكاء الحزين إثر
الحزين . ويراك الرائي فيحسبك مُتبطّطاً مسروراً ؛ لأنه
يغترّ بجمال وجهك ، ولمعان جبينك ، وصفاء
أديمك ، ولو كُشف له عن عالمك لرآه عالماً خراباً ،
وكوناً ياباً^(١) ، لا تهب فيه ريح ، ولا يتحرك شجر ،
ولا ينطق إنسان ، ولا ييغم^(٢) حيوان .

أيها القمر المنير :

كان لي حبيبٌ يملأ نفسي نورا ، وقلبي لذة
وسروراً ، وطالما كنت أتناجيه ويناجيني بين سمعك
وبصرك ، وقد فرق الدهر بيني وبينه ، فهل لك أن
تخدثني عنه وتكشف لي عن مكان وجوده ؛ فربما
كان ينظر إليك نظري ، ويناجيك مناجاتي ، ويرجوك
رجائي ؟ وما أنذا كأني أرى صورته في مرآتك ،
وكأنني أراه يبكي من أجلي كما أبكي من أجله ،
فأزداد شوقاً إليه ، وحرناً عليه .

أيها القمر المنير :

ما لي أراك تنحدر قليلاً قليلاً إلى الغروب كأنك
تريد أن تفارقني ، وما لي أرى نورك الساطع قد أخذ
في الانقباض شيئاً فشيئاً ، وما هذا السيفُ المسلول
الذي يلمع من جانب الأفق على رأسك .

قف قليلاً لا تغب عني ، لا تفارقني ، لا تتركني
وحيداً ، فإني لا أعرف غيرك ، ولا أنس بمخلوق
سواك .

(١) الياب : الخراب ، والخالى لا شيء فيه .

(٢) يغم : صوت بالين صوت .

من الألقاب لبس الإنسان فروة السبع ، واتخذ له من تلك العُدد الوحشية أظفاراً كأظفاره وأنياباً كأنيابه ، فشحذ الأولى وكشّر عن الأخرى ، ثم هجم على ولد أبيه وأمه هجمة لا يعود منها إلا به أو بنفسه التي بين جنبيه . وإنك لو سألت الجندين المتقاتلين : ما خطبكما وما شأنكما وعلام تقتتلان وما هذه الموجدة^(٣) التي تحملانها بين جنبيكما ، ومتى ابتدأت الخصومة بينكما وعهدي بكما أنكما ما تعارفتما إلا في الساعة التي اقتتلتما فيها ؛ لعرفت أنهما مخدوعان عن نفسيهما وأنهما ما خرجا من ديارهما إلا ليضعا دُرة في تاج الملك أو «نيشاناً» على صدر القائد .

فتشت عنها بين رجال الدين ورجال الصحف فرأيت أنهما يتجران بالعقول في أسواق الجهل ، ورأيت كلا منهما قد ثغر^(٤) له في كل رأس من رؤوس البشر ثغرة ينحدر منها إلى العقول فيفسدها ؛ والقلوب فيقتلها ليتوسل بذلك إلى الذخائر فيسرقها والخزائن فيسلبها ، هذا باسم السياسة وذاك باسم الدين .

فتشت عنها في كل مكان أعلم أنه تربتها وموطنها فلم أعثر بها ، فليت شعري هل أجدها في الحانات والمواخير أو في مغارات اللصوص أو بين جدران السجون ؟

سيقول كثير من الناس : « قد غلا الكاتب في حكمه وجاوز الحد في تقديره ؛ فالفضيلة لا تزال تجد في صدور كثير من الناس صدراً رحيماً ، ومورداً عذباً . » وإنني قائل لهم قبل أن يقولوا كلمتهم : « إنني لا أنكر وجود الفضيلة ولكني أجهل مكانها ، فقد عقد رياء الناس أمام عيني سحابة سوداء أظلم لها بصري حتى ما أجد في صفحة السماء نجماً لامعاً ، ولا كوكباً طالعاً . »

كل الناس يدعي الفضيلة ويتحلها ، وكلهم يلبس لباسها ويرتدي رداءها ويعد لها عدتها ، من منظر يستهوي الأذكى والأغبياء ومظهر يخدع أسوأ

أن أعدل القضاة من يحرص الحرص كله على أن لا يهفو في تطبيق القانون الذي بين يديه ، هفوة يحاسبه عليها من منحه هذا الكرسي الذي يجلس عليه مخافة أن يسلبه إياه . أما إنصاف المظلوم والضرب على يد الظالم وإراحة الحقوق على أهلها وإنزال العقوبات منازلها من الذنوب ، فهي عنده ذبول وأذئاب لا يأبه^(١) لها ولا يحتفل بشأنها ، إلا إذا أشرق عليها الكوكب بسعده فمشت مع القانون في طريق واحد مصادفة واتفاقاً ، فإذا اختلف طريقهما بين يديه حكم بغير ما يعتقد ، ونطق بغير ما يعلم ودان البريء وبرأ الجاني ، فإذا عتب عليه في ذلك عاتب كانت معذرتة إليه حكم القانون عليه ! كأنما يريد أن يجعل العقل أسير القانون ، وما القانون إلا حسنة من حسنات العقل وصنعة من صنائعه .

فتشت عن الفضيلة في قصور الأغنياء فرأيت الغني إما شحيحاً أو متلاًفاً ، أما الأول فلو كان جاراً لبيت فاطمة (رضي الله عنها) ، وسمع في جوف الليل أنينها وأنين ولديها من الجوع ما مد أصبعيه إلى أذنيه ؛ ثقةً منه أن قلبه المتحجر لا تنفذه أشعة الرحمة ، ولا تمر بين طياته نسمات الإحسان ، وأما الثاني فماله بين ثغر الحسنة ، وقر الصهباء^(٢) ، فعلى يد أي رجل من هذين الرجلين تدخل الفضيلة قصور الأغنياء ؟

فتشت عنها في مجالس السياسة ، فرأيت أن المعاهدة والاتفاق والقاعدة والشرط ألفاظ مترادفة معناها الكذب ، ورأيت أن الملك في كرسي مملكته ، كالحوذي في كرسي عريته ، لا فرق بينهما إلا أن هذا ينقض «تعريفته» ، وذاك ينقض معاهدته ، ورأيت أن أعدى عدو للإنسان الإنسان ، وأن كل أمة قد أعدت في مخازنها ومستودعاتها وفي بطون قلاعها وعلى ظهور سفنها وفوق متون طياراتها ما شاء الله أن تعدّه لأختها من عدد الموت وأفانين العذاب ، حتى إذا وقع بينهما الخلف على حد من الحدود أو لقب

(١) أبه للشيء : تفتن له واحتفل به .

(٢) الصهباء : الخمر .

(٣) الموجدة : الغضب . (٤) ثغر : حفرة ، وتيلم .

الغني والفقير

مررت ليلة أمس برجل بائس فرأيتُه واضعاً يده على بطنه ، كأنما يشكو ألماً ، فرئيت لحاله وسألته ما باله ، فشكا إليّ الجوع فقثأته (٣) عنه ، ثم تركته وذهبت إلى زيارة صديق لي من أرباب الثراء والنعمة ، فأدهشني أني رأيتُه واضعاً يده على بطنه وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير ، فسألته عما به فشكا إليّ البطنة ، فقلت : يا للعجب ! لو أعطى الغني الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ما شكا واحد منهما سقماً ولا ألماً . لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ، ويطفيئ غلته ، ولكنه كان مُحباً لنفسه مغالياً بها ، فضمَّ إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير ؛ فعاقبه الله على قسوته بالبطنة حتى لا يهنئ للظالم ظلمه ، ولا يطيب له عيشه ، وهكذا يصدّق المثل القائل : بطنة الغني انتقام لجوع الفقير .

ما ضنت السماء بمائها ، ولا شحت الأرض نباتها ، ولكن حسد القوي الضعيف عليهما فزواهما (٤) عنه واحتججها (٥) دونه فأصبح فقيراً معدماً ، شاكياً متظلماً ، غرماؤه المياسير الأغنياء ، لا الأرض والسماء .

ليتني أملك ذلك العقل الذي يملكه هؤلاء الناس ، فأستطيع أن أنصوّر كما يتصورون حجة الأقوياء في أنهم أحقُّ بإحراز المال وأولى بامتلاكه من الضعفاء ، إن كانت القوة حججهم عليهم ، فلم لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم ؟ وما الحياة في نظر الحيّ بأثمن قيمة من اللقمة في يد الجائع . وإن كانت حججهم أنهم ورثوا ذلك المال من آبائهم قلنا لهم : إن كانت

الناس بالناس ظناً ، فمن لي بالوصول إليها في هذا الظلام الحاللك والليل الأليل !

إن كان صحيحاً ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها ، فسعادتي فيها أن أعثر في طريقي في يوم من أيام حياتي بصديق يصدّقني الودّ وأصدقته ، فيقنعه مني ودي وإخلاصي ، دون أن يتجاوز ذلك إلى ما وراءه من مآرب وأغراض ، وأن يكون شريف النفس فلا يطمع في غير مطعم ، شريف القلب فلا يحمل حقداً ولا يحفظ وتراً (١) ، ولا يحدث نفسه في خلوته بغير ما يحدث به الناس في محضره ، شريف اللسان فلا يكذب ولا ينم ولا يلمّ بعرض ولا ينطق بهجر (٢) ، شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة ولا يبغض غير الرذيلة .

هذه هي السعادة التي أتمناها ولكني لا أراها . إنني لأرى الرياض الغناء تهفو أشجارها ، وترنُّ أطيافها ، وأرى جداول الماء تنساب بين أنوارها وأزهارها انسياب الأفاعي الرقطاء في الرمال البيضاء ، وأرى أنامل النسائم تعبّث بمشورات الأزراق عبث الهوى بالباب العشاق ، وأسمع ما بين صفير البلابل ، وخرخير الجداول نغمات شجية ، تبلغ من نفس الإنسان ، ما لا تبلغ أوتار العيدين ، فلا يسرني منها منظر ولا يطربني مسمع ، لأنني لا أرى بين هذه المشاهد التي أراها ضالتي التي أنشدتها .

لقد سمع وجه الرذيلة في عيني ، وثقل حديثها في مسمعي حتى أصبحت أتمنى أن أعيش بلا قلب ، فلا أشعر بخير الحياة وشرها ، وسرورها وحزنها .

ولولا بُنيات صغار يفقدن بفقدني طيب العيش ونعيمه ، لفررت من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت ، فأجد من الأنس به والسكون إليه ما رجده الذي يقول :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكادت أطيّر

(٣) يقال : ثثأت فلاناً عن فلان ، إذا سكن غيظه عليه .

(٤) زوى عنه حقه : منته إياه .

(٥) احجن الشيء : إذا جذبته بالمحجن إلى نفسه ، والمحجن : الصولجان ، والمراد أنه استأثر به .

(١) الوتر : الحقد .

(٢) الهجر : الفحش .

يحسن إلى نفسه ولا يحسن إلى غيره ، وهو الشرّ المتكالب الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً ! ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره ، وهو البخيل الأحمق الذي يُجِيع بطنه ليُشبع صُنْدُوقه . أما الرابع الذي يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه ، فلا أعلم له مكاناً ولا أجد إليه سبيلاً ، وأحسب أنه هو ذلك الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني « ديوجين الكلبي » حينما سئل ما يصنع بمصباحه - وكان يدور به في بياض النهار - فقال : « أفتش عن إنسان ! »

* * *

مَدِينَةُ السَّعَادَةِ

رأيت فيما يرى النائم أنني أمشي في برية جرداء قفر قد انبسطت رمالها على سطحها متجعدةً تتجدد الأمواج المتوتبة في القاموس^(١) المحيط . وكانت الشمس قد طَلَقَتْ^(٢) للإياب فلم أر في بطائحها ظلاً غير ظلي المستطيل الذي رسمته يد الشمس فأخطأت في تصويره كأنما حسبتني آدم أباً البشر^(٣) ، فأوسعتني طولا ، ورسمتني ميلاً .

أنشأت أمشي لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، وأني يكون ذلك في صحراء قد تشابهت مسالكها وتشاكلت مذاهبها وانفرج ما بين قاصيها ودانيها ، حتى انحدرت الشمس إلى مستقرها ، وطار طائر الليل من مكمنه ، وما نشر الظلام أجنحته السوداء في الأفق حتى وجدّني أحير من دعة وجدّ في مقلة عاشق ، يدفعها الحب ويمنعها الحياء ، لا أعلم هل أنا سرّ كامن في باطن الظلماء ، أو حوت مضطرب

الأبوة علّة الميراث ، فلم ورثتم آباءكم في أموالهم ولم ترثوهم في مظالمهم ؟! فلقد كان آباؤكم أقوياء فاغتصبوا ذلك المال من الضعفاء ، وكان حقاً عليهم أن يردوا إليهم ما اغتصبوا منهم ، فإن كنتم لا بد ورتاءهم فاحلّفوهم في رد المال إلى أربابه ، لا في الاستمرار على اغتصابه .

ما أظلم الأقوياء من بني الإنسان ! وما أقسى قلوبهم ! ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره وهو يرعد برداً ، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام : قديده وشواته ، حلوه ومّره ، ولا ينقص عليه شهوته علمه أن بين أقربائه وذوي رحمه من تثب أحشاؤه شوقاً إلى فُتات تلك المائدة ، ويسيل لعابه تلهفًا على فضلاتها . بل إن بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه ، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته ، وربما استعان به على عدّ ما تشتمل عليه خزائنه من الذهب وصناديقه من الجواهر وغرفة من الفراش والرياش ؛ ليكسر قلبه وينغص عليه عيشه ويغص إليه حياته ، وكأنه في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته يقول له : « أنا سعيد لأنني غني وأنت شقي لأنك فقير » .

أحسب لولا أن الأقوياء في حاجة إلى الضعفاء ؛ يستخدمونهم في مرافقهم وحاجاتهم ، كما يستخدمون أدوات منازلهم ، ويسخرونهم في مطالبهم كما يسخرون مراكبهم ، ولولا أنهم يؤثرون الإبقاء عليهم ليمتعوا أنفسهم بمشاهدة عبوديتهم لهم وسجودهم بين أيديهم ؛ لامتصوا دماءهم كما اختلسوا أرزاقهم ، ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذة العيش فيها .

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنساناً حتى أراه مُحْسِنًا ؛ لأنني لا أعتمد فصلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان . وإنني أرى الناس ثلاثة ؛ رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه ، وهو المستيد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان ، ورجل

(١) القاموس : وسط البحر ومعظمه .

(٢) طلقت الشمس : احمرت للغروب .

(٣) ربما لم يكن آدم أطول من بنيه قامة ولكن التشبيه بحسب

الخيال الذهني ، على حد قوله تعالى : « كأنه رؤوس

الشياطين » .

وقف على بابها شيخ هو أشبه الأشياء بما يتخيله فريق الخياليين من علماء الفلك في صور سكان المريخ ، فذَّعر مني كما يُذَّعر الإنسان لرؤية الجان . وما كان الذي قام في نفسه مني بأكثر مما قام في نفسي منه لولا أنني ألقت الغرائب ، وعجَّمت عود العجائب ، فتقدمت إليه وكأنما ألهمت لغته الغريبة فحييته بها فحياني ، وهو يقول : « ما كنت أحسب أن الشمس تطلع على مدينة غير هذه المدينة ، أو أن في العالم إنساناً غير هذا الإنسان . » فما زلت أحدثه وأستدنيه حتى أنس بي ودعاني إلى منزله . وخلطني بنفسه وأهله ، وقدم لي طعاماً شهياً ، ومهَّذ لي مرقداً وثيقاً^(٢) ، وكان الليل قد أقبل للمرة الثانية من هجرتي هذه فتمت نوماً هادئاً مطمئناً ، لا تروغني فيه خواطر الموت ولا وساوس الهلاك .

استيقظت أنا والشمس من مرقدينا على صوت تلك الأسرة الطاهرة الكريمة تصلي إلى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين ، وتدعو وهي مصطفة صفًا واحدًا أن يسرَّ الله لها عسرها ، ويسهل أمرها ، ويصلح شأنها ، ويمنحها معونته ونصره . فأخذ من نفسي منظرها هذا مأخذًا غريبًا ، فلم أرَ بدءًا من الانتظام في صفها ، والدعاء بدعائها ، والبكاء لبكائها . وعجبت أن يكون مثل هذا الإيمان الخالص راسخًا في نفوس أهل هذه المدينة ، ولم يُرسل إليها رسول ولم ينزل عليها كتاب . فلما فرغنا من الصلاة التفت إليَّ صاحب البيت ، فقلت له : « أراكم تعبدون فمن تعبدون ، وتصلون فمن الذي تدعون ؟ » قال : « نعبد الله خالقَ هذه الكائنات ومديرها . » قلت : « هل رأيتموه حتى عرفتموه ؟ » قال : « نعم رأيناه في آثاره ومصنوعاته ، ورأيناه في السماء والماء ، والفلك الدائر ، والنجم السائر ، وفي أجنة الحيوان ، ويزور النبات ، ورأيناه في أنفسنا وعقولنا وأرواحنا قبل ذلك . » قلت : « ولم تعبدونه ؟ » قال : « شكرًا له على نعمة الخلق والرزق ، وإن أحلنا ليعنيه أن يشكر لصاحبه نعمته إذا أحسن إليه بجرعة أو أنعم عليه بمضغة ؛ فأحر به أن يشكر مانح

(٢) الوثير : الوطيء .

في أعماق الماء ١ وأحيانًا كان يخيل إليَّ أني في منجم من مناجم الفحم ، فأمد يدي أتلَّس جدرانته مخافة أن أصطدم بواحد منها . ولم أزل كذلك حتى شعرت بأن الظلام بدأ ينفض صيغته وأن ذراته تتطاير ههنا وههنا ، فإذا أنا بين يدي جبل عالٍ كأنما هو جدار قائم يُمسك السماء أن تقع على الأرض ، أو ملك جبار قد لبس من قرص الشمس التاج الأحمر ، ومن شعاعها الرِّداء الأصفر .

ولا تسل هنالك عمَّا ألمَّ بقلبي من الهمِّ وعقلي من الخيال ، حينما رأيت أن صعود السماء أقرب إلى الأمل من صعود هذا الجبل ، وحرث بين الإقدام والإحجام ، فلم أرَ بدءًا من الاستسلام لمقدور الجِمام . ثم رميت بطرفي فرأيت بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرة بيضاء ناعمة الملمس فاضطجعت عليها وأنا أتمثل بقول أبي العلاء :

ضِبْجَةُ الموت رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الـ

جِسم فيها والعيشُ مثل السهاد

وما هي إلا غمضة الطرف حتى شَعرَت بأنها تتحرك قليلًا قليلًا ، ثم نهضت ثم طارت ، فكنت أحسب أنه الموت قد نزل ، وأنها الروح تصعد إلى الملأ الأعلى لولا أن فتحت عيني ، فرأيت ما كنت أحسبه صخرة طائرًا أشبه شيء بالنسر في خلقه والقبَّة في ضخامتها واستدارتها . وما زال ذاهبًا بي في أفق السماء ، ثم رنَّق^(١) لحظة في الهواء ثم هبط إلى قمة الجبل ، فأسرعت بالانحدار عنه ، وهنالك أحسست بسلسيل بارد من الأمل يتسرَّب إلى قلبي فينقَعُ غُلته ، ويطفئُ لوعته ؛ لأنني رأيت السفح الثاني من الجانب الآخر ورأيت بهجة الحياة وزهرة العمران .

رأيت على البعد خطوط الخضرة حول سطور الماء ، ورأيت المنازل والقصور كأنها العصافير السوداء أو الحمامات البيضاء ، وكأن ما ألمَّ بنفسي من السرور أنساني ما ألمَّ بجسمي من النَّصَب ، فأنحدرت إليها فما بلغت حتى رأيتني في مزرعة في وسطها بنية ، قد

(١) رنَّقَ : خفق بجناحيه ولم يَظفر .

سواءً في حالة المعيشة ودرجة الثروة ، فسألت الشيخ : « ألا يوجد فيكم غني وفقير ، وسيد ومسود ؟ » قال : « لا يا سيدي ، حسب الرجل منا بيت يأوي إليه ومزرعة يستغلها ودابة تحمل أثقاله ، ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك ؛ لذلك لا يوجد فينا سيد ومسود لأنه لا يوجد فينا غني وفقير . » قلت : « لا بد أن يوجد بينكم العاجز عن العمل والكسول المتبطل ! » قال : « أمّا الكسول فلا وجود له بيننا ؛ لأنه يعلم أننا لا نرحمه ولا نغفر له زلته في احتقار نعمة العقل والقوة بتعطيلهما عن العمل . وأما العاجز فنحذب عليه ونحسن إليه ، ولا نرى لأنفسنا في ذلك فضلاً لأننا إنما نمنحه جزءاً من القوة التي منحنا الله إياها لنعبده بها ، ولا نرى في وجوه العبادة أفضل من مواسة العاجزين ، ورحمة البائسين . »

وإنه ليحدثني بهذا الحديث إذ لاحت لنا بُنية ضخمة ضخمة تمتاز عن غيرها من البنى بحسن نظامها ، وجمال هندامها ، فقلت للشيخ : « هل أرى قصر الملك ؟ » قال : « لا ، ولكنه قصر رجل شرير طماع قد خالف إرادة الله وحكمته فاحتجج^(٢) دون عبادته أرضهم ومالهم ؛ ليعلو عليهم ويستأثر بالنعمة من دونهم ، فغضب الله عليه ، وقلب نعمته نقمة ، ورخاءه شدة ، فإنه ما أراح^(٣) رائحة العيش الرغد حتى أسلم نفسه إلى شهواتها وحملها فوق ما تحمل طبيعتها ، فما هو ذا اليوم يقاسي من آلام الأمراض وأنواع الأسقام^(٤) ما بغض إليه العيش ، وحُب إليه الموت ، لم يحمه قصره ، ولم يغن عنه ماله ، فهو عبرة المعتبرين ، وموعظة السابِلين^(٥) . فكبر الرجل في ذُرعي^(٦) وعظم في عيني وأكبرت فيه وفي أمته هذه الخلال الشريفة والأخلاق العالية ، وقلت في نفسي : « إن مدارسنا على ما تشتمل عليه دروسها من قواعد الحكمة وأصول التربية وفنون

المانحين ، والمحسن إلى المحسنين . » فقلت في نفسي : « لقد بلغ الرجل مرتبة الموحدين الصادقين الذين يعبدون الله مخلصين له الدين ، لا يرجون ثواباً ، ولا يخافون عقاباً . » ثم سألته : « أين تذهبون بعد الموت ؟ » قال : « إلى النعيم المقيم ، أو العذاب الأليم . » قلت : « لعلك تريد الجنة والنار ! » قال : « لا أفهم ما تقول ، وإنما أعلم أن الإله الحكيم لا يترك المحسن دون أن يجازيه خيراً على إحسانه ، كما يأبى عدله أن يسوي بين المحسن والمسيء . » قلت : « متى يكون المحسن محسناً والمسيء مسيئاً ؟ » قال : « الإحسان عمل الخير والإساءة عمل الشر ، لذلك لا ترى بيننا من يحدث نفسه بالإضرار بأخيه أو من يقصر في دفع الأذى عنه . » فقلت في نفسي : « ليت الفقهاء الذين ينفقون أعمارهم في الحيض والاستحاضة ، والمذبي والوذي^(١) ، والحدث الأكبر والحدث الأصغر ، وليت الكلاميين الذين يسهرون الليالي ويقرحون المآقي في عينية الصفات وغيرها ، والجوهر والعرض ، والحدوث والقدم ، والدور والتسلسل . وليت المتصوفة الذين يحاولون أن ينازعوا الله في مشيئته ويجاذبوه قدرته ويغالبوه على أمره ونهيه ويذاحموه في لوحه وقلمه ، يعرفون من سر الدين وحكمته والغرض الذي قام له ما يعرف هؤلاء البله الأغرار الذين لا يفهمون معنى الجنة والنار ولا يميزون بين الدين والتين ! »

فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ أن يزيرني المدينة ، فانحدر بي إليها فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ، ومنازلها متفرقة غير متلاصقة ، وقد أحاط بكل منزل منها حديقة زاهرة ، ورأيت سكانها مكبين على أعمالهم ، مجدين في شؤونهم ، صغاراً وكباراً ، رجالاً ونساءً ، ما فيهم فقير يتسول ، ولا متبطل يتشاءب ويتململ . وأغرب ما استهوى نظري أنني لم أر في تلك المدينة ذلك التفاوت الذي أعرفه في مدائننا بين الناس ، في منازلهم ومراتبهم ومطاعمهم ومشاربهم وأزيائهم ، كأن جميع سكانها

(٢) احتجج المال : ضمه واحتواه .

(٣) أراح فلان الشيء : وجد راحه .

(٤) الأسقام : الأمراض ، والمفرد سقم .

(٥) السابِل : المختلفون على الطرقات في حوائجهم .

(٦) كبر في ذُرعي : عظم وقمه عندي .

(١) المذبي والوذي : نوعان من الماء الذي يخرج من القضيب .

وما وصلنا من حديثنا إلى هذا الحد حتى كنا قد فرغنا من الطواف بالمدينة ، و وصلنا إلى المنزل الذي خرجنا منه . فاستقبلنا أهلوه بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقيل والعناق ، فلم أر فيما رأيت من البيوت في مدن العالم وقراه بيتاً أسعد حظاً ولا أنعم عيشاً ولا أروح بالاً من هذا البيت .

تلك مدينة السعادة التي يعيش أهلها سعداء لا يشكون همّاً لأنهم قانعون ، ولا يمسون في أنفسهم حقداً لأنهم متساوون ، ولا يستشعرون خوفاً لأنهم آمنون .

تلك مدينة السعادة التي رأيتها ، فأحببتها وأحببت العيش فيها لولا أن لله في خلقه سنة لا تبدل ، وشأن لا يتحول . فقد جاء الليل وأخذت مكاني من مرقد في منزل الشيخ ، فلم أستيقظ حتى رأيتني في فراشي في منزلي ، فلا السهل ولا الجبل ، ولا الشيخ ولا المزرعة ، ولا المدينة ولا السعادة .

ولما نزلنا منزلاً طله (٢) الندى

أنيقاً وبستاناً من النور (٣) حالياً

أجدد لنا طيب المكان وحسنه

منى فتمنينا فكنيت الأمانيا

* * *

أيها المحزون

إن كنت تعلم أنك قد أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد في جميع شؤونك وأطوارك ، وألا يعطيك ولا يمنعك إلا كما تحب وتشتهي ، فجدد بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فأتك مأرب ، أو استعصى عليك مطلب . وإن كنت تعلم أخلاق الأيام في أخذها وردّها ، وعطائها ومنعها ، وأنها لا تنام عن منحة تمنحها حتى تكثر

الآداب ، لتعجز عن أن تخرج للناس رجالاً يستطيعون أن يساجلوا هؤلاء القوم في أخلاقهم وفضائلهم ! وأردت على ذكر المدارس أن أعرف مناهج التعليم عندهم ، فقلت للشيخ : « هل لك أن تزيرني مدرسة من مدارسكم ؟ » فعجب لسؤالي وقال : « ما المدرسة ؟ » فكان عجبني لجوابه أكثر من عجبه لسؤالي ، وقلت : « المدرسة مكان محدود يجتمع فيه صغار يتعلمون ، وكبار يعلمون . » قال : « ما الذي يتعلمه الصغار من الكبار ؟ » قلت : « ما يصلح شأنهم وينفعهم في معاشهم ومعادهم . » قال : « وأي حاجة بنا إلى مثل هذا المجمع الحاشد في مثل هذا المكان المحدود ؟ » إنا يا سيدي أرحم بأبنائنا من أن نكل أمرهم إلى غيرنا فنحن الذين نتولى هذا الشأن منهم ، فلا مدارس عندنا غير المصانع والمزارع نعلمهم فيها كيف يرمون البذور ، وكيف يستنبطونها ، وكيف يصنعون آلات الزراعة ، وكيف يستعملونها ، وفيها نعلمهم كيف يبنون منازلهم وينسجون ملابسهم ويعدّون عددهم . وإنا لا نعرف علماً غير العمل ، ولا نعرف من العمل غير ما نحفظ به قوام حياتنا ، ونستعين به على عبادة ربنا . » قلت : « ألكم حاكم يتولى أموركم ؟ » قال : « لنا حاكم لا حاكم ، وهو رجل قد وثقنا به وفهمه واستقامة شأنه فاخترناه لفصل الخصومات إن عرض من ذلك عارض . » قلت : « أليس له جند وأعوان يؤيدونه وينفذون أحكامه ؟ » قال : « نعم كلنا جنده ، وكلنا أعوانه على كل من يختلف عليه أو يتمرد على حكمه ، فقد وثقنا به وبعده وكفى . » قلت : « أليس له سجن يحبس فيه المجرمين ؟ » قال : « لا ، حسب المجرم عندنا عقوبة أن يتفق أهل المدينة على احتقاره والزراية به ، وإن أخطأ ليؤثر أن يتخطفه الطير ، أو يسقط عليه كسف (١) من السماء قبل أن يرى نفسه بغيضاً إلى قومه صغيراً في نفوسهم ذليلاً في أعينهم ، لا يرفعون إليه طرفاً ، ولا يقيمون له وزناً . »

(٢) طله : أمطره الطل وهو المطر القليل .

(٣) النور : الأزهار البيضاء .

(١) الكسفة : القطعة .

الخفقان ، ولا يفيق من الهموم والأحزان ! سألته : « ما بالك أيها الصديق ؟ » قال : « لا شيء . » قلت : « أنت تكتمني ما في نفسك ولو عرفني ما كتمتني . » قال : « ما جهلتك مذ عرفتك ، ولكني أعطيت الله عهداً مذ خلقت ألا أشكو إلا إلى من أرجو عنده البرء ، وما أنا براج عندك ولا عند أحد من الناس برءاً من دائي . » قلت : « هبني طبيباً والطبيب وإن كان لا يشفي إلا نادراً ، فإنه يسكن غالباً ويعزي دائماً ، فأنا إن عجزت عن معالجتك ، فلا أعجز عن تعزيتك . على أن الماء إذا اشتد غليانه احتاج إلى التنفيس عنه ، وإلا طار بالقدر طيران الهم بالصدر . »

فأصغى إلى كلماتي واستخذى لها ، وأنشأ يحدثني حديثاً تمارجه العبرات ، ونقطعه الزفرات ، ويقول : « زوجني أي من سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم من معنى الزواج إلا أن فيه قضاء لبياتها ، وترفية عيشها ، وإرضاء نفسها ، وهو يحسب أنه قد أحسن إليّ بسلسلة المجد وربيعة النعمة ، ومالكة الدور ، وساكنة القصور . أجل إنها ذات مال وفير ، وخير كثير ، ولكن ذهب عليه - غفر الله له - أنني ما كنت أريد أن أكون تاجراً أكسب مالاً ، بل زوجاً أجد بجانبه نفساً يؤنسني محضرها ويوحشني مفقئها ، ومراة صافية نقية أترأى فيها فتريني نفسي كما هي لا تكذبني في خير ولا شر . إني أريد أن أجد في الزوجة التي أتزوجها صديقاً في المرتبة العليا من مراتب الصداقة ، ومن لي به في امرأة تجهل حتى لإضاع طفلها ولبس ثوبها ، على أن ثروتها ما كانت تقوم بحاجتها ، فقد كان لها خادمة للملابسها وأخرى لشعرها وأخرى لسيرها ، وطابخة وغاسلة ومرضع وقهرمانة^(١) وخياطة خاصة بها ، وطبيب لا يُغيب^(٢) زيارتها ومؤسسات لا يفارقن مجلسها . ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة الجمال ، فكانت تنفق ما يزيد على نصف دخلها في الحسن المجلوب ، والجمال المكذوب . وليتها كانت تُفعل أمرى وتتركني وشأني ، فأستطيع أن أتنااسها وأعدّ

(١) القهرمانة : مدبرة البيت ومتولبة شئونه .

(٢) أغب فلان القوم : إذا جاءهم حيناً بعد حين .

عليها راجعة فتستردها ، وأن هذه سنتها وتلك خلقتها في جميع أبناء آدم ، سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ ، ومن يطأ بنبله هام الجوزاء ، ومن ينام على بساط الغبراء ؛ فحفظ من حزنك ، وكفكف من دمعك ؛ فما أنت بأول غرض أصابه سهم الزمان ، وما مصابك بالبدة الطريفة في جريدة المصائب والأحزان .

أنت حزين لأن نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملاً عينيك نوراً ، وقلبك سروراً ، وما هي إلا كرة الطرف أن افتقدته ، فما وجدته ، ولو أنك أجملت في أملك ، لما غلوت في حزنك ، ولو كنت أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقاً خاطفاً ، ما تظنه نجماً زاهراً ، وهنالك لا يبهرك طلوعه ، فلا يفجعك أفوله .

أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تنكر لها ، ونظر إليها نظرة المستريب بها وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها ، فإن بقيت في يده فذاك ، وإلا فقد أعد لفراقها عُدته من قبل .

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت ، ولولا الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر ، ولولا فرحة التلاق ، ما كانت ترحة الفراق .

* * *

إلى الدير

مسكين ذلك الفتى الذي رأيته صباح أمس منزوياً في ركن من أركان أحد الأندية ، وقد ظللت جبينه الوضاح سحابة سوداء من الحزن ، وانحنى على نفسه كأنما شعر بأن قلبه يتمشى في صدره وأنه يحاول الفرار منه ، فهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه . ولو أنه أراد بنفسه خيراً لتركه يمضي في سبيله حيث شاء ، فبعداً لقلب لا يسكن عن

إليّ من المجد ، ولا أسمع في نظري من المال .
قلت : « ولكنني لا أزال أراك حزينا بعد ذلك .
قال : « نعم لأنني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة ،
ورحت أفتش عن الزوجة المتعلمة ، وقلت : « ليكون
لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في
الزواج الأول بعد ما صار إليّ الخيار ، وبعد تلك
التجربة وذاك الاختبار » فهيأ لي الحظّ جارا ملاصقا
ما زلت أسمع مذ حلّ في جواربي أن في بيته فتاة
جميلة ما زال يُعنى بأمرها حتى خرّجها (٤) وأدّبها ،
فأصبحت نايغة مدرستها وسيدة أربابها علما وفضلا
وتهذيبا وأدبا ، فما قعت بالخبر حتى خالطت أباها
ثم خالطتها ، فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوها ،
فوقعت من نفسي أحسن موقع وحلّت مكانا لم يكن
حلّ من قبل .

« خطبت الفتاة إلى أبيها فما لبث أن أخطنيني (٥)
فامتأ قلبي فرحا وسرورا ، وخيّل إليّ أنني أرى في
سماء الآمال نجما لامعا يدنو مني قليلا قليلا ،
وسجّلت أن الدهر أنشأ يكفر بحسناته ما أسلف من
سيئاته . فإني لكذلك ، وقد أعددت للبناء بها عُدته
ولم يبق بيني وبينه إلا يوم واحد ، وإذا برسول البريد
قد جاءني بهذا الكتاب ، فهاكه فاقرأه فإن فيه بقية
قصتي وسرّ نكيتي . » ثم ألقى إليّ بغلاف معنون
باسمه ، فوجدت فيه بطاقة تشتمل على رسم فتى
حسن الصورة والهندام يخاصر فتاة جميلة ، وقد
ألفت برأسها على كتفه ، و وجدت مع البطاقة
كتابا فقرأت فيه ما يأتي :

« علمت أنك خطبت فلانة إلى أبيها وأنتك عما
قليل ستكون زوجها . ولعمري لقد كذّبتك نظرك
وخدعك ، من قال لك إنك ستكون سعيدا بها ! فإنها
لن تكون لك بعد أن صارت لغيرك ، ولا يخلص
حبك إلى قلبها بعد أن امتأ بحب عاشقها ، فاعدل
عن رأيك فيها ، وانقض يدك منها ، وإن أردت أن
تعرف من هو ذلك العاشق وتحقق صدق خبري

نفسي من العزّاب تخيلا وتقديرا ، بل كانت تقيم من
نفسها ومن هذا الجحفل اللجّب (١) المحيط بها ،
حرسا كحراس الليل وجواسيس كجواسيس الإنكليز
يراقبن مواقع نظري ومواطئ قدمي ، لتعلم أين مذهب
قلبي ووجهة نفسي ، فتغار عليّ من الكوكب إذا
رأني أنظر إليه ، وتكاد تمزق الثوب الذي أحبه
وأعشق لبسه ، وتحسبها آفة الوجد أو دمة الحب إذا
رأني أتأوه من آلام عثرتها أو أبكي لعظم مصيبتني
فيها . وما هي بغيره الحب ولكنها الأثرة (٢) قُبِحها
الله وقُبِح كل ما تأتي به ! وأكثر ما كان يغيظني
منها أنها ما كانت تفتح عليّ باب الحساب على
اللفتات والخطوات إلا في الساعة التي أريد أن
أخلو فيها بنفسي أو بكتابي ، فما أكاد أنتفع بواحد
منهما . فإن سكّ أغضبها سكوتي ، وإن نظقت
أغضبها حديثي ، وإن قرأت في كتابي ظنّت أنّ
المؤلفين ما ألفوا الكتب إلا نكاية بالنساء لكي
يتخذها الرجال معصما يعتصمون به من محادثتهن
ومسامرتهن . فكان الكتاب في نظرها أعدى أعدائها
وأبغض الأشياء إليها . وجملته القول إنها ما كانت
تستطيع أن تتصور إلا أن الله خلقها لتكون طفلة
لاهية لآعبة في جميع أطوار حياتها ، وأنه ما خلقني
إلا لأكون زينة مجلسها ، ودّمية (٣) قصرها ، وأداة
لهوها ولعبها ، فلا أقرأ ولا أكتب ولا أعطي نفسي
حقا من حقوقها ، ولا أبكر لمزاولة أعمالها ، ولا أسأم
أحاديثها الطويلة المملة التي لا تشتمل إلا على نقد
الأزياء ، واغتياب النساء ، فإن وافيت رغبته فذاك ،
وإلا استحالت في لحظة واحدة من إنسان ناطق إلى
وحش مفترس ، فلا تعرف كلمة مؤلمة لا تُسمّعنيها ،
ولا تترك وسيلة من وسائل التنغيص لا تهجم بها
عليّ ، فكنت بين ألم رضاها وعذاب غضبها في
شقاء حبّ إليّ الموت وبغض إليّ وجه الحياة . وبعد
فقد رأيت أن العيش معها مستحيل ، فلم أر بدا من
فراقها ففارقتها وما على وجه الأرض شيء أبغض

(١) الجحفل : الجيش ، واللجّب : ذو الجلبة والصباح .

(٢) الأثرة : احتياز الشيء والاستئثار به .

(٣) الدمية : تمثال صغير يضرب به المثل في الحسن .

(٤) خرّج الأستاذ تلميذه : مذهب وعلمه .

(٥) يقال خطب فلان إلى فلان فأخطبه ، أي أجابه .

من الهمّ ما يُلِمُّ بغيره من القلوب . أجل فليكن ذلك كذلك ، ولكن أطعم الجائع واكس العاري وعزّ المحزون وفرّج كربة المكروب ؛ يكن لك من هذا المجمع البائس خيرُ عزاء يعزيك عن همومك وأحزانك ، ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحلك ؛ فالبدر لا يطلع إلا إذا شقّ رداء الليل ، والفجر لا يدرج إلا من مهد الظلام .

لقد بليت اللذات كلها ورثت حبالها وأصبحت أثقل على النفس من الحديث المعاد ، ولم يبق ما يعزي الإنسان عنها إلا لذة واحدة هي لذة الإحسان .

إنّ منظرَ الشاكر منظرٌ جميلٌ جذاب ، ونعمةٌ ثنائيه وحمده أوقع في السمع من رنات العود في هزجه ورملة^(٢) ، وأعذب من نغمات مَعبد في الثقليل الأول^(٣) .

أحسن إلى الفقراء والبائسين ، وأعدك وعداً صادقاً أنّك ستمرّ في بعض لياليك على بعض الأحياء الخاملة فتسمع من يحدث جاره من حيث لا يعلم بمكانك منه ، أنك أكرم مخلوق وأشرف إنسان ، ثم يعقب الثناء عليك بالدعاء لك أن يعزيك الله خيراً بما فعلت ، فيدعو صاحبه بدعائه ، ويرجو برجائه ؛ وهنالك تجد من سرور النفس وحبورها بهذا الذكر الجميل في هذه البيئة الخاملة ما يجدّه الصالحون إذا ذكروا في الملأ الأعلى .

ليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون أو مفؤود^(٤) فنتبسم سروراً ببكائك ، واغتيباطاً بدموعك ؛ لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف ، إنما هي سطور من نور تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان .

إن السماء تبكي بدموع الغمام ويخفق قلبها بلمعان البرق وتصرخ بهدير الرعد ، وإن الأرض تننّ

وإخلاصي إليك في نصيحتي ؛ فانظر إلى الصورة المرسلة مع هذا الكتاب .

التوقيع

فما نظرت الصورة وقرأت الكتاب حتى عرفت كل شيء ، فأحسست برعدة تتمشى في أعضائي وشعرت بسحابة سوداء قد غشت على نظري لهول ما سمعت ، وسوء ما رأيت ، إلا أنني تماسكت قليلاً ، فأعدت إليه كتابه ، وقلت له وهو كل ما استطعت أن أقول : « ماذا يعينيك من أمر فتاة فاجرة عاهر بعد ما انكشف لك سرها ، وظهرت لك حقيقتها ؟ ولو كنت في مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها إلى الاستغفار من جها ، وحمد الله على ما ألهم من صواب الرأي فيها . أمّا إن سألتني عن رأيي في زواجك بعد الآن ، فإني لا أرى لك إلا أن تترهّب وتتعرّب^(١) وأن تقول ما قاله «هملت» وقد زهد في الزواج بعد ما عرف حقيقة المرأة وأدرك خبيثة نفسها : « إلى الدير ! إلى الدير ! »

* * *

الرحمة

سأكون في هذه المرة شاعراً بلا قافية ولا بحر ، لأنني أريد أن أحاطب القلب وجهاً لوجه ولا سبيل إلى ذلك إلا سبيل الشعر .

إن البذور تلقى في الأرض ، فلا تثبت إلا إذا حرث الحارث تربتها وجعل عاليها سافلها ، وكذلك القلب لا تبلغ منه العظة إلا إذا داخلته وتخللت أجزاءه وبلغت سويداءه ، ولا محراث للقلب غير الشعر .

أيها الرجل السعيد كن رحيماً ، أشعر قلبك الرحمة ، ليكن قلبك الرحمة بعينها .

ستقول : إني غير سعيد لأن بين جنبي قلباً يُلِمُّ به

(١) تعرّب : عاش عزيباً لا يتزوج .

(٢) الهزج والرمل : نوعان من نغمات الموسيقى .

(٣) معبد : نايقة الغناء العربي في العصر الأموي ، توفي عام ٧٤٣ م . والثقليل الأول : ضرب من ضرب الغناء .

(٤) المفؤود : المصاب في فؤاده بالغم أو غيره .

وجِماع القول أنه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشِقة الأَشقياء في مكان واحد ، إلا إذا أمكن أن يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم ، والشيطان الرجيم !

إن من الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل ، فإذا مشى مشى متدفعاً مندكاً^(١) لا يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة ، وإذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراب^(٢) في الضحك سخرية به وببذاءة^(٣) ثوبه ودماثة خلقه . وإن من الناس من إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درّتهم^(٤) ويمتص دماءهم ، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شويّهاته وبقراته ، لا يقربها ولا يطعمها ولا يسقيها إلا لما يترقب من الربح في الاتجار بألبانها وأصوافها ، ولو استطاع أن يهدم بيتاً ليربح حجراً لفعل ! وإن من الناس من لا حديث له إلا الدينار وأين مستقره وكيف الطريق إليه وما السبيل إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيطة لغراره ، يبيت ليله حزينا كئيباً لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته ، أو يرى في منامه أنه سيأتيه فلم يُقبض له . وإن من الناس من يؤذي الناس لا يجلب بذلك لنفسه منفعة أو يدفع عنها مضرة ، بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى ما لا يعرف وجهه أو ليُضري^(٥) نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه ، حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مدبّ عقاربه وغرض سهامه ! وإن من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقق فيها ، أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها إلا الصورة البشرية ، أو عن قلبه رأيت حجراً صلباً من أحجار الغرانيت لا يَبُض^(٦) بقطرة من الرحمة ، ولا تَخْلُص إليه نسمة من العظة .

بحفيف الريح وتَضجُ بأمواج البحر . وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلا رحمة بالإنسان ، ونحن أبناء الطبيعة فلننجاها في بكائها وحينها .

إن اليد التي تصون الدموع أفضل من اليد التي تريق الدماء ، والتي تشرح الصدور أشرف من التي تبقر البطون ، فالمحسن أفضل من القائد ، وأشرف من المجاهد ، وكم بين من يحيي الميت ومن يميت الحي .

إن الرحمة كلمة صغيرة ، ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها والشمس في حقيقتها .

إذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم ؛ وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناء .

لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا عار ولا مغبون ولا مهضوم ، ولأقفر الجفون من المدامع ، واطمأنت الجيوب في المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام .

لم يخلق الله الإنسان ليقتر عليه رزقه ، ولم يقذف به في هذا المجتمع ليموت فيه جوعاً ، بل أرادت حكمته أن يخلقه ويخلق له فوق بساط الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤولته ، ويسد حاجته ، ولكن سلبه الرحمة ، فبغى بعضه على بعض ، وغدر القوي بالضعيف ، واحتجن دونه رزقه ، فتغير نظام القسمة العادلة وتشوه وجهها الجميل ، ولو كان للرحمة سبيل إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل .

الفرد هو المجتمع وإنما يتعدد بتعدد الصور . أ تدري متى يكون الإنسان إنساناً ؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه ، فحقق قلبه لخفقان القلوب وسكن لسكونها ، فإذا انقطع ذلك السلك الكهربائي بينه وبينها انفرد عنها واستوحش من نفسه ، وإذا كان الأنس مأخذ الإنسان المجتمع ، فالوحشة مأخذ الوحش المنقطع .

(١) اندك في الأمر : اندفع فيه . (٢) الإغراب : المبالغة .

(٣) البذاءة : الهيئة الرثة ، وسوء الحالة .

(٤) الدرّة : اللين إذا كثر وسال .

(٥) أضري كلبه بالصيد وضراه إذا أغراه به وعوده بمتابعته .

(٦) بض الدم : سال .

جو السماء فيخيل إليك أنها أجمل من منظر الفلك
الدائر والكوكب السَّيار .
أيها السعداء ؛ أحسنوا إلى البائسين والفقراء ،
وامسحوا دموع الأشقياء ، وارحموا من في الأرض
يرحمكم من في السماء .

* * *

رسالة الغفران*

غفوت إغفاءة طويلة لا علم لي بمداهها ولا بما
وقع لي فيها ، ثم صبحت ، فرأيت نفسي في
صحراء مدِّ البصر ، مكتظة^(٢) بأنواع من الخلق لا
أحصيهم عدداً ، فعلمت أنني بُعثت وأنه يوم القيامة ؛
فساورني^(٣) من الهمِّ ما ساورني حين ذكرت أنَّ
مقداره ألف سنة من سني القيامة ، وقلت : « من لي
بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأ وجوعاً ،
ويحترق تحت أشعة شمس ليس بينه وبينها إلا قيدُ
ظفر ! » فتماسكت بضعة أشهر ثم لم أجد بعد ذلك
إلى الصبر سبيلاً ، فزيت لي نفسي الكاذبة أن
أذهب إلى رضوان خازن الجنة ، وكنت أحمل
شهادة التوبة في يدي لأسترحمه وألتمس منه الإذن
بالدخول قبل انفضاض المحشر ، فما زلت أرقبه^(٤)
بقصائد المدح المسومة^(٥) باسمه كما كنت أرقى
بأمثالها أمثاله من عظماء العاجلة وساداتها فما أبه^(٦)
لي ولا فهم كلمة مما أقول . فانصرفت عنه إلى
خازن آخر اسمه زُفر فكان شأني معه شأني مع صاحبه
إلا أنه كان أرقَّ منه قلباً وآلئين ؛ جانباً فأشار عليَّ
بالذهاب إلى النبي الذي أتبعه وأفهمني أن الأمر

* هذا المقال خلاصة لرسالة الغفران التي ألفها أبو العلاء
المري (٩٧٣-١٠٥٧م) رداً على رسالة وجهها إليه صديقه ابن
القارح . ويتخيل أبو العلاء ، في رسالته ، ابن القارح وقد قام
برحلة إلى الجنة والنار حيث لقي مجموعة من الشعراء واللغويين
والنقاد ، وأدار على ألسنتهم محاورات . (٢) مكتظة : مملوءة .
(٣) ساورته الهموم : وأثبته وملكت ناصيته . (٤) رَقَى : تَمَلَّقَ .
(٥) المسومة : للعلنة . (٦) أبه : احتفل .

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله من أن تكون
واحداً من هؤلاء ، فإنهم سباع مفترسة وذئاب ضارية ،
بل أعظلك ألا تدنو من أحدهم ، أو تعترض طريقه ،
فربما بدا له أن يأكلك فأكلك غير حافل بك ولا
أسف عليك .

أيها الإنسان ؛ ارحم الأرملة التي مات عنها
زوجها ولم يترك لها غير صبية صغار ، ودموع غزار .
ارحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعيث الهم بقلبها
فتفضل الموت على الحياة .

ارحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها ولا تشتتر
منها عرضها ؛ علها تعجز عن أن تجد مُساوماً
يساومها فيه فتعود به إلى كسر^(١) بيتها .

ارحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ورملة نفسك
ونخادمة فراشك ؛ لأنها ضعيفة ولأن الله قد وكل
أمرها إليك ، وما كان لك أن تكذب ثقته بك
واعتماده عليك .

ارحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه ؛
فإنك إلا تفعل قتلتته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين .

ارحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن
الانتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم ،
ولا تتخذ عقله متجراً تريح فيه ليكون من الخاسرين .

ارحم الحيوان لأنه يحسُّ كما تحسُّ ، ويتألم كما
تتألم ، ويكي بغير دموع ، ويتوجع ولا يكاد يبين .
ارحمه وكذب من يقول إن الإنسان طبع على
ضرائب لئوم أقلها أنه يقبل يد ضاربه ، ويضرب من
لا يمدُّ إليه يداً .

ارحم الطيور لا تحبسها في الأقفاص ، ودعها في
فضائها تهيم حيث تشاء ، وتقع حيث يطيب لها
التفريد والتنعير ، إن الله وهبها فضاء لا نهاية له ،
فلا تقتصبها حقها فتضعها في محبس لا يسع مدَّ
جناحها . أطلق سبيلها ، وأطلق سمعك وبصرك
وراعها لتسمع تغريدها فوق الأشجار وفي الغابات
وعلى شواطئ الأنهار ، وترى منظرها وهي طائرة في

(١) جانبُ بيتها .

عليه فاطمة ما علمت من أمري فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمي في التائبين ، فشفع لي فعدت في ركب فاطمة فرحاً مستبشراً ، وما كنت أقدر أن بين يدي عقبة الصراط ، فلما وافيته وجدته لا أستمسك عليه لرقته ، فأمرت فاطمة جارية من جواربها أن تعبر معي فأمسكت بيدي ، فمشيت أترنج ذات اليمين وذات الشمال ، وخفت السقوط فقلت لها : « احمليني زققونة » . فقالت : « وما زققونة ؟ » فقلت : « أ ما سمعت قول الجحجلول من أهل كفر طاب :

صَلَحَتْ حَالَتِي إِلَى الْخُلْفِ حَتَّى

صَرْتُ أَمْشِي إِلَى الْوَرَى زَقْقُونَةَ »

فقالت : « ما سمعت بزققونة ، ولا الجحجلول ، ولا كفر طاب » . فقلت : « ألقى يدي فوق كتفك وأجعل بطني إلى ظهرك » . فحملتني وجازت بي الصراط كالبرق الخاطف حتى صرت إلى باب الجنة ، فرمت الدخول ، فوقف رضوان في وجهي ، وقال : « أين جوازك ^(٦) ؟ » فَبَعِلْتُ ^(٧) بالأمر ، ثم رأيت في دهليز الجنة شجرة صمغصاف ، فعالجته على أن يعطيني منها ورقة أعود بها إلى الموقف لأستكتب عليها الجواز فأبى ، فقلت وقد ملك اللهم علي رشدي وصوابي : « أما والله لو أنك حارس على أبواب الكرماء ، أو خازن لخزائن الملوك والأمراء ، لما وصل شاعر إلى درهم ولا سائل إلى سحتوت ^(٨) و لهلك الفقراء همًا وحزنًا ! » فسمع إبراهيم عليه السلام حوار ^(٩) ، فجدبني جذبة حصّلتني بها في الجنة وصاحبي ينظر إليّ شزراً ، فَدَخَلْتُ فرأيت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

رأيت أنهاراً من الماء العذب أصفى من أديم

(٦) الجواز : صك المسافر .

(٧) بعل بأمره : برم به فلم يدر ما يصنع فيه .

(٨) السحتوت : في الأصل السوق القليل الدسم ، ثم أطلق على كل شيء قليل .

(٩) الحوار : مراجعة الكلام .

موكول إليه ، فعدت وبين جنبي من الحسرة والوجد ما الله عالم به . فبينما أنا أتخلل الصفوف وأزاحم الوقوف ، إذ وقع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم ، أنعمت النظر فيه فإذا هو الشيخ أبو علي الفارسي النحوي ، وإذا بالمحتفلين به جماعة من شعراء العرب ، كلهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه ، هذا يقول له : « رويت بيتي على غير وجهه » . وذلك يقول : « أعربت على غير ما أردت وذهبت » . فدفعني الفضول كما دفعهم إلى النزول في ميدانهم ، فما فرغنا من الرفع والنصب والزيادة والحذف حتى أدركت شؤم ما فعلت ، وعلمت أن شهادة التوبة قد سقطت مني في ذلك المعترك ، فقلت : « قبح الله الشعر والإعراب ، واللغة والأدب ، إنهما شؤم الآخرة والأولى ! »

وقفت أحيّر من ضب في حمارة ^(١) قيظ لا أدري ما آخذ وما أدع ، حتى رميت بطرفي فإذا بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب في لفيف من العترة الطاهرة النبوية ، فذلفت ^(٢) إليه وأبشّته ^(٣) أمري وأمر الشهادة المفقودة ، فقال : « لا عليك ، أ لك شاهد بالتوبة ؟ » فقلت : « نعم » . فنودي بشهودي فشهدوا بتوبتي ، فقال : « تريث ^(٤) قليلاً حتى تمر فاطمة بنت محمد فنسألكها في أمرك ، فهي تمت إلى أبيها بما لا تمت به ^(٥) » . وكانت ممن قسم لهم دخول الجنة قبل فصل القضاء ، إلا أنها كانت تخرج كل حين للتسليم على أبيها ثم تعود إلى مستقرها . فإننا لكذلك وإذا بمناد ينادي أن غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد عليها السلام ، فهرعت إليها فرأيتها راكبة مع إختوها وجواربها على أفراس من نور ، وقدم من وعدني بسؤالها في أمري فأجيز وعده ، فقالت لأخيها إبراهيم : « دونك الرجل » . فقال : « تعلق بركايتي » . فتعلقت فطارت الأفراس في الهواء تقطع الأجيال ، وتنخطى رؤوس القرون حتى وافينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم واقفاً لشهادة القضاء ، فقصصت

(١) الحمارة : شدة الحر .

(٢) ذلف : مشى مشياً متاقلاً . (٣) أبشّته السر : كاشفه به .

(٤) تريث : أبطأ . (٥) مت بالشيء : توسل به .

ظللت أمشي فما أكاد أخطو خطوة حتى أرى منظرًا عجيبًا يُنسي السابق ، ويشوق إلى اللاحق ، فوددت لو طويت لي الأرض طيًّا ، فأتعجل النظر إلى ما غاب عني من الجنة وبلداتها . فما أخذ هذا الخاطر مكانه من نفسي حتى رأيت بين يدي فرسًا من الجواهر المتخير مسرجًا ملجمًا ، فعلمت أنني قد سعدت وأنها الأمانة التي كنت أتمناها ، فعلوت ظهره وغمزته غمزة خرج بها خروج الودق^(٦) من السحاب ، والسيف من القراب^(٧) ، وعلى ما جهَّده لم يشك إليّ ما شكاه جواد عنترة إليه في قوله :

فأزور من وقع القنا بلبانه

وشكا إليّ بعبرة وتحمحم

أو ما شكاه جواد عمر بن أبي ربيعة إليه في قوله :

تشكى الكميت الجري لما جهَّده

وبين لو يسطيع أن يتكلم

ذكرت أنني وأنا في الدار الفانية كنت أسمع بذكر الزاهبين الأولين من الأدباء والشعراء والرواة ، فأسفُّ على أن لم أكن في زمنهم أراهم وأحضر مجالسهم ، فقلت : « ليت شعري ما فعل الله بهم في هذه الدار وهل سعدوا أو شقوا ، وهل يقيض لي من رؤيتهم في دار البقاء ما لم يقيض في دار الفناء ؟ »

ثم رمت بطرفي فإذا فارس يحضر فرسه^(٨) في الهواء إحضارًا حتى تقاربنا ، فتماسَّت الركب واختلفت الأعناق . فقال : « انتسب . » فقلت : « فلان ، ومن أنت يرحمك الله وقد فعل ؟ » فقال : « عدي بن زيد العبادي . » فدهشت وقلت : « عدي بن زيد في الجنة بعد الزيف والضلال ! » فقال : « أنا عيسوي ، وأنت محمدی ، وليس لصاحبك على أحد حجة إلا بعد ظهوره وبلوغ دعوته . » فقلت : « لا نكران ، ولكن كيف لم يقعد بك فسقك وشرابك ،

السماء ، وأصقل من مرآة الحسناء ، تنصب فيها جداول من الكوثر ، إذا جرَّع الشارب منها جرعة جرع ماء الحياة ، وأمن أن يذوق كأس المنون مرة أخرى ، ورأيت جداول تفيض بالراح فيضًا قد زينت حوافيها بأباريق من العسجد ، وكؤوس من الزبرجد ، فما نهلت منها نهلة حتى قلت : « لو كشف لأهل العاجلة عما في هذه الخمرة من اللذة التي لا يشوبها كدر ، والنشوة التي لا يعقبها خمار^(١) ما باعوا قطرة منها بكل ما تشتمل عليه بابل وقطربل^(٢) من البواطی^(٣) والدنان . ولو نظر الأقيشر الأسدي بعين الغيب إلى عسجد هذه الأباريق وزبرجد تلك الكؤوس لخبيل من نفسه أن يقول :

أفنى تلادي وما جمعت من نشب

قرع القوازي^(٤) أفواه الأباريق . »

وفي تلك الأنهار أية ترفرف فوق سطحها على صور الطيور كالكرابي والطواويس والبط والعنديل ، ينحدر من مناقيرها شراب أرق من السراب ، وتسبح فيها أسماك من الذهب والياقوت . يعمن فيها بأوساط مجتحة^(٥)

كالطير تنشر في جو خوافيها

ورأيت أنهارًا من لبن وأنهارًا من عسل لا يدرك الوهم كنهه ، إلا إذا أدرك ما يمتص نحل الجنة من زهورها وأنوارها .

رأيت جميع تلك الأنهار مكبرة ، ثم تمثلت في نظري مصفرة ، فإذا هي سطور من النور ، وأحرف بيضاء في صحيفة خضراء ، قرأتها فرأيتها : « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات . »

(١) الخمار : صداغ الخمر .

(٢) بلدان مرفوفان بجودة خمرهما .

(٣) جمع باطية ، وهي إناء للشراب يوضع بين الشرب للاغتراف منه .

(٤) القوازي جمع قازوزة ، وهي قذح للشراب .

(٥) مجتحة : ذات أجنة .

(٦) الودق : المطر . (٧) قراب السيف : غمده .

(٨) أحضر الفرس : ارتفع في عدوه .

وأين استهتارك في قولك :

بكر العاذلون في وضح الصب

سح يقولون لي أما تستفيق

ودعوا بالصُّبوح فجرًا فجاءت

قَيِّنة^(١) في يمينها ليريق ؟

قال : « غفر الله لنا ما غفر لكم . قلت : هل لك علم بجماعة الشعراء والرواة ، فقد تمنيت على الله أن أراهم فكنت عنوان الكتاب وفتحة الإجابة ؟ »

فقال : « اصحبني . فطارت بنا الخيل . فقلت له : « هل آمنُ ألا يقذف بي هذا السابح على صخرة من الزمرد أو هضبة من الياقوت فيكسر لي عضداً أو ساقاً أو جمجمة ؟ » فتبسم وقال : « أين يذهب بك ، نحن في دار الخلود والبقاء ! »

مررنا بروضة من رياض الجنة يخترقها غدير خمري على شاطئه جمع كثير ، على سرر متقابلين ، أو على الأرائك متكئين ، فهوى صاحبي بفرسه ، فهويت هويته ، وقلنا : « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . » فرحبوا بنا وهشوا للقائنا وانتسبنا فتعارفنا ، ثم أخذوا فيما كانوا فيه فإذا الأصمعي يُنشد مروياته ، وأبو عبيدة يسرد وقائع الحروب ومقاتل الفرسان ، وإذا سيويته والكسائي متصافيان بعد أن وقع بينهما في مجلس البرامكة ما وقع ، وأحمد بن يحيى لا يضمن لمحمد بن زيد من الموجدة ما كان يضمن ، وأخذت تهب من ناحية النهر نفحة عطرية ذكرتني بقول الأعشى ميمون : « مثل ريح المسك ذاك ريحها . » وعلى ذكر الأعشى ذكرت مصرعه وشقاه ، وقلت في نفسي لولا أن قریشاً صدته عن الإسلام لكان اليوم بيننا في مجلسنا هذا ، فسمعت هاتفاً من ورائي يقول : « أنا بينكم وفي مجلسكم . » فالتفت فإذا الأعشى ميمون ، فلم أدر من أي مدخله^(٢) أعجب : أ من مدخله إلى الجنة ، أم من مدخله إلى نفسي وعلمه بما هجس في

(١) القَيِّنة : الأمة ، وغلبت على المغنية .

(٢) المدخل : مصدر دخل كالمدخل .

صدري ؟ ! فعلمت أن أهل الجنة ملهَمون . ثم سألتُه : « كيف غُفر لك ؟ » فقال : « سحبتني الزبانية إلى سقر ، فرأيت في عَرَصات^(٣) القيامة رجلاً يتلأل وجهه تلألؤ القمر ، والناس يهتفون به من كل جانب : « الشفاعة يا محمد . » فأخذت إخذهم وهتفت هتافهم ، فأمر أن أدنو منه فدنوت ، فسألني : « ما حُرمتك ؟ » فقلت أنا القائل :

ألا أيُّ هذا السائلِ أين يَمَمْتُ

فإن لها في أهل يثرب موعداً

فأليت لا أرثي لها من كلالمة

ولا من وجي حتى تلاقي محمداً

متى ما تناخي عند باب ابن هاشم

تراحي وتلقي من فواضله نهداً

نبي يرى ما لا ترون وذكره

أغار لعمرى في البلاد وأنجداً

فقال : « ما سمعتها منك قبل اليوم . » قلت : « خدعني عنك الناس بعد ما شددت راحتي إليك ، وكنت رجلاً أحب الشراب وخفتك عليه أن تفرق بيني وبينه . » فشفع لي ، فدخلت الجنة على ألا أدوق فيها الخمر ، ففقت بالرضاب عن الشراب ، وبماء الثغر المنضود عن ماء العنقود . ورأيت بجانبه شاباً ريق الشباب ، فسألت عنه ، فقبل لي : زهير بن أبي سلمى ، فما كدت أصدق أنه القائل :

سعت تكاليف الحياة ومن يعيش

ثمانين حولاً لا أبأ لك يسأم

فقلت له : « بيم غفر الله لك ؟ » فقال : « كنت في جاهليتي أترقب مبعث محمد وأتمنى البقاء حتى أراه ، فحال بيني وبينه الموت فأوصيت به ابني كعباً وبجيرك ، وكنت أومن بالحساب فما نفعتني شيء ما نفعتني قولي :

فلا تكتنن الله ما في نفوسكم

ليخفي ومهما يكتنم الله يعلم

(٣) عَرَصات : ساحات ، مفردا عَرَصَة .

والأغلال ويقولون : « ربنا أرجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل » . فيهتف بهم هائف : « أو لم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ! »

ورأيت بجانب امرأة تبينتها ، فإذا هي الخنساء تطلع مثلنا فترى رجلاً كالجبل الأشم على رأسه شعلة من النار ، فتمتعض وتقول : « يا صخر هذا تأويل قولي فيك من قبل :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به

كأنه علم في رأسه نار .

ورأيت هناك كثيرًا من أمثال : امرئ القيس ، وعنترة ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة بن العبد ، ورأيت بشارًا بن برد تفتح عيناه بكلايب من نار وكلما اشتد به الألم رفس إبليس برجله ، وقال له : « ما كنت لأدخل النار لولا قولي فيك :

إبليس أفضل من أبيكم آدم

فتبينوا يا معشر الأشرار

النار عنصره وآدم طينة

والطين لا يسمو سمو النار .

وجزعنا من المنظر فهمنا بالرجوع ، وإذا إبليس يهتف بنا : « يا أهل الجنة بلغوا عني أباكم آدم أنني لم أدخل النار بسببه حتى أدخلت معي أكثر ولده وأفلاذ كبده ، فلا يهنا كثيرًا بمصيري » . فقلنا : « قبحه الله لا يزال ينفس على آدم نعمته حتى اليوم ! » فما كان لنا هم بعد رجوعنا إلا لقاء أبينا عليه السلام ، فلقيناه فبلغناه الرسالة ، فقال : « ورحمته له ، ما كان بينه وبين الإيمان إلا القليل فأرداه الحسد فكان من المهلكين » . فقبلنا يده وانصرفنا إلى ما أعد الله لنا من ملك كبير ، وجنة وحريه ، وحرور ولدان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فحمدنا الله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

* * *

يؤخر فيوضه في كتاب ويدخر
ليوم الحساب أو يقدم فينقم
وإلى جانب زهير عبید بن الأبرص ، فسأله عن مصير أمره ، فقال : « كتب لي النار فما زال الناس يهتفون بقولي :

من يسأل الناس يحرموه

وسائل الله لا يخيب

والعذاب يخفف عني شيئًا فشيئًا ، حتى خرجت ببركة هذا البيت من الجحيم إلى النعيم .

ذهبت في الحديث كل مذهب ، وذهب بعضنا إلى ارتشاف الخمر من النهر ، في آنية الدثر ، فانتشينا جميعًا فما أفقنا إلا على حفيف رف^(١) من لذر الجنة نزل بنا ، ثم انتفض عن كواعب أتراب يغنين بالمزاهر والآلات الثقيل والخفيف والهزج . فما أتينا على الألحان الثمانية حتى دارت بنا الأرض الفضاء ، وحتى ملكتنا من الطرب ما يستخف الحلوم ، ويطير بالهموم ، وقلنا : « لو علم جيلة بن الأيهم بما نحن فيه لقرع السن على أن باع دينه بسرور محدود ، وأنس معدود ، ودف وعود » .

ذكرت جيلة ، فذكرت لذكره النار وقوله تعالى : « فاطلع فرآه في سواء الجحيم » فتمنيت أن أطلع فأرى المعدنين كما رأيت المنعمين ، فآلهمت الإذن ، فأشرت لصاحبي ققام وقمت ، وركبنا فرسينا فطارت بنا حتى انتهينا إلى سور الجنة ، فرأينا عنده من الداخل كوخًا يسكنه شيخ زري الهيئة ، فأشرفنا عليه فقال : « لا تعجبوا لشأني أنا الحطيفة ، والله لولا أنني صدقت مرة واحدة في حياتي في قولي :

أرى لي وجهًا شوّه الله خلقه

فقتب من وجهه وقبح حامله

لما دخلت الجنة ولما أدركت كوخًا ولا جحرًا . فتركناه واطلعنا فما رأنا أهل النار حتى ضجوا بصوت واحد أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فرأينا ملوكًا وأكاسرة يتضاغون^(٢) في السلاسل

(١) الرف : القطيع من الطير .

(٢) يقال : بات الصبيان يتضاغون من الجوع ، أي يتضوون منه .

عَبْدَةُ الدَّهْرِ

وَأَذْخَرُ فِيهِ لِنَعِيمِهِ وَلِبَهْنِيَّتِهِ^(٥) مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْخَرَ مِنْ
نَضَائِدِ^(٦) وَمَقَاعِدِ ، وَ وَسَائِدِ وَمَسَانِدِ ، وَفَرْشِ وَعَرْشِ ،
وَكِلَالِ^(٧) وَحَجَلِ^(٨) ، وَتَمَائِيلِ وَتَهَاوِيلِ^(٩) ، وَصَحَافِ
مِنْ ذَهَبٍ كَاللَّهَبِ ، وَأَكْوَابِ مِنْ بَلُورٍ كَالنُّورِ ،
وَأَقْفَاصِ لِلْحَمَائِمِ وَالنُّسُورِ ، وَمَقَاصِيرَ لِلسَّيَاحِ وَالنُّمُورِ ،
وَعَرَبَاتِ وَسَيَّارَاتِ ، وَجِيَادِ صَافِنَاتِ^(١٠) ، وَوَصَائِفَ
وَوَلَائِدَ^(١١) ، تَحِيْطُ بِالْمَجَالِسِ وَالْمَوَائِدِ ، إِحَاطَةُ
الْقَلَائِدِ بِأَعْنَاقِ الْخَرَائِدِ^(١٢) ، وَخَدَمِ حَسَانِ ، تَنْتَقِلُ فِي
الْغُرُفِ وَالْقِيَعَانِ ، تَنْقُلُ الْوِلْدَانَ ، فِي غُرَفِ الْجَنَانِ .

فِي لَيْلَةٍ مِنْ لِيَالِي الشِّتَاءِ حَالِكَةِ الْجِلْبَابِ ،
غُدَافِيَّةٍ^(١٣) الْإِهَابِ ، أَفَاقِ صَاحِبِ الْقَصْرِ مِنْ غَشِيَّتِهِ ،
فَتَحْرُكُ فِي سَرِيرِهِ وَفَتَحَ عَيْنِيهِ ، فَلَمْ يَرِ أَمَامَهُ غَيْرَ
خَادِمِهِ «بِلَالٍ» وَهُوَ خَصْمِيَّ أَسْوَدُ مِنْ ذَوِي الْأَسْنَانِ رِيَاءُ
صَغِيرًا وَكَفَلَهُ كَبِيرًا ، وَكَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ فَضِيلَتِي
الذِّكَاءِ وَالْوَفَاءِ ، فَأُشَارَ إِلَيْهِ بِإِشَارَةِ الْوَالِدِ الْمُتَلَهِّفِ أَنْ
يَأْتِيَهُ بِجُرْعَةٍ مَاءٍ فَجَاءَهُ بِهَا ، فَتَسَانَدَ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى
شَرِبَ وَكَانَ الْمَاءُ قَدْ حُلَّ عَقْدَةً لِسَانِهِ ، فَسَأَلَهُ : « فِي
أَيِّ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ اللَّيْلِ نَحْنُ يَا بِلَالُ ؟ » فَأَجَابَهُ :
« نَحْنُ فِي الْهَزِيعِ الْآخِرِ يَا سَيِّدِي . » فَقَالَ : « أَلَمْ
تَعُدْ سَيِّدَتِكَ إِلَى الْآنِ ؟ » قَالَ : « لَا . » فَامْتَعِضَ
امْتِعَاضًا شَدِيدًا ، وَزَفَرَ زَفْرَةً كَادَتْ تَخْرِقُ حِجَابَ
قَلْبِهِ ، ثُمَّ أُنْشَأَ يَتَكَلَّمُ كَأَنَّمَا يَحْدُثُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ :
« إِنَّهَا تَعْلَمُ أَنِّي مَرِيضٌ ، وَأَنِّي فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ
يَسْهَرُ بِجَانِبِي وَيَتَعَهَّدُ أَمْرِي وَيُرَفِّقُهُ^(١٤) عَنِّي بَعْضُ مَا
أَعَالَجُهُ ، وَلَيْسَ بَيْنَ سَكَّانِ الْقَصْرِ مَنْ هُوَ أَوْلَى بِي
وَأَقْوَمَ عَلَيَّ مِنْهَا . أَيْنَ وَفَاؤُهَا الَّذِي كَانَتْ تَزْعُمُهُ
وَتَقْسِمُ لِي بِكُلِّ مَحْرُجَةٍ مِنَ الْإِيمَانِ عَلَيْهِ ؟ أَيْنَ حَبِهَا

(٥) بِلَهْنِيَّةِ الْعَيْشِ : رَخَاؤُهُ .

(٦) النَضَائِدُ : جَمْعُ نَضِيدَةٍ وَهِيَ الْوَسَادَةُ .

(٧) جَمْعُ كَلَّةٍ بِالْكَسْرِ وَهِيَ السَّرِيرَةُ الرَّقِيقُ .

(٨) جَمْعُ حَجَلَةٍ بِفَتْحَاتِ وَهِيَ سِتْرُ الْعُرُوسِ فِي جُوفِ الْبَيْتِ .

(٩) التَهَاوِيلُ : النُقُوشُ وَالصُّوَرُ لِأَنَّهَا تَهْوِلُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا .

(١٠) صَبَّرَ الْجَوَادُ : قَامَ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمٍ وَطَرَفٍ حَافِرٍ رَابِعٍ .

(١١) الْوَلَائِدُ : الْإِمَاءُ ، مَفْرَدُهَا وَلِيدَةٌ .

(١٢) الْخَرَائِدُ : الْعَلَارِي ، الْمَفْرَدُ خَرِيدَةٌ .

(١٣) الْغُدَافِيَّةُ : الْغُرَابُ الْأَسْوَدُ ، وَلِيلَةُ غُدَافِيَّةٍ شَبِيهَةٌ بِهِ .

(١٤) رَفَّقَهُ عَنْهُ : نَفَسَ عَنْهُ وَخَفَّفَ .

بَنَى فَلَانَ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ بَسَاتِينِ الزَّاهِرَةِ
قَصْرًا فَخْمًا يَتَلَأَلُ فِي تِلْكَ الْبَقْعَةِ الْخَضِرَاءِ ، تَلَاكُؤُ
الْكُوكَبِ الْمُنِيرِ فِي الْبَقْعَةِ الزَّرْقَاءِ ، وَيَطَاوُلُ بِشُرُفَاتِهِ
السَّمَاءَ أَفْلَاكَ السَّمَاءِ ، كَأَنَّهُ تَسَرَّحَ مَحَلَقٍ فِي الْفَضَاءِ ،
أَوْ قُرْطٍ مَعْلَقٍ فِي أُذُنِ الْجُوزَاءِ ، وَكَأَنَّهُ شُرُفَاتِهِ آذَانَ
تُفَضِّي إِلَيْهَا النُّجُومُ بِالْأَسْرَارِ ، وَطَاقَاتِهِ أَبْرَاجٌ تَنْتَقِلُ
فِيهَا الشُّمُوسُ وَالْأَقْمَارُ .

شَادَهُ مَرَمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْسًا^(١)

فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهِ وَكُورِ

وَلَمْ يَدْعُ رِيْشَةَ الْمَصُورِ وَلَا لِيْقَةَ^(٢) لِرَسَامِ إِلَّا
أَجْرَاهَا فِي سَقُوفِهِ وَجِدْرَانِهِ ، وَطَاقَاتِهِ وَأَرْكَانِهِ ، حَتَّى
لِيَخِيلَ إِلَى السَّالِكِ بَيْنَ أَبْهَائِهِ^(٣) وَحَجَرَاتِهِ ، وَمَحَارِيْبِهِ
وَعَرَصَاتِهِ^(٤) ، أَنَّهُ يَنْتَقِلُ مِنْ رَوْضَةٍ تَزْهَرُ بِالْوُرُودِ
الْحُمْرَاءِ ، وَالْأَنْوَارِ الْبَيْضَاءِ ، إِلَى بَادِيَةٍ تَسْتَحْ فِيهَا
الذُّثَايَا الْغُبْرَاءُ ، وَالنُّمُورِ الرُّقْطَاءُ ، وَمَنْ مَلْعَبُ تَصِيدِ
فِيهِ الظُّبَاءِ الْأَسْوَدِ إِلَى غَابِ تَصِيدِ فِيهِ الْأَسْوَدُ الظُّبَاءِ .
وَأُنْشَأَ فِي كُبْرَى سَاحَاتِهِ ، وَأَوْسَعِ بَاحَاتِهِ ، صِبْهَرِيْجًا
مِنْ الْمَرَمَرِ مُسْتَدِيرًا يَضُمُّ بَيْنَ حَاشِيَّتَيْهِ فَوَارَةً يَنْفِرُ مِنْهَا
الْمَاءُ صُعْدًا كَأَنَّهُ سَيْفٌ مُجَرَّدٌ ، أَوْ سَهْمٌ مُسَدَّدٌ ،
فِيَخِيلُ إِلَى الرَّائِي أَنَّهُ الْأَرْضُ تَتَأَرَّ لِنَفْسِهَا مِنْ
السَّمَاءِ ، وَتَتَقَاضَاهَا مَا أَرَاكَتْ مِنْهَا مِنَ الدَّمَاءِ ، تِلْكَ
تَقَاتِلُهَا بِالرُّجُومِ وَالشُّهُبِ ، وَهَذِهِ تَخَارِبُهَا بِالسَّهَامِ
وَالْقَضْبِ . وَغُرَسَ حَوْلَ دَائِرَةِ الصَّبْهَرِيْجِ دَوَائِرُ مِنْ
شَجَرَاتٍ ، مُؤْتَلِفَاتٍ وَمُخْتَلِفَاتٍ ، وَأَغْصَانِ صَنْوَانِ
وغيرِ صَنْوَانِ ، إِذَا رَنَحَتْهَا نَسَائِمُ الْأَسْحَارِ ، رَقِصَتْ
فَوْقَ بَسَاطِ الْأَزْهَارِ ، وَتَحْتَ ظِلَالِ الْأَثْمَارِ ، فَغَنَتْ
عَلَى رَقِصِهَا الْأَطْيَارُ ، غَنَاءَ الْأَغَارِيدِ لَا غَنَاءَ الْأَوْتَارِ ،

(١) الْكِلْسُ : الْحِجْرُ .

(٢) لِيْقَةُ الدَّوَاةِ : صَوْفُهَا ، وَيَتَخَذُهَا الرَّسَامُ أَيْضًا لَجَمْعِ أَخْلَاطِهِ
فِيهَا .

(٣) الْأَبْهَاءُ : جَمْعُ بَهْرٍ وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَقْدَمُ أَمَامَ الْبُيُوتِ .

(٤) الْمَحْرَابُ هُنَا صَدْرُ الْبَيْتِ ، وَالْعَرَصَاتُ جَمْعُ عَرِصَةٍ ، وَهِيَ
سَاحَةُ الدَّارِ .

« واللّه يا سيدي ما هزأت في حياتي ولا هذيت !
ألا تذكر تلك الليالي الطوال التي كنت تقضيها
خارج المنزل بين شهوة تطلبها ، وكأس تشربها ،
وملاعب تجرّ فيها أذيالك ، ومراقص تهتك فيها
أموالك ، تاركاً زوجتك في هذه الغرفة على هذا
السريّر تشكو الوحشة ، وتبكي الوحدة ، وتتقلب على
أحرّ من الجمر شوقاً إليك ، وحزناً عليك ، فلا تعود
إليها إلا إذا شاب غراب الليل ، وطار نسر الصباح ؟
إنك سلبتها تلك الليالي السالفة فأصبحت غريمها
فيها ، فهي تستردها منك اليوم ليلة ليلة حتى تأتي
عليها ، ذلك هو دينها وهذا هو غريمها ! ألا تذكر
أنك كنت في لياليك هذه ربما تحبس الزوجة عن
زوجها وتملكها عليه ، وهو واقف موقفك هذا في
حسرتك هذه يبكي ما تبكي ويندب ما تندب ؟ ذلك
الزوج هو الذي يتقاضاك اليوم حقّه ويأبى إلا أن
يأخذ عينا بعين ونقدًا بنقد ، فهو يفجعك في
زوجتك كما كنت تفجعه في زوجته ويقض^(٣)
مضجعك كما كنت تقض مضجعه ، وأنا أعينك
بعدلك وإنصافك أن تكون من لؤة الدين أو تكون من
الظالمين .»

قال : « حسبك يا بلال فقد بلغت مني ، وإن لي
في حاضري ما يشغلني عن ماضي فادع لي
ولدي .» قال : « لم يعد يا سيدي من الوجه الذي
بعثته فيه حتى الآن .» قال : « لا أذكر أي بعثته في
وجه ما ، وأين ذهب ؟» قال : « ذهب إلى الحانة
التي يختلف إليها ، ولن يرجع منها حتى يرتوي ،
ولن يرتوي حتى يعجز عن الرجوع . إنني طالما وقفت
بين يديك يا مولاي ضارعاً إليك أن تحول بينه وبين
خطباء السوء وعشراء الشر حتى لا يفسدوه عليك ،
فكنت تعرض عني لإعراض من يرى أن تدليل الولد
وترفيه^(٤) وإرخاء العنان له عنوان من عناوين العظمة
ومظهر من مظاهر الأبهة والجلال . كنت أسألك أن
تعلمه العلم وأن تهديه إلى طريق المدرسة ليضل عن
طريق الحانة ، فكنت ترى أن الذي يحتاج إلى العلم

الذي كانت تهتف به في صباحها ومساءها ويكورها
وأصائلها ؟ أين النعيم الذي كنت أطلبها في أعطافه
والعيش الرغد الذي كنت أرشفها كؤوسه ؟ أن
علمت أنني أصبحت بين حياة لا أرجوها وموت لا
أجد السبيل إليه ، برمت^(١) بي ، واستثقلت ظلي
واستبطأت أجلي ، واستطالت ضيعتي ؟! فهي نفر
من وجهي كل ليلة إلى حيث تجد لذات العيش
ومواطن السرور . أه من العيش ما أطوله ! وآه من
الموت ما أقبله !»

وما زال يحدث نفسه بمثل هذه الأحاديث حتى
هاج ساكنه واضطربت أعصابه ، فعاودته الحمى
وعلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها ، فسقط على
فراشه ساعة تجرّع فيها من كأس الموت جرعاً مريرة ،
بيد أنه لشقاؤه لم يأت على الجرعة الأخيرة منها .

أفاق من غشيته مرة ثانية ، فلم ير بجانبه تلك
التي تسيل نفسه حشرات عليها ، فسأل الخادم :
« ألا تعلم أين ذهبت سيدتك يا بلال ؟» قال : « خير
لك ألا تنتظرها يا مولاي ، وألا تلومها في بعدها
عنك ، فإن لها عند بعض الناس ديناً فهي تخرج
كل ليلة لتتقاضاه .» قال : « ما عرفت قبل اليوم أن
بينها وبين أحد من الناس شيئاً من ذلك ، ومتى كان
يتقاضى الدائن دينه في مثل هذه الساعة من
الليل ؟ وهل أعيائها أن تجد من يقوم لها بذلك
فهي تتولاه بنفسها ؟» وهلا فرغت من أمر دينها بعد
اختلافها إليه سنة كاملة ؟ قال : « إن بينها وبين
غريمها صكاً مكتوباً أن يؤدي ما عليه من الدين
أقساطاً ، في كل ليلة قسط ، على أن تتناوله بيدها
وأن تكون مواعيد الوفاء أخريات الليالي .» قال :
« ما سمعت في حياتي بأغرب من هذا الدين ولا
أعجب من هذا الصك ! ومن هو غريمها ؟» قال :
« أنت يا سيدي .» فنظر إليه نظرة الحائر المشدود^(٢) ،
وقال : « إنني أكاد أجن لغرابة ما أسمع وأحسب
أنك هاذا فيما تقول أو هازئ .» فدنا منه الخادم وقال :

(١) برم به : شتمه وضجر منه .

(٢) المشدود : المدهوش .

(٣) أقض مضجعه : جملة خشنا .

(٤) رفهه : جملة مرفهه ، أي لين العيش .

ضعفًا ونحولاً. قال : « قد علمتُ أن الطبيب قد نفذ يده من الرجاء فيه وأضمر اليأس منه ، ولا عجب في ذلك فإنه ما زال يسرف على نفسه ويذهب بها المذاهب كلها حتى قتلها . » قالت : « ما أشقاه ! أ كانت نفسه عدوة إليه ، فجنى عليها هذا الشقاء ، وذلك البلاء ! » قال : « ما كان عدوًّا لنفسه ولا كانت نفسه عدوة إليه ، ولكنه كان جاهلاً مغروراً ، غره شبابه وماله ، وعزه وجهه ، فظن أنه قد أخذ على الدهر عهداً بالسلامة والبقاء ، فانطلق في سبيله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى سقط في الحفرة التي احتقرها لنفسه . » قالت : « أ تعلم ماذا يكون حال هذا القصر من بعده ؟ » قال : « لا أعلم إلا أنه سيكون لولده . » قالت : « ولكني أعلم أنه سيكون لفلان . » قال : « إن فلاناً ليس وريث السيد ، بل صديقهُ . » قالت : « إنه ليس بصديق السيد ، بل صديق السيدة ، فهو مخاطبُ زوجته قبل وفاته ، وزوجها بعد مماته ! »

فما سمع السيد هذه الكلمات حتى اضطرب اضطراباً شديداً وسقط عن كرسيه وهو يقول : « أشهد أي من الأتقياء ! » وما زال في غشيته تلك حتى صحا صحو الموت ، وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم :

رأى ولده لاهياً بمحادثة فتاة من فتيات القصر ، ورأى زوجته تضاحك تزيهاً من أترابها وتغمزها بطرفها أن قد حان حينه ودنا أجله ، ورأى صديقه أو وليَّ عهده يأمر في القصر وينهى ، ويتصرف تصرف السيد المطاع ، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت ويُعدُّ عُدته للانتقال من القصر إلى القبر . وهنا سمع كأن هاتفاً يهتف به من السماء ويقول : « أيها الرجل ، لو رقيت لزوجك لوكت لك ، ولو أدبت ولكد لعناه أمرك ، ولو أحسنت اختيار صديقك ما خانك ، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك . » فأغمض عينيه وهو يقول : « فلتكن مشيئة الله . »

وهكذا فارق هذا المسكين حياته مفجوعاً بزوجه

من يرتزق به ، وأن ولدك عن ذلك من الأغنياء . فلا تشك من عمل يديك ، ولا تبك من جناية نفسك عليك ، فأنت الذي أرسلته إلى الحانة وأنت الذي أبقيته فيها إلى مثل هذه الساعة ، وأنت الذي أبعدته عن فراشك أحوج ما كنت إليه . »

وما وصل الخادم من حديثه إلى هذا الحد حتى نصل الليل من خضابه واشتعل المبيض في مسوده ، وإذا صوت الناعورة يرن في بستان القصر رنين الثكلي فقدت واحدتها ، فقال السيد : « هات يدك يا بلال ونخذ بيدي إلى جوار النافذة لأروِّح عن نفسي بعض ما أَلَمَّ بها ، أو أودع إلى جانبها نسيمات الحياة . » ثم اعتمد على يده حتى وصل إلى النافذة ، فجلس على كرسي مستطيل وألقى على البستان نظرة طويلة ، فرأى البستاني وزوجه جالسين إلى الناعورة وقد برقت بوارق السعادة من خلال أثوابهما البالية ، برق الكواكب المنيرة من خلال السحب المتقطعة . رأهما متحابين متعاطفين لا يتعابان ولا يتشاحان^(١) ولا يشكوان همًّا ولا يندبان حظًا . رأهما قوين نشيطين يجري دمهما في عروقهما صافياً رائقاً ، وكأن كلا منهما يحاول أن يخرج من إهابه^(٢) مَرَحاً ونشاطاً . رأهما راضيين بما قسم الله لهما من خشونة الملابس وجشوبة^(٣) الطعام ؛ فلا يتشهيان ولا يتمنيان ولا ينظران إلى ذلك القصر الشامخ المطل عليهما نظرات الهم والحسرة . سمعهما يتحادثان فأصغى إليهما فإذا البستاني يقول لزوجه : « والله لو وهب لي هذا القصر برياضه وبساتينه ، وأنيته وخرثيه^(٤) ، على أن تكون لي تلك الزوجة الخائنة الغادرة لفضلت العيش فوق صخرة في منقطع العمران ، على البقاء في مثل هذا المكان ، أقاسي تلك الهموم والأحزان . » فقالت : « لا أحسب أن سيدنا ينجر من خطر هذا المرض ، فقد مرَّ به على حاله تلك عام كامل وهو يزداد كل يوم

(١) من المشاحة ، وهي المخاصمة والمجادلة .

(٢) الإهاب : الجلد .

(٣) جشوبة الطعام : خشونته .

(٤) الخرثي : أثاث البيت .

سرت ، وعالمًا إذا احتلت ، وعاقلاً إذا خدعت ،
وكان يهابك هيئته للفاتحين ، ويُجلك إجلاله
للفاضلين . وكثيراً ما كنت تحب أن ترى وجهك
في مرآته ، فتراه وجهاً أبيض ناصعاً فتمنى لو دام
لك هذا الجمال . ولو أنه كان يؤثر نصحك ويصدقك
الحديث عن نفسك لمثل لك جريمتك في نظرك
بصورتها الشوهاء ، وهنالك ربما وددت بجدع
الأنف لو طواك بطن الأرض عنها ، وحالت المنية
بينك وبينها .

شريكتك في الجريمة حكومتك لأنها كانت
تعلم أن الجريمة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة
كثيرة الحلقات ، وكانت تراك تمسك بها حلقة
حلقة وتعلم ما سينتهي إليه أمرك ، فلا تضربُ على
يدك ولا تعترض دون سبيلك ، ولو أنها فعلت لما
اجترمت ، ولا وصلت إلى ما إليه وصلت .

كانت حكومتك تستطيع أن تعلمك وتهذب
نفسك ، وأن تقفل بين يديك أبواب الحانات وأن
تحول بينك وبين مخالطة الأشرار بإبعادهم عنك
وتشريدكم في مجاهل الأرض ومخارمها ، وأن
تُعديك^(١) على قتيلك قبل أن يبلغ حقدك عليه مبلغه
من نفسك ، وأن تحسن تأديبك في الصغيرة ، قبل
أن تصل إلى الكبيرة ، ولكنها أغفلت أمرك فنامت
عنك نوماً طويلاً ، حتى إذا فعلت فعلتك استيقظت
على صوت صراخ المقتول ، وشمرت عن ساعدها
لتمثلَ منظرًا من مناظر الشجاعة الكاذبة ،
فاستصرخت جندها ، واستنصرت أسلحتها ، وأعدت
جذعها وجلادها ، وكان كلُّ ما فعلت أنها أعدمته
حياتك .

هؤلاء شركاؤك في الجريمة ، وأقسم لو كنتُ
قاضياً لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك في
الجريمة ، وجعلت تلك الجُلوع قسمةً بينك وبين
شركائك ، ولكنني لا أستطيع أن أنفعل ؛ فيا أيها
القتيل المظلوم رحمةُ الله عليك .

* * *

وولده ، وصديقه ونفسه ، وبستانه وقصره .

رب ركب قد أناخوا حولنا

يشربون الخمر بالماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقضوا

وكذاك الدهر حالاً بعد حال

* * *

أفسدك قومك

أيها المجرمُ الفاتكُ الذي يسلب الخزائنَ
نفائسها ، والأجسام أرواحها ، لست أحمل عليك
من العتب فوق ما يحمله ذنبك ، ولا أنظرُ إليك
بالعين التي نظر بها إليك القاضي الذي قسا في
حكمه عليك ؛ لأنني أعتقد أن لك شركاء في
جريمتك ، فلا بد لي من أن أنصفك وإن كنت لا
أستطيع أن أنفعل .

شريكتك في الجريمة أبوك لأنه لم يتعهدك
بالتربية في صغرك ، ولم يحل بينك وبين مخالطة
المجرمين ، بل كثيراً ما كان يُخبخ^(١) لك إذا رآك
هجمت على تربك وضررتَه ، ويُصفق لك إذا رأى
أنك تمكنت من اختلاس درهم من جيب أخيك أو
اختطاف لقمة من يده ، فهو الذي غرس الجريمة في
نفسك ، وتمهدا بالسُّقيا حتى أينعت ونمت وأثمرت
لك هذا الجبل الذي أنت معلق به اليوم . وها هو ذا
الآن يذرفُ عليك العبرات ، ويُصعدُ الزفرات ، ولو
عرف أنها جريمتُه وأنها غرسُ يمينه لضحك مسروراً
بغفلة الشرائع عنه ، وسجد لله شكرًا على أن لم
يكن حبلك في عنقه وجامعتك^(٢) في يده .

شريكتك في الجريمة هذا المجتمع الإنسانيُّ
الفاسد الذي أغراك بها ، ومهد لك السبيل إليها ،
فقد كان يُسميك شجاعاً إذا قتلت ، وذكياً فظناً إذا

(١) أعدى الأمير فلاناً على فلان إذا نصره عليه وأعانه .

(٢) البخخ له : قال له بخ بخ . (٢) الجامعة : الغل .

الصدق والكذب

« يا صاحب النظرات :

نظرة الريح الذي أربحه منه ، فلما صدقته عنه أعظمه وانصرف عني إلى سواي . ولم أزل على هذه الحال حتى أظلمت الليل ، ولم يفتح الله عليّ بقوت يومي ، وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفتُ في السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق .

« الموقف الثاني : جلست في مجلس يتصنره شيخ من تجار العقول الضعيفة المعروفين بمشايع الطرق ، وقد حَفَّ به جماعة من عبده وسدنة^(٢) هيكله ، فسمعه يشرح لهم معنى التوكل شرحاً غريباً ، يذهب فيه إلى أنه القعود عن العمل وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه ، والإعراض عن كل سعي يؤدي إلى أي غاية ، ويعتمد في هذيانه هذا على آيات يؤولها كما يشاء ، وأحاديث لا يستند في صحتها على مستند سوى أنه سمعها من شيخه أو قرأها في كتابه . وأكثر ما كان يدور على لسانه حديث : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً »^(٣) ، فقلت له ، وقد أخذ الغيط من نفسي مأخذه : « يا شيخ ، أردت أن تحجج لنفسك فاحتججت عليها ! أتعبد إلى حديث يستدل به روايته على وجوب السعي والعمل ، فتستدل به على البطالة والكسل !؟ ألم تر أن الله سبحانه وتعالى ما ضمن للطير الرواح بطاناً إلا بعد أن أمرها بالغدو ، وهي التي ترويهما القطرة ، وتشبعها الحبة ، فكيف لا يأمر الإنسان بالسعي ، وهو من لا تفنى مطالبه ، ولا تنتهي رغبته !؟

« أيها القوم ، إنكم تقولون بألستكم ما ليس في قلوبكم ، إنكم عجزتم عن العمل ، وأخلتكم إلى الكسل ، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذراً يدفع عنكم هاتين الوصمتين ، فسميت ما أنتم فيه توكلًا وما هو إلا العجز الفاضح ، والإسفاف الدنيء ! »

(٢) السدان : خادم الهيكل أو خادم الكمية والمراد به الحاجب ، والجمع سدنة .

(٣) الخماص : جمع خميص وهو ضامر البطن ، والبطان جمع بطون ، وهو محتل البطن .

« سمعت بالصدق وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر ، وسمعت بالكذب وما أعد الله للكاذبين من سوء العذاب وأليم العقاب . وقرأت ما كتبه حكماء الأمم من عهد آدم إلى اليوم ، لإجماعهم أن الصدق فضيلة الفضائل والأصل الذي تتفرع عنه جميع الأخلاق الشريفة والصفات الكريمة ، وأنه ما تمسك به متمسك إلا كان النجاح في أعماله ألصق به من ظله ، وأعلق به من نفسه . سمعت هذا وقرأت هذا ، فلم يبق في نفسي ريب في أن ما أنا مرزوء به في حظي من الشقاء وعيشي من الضنك وحياتي من الهموم والأكدار ، إنما جره إليّ شؤم الكذب ، وأن ما كنت أتخيله قبل اليوم من أن هناك مواقف يكون فيها الكذب أنفع من الصدق وأسلم عاقبة ، إنما هو ضرب من ضروب الوهم الباطل ونزعة من نزغات الشيطان ؛ فعاهدت الله ونفسي ألا أكذب ما حييت ، وأعددت لذلك القسم العظيم عذته من شجاعة في النفس وقوة في العزيمة ، بعد ما وجهت وجهي لله تعالى وسألته أن يمدني بمعونته ونصره .

« وما أنذا ذاكر لك مواقف الصدق التي وقفتها بعد ذلك العهد ، وما رأيته من آثارها ونتائجها . الموقف الأول : جلست في حانوتي فما وقف بي مسامح إلا صدقته القول في الثمن الذي اشتريت به السلعة والريح الذي أريده لنفسي فيها ، والذي لا أستطيع أن أعد نفسي رابحاً إذا تجاوزت عن بعضه فيأبى إلا الحطيطة^(١) ، فأبأها عليه فينصرف عني استثقلاً للثمن واستعظاماً لمقداره ، وما هو إلا الريح الذي اعتدت أن أخذه منه في مثل تلك الصفقة ، إلا أنني كنت أكذب عليه في أصل الثمن ، فيصفر في

(١) الحطيطة : ما يُخَفَّض من الثمن .

وهنا زفر الشيخ زفرة الغيظ ، ونادى في قومه ، أن أخرجوا هذا الزنديق الملعون من مجلسي ! فتألبوا عليّ تأليبهم على قصعة الثريد وأوسعوني لطعاً وصفعاً ، ثم رموا بي خارج الباب ، فما بلغت منزلي حتى هلكت أو كدت ، فما مررت بعد ذلك بطائفة من العامة إلا رموني بالنظر الشزر ، وعادوا بالله من رأيتي كما يعوذون به من الشيطان الرجيم .

« الموقف الثالث : لا أكتملك يا سيدي أني كنت أبغض زوجتي بغضاً يتصدع له القلب ، غير أني كنت أصانمها وأتودد إليها وأمنحها من لساني ما ليس له أثر في قلبي ؛ خداعاً لها ولإبقاء على ما تحتويه يدي من ضباية مال كانت لها . فرأيت أن ذلك أكذب الكذب وأقبحه ؛ فالكيت على نفسي ألا أسدل بعد اليوم أمام عينيها حجاباً يحول بينها وبين سريري ، فانقطع عن سمعها ذلك السلسيل العذب من كلمات الحب ، فاستوحشت مني وأظلم ما بيني وبينها ، فما هي إلا عشية أو ضحاها حتى انحل ذلك الوثاق ، وختمت سورة الفراق بآية الطلاق .

« الموقف الرابع : حضرت مجتمعا يضم بين حاشيته جماعة من الفضوليين الذين تضيق بهم مذاهب القول ، فيلجأون إلى الحديث عن الناس والمفاضلة بينهم ، ويحاولون أن ينبشوا دفائن صدورهم ويتغلغلوا بين أطواء^(١) سرائرهم ، ويغالون في ذلك مغالاة الكيمائي في تحليله وتركيبه ، فرأيتهم يتناولون بألسنتهم رجلاً عظيماً من أصحاب الآراء السياسية ، لا أعتقد أن بين السالكين مسلكه والآخرين إنحذه من أخلص لأمنته إخلاصه ، أو وقف في المواقف المشهودة موقفه ، أو لاقى في ذلك السبيل من صدمات الدهر وضربات الأيام ما لاقاه ، سمعتهم يسمونه خائناً . فوالله لأن تقع السماء على الأرض أحب إليّ من أن يُتَّهم البريء أو يُجازى المحسن سوءاً على إحسانه . سمعت ما لم أملك نفسي معه ، فقلت : « يا قوم ؛ أظالعون من كتاب الحرية مائة صفحة ونيفاً^(٢) ثم لا تزالون عبيد الأوهام ،

(١) أطواء الثوب : مكاسر طيه .

(٢) يريد أن تاريخ الحرية في مصر قرن ونيف .

« الموقف الخامس : قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طوماراً^(٣) كبيراً ، وكنت ذاهباً إلى موعد لا بد لي من الوفاء به ففرض عليّ أن يُسمِعني قصيدة من طريف شعره ، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده ، فاستعفيت بعد أن كاشفته بأمرى فأبى ، فانتحيت به ناحية من الطريق ، فأنشأ يترجم بالقصيدة بيتاً بيتاً وأنا أشعر كأنما يجرعني السم قطرة قطرة ، حتى تمنيت أن لو ضربني بها ضربة واحدة يكون فيها انقضاء أجلي ؛ ليربحني من هذا العذاب المتقطع والتمثيل الفظيع ا وكلما أتى على بيت منها أقبل عليّ بوجهه ، وأطال النظر في وجهي ، وحرق في عيني ليعلم كيف كان وقع شعره من نفسي ، فإذا رأى تقطيب وجهي ظنه تقطيب الشارب لا رشف الكأس ؛ فيستمر في شأنه حتى أنشد نحو خمسين بيتاً . ثم وقف وقال : « هذا هو الباب الأول من أبواب القصيدة ! » فقلت : « وكم عدد أبوابها يرحمك الله ؟ » قال : « عشرة ليس فيها أصغر من أولها ! » قلت : « أ تأذن لي أن أقول لك يا سيدي إن شعرك قبيح ، وأقبح منه طوله ، وأقبح من هذا وذاك صوتك الأجش الخشن ، وأقبح من الثلاثة اعتقادك أني من سخافة الرأي وفساد الذوق بحيث يعجبني

(٣) الطومار : الصحيفة .

إن الذي يطلب الفضيلة ليستكثر بها ماله أو يرقه بها عيشه ، يحقرها ويزدريها لأنه لا يفرق بينها وبين سلعة التاجر وآلة الصانع .

ليس من صواب الرأي أن يجعل الإنسان حالة عيشه ميزاناً يزن به أخلاقه ، فإن اتسع عيشه اطمأن إليها وإن ضاق أساء الظن بها ، فكم رأينا بين الفاضلين أشقياء ، وبين الأرزلين كثيرًا من ذوي النعمة والثراء .

لا يستطيع الرجل الفاضل أن يبلغ غايته من عيشه إلا إذا استطاع أن يزل من نفوس الناس منازل الحب والإكرام ، ولن يستطيع ذلك إلا إذا عاش بين قوم يعرفون الفضيلة ويعظمون شأنها ، ولن يكونوا كذلك إلا إذا كانوا فضلاء أو أشباه فضلاء ، والسواد الأعظم الذي يمسك بيده أسباب العيش ويملك بناييعه ، سواد أبله ساذج يغيض الصادق لأنه يصادفه في ميوله وأهوائه وينقم منه جهله وغباوته ، ويحب الكاذب لأنه لا يزال يزين له أمره حتى يحب إليه نفسه . فلا بد للصادق من صدر يسع هموم العيش وقلب يحتمل بغض القلوب ؛ ليبلغ غايته من إصلاح النفوس وتهذيبها ، كما يبذل المجاهد حياته ودمه ليبلغ غايته من الفوز والانتصار .

الصدق جنة حُفَّتْ بالمكاره ، فإن كان للصادق في جنة الصدق أرب ، فليحمل في سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الإنساني ، ودعاة المطالب الدينية والسياسية .

كما أن الجود يفقر والإقدام قتال ، وكما أن لكل فضيلة من الفضائل آفة من الآفات ترفع درجتها وتبعد منازلها إلا على الصابرين المخلصين ، كذلك للصدق آفة من مصادمة الكاذبين ، وهم الأكثرون ، للصادقين ، وهم الأقلون .

أ تريد أيها الرجل أن تسمى صادقاً ، وأن تنال أشرف لقب يستطيع أن يناله بشر ، وأن يوافيك المجد طائعاً مدعاً دون أن تبذل في سبيله شيئاً من مالك أو راحتك ؟

مثل هذا الشعر البارد صعباً يسهل عليّ فوات الغرض الذي أريده ، والذي ما خرجت من منزلي إلا من أجله ؟» فتلقتني بضربة بجُمع يده في صدري ، فتلقيته بجملها وما زالت أكفنا تأخذ مأخذها من خدودنا وأقفائنا حتى كُلت ، فجردت عصاي وضربته في رأسه ضربة ما أردت بها - يعلم الله - إلا أن أصيب مركز الشعر من مخه فأفسده عليه ؛ فسقط مغشياً عليه ، وسقطت القصيدة من يده ، فأسرعت إليها ومزقتها وأرحت نفسي منها وأرحت الناس من مثل مصيبتني فيها . وكان الشرطي قد وصل إلينا فاحملنا جميعاً إلى المخفر ، ثم إلى السجن حيث أكتب إليك كتابي هذا .

« فيا صاحبَ النظرات ؛ أفتني في أمري وأثر ظلمة نفسي ؛ فقد أشكل عليّ الأمر وأصبحت أسوأ الناس بالصدق ظناً ، بعد ما رأيت أنني ما وقفت موقفه في حياتي إلا خمس مرات ، فكانت نتيجة ذلك إفلاسي وخراب بيتي واتهامي بالخيانة مرة والزندقة أخرى ، ذلك إلى ما أفاسيه اليوم في هذا السجن من أنواع الآلام وصنوف الأسقام .»

أيها السجن :

كُتبت إليّ - مسح الله ما بك وألهمك صواب الرأي في حالِك - تشكو من جناية الصدق عليك ما وقف بك موقف الشك في أمره ، وكاد يزلق بك إلى الاعتقاد أنه رذيلة الرذائل ، لا فضيلة الفضائل ، وما كان لك أن تجعل لليأس هذا السبيل إلى نفسك ، وأن يبلغ بك الجزع من نكبات العيش وضربات الأيام مبلغاً يذهب برشدك ، ويطير بلبك ؛ فما أنت أول صادق في الأرض ، ولا أول من لقي في سبيل الصدق شراً وكابداً ضراً .

إنك لو فهمت معنى الفضيلة حقّ الفهم ، وصبرت على مرارتها حقّ الصبر لذقت من حلالاتها ما تُقطعُ دونه أعناق الرجال .

ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال ، وإنما هي حالة من حالات النفس تسمو بها إلى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال .

الصحف عناوين مقالاتهم في معرض التهويل والتجسيم ، فأكتب به إلى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية :

أيها القوم ؛ إن علماء الضَّاد الذين عرّفوا الشعر بأنه الكلام الموزون المقفّى لم يكونوا شعراء ولا أدباء ، ولا يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه أو اشتقاقه وتصريفه ، وإنما جَرّوا في ذلك التعريف مجرى علماء العروض ، الذين لا مناصَ لهم من أن يقفوا في تعريف الشعر عند هذا القدر ، ما دام لا يتعلق لهم غرض منه بغير أوزانه وقوافيه ، وعلمه وزحافاته .

لا تظنوا أن الشعر كما تظنون وإلا لاستطاع كل قارئ ، بل كل إنسان أن يكون شاعراً ؛ لأنه لا يوجد في الناس من يُعجزه تصوّر النغمة الموسيقية والتوقيع عليها من أخضر طريق .

أيها القوم ؛ ما الشعر إلا روحٌ يودعها الله فطرة الإنسان من مبدأ نشأته ، ولا تزال كامنة فيه كمنون النار في الرّند ، حتى إذا شدا^(١) فاضت على أسلات^(٢) أقلامه كما تفيض الكهرباء على أسلاكها ، فمن أحسّ منكم بهذه الروح في نفسه فليعلم أنه شاعر ، أو لا فليكشف نفسه مؤونة التخطيط والتسطير ، وليصبرفها إلى معاناة ما يلائم طبيعه ويناسب فطرته من أعمال الحياة ، فوالله للمحراث في يد الفلاح والقُدوم في يد النجار والمُسبر في يد الحداد أشرف وأنفع من القلم في يد النّظام .

فإن غمّ عليكم الأمر وأعجزكم أن تعلموا مكان الروح الشعريّ من نفوسكم ، فاعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليكم ويدلكم عليكم ؛ حتى تكونوا على بينة من أمركم .

* * *

(١) شدا : أخذ طرفاً من الأدب والعلم .

(٢) الأسلات : جمع أسلة وهي نبات رقيق الغص .

إنك إن أردت ذلك ، أو قدرته في نفسك تظلم القضية ظلماً بيّناً ، وترخص قيمتها ، وتلقي بها في مدارج الطرق وتحت مواطئ النعال .

أ يحزنك انصراف الأغبياء عن حانوتك ، أو اتهامك بالزندقة والإلحاد أو المروق والخيانة ، وترى أن ذلك كثير في سبيل بلوغك منزلة الصديق وإحرازك فضيلته ، وأنت تعلم أن الفاضلين قد بذلوا من قبلك أكثر مما بذلت ، في سبيل إحراز ما أحرزت ، فما ندموا ولا حزنوا ؟

أيها السجين الشريف :

هنيئاً لك السجن الذي تكابده ، وهنيئاً لك البغض الذي تحتمله ، وهنيئاً لك العيش الذي تعالج همومه ! فوالله لأنت أرفع في نظري من كثير من أولئك الذين يعدهم الناس سعداء ، ويسمونهم عظماء .

لا تظلم الصديق ولا تكن سيّء الظنّ به وكن أحرص الناس على ولائه ومودته ، وإياك أن يخدعك عنه خادع ! واصبر قليلاً يُشمرّ لك غرسه ، ويمتدّ عليك ظله . وهنالك تجتد في نفسك من اللذة والغبطة ما لو بذل فيه ذرو التيجان تيجانهم ، وأرباب الكنوز كنوزهم لما استطاعوا إليه سبيلاً .

* * *

النظامون

ما لهؤلاء النظامين لا يهدءون ساعة واحدة عن صدع رؤوسنا وجرح قلوبنا بهذه الصواعق التي يمحطونها علينا كل يوم من سماء الصحف ، حتى صرنا كلما فتحنا صحيفة ورأينا في وسطها جلولاً أبيض مستطيلاً تخيلناه حية رقطاء ؛ ففرعنا وألقينا الصحيفة كما ألقاها الشاعر المتلمّس لينجو بنفسه ويسلم بحياته !

من لي بالقلم العريض الذي يكتب به كُتّاب

الحرية

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها ، أن يكون الحيوان الأعجم أوسع مَيداناً في الحرية من الحيوان الناطق ، فهل كان نُطقُهُ شَوْماً عليه وعلى سعادته ؟ وهل يَجْمَلُ به أن يتمنى الخرس والبكّة ليكون سعيداً بحريته كما كان سعيداً بها قبل أن يصبح ذكياً ناطقاً ؟

يخلق الطير في الجو ، ويسبح السمك في البحر ، ويهيم الوحش في الأودية والجبال ، ويعيش الإنسان رهين المحبسين ؛ محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد .

صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل وأغلالاً ، وسماها نارة ناموساً وأخرى قانوناً ليظلمه باسم العدل ، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام .

صنع له هذه الآلة المخيفة وتركه قلقاً حذراً مروّع القلب ، مرتعد الفرائص ، يقيم من نفسه على نفسه حراساً ، تراقب حركات يديه وخطوات رجله وفلتات لسانه وخطرات وهمه وخياله ؛ لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه ، فويل له ما أكثر جهله ! وويل له ما أشد حُمقه ! وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه ، أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه ؟

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته ، بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه ، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ولا يذرف دموعاً واحدة عليها .

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوقة منه وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود ؛ لانتحر كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد في القفص ، وكان ذلك خيراً له من حياة لا يرى فيها شعاعاً من أشعة الحرية ، ولا تخلص إليه نسمة من نسماتها .

كان في مبدأ خلقه يمشي غريئاً ، أو يلبس لباساً واسعاً يشبه أن يكون ظُلة تقيه لفحة الرَّمضاء ، أو هبة التكباء ، فوضعوه في القِمَاط كما يضعون الطفل ،

استيقظت في فجر هذا اليوم على صوت هرة تموء^(١) بجانب فراشي ، وتمسح بي وتلح في ذلك إلحاحاً غريباً ، فرايتني أمرها وأهمني همها ، وقلتُ لعلها جائعة ، فنهضت وأحضرت لها طعاماً ، فعافته وانصرفت عنه ، فقلت لعلها ظمآنة ، فأرشدتها إلى الماء ، فلم تحفل به ، وأنشأت تنظر إليّ نظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها من الآلام والأحزان ، فأثّر في نفسي منظرها تأثيراً شديداً حتى تمنيت أن لو كنت سليمان ، أفهم لغة الحيوان ؛ لأعرف حاجتها وأفرج كربتها . وكان باب الغرفة مَقْفَلاً فرأيت أنها تطيل النظر إليه وتلصق بي كلما رأيتني أتحج إليه . فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب ، فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور ، وانطلقت تعدو في سبيلها . فعدت إلى فراشي وأسلمت رأسي إلى يدي ، وأنشأت أفكر في أمر هذه الهرة ، وأعجب لشأنها وأقول : ليت شعري ! هل تفهم الهرة معنى الحرية ؟ فهي تحزن لفقدانها وتفرح بلقيها ؟ أجل . إنها تفهم معنى الحرية حقّ الفهم ، وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها ، وما كان تضرعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها إلا سعيًا وراء بلوغها .

وهنا ذكرت أن كثيراً من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة ، والوحش المعتقل في القفص ، والطير المقصص الجناح من ألم الأسر وشقائه ، بل ربما كان بينهم من لا يفكر في وجه الخلاص أو يلتمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه ، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بآلامه وأسقامه .

(١) المراء : صوت القط .

وحلمه ، وصبره واحتماله ، وتواضعه وإيثاره ، وصدقه وإخلاصه ، أكثر مما كان يَهرهم من معجزات تسبيح الحصى ، وانشقاق القمر ، ومشى الشجر ، ولين الحجر ؛ ذلك لأنه ما كان يَريهم في الأولى ما كان يَريهم في الأخرى من الشبه بينها وبين عِرافة العرافين وكهانة الكهنة وسحر السحرة ، فلولا صفاته النفسية وغرائزه وكمالاته ما نهضت له الخوارق بكل مايريد ، ولا تركت المعجزات في نفوس العرب ذلك الأثر المعروف ، ذلك هو معنى قوله تعالى : « ولو كُنْتُ قَطًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَأَنْفَضُوهَا مِنْ حَوْلِكَ » .

كان النبي ﷺ شجاع القلب ، فلم يَهَبْ أَنْ يدعوَ إلى التوحيد قوماً مشركين ، يعلم أنهم غِلَظ جفأة شرسون متحمسون ، يفضيئون لديهم غضبهم لأعراضهم ويحبون آلهتهم كما يحبون أبناءهم .

كان على ثقة من نجاح دعوته ، فكان يقول لقريش أشد ما كانوا هزءاً به وسخرية : « يا معشر قريش ، والله لا يأتي عليكم غير قليل حتى تعرفوا ما تنكرون ، وتحبوا ما أنتم له كارهون » .

كان حليماً سمح الأخلاق ، فلم يزعجه أن كان قومه يؤذونه ويذرونه ، ويشتعنون^(١) منه ويضعون التراب على رأسه ، ويلقون على ظهره أمعاء الشاة وسلى^(٢) الجزور وهو في صلاته ، بل كان يقول : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس ، لبث في قومه ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله فلا يلبي دعوته إلا الرجل بعد الرجل ، فلم يبلغ الملل من نفسه ، ولم يخلص اليأس إلى قلبه ، فكان يقول : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » .

وما زال هذا شأنه حتى علم أن مكة لن تكون مبعث الدعوة ولا مطلع تلك الشمس المشرقة ، فهاجر إلى المدينة فانتقل الإسلام بانتقاله من السكون

(١) يقال شَتَّ فلان من فلان : تنقصه .

(٢) السلى اللدواب بمنزلة المشيمة للإنسان .

وكفّنوه كما يكفّنون الموتى ، وقالوا له : « هكذا نظام الأزياء » .

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه نفسه وما يلتئم مع طبيعته ، فحالوا بينه وبين ذلك ، وملأوا قلبه خوفاً من المرض أو الموت ، وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب ، وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم السياسي ، وأن يقوم أو يقعد ، أو يمضي أو يقف ، أو يتحرك أو يسكن إلا كما تقضي به قوانين العادات وتقاليدها .

لا سبيل إلى السعادة في الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حرّاً مطلقاً ، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس .

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفس ، فمن عاش محروماً منها عاش في ظلمة حالكة ، يتصل أولها بظلمة الرحم ، وآخرها بظلمة القبر .

الحرية هي الحياة ، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللعاب المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية .

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثاً جديداً ، أو طارئاً غريباً ، وإنما هي فطرته التي فطر عليها مذ كان وحشاً يتسلق الصخور ، ويتعلق بأغصان الأشجار .

إن الإنسان الذي يمدّ يده لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد ، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية ، فإن ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه ولا يد لأحد عنده .

* * *

عبرة الهجرة

إن في أخلاق النبي ﷺ وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ، ما يغني عن كل خارقة تأتية من الأرض أو السماء ، أو الماء أو الهواء .

إن ما كان يَهرُ العرب من معجزات علمه

إلى ، الحركة ومن طور الخفاء إلى طور الظهور .

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام ، لأنها أكبر مظهر من مظاهره ، وكانت عيداً يحتفل به المسلمون في كل عام لأنها أجمل ذكرى للثبات على الحق والجهد في سبيل الله .

لقد لقي ﷺ في هجرته عناءً كبيراً وشدة عظيمة ، فإن قومه كانوا يكرهون مهاجرته ، لاضناً به ، بل مخافة أن يجد في دار هجرته من الأعوان والأنصار ما لم يجد بينهم ، كأنما كانوا يشعرون بأنه طالب حق ، وأن طالب الحق لا بد أن يجد بين المحققين أعواناً وأنصاراً . فوضعوا عليه العيون والجواسيس ، فخرج من بينهم ليلة الهجرة متكرراً بعد ما ترك في فراشه ابن عمه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عبثاً بهم وتضليلاً لهم عن اللحاق به ، ومشى هو وصاحبه أبو بكر (رضي الله عنه) يتسلقان الصخور ويتسربان في الأغوار والكهوف ، ويلوذان بأكتاف الشعاب والهضاب ، حتى انقطع عنهم الطلب ، وتم لهما ما أرادا بفضل الصبر والثبات على الحق .

إن حياة النبي ﷺ أعظم مثال يجب أن يحتذى المسلمون ، للوصول إلى التخلق بأشرف الأخلاق والتحلي بأكرم الخصال ، وأحسن مدرسة يجب أن يتعلموا فيها كيف يكون الصديق في القول والإخلاص في العمل والثبات على الرأي وسيلة إلى النجاح ، وكيف يكون الجهد في سبيل الحق سبباً في علوه على الباطل .

لا حاجة لنا بتاريخ حياة فلاسفة اليونان ، وحكماء الرومان ، وعلماء الإفرنج ؛ فلدينا في تاريخنا حياة شريفة مملوءة بالجد والعمل ، والصبر والثبات ، والحب والرحمة ، والحكمة والسياسة ، والشرف الحقيقي والإنسانية الكاملة ، وهي حياة نبينا ﷺ ، وحسبنا بها وكفى .

الإنصاف

إذا كان لك صديق تحبه وتواليه ، ثم هجمت من أخلاقه على ما لم يحل في نظرك ولم يتفق مع ما علمت من حاله ، وما اطرد عندك من أعماله ؛ أو كان لك عدو تدين طباعه ، وتقيم منه شؤونه ، ثم برقت لك من جانب أخلاقه بارقة خير ، فتحدثت بما قام في نفسك من مؤاخذه صديقك على الهفوة التي ذممتها ، وحمد عدوك على الخلّة التي حمدها ، عندك الناس متلوناً أو مخادعاً أو ذا وجهين تمدح اليوم من تدم بالأمس ، وتذم في ساعة من تمدح في أخرى ، وقالوا إنك تظهر ما لا تضر ، وتخفي غير الذي تبدي . ولو أنصفوك لأعجبوا بك وبصدقك ، ولأكبروا سلامة قلبك من هوى النفس وضلالها ، ولسموا ما بدا لهم منك اعتدالاً لا نفاقاً ، وإنصافاً لا خداعاً ؛ لأنك لم تغل في حب صديقك غلو من يعميه الهوى عن رؤية عيوبه ، ولم تتمسك من صداقته بالسبب الضعيف فعنيت بتعهد أخلاقه ، وتفقد خلاله ، لإصلاح ما فسد من الأولى ، واعوجج من الأخرى .

إن صديقك الذي يسيم لك في حالي رضاك وغضبك ، وحلمك وجهلك ، وصوابك وسقطك ، ليس ممن يقتبط بمودته ، أو يوثق بصداقته ؛ لأنه لا يصلح أن يكون مرآتك التي تتراءى فيها ، فتكشف لك عن نفسك وتصدقك عن زينك وشينك ، وحلوك ومرك ، وهو إما جاهل متهور في ميوله وأهوائه ، فلا يرى غير ما تريد أن ترى نفسه لا ما يجب أن تراه ، وإما منافق مخادع ، قد علم أن هواك في الصمت عن عيوبك وتجيير الذبول عليها فجاراك فيما تريد ؛ لينلغ منك ما يريد .

فها أنت ترى أن الناس يعكسون القضايا ويقلبون الحقائق فيسمون الصادق كاذباً ، والكاذب صادقاً ، ولكن الناس لا يعلمون .

الملل إلى نفسه ديبب الصهباء في الأعضاء ،
والكرى بين أهذاب الجفون .

يريد أن يقلده في رفاهيته ونعمته فلا يفهم منهما
إلا أن الأولى التأت في الحركات ، والثانية
الاختلاف إلى الحانات .

يريد أن يقلده في الوطنية فلا يأخذ منها إلا نعيمها
ونعيمها وضجيجها وصفيرها ، فإذا قيل له هذه
المقدمات فأين النتائج ؟ أسلم رجله إلى الرياح
الأربع ، واستن في فراره استن المهر الأر (٣) ، فإذا
سمع صفير الصافر مات وجلاً ، وإذا رأى غير شيء
ظنه رجلاً .

يريد أن يقلده في السياحة ، فلا يزال يتربص فصل
الصيف ترقب الأرض الميتة فصل الربيع ، حتى إذا
حان حينه طار إلى مدن أوروبا طيران حمام الزاجل لا
يبصر شيئاً مما حوله ، ولا يلوي على شيء مما وراءه ،
حتى يقع على مجامع اللهو ومكامن الفجور
وملاعب القمار ، وهناك يذل من عقله وماله ما يعود
من بعده فقير الرأس والجيب ، لا يملك من الأول ما
يقوده إلى طريق السفينة التي تحمله في أوبته ، ولا
من الثاني أكثر من الجعالة (٤) التي يجعلها منه
صاحب الجريدة ليكتب له بين حوادث صحيفته
حادثة عودته ، موشاة بجمل الإجلال والاحترام ،
مطرزة بوشائع الإكرام والإعظام .

يريد أن يقلده في العلم ، فلا يعرف منه إلا
كلمات يرددها بين شذقيه ترديداً لا يلجأ فيه إلى
ركن من العلم وثيق ، ولا يعتصم به من جهل
شائن .

يريد أن يقلده في الإحسان والبر ، فيترك جيرانه
وجاراته يطوون حنايا الضلوع على أمعاء تلتهب فيها
نار الجوع التهبا ، حتى إذا سمع دعوة إلى اكتتاب
في فاجعة نزلت في القطب الشمالي ، أو كارثة
ألت بسد يأجوج ومأجوج ، سجل اسمه في فاتحة
الكتاب ، ورصد هبته في مستهل جريدة الحساب .

يريد أن يقلده في تعليم المرأة وتربيتها ، فيقنعه من

المدنية الغربية

سأودع في هذه النظرة الخيال والشعر وداع من
يعلم أن الأمر أعظم شأنًا وأجل خطرًا ، من أن يعث
فيه العاث ، بأمثال هذه الطرائف التي هي بالهزل
أشبه منها بالجد ، والتي إنما يلهو بها الكاتب في
مواطن فراغه ولعبه ، لا في مواطن جده وعمله .

إن في أيدينا - معشر الكتاب - من نفوس هذه
الأمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها
والحدب عليها ، حتى نؤديها إلى أخلافنا من
بعدها ، كما أداها إلينا أسلافنا من قبلنا سالمة غير
مأروضة (١) ولا متأكلة . فإن فعلنا فذاك ، أو لا ،
فرحمة الله على الصدق والوفاء ، وسلام على
الكتاب الأمناء !

الأمة المصرية أمة مسلمة شرقية ؛ فيجب أن يبقى
لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها ،
وذهبت أهرامها في سمائها ، حتى تبتل الأرض غير
الأرض والسماوات .

إن خطوة واحدة يخطوها المصري إلى الغرب
تدني إليه أجله ، وتدنيه من مهوى سحيق يقبر فيه قبراً
لا حياة له من بعده إلى يوم يعثون .

لا يستطيع المصري ، وهو ذلك الضعيف
المستسلم ، أن يكون من المدنية الغربية ، إن دأبها ،
إلا كالغريال من دقيق الخبز يمسك خشاها ويقلت
لبابه ، أو الراوق (٢) من الخمر يحتفظ بعقاره ،
ويستهين برحيقه ، فخير له أن يتجنبها وأن يفر منها
فرار السليم من الأجر .

يريد المصري أن يقلد الغربي في نشاطه وخفته ،
فلا ينشط إلا في غدوته وروحته ، وقعدته وقومته ، فإذا
جد الجد وأراد نفسه على أن يعمل عملاً من
الأعمال المحتاجة إلى قليل من الصبر والجلد ، دب

(١) الخشب المأروض : الذي أكلته الأرض .

(٢) الراوق : المصفاء .

(٣) الأر : النشط . (٤) الجمالة : الأجر ، والرشوة .

الفرنسية ، ما لا يحفظ من تاريخ الرسالة المحمدية ، ومن مبادئ ديكارت وأبحاث درون ما لا يحفظ من حكم الغزالي وأبحاث ابن رشد ، ويروي من الشعر لشكسبير وهو جو ما لا يروي للمنتبي والمعري .

لا مانع من أن يعرّب لنا المعريون المفيد النافع من مؤلفات علماء الغرب ، والجيد الممتع من أدب كتابهم وشعراتهم ، على أن ننظر إليه نظرة الباحث المنتقد لا الضعيف المستسلم ، فلا نأخذ كل قضية علمية قضية مسلمة ، ولا نطرب لكل معنى أدبي طرباً متدفعاً ، ولا مانع من أن ينقل إلينا الناقلون شيئاً من عادات الغربيين ومصطلحاتهم في مدنيّتهم ، على أن ننظر إليه نظر من يريد التبسط في العلم بشؤون العالم ، والتوسع في التجربة والاختبار ، لا على أن نتقلدها وننتحلها ونتخذها قاعدتنا في استحسان ما نستحسن من شؤوننا ، واستهجان ما نستهجن من عاداتنا .

وبعد ، فليعلم كتاب هذه الأمة وقادتها ، أنه ليس في عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصية الخاصة بهم ما نحسد لهم عليه كثيراً ، فلا يخذعوا أمّتهم عن نفسها ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيّتها ، ولا يُزيّنوا لها هذه المدنية الغربية تزييناً يرزوها في استقلالها النفسي ، بعدما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي .

* * *

يوم الحساب

ساهرتُ الكوكبَ ليلة أمس حتى ملّني ومللته وضاق كلُّ منا بصاحبه ذرعاً ، وقد وقف الهمُّ بيني وبين الكرى أجذبهُ فيدفعهُ ، وأدنيه فيعده ، حتى أسلس قيادَهُ ، وسكن جماحه .

لم تخالط جفني سِنَّ الكرى حتى تحيّل إليّ أني قد انتقلت من العالم الأوّل إلى العالم الثاني ،

علمها مقالة تكتبها في جريدة أو خطبة تخطبها في محفل ، ومن تربيتها التفنّن في الأزياء والمقدرة على سحر النفوس واستلاب الألباب .

هذا شأنه في الفضائل الغربية يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة لا يعرف لها مغزى ، ولا ينتحي بها مقصداً ولا يذهب فيها إلى مذهب ، فيكون مثله في ذلك كمثل جهلة المتدينين ، الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب وقلوبهم ملأى بالأفكار والأكدار ، ويُجارونهم في أداء صور العبادات وإن كانوا لا يتنهون عن فحشاء ولا عن منكر ، أو كمثل الذين يتشبهون بعمّر في ترفيع الثياب وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة الإسرائيليين .

أما شأنه في ردائلها فإنه أقدر الناس على أخذها كما هي ، فينتحر كما ينتحر الغربي ، ويلحد كما يلحد ويستَهتر في الفسوق استهتاره ، ويترسم في الفجور آثاره .

إن في المصريين عيوباً جمّة في أخلاقهم وطباعهم ومذاهبهم وعاداتهم ، فإن كان لا بد لنا من الدعوة إلى إصلاحها ، فلندعُ إلى ذلك باسم المدنية الشرقية ، لا باسم المدنية الغربية .

إن دعوانهم إلى الحضارة ، فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة وثيبة وفينيقيا ، لا بباريس ورومة وسويسرة ونيويورك . وإن دعوانهم إلى مكرمة ، فلنتلّ عليهم آيات الكتب المنزلة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه ، لا آيات رُسُو وياكون ونيوتن وسبنسر . وإن دعوانهم إلى حرب ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد ابن أبي وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ، ما يغنينا عن تاريخ نابليون ولنجتون وواشنطن ونلسن وبلوخر ، وفي وقائع القادسية وعمورية وإفريقية والحروب الصليبية ، ما يغينا عن وقائع واترلو وترافلغار وأوسترليتز والسبعين .

إن عاراً على التاريخ المصري أن يعرف المسلم الشرقي في مصر من تاريخ بونابرت ، ما لا يعرف من تاريخ عمرو بن العاص ، ويحفظ من تاريخ الجمهورية

ورأيت كأنني بُعثت بعد الموت ، وكان أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد ، يحاسبون على أعمالهم فآلهمت أنه موقف الحشر وأنه يوم الحساب .

أنشأت أمشي مشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلني على نفسي ، في هذا الموقف الذي ينشد فيه كل ذي نفس نفسه فلا يجد إليها سبيلاً ، فطفقت أتصفح وجوه الواقفين ، وأقلب النظر في الغادين والرائحين ؛ عليّ أجد صديقاً أستاذس به في وحدتي ، وأستعين بمراقفته على وحشتي ، فلا أرى إلا خلقاً غريباً ، ومنظراً عجيباً ، وجوهاً ما رأيت لها في حياتي شبيهاً ولا ضريباً ، ولولا أنني أعلم أن الحساب خاص بالإنسان ، لظننت أن الله يحاسب في هذا الموقف جميع أنواع الحيوان !

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسي ، رأيت على البعد وجهاً يتسم لي ويدنو مني رويداً رويداً ، فأرفلت نحوه حتى بلغتته . فإذا صديقي «فلان» ، وإذا وجهه يتألاً تلاًكو الكوكب في علياء السماء ، فسألته ما فعل الله به ، فقال : « حاسبني حساباً يسيراً ثم غفر لي . وها أنذا ذاهب إلى ما أعد الله لعباده الصالحين في جنته من النعيم المقيم . » فعجبت لشأنه ، وقلت في نفسي : « لقد هان أمر الحساب على كل عاص ، بعد ما هان على هذا الذي كنت أعرفه في أولاه لا يتقي مأثماً ، ولا يهاب منكرًا ، ولا يخرج من حان إلا إلى حان ، ولا يودع مجمعاً من مجامع الفسق إلا على موعد من اللقاء . » فنظر إليّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها أن الرجل قد ألم بما أضمرته في نفسي ، فذكرت أن قد كُشِفَ الغطاء في هذه الدار ، وأن قد رُفِعَ الحجاب بين الناس فلا سر ولا جهر ، ولا بطن ولا ظهر ، ولا فرق بين حركات اللسان ، وخطرات الجنان . نظر إليّ تلك النظرة ، وقال : « لا تعجب لأمر في هذه الدار ، فكل ما فيها عجيب ، واعلم أن الله حاسبني على كل ما كنت أجتري من الإثم في الدار الأولى ، إلا أنه وجد لي

في جريدة حسنتاني حسنة ذهبت بجميع السيئات . ذلك أنه كان لي جار من ذوي النعمة والثراء والصلاح والخير والمروءة والبر ، نكبه دهره نكبة ذهبت بماله ، فأهممني أمره وأزعجني أن أراه في مستقبل الأيام باتسكاً مُعْدمًا ، يريق ماء وجهه على أعتاب الذين كان يُسدي إليهم نعمته . وعلمت أنني إن عرضت عليه شيئاً من مالي أخطأته وصغرت نفسه في عينه ، فاحتلت على أن أدخل في بيته خادماً كانت في بيتي ، وجعلت لها جُعلًا على أن تُدس في كيس دراهمه كل ليلة خمسة دنانير من حيث لا يشعر بمأثما ، ولا يقف على سرها . وما زال هذا شأنني وشأنه لا يعلم من أين يأتيه رزقه ، ولا يشعر أحد من الناس باستحالة حاله ، وذهاب ماله ، حتى فرق الموت بيني وبينه . فما نفعني عمل من أعمالي ما نفعني هذا العمل ، وما كان الإحسان وحده سبب سعادتي ، بل كان سببها أنه أصاب الموضوع وخلص من شائبة الرياء . » فهنأته بنعمة الله عليه وشكوت إليه وحشتي من الوحدة وخوفي من المحاسبة ، فقال : « أما الوحشة فإني لن أفارقك حتى يأتي دورك ، وأما الخوف فلا حيلة لي ولا لأحد من الناس في نقض ما أبرم الله في شأنك . » فقلت : « أنت من السعداء ، فهل تستطيع أن تشفع لي أو تطلب لي شفاعاً من ولي من الأولياء ، أو نبي من الأنبياء ؟ » قال : « لا تطلب المحال ، ولا تصدق كل ما يقال ، فقد كنا مخلوعين في الدار الأولى بتلك الآمال الكاذبة التي كان يبيعها منا تجار الدين بضمن غال ، ولا يتقون الله في غشنا وخداعنا . وما الشفاع إلا مظهر من مظاهر الإكرام والتبجيل يختص به الله بعض عباده المقربين ، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ولا يأذن بالشفاعة لأحد إلا إذا كان بين أعمال المشفوع له ، أو في أعماق سيرته ما يقتضي إثارة بالمغفرة على غيره من العصاة والمذنبين ، والله سبحانه وتعالى أجل من العيب وأرفع من المحاباة . »

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة العذاب تحيط برجل يساق إلى النار ، ورأينا في يد كل واحد منهم مِرْقعة من الحديد

ورأيت كأنني بُعثت بعد الموت ، وكان أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد ، يحاسبون على أعمالهم فآلهمت أنه موقف الحشر وأنه يوم الحساب .

أنشأت أمشي مشية الحائر الذاهل لا أعرف لي مذهباً ولا مضطرباً ، ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلني على نفسي ، في هذا الموقف الذي ينشد فيه كل ذي نفس نفسه فلا يجد إليها سبيلاً ، فطفقت أتصفح وجوه الواقفين ، وأقلب النظر في الغادين والرائحين ؛ عليّ أجد صديقاً أستاذس به في وحدتي ، وأستعين بمراقفته على وحشتي ، فلا أرى إلا خلقاً غريباً ، ومنظراً عجيباً ، وجوهاً ما رأيت لها في حياتي شبيهاً ولا ضريباً ، ولولا أنني أعلم أن الحساب خاص بالإنسان ، لظننت أن الله يحاسب في هذا الموقف جميع أنواع الحيوان !

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسي ، رأيت على البعد وجهاً يتسم لي ويدنو مني رويداً رويداً ، فأرفلت نحوه حتى بلغتته . فإذا صديقي «فلان» ، وإذا وجهه يتألاً تلاًكو الكوكب في علياء السماء ، فسألته ما فعل الله به ، فقال : « حاسبني حساباً يسيراً ثم غفر لي . وها أنذا ذاهب إلى ما أعد الله لعباده الصالحين في جنته من النعيم المقيم . » فعجبت لشأنه ، وقلت في نفسي : « لقد هان أمر الحساب على كل عاص ، بعد ما هان على هذا الذي كنت أعرفه في أولاه لا يتقي مأثماً ، ولا يهاب منكرًا ، ولا يخرج من حان إلا إلى حان ، ولا يودع مجمعاً من مجامع الفسق إلا على موعد من اللقاء . » فنظر إليّ نظرة العاتب اللائم وابتسم ابتسامة علمت منها أن الرجل قد ألم بما أضمرته في نفسي ، فذكرت أن قد كُشِفَ الغطاء في هذه الدار ، وأن قد رُفِعَ الحجاب بين الناس فلا سر ولا جهر ، ولا بطن ولا ظهر ، ولا فرق بين حركات اللسان ، وخطرات الجنان . نظر إليّ تلك النظرة ، وقال : « لا تعجب لأمر في هذه الدار ، فكل ما فيها عجيب ، واعلم أن الله حاسبني على كل ما كنت أجتري من الإثم في الدار الأولى ، إلا أنه وجد لي

يُفرع بها رأسه ، وهو يصرخ ويقول : « أهلكنتي يا أبا حنيفة ! » فسألت صاحبي : « ما ذنب الرجل ؟ » فقال : « إنه كان في حياته يتخذ في أعماله ما يسمونه « الحيل الشرعية » ، فكان يهب ماله لأحد أولاده على نية استرداده قبل أن يحول عليه الحول ؛ ليتخلص من فريضة الزكاة . ويطلق زوجته ثلاثاً ، ثم يأتي بمحلل يحللها له فيعود إلى معاشرتها ، وكان يرابي باسم الرهن فإذا جاءه من يريد أن يقترض منه مالاً ، أبى أن يُقرضه إلا إذا وضع في يده رهنًا ، فإذا وضع يده على ضيعته أكرمه أن يستأجرها منه بمال كثير ، يراعي فيه النسبة التي يراعيها المرابون بين الربح وأصل المال . وكان إذا حلف لا يدخل بيتاً دخله من نافذته ، أو لا يأكل رغيفاً أكله إلا لقمة منه ، فذنبه أنه كان يعمد إلى الأحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها ، ثم يرفعها إلى الله قشوراً جوفاء ؛ ليخدع بها ويغشها فيها كما يفعل مع الأطفال والبله ، مستنداً على تقليد أبي حنيفة أو غيره من كبار الأئمة ، وأبو حنيفة أرفع قدراً وأهدى بصيرة من أن يتخذ الله هزاً أو سخرية ، وأن يكون ممن يهدمون الدين باسم الدين . »

وبينا أنا أحدث نفسي بهذا الحديث ، وأقلبُ النظر في وجوه تلك الموعظ والعبر ، إذ قال لي صاحبي : « أ تعرف هذين ؟ » وأشار إلى رجلين واقفين ناحيةً يتناحيان ، أحدهما شيخ جليل أبيض اللحية ، وثانيهما كهل نحيف قد اختلط مبيضه بمسوده ، فما هي إلا النظرة الأولى حتى عرفت الرجلين العظيمين ، رجل الإسلام « محمد عبده » ورجل المرأة « قاسم أمين » ، فقلت لصاحبي : « هل لك في أن ندنو منهما ونسترق نجواهما من حيث لا يشعرا ؟ » ففعلنا ، فسمعنا الأول يقول للثاني : « ليتك يا قاسم أخذت برأيي وأحللت نصحي لك محلاً من نفسك ! فقد كنت أنهارك أن تفاجئ المرأة المصرية برأيك في الحجاب قبل أن تأخذ له عذته من الأدب والدين ، فجنى كتابك عليها ما جناه من هتك حرمتها وفسادها وتبليها ، ولإراقة تلك البقية الصالحة التي كانت في وجهها من ماء الحياة . » فقال له صاحبه : « إنني أشرت عليها أن تتعلم قبل أن تفسر ، وأن لا ترفع برقعها قبل أن تنسج لها برقعاً من الأدب والحياء . » قال له : « ولكن قد فاتك ما كنت تنبأت لك به من أنها جاهلة لا تفهم هذا التفصيل ، وضعيفة لا تعبأ بهذا الاستثناء ، فكنت كمن يعطي الجاهل سيفاً ليقتل به غيره فيقتل

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا هذا إلى جنته ، وذلك إلى ناره ، وأنا أسأل عن شأن كل منهم واحداً فواحداً ، فأرى سعيداً من كنت

وما انقطع عنا صوت هذا الشقي حتى رأينا شقياً آخر ذا لحية طويلة كثرةً قد أحاط به ملكان ، وشدا عنقه بسبيحة طويلة ذات حبات كبيرة ، وقد أخذ كل منهما بطرف منها وهو يهمهم بكلمات مبهمه ، فيقرعه أحدهما على رأسه ويقول له : « أ مكر وأنت في الحديد ! » فلنوت منه وأتعمت النظر في وجهه ، فعرفته فتراجعت ذعراً وخوفاً ، وقلت : « أ يكون هذا من أشقياء الآخرة ، وقد كان بالأمس من أقطاب الأولى ! » فقال لي صاحبي : « إن هذا الذي كنت تحسبه في أولاه من الأقطاب كان أكبر تاجر من تجار الدين ، وما هذه اللحية والسبيحة والهمهمة والدمدمة إلا جبائل كان ينصبها لاصطياد عقول الناس وأموالهم ، ولكن الناس لا يعلمون . »

وما زال المنصرفون من موقف القضاء يمرون بنا هذا إلى جنته ، وذلك إلى ناره ، وأنا أسأل عن شأن كل منهم واحداً فواحداً ، فأرى سعيداً من كنت

أيقظني من نومي ، فاستيقظت فلم أر حساباً ولا عقاباً ، ولا موقفاً ولا محشراً ، فلمت أنها خيالات وأوهام ، أو أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

* * *

الشَّعْرَةُ الْبَيْضَاءُ

مررت صباح اليوم أمام المرأة فلمحت في رأسي شعرة بيضاء ، تلمع في تلك اللَّمَّة السوداء ، لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء .

رأيت الشعرة البيضاء في قودي^(١) فارتعت لمرآها كأنما خيل إلي أنها سيف جرَّده القضاء على رأسي ، أو علم أبيض يحمله رسول جاء من عالم الغيب يندرنى باقتراب الأجل ، أو يأس قاتل عَرَض دون الأمل ، أو جذوة نار علقت بأهداب حياتي علوقها بالحطب الجزل ، ولا بد مهما ترفقت في مشيتها واتَّادت في مسيرها من أن تبلغ مداها ، أو خيط من خيوط الكفن الذي تنسجه يد الدهر وتعدّه لباساً لجنتي عندما تجردها من لباسها يد الغاسل .

أيتها الشعرة البيضاء ، ما رأيت بياضاً أشبه بالسواد من بياضك ، ولا نوراً أقرب إلى الظلمة من نورك . لقد أبغضت من أجلك كل بياض حتى بياض القمر ، وكل نور حتى نور البصر ، وأحببت فيك كل سواد حتى سواد الغريان ، وكل ظلام حتى ظلام الوجدان .

أيتها الشعرة البيضاء ، ليت شعري من أي نافذة خلصت إلى رأسي ؟ وفي أي مسلك من مسالك الدهر مشيت إلى قودي ؟

كيف طاب لك المقام في هذه الأرض الموحشة التي لا تجدين فيها أنيساً يسامرك ، ولا جليساً يساهرك ؟ وكيف لم يُرغ قلبك لمنظر هذا الليل

(١) القود: جانب الرأس .

نفسه ! فقال له : « أ تأذُّن لي يا مولاي أن أقول لك إنك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ ، وإنك نصحتني بما لم تنتصح به . أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول ، وأنت أردت أن تحمي الإسلام فقتلته . إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والأغراض الشريفة فأرادوا غير ما أردت ، وفهموا غير ما فهمت ، فأصبحوا ملحدين ، بعد أن كانوا مخرفين ، وأنت تعلم أن ديناً خرافياً خير من لا دين . أولت لهم بعض آيات الكتاب ، فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان والجنة والنار . وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها ، وسفَّهت لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لبابها ، فتركوها جملة واحدة . وقلت لهم إن الولي إله باطل ، والله إله حق ، فأنكروا الألوهية حقها وباطلها . فتهلَّل وجه الشيخ ، وقال له : « ما زلت يا قاسم في أحرارك ، مثلك في دنياك ، لا تضطرب في حجة ، ولا تنام عن نار . يا قاسم لا تحمل همّاً ، ولا تخشَ شراً ، وثق أن الله سبحانه على نيائنا وسرائرنا ، ويعفو عن هفواتنا وسقطاتنا . إنا ما أردنا إلا الخير لأمتنا ، وما قدَّرنا لها في مستقبلها إلا ما تحتمله عقولنا ، فإن كذبت فإستنا أو أخطأ تقديرنا ، فذلك لأن المستقبل بيد الله . »

وما وصلا من حديثهما إلى هذا الحد حتى تركا مكانهما وذهبا لشأنهما . فقلت لصاحبي : « هل لك أن تريني الميزان والصراط والجنة والنار ؟ فإنني ما زلت في شوق إلى رؤية تلك الأشياء ، ورؤية مواقعها منذ رأيتها في «خريطة الآخرة» التي رسمها الشعرائي في بعض كتبه . » قال : « أمّا الميزان فتقدير الأعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات ، وأمّا الصراط فهو سبيل الإنسان إلى سعادته أو شقائه ، وأمّا الجنة والنار فلا علم لي حتى الساعة بهما . »

وبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتاً صارخاً ما قرع سمعي في حياتي مثله يناديني باسمي ، فعلمت أن قد جاء دوري ، فأدركني من الهول والرعب ما

والحشرات تعدّه جحرها ، وتحسبّه بيتها .
أ يبلغ بك الشأن - وأنت التي يضربون الأمثال
بدقتها وخفائها ويعثون وراءها الملاقط والمقاريض ،
فلا يكادون يعرفون السبيل إلى مدارجها ومكائنها -
أن تملّكي من الرعب قلباً لا يروعه السيف المجرد ،
ولا السهم المسدّد ١٢

لا ، لا ، ما دُعرت ولا ارتعت ، وما حزنت
ولا بكيت ، وإنما هي خطرة من خطرات الأمل
الكاذب ، ولمحة من لمحات البرق الخالب .

أيتها الشعرة البيضاء ؛ هل لك أن تتجاوزي عما
أسأت به إليك في إطالة عتبك ، واستثقال ظلك ؛
فلقد رجعت إلى نفسي ، فعلمت أنك أكرم الخلائق
عندي ، وأعظمها في عيني ، هنيئاً لك رأسي مصيفاً
ومرتباً^(٥) ، وهنيئاً لك قودي مراداً ومسرحاً ، فأنت
رسول الموت الذي ما زلت أطلبه مذ عرفته ، فلا أجد
له سبيلاً ، ولا أعرف له رسولاً .

ما الذي يحمله في صدره لك من الحقد
والمؤجدة رجل لم ينعم بشبابه ، فيحزن على ذهابه ،
ولم يذق حلاوة الحياة ، فيجزع لمرارة الممات ، ولم
يستنشق نسيمات السعادة غصناً رطباً ، فيأسى عليها
عوداً يابساً ١٣

ما الذي ينقمه منك من الشؤون رجل يعلم أنك
وحي الأمل ، الذي يشره بقرب النجاة من حياة ليس
فيها من السعادة والهناء إلا لحظات قليلة يكدرها ما
يحيط بها من الهموم والأحزان ، كما تكدر أنفاس
الحزن الحارة صفحة المرأة ١٤

أ ليس كل ما أعده عليك من الذنوب أنك طليعة
الموت ، والموت هو الذي يخلصني من منظر هذا
العالم المملوء بالشرور والآثام ، الحافل بالآلام
والأسقام ، الذي لا أغمض عيني فيه إلا لأفتحها
على صديق يغدر بصديقه ، وأخ يخون أخاه ، وعشير
يحدد أنيابه ليمضغ عشيره ، وغني يضيئ على الفقير
بقنات مائلته ، وفقير يقترح على الدهر حتى بلغة^(٦)

(٥) المرتب : الإقامة وقت الربيع .

(٦) البلغة : ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها .

الفاحم ؟ ولم يعش بصرك في هذا الظلام القاتم ؟
أيتها الشعرة البيضاء ؛ لقد عييت بأمرك ،
وبعلت^(١) بحملك ، وأصبحت لا أعرف وجه الحيلة
في البعد عنك ، والفرار من وجهك .

لا ينفعني معك أن أنزعك من مكانك لأنك لا
تلبثين أن تعودتي إليه ، ولا ينقذني منك أن أخضبك
بالسواد لأنك لا تلبثين أن تنصلي^(٢) ؛ ولأني لا أحب
أن أجمع على نفسي بين مصيبتين : مصيبة الشيب ،
ومصيبة الكذب ا

أيتها الشعرة البيضاء ؛ يخيل إليّ ، وأنا أنظر إليك
أنك من ذوات الحيلة والدهاء والكيد والخبت ، وأنك
تهمسين في أذان أخواتك السود اللواتي بجانبك ،
تحاولين إغراهن بالتشبه بك والتردي بردائك ،
وكأنني بك وقد أشعلت في هذه البيئة الهادئة
المطمئنة حرباً شعواء ، وفنت عمياء ، يختلط فيها
الرامح بالنابل^(٣) ، والدارع بالحاسر^(٤) ، ويهلك فيها
القاعد والقائم ، والمظلوم والظالم .

إن كان هذا مصيرك ، فسيكون شأنك شأن ذلك
السائح الأبيض الذي ينزل بأمة الزبح مستكشفاً ،
فيصبح مستعمراً ، ويدخل أرضها مسلماً ، ويفارقها
حرباً ، فأسأل الله لرأسي العافية منك ، ولأمة الزبح
السلامة من صاحبك ، فكلكما مشغوم الطلعة في
مقامه وارتحال ، وكوكب النحس في وقوفه وتسياره .

أيتها الشعرة البيضاء ؛ ما أنت ، وما وفورك إليّ ،
وما مكانك مني ، ومقامك عندي ؟ إن كنت ضيفاً
فأين استئذان الضيف وتلطّفه ، وتجمّله وتودّده ١٥ وإن
كنت نذيراً فأنا أعلم من الموت وشأنه ما لا أحتاج
معه إلى نذير . فلم يبق إلا أن تكوني أوقع الخلائق
وجهاً ، وأصلبها خدّاً ، وأنك قد نزلت من السماجة
والفضول منزلة لا أرى لك فيها شبيهاً ، إلا تلك
الحية التي تلج كل جحر من أجحار الهوام

(١) بعل بالشيء : برم به واستقله .

(٢) فصل الشعر : خرج من الخضاب .

(٣) الرامح : حامل الرمح ، والنابل ذو النبل .

(٤) الدارع : لا بس الدرع ، والحاسر خلافه .

المال ؟» فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال : « لو كانت السعادة سعادة المال ، لكنت أنا أشقى الناس لأنني أفقر الناس .»

« قلت : « وهل تعدُّ نفسك سعيداً ؟» قال : « نعم ، لأنني قانع برزقي مغتبط بعيشي ، لا أحزن على فائت من العيش ، ولا تذهب نفسي حسرة وراء مطعم من المطاعم ، فمن أيّ باب يخلص الشقاء إلى قلبي !» قلت : « أيها الرجل ، أين يذهب بك وما أرى إلا أنك شيخ قد اختلس عقله ! كيف تعدُّ نفسك سعيداً وأنت حافٍ غير متعل ، وعارٍ إلا قليلاً من الأسمال البالية والأطمار ؟» السحقة ؟» قال : « إن كانت السعادة لذّة النفس وراحتها ، وكان الشقاء ألمها وعناءها ، فأنا سعيد لأنني لا أجد في رثائي ملبسي ، ولا في خشونة عيشي ما يولد لي ألماً ، أو يسبب لي همّاً ، وإن كانت السعادة عندكم أمراً وراء ذلك ، فأنا لا أفهمها إلا كذلك .» قلت : « أ لا يحزنك النظر إلى الأغنياء في أثالهم ورياشهم ، وقصورهم ومراكبهم ، وخدمهم وخولهم ، ومطعمهم ومشربهم ؟ أ لا يحزنك هذا الفرق العظيم بين حالتك وحالتهم ؟» قال : « إنما يصبر جميع هذه المناظر في نظري وهونها عندي أنني لا أجد أن أصحابها قد نالوا من السعادة بوجودها ، أكثر مما نلته بفقدانها . هذه المطاعم التي تذكّرها إن كان الغرض منها الامتلاء ، فأنا لا أذكرُ أنني بتُّ ليلة في حياتي جائعاً ، وإن كان الغرض منها قضاء شهوة النفس ، فأنا لا أكلُ إلا إذا جعت ، فأجد لكل ما يدخل جوفي لذّة لا أحسب أن في شهوات الطعام لذّة تفضّلها . أما القصور فإنّ لديّ كوخاً صغيراً لا أشعرُ بأنه يضيق بي ويزوجتي وولدي ؛ فأقرع السنّ على أن لم يكن قصراً كبيراً ، وإن كان لا بدّ من إمتاع النظر بالمناظر الجميلة ، فحسبي أن أحمل شبكتي فوق كتفي كلّ مطلع فجر وأذهب بها إلى شاطئ النهر ، فأرى منظر السماء والماء ، والأشعة البيضاء ، والمروج الخضراء ، فما هي إلا لفظة الجيد حتى يطلّع من ناحية الشرق قرص الشمس جمع طمر ، وهو الثوب الخلق البالي .

الموت فلا يظفر بأمنيته ، وملك لا يفرّق بين رعيته وماشيته ، وملك لا يميز بين ملك الملك وربوبيته ، وقلوب تضطرمّ حقداً على غير طائل ، ونفوس تتفانى قتلاً على لونٍ حائل ، وظلّ زائل ، وغرض باطل ، وعقول تتهالك وجداً على نار تحرقها ، وأنياب تمزقها ، وعيون حائرة ، في رؤوس طائرة ، تنظر ولا ترى شيئاً مما حولها ، وتلمع ولا تكاد تبصر ما تحتها ، إن كان هذا هو ذنبك عندي ، فاستكثري من ذنوبك فإنني لك من الغافرين .

أيتها الشعرة البيضاء ، مرجباً بك اليوم ومرجباً بأخواتك غداً ، ومرجباً بهذا القضاء الواقف وراءك أو الكامن في أطوائك ، ومرجباً بتلك الغرفة التي أدخل فيها بربي وأنس فيها بنفسي ، من حيث لا أسمع حتى دوي المدافع ، ولا أرى حتى غبار الوقائع .

أهلاً بوافدة للشيب واحدة

وإن تراءت بشكل غير مودود

* * *

الصياد

حدّث أحد الأصدقاء قال : « بينا أنا في منزلي صبيحة يوم إذ دخل عليّ رجل صياد يحمل في شبكة فوق عاتقه سمكة كبيرة ، فعرضها عليّ فلم أساومه فيها ، بل نقلته الثمن الذي أراده فأخذه شاكراً متهللاً وقال : « هذه هي المرة الأولى التي أخذت فيها الثمن الذي اقترحته ، أحسن الله إليك ، كما أحسنت إليّ ، و جعلك سعيداً في نفسك ، كما جعلك سعيداً في مالك .» فسررت بهذه الدعوة كثيراً وطمعت أن تفتح لها أبواب السماء . وعجبت أن يهتدي شيخ عامي إلى معرفة حقيقة لا يعرفها إلا القليل من الخاصة ، وهي أن للسعادة النفسية شأنًا غير شأن السعادة المالية ، فقلت له : « يا شيخ ، وهل توجد سعادة غير سعادة

وثير . فهل أستطيع أن أعد نفسي شقياً ، وأنا أَرْوِّحُ
الناس بالآ ، وإن كنت أكلهم مالا ؟ !

« لا فرق بيني وبين الغني إلا أن الناس لا
ينهضون إجلالاً لي إذا رأيوني ، ولا يمدون أعناقهم
نحوي إذا مررت بهم ، وأهون به من فرق لا قيمة له
عندي ولا أثر له في نفسي ! وما يعينني من أمرهم إن
قاموا أو قعدوا ، أر طاروا في الهواء ، أو غاصوا في
أعماق الماء ، ما دمت لا علاقة بيني وبينهم ، وما
دمت لا أنظر إليهم إلا بالعين التي ينظر بها الإنسان
إلى الصور المتحركة .

« لا علاقة بيني وبين أحد في هذا العالم إلا
تلك العلاقة التي بيني وبين ربي ، فأنا أعبدُه حقَّ
عبادته وأخلصُ في توحيدِه ، فلا أعتقد ربوبية أحد
سواه . ولا أكنمُك يا سيدي أنني لا أستطيع الجمعَ
بين توحيد الله والاعترافِ بالعظمة لأحد من الناس ،
ولقد أخذ هذا اليقينُ مكانه من قلبي حتى لو طلع
عليَّ الملك المتَّوجُّ في مواكبه وكواكبه ، وبطانته
وجنده ، لما خفَّ له قلبي خفقة الرهبة والخشية ، ولا
شغل من نفسي مكاناً أكثر مما يشغله ملك التمثيل !

« ولقد كان هذا اليقين أكبر سبب في عزائي
وراحة نفسي من الهموم والأحزان ، فما نزلت بي
ضائقة ، ولا هبت عليَّ عاصفة من عواصف هذا
الكون إلا انتزعني من بين مخالبي وهونها عليَّ حتى
لا أكاد أشعرُ بوقعها . وكيف أتألم لمصاب أعلم أنه
مقدور لا مفر منه ، وأنتي مأجور عليه على قدر
احتمالي لإيائه وسكوني إليه !

« آمنتُ بالقضاء والقدر خيرهُ وشرهُ ، وباليوم
الآخر ثوابه وعقابه ، فصغرت الدنيا في عيني ، وصغرَ
شأنها عندي حتى ما أفرح بخيرها ، ولا أحزن
لشرها ، ولا أعول على شأن من شؤونها حتى شأن
الحياة فيها . وأقسم ما خرجتُ مرة إلى شاطئ النهر
حاملًا شبكتي فوق عاتقي إلا وقع الشكُّ في نفسي :
هل أعود إلى منزلي حاملًا أم محمولاً ؟

« ما العالم إلا بحر زاهر ، وما الناس إلا
أسماكُه المائجة فيه ، وما ريب المنون إلا صيادٌ يحمل

كأنه ترس من ذهب ، أو قطعة من لهب ، فلا يبعد
عن خط الأفق ميلاً أو ميلين حتى ينثر فوق سطح
النهر حلّيه المتكسر ، أو درّه المتحدر ، فإذا تجلّى
هذا المنظرُ في عيني يتخلله سكون الطبيعة وهدوؤها
ملك عليَّ شعوري وجداني ، فاستغرقت فيه استغراق
النائم في الأحلام اللذيذة حتى لا أحب أن أعود إلى
نفسي إلى يوم النشور . ولا أزال هكذا غارقاً في
لذتي حتى أشعر بجذبة قوية في يدي فأنتبه ، فإذا
السك في الشبكة يضطرب ، وما اضطرابه إلا لأنه
فارق الفضاء الذي كان يهيم فيه مطلق السراح ،
ويات في المحبس الذي لا يجد فيه مراحاً ولا
مسرحاً ، فلا أجد له شيئاً في حالته إلا الفقراء
والأغنياء ، يمشي الفقير كما يشتهي ، ويتنقل حيث
يريد كأنما هو الطائر الذي لا يقع إلا حيث يطيب له
التفريد والتقدير ، ولولا أن تتخطاه العيون وتنبو عنه
النواظر ما طار في كل فضاء ، ولا تنقل حيث يشاء .
أما الغني فلا يتحرك ولا يسكن إلا وعليه من
الأحداق نطاق ، ومن الأرصاد أغلال وأطواق ، ولا
يخرج من منزله إلا إذا وقف أمام المرأة ساعة يؤلف
فيها من حقيقته وخياله ناظرًا ومنظورًا ، ثم يطيل
التفكير هل يقع المنظور من الناظر موقعاً حسناً ، حتى
إذا استوثق من نفسه بذلك خرج إلى الناس يمشي
بينهم مِشيةً يحرص فيها على الشكل الذي استقرَّ
رأيه عليه ، فلا يُطلق لجسمه الحرية في الحركة
والالتفات حتى لا يخرج بذلك من حكمها ، ولا
لفكره الحرية في النظر والاعتبار بمشاهد الكون
ومناظره ، مخافة أن يعقل عن إشارات السلام ،
ومظاهر الإكرام .

« فإذا أخذت من السمك كفاف يومي عدتُ
به وبعته في الأسواق أو على أبواب المنازل ، فإذا أدبرَ
النهار عدتُ إلى منزلي ، فيعتقني ولدي وتيشُ
زوجتي في وجهي ، فإذا قضيت بالسعي حق عيالي ،
وبالصلاة حق ربي نمتُ في فراشي نومة هادئة
مطمئنة ، لا أحتاج معها إلى دياج وحرير ، أو مهد

« من أراد أن يطلب السعادة ، فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة ، وإلا فهو أشقى العالمين وإن ملك ذخائر الأرض وخزائن السماء . »

قال الصديق : « فما وصل الصياد من حديثه إلى هذا الحد حتى نهض قائماً وتناول عصاه ، وقال : « أستودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتها لنفسك وأحببتها لك ، وهي أن يجعلك الله سعيداً في نفسك ، كما جعلك سعيداً في مالك ، والسلام عليك ورحمة الله . » »

* * *

الانتحار

في كل موسم من مواسم الامتحان المدرسي نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلفين من التلاميذ والرامسين ، ولو رُئي التلميذ تربية دينية لما هان عليه أن يخسر سعادته الأخروية خسراناً ميبئاً أسفاً على أن لم ينل كل حظه من السعادة الدنيوية ، ولو رُئي تربية أدبية لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها لأنها لم تُقدّم إليه في لفافة الشهادة المدرسية . ولو أن أستاذه ملأ قلبه بنور الإيمان ، ولقنه فيما يلقنه من قواعد الدين وأحكامه أن جنائياً المرء على نفسه أكبر إثماً عند الله وأعظم جرماً من جنائيه على غيره ، لما خاطر بدينه في آخر ساعة من ساعات حياته ، وهي الساعة التي يُنِيب فيها العاصي إلى ربه ويستغفر فيها المذنب من ذنبه ، ولو أنه لقنه فيما يلقنه من دروس الأخلاق والآداب أن العلم صفة من صفات الكمال لا سيلة من سبل التجارة ، يجب أن يحفل به صاحبه من حيث ذاته ، لا من حيث كونه وسيلة من وسائل العيش ، لما جرى على تلك القاعدة الفاسدة : « الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » ، ولو أنه رباه على الاستقلال الذاتي ، وعلمه أن الشرف في هذه الحياة على قدر ما يبذل الإنسان من الجهد في خدمة الأمة أو المجتمع .

شبكة كل يوم ويلقيها في ذلك البحر فتتمسك ما تمسك ، وتترك ما تترك ، وما ينجو من شبكته اليوم لا ينجو منها غداً ، فكيف أغتبط بما لا أملك ، أو أعتمد على غير معتمد ، إذا أنا أضلّ الناس عقلاً وأضعفهم إيماناً . »

قال المحدث : « فأكبرت الرجل في نفسي كل الإكبار ، وأعجبت بصفاء ذهنه وذكاء قلبه ، وحسدته على قناعته واقتناعه بسعادة نفسه . »

وقلت له : « يا شيخ ، إن الناس جميعاً يكون على السعادة ، ويفتشون عنها فلا يجدونها ، فاستقر رأيهم على أن الشقاء لازم من لوازم الحياة لا ينفك عنها ، فكيف تعدّ العالم سعيداً ، وما هو إلا في شقاء ؟ » قال : « لا يا سيدي ، إن الإنسان سعيد بفطرته ، وإنما هو الذي يجلب بنفسه الشقاء إلى نفسه ، يشتدّ طمعه في المال فيتعلّث عليه مطعمه فيطول بكاؤه وعناؤه . ويعتقد أن بلوغ الآمال في هذه الحياة حق من حقوقه ، فإذا أخطأ سهمه والتوى عليه غرضه أن وشكى شكاة المظلوم من الظالم ، ويبالغ في حسن ظنه بالأيام ، فإذا غدرت به في محبوب لديه من مال أو ولد فاجأه من ذلك ما لم يكن يقدّر وقوعه ، فثاله من الهم والألم ما لم يكن ليناله لو خير الدهر وقتل الأيام علماً وتجربة ، وعرف أن جميع ما في يد الإنسان عارية مستردة ، ووديعة موقوتة ، وأن هذا الامتلاك الذي يزعمه الناس لأنفسهم خدعة من خدع النفوس الضعيفة وهم أوهامها . »

« إن أكثر ما يصيب الناس من الشقوة من طريق الأخلاق الباطنة ، لا من طريق الوقائع الظاهرة ، فالحاسد يتألم كلما وقع نظره على محسود ، والحقود يتألم كلما تذكر أنه عاجز عن الانتقام من عدوه ، والطماع يتألم كلما خاب أمله في مطعم ، والشارب يتألم كلما أفاق من سكره ، والزاني يتألم كلما فاضته في الإثم سريره ، والظالم يتألم كلما سمع ابتهاج المظلوم بالدعاء عليه أو حاق به ظلمه ، وكذلك شأن الكاذب والتمائم والمغتتاب ، وكل من تشتمل نفسه على رذيلة من الرذائل . »

لطم بأنفه قبة السماء ، وداس بنعله رأس الجوزاء ، وإن يمس منها قتل نفسه وهو يتمثل بقول ذلك الشاعر الأحقق : « فإما الثريا وإما الثرى ».

أيها الناشئ ؛ لقد جهل أبوك ، وغشك أستاذك ، وخذعك هذا المجتمع الفاسد ، فكُن أحسن حالاً منهم . واعلم أن شرف العلم أكبر من شرف المنصب ، وأن المنصب ما كان شريفاً إلا لأنه حسنة من حسنات العلم وأثر من آثاره ، فإن فأتك حظك منه ، فلا تحفل به ؛ فهو أحقر من أن تشتد في أثره أو تبدل حياتك حزناً عليه . ولا تحسد أرباب المناصب على مناصبهم ، فإنما هم يخدعونك بزخرف من القول وظاهر من النعمة ويهجر من الابتسام ، و وراء ذلك - لو علمت - قلب يقطر دماً ، وفؤاد يضطرم لوعة وأسى .

خذ لنفسك حظها من العلم والأدب ، ولا تحفل بعد ذلك بشيء ، فقد رحبت كل شيء .

* * *

الجمال

الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة ، سواء أكان ذلك في الماديات أم في المعقولات ، وفي الحقائق أم الخيالات .

ما كان الوجه الجميل جميلاً إلا للتناسب بين أجزائه ، وما كان الصوت الجميل جميلاً إلا للتناسب بين نغماته ، ولولا التناسب بين حبات العقد ما اقتننت به الحسناء ، ولولا التناسق في أزهار الروض ما هامت به الشعراء .

ليس للتناسب قاعدة مطردة يستطيع الكاتب أن يبينها ، فالتناسب في المراتب غير في المسموعات ، وفي الرسوم غير في الخطوط ، وفي الشؤون العلمية غير في القصائد الشعرية ، على أنه لا حاجة إلى بيانه ما دامت الأذواق السليمة تدرك بفطرتها ما

سواء أكان في قصر الملك ، أم في دار الوزارة ، وفي حانوت التجارة ، أم في معمل الصناعة ، لما أكبر مناصب الحكومة هذا الإكبار ، ولا احتفل بها احتفالاً من لا يرى للحياة معنى بدونها ، ولو أنه نفث في روعه روح الشجاعة النفسية ، وعوده الصبر والجند في مواقف الشدة والبلاء ، لما جزع هذا الجزع الفاضح ، ولا جن هذا الجنون الذي خيل إليه أن عذاب النزع أهون من عذاب الهم .

الوالد والأستاذ والمجتمع في مصر عون على الناشئ المتعلم وآفة على عقله وأخلاقه وآدابه .

أما الوالد ، فإنه يقول له وهو ذاهب به إلى المدرسة : « ستكون غداً يا بني حاكماً كهذا الحاكم و وزيراً كهذا الوزير » . وكلما أراد أن يحطه على الاجتهاد في طلب العلم ويخوفه عاقبة الخيبة في الامتحان ، صور له المستقبل المجرد من الوظيفة أبيض تصوير وأشنع ، وربما أشار عليه بالانتحار من طرف خفي ، فيقول له : « إذا لم تنجح في الامتحان ، فموتك أفضل من حياتك ! »

وأما الأستاذ فإنه يضرب له من نفسه مثلاً على وجوب احترام المنصب ، وإجلاله وإنزاله المنزلة الأولى بين أعمال المجتمع الإنساني ، إذ يراه بعينه يتجرع مرارة اللؤلؤ ويماني من كبرياء رؤسائه وقسوة المسيطرين عليه عناء شديداً ، ويحتمل من ذلك ما لا يحتمله الرجل الشريف حرصاً على منصبه وللرعاة^(١) عليه ، فكأنما يلقي عليه درساً عملياً موضوعه : « إن من يخاطر بمنصبه يخاطر بحياته ، لأن المنصب كل شيء في هذه الحياة ! »

أما المجتمع فإنه يحترم الموظف الصغير ، أكثر مما يحترم العالم الكبير ، ويطير إلى تهنتته بإقبال المنصب عليه ، وتعزيتة عن إداره عنه ، كأن الكوكب لا يدور إلا في دائرة المناصب نحوساً وسعوداً ، فإذا رأى الناشئ ذلك أكبر الوظيفة أيما إكبار ولج به الحرص عليها ، واللصوق بها ، وكان سروره وحزنه على قدر قربها منه أو بعدها عنه ، فإذا وفق إليها

(١) أرغى عليه : أبقى عليه .

من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى ،
فافعل فإنها المقومات للأذواق ، والغارسات في
النفوس ملكات الجمال .

* * *

الكذب

كذبُ اللسان من فضول كذبِ القلب ، فلا
تأمن الكاذب على ود ، ولا تثق منه بعهد ، واهرب
من وجهه الهرب كله ، وأخوف ما أخاف عليك من
خُططائك وسُجرائك (٢) الرجلُ الكاذب .

عرّف الحكماء الكذب بأنه مخالفة الكلام
للواقع ، ولعلمهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة
العرفية ، ولو شاءوا لأضافوا إلى كذب الأقوال كذب
الأفعال .

لا فرق بين كذب الأقوال وكذب الأفعال في
تضليل العقول ، والعبث بالأهواء وتحلان الحق
واستعلاء الباطل عليه ، ولا فرق بين أن يكذب
الرجلُ فيقولُ إنني ثقة أمين لا أخون ولا أغدرُ
فأقرضني مالا أؤدّه إليك ، ثم لا يؤديه بعد ذلك ،
وأن يأتيك بسُبحه يهملهم بها فتنتطق بسُبحته بما سكت
عنه لسانه من دعوى الأمانة والوفاء ، فيخدعك في
الثانية كما خدعك في الأولى .

لا بل يستطيع كاذب الأفعال أن يخدعك ألف
مرة قبل أن يخدعك كاذبُ الأقوال مرة واحدة ؛ لأنه
لا يكتفي بقول الزور بلسانه حتى يقيم على قضيته
بينة كاذبة من أحواله وأطواره .

ليس الكذب شيئاً يستهان به ، فهو أسُّ الشرور
ورذيلة الرذائل ، فكأنه أصلُ الرذائل فروغ له ، بل
هو الرذائلُ نفسها وإنما يأتي في أشكال مختلفة
ويتمثل في صور متنوعة .

المنافق كاذب لأن لسانه ينطق بغير ما في قلبه ،

(٢) السَّجِير : الصليق الصغيّر ، والجمع سُجَرَاء .

يلائمها ، فترتاح إليه وما لا يلائمها فتتفر منه .

إن كثيراً من الناس يستحسنون الأنف الصغير في
الوجه الكبير ، والرأس الكبير في الجسم الصغير ،
ولا يفرقون بين البرص في الجسم الأسود ، والخال
في الخد الأبيض ، ويَطْرَبون لتقيق الضفادع كما
يطربون لخبر الماء ، ويفضّلون أنغام النواير على
أنغام العيذان ، ويُعجَبون بشعر ابن الفارض ، وابن
معتوق ، والبرعي أكثر مما يُعجَبون بشعر أبي الطيب
وأبي تمام والبحتري ، ويضحكون لما يبكي ويككون مما
يضحك ، ويرضون بما يُغضب ويغضبون بما يُرضي .

أولئك هم أصحاب الأذواق المريضة ، وأولئك هم
الذين تصدر عنهم أفعالهم وأقوالهم مشوهة غير
متناسبة ولا متلائمة ؛ لأنهم لم يدركوا سرّ الجمال
فيصدر عنهم ، ولم تألفه نفوسهم فيصير غريزة من
غرائزهم .

إن رأيتَ شاعراً يتندى قصائد التهتهة بالبكاء على
الأطلال ، ويودع القصائد الرثائية النكات الهزلية ،
ويتغزل بممدوحه ، كما يتغزل بمعشوقه ، أو متكلماً
يقضب الأحاديث اقتضاباً ويهزل في موضع الجدِّ
ويجد في موضع الهزل ، أو صحفياً يضع العنوان
الضخم للخبر التافه ، ويكتب مقدمة في السماء
لموضوع في الأرض ، أو حاكماً يضع الندى في
موضع السيف والسيف في موضع الندى ، أو ماشياً
يتلو في طريقه من رصيف إلى رصيف كأنما يرسم
خطاً معرجاً ، أو لابساً في الشتاء غلالة الصيف وفي
الصيف فروة الشتاء ؛ فاعلم أن ذوقه مريض وأنه في
حاجة إلى معالجة ذوقه ، كحاجة المجنون إلى
علاج عقله ، والمريض إلى علاج جسمه .

كما أنه ليس كلُّ مجنون يُرجى شفاؤه ، ولا
كلُّ مريض يُرجى إيلائه (١) ، كذلك ليس كل من
فسد ذوقه يرجى صلاحه ، فإن رأيتَ من تؤمل في
صلاحه خيراً ، وتجد في نفسه استعداداً لتقويم ذوقه ،
فعلاجه أن تحفّه بأنواع الجمال وتلأب على تنبيهه
على متناسباته ومؤلفاته ، وإن استطعت أن تعلمه فناً

(١) أبُل المريض : برئ و شفي .

أعرفه فيها فلم أجده ، فذهبت إلى منزله فحدثني جيرانه أنه هجره من عهد بعيد ، وأنهم لا يعرفون أين مذهبه ، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان ، ثم شعرت كأن أولهما يغالب ثانيهما حتى غلبه ، فعلمت أن قد قفلت الرجل وأني لن أجد بعد اليوم إليه سبيلاً .

هنالك ذرقت من الوجد دموعاً لا يذرفها إلا من قل نصيبه من الأصدقاء ، وأقرر ريعه من الأوفياء ، وأصبح غرضاً من أغراض الأيام لا تخطئه سهامها ، ولا تغيبه آلامها^(١) .

بينما أنا عائد إلى منزلي في ليلة من ليالي السّرار^(٢) إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا الظلام المدهم إلى رفاق موحش مهجور يتخيل الناظر إليه في مثل تلك الساعة التي مرت فيها أنه مسكن الجان ، أو مأوى الغيلان . فشعرت كأن بحرًا أسود يتدفق بين جبلين شامخين ، وكأن أمواجه تقبل بي وتدبر ، وتقوم وتقع ، فما توسّطت لجّته حتى سمعت في منزل من تلك المنازل المهجورة أنه تتردد في جوف الليل ، فأصغيت إليها فتلّتها أختها ، ثم أخواتها فأثر في نفسي مسمعا تأثيراً شديداً ، وقلت : « يا للعجب ! كم يكتم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين ، وخفايا المحزونين ! » وكنت قد عاهدت الله قبل اليوم ألا أرى محزوناً حتى أقف أمامه وقفة المساعد إن استطعت ، أو الباكي إذا عجزت . فعلمت الطريق إلى ذلك المنزل حتى بلغت فطرقت الباب طرقة خفيفة ، فلم يفتح لي ، فطرقت أخرى طرقة شديدة ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها ، فتأملت على ضوء المصباح الضئيل الذي كان في يدها ، فإذا هي في ثيابها المزقة ، كالبدن وراء الغيوم المتقطعة ، وقلت لها : « هل عندكم مريض ؟ » فزقرت زفرة كاد ينقطع لها نياط^(٣) قلبها ، وقالت : « أدرك أبي أيها الرجل ، فهو يعالج سكرات

والمكبر كاذب لأنه يدعي لنفسه منزلة غير منزلته ، والفاسق كاذب لأنه كذب في دعوى الإيمان ، ونقض ما عاهد الله عليه ، والثّام كاذب لأنه لم يتق الله في فتنه ، فيتجرى الصدق في نيمته ، والمتعلق كاذب لأن ظاهره ينفك وباطنه يلدعك .

لقد هان على الناس أمر الكذب حتى إنك لتجد الرجل الصادق ، فتعرض على الناس أمره وتطرفهم بحديثه كأنك تعرض عجائب المخلوقات ، وتتحدث بخوارق العادات !

فويل للرجل الصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة ! وويل له من صديق يخون العهد ، ورفيق يكذب الود ، ومستشار غير أمين ، وجاهل يفشي السر ، وعالم يحرف الكلم عن مواضعه ، وشيخ يدعي الولاية كذباً ، وتاجر يش في سلعة ، ويحس في أيمانه ، وصحفي يتجر بعقول الأحرار كما يتجر النحاس بالعيد والإماء ، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء !

* * *

غرفة الأحزان

كان لي صديق أحبه لفضله وأدبه ، أكثر مما أحبه لصلاحه ودينه ، فكان يروني منظره ويؤنسني محضره ، ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته ، أو فسقه واستهتاره ، لأنني ما فكرت قط أن ألتقى عنه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق فقد علمت من ذلك ما حسبي به وكفى .

قضيت في صحبته عهداً طويلاً ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئاً ، حتى سافرت من القاهرة سافراً طويلاً فتراسلنا حيناً ، ثم انقطعت عني كنبه ، فرايتني من أمره ما رايتني ، ثم عدت فجعلت أكبر همي أن أراه ، فطلبت في جميع المواطن التي كنت

(١) أغبه الألم : جاءه حيناً بعد حين .

(٢) السّرار : آخر ليلة من ليالي الشهر .

(٣) النياط : عرق غليظ علق به القلب إلى الرئتين .

يوم جاءني منها مع البريد هذا الكتاب . ومدَّ يده
تحت وسادته وأخرج كتاباً بالياً مصفراً فقرأت فيه ما
يأتي :

« لو كان بي أن أكتبَ إليك لأجدد عهداً
دارساً أو وُدّاً قديماً ما كتبتُ سطراً ، ولا خططتُ
حرفاً ، لأنني لا أعتقد أن عهداً مثلَ عهدك الغادر ،
و وُدّاً مثلَ وُدك الكاذب ، يستحق أن أحفلَ به
فأذكره ، أو آسفَ عليه فأطلبَ تجديده .

« إنك عرفتَ حين تركتني أن بين جنبي ناراً
تضطرم ، وجنينا يضطرب ، تلك للأسف على
الماضي ، وذاك للخوف من المستقبل ، فلم تَبُلْ
بذلك وفرتَ مني حتى لا تحمِلَ نفسك مؤونة النظر
إلى شقاء أنت صاحبه ، ولا تكلف يدك مسح دموع
أنت مرسلها ، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنك
رجل شريف ! لا بل لا أستطيع أن أتصور أنك
إنسان ، لأنك ما تركت خلة من الخلال المتفرقة في
نفوس العجماء والوحوش الضارية إلا جمعتها في
نفسك ، وظهرتَ بها جميعها في مظهر واحد .

« كذبتَ عليّ في دعواك أنك تحبني وما كنت
تحبُ إلا نفسك ، وكل ما في الأمر أنك رأيتني
السبيل إلى إرضاء نفسك فمررتَ بي في طريقك
إليها ، ولولا ذلك ما طرقتَ لي باباً ، ولا رأيتَ لي
وجهاً !

« خنتني إذ عاهدتني على الزواج فأخلفتَ وعدك
ذهاباً بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة ، وما هذه
الجريمة ولا تلك السقطة إلا صورة نفسك ، وصنعة
يدك ، ولولاك ما كنتُ مجرمة ولا ساقطة ، فقد
دفعتك جهدي حتى عييتُ بأمرك ، فسقطتُ بين
يديك سقوط الطفل الصغير ، بين يدي الجبار الكبير .

« سرقتَ عفتي ، فأصبحتُ ذليلة النفس حزينة
القلب أستثقل الحياة وأستطيعُ الأجل ، وأيُّ لذة
في العيش لامرأة لا تستطيع أن تكون زوجةً
لرجل ولا أمّاً لولد ! بل لا تستطيع أن تعيش في
مجتمع من هذه المجتمعات البشرية إلا وهي خافضة
رأسها ، مسبلة جفنها ، واضعة خدوها على كفها ،

الموت . ثم مشيت أمامي فتبعتها حتى وصلت إلى
غرفة ذات باب قصير مسنم ، فدخلتها فخيّل إليّ أنني
قد انتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات ، وأن
الغرفة قبرٌ والمريض ميت . فدنوت منه حتى صرت
بجانبه ، فإذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردّد
الهواء في البرج الخشبي ، فوضعت يدي على جبينه
ففتح عينيه وأطال النظر في وجهي ، ثم فتح شفتيه
قليلاً قليلاً ، وقال بصوت خافت : « أحمد الله فقد

وجدت صديقي . » فشعرتُ كأن قلبي يتمشى في
صدري جزعاً وقلقاً ، وعلمتُ أنني قد عثرتُ بضالتي
التي كنت أنشدُها ، وكنت أتمنى ألا أعثرَ بها
وهي في طريق الفناء ، وعلى باب القضاء ، وألا
يجدّد لي مرآها حزناً كان في قلبي كميناً ، وبين
أضالعي دفيناً . فسألتها ما باله وما هذه الحالة التي
صار إليها . وكأنَّ أنسه بي أمدّ مصباح حياته الضئيل
بقليل من النور ، فأشار إليّ أنه يحبُّ النهوض
فمددت يدي إليه فاعتمد عليها حتى استوى جالساً
وأنشأ يقص عليّ هذه القصة : « منذ عشر سنين
كنت أسكن أنا والديتي بيتاً يسكن بجانبه جار لنا
من أرباب الثراء والنعمة ، وكان قصره يضمُّ بين
جناحيه فتاة ما ضمت القصور أجنتها على مثلها
حسناً وبهاءً ، ورونقاً وجمالاً . فألَمَ بنفسي من الوجد
بها ما لم أستطع معه صبراً ، فما زلتُ بها أعالجها
فتمتنع ، وأستنزلها فتعتذرُ وأتأتى إلى قلبها بكل
الوسائل فلا أصلَ إليه ، حتى عثرتُ بمنفذ الوعد
بالزواج فانحدرتُ منه إليها ، فسكن جماعها ،
وأسلس قيادها ، فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد .
وما هي إلا أيام قلائل حتى عرفتُ أن جنينا يضطرب
في أحشائها فأسقطُ في يدي ، وطففتُ أرثي بين أن
أفني لها بوعدها ، أو أقطعَ حبل وُدّها ، فأثرتُ
أخراهما على أولاهما ، وهجرتُ ذلك المنزل إلى
المنزل الذي كنتُ تزورني فيه أيها الصديق ، ولم أعد
أعلم بعد ذلك من أمرها شيئاً .

« مرّت على تلك الحادثة أعوام طوال ، وفي ذات

هامدة لا حراك بها ، ورأيت فتاتها إلى جانبها تبكي بكاء مرأ ، فصعقتُ لهول ما رأيت ، وتمثلتُ لي جرائمِي في غشيتي كأنما هي وحوش ضارية ، وأسودُّ ملتفة ، هذا ينشب أظافره وذاك يحدد أنيابه ، فما أقفْتُ حتى عاهدت الله ألا أبرح هذه الغرفة التي سميتها « غرفة الأحزان » حتى أعيش فيها عيشها ، ثم أموت موتها .

« وما أنذا أموت اليوم راضياً مسروراً ، فقد حدثني قلبي أن الله قد غفر لي سيئاتي بما قاسيت من العناء ، وكابدت من الشقاء . »

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى انعقد لسانه واصفرَّ وجهه وسقط على فراشه ، فأسلم الروح وهو يقول : « ابنتي يا صديقي ! » فلبثت بجانبه ساعة قضيت فيها ما يجب على الصديق لصديقه ، ثم كتبت إلى أصدقائه ومعارفه ، فحضرُوا تشييع جنازته وما رُئي مثل اليوم أكثر باكية وباكياً .

ولما حثونا التُّرب فوق ضريحه

جزعنا ولكن أيَّ ساعةٍ مَجزع
ويعلم الله أنني لأكتب قصته ولا أملك نفسي من البكاء والنشيج ، ولا أنسى ما حييت ندائه لي وهو يودّع نسمات الحياة ، وقوله « ابنتي يا صديقي ! »
فيا أقوياء القلوب من الرجال ، رفقاً بضعفاء النفوس من النساء ! إنكم لا تعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن وعفتن أيَّ قلبٍ تَفجعون ، وأيَّ دمٍ تسفكون !

* * *

الشرف

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء .

ما من عاملٍ يعمل في هذه الحياة إلا وهو يطلب في عمله الشرف الذي يتصوره أو يصوره له الناس ، إلا أنه تارة يخطئ مكانه وتارة يصيب .

ترتعد أوصالها ، وتذوب أحشاؤها ، خوفاً من عيث العابثين ، وتهكم المتهكمين .

« سلبتني راحتي لأنني أصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة إلى الفرار من ذلك القصر ، الذي كنت متمتعة فيه بعشرة أبي وأمي تاركةً ورثتي تلك النعمة الواسعة وذلك العيش الرغد ، إلى منزل حقير في حيٍّ مهجور لا يعرفه أحد ولا يطرق بابه طارق ، لأقضي فيه الصُّبابة الباقية من أيام حياتي . »

« قتلت أُمِّي وأبي ، فقد علمتُ أنهما ماتا ، وما أحسب موتهما إلا حزناً لفقدي ، وبأساً من لقايتي . »

« قتلتني لأن ذلك العيش المرُّ الذي شربته من كأسك ، وذلك الهمُّ الطويل الذي عالجه بسبيك ، قد بلغا مبلغهما من جسمي ونفسي فأصبحتُ في فراش الموت كالذبالة ^(١) المحترقة ، وأحسب أن الله قد صنع لي وأجاب دعائي وأراد أن ينقلني من دار الموت والشقاء ، إلى دار الحياة والهناء . »

« فأنت كاذب خادع ، ولصُّ قاتل ، ولا أحسب أن الله تاركك بدون أن يأخذ لي بحقي منك . »

« ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجلد بك عهداً ، أو لأخطب إليك ودًّا ، فقد عرفت مكانك من نفسي ، على أنني أصبحتُ على باب القبر وفي موقف وداع هذه الحياة خيرها وشرها ، سعادتها وشقاها ، وإنما كتبتُ إليك لأن لك عندي وديعة وهي فتاتك ، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقي لك منها رحمة الأبوة ، فأقبل إليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك أمها من قبلها . »

فما أتممتُ قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تنحدر من مقتلتيه ، فسألته : « ماذا تم بعد ذلك ؟ » قال : « إني ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشى في أوصالي ، وخيل لي أن صدري يحاول أن ينشق عن قلبي حزناً وجزعاً ، فأسرعت إلى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن ، فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السرير جثةً

(١) الذبالة: قذعة تُشعل للإضاءة .

، ولولا فساد التصور ما وضع المؤرخون اسم ذلك السفّاح بجانب أسماء العلماء والحكماء والأطباء ، خَدَمَةِ الإنسانية وَ حَمَلَةِ عرشها وأصحاب الأيادي البيضاء عليها ، في سطر واحد من صحيفة واحدة ، ولولا فساد التصور ما جلس القاضي المرتشي فوق كرسيّ القضاء يقتل شاريه ، ويصعّر خَدْيَه ، وينظر نظرات الاحتقار والازدراء إلى المتهم الواقف بين يديه موقف الضراعة والدُّل ، ولا ذنب له إلا أنه جاع وضاعت به مذهب العيش فسرق درهماً ، ولا توهم وهو اللصّ الكبير ، أنه أشرف من هذا اللصّ الصغير ، ولو باتا عند قدريهما لوقفاً معاً في موقف واحد أمام قاض عادل يحكم بإدانة الأول لأنه سرق مختاراً ليرفقه عيشه ، وبراعة الثاني لأنه سرق مضطراً لينقذ حياته من براثن الموت .

فمن شاء أن يهذب أخلاق الناس ويقوم أعوجاجها فليهدب تصوراتهم ، وليقوم أفهامهم ، يوفّه ما يريد من التهذيب والتقويم .

ليس من الرأي أن يشير المعلم على المتعلم أن يجعل هذا المجتمع الإنساني ميزاناً يزن به أعماله ، أو مرآة يرى فيها حسناته وسيئاته ، فالمجتمع الإنساني مصاب بالسقم في فهمه ، والاضطراب في تصوره ، فلا عبرة بحكمه ، ولا ثقة بوزنه وتقديره .

ليس من الرأي أن يرشد المعلم المتعلم إلى أن يطلب في حياته الشرف الاعتباري ، فليس كل ما يعتبره الناس شرفاً هو في الحقيقة كذلك .

أ لا تراهم يعدّون أشرف الشرف أن يتناول الرجل من الملك قطعة من الفضة أو الذهب يحلي بها صدره ١٢ وربما كانوا يعلمون أنه ابتاعها كما تبتاع المرأة من الصائغ حليتها .

لا شرف إلا الشرف الحقيقي ، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته أو ماله أو راحته في خدمة المجتمع البشري جميعه ، أو خدمة نوع من أنواعه .

فالعالم شريف لأنه يجلو صدى العقل الإنساني ويصقل مرآته ، والمجاهد في سبيل الدفاع عن وطنه

يقتل القاتل وفي اعتقاده أن الشرف في أن ينتقم لنفسه أو عرضه بإراقة هذه الكمية من الدم ، ولا يبالى أن يسميه القانون بعد ذلك مجرمًا ، لأن البيئة التي يعيش فيها لا توافق على هذه التسمية ، وهي في نظره أعدل من القانون حكماً ، وأصدق قولاً .

يفسّق الفاسق وفي اعتقاده أنه قد نفّض عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول والبله ، الذي يظلل الأعفاء والمستقيمين ، وأنه استطاع أن يعمل عملاً لا يُقدّم عليه إلا كلُّ ذي حِذْق وبراعة وشجاعة وإقدام .

يسرق السارق ويزور المزور ويخون الخائن ، وفي اعتقاد كل منهم أن الشرف كلُّ الشرف في المال ، وإن كان السبيل إليه دنيئاً ومسافلاً ، وأن للذهب رنينا تخفّت بجانب صوته أصوات المعارضين والناقدين شيئاً فشيئاً ثم تنقطع حتى لا يُسمع بجانبه صوت سواه .

هكذا يتصور الأدياء أنهم شرفاء ، وهكذا يطلبون الشرف ويخطئون مكانه ، وما أفسد عليهم تصورهم إلا الذين أحاطوا بهم من سَجَرائهم وخططاتهم وذوي جامعتهم ، أولئك الذين يحترقون الموتور حتى يغسل الدّم بالدم فيعظمونه ، وينعّون على الرجل المستقيم العفيف بلاهته وخموله حتى يفجر ويستعثر فيبخبخون له ويقرظونه ، ويكرمون صاحب الذهب ولو أن كل دينار من دنائره محجّم من الدم ، وأولئك الذين يسمون الفقير مسافلاً ، وطيب القلب مغفلاً ، وطاهر السريرة بليداً ، والحليم عاجزاً .

لا تعجب إن سمعت أن جماعة الأغنياء الجهلاء تنعكس في أدمغتهم صور الحقائق ، حتى تلبس في نظرهم ثوباً غير ثوبها ، وتترأى في لون غير لونها ، فإن بين الخاصة الذين نعتد بعقولهم ونمتدح أفهامهم ومداركهم من لا يفرق بين الرذيلة والفضيلة ، حتى إنه ليكاد يفخر بالأولى ويستحي من الأخرى .

لولا فساد التصور ما افتخر قائد الجيش بأنه قتل مائة ألف من النفوس البشرية في حرب ، لا يدافع فيها عن فضيلة ولا يؤيد بها حقاً من الحقوق الشرعية

شريف لأنه يحمي مواطنيه غائلة الأعداء ، و يقيهم عادية الفناء ، والمحسن الذي يضع الإحسان في موضعه شريف لأنه يأخذ بأيدي الضعفاء ، ويحيي أنفس البؤساء ، والحاكم العادل شريف لأنه رسول العناية الإلهية إلى المظلومين يمنعهم أن يبغي عليهم الظالمون ، وصاحب الأخلاق الكريمة شريف لأنه يؤثر بكرم أخلاقه وجمال صفاته في عشرائه وخطائمه ، ويلقي عليهم بالقدوة الصالحة أفضل درس في الأخلاق والآداب ، والصانع والزارع والتاجر أشرف متى كانوا أمناء مستقيمين ، لأنهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشري ، وهم الذين يحملون ما يحملون من المؤونة والمشقة في سبيله ، حذراً عليه من التهاوت والسقوط .

فإن رأيت في نفسك أيها القارئ أنك واحد من هؤلاء فاعلم أنك شريف ، وإلا فاسلك طريقهم جهديك ، فإن لم تبلغ غايته فأخذ القليل خير من ترك الكثير ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلتبك على عقلك البواكي .

* * *

الحب والزواج

قرأت في بعض المجلات قصة قصتها أحد الكتاب ، وموضوعها أن كاتبها غاب عن بيروت بضعة أعوام ، ثم عاد إليها بعد ذلك ، فزار صديقاً له من أثرياء الرجال وجوهمهم ومن ذوي الأخلاق الكريمة والأنفس العالية ، فوجده حزينا كئيباً على غير ما يعهد من حاله قبل ذلك . فاستفهم منه عن دخيلة أمره ، فعرف أنه كان متزوجاً من فتاة يجيها ويجلها ويفتيها بنفسه وماله ، فلم تحفظ صنيعة ولم ترع عهده ، وأنها قررت منه إلى عشيق لها رقيق الحال وضيق النسب . فاجتهد الكاتب أن يلقي تلك الفتاة ليعرف منها سر فرارها من بيت زوجها ، فلقىها في منزل عشيقها فاعتذرت إليه عن فعلتها بأنها لا

تحب زوجها ، لأنه في الأربعين من عمره وهي لم تبلغ العشرين ، وقالت إنها جرت في ذلك على حكم الشرائع الطبيعية ، وإن خالفت الشرائع الدينية ، لأن الأولى عادلة والثانية ظالمة . وقالت إن ما يسميه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة ، لأن أساسه الحب ، وكل ما كان أساسه الحب فهو طاهر شريف ، وإن كان في أعين الناس عيباً وعاراً . وقالت ما الخيانة ولا الجريمة ولا الغش ولا الخداع إلا أن تعاشر المرأة زوجاً تكرهه معاشرتها من تحبه ، فيفتشها الأول كما يفتشها الثاني ، لأنها لا تكون في حكم العقل ولا في نظر العدل زوجاً له ما دامت لا تحبه ولا تألف عشرته . وقالت لو أدرك الناس أسرار الديانات وأغراضها لعرفوا أنها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية ، وأنها ربما تعد المرأة في بيت زوجها زانية ، وفي بيت عشيقها طاهرة ، إذا كانت تكره الأول وتحب الثاني !

هذا ملخص القصة على طولها ، وأحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأي من الآراء أو تأييد مذهب من المذاهب ، لأن الكاتب أعذر^(١) تلك الفتاة فيما فعلت واقتنع بصحة أقوالها وصحة مذهبها وأعادها^(٢) على زوجها وحكم لها عليه .

وسواء أكانت القصة حقيقية أم خيالية ، فالحق أقول: إن الكاتب أخطأ في وضعها ، وما كنت أحسب إلا أن مذهب الإباحية^(٣) قد مضى وانقضى بانقضاء العصور المظلمة ، حتى قرأت هذه القصة منشورة باللغة العربية بين الأمة العربية فنالني من الهم والحزن ما الله عالم به .

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل المرأة الساقطة ، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها إليها دافع خداع أو سائق حاجة ، ثم تاب إليها رشدتها وهداها ، فقلنا لا بأس بخيرتهم على ذنب جسمتهم العادة وألبسته ثوباً أوسع من ثوبه ، ولا بأس برحمتهم فتاة

(١) أعذرهما : قبل عنهما .

(٢) أعادها عليه : انتصف لها منه .

(٣) التطل من قيود القوانين والأخلاق .

استطاعتك ولا في استطاعة أحد من الناس أن يقف دورة الفلك ويصدّ كَرَّ الغداة ومَرَّ العشيّ حتى لا يبلغ الأربعين من عمره ، فتراه زوجته غير أهل لمعاشرتها إذا علمتُ أن في الناس من هو أصغر منه سنًا وأكثر رشاقة وأنضر شبابًا .

إن الضُّجْر والسَّامة من الشيء المتكرّر المتردّد طبيعة من طبائع النوع الإنساني ، فهو لا يصبر على ثوب واحد أو طعام واحد أو عشير واحد ، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه وعلم أن نظام الأسرة لا يتمُّ إلا إذا بُني على رجل وامرأة تدوم عشريهما ، ويطول اتّلافيهما ، فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحب المضطرب ، وأمّر الزوجين أن يعتبرا هذا الرِّباطَ رباطًا مقدسًا حتى يحول بينهما وبين رجوعهما إلى طبيعتهما ، ودّاهيها في أمر الزوجية مذهبهما في المطاعم والمشارب ، من حيث المثل لكل جديد ، والشغف بكل غريب .

هذا هو سرُّ الزواج وهذه حكمته ، فمن أراد أن يجعل الحب قاعدة العشرة بدلًا من الزواج فقد خالف إرادة الله ، وحاول أن يهدم ما بناه ليهدم بهدمه السعادة البيّنة .

أيُّ امرأة متزوجة بأجمل الرجال لا تحدّث نفسها بالرغبة في استبداله بأجمل منه ، وأيُّ رجل متزوج بأجمل النساء لا يتمنى أن يكون في منزله أجمل منها لولا هذا الرِّباطُ المقدس ، رباطُ الزوجية ، فهو الذي يعالج أمثال هذه الأماني وتلك الهواجس ، وهو الذي يعيد إلى النفوس النزاعة سكونها وقرارها .

لا بأس أن يثبت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه ، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعة ، ولكن لا على معنى أن يكون الحب الشهويّ هو قاعدة الزواج ، يحيا بحياته ، ويموت بموته ، فالقلوب متقلبة والأهواء نزاعة ، بل بمعنى أن يكون كل منهما لصاحبه صديقًا ، أكثر منه عشيقًا ، فالصداقة ينمو بالمودّة غرسها ، ويمتدّ ظلها ، أما الحب فظلّ يتنقّل ، وحال تتحول .

مذنبٌ يحاول الرجوع إلى ربه ، والتوبة من ذنبها ، ويأبى المجتمع البشري إلا أن يسدّ دونها أبواب السماء المفتحة للقاتلين والمجرمين .

فأما وقد وصل الحدّ إلى تزوين الزنا للزانية ، وتهوين إثمها عليها ، وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج من طاعته كلما دعاها إلى ذلك داع من الهوى ، فهذا ما لا يطاق احتمالُه ، ولا يستطاع قبوله !

إن فتاة الرواية لم تهفُ في جريمتها فقط كما يهفو غيرها من النساء ، لأنها مقيمة في منزل عشيقها من زمن بعيد ، وقد عقدت عزمها على البقاء فيه ما دامت روحها باقية في جسدها ، ولم يسقها إلى ذلك سائق شهوة بشرية إن صحَّ أن تكون الشهوة البشرية عذرًا يدفع مثلها إلى مثل ما صنعت ، لأنها فرّت من فراش زوجها ، لا من وحشة خلوتها . ولا سائق جوع لأنها كانت أرقّ النساء عيشًا ، وأروجهنّ بالآ ، بل كانت على حالة من الرفاهية والنعمة والتقلب في أعطاف العيش البارد لم تر مثلها من قبل ولا من بعد ، إذن فهي امرأة مجرمة لا يمنحها العدل من الرحمة ما منح المرأة الساقطة .

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب ، فقد أخطأ علماء اللغة جميعًا في وضع كلمة الفساد في معاجمهم ، لأنها لا تُسمّى لها في هذا العالم - عالم العفة والطهارة والخير والصلاح ، ولا يمكن أن يكون المراد منها فتاة الماخير لأنها لم تترك وراءها زوجًا معذبًا ناقمًا منكوبًا ، ولم تكن راضية تمام الرضى عن نفسها ولا مغتبطة بعيشها فتبلغ في حالها مبلغ «ورده الهاني» .

كل الأزواج ذلك الرجل إلا قليلًا ، فإذا جاز لكل زوجة أن تفرّ من زوجها إلى عشيقها كلما وقع في نفسها الضُّجْر من معاشرة الأول ، وبرقت لها بارقة الأنس من بين ثنايا الثاني ، فويل لجميع الرجال من جميع النساء ، وعلى النظام البيّتي والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام !

أيها الكاتب ؛ ليس في استطاعتي ولا في

الإسلام والمسيحية

بلغ التعصبُ الديني بجماعة المبشرين أن حكموا بوجود اللحن في القرآن ، بعد اعترافهم بأنه كتابٌ عربي نطق به - على حسب معتقدهم - رجلٌ هو في نظرهم أفصح العرب . وليست مشكلة الإعراب واللحن مشكلة عقلية يكون للبحث العقلي فيه مجال ، وإنما الإعرابُ ما نطق به العرب واللحن ما لم ينطقوا به ، فلو أنهم اصطلموا على نصب الفاعل ورفع المفعول مثلاً ؛ لكان رفعُ الأول ونصب الثاني لحنًا . ولكنَّ جهلةَ المبشرين لم يدركوا شيئاً من هذه المسلمات ، واستدلوا على وجود اللحن في القرآن بقواعد النحو التي ما دونها علماءُ إلا بعد أن نظروا في كلام العرب ، وتتبعوا تراكيبه وأساليبه ، وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد ، فالقرآن حُجَّةٌ على النحاة وليست النحاة حجةً على القرآن ، فإذا وُجد في بعض تراكيب القرآن أو غيره من الكلام العربي ما يخالف قواعد النحاة ؛ حكمنا بأنهم مقصرون في التتبع والاستقراء ، على أنهم ما قصروا في شيء من ذلك وما تركوا كثيراً ولا قليلاً ولا نادراً ولا شاذاً إلا دونوه في كتبهم . فما في القرآن لحن ، ولا النحاة مقصرون ، ولكنَّ المبشرين جاهلون ، فإذا كان التعصبُ الديني الأعمى أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة ، فليس بغريب أن نسمع من هذا الرجل المشبه بهم هذا الطعن على الإسلام في نظاماته وأحكامه .

إننا لا ننازع اللورد كرومر ، ولا أمثاله من الطاعنين على الإسلام في معتقدهم ، ولكننا نحُبُّ منهم ألا ينازعونا في معتقدنا وأن يعطونا من الحرية في ذلك ما أعطوه لأنفسهم .

يقول اللورد كرومر : « إن الدينَ الإسلامي دين جامد لا يتسع صدره للمدنية الإنسانية ولا يصلح للنظام الاجتماعي . » ويقول : « إن ما لا يصلح له الدين الإسلامي يصلح له الدين المسيحي . » ويستدل على الإسلام بالمسلمين ، وعلى المسيحية بالمسيحيين .

في أيِّ عصر أيها الفيلسوفُ التاريخي كانت الديانة المسيحية مبعثَ العلم والعرفان ، ومطلعُ أشعة

ما صجبت لشيء في حياتي عجيبي لهؤلاء الناس الذين يمجون كثيراً مما كتبه اللورد كرومر عن الإسلام ، كأنما كانوا يتوقعون من رجل يدين بدين غير الإسلام ويضيق به فوق ضيقه بنفسه وماله أن يعتقد الوحداية ، ويصدق الرسالة المحمدية ، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويحج البيت ما استطاع إليه سبيلاً !

إن اللورد كرومر يعتقد كما يعتقد كل مسيحي متمسكٌ بيسوعيته أن الإسلام دين موضوع ، ابتدعه رجل عربي بدوي أمي ما قرأ في حياته صحيفة ، ولا دخل مدرسة ، ولا سمع حكمة اليونان ، ولا رأى مدينة الرومان ، ولا تلقى شيئاً من علوم الشرائع والعمران .

هذا مبالغ معتقده فيه ، فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من أن يناقشه وينظره ويخطئه فيما وضعه للناس من الشرائع والأحكام ؟ وكيف يسمح لنفسه أن ينظر إليه بالعين التي ينظر بها المسلم إليه من حيث كونه نبياً مرسلًا موحى إليه من عند الله تعالى بكتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ أما ما نقرؤه أحياناً لبعض علماء الغرب المسيحيين من وصف الدين الإسلامي بصفات جميلة أو مدح آرائه وأحكامه ، فهي مكتوبة بأقلام أقوام مؤرخين أدوا للتاريخ حق الأمانة والصدق ، فلم يعبث التعصبُ الديني بكتاباتهم ، ولا تمشت الروح المسيحية في أقلامهم ، ولا ريب في أن اللورد كرومر ليس واحداً منهم ، فإن من قرأ كتابه « مصر الحديثة » تخيل أنه يسمع صوت راهب في صومعته قد لبس قلنسوته ومسوحه وعلق صليبه في زناره .

فهل يحق بعد ذلك لأحد من المسلمين أن يندش أو يذهب به العجب كلُّ مذهب ؛ إذا رأى في كتاب اللورد كرومر ما يراه كل يوم في كتب المبشرين الإنجلييين وجرائدهم ومجلاتهم من الطعن على الإسلام وعقائده وشرائعه ؟

أنت في استدلالك بالمسلمين على الإسلام ، وإن لم تعرف حقيقته وجوهره ، على أن استدلالنا صحيح واستدلالك باطل ، فإن المدنية الحديثة ما دخلت أوروبا إلا بعد أن زحزحت المسيحية منها لتحل محلها ، كالماء الذي لا يدخل الكأس إلا بعد أن يطرد منها الهواء لأنه لا يتسع لهما ، ولا يجمع بينهما ، فإن كان قد بقي أثر من آثار المسيحية اليوم في أكواخ بعض العامة في أوروبا فما بقي إلا بعد أن عفت عنه المدنية ورضيت بالإبقاء عليه ، لا باعتبار أنه دين مقدس يجب إجلاله وإعظامه ، بل باعتبار أنه زاجر من الزواجر النفسية التي تستعين الحكومات بها ويقوتها على كسر شيرة^(١) النفوس الجاهلة ، فلا علاقة بين المسيحية والتمدين الغربي من حيث يستدل به عليها أو باعتبار أنه أثر من آثارها ، ونتيجة من نتائجها ، ولو كان بينه وبينها علاقة ما افترقت عنه نحو تسعة عشر قرناً ، كانت فيها أوروبا وراء ما يتصوره العقل من الهمجية والوحشية والجهل ، فما نفتحتها مسيحيتها ، ولا أغنى عنها «كهنوتها» ولا «كليروسها» .

أما المدنية الإسلامية فإنها طلعت مع الإسلام في سماء واحدة من مطلع واحد في وقت واحد ، ثم سارت إلى جانبه ككتف لكف ، ما ينكر من أمرها ولا تنكر من أمره شيئاً ، فالتعبّد في مسجده ، والفقيه في درسه ، والمُعرب في مكتبته ، والرياضي في مدرسته ، والكيميائي في معمله ، والقاضي في محكمته ، والخطيب في محفله ، والفلكي أمام أسطرلابه ، والكاتب بين محابره وأوراقه ، إخوة متصافون ، وأصدقاء متحابون ، لا يختصمون ولا يقتتلون ، ولا يكفر بعضهم بعضاً ، ولا يبغي أحد منهم على أحد .

أيها الفيلسوف التاريخي ؛ إن كان لا بدّ من الاستدلال بالأثر على المؤثر فالمدنية الغربية اليوم أثر من آثار الإسلام بالأسس ، والانحطاط الإسلامي اليوم ضربة من ضربات المسيحية الأولى . وإليك البيان :

(١) الشرة : الجثة .

المدنية والعمران ، أ في العصر الذي كانت تدور فيه رحي الحروب الدموية بين الأرثوذكس والكاثوليك تارة ، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارة أخرى بصورة وحشية فظيعة ، اسودّ لها لباس الإنسانية وبكت الأرض منها والسماء ، أم في العصر الذي كانت إرادة المسيحي فيه صورة من إرادة الكاهن الجاهل فلا يعلم إلا ما يعلمه إياه ، ولا يفهم إلا ما يلقى عليه ؟ فما كان يترك له الحرية حتى في الحكم على نفسه بكفر أو إيمان وبهيمية أو إنسانية ، فيكاد يتخيل في نفسه أن له ذنباً متحرّكاً وخيشوماً طويلاً ، وأنه يمشي على أربع إذا قال له الكاهن أنت كلب ، أو قال له إنك لست بإنسان ! أم في العصر الذي كان يعتقد فيه المسيحي أن دخول الجمل في سم الخياط أقرب من دخول الغني في ملكوت السموات ؟ أم في العصر الذي كان يحرم فيه الكاهن الأعظم على المسيحي أن ينظر في كتاب غير الكتاب المقدس ، وأن يتلقى علماً في مدرسة غير مدرسة الكنيسة ؟ أم في العصر الذي ظهرت فيه النجمة ذات الذنب فدّعر لرؤيتها المسيحيون ورفعوا إلى البابا عرائض الشكوى فطردها من الجوف فوالت الأدبار ؟ أم في العصر الذي أهدى فيه الرشيد العباسي الساعة الدقاقة إلى الملك شارلمان ، فلما رآها الشعب المسيحي وسمع صوتها قرّ من وجهها ظناً منه أنها تشتمل على الجن والشياطين ؟ أم في العصر الذي ألقت فيه محكمة التفتيش لمحاكمة المتهمين بمزاولة العلوم ، فحكمت في وقت قصير على ثلاثمائة وأربعين ألفاً بالقتل حرقاً أو صلباً ! أم في العصر الذي أحرق فيه الشعب المسيحي فتاة حسنة بعد ما جرّد لحمها عن عظمها ؛ لأنها كانت تشتغل بعلوم الرياضة والحكمة !؟

هذا الذي نعلمه أيها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية ، ولا نعلم أ كانت تلك المسيحية التي كان هذا شأنها وهذا مبلغ سعة صدرها صحيحة في نظرك أم باطلة ؟ وإنما نريد أن نستدل بالمسيحيين على المسيحية وإن لم نقف على حقيقتها ، كما فعلت

بائس ولا فقير ، وندبه إلى الصدقة ومساعدة الأقرباء للضعفاء ، وعطف الأغنياء على الفقراء ، ثم شرع له شرائع للمعاملة الدنيوية ، و وضع له قوانين البيع والشراء والرهن والهبة والقرض والتجارة والإجارة والمزارعة والوقف والوصية والميراث ، ليعرف كل إنسان حقه فلا يخين أحد أحداً ، ثم قرر له عقوبات دنيوية تمنعه أن يخين بعضه على بعض بشتم أو سب أو قتل أو سرقة أو انتهاك حرمة أو مجاهرة بمعصية أو شروع في فتنة أو خروج على أمير أو سلطان . ثم نظر في شؤونه السياسية فقرر الخلافة وشروطها ، والقضاء وصفاته ، والإمارة وحدودها ، وقرر كيف يعامل المسلمون مخالفيهم في الدين ، البعيدين عنهم ، والنازحين إليهم ، وذكر مواطن القتال معهم ، ومواضع المسألة لهم .

وجملة القول : إن الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولا ترك الإنسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهده إلى لحده إلا مدَّ يده إليه ، و أنار له مواقع أقدامه وأرشدته إلى سواء السبيل .

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء بلاد العرب ، فملأت الكون نوراً وإشراقاً واختلف الناس في شأنها ما بين معترف بها ومنكر وجودها ، ولكنهم كانوا جميعاً سواء في الانتفاع بنورها ، والاستنارة بضياؤها ، على تفاوت في تلك الاستنارة ، وتنوع في ذلك الانتفاع .

طلعت هذه الشمس المشرقة ، فتمشت أشعتها البيضاء إلى أوروبا من طريق إسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا ، فأبصرها عدد قليل من أذكى الغربيين فانتبهوا من رقدتهم ، واستيقظوا من سباتهم ، ورأوا من جمال المذاهب الإسلامية وشرائع الكون ونظاماته وقواعد الحرية والمساواة ، ما لفت نظرهم إلى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي اليقظ الناب ، فقالوا : « أ يمكن أن يعيش الإنسان على ظهر هذه المسكونة حرّاً لا يستعبده ملك ولا يسترقّه كاهن ؟ !

جاء الإسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج إليه في معاشه ودينه وآخرته ، وما يفيد منفرداً ، وما ينفعه مجتمعاً .

هذب عقيدته بعد ما أفسدها الشرك بالله ، والإسفاف إلى عبادة التماثيل والأوثان ، وإحناء الرؤوس بين أيدي رؤساء الأديان ، أرشده إلى الإيمان بربوبية إله واحد لا يشرك به شيئاً ، ثم أرشده إلى تسريح عقله ونظره في ملكوت السموات والأرض ليقف على حقائق الكون وطبائعه ، وليزداد إيماناً بوجود الإله وقدرته وكمال تدبيره ، وليكون اقتناعه بذلك اقتناعاً نفسياً قلبياً فلا يكون آلة صماء في يد الأهواء ، تفعل به ما تشاء . ثم أرشده إلى مواقف تذكره بربه ، وتقبيه من غفلته ، وتطهر^(١)

الشرور والخواطر السيئة عن نفسه كلما ابتغت إليها سبيلاً ، وهي مواقف العبادات ، ثم أطلق له الحرية في القول والعمل ولم يمنعه إلا من الشرك بالله والإضرار بالناس ، وعرفه قيمة نفسه بعد ما كان يجهلها ، وعلمه أن الإنسانية لا فرق بين فقيرها وغنيها ، وضعفها وقوتها ، وضعفها وقوتها ، وأن الملك والسوقة^(٢) والشريف الهاشمي ، والعبد الزنجي ، أمام الله والحق سواء ، وأن الأمر والنهي والتحليل والتحريم والنفع والضّر والثواب والعقاب والرحمة والغفران ، بيد الله وحده لا ينافعه فيها منازع ، ولا يملكها عليه أحد من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين . ثم نظر في أخلاقه فأرشدته إلى محاسنها ، وحال بينه وبين رذائلها ، حتى علمه آداب الأكل والشرب والنوم والمشي والجلوس والكلام والسلام . ثم دخل معه منزله فعلمه كيف يبرّ الأب ابن أباه ، ويكرم الوالد ولده ، ويعطف الأخ على أخيه ، ويكرم الزوج زوجته ، وتطيع الزوجة زوجها ، وكيف يكون التراحم والتواصل بين الأقرباء وذوي الرحم ، ثم نظر في شؤون الاجتماع ففرض عليه الزكاة التي لو جمعت وضعت في مصارفها لما كان في الدنيا

(١) أطر: أنقَط، وقَطَعَ .

(٢) السوقة : الرعية ، وأوساط الناس .

غير أنني لا أنكر عليك ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور ، وما أصاب جامعتهم من الوهن والانحلال ، ولكن ليس السبب في ذلك الإسلام كما تتوهم ، بل المسيحية التي سرت عدواها إليهم على أيدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الإسلام وتزوّوا بزيه ودخلوا بلاده ، وتمكنوا من نفوس ملوكه الضعفاء ، وأمراته الجهلاء ، فأمدوهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين ، حتى أسندوا عليهم مذاهبهم وعقائدهم ، وأوقعوا الفتنة فيهم وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الإسلام وقوته ، فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان .

كل ما نراه اليوم بين المسلمين من الخلط في عقيدة القضاء والقدر وعقيدة التوكل ، وتشديد الأضرحة وتخصيص القبور وتزيينها والترامي على أعتابها ، والاهتمام بصور العبادات وأشكالها دون حكمها وأسرارها ، وإسناد النفع والضرر إلى رؤساء الدين وأمثال ذلك ، أثر من آثار المسيحية الأولى وليس من الإسلام في شيء .

أيها الفيلسوف التاريخي ؛ لا تقل إننا متعصبون تعصباً دينياً ، فإنك قد أسأت إلينا وإلى ديننا ، فلم نرُ بُدّاً من الذّبّ عنا وعنه بما نعلم أنه حقٌ وصواب . على أنه لا عار علينا فيما نقول ، وهل التعصب الديني إلا اتحاد المسلمين يدًا واحدة على الذود عن أنفسهم ، والدفاع عن جامعتهم ، وإعلاء شأن دينهم ونصرتهم حتى يكون الدين كله لله ؟

إن كان رفضاً حبّ آل محمد

فليشهد الثّقَلان ^(١) أني رافضي

* * *

« أ يمكن أن يبيت الإنسان ليلة واحدة في حياته هادئاً في مضجعه مطمئناً في رقدته ، لا يرّوعه دولا ب العذاب ولا سيف الجلا د ١٩ أ يمكن أن تملك النفس حريتها في النظر إلى نظام العالم وطبائعه ودراسة العلوم الكونية ومزاولتها ١٩ أ يمكن أن يطلع فجر المدنية الإسلامية على هذا المجتمع الغربي ، فيمحّر ظلمته التي طال عهدنا بها حتى عشت أبصارنا ، فما يكاد يرى بعضنا بعضاً ١٩ »

كانت هذه الخواطر المترددة في عقول أولئك الأذكياء هي الخطوة الأولى ، التي مشتها أوربا في طريق المدنية والعمران ، بفضل الإسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الأفراد من مخالطة المسلمين في أوربا ومطالعة كتبهم ومناظرة حضارتهم ومدنيتهم ، ثم أخذوا يعلمونها الناس سرّاً ، ويثونها في نفوس تلاميذهم شيئاً فشيئاً ، ويلقّون في سبيل نشرها عناء شديداً . واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قروناً عديدة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية ، فكانت هي القضاء الأخير على الوحشية السالفة ، والهمجية القديمة .

أيها الفيلسوف التاريخي ؛ إنك لا بدّ تعلم ذلك حقّ العلم لأنه أقل ما يجب على المؤرخ أن يعلمه ، كما تعلم أن المدنية الإسلامية إذا وسعت غيرها فأحر بها أن تسع نفسها ، ولكن التعصب الديني قد بلغ من نفسك مبلغه ، فما كفاك أن أنكرت فضل صاحب الفضل عليك حتى أنكرت عليه فضله على نفسه .

لا حاجة بي إلى أن أشرح لك المدنية الإسلامية ، أو أسرد لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان والمعادن والطب والحكمة والأخلاق والعمران ، أو أعدّد لك مدارسها ومجامعها ومراصدها في الشرق والغرب ، أو أصف لك مدنها الزاهرة ، وأمصارها الزاخرة ، وسعادتها وهناها ، وعزتها وسطوتها ، فأنت تعرف ذلك كله إن كنت مؤرخاً كما تقول .

(١) الثّقَلان : الإنس والجنّ .

أهنا أم عزاء ؟

فارق مصر على أثر الدستور العثماني كثير من فضلاء السوريين بعد ما عمروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم ، وصيروها جنة زاخرة بالعلوم والآداب ، ولقنوا المصريين تلك الدروس العالية في الصحافة والتأليف والترجمة ، وبعد ما كانوا فينا سفراء خير بين المدينة الغربية والمدينة الشرقية ، يأخذون من كمال الأولى ليتمموا ما نقص من الأخرى ، وبعد ما علموا المصري كيف ينشط للعمل وكيف يجد في سبيل العيش وكيف يثبت ويتجلى في معركة الحياة .

قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون إلينا فسيء إليهم ويعطفون علينا فنسميهم تارة دخلاء ، وأخرى ثقلاء ، كأنما كنا نحسب أنهم قوم من شذاذ الآفاق أو ثفايات الأمم ، جاءوا إلينا يصادروننا في أرزاقنا ، ويتطفلون على موائدنا ، ولو أنصفناهم لعرفناهم وعرفنا أن أكثرهم من بيوتات المجد والشرف ، وإنما ضاقت بهم حكومة الاستبداد ذرعاً ، وكذلك شأن كل حكومة مستبدة مع أحرار النفوس وأبائ الضيم ، فأخرجت صدورهم ، وضيق عليهم مذاهبهم ، فقروا من الظلم تاركين وراءهم شرقاً يتعاهم ، ومجداً ييكي عليهم ، ونزلوا بيننا ضيوفاً كراماً ، وأسائلة كباراً ، فما أحسن ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم .

وبعد .. فقد مضى ذلك الزمن بخيره أو شره ، وأصبحنا اليوم كلما ذكرناهم خفقت أفئدتنا مخافة أن يلحق باقيهم بماضيهم ، فلا نعلم أ نشكر للدستور أن فرج عنهم كربتهم ، وأمنهم على أنفسهم ، وردهم إلى أوطانهم ، أم ننقم منه أن كان سبباً في حرماننا منهم بعد أنسنا بهم ، واعتباطنا بحسن عشرتهم ، وجميل مودتهم ؟ ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم في عزاء ؟

فيأيها القوم المودعون ، والكرام الكاتبون :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم
رب ذكرى قرئت من نرحا
واذكروا صبا إذا غنى بكم
شرب الدمع وعاف القدحا

* * *

الزوجتان

حدث أحد الأصدقاء قال : « سأقص عليك قصة ليست من خيالات الشعراء ولا أكاذيب القصاصيين .

« أويت إلى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب ، غداية الإهاب ، فما استقبلت أول طليعة من طلوع النوم حتى قرع باب غرفتي ، فسمعت فإذا الخادم تقول : « إن امرأة سيئة الحال بلدة الثياب في زي المتسولات تلح في طلب مقابلةك ، وتقول إن لها عندك شأنًا . » فقلت في نفسي : « لا شأن لي مع امرأة وربما كانت ذات حاجة ، وكانت حاجتها إلي أكثر من حاجتي إلى النوم ، على أن النوم لا يفوتني ، فليل الشتاء أطول من يوم القضاء . » فارتدت ردائي ونزلت فإذا فتاة في ملأه بالية وبرقع خلقت يتم بجمالها كما يتم السحاب المتقطع بضوء الشمس ، وإذا هي ترعد وتضطرب وتقول بصوت شجي : « أ ما في الناس أخومة ومروءة يعين على الدهر الغادر ، ويطفى هذه الجدوة التي تتأجج بين أضالعي بقطرة واحدة من الرحمة ؟ » فقلت : « من أنت يرحمك الله ؟ » قالت : « أنا فلانة زوج فلان . » فدهشت وغصصت بريقي حتى ما أجد بللة أحرك بها لساني لهول ما سمعت ، وسوء ما رأيت ، وقلت : « يا للعجب ! زوجة فلان على عظمه وعظمها ، وجلاله وجلالها ، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه الملابس ؟ » فسألتها : « ما

المنون ^(١) « قلت : « أنا لا أغضب لشيء إلا للإنسانية أن يُنقض عهدها ، ويُخفر ذمامها ، ثم ماذا تم بعد ذلك ؟ » قالت : « مات أبي كما تعلم وخلف لي مالا أمكنتُ منه زوجي فأثقله بين الخمر والقمر ^(٢) ، فكنت أغضي على هفواته رحمة به وشفقة عليه واستبقاء لودّه ، حتى إذا صَبَرْتُ يدي وأقفر ريعي أحسست منه مللاً كان يدعو إلى سوء عشرتي وتعذيب جسمي ونفسي ، وكان كثيراً ما يتهمكم بي ويقول : « إنني لا أحب المرأة الجاهلة التي لا تفهمني ولا أفهمها » ، وأونة كان يعرض بي قائلاً : « إن الرجل السعيد هو الذي يُرزق زوجة متعلمة تقرأ له الجرائد والمجلات ، وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية » ، بل يتجاوز التعريض إلى التصريح ، فيقول كلما دخل عليّ متأفكاً متذمراً : « ليت لي زوجة كفلائة فإنها تحسن الرقص والغناء والتوقيع على « البيان » ، فكنت أشك في سلامة عقله وأقول في نفسي كيف يُفضل الزوجة المتبذلة المستهترة على الحية المحشمة ! والله ما تمنيت مرة أن أكون على الصفة التي يحبها ويرضاها مع ما كنت أبذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس . وبعد فما زال الملل يدب في نفسه ديب الصهباء في الأعضاء ، حتى تحوّل إلى بغضاء شديدة ، فما كان يلحظني إلا شراً ولا يدخل المنزل إلا لتناول غرض أو قضاء حاجة ، فكنت أحمل كل هذا بقلب صبور ، وجنان وقور . ثم عرض له بعد ذلك أن نُقل إلى منصب أرقى من منصبه في بلد آخر ، على ما تعلم ، فسافر وحده وتركني في المنزل وحيدة لا مؤنس لي غير طفلي فلبثت أترقب كتاباً منه يدعوني فيه إلى اللحاق به فما أرسل كتاباً ولا رسولا ولا نفقة . فاستكثبت إليه الكتاب بعد الكتاب فما أسلس قياده ، ولا طارح عناده ، فسافرت إليه مخاطرة بنفسي غير مبالية بغضبه لأعلم غاية شأنه وشأني معه ، فما نزلت من القطار حتى قبض الله لي من وقفي على حقيقة أمره ، وأعلمني أنه تزوج من

شأنك يا سيدتي وم تبكين ؟ » قالت : « لا تحدّث نفسك بريبة ولا تذهب بك الظنون مذاهبها ، فوالله ما جئت إليك تحت حجاب الليل إلا وأنت أوثق الناس عندي ، وأرفعهم في عيني ، ولولا شدة أقلق مضجعي وفرقت ما بين جفني والكرى ما خضت سواد الليل في مثل هذه الساعة ، ولا حملت في سيلي إليك ما حملت . » قلت : « عهدي بسيدتي رغبة البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزواج عذب الأخلاق كريم السجيا ، لا يؤثر هوى نفسه على هواك ولا يعدل بك أحداً . » قالت : « إنك تقص عليّ حديث الأمس وقد مضى به الفلك الدائر ، والكوكب السيار ، فاسمع مني حديث اليوم :

« إنك لا بد تعلم تاريخ زواجي منه منذ ثلاثة أعوام وأن أبي لم يبتغ به بدلا على كثرة الخاطبين إليه من علية القوم وجلتهم ، وأنا لا ألومه على ذلك - رحمة الله عليه - فما أراد بي شراً ولا اعتمد أن يسيء الاختيار لي ، ولكنه كان رجلاً أبيض السريرة طاهر القلب فخدعه الخادعون عني ، ومن ذا الذي لا يُخدع بشاب متعلم مهذب من ذوي المناصب الكبيرة والرُتب العالية ؟ وكيفما كان الأمر ، فقد تم عقد الزواج بيننا فاغتنبت به واغتنبت بي برهة من الزمان ، حبيبته دائمة لا انقطاع لها حتى يفرق بيننا الموت ، وكنت امرأة أجمع في نفسي جميع ما يمتُّ به النساء إلى الرجال ، فما خنته ، ولا ضقت ذرعاً بأمره ، ولا قطعت في وجهه مرة ، ولا أثقلت له مالا ، ولا نقضت له عهداً ، فجازاني سوءاً بالإحسان ، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان ، وخان ودي ، ونقض عهدي ، لا لذنب أتيت ، أو وصمة يصمني بها ، وكل ما في الأمر أنه رجل ملول . ولا تغضب يا سيدي إن قلت لك إن قلب الرجل متقلب متلون يسرع إلى البغض كما يسرع إلى الحب ، وإن هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفة عقلها وضعف قلبها أوثق منه عقداً ، وأمتن ودّاً ، وأوفى عهداً ، ولو وفي الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرق بين قلبيهما إلا ربُّ

(١) ربّ المنون : حوادث الدهر .

(٢) القمر : لعب القمار .

والابتسام .»

هذا ما قصّه عليّ ذلك الصديق الكريم ، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك ما تمّ من أمره مع تلك الفتاة المسكينة ، ولا ما تمّ من أمرها مع زوجها ، حتى جاءتني منه أس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة ، وهذا نصه :

« سيدي :

« يهمني كثيراً أن أرى بين كتب التهنئة التي ترد إليّ كتاباً منك لأسرّ بمشاركتك إياي في سروري وهنائي .

« إنك لا بدّ تذكر تلك القصة التي كنت قصصتها عليك منذ عام في تلك الفتاة البائسة ، التي خانها زوجها « فلان » وغدر بها وهجرها إلى أخرى غيرها ، بعد ما جرّدها مما كانت تملك يديها ، وما كان من أمر مجيئها عندي وبث شكواها إليّ ، وربما كنت لا تعلم بما تمّ من أمرها بعد ذلك ، فاعلم أنها دَفعت زوجها إلى موقف القضاء فضائق بأمرها ذريعاً فطلقها . وكنت أفكر في ذلك التاريخ في الزواج - كما تعلم - من زوج صالحة ، أجد السعادة في العيش بجانبها ، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفساً ، ولا أكرم جوهرها ، ولا أذكرى قلباً منها ، فتزوجتها فامتعت نفسي بخير النساء ، وأنقذت الإنسانية المعذبة من شِقوتها وبلائها ، وأبشرك أن الله قد انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم انتقاماً شديداً . فقد حدثني من يعلم دخيلة أمره أنه يعاني اليوم من زوجه الجديدة الموت الأحمر ، والشقاء الأكبر ، وأنها امرأة قد أخذت التريبة الحديثة من نفسها مأخذاً عظيماً ، فحولتها إلى فتاة غريبة في جميع شؤونها وأطوارها ، والرجل شرقيّ بفطرته ، أما غريته فهي متكلفة متعمّلة يدور بها لسانه ولا أثر لها في نفسه ؛ فهو لا يزال رجلاً غيوراً شريفاً ، ولا يزال يقاسي اليوم من تلك المرأة الخرقاء ، أضغافاً ما كانت تقاسيه منه أشرف النساء ، والسلام .»

* * *

فتاة متعلمة تقرأ له الجرائد والروايات ، وتفاوضه في المسائل الاجتماعية والسياسية ، وتحسن الرقص والغناء والتوقيع على « البيان »^(١) ؛ فداخطني من الهمّ ما ألّه به عليهم ، وجرعت ولكن أيّ ساعة منجرع ! ولا أظن إلا أن العدل الإلهي سيحاسبه على كل قطرة من قطرات الدموع التي أرقّتها في هذا السبيل حساباً غير يسير .

« » وكأنه شعرَ بمكاني فجاء إليّ يتهددني ويتوعدي ، فتوسلت إليه ببكاء طفلة التي كنت أحملها بين يديّ ، وذكرته بالعهود والمواثيق التي تعاقدا عليها ، وذهبت إلى استعطافه كلّ مذهب ، فكنت كأنتي أخطب ركوداً صمّاء^(٢) ، أو أستنزل أبودا عصماء^(٣) ، ثم طردني وأمر من حملني إلى المحطة ، فعدت من حيث أتيت .

« » فما وصلت إلى المنزل حتى خلعتُ ملابسي ، وليست هذه الثياب ، وجئت متكررة في ذِمّام الليل ، لأنني وحيدة في هذا العالم لا قريب لي ولا حميم ، ولأنني أعلم كرمك وهمتك وما بينك وبين ذلك الرجل من الودّ والاتصال ، عسى أن ترى لي رأياً في التفريق بيني وبينه ، علّني أجد في فضاء الحرية منفذاً كسّم الخياط أرشف منه ما أتبلّغ به أنا وطفلتني حتى يبلغ الكتاب أجله .»

« فأحزنتني من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزنتني ، وعدتُها بالنظر في أمرها بعد أن خفّضت كثيراً من أحزانها ولواعجها ، فعدت إلى منزلها ، وعدت إلى مضجعي أفكر في هذه الحادثة الغريبة وقد اكتنفني همّان : همّ تلك البائسة التي لم أر في تاريخ شقاء النساء قلباً أشقى من قلبها ، ولا نجماً أنحس من نجمها ، وهمّ ذلك الصديق الذي ريخته سنين طوالاً وخسرته في ساعة واحدة ، فقد كنت أغبط نفسي عليه ، فأصبحت أعزيبها عنه ، وكنت أحسبه إنساناً ، فإذا هو ذئب عمّلس^(٤) تستره الصورة البشرية وتواريه البشاشة

(١) البيان : مُعَرَّب بيانو ، وهي الآلة الموسيقية المعروفة .

(٢) الرُّكود من الرُّكود وهو الثبات والسكون ، والصخرة الصماء : الصَّلْبَة المصمتة .

(٣) أبدت البهيمّة : توحشت ، والعصماء من الظباء التي في ذراعيها بياض وساثرها أسود . (٤) العمّلس : السريع .

لحمه ، والسوس الذي ينخر عظمه ، وما أهدى شاته ولا يقرته لو يعلم إلا إلى «ديوان الأوقاف» وكان خيراً له أن يهديها إلى جاره الفقير الذي يبيت ليله طاوياً يتشهى ظلفاً^(٢) يمسك رمقه ، أو عرقوباً يطفئ لوعته .

وأعظم ما يتقرب به محسن إلى الله ، ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتهما ، أن ينفق بضعة آلاف من الدنانير في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد ، حافل بالمعابد ، وفي البلد كثير من البائسين وذوي الحاجات ، يشتدون مواطن الصلوات ، لا أماكن الصلوات ، أو يبنون بنية ضخمة فخمة مرفوعة القباب ، فسيحة الرحاب ، مموهة الجوانب والأركان ، مذهبة السقوف والجدران ، يسميها سبيلاً . ولا يهولئك هذا الاسم الضخم ، فكل ما في الأمر أن السبيل مكان يشتمل على حوض من الماء ربما لا يكون بينه وبين ماء النهر إلا بضع خطوات ، على أن الماء كالهواء ، ملء الأرض والسماء . أو يقف الرقاع الواسعة من الأرض لتتنق غلتها على أقوام من ذوي البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات ، وترديد الصلوات ، وقراءة الأحزاب والأوراد ، وهو يحسب أنه أحسن إليهم ، ولو عرف موضع الإحسان لأحسن إليهم بقطع هذا الإحسان عنهم ، عليهم يتعلمون صناعة أو مهنة يرتزقون منها رزقاً شريفاً . فإن كان يظن أنه يعمل في ذلك عملاً يقربه إلى الله ، فليعلم أن الله تعالى أجل من أن يعبا بعبادة قوم يتخذون عبادته سلكاً إلى طعام يطعمونه ، أو درهم يتناولونه . أو يفتح أبواب منزله لهؤلاء المحتالين المتلصصين الذين يسمونهم مشايخ الطرق ، ولو أنصفوهم لسموهم قطاع الطرق ، ولا فرق بين الفريقين إلا أن هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصي ، وأولئك يتسلحون بالسبج والمساويك ، ثم يسقطون على المنازل سقوط الجراد على المزارع فلا يتركون صادحاً ولا باغماً ، ولا خفاً ولا حافراً ، ولا شيئاً مما تنبت الأرض من بقلها وقتاتها وفومها وعدسها

في سبيل الإحسان

الإحسان شيء جميل ، وأجمل منه أن يحل محله ، ويصيب موضعه .

الإحسان في مصر كثير ، و وصوله إلى مستحقه وصاحب الحاجة إليه قليل ، فلو أضاف المحسن إلى إحسانه إصابة الموضع فيه لما سمع سامع في ظلمة الليل شكاة بائس ولا آفة محزون .

ليس الإحسان هو العطاء كما يظن عامة الناس ، فالعطاء قد يكون نفاقاً ورياء ، وقد يكون أجولة ينصبها المعطي لاصطياد النفوس وامتلاك الأعناق ، وقد يكون رأس مال يتجر فيه صاحبه ليبتل قليلاً ويربح كثيراً .

إنما الإحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألم لمناظر البؤس ومصارع الشقاء ، فلو أن جميع ما يبذله الناس من المال ويسمونه إحساناً صادر عن تلك العاطفة الشريفة ، لما تجاوز محله ولا فارق موضعه .

فوضى الإحسان

الإحسان في مصر فوضى لا نظام له ، يناله من لا يستحقه ويحرم منه مستحقه ، فلا يؤسأ يرفع ، ولا فقرراً يدفع ، فمثله كمثل السحاب الذي يقول فيه أبو العلاء :

ولو أن السحاب همى بعقل

لما أروى مع النخل القتادا^(١)

الإحسان في مصر أن يدخل صاحب المال ضريحاً من أضرحه المقبورين ، فيضع في صندوق النذور قبضة من الفضة أو الذهب ، ربما يتناولها من هو أرغد منه عيشاً وأنعم بالاً ، أو يهدي ما يسميه نذراً من نعم و شاء إلى دفين في قبره قد شغله عن أكل اللحوم والتفكه بها ذلك الدود الذي يأكل

(٢) ظلف البقرة : ظفرها .

(١) القتاد : شجر صلب له شوك لا فائدة منه .

ويصلها إلا أتوا عليه .

أسوأ الإحسان :

لم أر مالا أضيع ، ولا عملاً أخيب ، ولا إحساناً أسوأ من الإحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الأرض ، ويقلبونها ظهراً على عقب ، ويحتمون في مفارق الطرق وزوايا الدروب وعلى أبواب الأضرحة والمزارات يصيمون الأسماع بصريخهم ، ويقذون النواظر بمنابرهم المستبشرة ، ويزاحمون بمنابكهم الفارس والراجل والجالس والقائم ، فلو أن نجماً هوى إلى الأرض لهووا على أثره ، أو طائراً طار إلى الجو لكانوا قوادمه وخوافيه .

وإن شئت أن تعرف المتسول معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق عطفك وحنانك عليه ، وهل ما تسديه إليه من المعروف تسديه إلى صاحب حاجة ، فاعلم أنه في الأعم الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما ، ولا مسكن عنده يحتاج إلى مؤن ومرافق ، ولا شهوة له في مطعم أو مشرب أو ملابس ، حتى لو علم أن الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقدر من الشراب لا يقعه عن السعي في سبيله لا نقطع عنه . وهو لو شاء أن يتزوج أو يتخذ له مأوى يأوي إليه لفعل ، ولو وجد في حرفته متسعاً لذلك ، ولكنه الحرص قد أفسد قلبه وأمات نفسه ، فهو يتوسل بأنواع الحيل وصنوف الكيد ليجمع مالا لا فائدة له من جمعه ، ولا نية له في إصلاح شأن نفسه به إذا اجتمع عنده منه ما يقوم له بذلك ، بل ليدفنه في باطن الأرض حتى يدفن معه ، أو لينظمه في مرقدته حتى يرثه الغاسل من بعده . ولقد يبلغ به الحرص الدنيء والشر السافل أن يحمل في سبيل المال ما لا يستطيع مجاهد أن يحمل مثله في سبيل الله ؛ فيتمدد قطع يده أو ساقه أو إتلاف عينيه أو إحداهما ليستعطف القلوب عليه ، وكثيراً ما يحسد صاحبه إذا رآه أظفح منه شكلاً أو أكثر تشويهاً .

كما يحكى أن شحاذاً مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب ، تقابل مع آخر كفيف

البصر ، فتنافسا في مصيبيتهما أيتها أقذى للأعين وأوقع في النفس وأجلب للرحمة ، فقال الأول للثاني : « لقد وهبك الله نعمة العمى ، ومنحك بسلب ناظريك أفضل حيلة لاصطياد القلوب ، واستفراغ الجيوب . » فقال له صاحبه : « وأين يبلغ العمى من هذه الرجل الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهباً ! »

إن أكبر جريمة يُجرمها الإنسان إلى الإنسانية أن يساعد هؤلاء المتسولين بماله على الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة ، فيغري كل من شر في نفسه بالميل إلى البطالة وإثارة الراحة ، بالسعي على آثارهم ، والاحتراف بحرفتهم ، فكأنه قطع من جسم الإنسانية عضواً كاملاً ، لو لم يقطعه لكان عضواً عاملاً ، وكأنه هدم بعمله هذا جميع تلك المساعي الشريفة ، التي بذلها الأنبياء والحكماء قروناً عديدة لإصلاح المجتمع الإنساني ، وتهذيب أخلاقه وتخليصه من آفات الجمود والخمول ، فهل رأيت معروفاً أقبح من هذا المعروف وإحساناً أسوأ من هذا الإحسان ؟

تنظيم الإحسان :

ليست كمية المال التي ينفقها المحسنون في سبيل الإحسان مما يستهان به ، فلو قال قائل : إنها تبلغ في مصر وحدها كل عام مليوناً من الذهب ، لما أخطأ التقدير .

سألت رجلاً من وجوه الريف المعروفين بالبر والإحسان ، عن كمية ما ينفقه كل عام في هذا السبيل فأطلعني على جريدة حسابه ، فرأيتها هكذا :

جنيه

- | | |
|----|---|
| ١٠ | ولائم لمشايخ الطرق . |
| ٦٠ | ليالي في مولد اليومي والعففي . |
| ٧٢ | مرثيات قراءة القرآن والدلائل والصلوات في مسجده ومنزله . |
| ٣٠ | هبات كبيرة للطائفين في البلاد الذين يستجدون باسم المجد القديم والشرف الدائر . |

أفضل وجوهه ، وأي أنواعه أجمع لخيري الدنيا والأخرة .

٢- بذل الجهد في حمل الناس على اعتبار مجتمع الإحسان هذا بيت مال لهم ، أو وكالة عامة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم ، وتوزيعها على مستحقيها ، وحسبها أن تأخذ من كل فرد في كل عام مجموع ما يحسن به عادة في ذلك العام ، فلا يكون بعد ذلك مأخوذاً بشيء من الإحسان أمام ربه وأمام أمته أكثر مما قدمه لهذا المجتمع .

٣- إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم ، والقيام بأود العاجزين والعاجزات عن الكسب ، وتفقد شؤون الذين نكبهم الدهر وتتكبر لهم بعد العز والنعمة ، وصيانة ماء وجوههم أن تراق على تراب الأعتاب ، والإنفاق على تعليم من يتوسم فيهم الذكاء والفطنة ويرجى أن تنتفع بهم الأمة في مستقبلها من أبناء الفقراء ، إلى أمثال هذه الأعمال الخيرية الشريفة التي لا يتحقق الإحسان بدونها ، ولا ينصرف معناه إلا إليها .

أنا أعتقد اعتقاداً لا ريب فيه أن من يخطو الخطوة الأولى في سبيل هذا العمل الجليل ، ومن يضع الحجر الأول في بناء مجتمع الإحسان ، هو أفضل عامل في الوجود وأشرف إنسان .

* * *

أدب المناظرة

أنا لا أقول إلا ما أعتقد ، ولا أعتقد إلا ما أسمع صداه من جوانب نفسي ، فربما خالفت الناس أو بعض الناس في أشياء يعلمون منها غير ما أعلم . ومعذرتي إليهم في ذلك أن الحق أولى بالمجاملة منهم ، وأن في رأسي عقلاً أجله عن أن أنزل به إلى

١٨ صدقات للمتسولين على تقدير خمسة قروش يومياً تقريباً .

١٠ توضع في صناديق الأضرحة .

٤٠ ثمن خبز ولحم وملابس تفرق في المواسم الدينية .

٢٤٠ المجموع .

فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها في سبيل الإحسان رجل واحد من متوسطي الثروة في عام واحد ، وفي مصر مئاة مثله وعشرات يزيدون عليه وآلاف يقلون عنه ، فلا غرابة في أن يقدر هذا النوع من الإحسان بمليون جنيه ينفقه منفقوه على غير شيء سوى إغراء الكسلان بكسبه ، وحمل العامل على ترك عمله ، وفي اعتقادي لو أن هذا المقدار حل من الإحسان محله ، وأصاب منه موضعه ، وأنفق في سبيل الخيرات النافعة وجوه البر الحقيقية لارتقى بالأمة المصرية إلى ذروة الكمال ، ولكان له الأثر الجليل في وصولها إلى ما تتطلع إليه من هناء العيش وسعادة الحياة .

لذلك أقترح في تنظيم الإحسان اقتراحاً نافعا ، وأدعو الكاتبين الذين لا غرض لهم من وراء الكتابات السياسية ، ولا غاية لهم من الاشتغال بإثارة الخواطر وتهيجها ، وإغراء بعض الناس ببعض أن يساعدوني بأفلامهم على تحقيق ما أتمناه في هذا المقترح المفيد :

أقترح أن يقوم جماعة من سراً الأمة وجوهها ، وأصحاب الرأي والبصيرة فيها بتأليف مجتمع في القاهرة يسمى « مجتمع الإحسان » ، ويكون له في كل مدينة من مدائن الريف فرع تابع له .

أما أعماله التي أحب أن يقوم بها بالاتحاد مع فروعه فهي ثلاثة :

١- استخدام فريق من مهرة الكتاب وقصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة ، بكل واسطة من وسائط النشر وبكل وسيلة من وسائل التأثير ، معنى الإحسان ، وما هو الغرض منه ، وما هي

أن يكون سَيِّئَةً^(١) للعقول ، وريشة في مَهَابِ الأغراض والأهواء .

فهل يَجْمَلُ بعد ذلك بأحد من الناس أن يرميني ببجاجة من القول ، أو صاعقة من الغضب لأنني خالفت رأيه أو ذهبت غير مذهبه ، أو أن يكون له من الحق في حملي على مذهبه أكثر مما يكون لي من الحق في حملي على مذهبي ؟

لا بأس أن يؤيد الإنسان مذهبه بالحجة والبرهان ، ولا بأس أن ينقض أدلة خصمه ويؤيِّفها بما يعتقد أنه مبطل لها ، ولا ملامة عليه في أن يتذرع بكل ما يعرف من الوسائل إلى نشر الحقيقة التي يعتقد أنها لا وسيلة واحدة لا أحبها له ولا أعتقد أنها تنفعه أو تغني عنه شيئاً ، وهي وسيلة الشتم والسباب .

إن لإخلاص المتكلم تأثيراً عظيماً في قوة حجته وحلول كلامه المحلّ الأعظم من القلوب والأفهام ، والشاتم يُعلم الناس جميعاً أنه غير مخلص فيما يقول ، فعبقاً يحاول أن يحمل الناس على رأيه أو يقتنعهم بصدقه وإن كان أصدق الصادقين .

أ تدري لِمَ يَسِبُ الإنسانُ مناظره ؟ لأنه جاهل وعاجز معاً . أما جهله فلأنه يذهب في واد غير وادي مناظره ، وهو يظن أنه في واديه ، ولأنه ينتقل من موضوع المناظرة إلى النظر في شؤون المناظر وأطواره كأن كل مبحث عنده مبحث « فسيولوجي » . وأما عجزه فلأنه لو عرف إلى مناظره سبيلاً غير هذا السبيل لسلكه ، وكفى نفسه مؤونة ازدراء الناس إياه وحماها من الدخول في مأزق هو فيه من الخاسرين ، مُحَقَّقاً كان أم مبطلاً .

لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الغرض من المناظرة شيئاً غير خدمة الحقيقة وتأييدها ، وأحسب أن لو سلك الكتّاب هذا المسلك في مباحثهم لاتفقوا على مسائل كثيرة هم لا يزالون مختلفين فيها ، وما اختلفوا فيها إلا لأنهم فيما بينهم مختلفون ، يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنها كلمة حق لا ريب فيها ، ولكنه يبغضه فيبغض الحق من أجله ،

(١) السَيِّئَةُ : ما يساق من الدُّوَابِ .

فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وإن كان هو قوياً في ذاته ، لأن القلم لا يقوى إلا إذا استمد من القلب ، فإذا عَيَّ بالحجج والبراهين لجأ إلى المراوغة والمهاترة ، فيقول لمناظره مثلاً : إنك رجل جاهل لا يُعْتَدُ بأرائك ، أو إنك رجل مضطرب الرأي لا ثبات لك لأنك تقول اليوم غير ما قلت بالأمس . وهناك يقول له الناس : « رويداً لا تخلط في كلامك ، ولا تراوغ في مناظرتك ، ولا شأن لك بعلم صاحبك أو جهله ، فإنه يقول شيئاً ، فإن كان صحيحاً فسلّم به ، أو باطلاً فبين لنا أوجه بطلانه . و هبه قولاً لا تعلم قائله ، ولا شأن لك باضطراب القائل وثباته ، فربما كان بالأمس على رأي تبين له خطؤه اليوم ، والمرء يخطئ مرة ويصيب » . فإذا ضاق بمناظره وبالناس ذرعاً فرّ إلى أدنى الوسائل وأضعفها ، فسبّ مناظره وشمته وذهب في التمثيل به كل مذهب ، فيسجل على نفسه الفرار من تلك الحرب والانخدال في ذلك الميدان .

على أن أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه ، فإن لكل شيء جهتين ، جهة مدح وجهة ذم ، فإما أن تتساويا أو تكبر إحداهما الأخرى ، فإن كان الأول فلا معنى للاختلاف ؛ وإن كان الثاني وجب على المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق ، لا أن يكون كل منهما من سلسلة الخلاف في طرفها .

كان يقع بين ملك من الملوك و وزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتد النزاع ، وحتى لا يلين أحدهما لصاحبه في طرف مما يخالفه فيه ، فحضر حوارهما أحد الحكماء في ليلة وهما يتناظران في المرأة ، يعلو بها الملك إلى مصاف الملائكة ، ويهبط بها الوزير إلى منزلة الشياطين ، ويسرد كل منهما على مذهبه أدلته . فلما علا صوتهما واشتد لجأهما خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة ، ثم عاد وبين أثوابه لوح على أحد وجهيه صورة فتاة حسناء ، وعلى الآخر صورة عجزو شوهاء ،

أيها السائل الكريم :

إن كان باعثُ الرجل على الزواج بهذه البغي شهوةً يريد قضاءها من امرأة يعشقها ، ولا يرى له سبيلاً إلى طول استمتاعه بها والاستئثار بحفظه منها إلا هذا السبيل ، كما هو شأن أكثر الذين يتزوجون من البغايا ، فقد أخطأ خطأً جماً لأن من كان هذا شأنه لا يعنيه إلا ذاتُ نفسه ، ولا يشغله من شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذي يرتبط بشهوته ، ويتعلق بلذته . وآية ذلك أنه لا ينظر بعد اتصاله بها في إصلاح قلبها ، ولا يحاول أن ينزع من بين جنبهيا ملكة الفساد الراسخة في نفسها ، ولا يداخلها مداخلة المؤدب المذهب الذي يصور في نظرها معيشة الفساد بصورة تنفر منها وتشتتُ لها ، بل لا يكفياها مؤونة العيش ، ولا يرفها ولا يقبلها في الرغد والنعمة إلا إذا شعر بأن في قلبه بقية من الوجد والشغف بها . فإذا أفقر قلبه من حبها وعلم أن فراقها لا يهيج له وجداً ، ورجوعها إلى عيشها السالف لا يثير منه غيرة ، فارقها فراقاً هادئاً مطمئناً لا يمازجه حزن على فسادها ، ولا يخالطه أسف على سقوطها ، وهنالك تعود تلك المرأة إلى عيشها الذي طارت منه ، وقد أمسكت بين جوانحها من الحقد والمؤجدة على معيشة الصلاح والاستقامة ما الله عالم به .

فالرجل الذي يتزوج من البغي قضاءً لشهوته وإيثاراً للذته ، لا ينفعها ولا يحسن إليها ، لأنه لا يهذب نفسها ، ولا يغي لها بما عاهد عليها من البقاء معها ، والاستمرار على عثرتها ، بل يسيء إليها بسوء تصرفه معها ، فيبغض إليها الصلاح ويحبب إليها الفساد ، وعندئذ أنه في عمله هذا فاسق لا متزوج ، لأنه لو لم ير أن الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع في الاستمتاع ما سمى الأجر مهرًا ولا المتعة عقدًا .

فإن كان حقاً ما تقول من أن باعثه إلى ذلك الرحمة والرفقة والحنان والشفقة ، فقد أحسن كل الإحسان ، ولا أحسب أن بين أعماله الصالحة عملاً هو أفضل عند الله ذكراً ، وأعظم أجراً ، من هذا

فقطع عليهما حديثهما ، وقال لهما : « أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ليعطيني كل منكما رأيه فيها » . ثم عرض على الملك صورة الفتاة الحسنة فامتدحها ، ورجع إلى مكان الوزير وقد قلب اللوح خلسة من حيث لا يشعر واحد منهما بما يفعل ، وعرض عليه صورة العجوز الشمطاء ، فاستعاذ بالله من رؤيتها وأخذ يذمها ذمًا قبيحاً ، فهاج غيظُ الملك على الوزير وأخذ يرميه بالجهل وفساد الذوق وقد ظن أنه يذم الصورة التي رآها هو . فلما عادا إلى مثل ما كانا عليه من الخلاف الشديد تعرض لهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه ؛ فسكن ثائرهما وضحكا كثيراً ، ثم قال لهما : « هذا هو الذي أنتما فيه منذ الليلة ، وما أحضرت إليكما هذا اللوح إلا لأضر به لكما مثلاً ؛ لتعلمنا أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه ؛ لو أن كلا منكما ينظر إلى المسائل المختلف فيها من جهتيها » . فشكرا له همته وأثريا على فضله وحكمته ، وانتفعا بحيلته انتفاعاً كثيراً حتى ما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلاً .

* * *

الإحسان في الزواج

ورد إليّ في البريد هذا الكتاب بهذا التوقيع :

« حضرة السيد الفاضل

« ضمّني وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا ، فأخذته الرأفة بها فتزوجها . وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له ، وطالت مدة الجدل بيننا ساعات ولم يستطع أحد الفريقين أن يقنع الآخر برأيه ، فاتفق رأينا جميعاً على أن نكتب إليك بذلك علّك تلقي على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة والسلام .

ف . س »

العمل الصالح .

العرض أئمن من الحياة ، فإن كان من يمنح الحياة فاقدها شريكاً ، فأشرف منه من يرد العرض الضال إلى صاحبه المفجوع فيه .

ليت الرجال يتفقون جميعاً على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها وعُدمها أو فقد عائلها إلى البغاء ، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قيل أن تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن .

لم لا يكون باباً من أبواب الإحسان أن يتفق المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء ، فيتزوجوا منهن أو يزوجهن من أولادهم وأقربائهم ، وإن لم يكن من ذوات الجمال أو ذوات النسب ؟ لأنه إحسان ، والإحسان لا يجمل إلا إذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء .

لو عرف المحسنون معنى الإحسان لعرفوا أن إنفاق الأموال على بناء التكايا والزوايا ، وتوزيعه على المتسولين والمتكففين و وقفه على القارئين والذاكرين ، لا يدخر لهم من المثوبة والأجر عند الله ما يدخره لهم الإحسان إلى النساء ، بالعصمة من البغاء .

البغاء للبغي شقاء ما جناه عليها إلا الرجل ، فجدير به أن يغرماً ما أئلف ويصلح ما أفسد .

يهجم الرجل على المرأة ويُعد لها جمعتها ما شاء الله أن يعده من وعد كاذب ، وقول خالب ، وسحر جاذب ، حتى إذا خدعها عن نفسها ، وغلبها على أمرها ، وسلبها أئمن ما تملك يدها ، نفض يده منها وفارقها فراقاً لا لقاء بينهما من بعده .

هنالك يجلس في كسر بيتها جلسة الكتيب الحزين مسبل دمعها على خدّها ، مسندة رأسها بكفها ، تغلي أناملها التراب ، لا تدري أين تذهب ، ولا ماذا تصنع ، ولا كيف تعيش !

تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها ، لأن الرجل يسميها ساقطة ، وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه ، لأن الرجل

أهمل شأنها ، فلم يعلمها من العلم ما تستعين به على ضائقة العيش ، وتطلبه من طريق التسول فلا تجده ، لأن الرجل يؤثر أن يمنحها القنطار حراماً ، على أن يمنحها الدرهم حلالاً ، فلا تجد لها بدءاً من أن تطلبه من طريق البغاء .

فها أنت ذا ترى أن شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة ، وأن الرجل هو الذي يمثل جميع أدوارها ، ويظهر في كل فصل من فصولها ، ومهما حال بيننا وبينه من ذلك الستار المسبل ، فإننا لا نزال نعتقد أن الرجل غريم المرأة ، وأن حقاً عليه أن يؤدي دينه ويغرم أرش^(١) جنايته .

إن أي الرجل أن يتزوج المرأة بغياً فليحل بينها وبين البغاء ، ولا سبيل له إلى ذلك إلا إذا اعتبر الزواج باباً من أبواب الإحسان ، أي أنه يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها لنفسه ، وأحق النساء بالإحسان أولئك اللواتي لم يرزقهن الله الجمال والمال ، والحسب والنسب ، فإن أي إلا أن يتزوج المرأة السعيدة ، فليعلم أنه هو الذي أخذ الشقية من يدها ، وساقها بنفسه إلى قرارة الشقاء ورمها بيده في هوة الفسق والبغاء .

* * *

لا همجية في الإسلام (٢)

أيها المسلمون :

إن كنتم تعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين إلا ليموتوا ذبحاً بالسيوف ، وقصفاً بالرماح ، وحرقاً بالنيران ، فقد أسأتم بركم ظناً ، وأنكرتم عليه حكمته في أفعاله ، وتديبره في شؤونه

(١) الأرض : دية الجراحات .

(٢) كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية «أطنة» من ولايات الدولة العثمانية ، وقتلهم إياهم وتمثيلهم بهم في عام ١٩٠٩ .

كان لحماية الدعوة الإسلامية أن يعترضها في طريقها مُعترض أو يحول بينها وبين انتشارها في مشارق الأرض ومغاربها حائل ، أي أن القتال كان ذوقاً ودفاعاً ، لا تشقيفاً وانتقاماً .

وأيّة ذلك أن السرية من الجيش ما كانت تخطو خطوة واحدة في سبيلها الذي تذهب إليه ، حتى يصل إليها أمر الخليفة القائم أن لا تُزعج الرهبان في أديرتهم ، والقسيسين في صوامعهم ، وأن لا تخارب إلا من يقاومها ، ولا تقاتل إلا من يقف في سبيلها ، ولقد كان أخرى أن تُسفك دماء رؤساء الدين المسيحي وتُسلب أرواحهم ، لو أن غرض المسلمين من قتال المسيحيين كان الانتقام منهم والقضاء عليهم .

لو أنكم قضيتم على كل من يتدنّ بدين غير دينكم حتى أصبحت رقعة الأرض خالصة لكم لانقسمتم على أنفسكم مذاهب وشيعا ، وتقاتلتكم على مذاهبكم تقاتل أرباب الأديان على أديانهم ، وهكذا حتى لا يبقى على وجه الأرض مذهب ولا ممتذهب .

أيها المسلمون ، ما جاء الإسلام إلا ليقضي على مثل هذه الهمجية والوحشية التي تزعمون أنها الإسلام .

ما جاء الإسلام إلا ليستل من القلوب أضغاثها وأحقادها ، ثم يملؤها بعد ذلك حكمة ورحمة ليعيش الناس في سعادة وهناء ، وما هذه القطرات من الدماء التي أراقها في هذا السبيل إلا بمثابة البضع العضوي الذي يتدرع به الطبيب إلى شفاء المريض .

عذرتكم ، لو أن هؤلاء الذين تُريقون دماءهم في بلادكم كانوا ظالمين لكم في شأن من شؤون حياتكم ، أو ذاهبين في معاشرتكم والكون معكم مذاهب سوء تخافون مغبتها ، وتخشون عاقبتها ، أما والقوم في ظلالكم والكون تحت أجنحتكم أضعف من أن يمدوا إليكم يد سوء أو يتدروكم ببادرة شر ، فلا عذر لكم .

عذرتكم بعض العذر لو لم تقتلوا الأطفال الذين

وأعماله ، وأنزلتموه منزلة العايب اللاعب الذي يني البناء ليهدمه ، ويزرع الزرع ليحرقه ، ويخيط الثوب ليمزقه ، وينظم العقد ليبدده .

لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الإنسان نطفة في رحم أمه يتعهده بعطفه وحنانه ، ويمدّه برحمته وإحسانه ، ويرسل إليه في ذلك السجن المظلم الهواء من منافذه ، والغذاء من مجاريه ، ويدود عنه آفات الحياة وغوائلها نطفةً فعلقة فمضغة فجنيناً فبشراً سوياً .

إن إلهاً هذا شأنه مع عبده وهذه رحمته به وإحسانه إليه محالّ عليه أن يأمر بسلبيه الروح التي وهبه إياها ، أو يرضى بسفك دمه الذي أمدّه به ليجري في شرايينه وعروقه ، لا بين تلال الرمال ، وفوق شعاف الجبال .

في أيّ كتاب من كتب الله ، وفي أيّ سنة من سنن أنبيائه ورسله قرأتكم جواز أن يعمد الرجل إلى الرجل الآمن في سربه ، القابع في كسر بيته ، فينزع نفسه من بين جنبيه ، ويفجع فيه أهله وقومه ، لأنه لا يدين بدينه ، ولا يتقلد مذهبه .

لو جاز لكل إنسان أن يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه لأقمرت البلاد من ساكنيها ، وأصبح ظهر الأرض أعرى من سراة أديم .

إن وجود الاختلاف بين الناس في المذاهب والأديان والطبائع والغرائر سنة من سنن الكون التي لا يمكن تحويلها ولا تبديلها ، حتى لو لم يبق على ظهر الأرض إلا رجل واحد لجرّد من نفسه رجلاً آخر يخاصمه وينازعه ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .

إن الحياة في هذا العالم كالحرارة التي تنتج من التّحاكّ بين جسمين مختلفين ، فمحاولة توحيد المذاهب والأديان محاولة للقضاء على هذا العالم وسلبه روحه ونظامه .

أيها المسلمون ؛ ليس ما كان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين مراناً به التشفي والانتقام منهم ، أو القضاء عليهم ، وإنما

البخلُ إحدى الملكات النفسية ، والملكة صفة راسخة في النفس تصدر عنها آثارها عفواً بدون روية ولا اختيار ، فكما لا يُسألُ المسرف عن سبب إسرافه ، والغاصبُ عن غايته من غضبه ، والحاسد عن غرضه من حسده ، كذلك لا يُسألُ البخل عما يستفيدة من بخله وحرصه ، فكثيراً ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارض تنزع بهم إلى الرغبة عن التخلي عنها حيناً ، فلا يجلبون إلى ذلك سبيلاً ، لمكان تلك الملكات من نفوسهم ونزولها منها منزلة لا تُزعجها الرغبات ، ولا تُزعزعها الإرادات . وربما عرض للبخل ما يدفعه إلى بذل شيء من ماله ، فإذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه ، أحسَّ كأن تياراً كهربائياً قد سرى من نفسه إلى يده ، فتشنجت أعصابها وأعيت أناملها على الالتواء والانتواء ، فأخرجها صفراً كما أدخلها ، وودَّه أن لا يفعلَ لولا أن للغريزة قوةً فوق قوة الإرادة ، وسلطاناً تخضع له الرغبات وتنفذ إليه العقول ، إلا إذا كان وراءها وازع من القانون يزعمها؛ فإنه يكسر شيرتها أحياناً ، وإن لم ينتزعها انتزاعاً .

ويُحكى أن شحيحاً تحركت في قلبه يوماً الشفقة على ابنته الجائعة العارية ، فأراد نفسه على أن يبذل لها شيئاً من ماله فتأبَّت عليه ، فأذن لوكيله أن يختلس لها من ماله ما يسدَّ خلَّتْها من حيث لا يعلمُ بذلك ، ولا يدعه يتبته لشيء منه علماً بأنه لا يستطيع أن يكون كما يريد .

فالوجه في السؤال أن يقال : ما هي الأسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخل ؟ فيكون الجواب عن ذلك أن الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص البخلاء وأطوارهم وأخلاقهم وتربيتهم ، ونحن نذكر أهم تلك الأسباب من حيث ذاتها بقطع النظر عن افتراق ما يفترق منها واجتماع ما يجتمع :

الأول - الورثة : وهي وإن كانت سبباً ضعيفاً لما يعرض للأخلاق الموروثة أحياناً من التغير والانقلاب ، بمعاشرة المتصفين بأضدادها والتأثر بمخالطتهم إلا أنها كثيراً ما تنمو وتتجسم ، إذا أغفلت ولم يعترضها

لا يسألهم الله عن دين ولا مذهب قبل أن يلغوا من الحلم ، والنساء الضعيفات اللواتي لا يحسن في هذه الحياة أخذاً ولا ردّاً ، والشيوخ الزاحفين إلى القبور قبل أن تزحفوا إليهم وتتعللوا قضاء الله فيهم .

أما وقد أخذتم البريء بجريرة المذنب ، فأنتم مجرمون لا مجاهدون ، وسفاكون لا محاربون .

من أي صخرة من الصخور أو هضبة من هضبات الجبال تحتم هذه القلوب التي تنطوي عليها جوانحك ، والتي لا تروعا أثات الثكالي ، ولا تحركها رئات الأيامى ؟

من أي نوع من أنواع الأحجار صيغت هذه العيون التي تستطيعون أن تروا بها منظر الطفل الصغير ، والنار تاكل أطرافه وتتمشى في أحشائه وبين جوانحه ، فتصرخ أمه ، وأمه عاجزة عن معونته لأن النار لم تترك لها يداً تحركها ، ولا قدماً تمشي عليها ؟

لا أستطيع أن أهتكم بهذا الظفر والانتصار لأنني أعتقد أن قتل الضعفاء جبنٌ وعجزٌ ولؤمٌ ودناءة ، وأن سفك الدماء بغير ذنب ولا جريرة وحشية وهمجية أخرى أن يعزى صاحبها فيها ، لا أن يهتأ بها .

أيها المسلمون ؛ اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم شراركم وحشيتكم ، ولكن حذار أن تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية ، فالله سبحانه وتعالى أجلُّ من أن يأمر بقتل الأبرياء ، أو يرضى باستضعاف الضعفاء ، فهو أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين .

* * *

البخل

سألني سائل : « ماذا يستفيد الإنسان من بخله حتى على نفسه ؟ وأي غرض يرمي إليه من ذلك ؟ » فأجبتُه بهذا الجواب :

صورة وأقنع شكل ، فهالته منظره وذهب الخوف الشديد برشده وطار بطائر عقله ، فلا يزال يراه في كل مكان وزمان ، وفي حالتي الأمن والخوف ، والوحشة والأنس .

الخامس - اللؤم : فإن النفس إذا خيشت طينتها ولؤم طبعها ، كان من أخص صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه وبغض الخير للناس قاطبة ، فكيف يمنحهم من ذات يده ما يزيده ألبا على ألم ، وحسرة فوق حسرة ، وهو لو استطاع أن يكف عنهم سارية السماء ويعترض دونهم نابتة الأرض لفعل ؟!

السادس - سقوط الهمّة : إذا نشأ الإنسان عالي الهمّة طموحاً إلى المعالي مُميّباً للذكر الحسن والثناء الجميل ؛ سهل عليه أن يذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه . وحبّ المجد أسال الذهب من خزائن الأغنياء ، وصير نفوس الشجعان نهباً مقسماً بين شفرات السيوف وأسنة الرماح ؛ طلباً لسعادة الحياة بالذكر وسعادة الممات بالخلود ، فمن لساقط الهمّة ضعيف النفس بدافع يدفعه إلى بذل المال على مكائنه من قلبه وامتناع حبه به ! أ يدفعه حب الثناء وهو لا يشعر بملكته ، أم خوف المذمة وهو لا يتألم منها ولا يتلوق مرارتها ، أم سعادة الحياة وسعادة الممات ، وهو لا يفهم للسعادة معنى غير ما فهمه الزيرقان بن بدر حينما قنع على لسان السحيطيّة من المكارم بلقمة يعضغها ، وحلّة يلبسها ؟!

السابع - فساد المجمع الإنساني : ذلك أن كثيراً من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه ، لا لفائدة يرجونها أو خير يطمعون فيه ، بل لأنه ذو مال ، وذو المال في نظرهم أحقّ الناس بالمحبة والإخلاص والإجلال والإعظام ، وإن لم يحصلوا منه على طائل . فلو أنهم عبدوا الله سبحانه وتعالى بهذا النوع من العبادة ساعة واحدة لأصبحوا من عباده المقربين . فمن ذا الذي لا يحب من البخلاء أن ينال هذه المنزلة في نفوس هؤلاء المتملقين ، وليس بينه وبينهم إلا الحرص الذي

ما يسد سبيلها ويقف في طريق نمائها .

الثاني - التربية : إذا نشأ الطفل بين أهل أشحاء ولم يكن في فطرته ما يقاوم سلطان التربية على نفسه ، أخذ إخذهم في الحرص ، وتخلّق فيه بأخلاقهم كما يتخلّق بها في العقائد والعادات من حيث لا يفكر في استحسان أو استهجان ، كأنما هي عدوى الأمراض التي تسري إلى الإنسان من حيث لا يدري بها ، ولا يشعر بسرطانها . ويحكى أن رجلاً دخل منزلاً يعرف أهله بالشح والحرص ، فرأى طفلاً صغيراً في يده ليمونة صغيرة ، فسأله إياها ، فأجابه الطفل : « إن يدك لا تسعها ! »

الثالث - سوء الظن بالله : ذلك أن المتدين إذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها ؛ رسخ في قلبه الإيمان بأن لله سبحانه وتعالى عيناً ساهرة على عباده الضعفاء ، فهو أرحم من أن يغفل شأنهم ويكلهم إلى أنفسهم ، ويسلمهم لصروف الليالي وعاديات الأيام ، فلا يلجّ به الحرص على الجمع ، ولا يزعجه الخوف من البذل ، وعلى العكس منه ضعيف الإيمان ضعيف الثقة بواهب الأرزاق ومقسم الحظوظ والجدود ، فهو لسوء ظنه به لا يزال الخوف من الفقر نصب عينيه حتى يصير البخيل ملكة راسخة فيه .

الرابع - النكبات : كثيراً ما تحلّ بالإنسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته عن مستقرها ، ومن ذلك النكبات التي يكون مرجعها قلة المال كأن يقع الرجل في خصومة يرى أنه لولا ضيق ذات يده لما وقع فيها ، فلا يكون له فكر بعد ذلك إلا في التوقي من الوقوع في أمثالها ، فكلما تمثلت له نكبته لجّ به الحرص وأغرّق في المنع حتى يصير ذلك غريزة فيه وخلقاً له . ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر برهة من الزمان وتجسست آلامه في نظره ، فإنه مهما حسنت حاله وأقبلت عليه الدنيا بوجهها وفاضت خزائنه بالذهب ، لا تذهب من فمه تلك المرارة ولا تضيع من ذاكرته آلامها ، فلا يزال يملك قلبه وسواس مقلق يخيّل إليه ما لا يتخيّل ويريه ما لا يرى ، كمن تمثل له خيال الشيطان مرة في أبشع

نفسية هي أشدُّ مما يجلبه المجانين على أنفسهم بمناطحة الجدران ، ومطاردة الصبيان ، كما نتوسل إلى علماء الشرائع أن يضعوا قانوناً لاستخراج المال من خزائن المقترين ، كما وضعوا قانوناً لحفظ المال في صناديق المبلدين ، فإنَّ تبذير المال يضرُّ قوماً وينفع أقواماً ، أما حبسه فيضرُّ صاحبه ويضرُّ معه الناس أجمعين .

* * *

البعوض

جلست ليلة أمس إلى مكتبي ، وعَلَّقت قلمي بين أصابعي وأنشأت أفكر في الموضوع الذي يجمل بي أن أكتب فيه ، وتلك عادتي التي يعرفها عني كثير من خلطائي وعشراي ، أنني لا أميل إلى الكتابة في بياض النهار ولا أحب أن أخطئ حرفاً على ما أحب وأرتضي إلا في ظلام الليل وهدوئه .

ولا يظن المتفلسفون في اكتناه الحقائق والمولكون بالصناعة اللفظية ، والأنواع البديعية ، أنني أريد بذلك مراعاة النظر بين سواد المداد وسواد الظلام ، أو أنني أترقب طلوع النجم لأتسلق أشعته إلى سماه الخيال ، فكل ذلك لم يكن ، وليس في الناس من هو أدري بدخيلة نفسي مني ، وكل ما في المسئلة أن هذه عادتي ، وتلك حكايتي ، وكفى .

لم أكد أفرغ من التفكير في الموضوع حتى شُعرت بطنين البعوض في أذني ، ثم أحسستُ بلداعته في يدي ففترق من ذهني ما كان مجتمعاً ، وجمعت من همي ما كان مفترقاً ، ولم أربداً من إلقاء القلم وإعداد العدة لمقاومة هذا الزائر الثقيل .

طارده بالمذبذبة فما أجدى ذلك نفعا ، لأنه على الطيران أقوى من يميني على المطاردة ، وفتحتُ النوافذ لأخرج ما كان داخلاً ، فدخل ما كان خارجاً ، وحاولتُ قتله فوجدته متفرقاً ، ولو كان مجتمعاً في دائرة واحدة لهلك بضربة واحدة ، ولم

لا يتكلفه ولا يتعمَّل له ، والذي هو أشهى الأشياء وأكثرها ملاءمة لفطرته ، ليزداد شرفاً وعزاً كلما ازداد بالحرص ثراء و وفراً . ومن هنا قال أحد البخلاء لأولاده : « يا بني ، لأن يعلم الناس أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له في أعينهم من أن يقسمها فيهم ! » وقال رجل لآخر : « يا بخيل ! » فقال له : « لا أحرمني الله بركة هذا الاسم ، فإنني لا أكون بخيلاً إلا إذا كنت غنياً ، فسم لي المال ولقبني بما تشاء ! »

هذه هي أهم الأسباب التي تألفت منها رذيلة البخل ، فإنَّ أغفلنا النظر إليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عما يستفيد به البخل من بخله حتى على نفسه ، وفرضنا البخل مختاراً فيما يفعل غير مساق إلى هذا المورد الويل بسائق الغريزة الفاسدة ، كان منال النجم أقرب من تطبيق حاله على قاعدة من قواعد العقل ، لأن الله تعالى خلق الإنسان ورغب فيه رغبات وشهوات مختلفة ، بعضها نفسي والآخر جسدي . فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها ، فصاحب المال الكثير الذي يقنع بالشملة^(١) والمضغة ، والجُرعة والظلة ، ويحمل في كل لحظة أشد الآلام من مقاومة نزوات نفسه إلى ميولها ورغباتها . لا يمكن أن يُحمل حاله على محمل العجز لأنه قادر ، ولا على الزهد لأنه ما زهد فيما لا ينفع فيه زهد فيما ينفع ، ولا على الخوف من الفقر لأن عنده من المال ما يقني الأعمار ، فهيهات أن يقنيه عمر واحد ! ولا على الرغبة في سعادة الدنية لأن معية الأب لولده لا يمكن أن تزيد على رغبته في أن يراه شريكاً له في سعادته ، فأما أن يشقى هو في حياته ، ليسعد ولده بعد مماته ، فمما لا يقبله العقل ، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم . فلم يبق لنا إلا أن نتوسل إلى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسع في تفسير معنى الجنون حتى لا يكون مقصوراً على المعريدين والهاذين ، بل يكون شاملاً للعابثين ، الذين لا يدرون ما يأخذون وما يتركون ، والذين يجلبون لأنفسهم إراداتهم واختيارهم آلاماً

(١) الشملة : شقة من الثياب ذات خمل يتوسع بها ويتلفح .

لي أن هذا الذي أحسبه بعوضاً ليس بإنسان تقمص
البعوض وتمثل لي في جسمه الصغير وجناحه
الرقيق ١؟ وأي غرابة في أن أتخيل ذلك ما دام
الإنسان والبعوض سواء في حب الشر والميل إلى
الأذى ١؟ وما دامت الصورة الجسمانية لا قيمة لها في
جانب الأعراض الذاتية والصفات المقومة للماهية .

أي قيمة لما يمتصه البعوض مجتمعاً من جسم
الإنسان في جانب ما يمتصه القاتل منفرداً من جسم
المقتول ١؟

إن البعوض في امتصاصه الدّم من الجسم أقل
من القاتل ضرراً وأشرف غاية وأجمل مقصداً ، لأنه
إن أذى الجسم فقد أبقى على الحياة ، ولأنه يطلب
عيشه وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف سواه ، ولا
يستطيع أن يدبر لنفسه غيره ، ولو استطاع لعافت
نفسه أن يكون كالإنسان يتطوع للشر ، و يتعبد
بالضرر .

إنني وجدت بين الإنسان والبعوض شبيهاً قريباً في
صفات كثيرة أنا ذاكرك لك طرفاً منها وتارك لفطنتك
الباقى :

البعوض يمتص من الدم فوق ما يستطيع احتمالاً ،
فلا يزال يشرب حتى يمتلئ فينفجر ، فهو يطلب
الحياة من طريق الموت ، ويفتش عن النجاة في مكان
الهلاك ، وهو أشبه شيء بشارب الخمر يتناول الكأس
الأولى منها لأنه يرى فيها وجه سروره وصورة سعادته ،
فتطمعه الأولى في الثانية ، والثانية في الثالثة ، ثم
لا يزال يلح بالشراب على نفسه حتى يُلغى عنها ويؤدي
بها من حيث يظن أنه يُعشها ويَجلب إليها سرورها
وهناها .

البعوض سيئ التصرف في طلب العيش ، لأنه
لا يسقط على الجسم إلا بعد أن يئُل على نفسه
بطنيه وضوائه ، فيأخذ الجالس منه حذرّه ويدفعه
عن مطلبه أو يقتله قبل البلوغ إليه . فمثله في ذلك
مثل بعض الجهلة من أصحاب المطالب السياسية
يطلبون المآرب النافعة المفيدة لأنفسهم ولأمتهم ، غير
أنهم لا يهتمونها ، ولا يحسنون الاحتفاظ بها في

أر في حياتي أمة ينفعها تفرقها ويؤذيها تجمعها غير
أمة البعوض ! فما أضعف هذا الإنسان ! وما أضل
عقله في اغتراره بقوته ، واعتداده بنفسه ، واعتقاده
أن في يده زمام الكائنات يُصرفها كيف يشاء ،
ويسيرها كما يهوى ، وأنه لو أراد أن يذهب بنظام
هذا الوجود ويأتي له بنظام جديد لما كان بينه وبين
ذلك إلا أن يُرسل أشعة عقله ويتعت عزيمته ،
ويقتدح فكرته !

يزعم ذلك وهو يعلم أنه أضعف من أن يحال
لنفسه في مدافعة أصغر الحيوان جسماً وعقلاً ،
وأدناها قيمة وشأنًا ، بيد أنه يعلم ذلك بلسانه وفي
قلّات وهمه ، ولو علمه علماً يتغلغل في نفسه ،
ويتمثل في سويداء قلبه لكفكف من غلوائه ، وخفض
من كبريائه ، وعلم علم اليقين أن الإنسان العاقل
والحيوان الملهم والنبات النامي والجماد الجامد سواء
بين يدي القوة الإلهية الكبرى التي لا ينفع معها
حول ولا قوة .

علمتُ أنني عيّتُ بأمر هذا الحيوان فلذتُ بجانب
الصبر ، والصبر كما يعلم إخواننا الصابرون حجةً
العاجز ، وحيلة الضعيف وأيسر ما يستطيع أن
يدفع به دافع عن نفسه ملامة اللائمين ، وفضول
المتطفلين ، وقلت في نفسي : « لو كان البعوض
يفهم ما أقول لقصصت عليه قصتي ، وشرحت له
عذري ، وسألته أن يمنحني ساعة واحدة أقوم فيها
بكتابة رسالتي هذه ، ثم هو بعد ذلك في حل من
جسمي ودمي ينزل منهما حيث يشاء ، ويمتص
منهما ما يشاء ، ولكنه ويا للأسف ! لا يسمع شكاتي
ولا يرحم ضراعتي ولا يفهم معنى الرحمة ولا يعرف
قيمة المروءة لأنه ليس بإنسان . »

أحسب أن لذهات البعوض قد أخذت مأخذها
من عقلي وفهمي ، وأني قد بدأت أهذي هذيان
المحموم ! فمن أين لي أن لو كان البعوض إنساناً
كان يسمع شكاتي ، ويكشف غلامتي ، أو يفهم
معنى الرحمة ، ويعترف قيمة المروءة ١؟ ومتى كان
الإنسان أحسن حالاً من البعوض وأرحم منه قلباً
وأشرف غاية فأتمنى أن لو كان مكانه ١؟ بل من أين

ليست المسئلة مسئلة صديقك وحده بل مسئلة الساقطين أجمعين ، فإن المرء لا يكاد يتناول نظره منهم في هذه الأيام إلا وجوهاً قد نسج الحزن عليها غبرة سوداء ، وجفوناً تخار فيها مدامعها حيرة الزئبق الرجراج ، حتى ليخيل إليك أن نازلة من نوازل القضاء قد نزلت بهم فزلزلت أقدامهم ، أو فاجعة من فواجع الدهر قد دارت عليهم دائرتها فأكلتهم ذخائر نفوسهم ، وجواهر عقولهم ، وأقامت بينهم وبين سعادة العيش وهنائه سدلاً لا تنفذه المعاول ، ولا تنال من أيده الزلازل .

خفض عليك قليلاً أيها الطالب ، فالأمر أهون مما تظن وأصغر مما تقدر ، واعلم وما أحسبك إلا عالماً أنك لم تسقط من قمة جبل شامخ إلى سفح متحجر ، فتبكي على شظية طارت من شظايا رأسك ، أو دم مسفوح لدق من بين كحبيك .

إنك قد سميت إلى غرض فإن كنت هيأت له أسبابه ، وأعددت له عدته ، وبذلت له من ذات نفسك ما يبذل مثله الباذلون في مثله ، فقد أعذرت إلى الله وإلى الناس وإلى نفسك ، فحري بك أن لا تخزن على مصاب لم يكن أثرًا من آثار يديك ، ولا جناية من جنایات نفسك عليك . وإن كنت قصرت في تلمس أسبابه ، ومشيت في سبيله مشية الظالم المتقاعس ، فما حزنك على فوات غرض كان جديراً بك أن تترقب فواته قبل وقت فواته ! وما بكأؤك على مصاب كان خيراً لك أن تعلم وقوعه قبل يوم وقوعه !

ما لك تبكي بكاءً الوائق بمواتة الأيام ومطاولعة الأقدار ! فهل تستطيع أن تبرز لنا صورة العهد الذي أخذته على الدهر أن يكون لك كما تحب وتشتهي ، وعلى الفلك أن لا يدور إلا بسعدك ، ولا يجري إلا بجذك ، وعلى القلم أن لا يكتب في لوحه إلا ما دلته عليه ، وأوحيت به إليه ؟

لا تجعل لليأس سبيلاً إلى نفسك ، فلعل الأمل يعوض عليك في غلك ما خسرت في أمسك ، وامض لشأنك ولا تلتفت إلى ما وراءك ، فإن تم لك

صدورهم ، ولا يبتغون الوسيلة إليها إلا بين الصراخ والضجيج ، ولا يمسكون بالحلقة الأولى من سلسلتها حتى يملأوا الخافقين بذكرها ، ويشهدوا الملائ الأعلى والأدنى عليها ، وهناك يدرك عدوهم مقاصدهم فيعد لها عدتها وتلمس وجه الحيلة في إفسادها عليهم ، هادئاً ساكتاً من حيث لا يشعرون .

البعوض خفيف في وطأته ، ثقيل في لذته ، فهو كذلك صاحب الذي يسرك منظره ، ويسوؤك مخبره ، يلقاك بابتسامة هي العذب الزلال ، عذوبة وصفاء ، والسر الحلال ، جمالاً وبهاء ، وبين جنبه في مكان القلب صخرة لا تنفذها أشعة الحب ، ولا يتسرب إليها ماء الوفاء . يقول لك إني أحبك ليغلبك على قلبك ، ويملك عليك نفسك ، فإن تم له ما أراد سلبك مالك إن كنت من ذوي المال ، أو استخدم جاهك إن كنت من ذوي الجاه ، فإن لم تكن هذا ولا ذاك أغراك بالسير في طريق يسقط مروءتك ويُلِم شرفك ، فإن فاتته ما يشفي به داء بطنته ، لا يفوته ما يطفئ به نار حقه وحسده .

لا يزال البعوض ملعاً في مهاجمتي ، فلا طاقة لي بكتابة سطر واحد أكثر مما كتبت ، والسلام .

* * *

الجزع

« يا صاحب النظرات :

« لي صديق سقط في امتحان (البكالوريا) هذه السنة فأثر فيه ذلك السقوط تأثيراً كبيراً ، فهو لا ينفك باكياً متألماً حتى أصبحت نخاف عليه الجنون ، وكلما عزيناه عن مصابه يقول : « كيف أستطيع معايشة إخواني ومعارفي ، وكيف أستطيع مقابلة والدي وأهلي ؟ » فهل لك أيها السيد أن تعالج نفسه بنظرة من نظراتك التي طالما عالجت بها قلوب المحزونين ؟ »

« حقوقي »

الاتحاد

أَلَمْتُ بِكَ كَرِبَةً مِنْ تِلْكَ الْكَرْبِ الَّتِي لَا تَزَالُ
تَخْتَلِفُ إِلَيَّ كَمَا تَخْتَلِفُ إِلَى الْمَحْمُومِ نَوْبَاتُهُ حِينَ
بَعْدَ حِينٍ .

كربة ما كفاها أنها حبست قلبي عن الكتابة ،
وفكري عن الحركة حتى حالت بيني وبين مطالعة
الصحف ، والإشراف على الأمة من نوافذها برهة من
الزمان ، ثم أدركتني رحمة الله فاستفتت فإذا
صَحَبَ وَلَجِبَ ، وضجيج وضوضاء ، وأصوات ملء
القضاء ، وكِظَةُ الأرض والسماء ، فما هو إلا سؤال
السائل وإجابة المجيب حتى عرفت كل شيء .

عرفت أن الأمة المصرية في موقف من أخرج
مواقفها ، ومسلكت من أضل مسالكها ، وأنها بين
ماضي الأسد وفوق رَوْق الظلي ، وأن حوادث الدهر
وعاديات الأيام قد ملكت عليها سبيلها ، والتفت
حولها التفاف الحية بالعنق ، وأحاطت بها إحاطة
الجامعة باليد والقيد بالرجل ، فمثلها كمثل رجل
أحاطت النار ببيته من كل جانب وعلقت بسقوفه
وجدرانها ، ونوافذه وأبوابه ، فما هو بناج إن أراد نجاة ،
ولا يباقي إن أراد بقاء ، بل مثلها كمثل آخر ضل به
سبيله ، واشتبهت عليه مسالكه ، في ليلة داجية
مدلهمته قد غابت كواكبها ، واستسرت^(١) نجومها ،
فوقف وقفة الحائر المضطرب يسمع العواء والزئير ،
والفحيح والصفير ، فلا يعلم أ يقدم فيزداد ضلالاً ،
أم يحجم فلا يجد مجالاً ، أم يقف فيصبح فريسة
المفترس ولقمة المزدرد !

عرفت أن الأمة المصرية أصبحت لا تدري ما
تريد ، ولا من ما يراد بها ، ولا تجد من يرد إليها
رشدها ، ولا يمد يده إليها ، ليأخذ بيدها في هذا
الظلام الحال ، والليل المدلهم .

كثير رؤساؤها ، وتعددت قادتها ، وتنوعت
مذاهبهم ، واختلقت طرقهم ، واستحكمت حلقات

في عامك المقبل من طلبتك ما أردت فذاك ، أو
لا فما فقدت إذ فقدت إلا ورقة كان كل ما تستفيد
منها أن تشتري بها قيداً لرجلك ، وغلاً لعنقك ، ثم
ترتبط في سجن من سجون الحكومة بجانب رئيس
من الرؤساء المدلّين بأنفسهم ، يسومك من الذل
والخسف ما لا يحتمله الأسراء في سجون الأسرى .

إن اعتدلك بهذه الورقة هذا الاعتداد ، وإكبارك
إياها هذا الإكبار ، دليل على أنك كنت تريد أن
تجعلها منتهى أملك وغاية همّك ، وأنت لا ترى
بعدها مزيداً من الكمال لمستزيد . فإن صدقت
فراستي فيك ، فاعلم أن الله قد خار لك في هذا
المصير وساق إليك من الخير ما لا تعرف السبيل إليه ،
إنه ما خيب رجاءك في هذا الكمال الموهوم إلا
لتطلب لنفسك كمالاً معلوماً ، وما صرف عنك هذه
الشهادة المكتوبة في صفحات الأوراق إلا لتسعى
 وراء الشهادة المكتوبة في صفحات القلوب .

إن كنت تبكي على الشرف فباب الشرف
مفتوح بين يديك ، لا شأن للحكومة فيه ولا حاجب
لها عليه ، وما هو إلا أن تجتهد في التزهد من العلم
والمعرفة واستكمال ما ينقصك من الفضائل النفسية ،
فإذا أنت شرفت في نفسك وفي نفوس الخاصة من
الناس ، وإذا أنت في منزلة يحسدك عليها كثير من
أرباب الشهادات والمناصب ، ولا حياءَ الله شرفاً يحيا
بورقة ويموت بأخرى ، ولا مجدك تأتي به قعدة
وتذهب به قومة . وإن كنت تبكي على العيش فقبي
أي كتاب من كتب الله المنزلة قرأت أن أرزاقه وقف
على الحاكمين ، وجبائس على المستخدمين ، وأنه
لا ينفق درهماً واحداً من خزائنه إلا إذا جاءته «حوالة»
بتوقيع أمير ، أو إشارة وزير !

أيها الطالب ، قل لأبيك وأخيك وأهلك
وأصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء : إن
الذي وهبني عقلي لم يسلبني ، وإن الذي صور لي
أعضائي لم يحل بيني وبين الذهب بها إلى ما
خلقت له ، وإن الذي خلقتني سوف يهديني فهو
الرزاق ذو القوة المتين .

* * *

(١) استسرت : غطي واستتر .

يعد ما أضعتم عليها غرضها من الاتحاد والائتلاف ، بل لا سبيل لها إلى بلوغ غرض من أغراضها إلا إذا كان الاتحاد قائدها إليه ، ودليلها عليه .

ليس هذا التنافر بين أفراد الأمة والتفرق بين جماعاتها حالة من الحالات الطبيعية التي لا بد منها ، ولا مناص عنها ، أو حادثة من الحوادث السماوية التي تختملها النفوس ، وتسكن إليها القلوب ، وتطرف عليها العيون إجلالاً للسماء ، ورضاء للقضاء ، وإتما هي صنعة أيديكم ، وجناية أفعالكم ، ولو أنكم تركتم هذه الأمة وشأنها ، وخليتم بينها وبين فطرتها ، ما كان يخطر لها ببال أن تتعادي وأن تتباغض ، ولا كان يوجد بين أفرادها من تحذته نفسه بمقاطعة أخيه في سبيل صحيفة من الصحف أو حزب من الأحزاب .

عجز الاختلاف الديني بين عنصرى الأمة المصرية عن أن يفرق بين أوصالها ، وأن يحل جامعتها ، وعجز الاختلاف الجنسي أن يؤثر في جامعتها تأثير أمثاله في أمثالها من الجوامع الأخرى ، فكان حرياً أن يعجز الاختلاف السياسي ، عما عجز عنه الاختلاف الديني والجنسي ، لولا أنكم كبرتم ما صغر من هذا الاختلاف وعظمت منه ما حقر ، وألحجتم عليه إلحاحاً شديداً حتى حولتموه إلى فتنة شعاء ، وغارة شعواء .

أنا لا أطلب منكم رحمة بهذه الأمة ولا شفقة عليها ، فإن قلوباً مثل قلوبكم التي تنطوي عليها جوانحك أقسى من أن ينفذ فيها سيف الضارب ، أو قلم الكاتب ، وإنما أريد أن أحدث الأمة المصرية بكلمة ، لا أريد منها أن تأخذها مني عفواً ولا أن تسلم بها قبل إنعام نظرها فيها ، وعرضها على عقلها ، فذلك ما لا أحبه لها ، بل ذلك ما أنقمه منها .

أيها المصريون ؛ إنني لأكتب إليكم كلمتي هذه وليس على وجه الأرض ، ولا تحت أديم السماء أمة أحب إلي منكم ، وحسبكم من ذلك الحب أنني أسمع بالكارثة تحل بكم ، والنازلة تنال منكم ، فيشغلني من أمركم ما لا يشغلني من أمر نفسي ،

البأس بينهم ، فلم يتفقوا في شأن من شؤون هذه الأمة على شيء إلا على وضع جبل متين في عنقها ، قد أخذ كل منهم بطرف من طرفيه يجذبه إليه جذبة المستقتل المستमित حتى نبح صوتها ، وضاق صدرها ، وتعلقت أنفاسها ، وجحظت مقلتها ، وجف ريقها ، وتحجر لسانها ، وهم ينظرون إليها نظرة المداعب اللاعب ، ولا أحسب أنهم تاركوها حتى يفرقوا بين الرأس والجسد فراقاً لا لقاء بينهما من بعده .

لو بُعث أرسطو واضع غلم المنطق من قبره ، وأراد أن يضع لهذه الأمة حداً تاماً جامعاً مانعاً ؛ لما استطاع إلا أن يضع لها هذا الحد «الأمة المصرية هي التي تصدق كل ما يقال» . ولقد عرف منها كل أولئك اللاعبين بها والعاثين بميولها وأهوائها هذا الخلق وتلك الطبيعة ، وكانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد ، فنقلوا من تلك الأذان اللينة إلى تلك القلوب الطيبة ، فما بلغوها حتى أخذوا يلعبون بها لعب الصبي بكرته ، ويتلقفونها واحداً بعد واحد ، فهي لا ترتفع حتى تتناولها الصوالجة ، ولا تستقر حتى تدفعها الأقدام . كل يزعم أنه صديقها ، وكل يزعم أنه يدلها على عدوها ، والله يعلم أنهم أعداؤها قبل الأعداء ، وخصومها أكثر من الخصماء ، وأن السماء بصواعقها ورجومها ، والأرض بزلزلها وبراكينها ، أعجز من أن تبلغ منها ما بلغوه ، أو تجني عليها ما جنوه ؛ فيأتيها الرؤساء والرعماء ؛ أي خير تطلبون لهذه الأمة بعد أن فرقتموها شيعاً ، وصيرتموها أحزاباً ، وقطعتم أوصالها و شائجها وألقيتم العداوة والبغضاء بين الرجل وولده ، والرجل وأخيه ، والجار وجاره ، والصديق وصديقه ، حتى ركب كل فرد من أفرادها رأسه ومضى لسبيله ، وحتى تناكرت الوجوه ، واستوحشت النفوس ، وأصبحت ساحة البلد كساحة الحرب ، لا ترى فيها إلا ناباً يقرع ناباً ، وعينا تنظر شزراً وصدراً يغلي حقدًا ، وقلبا يخفق خوفاً وحذراً .

كل غرض تزعمون أنكم تسعون إليه لإبلاغ هذه الأمة أمنيته من السعادة والهناء ، لا قيمة له

يأبى لها من أحواله وأطواره إلا ما يشاكل منزلتها عنده ، فتراه صغيراً في علمه ، صغيراً في أدبه ، صغيراً في مروءته وهمته ، صغيراً في ميوله وأهوائه ، صغيراً في جميع شؤونه وأعماله ، فإن عظمت نفسه عظم في جانبها كل ما كان صغيراً في جانب النفس الصغيرة .

ولقد سأل أحد الأئمة العظماء ولده وكان نجيباً : « أي غاية تطلب في حياتك يا بني » ، وأي رجل من عظماء الرجال تحب أن تكونه ؟ فأجابه : « أحب أن أكون مثلك » . فقال : « ويحك يا بني لقد صغرت نفسك ، وسقطت همتك ، فلتبكِ على عقلك البواكي ! لقد قدرتُ لنفسِي يا بني في مبدلٍ نشأني أن أكون كعلي بن أبي طالب ، فما زلت أجد وأكده حتى بلغت المنزلة التي تراها ، وبينِي وبين عليٍّ ما تعلم من الشَّأو البعيد والمدى المستحيل ، فهل يسرك وقد طلبتَ منزلتي أن يكون ما بينك وبينِي من المدى مثل ما بيني وبين عليٍّ ؟ »

كثيراً ما يخطئ الناس في التفريق بين التواضع وصغير النفس ، وبين الكبر وعلو الهمة ، فيحسبون التذلُّلَ المتعلقَ بالدنيء متواضعاً ، ويسمُّون الرجل إذا ترعَّع بنفسه عن الدنيا وعرفَ حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبِّراً ، وما التواضعُ إلا الأدب ، ولا الكِبَرُ إلا سوء الأدب ، فالرجل الذي يلقاك متبسِّماً مهللاً ، ويُقبل عليك بوجهه ويصغي إليك إذا حدثته ، ويَزورك مهتئاً ومعزِّياً ، ليس صغير النفس كما يظنون ، بل هو عظيمها ، لأنه وجد التواضع أليقَ بعظمة نفسه فتواضع ، والأدب أرفعَ لشأنه فتأدب .

فتى كان عذب الروح لا من عَضاضة

ولكن كبراً أن يقال به كبر
فإن بلغ الدُّلُّ بالرجل ذي الفضل أن ينكس رأسه للكبراء ويترامى على أيديهم وأقدامهم لثماً وتقبيلاً ، ويتبدل بمخالطة السُّوق والغوغاء بلا ضرورة ولا سبب ، ويكثر من شتم نفسه وتحقيرها ورميها بالجهل والغباوة ليكون متواضعاً ، ويُصيصُ برأسه

وتجود عيني في سبيلكم بما لا تجود بأكثر منه في أخرج مواقفها ، وأصعب مواطنها .

بهذا القلم الذي يستمدُّ مداده من هذا القلب المخلص إليكم ، أدعوكم إلى الاتحاد والائتلاف وأن تتابعوا بين يدي الله والوطن على الحبِّ والودِّ والصفاء والإخلاص ، وأن لا تجعلوا لهؤلاء المفسدين منفذاً ينفلون منه إلى قلوبكم ، فإن طاف بكم طائفٌ من شياطينهم فأعرضوا عنه وامضوا في سبيلكم ، واحذروا أن تكونوا سيِّئة^(١) لرئيس أو لعبة في يد زعيم ، وليكن كل منكم زعيم نفسه ، ومسترشد قلبه ، فنفسكم أرحم بكم ، وقلوبكم أصدق في نصيحتكم ، فإن فعلتم ذلك تجتوم من ذل الانقياد ، وسلكتُم سبيل الرشاد ، وأصبحتم وإذا أنتم أمة واحدة ترى رأيًا واحدًا وتحسُّ إحساسًا واحدًا .

واعلموا أن ما بينكم اليوم من الاختلاف في الرأي والاضطراب في المذهب إنما هو وهمٌ من الأوهام الكاذبة ، وخيال من الخيالات الباطلة ، ولو رجعتُم إلى أنفسكم وأصغيتُم إلى أصوات قلوبكم ، لتبين لكم أنه لا يوجد فرد من أفرادكم إلا وهو أحرص من أخيه على حب الوطن وإرادة الخير له .

سدَّد الله طريقكم ، وأثار لكم سبيلكم ، وأفاض عليكم من رحمته وإحسانه ما يفرِّجُ كُرْبَتكم ، ويكشف عُثْمَتكم ، والسلام .

* * *

النبرغ

من العجز أن يزدرى المرء نفسه فلا يقيم لها وزناً ، وأن ينظر إلى مَنْ هو فوقه من الناس نظر الحيوان الأعجم إلى الحيوان الناطق ، وعندِي أن من يخطئ في تقدير قيمته مستعليًا ، خيرٌ ممن يخطئ في تقديرها متدليًا ، فإنَّ الرجل إذا صغرت نفسه في عين نفسه

(١) السيِّئة : ما يساق من الدواب .

فإليك الكلمة الآتية :

العلمُ علمان ؛ علم محفوظ وعلم مفهوم ، أما العلم المحفوظ فيستوي صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم ، ولا فرق بين أن تسمع من الحافظ كلمة ، أو تقرأ في الكتاب صفحة ، فإن أشكل عليك شيء مما تسمع فانظر إن نطق الكتاب بشرح مشكلاته ، نطق الحافظ بتفسير كلماته .

الحافظ يحفظ ما يسمع لأنه قويُّ الذاكرة ، وقوة الذاكرة قدرٌ مشترك بين الذكيِّ والغبيِّ والناهب والأبله ، لأن الحافظة ملكة مستقلة بنفسها عن بقية الملكات . وإنك لترى الشيخ الفاني الذي لا يميز بين الطفولة والهم ، والذي ييكي على الحلوى بكاء الطفل عليها ، ويرتعد فرقا إذا سمع ابنته تخيف طفلها بأسماء الشياطين ، يسرد لك من تواريخ شبيبته وكهولته ما لو دوتته لكان تاريخاً صحيحاً ضخماً مملوءاً بالغرائب والنوادر . وقيل لأحد العلماء : « إن فلاناً حفظ متن البخاري . » فقال : « لقد زادت نسخة في البلد ! »

ذلك هو السرُّ العظيم في كثرة المتعلمين وقلة العاملين ، لأن من فهم معلوماً من المعلومات حقَّ الفهم أشرته روحه ، ونحاط لحمه ودمه ، ووصل من قلبه إلى سويدائه ، وكان إحدى غرائزه فلا يرى له بلداً من العمل به رضي أم أبى .

لولا أن العلم الدينيُّ اليوم علم محفوظ ، لما وجدت في العلماء من يجمع بين اعتقاد الوجدانية والتردد على أبواب الأحياء والأموات ، في مزاراتهم أو في مقابرهم ، يسألهم المعونة والمساعدة على قضاء الله وقدره ، ولا وجدت بين الذين يحفظون قوله تعالى « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا » من يسند النفع والضرب إلى كل من سال لعابه ، وتمزق إهابه ، ولا وجدت في الناس كثيراً من ضعفاء العزيمة الذين يحفظون ما ورد على ألسنة النبوة والحكمة ، من مدح الفضائل وذم الرذائل ، ثم لا تجد فرقا بينهم وبين العامة في ارتكاب المنكرات ، والنفور من الصالحات .

بصبصة الكلب بذنبه ليكون متأدباً ، ويجلس في مدارج الطرق جلسة البائس المتسول ، ويمشي مشية الخائف المبلس ، فاعلم أنه صغير النفس ساقط الهمة لا متواضع ولا متأدب .

إن علو الهمة إذا لم يخالطه كبر يُزري به ويدعو صاحبه إلى التنطع وسوء العشرة ؛ كان أحسن ذريعة يتذرع بها الإنسان إلى النبوغ في هذه الحياة ، وليس في الناس من هو أحرَج إلى علو الهمة من طالب العلم ، ولأن حاجة الأمة إلى نبوغه أكثر من حاجتها إلى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين ، وهل الصانعون والمحترفون إلا حسنة من حسناته ، وأثر من آثاره ، بل هو البحر الزاخر الذي تستقي منه الجداول والغدران .

فيا طالب العلم كن عالي الهمة ، ولا يكن نظرك في تاريخ عظماء الرجال نظراً يبعث في قلبك الرهبة والهيبة ، فتضاعل وتتصاغر كما يفعل الجبان المستطار حينما يسمع قصة من قصص الحروب ، أو خرافة من خرافات الجن ! وحذار أن يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك ، فتستسلم استسلام العاجز الضعيف وتقول من لي يسلم أصعد عليه إلى السماء حتى أصل إلى قبة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال .

يا طالب العلم ، أنت لا تحتاج - في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من قبلك - إلى خلق غير خلقتك ، وجو غير جوِّك ، وسماء وأرض غير سماءك وأرضك ، وعقل وأداة غير عقلك وأداتك ، ولكنك في حاجة إلى نفس عالية كنفوسهم ، وهمة عالية كهمهم ، وأمل أوسع من رقة الأرض وأرحب من صدر الحليم ، ولا يقعدن بك عن ذلك ما يهمس به حاسدوك في خلواتهم من وصفك بالوقاحة أو بالسماجة ، فنعم الخلق هي إن كانت السبيل إلى بلوغ الغاية ، فامض على وجهك ودعهم في غيهم يعمهون .

جناحان عظيمان يطير بهما المتعلم إلى سماء المجد والشرف ، علو الهمة ، والفهم في العلم ، أما علو الهمة فقد عرفته ، وأما الفهم في العلم

جوهرة ، والمحترف لا يهتم من حرفته إلا لقمة الخبز وجرة الماء ، أحسن أم أسماء .

لا يزور العلم قلباً مشغولاً بتربُّب المناصب ، وحساب الرواتب ، وسوق الآمال وراء الأموال ، كما لا يزور قلباً مقسماً بين تصفيف الطرة ، وصقل الغرة ، وحسن القوام ، وجمال الهندام ، وطول الهيام بالكأسين ؛ كأس المدام ، وكأس الغرام .

* * *

البائسات

زرت منذ أيام حاكم بلدة في منزله ، فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليه تشكو ألماً في عنقها ، وجرحاً في ذراعها ، وهماً في نفسها ، وتدير في الحاضرين عيوناً حائرة مضطربة كأنما رُكبت على زئبق رجراج . فسألتُ : « ما شأنها ؟ » فعلمت أن أهلها زوجها وهي في هذه السن وعلى هذه السذاجة من رجل وحشي الخلق والخلق ، ثم زفوها إليه فحاول أن يفتريشها وهي على حالة لا تستطيع معها أن تلم بفراش ، فامتعت عليه ، فأراد اغتصابها فعجز ، فضربها هذا الضرب الذي رأينا آثاره في جسمها ، فقرت منه إلى منزل أهلها فنقموا منها هذا الإباء الذي سموه بِلادة أو غفلة ، وأعادوها إلى منزل زوجها كما يعاد المجرم الفار من السجن إلى سجنه مرة أخرى . وهنالك عاد زوجها إلى عاداته معها فعادت هي إلى فراها ، فعاد أهلها إلى قسوتهم وجبروتهم ، فلما أعيها الأمر خرجت إلى الطريق العامة هائمة على وجهها لا تعرف لها مذهباً ولا مستقراً ، حتى رُفِعَ إلى ذلك الحاكم شأنها بعد أيام ، فأولاهها إلى منزله ليخلصها من ذلك الموقف الذي كانت فيه بين ذراعي وجهه الأسد . وما فرغ من هذه القصة حتى رُفِعَتْ إليه حادثة أخرى تشبه الحادثة الأولى من جميع وجوها ، إلا أن

لو كان العلم المحفوظ علماً ، وهو على ما نشاهد ونعلم من سوء الأثر وقلة الجدوى ، ما ورد مدح العلم في كتاب ولا سنة ، ولا قدسه كاتب أو ترنم بمدحه شاعر ، فإذا سمعت ذكر العلم ، فاعلم أنه العلم المفهوم لا المحفوظ ، وإذا أردت أن تلقب بالعالم فلا تلقب به من يحفظ بل من يفهم ما يحفظ ، وآية فهم المعلوم تأثر العالم به وظهوره في حركاته وسكناته ، وترقرقه في شمائله ترقق الصهباء في وجه شاربها ، ولا تثق بالحافظ فيما ينقل إليك فربما مرّ بالمعلوم مُحرفاً فأخذه على علاته ، وأُفِيحَ ما عرفنا من أطواره أنه يجمع في حافظته بين النقيض ونقيضه ، والغث والثمين ، والجيد والزائف ، فكأن ذاكرته حانوت عطار اختلطت فيها الأدوية الشافية بالعقاقير السامة .

وجملة الأمر أن الحافظ البحث لا رأي له في مبحث فيسأل عن مذهب ، ولا أثر لمعلوماته في نفسه فيقتدى به ، ولا ذوق له في الفهم فيعتمد على شرحه وتأويله .

أما العلم المفهوم فهو الوسطة التي إذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمة طار إلى المجده بجناحين ، وكان له سبيلٌ مختصر إلى منزلة العظماء ودرجة النابغين . والعلم سلسلة طويلة طرفاها في يدي آدم أبي البشر وإسرافيل صاحب الصور^(١) ، ومسائله حلقات يصنع كل نابغة من نوابغ العلماء منها حلقة ، ولن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلا إذا وضع في العلم الذي مارسه مسألة ، أو كشف حقيقة ، أو أصلح هفوة ، أو اخترع طريقة . ولن يسلس له ذلك إلا إذا كان علمه مفهوماً لا محفوظاً ، ولا يكون مفهوماً إلا إذا أخلص المتعلم إليه ، وتعبد له ، وأنس به أنس العاشق بمعشوقه ، ولم ينظر إليه نظر التاجر لسبعته ، والمحترف إلى حرفته ، فالتاجر يجمع من السلع ما ينفق سوقه ، لا ما يخلو

(١) المراد أن العلوم لا يتم تدوينها ولا تنحصر مسائلها ما دامت العقول تفكر ، فالعمل دائم فيها من ابتداء الدنيا إلى انتهائها .

بكى ، ما يجعل أخلاقها فضاء مملوءاً بالكذب والكيد ، والخبث والرياء . وهي على ذلك تنتظر من فم زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق ، كما ينتظر القاتل من فم قاضيه كلمة الإعدام .

ليست كلمة الإعدام من قبيل الاستعمال المجازي ، فما أنسى لا أنسى ليلة زوت فيها صديقاً لي فرأيت عند باب منزله امرأة بائسة ، ليس وراءها من الهمة غاية ، وكأنما هي الخلال رقة وذبولاً ، ووراءها صبيبة ثلاثة يدورون حولها ، ويجاذبون طرف رداًتها فتسبل فضل مئزورها على مآقيها المقرحة رافة بهم أن يلموا ببعض شأنها فيكوا لبكائها ؛ فسألته عن شأنها فأخبرتني أنها مطلقة من زوجها وأن بيدها حكماً من المحكمة الشرعية بالنفقة لأولادها ، وقد مر عليها زمن طويل و«الإدارة» تماطلها في إنفاذه . فجاءت إلى هذا الصديق تستعين به على أمرها ، ثم أخذت تشرح من حالها وحال أطفالها في مقاساة الشدة ، ومعالجة القوت ، ما أسأل شؤوننا ، وصعد زفراتنا ، وأمسكتنا له أكبادنا خشية أن تصدحنا .

فخففت أنا وصديقي شيئاً من آلامها فانصرفت . وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمى دماغية ، فسألنا عنها فلمنا أنها صاحبتنا بالأمس وأنها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة .

أيها الرجل ؛ إن كنت تعتقد أن المرأة إنسان مثلك وهبها الله مدارك مثل مداركك ، واستعداداً مثل استعدادك ، فعلمها كيف تأكل لقمتها من حرفة غير هذه الحرفة النكدية ، وإلا فأحسن إليها وارحمها كما ترحم كلبك وشاتك .

إن كنت زوجاً فلا تطردّها من منزلك بعد أن تقضي مأربك منها ، كما تصنع بنعلك التي تلبسها ، وإن كنت أباً فهذه فلذة كبدك فلا تضقّ بها ذرعاً ، ولا تلق بها في حجر وحش ضارٍ يأكل لحمها ، ويمتصّ دمها ، ثم يلقي إليك بعظامها .

ويا أيها المحسنون ؛ واللّه لا أعرف لكم باباً في الإحسان تفقدون منه إلى عفو الله ورحمته أوسع من باب الإحسان إلى المرأة .

الزوج في هذه المرة خدع زوجته عن نفسها ومقاها مخدراً ففقرها كما عقر شقيّ ثمود ناقة من قبل .

إن المرأة المصرية شقية بائسة ولا سبب لشقاها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها .

إنها لا تحسن عملاً ، ولا تعرف باب مرتزق ، ولا تجد بين يديها سيلة تتجر بها وتقتات منها إلا قلب الرجل ، فإن استطاعت أن تمتلكه عاشت عيشاً رغداً ، أو لا فلا مفر لها من الشقاء من المهد إلى اللحد .

و دون امتلاكها هذا القلب القاسي المتحجر أهوال عظام ، وعقبات لو كلف الرجل على ما به من قوة وأيدٍ وسعة حيلة أن يجتاز عقبة واحدة منها لسقط بين اليأس والاستسلام .

متى بلغت الفتاة سن الزواج ، سواء أكان ذلك على تقدير الطبيعة أو تقدير أولئك الجهلاء ، أولياء أمر تينك الفتاتين ، استقل أهلها ظلها ورموا بها وحاسبوها على المضغة والجرعة ، والقزومة والقعدة ، ورأوا أنها عالة عليهم ، وأن لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئاً ، وودوا لو طلع عليهم وجه الخاطب يحمل في جبينه آية البشري بالخلاص منها .

وإن قوماً هذا مبلغ عقولهم من الفهم وقلوبهم من القسوة ، وهذه منزلة فلذات أكبادهم من نفوسهم ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يفاوضوها في اختيار الزوج أو يحسنوا الاختيار لها .

إذا دخلت هذا المنزل الجديد الذي لا تعرفه ولا تعرف شأناً من شؤون صاحبه ، دخلت في دور الجهاد العظيم بينها وبين قلب الرجل .

فإن كانت ذات جمال أو مال ، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطلق ، وإلا فهي تقاسي كل صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب ، والجمال المصنوع ، آلاماً جثمانية تُطفئ نور شبيبته ، وتذبل زهرة حياتها ، وتلاقي في سبيل مصابغة الزوج ومداراته ، والبكاء في موضع الابتسام إن ابتسم ، والابتسام في موضع البكاء إن

دلالة واضحة لا تشبه وجوهها ، ولا تشعب مسالكها .

ليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس ، وتصويره في نظر القارئ أو مسمع السامع تصويراً صحيحاً ، لا يتجاوز ولا يقصر عنه ، فإن عُلِّقَ به آفة من تينك الآفئف فهو العي والحصر .

جهل البيان قوم فظنوا أنه الامتكتار من غريب اللغة ونادر الأساليب ، فأغصوا بها صدور كتاباتهم وحشوها في حلوقها حشواً يقبض أوداجها ويحبس أنفاسها ، فإذا قُدر لك أن تقرأها وكنت ممن وهبهم الله صدرًا رحبًا ، وفؤادًا جلدًا ، وجنانًا يحمل ما حُمِّلَ عليه من آفات الدهر ورزايه ، قرأت متنا مشوشًا من متون اللغة ، أو كتابًا مضطربًا من كتب المترادفات .

وجهله آخرون فظنوا أنه الهذر في القول والتبسُّط في الحديث ، واقعًا ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع ، فلا يزالون يجثرون بالكلمة اجترار الناقه يجثرتها ، ويتمطقون بها تمطق الشفاه بريقتها ، حتى تسف وتبذل ، وحتى ما تكاد تسغيها الطلوق ، ولا تطرف عليها العيون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

يُخيل إلي أن الكتاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس ، وأن كتابتهم أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج في نفس الإنسان حينما يخلو بنفسه ، ويأنس بوحده ، فإني لا أكاد أرى بينهم من يضع فمه على أذن السامع وضعا محكما ، وينفث في روعه ما يريد أن ينفث من خواطر قلبه ، وهو اجس نفسه .

البيان صلة بين متكلم يفهم ، وسامع يفهم ، فبمقدار تلك الصلة من القوة والضعف تكون منزلة الكاتب من الرفعة والسقوط ، فإن أردت أن تكون كاتبًا فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك ، واحرص الحرص كله على أن لا يخدعك عنها خادع فتسقط مع الساقطين .

ما أصيبَ البيان العربي بما أصيبَ به إلا من

افتتحوا لها المكاتب ، وابنوا لها المدارس ، وعلموها من العلم ما يرفع همتها ، ويرقي آدابها ، ومن الصناعة ما يناسب قوتها ، وما يشبع جوعتها ، إن نبأ بها دهر ، أو تجهّم لها حظ .

علموها لتجعلوا منها مدرسة يتعلم فيها أولادكم قبل المدرسة ، وأدبوها ليتربى في حجرها المستقبل العظيم ، للوطن الكريم .

* * *

البيان

قال لي أحد الرؤساء ذات يوم : « إني لثائني أحيانًا رِقاع الاستعطاف ، فأكاد أهملها لما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة ، لولا أن الله تعالى يلهمني نيات كاتبها وأين يذهبون ، ولولا ذلك لكنت من الظالمين » .

ذلك ما يراه القارئ في كثير من المخطوطات التي يخطها اليوم كاتبوها في الصحف ورقاع الشكوى والكتب الخاصة والمؤلفات العامة .

هزل في موضع الجذ ، وجذ في موضع الهزل ، وإسهاب في مكان الإيجاز ، وإيجاز في مكان الإسهاب ، وجهل بفرق ما بين العتاب والتأنيب ، والانتقام والتأديب ، والاستعطاف والاستخفاف ، وقصور عن إدراك منازل الخطاب ومواقفه بين السوقة والأمراء ، والعلماء والجهلاء ، حتى إن الكاتب ليقيم في الشوكة يشاكنها ، مناحة لا يقيمها في الفاجعة فيجمع بها ، ويكتب في الحوادث الصغار ، ما يعجز عن كتابة مثله في الحوادث الكبار ، ويخطب صديقه بما يخطب به عدوه ، ويناجي أجيره بمثل ما يناجي به أميره .

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متفرقة ، واختلّفوا في شأنه اختلافًا كثيرًا ، ولا أدري علام يختلفون ، وأين يذهبون ! وهذا لفظه دال على معناه

وسائلها وآلاتها . وعندني أن لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان ، فكما أن طالب الأخلاق لا يستفيدا إلا من أستاذ كملت أخلاقه ، وحسنت آدابه ، كذلك طالب البيان لا يستفيدة إلا من أستاذ مُمِين .

ولا يُقَدَّرُ في رُوع القارئ أنني أحاول استلاب فضل الفاضلين ، أو أنني أنكر على فصحاء هذه اللغة ما وهبهم الله من نعمة البيان ، فما هذا أردت ، ولا إليه ذهبت . وإنما أقول إن عشرة من الكتاب المجيدين ، وخمسة من الشعراء البارعين ، قليل في بلد يقولون عنه إنه بلد اللغة العربية اليوم ومرعاها الخصب .

وبعد ، فإنني لا أرى لك يا طالب البيان العربي سبيلاً إليه إلا مزاولة المنشئات العربية منشورها ومنظومها ، والوقوف بها وقوف المثبت المتفهم لا وقوف المتنزه المتفرج ، فإن رأيت أنك قد شغفت بها ، وكلفت بمعاودتها والاختلاف إليها ، وأن قد لَدَّ لك منها ما يَلْدُ للعاشق من زُورِ الطيف في غرة الظلام ، فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب ؛ فامض لشأنك ولا تلو على شيء مما وراءك حتى تبلغ من طلبتك ما تريد .

ولا تخذلتك نفسك أنني أحملك على مطالعة المنشئات العربية لأسلوب تسترقه ، أو تركيب تخلصه ، فإنني لا أحب أن تكون سارقاً ولا مختلساً . على أنك إن ذهبت إلى ما ظننت أنني أذهب إليه في نصيحتك لم يكن دركك دركاً ، ولا بيانك بياناً ، وكان كل ما أفدته من ذلك أن تُخرج للناس من البيان صورة مشوهة لا تناسب بين أجزائها ، وبُردة مرقعة لا تشابه بين ألوانها . وإنما أريد أن تحصل نفسك ملكة في البيان راسخة ، تصدر عنها آثارها بصورة واحدة ؛ حتى لا يكون شأنك شأن أولئك الذين قد عِلقت ذاكرتهم بطائفة من منشور العرب ومنظومها ؛ فقنعوا بها وظنوا أنهم قد بلغوا من اللغة ما أرادوا . فإذا جدَّ الجدُّ وأرادوا أنفسهم على الإفصاح عن شيء من خلجات نفوسهم رجعوا إلى تلك المحفوظات ونبشوا دفائنهم ، فإن وجدوا بينها

ناحية الجهل بأساليب اللغة العربية . ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً عربياً ، قبل أن يطلع على أساليب العرب في أوصافهم ونعوتهم ، ومدحهم وهجوهم ، ومحاوراتهم ومساجلاتهم ، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعاتبون ويؤنبون ، ويعطون وينصحون ، ويتغزلون وينسبون ، ويستعطفون ويسترحمون ! وبأي لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمداداً يملأ ما بين جوانحه ، حتى يتدفق مع المداد من أنبوب يراعه على صفحات قسطاسه .

إنني لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع والصاحب والصابي والهمداني والخوارزمي وأمثالهم من كتاب العربية الأولى ، ثم أقرأ ما خطه هؤلاء الكتّابون في هذه الصحف والأسفار فأشعر بما يشعُر به المتنقل دفعة واحدة من غرفة محكمة نوافذها ، مسيلة ستورها ، إلى جو يسيل قرأً وصراً ، و يترقرق ثلجاً وبرداً .

ذلك لأنني أقرأ لغة لا هي بالعربية فأغبط بها ، ولا هي بالعامية فأفككه بهيئانها ومجونها .

رأيت أكثر الكتّابين في هذا العصر بين رجلين ، رجل يستمد روح كتابته من مطالعة الصحف ، وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة والروايات المترجمة ، وربما كان كتاب تلك المخطوطات أحوج من قارئها إلى الاستمداد ، فإذا علقَتْ بنفسه تلك الملكة الصحفية ؛ ألقى بها في رُوع قارئ كتابته أدون مما أخذها فينلّي به أخذها كذلك إلى غيره أسمع صورة وأكثر تشويهاً ، وهكذا حتى لا يبقى فيها من روح العربية إلا كما يبقى من الأطلال البالية بعد كَرّ الغداة ومَرّ العشي . وطالب قُصاري ما يأخذه عن أستاذه نحو اللغة وصرفها وبديعها وبيانها ورسمها وملاؤها ومفرداتها ومتونها وموتلفاتها ومخلفاتها وغير ذلك من آلاتها وأدواتها ، أما روحها وجوهرها فأكثر أستاذة البيان في المدارس علماء غير أدباء ، وحاجة طالب اللغة إلى أستاذ يُفيض عليه روح اللغة ويوحى له بسرّها ، ويُفضي إليه بلبّها وجوهرها ، أكثر من حاجته إلى أستاذ يعلمه

وَتَقَطَّعَ دونها أعناق الرجال ، فالجأ في ذلك إلى فطاحل الأدباء الذين تعرف ويعرف الناس منهم ذوقاً سليماً ، وقرينة صافية ، وملكة في الأدب ، كأنها مصفاة الذهب . فإن فعلت وكنت ممن وهبهم الله ذكاءً وفطنة وقرينة خصبة لينة صالحة لنماء ما يلقي فيها من البذور الطيبة ، عدت وبين جنبيك ملكة في البيان زاهرة ، يتناثر منها منشور الأدب ومنظومه تنائر الورود والأنوار ، من حديقة الأزهار .

* * *

السيرة

لو كُشف للإنسان عن سيرة الإنسان لرأى منها ما يرى من غرائب هذا الكون وعجائبه ، أعمى أدر كته رحمة الله بعد طول محنته فارتد بصيراً .

تراءى لك السيرة في ظاهرها كأنها أديم السماء ، أو صفحة الماء ، فإن بدا لك أن تكتنه باطنها فلأنك غير بالغ من ذلك مأربك ، إلا إذا استطعت أن تخترق السماء فترى ما وراءها من بدائع الكائنات ، وتغوص في أعماق الماء فتشاهد ما في باطنه من عجائب المخلوقات .

يعجز المرء عن رؤية الهباء^(٢) فيترى ريشاً تمجُّ الشمس لعابها من نافذة غرفته ؛ فإذا هو مائج وضياء يروح ويغدو رواح السانحات ، وغدو البارحات . ويعجز عن رؤية الجراثيم فيستعين عليها بمنظار يصورها في نظره تصويراً ، يخيل إليه أنه يكاد يلمسها بيمينه . ويعجز عن اكتناه السيرة فلا يجد إلى الوصول إليها سبيلاً .

وقف آدم أمام باب السيرة يوم الشجرة يعالج فتحه ، فاستعصى عليه ، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فعجزوا عجزه ، فلج بهم الشوق إليها لجأجاً طار بعقولهم ، وذهب بألبابهم ، فتراموا على أقدام

(٢) الهباء : الثبار الذي لا يظهر إلا في ضوء الشمس .

ما يدلُّ على المعنى الذي يريدونه انتزعوه من مكانه انتزاعاً ، وحشروه في كتابتهم حشراً ، وإلا فإما أن يتبدلوا باستعمال التراكيب الساقطة المشنوعة ، أو يهجروا تلك المعاني إلى أخرى غيرها لا علاقة بينها وبين سابقاتها ولحاقاتها ، فهم لا بد لهم من إحدى السوأتين ، إما فساد المعاني واضطرابها ، أو هجنة التراكيب وبشاعتها .

فاحذر أن تكون واحداً منهم أو أن تصدق ما يقولونه في تلمس العذر لأنفسهم ، من أن اللغة العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة ، وأنهم ما لجحوا إلى التبذل في التراكيب إلا لاستحالة الترفع فيها . فاللغة العربية أرحب صدرًا من أن تضيق بهذه المعاني العامة المطروقة بعد ما وسعت من دقائق العلوم ما لا قيلَ لغيرها باحتماله ، وقد رت من هواجس الصدور وأحاديث النفوس وسرائر القلوب على الذي عيَّت به اللغات القادرات .

وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها ، وإنما الشأن في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في أرجائها ، والتغفل في أثنائها ، واقتناعهم من بحرها بهذه البلية التي لا تثلج صدرًا ، ولا تشفي أواماً^(١) .

وكل ما يُعدُّ عليها من الذنوب أنها لا تشتمل على أعلام لهذه الهنات المستحدثة ، وهو في مذهبي أقل الذنوب جرماً ، وأضعفها شأنًا ، ما دمنا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه ، أو التعريب والوضع إن عجزنا عن الاشتقاق ، فالأمر أهون من أن نحار فيه ، وأصغر من أن نقضي أعمارنا في الوقوف ببابه ، والأخذ والرد في شأنه ، والمساجلة والمناظرة في اختيار أقرب الطرق إليه ، وأجداها عليه .

واعلم أنه لا بد لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشآت العربية فليس كلُّ متقدم ينفعك ، ولا كلُّ متأخر يضرك . ولا أحسبك إلا واقفاً بين يدي هذا الأمر موقف الحيرة والاضطراب ، لأن حسن الاختيار طليعة تتعثر بين يديها الآمال ،

(١) الأولام : حرارة العطش ، والثوار .

والأحلام النفسانية ، ويملاؤون قلوبهم بالمخاوف والمزعجات ليبيعوهم الأمن والسلامة بثمن غال ؛ لضعفت أصوات النواقيس ، وقصرت قامات المناثر ، ولهلك أرباب الطيالس والقلائس جوعاً وسغباً ، ولأصبحت حبات السبح أكسد في سوق الأديان من بحر التوق في سوق الأنعام . ولو علم الابن أن أباه يجه لما يرجوه من منفعة في شيخوخته ، وأنه لا يُعجب إلا بنفسه في إعجابه به وثناؤه عليه ، ولا يفخر إلا بقوة عقله وحسن تديره في فخره بذكائه ونبوغه ، لضعفت صلة الوُد بينه وبينه ، ولما كانت بين حلقات الأنساب هذه الوشائج وتلك الأواصر . ولو علمت الزوجة أن زوجها يحب منها جسمها أكثر مما يحب نفسها ، وأنه يترى بها الدوائر ويعدّ ليومها الساعات والأيام ، لما وثقت بوّده ، ولا اطمأنت لعهد ، ولما كان للمنازل سقوف تُظلّ الأسيرة والمهاد .

* * *

زيد وعمرو

أراد داود باشا أحد الوزراء السالفين في الدولة العثمانية أن يتعلم اللغة العربية ، فأحضر أحد علمائها وأنشأ يتلقّى عليه دروسها عهداً طويلاً ، فكانت نتيجة علمه ما ستره :

سأل شيخه يوماً : « ما الذي جناه عمرو من الذنوب حتى استحق أن يضربه زيد كل يوم ويقتله تقتيلاً ، ويرجّح به هذا التبريح المؤلم ؟ وهل بلغ عمرو من الدلّ والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه ، وضرب ضاربه ضربة تقضي عليه القضاء الأخير ١٢ »

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرّق غيظاً وحنقاً ويضرب الأرض بقدميه ، فأجابه الشيخ : « ليس هناك ضارب ولا مضروب ، وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة

المنجّمين والعرافين لثماً وتقبيلاً ، وابتدروا النصب والتمائيل ركوعاً وسجوداً ، وهاموا بزاجرات الطير والضوارب بالحصى هيام الإبل العطاش بمنازل الماء ، يطلبون ما وراء السريّة ، والسريّة كنز مرصود لا تجمع فيه النفثات ، ولا تجدي معه العزائم والرقي .

إنك لترى الرجل يتلألاً جبينه تلالؤ الكوكب في جنح ليل مُبرد ، ويفترّ ثغره عن الأنوار ، افترار الأكمام عن الأزهار ، فتحسده على نعمته وسعاده ، وتتمنى أن لو منحك الله ما منحه من هناء ورغد ، وإنّ بين جبينه لو تعلم هماً يعتلج ، وقلباً يدب فيه اليأس ديب الآجال في الأعمار ، وكبدًا مقروحة لو عرضها في سوق الهوموم والأحزان ، ما وجد من يبتاعها منه بأبخس الأثمان .

وإنك لترى الصديق فيعجبك منه حديثه السُلو وثغره المبتسم ، ويروقك من وده كلفه بك ، وإعظامه لك ، وإعجابه بشمائلك ومحاسنك ، وتشيعه لأرائك ومذاهبك ، ولو كُشف لك من نفسه ما كشف له منها ؛ لوددت أن لو استطعت أن تبتاع أقدام السليك^(١) بجميع ما تملك يمينك ، فقررت من وجهه فرارك من وجه الأسود السالخ^(٢) ووددت بجدع الأنف أن لا يصفاح وجهك وجهه من بعدها حتى في جنة النعيم !

لولا ما أسدلّ الله دون السرائر من الحُجب لبُذلت الأرض غير الأرض ، وكان للكون نظام غير هذا النظام ، وللتاريخ صفحات غير هذه الصفحات .

لو علم الجند أنهم لا يحاربون إلا ليضعوا «نشاناً» في صدر القائد أو جوهرة في تاج الملك ، وأنهم كثيراً ما يكونون مخدوعين في وقائعهم ومواقفهم بأشراك الوطنية وحبائل الدين ، لما دالت الدول ولا انتقلت التيجان ، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان . ولو علم جهلة المتدينين أن رؤساء الأديان كثيراً ما يشترتون عقولهم وأموالهم بالقليل التافه من هذه المدهشات الدينية ،

(١) السليك : رجل معروف بسرعة العدو في العرب .

(٢) ذكّر الحيات .

لا ينال المتعلم حظّه من العلم إلا إذا استطاع تطبيقه على العمل ، والانتفاع به في مواضعه ومواطنه التي وضع لأجلها ، ولن يستطيع ذلك إلا إذا استكثر له معلّمه من الأمثلة والشواهد الملائمة لقواعد ذلك العلم ، وافقن له في إيرادها افتناناً يقرب إلى ذهنه تلك الصلة بين العلم والعمل ، ويسهل له الوصول إلى القدرة على تلك المطابقة . وإن أكثر المتعلمين في مدرسة الأزهر أبعد الناس عن القدرة على المطابقة ، لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم ، فلو أنك أردت أحدهم على أن يخرج في المنطق عن الحيوانية والناطقة ، وفي النحو عن ضرب زيد عمراً وقتل خالد بكرًا ، وفي البيان عن تشبيه زيد بالبدر واستعارة الأظافر للمنية ، وفي الصرف عن فعلل وافعول ، لوجدت في نفسه من الجهد والمنشقة وفي لسانه من العي والحصر ما يحزنك على أعوام طوال قضائها بين المحابر والدفاتر ، ثم لم يحصل من بعدها على طائل .

علام يتعلم الطالب النحو والصرف إن عجز عن أن يقرأ صحيحاً في كل كتاب وكل صحيفة ؟
وعلام يتعلم علوم البلاغة إن عجز عن معرفة أسرار الكلام وأوجه بلاغته ، وفهم المراد من مختلفات أساليبه ، وعن البيان بياناً فصيحاً يضمّنه ما يشاء من أغراضه ومقاصده ؟
وعلام يتعلم المنطق إن عجز عن التمييز بين فاسد القضايا وصحيحها في كل مناحيه ومذاهبه ، وإن لم يكن الموضوع الإنسان ، ولا المحمول الحيوان الناطق ؟

عجيب جداً أن يفهم الصانع الأمي أن العلم للعمل ؛ فلا يتعلم التجارة إلا ليصنع الأبواب والصناديق ، والحدادة إلا ليصنع الأقفال والمفاتيح ، وأن يجهل المتعلم هذه القضية الضرورية ، فلا يهيمه من العلم إلا الاستكثار من المعلومات والقواعد وإن عجز بعد ذلك عن التصرف فيها ، والانتفاع بها في مواطنها .

لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين . فلم يعجبه هذا الجواب ، وأكبر أن يعجز مثل هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية ، فغضب عليه وأمر بسجنه . ثم أرسل إلى نحوي آخر ، فسأله كما سأل الأول ، فأجابته بنحو جوابه فسجنه كذلك . ثم ما زال يأتي بهم واحداً بعد واحد حتى امتلأت السجون وأقفرّت المدارس ، وأصبحت هذه القضية المشؤومة الشغل الشاغل له عن جميع قضايا الدولة ومصالحها . ثم بدا له أن يستوفد علماء بغداد ، فأمر بإحضارهم فحضروا وقد علموا قبل الوصول إليه ماذا يُراد بهم ، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والخلق والبصيرة بموارد الأمور ومصادرها . فلما اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه ، فأجابته الرئيس : « إن الجنابة التي جناها عمرو يا مولاي يستحق أن ينال لأجلها من العقوبة أكثر مما نال . » فانبسطت نفسه قليلاً وبرقت أسارير وجهه وأقبل على محدّثه يسأله : « ما هي جنابته ؟ » فقال له : « إنه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو فسلط النحويون عليه زيداً يضربه كل يوم ، جزاء وقاحته وفضوله . » (يشير إلى زيادة واو عمرو وإسقاط الواو الثانية من داود في الرسم) ؛ فأعجب الوزير بهذا الجواب كل الإعجاب ، وقال لرئيس العلماء : « أنت أعلم من أقلته القبراء ، وأظلت الخضر ، فاقترح عليّ ما تشاء . » فلم يقترح عليه سوى إطلاق سبيل العلماء المسجونين ، فأمر بإطلاقهم وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلوات .

أحسن داود باشا في الأولى وأساء في الأخرى ، ولو كنت مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى أخذ عليهم عهداً وثيقاً أن يتركوا هذه الأمثلة البالية إلى أمثلة جديدة مستطرفة تؤنس نفوس المتعلمين ، وتذهب بوحشتهم ، وتحول بينهم وبين التفور من منظر هذه الحوادث اللعوية بين زيد وعمر ، و خالد و بكر .

فما هو إلا أن قضوا لِبَاتَتَهُم من الكلام المملول والحديث المعاد حتى قاموا يطيطرون مع الآمال ، وراء الأموال ، فأشرت إلى أبي الشمقمق أن يتخلف ففعل ، فسألته : « ما لك لم تشترك معنا فيما كنا فيه ؟ » فأجاب : « إني أكره الفضول في الحديث وقد فرّق المقدار بيني وبينكم في المال ، فلا أشارك معكم في المقال . » فقلت : « ألا يسجك يا أبا الشمقمق حديث النهضة الحديثة التي نهضتها الأمة المصرية في العهد الأخير ؟ وأنت فرد من أفرادها ، وجزء من أجزاء جسمها ، فنهوضها نهوضك وسقوطها سقوطك ، والأمة كما تعلم هي الفرد المكرر والواحد الدائر ، فأنت الأمة والأمة أنت . » فقال : « والله لا أدري هل تكلمني بلسان الصوفية ولست بصوفي ، أم بلغة الفلاسفة ولا أفهم للفلسفة معنى ؟ وكأنك تقصديني بالفرد المكرر والواحد الدائر . فإن كنت تريد أني فرد مكرّر كثير الأشباه والأمثال في العوز والفاقة ، و واحد لا سند لي ولا عضد ، ودائر في مدارج الطرق ومعارب السبل ، فقد أصبت وأحسن ، وإن كنت تريد معنى غير ذلك ، فأنا لا أفهم إلا كذلك ، فهل لك أن تعفيني من هذه المعميات ، وتزّن كلامك على قدر عقلي ، وتحدّثني فيما يتناوله سمعي وبصري ؟ » فقلت : « أنا لم أخرج بك عن المألوف المعروف ، ولا أريد إلا أن الأمة ليست في الخارج شيئاً غير أفرادها ، فإذا سعدت أو شقيت فالسعداء والأشقياء أبنائها ، وحسبك أن ترى تقدّم الأمة المصرية في ثروتها وعمرانها وبلذخها وترفها ، وكثرة ناطقها وصامتها ، فتسعد بسعادتها وتسرّ بسرورها . » فقال : « إن لم تبين لي سهمي من هذه السعادة ، ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدق سعادة ولا أتصور ارتقاء . وما دمت أرى أن لي هوية مستقلة عن هوية سواي من السعداء ، ويدك تقصّر عما يتناولونه ، ويطنأ لا يمتلئ بما يمتلئ به بطونهم ، وما دمت لا أرى واحداً بينهم يلبس معي ردائي الممزق ، وقميصي الممزق ، ويقاسمني همّي ، ويشاطرني فقري ، فهيهات أن أسعد بسعادتهم ، وأسرّ بسرورهم ! وهيهات أن أفهم معنى قولك أنت

ما دامت مدرسة الأزهر على هذه الحال من أسلوب التعليم العقيم ، فليس بمقدور لها في مستقبل الأيام أن يتبع منها العلماء الذين تستطيع أن تنتفع بهم الأمة انتفاع أمثالها بأمثالهم في مشارق الأرض ومغاربها ، فويل للعلم من العلماء !

* * *

أبو الشمقمق (١)

إن كثيراً من الفقراء لم تمتد يد الفقر إلى رؤوسهم ، كما امتدت إلى جيوبهم ، فهم يدركون كما يدرك الأغنياء ، ويفهمون كما يفهمون ، وكما أن في أغنياء الجيوب فقراء الرؤوس ، كذلك في فقراء الجيوب أغنياء الرؤوس .

ولقد جلست في منزلي صبيحة يوم مع قوم من الماديين المستهترين ، الذين ملأ المال فراغ أذهانهم حتى أنساهم كل شيء ، وأنساهم أنفسهم قبل ذلك ، فأخذوا يتجادبون أسلاك الحديث الذهبية ، ما بين تاجر يُعجب بصفقته الراحية ، وزارع يفخر بقلّة ما أعطى وكثرة ما أخذ ، وآخر يعلل نفسه بكثرة الغلات وارتفاع الأسعار ، والكل متفقون على أن السعادة التي أظلمتهم أجنحتها في هذا العهد الأخير - عهد العدل عهد الحرية والمساواة عهد الترقّي والعُمران ، هي أشبه شيء بسعادة المتقين في جنات النعيم .

كل هذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يخزّر (٢) طرفه ، ويهزّ رأسه ، ويصعد أنفاسه ، ويمضغ أضراسه ، ويثنّ من قلبه أتيلاً خفياً يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر :

فيا لك بحراً لم أجد فيه مشرباً

على أن غيري واجد فيه مسبحاً

(١) هو في الأصل رجل أديب من أدباء المولدين ، كان شديد الفقر .

(٢) خزر طرفه : نظر وكأنه يرى بمؤخر عينه .

« أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترى ، فلا قدرة لي على العمل ، وعندى صبيّة صغار ليس بينهم من يستطيع عملاً أو يحسن صنعا ، ولقد كان لي في الزمن الذي تدمونه ، والعهد الذي تنعمون عليه ، منفسح عظيم في منازل المحسنين ، وموردٌ نَمير من صدقاتهم وهباتهم ، وظلٌ ظليل من تحنُّ الأغنياء ورحمتهم بالفقراء البائسين ، أما اليوم فإنني أبيت طارياً ، وأصبح شاكياً ، وأغدو راجئاً ، وأروح يائساً . »

وهنا أرسل من جفنيه دمعاً ليست بأول دمعاً بكلِّ بها رداءه ، ولكنها أحرُّ من سابقتها لأنه لم يبك في غير خلوته غير هذه المرة ، ثم نهض ومدَّ يده إليّ مودعاً فمسحت يميني دمعاً واحدة من دموعه الكثيرات .

* * *

دورة الفلك (١)

أيها القصر ؛ أين الكوكبُ الزاهر الذي كان يتنقل في أبراجك ؟ أين النسر الطائر الذي كان يخلق في أجوائك ؟ أين الملك القادر الذي كان يطلع شمساً في صباحك ، ويدرك في مساءك ؟

أين الأعلام والبنود تخفق في شرفاتك ، والقواد والجنود تخطر في عرصاتك ؟ أين الشفاه التي كانت تلثم ترابك ، والأفواه التي كانت تقبل أعتابك ، والرؤوس التي كانت تطرق لهيبتك ، والقلوب التي كانت تخفق لرؤعتك ؟

أين الصوّت الذي كان يجلجل فيقرع أذنَ الجوزاء ، ويهدر فتتلفّت عيون السماء ؟ أين الفلك الذي كان يدور بالسعد والنحس ، والنعيم والبؤس ، والرفع والخفض ، والإبرام والنقض ؟

كيف استطاع الدهر أن يمدَّ يده إلى شملك ،

الأمة والأمة أنت ! فقلت : « إن الغيث إذا نزل يسقي الخصب والجديب ، والنجد والوهد ، وينتظم من الأرض الميت والحى . » فقال : « كلُّ سماء فيها هذا الغيث إلا سماء مصر ، فإنني أراه :

كبدر أضاء الأرض شرقاً ومغرباً

وموضعٌ رجلي منه أسود مظلم

« ما لي وللروض الذي لا أستنشق رُوحه وريحانه ، والقصر الذي لا أدخله مالكا ولا زائرا ، وهب أن الطرق مفروشة بالحزير والدياج لا بالحصى والمدر ، فهل أبقي لي الدهر من حاسة اللمس شيئا فأميز بين خشن اللمس وناعمه ، ومعوج الأرض ومستقيمها ؟ وهبني إذا مشيتُ خضت في بحر مائج بأنوار الكهرباء ، فهل يغني ذلك عني شيئا ؟ وهل يكون نصيبي منه إلا انكشاف سوائي ورنائي لأعين الناظرين ؟ ولقد حُبَّ إليّ الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفيني مؤونة الرق والفتق ، والتمزيق والترقيع .

« وبعد .. فما هو الارتقاء الذي تزعمه وتزعم أنه يعنيني ويشملني ، هل ترقت غرائز الإحسان في نفوس المحسنين ؟ وهل خفقت قلوب الأغنياء رحمة بالفقراء ؟ » فقلت : « نعم ، أما ترى الأموال التي يتبرّع بها الأغنياء للجمعيات الخيرية ، والتي ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات ؟ » فقال : « إن هذه التي تسميها مكارم ، لا يسميها أصحابها إلا مغارم ، ألجأهم إليها التملق للكبراء ، وحُبُّ التقرب من الرؤساء ، والطمع في الزخرف الباطل ، والجاه الكاذب .

« ما لي وللمدارس والمستشفيات ، وأنا جوعان خبز لا جوعان علم ، ولا مرض عندي إلا مرض الفاقة ، فهل أجد في المدارس خبزاً أو في المستشفيات دواء كذلك الدواء الذي وصفه أحد الأطباء الكرماء لرجل جائع دخل عليه وشكا إليه مرضاً ، فعرف سرَّ مرضه ، فأعطاه علبه وكتب عليها يؤخذ منه عند اللزوم ، فلما ذهب بها الفقير وفتحها وجد فيها عشرة دنائير ؟

لا تأسَ على ما فاتك فإنما كان وديعة من ودائع
الدهر أعاركها برهة من الزمان ثم استردّها .

إنك لا تدري لعل الله أراد بك خيراً ، فمنحك
قبل حلول أجلك فرصة من الزمان تخلو فيها
بنفسك ، وتراجع فيها فهرس أعمالك ، فإن رأيت
خيراً اغتبطت ، أو شراً استغفرت .

قضى الله أن يقيم في كل حين لهذا العالم
الغافل الراقدة عيرة من العبر ترعجه من رقدته ، وتوقظه
من غفلته ، فكنت أنت عبرة هذا الدهر وموعظته .

من بات بعدك في ملك يُسرُّ به
فإنما بات بالأحلام مغروراً

* * *

تأيين فولتير (٣)

في مثل هذا اليوم ، منذ مائة عام ، مات الرجل
العظيم ، مات الرجل الخالد ، مات فولتير .

ما مات فولتير حتى احدودب ظهره تحت
أثقال السنين الطوال ، وأثقال جلائل الأعمال ،
وأثقال الأمانة العظمى التي عرضت على السموات
والأرض ، فأبين أن يحملنها فحملها وحده ، وهي
تهذيب السيرة الإنسانية ، فهذبها فاستنارت فاستقام
أمرها .

مات فولتير مرذولاً محبوباً في آن واحد ، يفضيه
الماضي لأنه يجهله ، ويحبُّه الحاضر لأنه عرفه .

إن في هاتين العاطفتين ، البغض ، والحب ، سرّاً
عظيماً من أسرار المجد العظيم ، لذلك الرجل
العظيم .

كان وهو على سرير الموت محفوقاً بعاطفتين
مختلفتين شكلاً متفقتين معنى ، لأنهما جميعاً في

(٣) وهي ترجمة خطية خطبها فكتور هيجو في باريس في حفلة
تأيين فولتير الفيلسوف المشهور سنة ١٨٧٨ بعد مرور قرن
على وفاته ، مع بعض تصريف .

فييدده ، وجمعك فيفرقه ، وسمائك فيكوز شموستها ،
وأرضك فيزعج أنيسها ؟

أين كانت أسوارك وأبوابك ، وحرّاسك وحجّابك ؟
وكيف عجزت أن تمتنع على القضاء ، وتصدّ عن
نفسك عادية البلاء ؟

ولم أر مثل القصر إذ ريع سرُّه

وإذ دُمرت أطلاؤه وجآذره (١)

تحمل عنه ساكنوه وهتكت

على عجل أسناره وستائره

أيها السجن ، حلّ بأرجائك اليوم ملك تضيق به
الدُّنيا ، فكيف وسعته ؟ وتعجز عن احتماله قُلل (٢)
الجمال الرواسي ، فكيف احتملته ؟

رفقاً به ! لا ترعجه ولا تخرج صدره ، وضمْ
جانحك عليه كما تضمُّ على القلب حنايا الضلوع ،
واعطف عليه عطفَ المرضعات على الرضيع ، ارحم
هذا الجلال الذاهب ، والعزّ الزائل ، والرأس الذي
يُضتّه حوادث الدهور ، والظهر الذي قوسته أيدي
المقدور .

أيها الدهر ، أ لا تستطيع أن تنام عن هذا الإنسان
لحظة واحدة ؟ أ لا تستطيع أن تسقيه كأس السرور
خالصة لا يمازجها كدر ولا يشوبها عناء ؟

إن كنت تريد أن تسلبه فلم أعطيه ، وإن كنت
تريد أن تعطيه فلم سلبته . كان خيراً له أن لا تعطيه
حتى لا تفجعه في تلك العطية ، وأن لا تسقيه كأس
السرور حتى لا يتجرّع ذلك السّم الذي أودعته تلك
الكأس .

أيها الراحل المودّع ، كان ارتفاعك عظيماً
فوجب أن يكون سقوطك عظيماً .

إنك ذقت حلاوة الحياة خالصة ، فلما ذقت
مرارها جزعت وقطبت كما يجزع ويقطب كلُّ من
ذاق من الشراب ما لا عهد له به ، ولا قبل له
باحتماله .

(١) الطلّي : ولد الظبية ، الجمع أطلاء ، والجوّز : ولد البقرة
الوحشية ، والجمع جآذِر .

(٢) قلة كل شيء : قمته وأعلاه ، والجمع قُلل .

الدين ؟ وكيف كان القضاء في ذلك العهد ؟ كان الشعب جهلاً ، والدين رياء ، والقضاء ظلماً .

إن كنتم في شك مما أقول ، فإني أقص عليكم حادثتين من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غفاء ومقتنعا :

في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١ وُجد شابٌ مصلوباً في الطبقة الأرضية من بيت في مدينة « طولوز » ، فهاج الشعب ولغظ « الإكليروس » وبحث القضاء ، فكانت النتيجة أن كان الشاب متحركاً فسمي قتيلاً ، وكان والده بريئاً فسمي قاتلاً .

هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته أن يهلك والدُ الفتى لأنه كان بروتستانياً ، ولأنه كان يمنع فتاه أن يتدين بالكنيسة ، إنها لجناية عظيمة جداً ينكرها الدين ويُحيلها العقل ، ولكن هان عليهم أمرها ولم يحفلوا بالشريعتين ؛ شريعة القلب وشريعة العقل ، فحكموا أن الشيخ الكبير ، قتل ولده الصغير .

هكذا قضى القضاء ، وهكذا كانت النتيجة فاستمعوها : في شهر مارس سنة ١٧٦٢ سيق إلى الميدان العام شيخٌ أبيض الشعر هو « جان كالاس » ، ثم جرد من ثيابه وطُرح على دولا ب العذاب ، وشُدَّت به أطرافه وترك رأسه متدلياً .

ثلاثة رجال تلوث أيديهم بدم القتيل ؛ كاهنٌ يحمل الصليب ، وجلاد يحمل القضيب ، وقاضٍ يحمل في صدره عهدَ القوم إليه بالتنكيل والتعذيب .

لم يكن الشيخ المسكين ، وقد شقَّ الخوف مرارته وتمشَّى قلبه في صدره ، لينظر إلى الصليب في يد الكاهن ، بل إلى القضيب في يد الجلاد .

رفع الجلاد القضيب وضرب ذراع الشيخ ضربة كاسرة صاح على أثرها صيحة مؤلمة ، ثم أغمى عليه فتقدم القاضي الرحيم وأمر له بالنيهات فانتعش ، فضربه الجلاد الضربة الأخرى فوق الذراع الآخر ، فعاد إلى صرخته وإغمائه ، فعادوا إلى تنبيهه وإنعاشه ، وهكذا حتى تم لكل ذراع من ذراعيه ضربتان وصدعتان ، فكأنما قتلوه قبل موته ثمانى

سبيل مجده وفخاره ، كان ينظر أمامه ، فيسره منظر التمجيل والتعظيم من حاضره ومستقبله ، ويلتفت وراءه ، فيطربه مشهد البغض والازدراء والحقد الذي يكنه الماضي في صدره ، لأولئك الرجال البواسل الذين حاربوه فانتصروا عليه .

كان فولتير رجلاً وأكبر من رجل ، كان وحده أمةً كاملة ، إنه عاهد نفسه على إنجاز عمل عظيم فأنجزه ولم يخلف وعده ، وكان الإرادة الإلهية المتجلية في الشرائع ، تجليها في الطبائع ، نثرت كنانة هذا المجتمع الإنساني وعجمت عيدانه ، فوجدت فولتير أصليها عوداً فاختارته للقيام بالعمل الذي قام به فأنتمه .

إنا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسائل الاجتماعية ، جئنا لنرفع شأن المدنية ونكرم الفلسفة إكراماً ينفعها ويفيدها ، جئنا لتتلو على القرن الثامن عشر رأي القرن التاسع عشر فيه ، جئنا لنكرم المجاهدين ، والعاملين المخلصين ، اجتمعنا لنمهّد الطريق للوحدة الإنسانية التي يسعى إليها العلماء والعاملون ، والصناع المجدّون ، وجملة القول إنا ما اجتمعنا هنا إلا لنمجّد العاطفة الشريفة السامية عاطفة السلام العام .

إنا نمجد السلام حياً في المدنية وحرصاً على رونقها وروائها ، فإنّ السلام فضيلة المدنية والحرب رذيلتها .

نحن في هذه الساعة العظيمة ، في هذا الموقف الرهيب ، نجثو على الركب ونُعقر جباهنا بين يدي الشريعة الأدبية ، ونقول للعالم الذي ينصت لسماع صوت فرنسا : « لا قوة إلا قوة الضمير ولا مجد إلا مجد الذكاء » . ذلك في سبيل العدل ، وهذا في سبيل الحق .

لقد كان شأن المجتمع الإنساني قبل الثورة الفرنسية على هذا المثال : الشعب في المنزلة الدنيا ، وفوق الشعب الدين والقضاء ، هذا يمثلته القضاة ، وذلك يمثلته « الإكليروس » .

أ تدرّون كيف كان الشعب ؟ وكيف كان

مرات .

المحكمة مقدس إيفيل ، ولم تكن بأقل عدلاً وإنصافاً من مجلس الكايتول في طولوز ، فأمرت بالقبض على الرجلين فاخفى ديالون وقبض على لابر وأسلم إلى القضاء ، فاعترف بالنشيد وأنكر المرور على الجسر ، فحكمت عليه محكمة إيفيل بالإعدام وأيد حكمها برلمان باريس ، فذنت الساعة المخيفة الهائلة :

لقد تفننوا في تعذيب لابر وإرهاقه ليكشفوا عن سرّ فعلته ، وعن شركائه في جريمته ؛ أي جريمة المرور على الجسر وإنشاد النشيد .

لقد عذبه عذاباً أليماً ، حتى إن الكاهن الذي جيء به ليستمع اعترافه أغمى عليه حينما سمع قرعة عظام ركبيته .

مضى هذا اليوم وجاء اليوم الثاني وهو يوم ٥ يونيو سنة ١٧٦٦ ، وحيء بالشباب المظلوم إلى ساحة إيفيل الكبرى حيث تشتعل نار العذاب وتضطرم اضطراماً ، فأسمعوه نصّ الحكم ثم بتروا يده ثم استلوا لسانه بقابض من الحديد فاستأصلوه ، ولكنهم رحموه بعد ذلك فقطعوا رأسه وألقوا به في النار .

على هذه الصورة مات الشيغاليه دي لابر كما مات من قبله جان لاكاس .

أحزنك هذا المنظر يا فولتير وألم نفسك وملك عليك شعورك ووجدانك ، فصحت صيحة الرعب والجزع ، فكانت تلك الصيحة الحجر الأول في بناء مجلدك العظيم الخالد .

هنالك انبعثت نفسك إلى النزول في ميدان المجتمع الإنساني لتكشف عادية الظالمين ، وتقلّم أظفار الوحوش الضارية ، وجلست في منصّة القضاء لتحاكم الماضي على جرائمه ، وتنتصف منه للمستقبل ، فانتصفت وانتصرت وكنت من المحسنين .

فيأيها الرجل العظيم ، طبت حياً وميتاً .

حدثت تلك الحوادث التي ذكرتها على مشهد من المجتمع المهذب الراقي ، وفي حياة حافلة

في الإغماء الثامن بعد مرور ساعتين من العذاب ، تقدّم الكاهن ومدّ إليه الصليب ليقبّله فحوّل وجهه عنه ، وكذلك تبلغ القسوة الدينية من نفوس المتدينين ، فأقبل الجلاذ وسدّد إلى صدره الطرف الغليظ من القضيب الحديد ، وضربه ضربة ألصقت صدره بظهره ، فكانت القاضية .

على هذه الصورة مات جان كالاس .

وما هي إلا أيام قلائل حتى عرف الناس أن الفتى مات منتحراً لا مقتولاً ، فحكموا ببراءة الشيخ بعد أن نقد سهم القضاء فيه ، وماذا يعنيه بعد الموت أ مات جانياً أم بريئاً !

أما الحادثة الأخرى فهي عبرة الشباب كما كانت الأولى موعظة الشيخوخة :

بعد مضي ثلاث سنين من تاريخ الحادثة الأولى ، وجدوا في إيفيل - في ليلة عاصفة - صليباً عتيقاً أكل السوس أحشاءه حتى عاف البقاء فيه مطرّحاً فوق الجسر ، بعد أن عاش فوق السور ثلاثة قرون .

من ألقى به من أعلى السور ١٩ من أهائه ١٩ من ذا الذي دنس هذا الأثر المقدس ؟ من ذا الذي أجرم هذا الجرم العظيم ١٩

ربما عصفت به رياح ، أو عيث به عابر طريق ، أو هوى به ضعف الشيخوخة وإعياء الهرم . لا ، كل ذلك لم يكن لأن الدين أبى إلا أن يوجد مجرمًا ، هنالك أعلن مطران «إميان» براءة من غفران الله ورحمته لكل مؤمن علم ، أو ظن أنه علم شيئاً عن هذه الحادثة فكتمه .

إن الحرمان في الكتلكة جريمة فظيعة قاتلة ، متى أوحى به التعصب الذميم إلى الجهل العظيم ، كان هذا الحرمان سبباً في أن القضاء عرف أو ظن أنه عرف أن ضابطين اسم أحدهما (لابار) والآخر (ديتالون) مرّاً على جسر إيفيل في تلك الليلة المشؤومة يترنحان سكرًا وينشدان نشيدًا عسكريًا ، مرّاً بالجسر وأنشدا النشيد فهما المجرمان . وكانت

فولتير محي الخرافات الدينية والعادات الفاسدة وأرغم أنف الكبرياء ، وأذل عزّ الرؤساء ، ورفع السوقي إلى حيث لا يصل إليه ظلم القاضي وتنطع الكاهن .

علم ومدن وهذب ولقي في سبيل ذلك من الشدائد والمحن والنفي والقهر ما يكسر سورة النفس ، فلم تنكسر سوره ، ولم تفتر عزيمته ، بل كان يلقي الاستبداد بالسخرية ، والغضب بالاستخفاف ، والقوة القاهرة بالابتسام المؤثرة .

أقف هنا قليلاً لإجلالاً لابتسامه فولتير .

فولتير هو الابتسامه ، والابتسامه هي فولتير .

أفضل مزايا الرجل الحكيم أن يملك نفسه عند الغضب ، وكذلك كان فولتير .

كان عقله ميزان أعماله ، فما غلبه حتى الغضب للحق .

كنت تراه عابساً مقطباً ، فما هي إلا كره الطرف حتى ترى فولتير الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب .

يكاد يكون ابتسامه ضحكاً لولا حزن الحكيم ، وهم العاقل . كان ابتسامه كبراقه السيف يرتاح لها الأعداء ، ويرتاح لها الأولياء .

كان يبتسم للقوي فيخجله بتهكمه واستخفافه ، وللضعيف فيسره بتحننه وانعطافه .

فلنمجد تلك الابتسامه التي كانت أشعتها كأشعة الفجر تمحو الظلام وتبعث الأنوار .

نعم الابتسام ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح ، ويبدد ظلمات التقليد .

إن ابتسامه فولتير أنشأت هذه الهيئة الاجتماعية ، وزينت بالإخاء والمودة والحرية والمساواة ، فبال عقل منزله من الإجلال والإعظام ، سواء أ سكن القصر الكبير ، أم الكوخ الصغير ، وليس المعلم تاج الملك فتصرف في العقائد الباطلة والعادات الفاسدة والخرافات الدينية تصرف الحاكم القدير ، ونشر السلام أجنحته البيضاء على المجتمع الإنساني

بالسعادة ، مغتبطة بالهناء يغدو إليها الإنسان لاهياً ، ويروح ساهياً ، لا يرفع رأسه فيعلم ما فوقه ، ولا يخفيها فيرى ما تحته .

حدث ذلك وأيام البلاط أعياد و « فرسايل » تتلأحاً حسناً وبهاءً ، ورونقاً وماءً ، وظرفاء الشعراء مثل « سان أولاير » و « بوفلير » و « جنتيل برنار » لاهون بالغزل الرقيق والوصف الجميل .

حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها ، فاستطاع القضاء الظالم بمعونة القسوة الدينية أن يمثل بالشيخ ذلك التمثيل الفظيع بذلك القاضي الحديد ، وأن يستل لسان الفتى لأنه أنشد الأناشيد .

كان المجموع في ذلك التاريخ مؤلفاً من قوى عظيمة هائلة ، قوة البلاط ، وقوة الأشراف ، وقوة المال ، وقوة الشعب المائج المتدفق ، وقوة الحكومة التي كانت أسداً على الرعية ونعامة بين يدي الملك ، تجتو أمامه خاضعة صاغرة ، إلا أن جثتها كان على جثة الشعب ، وقوة الإكليروس المؤلف من الرياء الكاذب والتعصب الأعمى .

تقدم فولتير وحده وأثار حرباً عواناً على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة المخيفة ، ولم يره أكبر من أن ينخلل ، ولم ير نفسه أصغر من أن ينتصر .

أ تدرى ما كان سلاحه ؟ ما كان له سلاح غير تلك الأداة التي تجاري العاصفة في هبوبها ، وتسبق الصاعقة في انقضاضها ، ما كان له سلاح غير القلم ، فبالقلم حارب وبالقلم انتصر .

انتصر فولتير ، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة ، فولتير أدار وحده رحي تلك الحروب الهائلة ، حرب العلم والجهل ، والعدل والظلم ، والعقل والهو ، والصلاح والفساد ، فتم على يديه الغلب للخير على الشر ، وفاز فوزاً مبيناً .

كان فولتير قلباً وعقلاً ، كان له رقة الفتاة في غلايتها^(١) وشدة الأسد في لبنته .

(١) الغلالة : شعار بليس تحت الثوب .

إتقان الأعمال ، وعلموهم أن صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل ، فأجادوا وأفادوا .

مات أولئك القوم العظام وهوت من أفقها كواكبهم ، ولقد كانوا في حياتهم جسداً وروحاً ، أما الجسد فقد طواه القبر ، وأما الروح فهي الثروة التي تركوها من بعدهم .

أجل ، إن الثروة روحهم والمظهر الساطع المتلألئ بحكمتهم ومبادئهم .

هم في الحقيقة أبطال الثورة المقدسة التي هي خاتمة الماضي وفاتحة المستقبل .

إنك تراهم بعين بصيرتك في كل مواقفها ووقاتها ، إذا اخترقت أشعة العقل حجاب المسببات ، ونقلت إلى الأسباب نرى في نور الثورة الساطع أن ديدرو كان واقعاً وراء دانتون ، وروسو وراء روبيسير ، وفولتير وراء ميرابو ، ونجد أن أبطال الثورة صنيعة أبطال الفلسفة ^(١) .

إن الكلمة الأخيرة التي أُطلق بها في هذا الموقف هي دعاء المجتمع البشري إلى التقدم بهدوء وسكون وثبات ووقار .

قد وجد الحق ضالته التي كان ينشدها وهي الإخاء الإنساني والتعارف النفسي ، فمن العبث أن تشغل القوة بعد ذلك مكاناً من هذا المجتمع ، فإن فعلت كان أليق الأسماء بها الاستبداد .

إن المجتمع الإنساني أنكر على القوة حقها المزعوم وضاق صدره بجرائمها وآثامها ، فقاضاها بين يدي التمدن وضع بين يديه جريمة المتهمين من الرؤساء والزعماء ، وأتى بالتاريخ شاهداً على دعواه قضى التمدن له عليها ، وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً .

شفَّ ثوبُ الرياء عما تحته ، وظهرت الحقيقة بيضاء ناصعة لا غبار عليها ، فأصبح الأبطال والمجرمون في نظر الإنسان سواء .

هدمَ التمدن تلك القاعدة الفاسدة ، وهي أن

(١) دانتون وروبيسير وميرابو أبطال الثورة الفرنسية .

فقرت السيوف في الأغمد ، وهذأت الدماء في العروق والأرواح في الأجسام . وكل ذلك بفضل ابتسامة فولتير ، ولسوف يأتي ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء والعفو عن الخاطئين ، فيبتسم فولتير في السماء ابتسامة تتلألأ بين لآلئ النجوم .

فلنمجد ابتسامة فولتير كلَّ التمجيد ، ولتكبرها كلَّ الإكبار . هل كان فولتير يحلم دائماً فلا يستخف حلمه الغضب ؟ كلا بل كان يغضب أحياناً في سبيل الحق .

إن التوسط وحفظ الموازنة بين الأخلاق هو القانون العقلي للإنسان ، حتى لا تهبط به كفة وتعلو به أخرى ، وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض ، وإن الفلسفة هي الاعتدال وإظهار الحقائق واضحة بين مؤلفات الأعمال والأقوال ، ولكن أرى أن حب الحق يجب أن يكون في مرتبة الغلو حتى تهب عاطفته هبوب العاصفة فتذهب بالأقلاء والأقذار .

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله ، أما الأولى فيكفلها العدل ، وأما الثانية فيحرسها الرجاء والأمل ، لذلك يحب الناس القاضي العادل ، والكاهن الصالح ، لأن الأول صورة العدل ، والثاني مثال الرجاء ، فإذا انقلب العدل ظلماً ، والأمل يأساً ، عافهما الإنسان ولوى وجهه عنهما ، وقال للقاضي : « لا أحب قانونك » ، وللكاهن : « لا أعتقد بدعتك » ، وهناك يهبُ الفيلسوف الغيور غاضباً ، فيحاكم القضاء أمام العدل والكهنوت أمام الله ، وكذلك فعل فولتير فكان من المحسنين .

إن الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيداً إلا قليلاً ، وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره ، فهو كالشجرة تكون في نظر الناظر أطول في الغابة الشجراء منها في التربة الجرداء ، لأنها تكون في منبتها ومستقرها . وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة - روسو وديرون وبوفون وبومارش و مونتسكيو - أولئك القوم المفكرون هم الذين علموا الناس النظر في حقائق الأشياء والتفكير الموصل إلى

ولنركع أمام قبره عسى أن يمدنا بروح منه ويهدينا إلى حظيرة السلام ، فإنه بعد مرور قرنٍ على موته لم يزل في الأحياء الخالدين .

ولنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفّاكين بصوت عالٍ : « كفى ، كفى ، إنها همجية ! إنها تشوه وجه المدينة الجميل . »

إن أسلافنا من الفلاسفة هم رسلُ الحق إلى البشر ، فلنضرع إليهم في تذكارهم هذا أن يتلاركوا الفتنة قبل وقوعها ، وينادوا أن الحياة ملك للإنسان ، وعظيمٌ عليه أن تُسلبَ منه ، وأن التمتع بالحرية حقٌ من حقوق العقول والأفكار .

إن النور لا أثر له بين أضواء القصور ، فلنطلبه بين ظلمات القبور !

* * *

العلماء والجهلاء

لا تحسبن أن الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التي لا تُرام ، أو أن بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ، ذلك الفرق العظيم الذي يتصوره الناس عندما يريدون التفريق بينهما ، وإنزالهما منازلهما ، فالعلماء والجهلاء إن دقت النظر سواء ، لا فرق بينهما إلا أن هؤلاء يعلمون المعلومات منظمة ، وأولئك يعلمونها مبعثرة ، وأن هؤلاء يحسنون البيان عنها وأولئك لا يُبينون .

ومن نظر إلى البصائر نظراً ثاقباً نافذاً وجد أن المعاني الصحيحة والقضايا الكونية المتعلقة بالخير والشر ، والنفع والضّر ، والمسائل المنوطة بالإنسان في حياته المادية والمعنوية ، يشترك في العلم بها الناس جميعاً عامتهم وخاصتهم ، كبارهم وصغارهم ، من نشأ منهم تحت سقوف الجامعات ، ومن عاش تحت سقوف السموات ، لأن العلم ينبوعٌ يفور من الداخل ، لا سبيل يتدفق من الخارج ، ولأن المعلومات

الجُرم العظيم أصغرُ من الجرم الصغير ، فأدرك الإنسان أن قتل الشعوب أكبرُ إثماً وأعظم جريرة من قتل الأفراد ، واستكبر أن يعتبر الحرب مجداً وهو يعتبر السرقة عاراً . وبالجملة عَرَف أن الجريمة جريمةٌ حيث حلت ، وفي أيّ مظهر ظهرت ، وأن القاتل لا يغني عنه من الله شيئاً أن يسمّى القيصر أو يدعى الإمبراطور ، ولا يخفى على الله من أمره شيءٌ سواء أليس تاجُ الملك أم قلنسوةُ الإعدام .

فلنصريح بالحقيقة المقررة الواضحة ، ولنحقّر الحرب أشدّ الاحتقار .

إن الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود .

إن منظر الدماء والأشلاء أظفَع منظر .

لا يُعقل أن يكون الشرُّ طريق الخير ، وأن يكون الموتُ وظيفة الحياة .

أيتها الأمهات الجالسات حولي ، خففن من أحزانكن ، فقد أوشكت يد الحرب أن تكف عن اختلاس أفلاد أكبادكن .

أ تشقى المرأة فتلد ، ويغرسُ الزارع فيكسو الأرض بساطها الأخضر ، ويجهدُ العاملُ فيملاُ الخزائن ذهباً وفضة ، ويأتي الصانعُ بمعجائب المصنوعات ، وغرائب المدهشات ، حتى إذا أخلت الأرض زخرفها ، وفاخرت السماء بنجومها وكواكبها ، وذهبت لرؤية معرضها العام وجدناه ساحة القتال ؟

لا ، لا .. إنا لا نستطيع أن نخدع أنفسنا ، وننكر أن الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوها وتنقص من سرورها .

لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء .

إن الشعب لم يقض كلُّ أربه من السعادة لأن الحرب لم تزل باقية .

فلنذكر عند ذكر ملوك الحرب فولتير و جان جاك و ديدرو و مونتسكيو ملوك السلام ، ولنوجه وجهتنا إلى تلك الروح العالية ، إلى تلك الحياة العظيمة ، إلى ذلك الدفين المقدس ، إلى فولتير ،

فلا تبالغ في تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ولا تنظر إليهم نظراً يملأ قلبك رهبة وهيبة ، ولا تغلّ في احتقار الجهلاء ، وازدراء العامة والضعفاء ، ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الألقاب .

وإن في اختفاء الحقائق الكونية وتتكورها ، وضلال هذا العالم في مذاهبه ومراميه وتفرقه مذاهب وشيعاً ، وركوب كل فريق رأسه ، وهيامه على وجهه ، وقوف طلاب الحقيقة في كل دهر وعصر في مفارق الطرق ، ورغوس المسالك حيارى يشندون فلا يجدون ، ويجنون فلا يصلون ، للدليل على أن الفلاسفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات ، وأسماء بلا مسميات ، وأن حقائق الأشياء وأسرار الكائنات قد استأثر الله بعلمها ، واحتجها من دون عباده ، ولم يمنحهم منها إلا بلة تزيدهم وجداً كلما وجدوا بردها ، وتملاً قلوبهم شوقاً كلما تلذّثوا طعمها :

ضربك في بني الدنيا كثير
وعزّ الله ربك من ضريب
وما العلماء والجهلاء إلا
قريب حين تنظر من قريب

الرجل والمرأة

« حضرة السيد المحترم :

« لا تعجب إن رأيت إعجابي بك ظاهراً في كل سطر من سطور كتابي هذا ، فإنما أنا أنطق بلسان كثير من العقلاء الذين يحبونك حباً جماً ، ويعتقدون أنك فريد في أدبك ، فريد في قلمك ، فريد في تسامحك وتساهلك ، لذلك أردنا أن نوجه إليك السؤال الآتي راجين منك الإجابة عليه :

« لماذا نرى الهيئة الاجتماعية تخكم على المرأة

كامنة في النفوس كمون النار في الزند والقوة في المادة ، وما وظيفة التعليم إلا إستثارتها من مكانها ، ويعتثها من مراقدها .

وأية ذلك أنك لا تجد مثلاً من أمثال العلماء التي يفخرون بها ويعتدونها مظهر حكمتهم ، وأية فلسفتهم ، إلا وترى في ألسنة العامة وشوارد أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها . كما أنك لا تجد قاعدة من قواعد الحكمة ، ولا قضية من قضايا الآداب والأخلاق التي نعدّها من ذخائر الأسفار ونفائس الأعلّاق إلا وهي ملقاة تحت أقدام العامة ، ومُدالة بين أيدي الجاهلين والأميين .

وعندي أنه لولا عجز العامة عن بيان ما يجول في خواطرهم ، ويهجس في ضمائرهم من المعلومات على صورة مرتبة منظمة ؛ لما خيل إليهم أنهم يسمعون من الخاصة كلاماً عجيباً ، أو معنى غريباً .

وليست هذه الغيبة التي نراها تعلق بنفوسهم عندما يلقون أحاديث الخاصة ، من أجل أنهم علموا ما لم يكونوا يعلمون ، أو أدركوا ما لا عهد لهم به من قبل ، بل لأنهم عثروا على من يترجم عن أفكارهم ، ويجمع لهم شمل المعاني المبعثرة في أنحاء أدمغتهم ، ولأنهم وجدوا في أنفسهم لذة الأنس بأفكار تشابه أفكارهم ، وأراء تشاكل آراءهم .

ولا أخشى بأساً إن قلت إن علم العامة أفضل من علم الخاصة ، لأنه علم خالص من شائبة التكلف والتعمّل ، حتى إنك لتجد في بعض الأحيان بين معلومات الخاصة ومذاهبهم وآرائهم ما يضحك الثكلى لغرابته وشذوذه ، وما يترفع أضيق العامة ذهنًا وأضعفهم فهمًا أن يجعل له شأنًا ، أو يقيم له وزنًا ، ولأنه يعلق بالنفس ويتغلغل بين طياتها تغلغلاً تظهر آثاره على الجوارح . وكثيراً ما تجد بين الجهلاء من تعجبك استقامته ، وبين العلماء من يدهشك اعوجاجه ، وإن كان صحيحاً ما يقولون من أن العلم ما ينتفع به صاحبه ، فكثير من الجهلاء ، أعلم من كثير من العلماء .

ما يضرب الشجاع رأس نفسه بسيفه إذا كان طائشاً أهوج ، لا يملك نفسه في موقف من مواقف الحزن أو الغضب .

فماذا يعني المرأة ذكاؤها إذا لم يكن وراء عقل يملكها ويصرفها ، ويمسك بيدها أن تعثر في جريانها واشتدادها بعقبة من عقبات هذه الحياة .

سيثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهن ، ولكن ماذا أعمل وبين يدي برهان قاطع ليس في استطاعتهم أن يثارتني فيه مع شدة ذكائهم ، ولا في استطاعة أنصارهم من الرجال أن ينقضوه ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً !

لولا أن الرجل أعقل من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان وذلك الغلب ، ولا استطاع أن يقودها وراءه كما يقاد الجنيب^(١) ، ولا أن يملك عليها أمر فقرها وغناها وحسبها وإطلاقها وحجابها وسفورها ، ويستأثر من دونها بوضع القوانين والشرائع الخاصة بها من حيث لا ترى في نفسها قوة لدفعها والخروج عليها .

القوي يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كل شيء حتى نفسه وهواه ، وكذلك كان شأن الإنسان مع الحيوان وشأن الرجل مع المرأة .

الإنسان نوع من أنواع الحيوان لم يكن في مبدأ خليقته خيراً منها في شأن من شؤون الحياة ، ولكنه كان أوفر منها عقلاً وأوسع حيلة ، فما زال يطلب لنفسه الغاية التي تناسب استعدادَه وفطرته حتى أصبح سيدَ الحيوان ، فمدن المدن ومصر الأمصار وشاد وبنى وتأنق وترقى ، ثم طرد صاحبه إلى تلال الرمال ، ورعوس الجبال ، يأكل بعضه بعضاً . والرجل أخو المرأة وقسمها في الرحم والمهد ، والأبوة والأمومة ، والقومة والقعدة ، والنومة واليقظة ، ولكنه وجد في نفسه فضلاً من قوة العقل والتدبير عليها ، وكان ظالماً خشن النفس قاسي القلب ، فأبى إلا أن يأسرها ويغلبها على أمرها ويملك عليها جسمها ونفسها ، فتم له ما أراد .

(١) الجنيب : المهر الذي يقاد إلى مهر آخر .

الفاسقة حكماً صارماً فتنبذها وتحتقرها ، ولا تحكم بمثل هذا الحكم على الرجل الفاسق مع أن جريمتها واحدة !؟

« هذا ما أردنا أن نسترشد برأيك فيه ، والسلام . »
« سائل »

يعتقد كثير من الناس أن الرجل والمرأة سواء في العقل والذكاء ، وعندي أنهم أخطأوا في الأولى وأصابوا في الأخرى .

تستطيع المرأة أن تجاري الرجل في سرعة الفهم وحضور البديهة ، ولا تستطيع أن تجاريه في الأناة والرفق والاستمسك وإملاك هوى النفس والأخذ بفضيلة الصبر على ما تكره وعن ما تحب .

تستطيع المرأة أن تدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والأطوار ، وأن تستخرج كما يستخرج المجهولات من المعلومات ، ولكنها لا تستطيع أن تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع ، لأن بين جنبيها نفساً غير نفسه ، وهوى غير هواه ، ولأن لها قلباً صغيراً لا يقوى على احتمال ما يحمله عقله الكبير .

يمشي الرجل وراء عقله فيهيده ، وتمشي المرأة وراء قلبها فيضلها ، فما وقفت معه في موقف إلا سقطت بين يديه عجزاً وضعفاً ، لأنه يعرف السبيل إلى قلبها ، ولا تعرف السبيل إلى عقله .

لا تعجب إن قلت لك إن الذكاء غير العقل ، فاللصوص والمحتالون والمزورون والكاذبون والفاسقون والمنافقون أذكىء وليس بينهم عاقل واحد ، لأنهم يوردون أنفسهم موارد التلف والهلاك من حيث لا يعني عنهم ذكاؤهم شيئاً . وكثيراً ما يكون الذكاء الشديد داعية الجنون ، حتى إنك لا تكاد ترى ذكياً من الأذكىء إلا وترى له في شؤون وأطواره أحوالاً شاذة لا تنطبق على قانون من قوانين العقل ولا قاعدة من قواعد الطبيعة .

وعندي أن أكثر ما يصيب النوايا والأذكىء من بؤس العيش وسوء الحال عائت إلى ضعف في عقولهم ، ونقص في تصوراتهم . وبعد .. فالذكاء في رأس الإنسان كالسيف في يد الشجاع ، وكثيراً

ضعيفات ، يصدقن الرجال في أقوالهم ، وينظرن إلى المستحسنات والمستهجنات بأنظارهم ، فإن أردنا أن نتال المرأة حقها من الرجل وأن نتنصف منه ، فليس سبيلها إلى ذلك المغالبة والمصارعة ، فإنها أضعف منه جسماً وعقلاً ، بل السبيل إليه أن نعلمها العلم لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه ، وكيف تحمله على إجلالها وإعظامها ، وأن نعلمه كذلك ليستطيع أن يكون شخصاً كريماً ، وإنساناً رحيماً .

* * *

الدعوة

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية ، داعياً إلى ترك ضلالة من الضلالات ، إلا وقد آذَن نفسه بحرب لا تخمد نارها ولا يخبو أوارها ، حتى تهلك تلك الضلالة أو يهلك دونها .

ليس موقفُ الجندي في معترك الحرب بأحرج من موقف المرشد في معترك الدعوة ، وليس سلب الأجسام أرواحها بأقربَ منالاً من سلب النفوس غرائزها وميولها .

لا يضمن الإنسان بشيء مما تملك يمينه ضته بما تنطوي عليه جوانحه من المعتقدات ، وإنه ليبذل دمه صيانة لعقيدته ، ولا يبذل عقيدته صيانةً لدمه ، وما سالت الدماء ولا تمزقت الأشلاء في مواقف الحروب البشرية ، من عهد آدم إلى اليوم ، إلا حماية للمذاهب ، وذوداً عن العقائد .

لذلك كان الدعاة في كل أمة أعداءها وخصومها لأنهم يحاولون أن يزرعوها في ذخائر نفوسها ، ويفجعوها في أعلاق قلوبها .

الدعاة أحوج الناس إلى عزائم ثابتة ، وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التي يلاقونها في سبيل الدعوة حتى يبلغوا الغاية التي يريدونها

ملك عليها جسمها لأنه حجبها عن النور والهواء فأذعنَتْ ، وملك عليها نفسها لأنه ألقى في روعها أن ذنبها في الفسق المشترك بينه وبينها أكبر من ذنبه ، وأن جريمتها ضعفُ جريمته فصَدَقَتْ ، وطلب منها أن تسلم إليه الأمر في تدبير شؤونها والتصرف بأموالها فسلمت ، وأصبحت تنظر إلى هذه القوانين الجائرة التي وضعها لها ، والاعتبارات الفاسدة التي اعتبرها بالنسبة إليها - كما ينظر إليها هو - بعين الإجلال والإعظام .

يخدع الرجل المرأة عن شرفها فيسلبها إياه ، فإذا سقطت هاج المجتمع الإنساني عليها وملأ قلبها هولاً ورعباً ، وأوسع نفسها تقريعاً وتأنيباً من حيث لا تطير على الرجل شرارة واحدة من هذه النار المتأججة ، لأنه هو الذي وضع هذا القانون وشرع تلك الشريعة ، وما كان له أن يقصر في مجاملة نفسه ومحاباتها ، لأنه شريرة طماع مُحِبٌ لذاته ، ولا أن يعدل في القضاء في قضية غيره لأنه ظالم جبار .

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل لاستطاعت أن تحجبه في المنزل ، وأن تتولى شأنه ، وأن تعيث بعقله ، فتعظم جريمته وتصغر جريمتها في عينه ، وأن تنفذ إلى قلبه فتلعب به لعب الصبي بالكرة ، وأن تحددنه فيصدق ، وتأمره فيأتمر ، وأن تسن له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود ، كما صنع هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد .

لا أريد أن هذا الفرق في القوة العقلية بين الرجل والمرأة يمنحه هذا الحق في ظلمها وغلبتها على حقها ، بل أريد أن هذا الفرق هو سبب ذلك السلطان القاهر ، والحكم الجائر .

وجملة القول : إن حكم المجتمع الإنساني بإدانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزاني حكمٌ ظالمٌ ، ولو أنه أنصفهما لعرف فرق ما بينهما في القوة العقلية ، فجعل عقاب الرجل القوي المهاجم فوق عقاب المرأة الضعيفة المدافعة ، ولكنه لم يفعل ذلك لأن رجاله ظلمة جائرون ، ولأن نساءه ساذجات

الثاني منه حجرًا والثالث آخر وهكذا حتى لا يبقى منه حجر على حجر .

الجهلاء مرضى والعلماء أطباء ، ولا يجمل بالطبيب أن يُحجم عن العمل الجراحي فرارًا من إزعاج المريض ، أو خوفًا من صياحه وعويله ، أو اتقاء لسببه وشتمه ، فإنه سيكون غذاً أصدق أصدقائه وأحب الناس إليه .

وبعد... فقليلٌ أن يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيبًا إليها إلا إذا كان خائنًا في دعوته ، سالكًا سبيل الرياء والدهان في دعوته ، وقليلٌ أن يتال حظه من إكرامها وإجلالها إلا بعد أن تتجرع مرارة دوائه ، وتشعر بحلاوة الشفاء ، بعد مرارة ذلك الدواء .

الدُّعَاةُ في هذه الأمة كثيرون ، ملءُ الفضاء ، وكِطَّةُ (١) الأرض والسماء ، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع واحد لأنه لا يوجد بينهم شجاع .

أصحاب الصحف وكتاب الرسائل والمؤلفون وخطباء المجمع وخطباء المنابر ، كلهم يدعون إلى الحق ، وكلهم يعظون وينصحون ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل في سبيل الدعوة ضررًا ، أو يلاقي في طريقها شرًا .

رأيت الدُّعَاةَ في هذه الأمة أربعة : رجل يعرف الحق ويكتمه عجزًا وجبنًا ، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا شر . ورجل يعرف الحق وينطق به ، ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته ، فيهجُم على النفوس بما يزعجها وينفّرُها ، وكان خيرًا له لو صنع ما يصنعه الطبيب الماهر الذي يضع الدواء المرّ في «برشامة» ليسهل تناوله وازدراده .

ورجل لا يعرف حقًا ولا باطلاً ، فهو يخيّط في دعوته خبط الناقة العشوائ في مسيرها ، فيدعو إلى الخير والشر والحق والباطل والضار والنافع في موقف واحد ، فكأنه جواد امرئ القيس الذي يقول فيه : «مِكرٌ مفرٌ مقبل مدبر معاً» . ورجل يعرف الحق ويدعو الأمة إلى الباطل دعوة المجدد المجتهد ، وهو أخبث

(١) الكِطَّة : البِطَّة ، أي الامتلاء الشديد من الطعام .

أو يموتوا في طريقها .

الدُّعَاةُ الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونةً أو جهلةً أو زنادقةً أو ملحدين أو ضالين أو كافرين ، لأن ذلك ما لا بدّ أن يكون .

الدُّعَاةُ الصادقون يعلمون أن محمدًا ﷺ عاش بين أعدائه ساحرًا كذابًا ، فلما مات مات سيد المرسلين ، وأن الغزالي عاش متهمًا بالكفر والإلحاد ومات حجة الإسلام ، وأن ابن رشد عاش ذليلاً مهانًا حتى كان الناس يصقون عليه إذا رأوه ، ومات فيلسوف الشرق ، فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياء وأمواتًا .

سيقول كثير من الناس : وما يُغني الداعي دعاؤه في أمة لا تحسن به ظنًا ، ولا تسمع له قولاً ؟ إنه يضُرُّ نفسه من حيث لا ينفع أمته ، فيكون أجهل الناس وأحمق الناس .

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين ، وهذا هو الداء الذي ألمّ بنفوس كثير من العلماء ، فأسكت ألسنتهم عن قول الحق ، وحبس نفوسهم عن الانطلاق في سبيل الهداية والإرشاد ، فأصبحوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون ، ويعيدوا عليهم ما يحفظون ، فجمدت الأذهان وسكنت المداير ، وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس ولا تنفذ إليه الهواء .

الجهل غشاء سميك يغشى العقل ، والعلم نار متأججة تلامس ذلك الغشاء فتحرقه رويدًا رويدًا ، فلا يزال العقل يتألم لحرارتها ما دام الغشاء بينه وبينها ، حتى إذا أتت عليه انكشف له الغطاء فرأى النار نورًا ، والألم لذةً وسرورًا .

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق في ميدان ، لأن الحق وجودٌ والباطل عدم ، وإنما يصصره جهل العلماء بقوته ، وبأسئسهم من غلبته ، وإغفالهم النداء به ، والدعاء إليه .

محالٌ أن يهدم بناء الباطل فردٌ واحد في عصر واحد ، وإنما يهدمه أفراد متعددون في عصور متعددة ، فيهزه الأول هزة تباعد ما بين أحجاره ، ثم ينقض

الأربعة وأكثرهم غائلة ، لأنه صاحب هوى يرى أنه ما أعظم شقاء هذه الأمة وأشدّ بلاءها ! فقد لا يبلغ غايته منه إلا إذا أهلك الأمة في سبيله ، فهو أصبح دعائها في حاجة إلى دعاة يبنرون لهم طريق عدوها في ثياب صديقها لأنه يوردها موارد التلف الدعوة ، ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال والهلاك باسم الهداية والإرشاد . فليت شعري من في سبيلها ، فليت شعري متى يتعلمون ثم متى أي واحد من هؤلاء الأربعة تستفيد الأمة رشدها يرشدون ؟
وهذاها ١٢

* * *

تم الجزء الأول من « النظرات »

الجزء الثاني

ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر ، وينام حيث لا يطيب له المنام ، ويلبس من اللباس ما يخرج صدره ، أو يقصم ظهره ، ويشرب من الشراب ما يحرق أمعاءه ، ويأكل أحشاءه ، ويقف على ما يكره ، ويمشي إلى ما لا يحب ، ويضحك لما يُبكي ، ويبكي لما يُضحك ، ويتسم لعنوه ، ويقطب في وجه صديقه ، وينفق في دراسة ما يسمونه علم آداب السلوك ، أي علم الذهان والمثلّق زمناً لو أنفق عشر معشاره في دراسة علم من علوم الحقيقة ، لكان نابغته المبرز فيه ، حرصاً على رضاء الناس وازدلالاً إلى قلوبهم .

ليست شهوة الخمر من الشهوات الطبيعية المركبة في غرائز الناس ، فلو لم يدقوها لما طلبوها ولا كلفوا بها ، وما جناها عليهم إلا كلف تاركها برضاء شاربيها . وما كان الترف خلقاً من الأخلاق الطبيعية للإنسان ، ولكن كلف المتقشفون برضاء المترفين فترفوا ، فحملوا في ذلك السبيل من شقاء العيش وبلائه ، وأثقال الحياة ومؤنها ، ما نقص عليهم عيشهم ، وأفسد عليهم حياتهم ، وإنك لترى الرجل العاقل الذي يعرف ما يجب ، ويعلم ما يأخذ وما يدع ، يبيع منزله في نفقة المأتم ، وأثاث منزله في نفقة العرس ، فلا تجد لفعله تأويلاً إلا خوفاً من سخط الناس واتقاه مذمتهم ، وكثيراً ما قتل الخوف من سخط الناس والكلف برضاهم ذكاء الأذكياء ، وأطفاً عقول العقلاء ، فكم رأينا من ذكي يظل طول حياته خاملاً متلففاً لا يجرؤ على إظهار أثر من آثار فطنته وذكائه مخافة هزء الناس وسخرهم ، وعاقل لا يمنع من الإقدام على إصلاح شأن أمته وتقويمها إلا سخط الساخطين ونقمة الناقمين .

وما أعجبت برجل في حياتي إعجابي بأديب من أدباء هذه الأمة من الذين يملأون الصدور والأسماع ، يرمي بالرسالة من رسائله في الصحيفة من الصحف ، ثم يمضي لسبيله قدماً فلا يمضي وراءها مشية المتسمع المتجسس ؛ ليعلم ما رأي الناس فيها ، وما حديثهم عنها ، وهل سخطوا عليها أو رضوا بها ! ولا يمضي متقللاً في المجامع والأندية

الحياة الذاتية

أكثر الناس يعيشون في نفوس الناس أكثر مما يعيشون في نفوسهم ، أي أنهم لا يتحركون ولا يسكنون ولا يأخذون ولا يدعون ؛ إلا لأن الناس هكذا يريدون .

حياة الإنسان في هذا العالم حياة ضمنية مدخلة في حياة الناس ، فلو قُتس عنها لا يجد لها أثراً إلا في عيون الناظرين ، أو آذان السامعين ، أو أفواه المتكلمين .

يتمثل لي أن الإنسان لو علم أن سيصبح في يوم من أيام حياته وحيداً في هذا العالم ؛ لا يجد بجانبه أذنًا تسمع صوته ، ولا عيناً تنظر شكله ، ولا لساناً يردّد ذكره ، لآثر الموت على الحياة ، علّه يجد في عالم غير هذا العالم من آذان الملائكة ، أو عيون الجنة مقاعد يقتعدها ، فيطيب له العيش فيها .

إذا كانت حياة كل إنسان متلاشية في حياة الآخرين ، فأني مانع يمنعني من القول بأن تلك الحياة التي نحسبها متكررة في هذا العالم حياة واحدة يتفق جوهرها ، وتتعدد صورها كالبحر المائج ؛ نراه على البعد فنحسبه طرائق قَدَدًا ، ونحسب كل موجة من أمواجه قسماً من أقسامه ، فإذا دنونا منه لا نرى غيره ، ولا نجد لموجة من أمواجه حيزاً ثابتاً ، ولا وصفاً معيناً .

لا حيّ في هذا العالم حياة حقيقية إلا ذلك الشاذ الغريب في شؤونهِ وأطواره وآرائه وأعماله ، الذي كثيراً ما نسميه مجنوناً ، فإن رضينا عنه بعض الرضى في بعض الأحيان سميناه فيلسوفاً ؛ ونريد بذلك أنه نصف مجنون ، فهو الذي يتولّى شأن الإنسان وتغيير نظاماته وقوانينه ، وينتقل به من حال إلى حال بما يقلب من عاداتهِ ، ويحوّل من أفكاره .

أي قيمة لحياة امرئ لا عمل له فيها إلا معالجة نفسه ، وتذليلها على الرضى بما يرضى به الناس ؛ فياكل ما لا يشتهي ، ويصديف نفسه عما تشتهي ،

وبصره ، ولا يَسْرَةَ مخافة أن يُهَيِّجَ بنظراته فضول تلك السباع المُقْعِيَةِ والصُّلال الناشرة فتعترض دون طريقه .

« و أما عامتهم فهم بين ذكيٍّ قد وهبه الله من سلامة الفطرة وصفاء القلب ولين الوجدان ما يعده لاستماع القول وإتباع أحسنه ؛ فأنا أحمد الله في أمره ؛ وضعيفٍ قد حيل بينه وبين نفسه فهو لا يرضى إلا عما يعجبه ولا يسمع إلا ما يُطربه فأكل أمره إلى الله واستلهمه صواب الرأي فيه ، حتي يجعل له من بعد عسر يسرا . فأنا أكتب لا لأعجب الناس ، بل لأنفعهم ، ولا لأسمع منهم » أنت أحسنت ، بل لأجد في نفوسهم أثرا مما كتبت . فلو أن هذه العشرة الملايين التي يحضنها هذان الجبلان أجمعت أمرها على الإعجاب بي والرضاء عني ، ثم رأيت من بينها رجلاً واحداً يتنفع بما أقول ؛ لكان الواحد المستفيد أثر في نفسي من الملايين المعجيين . أ تدري لم عجز كتاب هذه الأمة عن إصلاحها ؟ لأنهم يظنون أنهم لا يزالون حتى اليوم تلاميذ في المدارس ، وأنهم جالسون بين أيدي أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان ؛ فترى الواحد منهم يكتب وهمه المالى قلبه أن يُعجِبَ اللغويين ، أو يروق المنشئين ، أو يُطرب الأدباء ، أو يضحك الظرفاء ، ولا يدخل في باب أغراضه ومقاصده أن يتفقد المسلك الذي يريد أن يسلكه إلى قلوب الناس الذين يقولون إنه يعظهم ، أو ينصح لهم ، أو يهذبهم ، أو يثقفهم ؛ ليعلم كيف ينقذ إلى نفوسهم ، وكيف يهجم على قلوبهم ، وكيف يملك ناصية عقولهم ؛ فيعدل بها عن ضلالها إلى هداها ، وعن فسادها إلى صلاحها ، فمثله كمثل الفارس الكذاب الذي تراه كل يوم حاملاً سيفه إلى الجوهري يصرع له قبضته ، أو الحداد ليشحذ له حذّه ، أو الصبقل ليجلو له صفحته ، ولا تراه يوماً في ساحة الحرب ضارباً به .

« قد يكون الولع برضاء الناس ، والخوف من سُخطهم مذهباً من مذاهب الخير ، وطريقاً من طرق الهداية للضال عنها لو أن الفضيلة هي الخلق المنتشر فيهم والغالب على أمرهم ، بل لو كان الأمر

متسائلاً عنها كل غادٍ ورائح ؛ ليجد خيراً فيضحك ويستبشر ، أو شراً فيكي ويبتس ، بل كثيراً ما رأيته يسمع حديث الناس عنه في حالتي رضاهم وسخطهم ساكناً هادئاً كأنما يحدثون غيره ويعنون سواه ، حتى كدتُ أتخيل أن لا فرق عنده بين أحسنت وأجذت ، وأسأت وأخطأت ، بل قلما رأيته ، على كثرة لصوقي به وتفقدتي مواقع سمعه وبصره ، يقرأ ما تكتبه الصحف عنه ، وما تعلقه على آرائه في رسائله من مدح أو ذم ، حتى كدتُ أحمل تلك الحال الغريبة من أمره على البله والغفلة ، أو العظمة والكبرياء ، لولا أنني فاتحته مرة في ذلك وسألته : « لم لا تحفل برأي الناس فيك ؟ ولم لا تقرأ ما يكتبون عنك ؟ » فأجاب : « إنني ما أقدمتُ على الكتابة للناس في إصلاح شؤونهم ، وتقويم مُعوجَّهم ، إلا بعد أن عرفتُ أنني أستطيع أن أنزل منهم منزلة المعلم من المتعلم .

« والناس خاصّة وعامة : أما خاصّتهم فلا شأن لي معهم ، ولا علاقة لي بهم ، ولا دخل لكلمة من كلماتي في شأن من شؤونهم ؛ فلا أفرح برضاءهم ، ولا أجزع لسخطهم ؛ لأنني لم أكتب لهم ، ولم أتحدث معهم ، ولم أشهدهم أمري ، ولم أحضرهم عملي ، بل أنا أتجنب جهد المستطيع أن أستمع منهم كل ما يتعلق بي من خير أو شر ؛ لأنني راضٍ عن فطرتي وسجيتي في اللغة التي أكتب بها ، فلا أحب أن يكذرها عليّ منهم مكذّر ، وعن آرائي ومذاهبي التي أودعها رسائلتي فلا أحب أن يشككني فيها منهم مشكك . ولم يهيني الله من قوّة الفراسة ما أستطيع أن أميز به بين مخلصهم ومُشويهم فأصغي إلى الأول ؛ لأستفيد علمه ، وأعرض عن الثاني ؛ لأتقي غشه . فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بدّ له أن يفرغ منها في ساعة محدودة ، ثم علم أن على يمين الطريق الذي يسلكه روضة تعتق أغصانها ، وتشتجر أفنانها ، وتغرد أطيارها ، وتتألق أزهارها ؛ وأن على يساره غاباً تزار أسوده ، وتعوي ذئابه ، وتفتح أفاعيه وصياله . فمشى قدماً لا يلتفت يمنة مخافة أن يلهو عن غايته بشهوات سمعه

أنفسهم ، أو قطرات المداد التي يرصع بها الكتاب أقلامهم ، من قطرات الحياة التي أراقها مصطفى كامل في سبيل وطنه وأمته ١٩

كان مصطفى كامل سراجاً كبير الشعلة ، وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيتة وشيكا ، وتحترق ذبائله فينطفئ نوره .

كان مصطفى كامل نشطاً سريع الحركة ، فقطع جسر الحياة في لحظة واحدة .

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما جاء مصطفى كامل علمهم كيف يصيرون ، فلما صاحوا وأسمعوا عرفوا أن آذان السياسة لا يخترقها إلا الصوت الجمهوري ولولاه ما كانوا يعرفون .

كان الوطنيون يحتقرون أنفسهم ، ويسعون الظن بها فلا يصدقون أن تربة مصر تنبت أمثال فولتير وهوجو وغاريبالدي واشنتون ، فلما نبغ بينهم مصطفى كامل عرفوا أن تربة مصر لا تختلف كثيراً عن تربة أوروبا لو تعهدا الزارعون .

كان لمصطفى كامل أنامل أشبه شيء بريشة الموسيقى يضرب بها على أوتار القلوب ، وكأنما كان بينه وبينها سلك كهربائي فهي تتحرك بحركته ، وتسكن بسكونه .

ما كان مصطفى كامل أذكى الناس ، ولا أعلم الناس ، ولا أعقل الناس ، ولكنه كان أشجع الناس ، كان يفكر فيقتنع ، فيصمم ، فيمضي ، فلا يثنى حتى الموت . كان يخطئ أحياناً في اتخاذ الوسائل إلى آماله ، ولكنه ما كان يتمهل كثيراً ليتبين أي طريق يأخذ ، ولا أي مسلك يسلك ، مخافة أن تفتر همته بين الأخذ والرد ، فيكون خطؤه في قعوده أكثر من خطئه في جهاده .

كان له منافسون يرمونه بالدخفة والطيش ، ويقولون له إنك مخطئ أو مضر أو غير محسن أو غير عظيم ، فما كان يصدق من ذلك شيئاً ، كأنما كان ينظر بعين الغيب إلى هذا اليوم الذي اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه وخصومه وأولياؤه أنه رجل عظيم .

كذلك لآثرت أن يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي لا من حيث تشخصها في أفعال الناس وأقوالهم ، فإذا استوثق منها ، وعلم أنها قد خالطت قلبه ، وأخذت مستقرها من نفسه ، جعلها ميزاناً يزن به أقواله وأفعاله كما يزن به أقوال الناس وأفعالهم ، ثم لا يبالى بعد ذلك أَرْضُوا عَنْهُ ، أو سَخَطُوا عَلَيْهِ ، أو أَحْبَبُوا ، أو أَبْغَضُوا ؛ فإنما يبكي على الحب النساء . »

* * *

العَبَرَات

كنت أغبط نفسي على التجلّد والصبر، وأحسبني قادراً على الاستمساك في كل رُزء مهما جُلَّ شأنه وعظُم وقعه ، فلما مات مصطفى كامل علمت أن من الرزايا ما لا يطاق تجرُّعه ، ولا يستطيع احتماله .

كل يوم نرى الموت، ولا نزال نعد الموت غريباً ، هيئات ! لا غربة في الموت ، ولكن الغريب موت الغريب .

كل يوم تمرُّ بنا قوافل الموتى فلا نأبه لها ، وأكبر نصيبها منا الحرقلة والاسترجاع ، فلما مرت قافلة مصطفى كامل ، دهشنا وجزعنا ، لأنه كان غريباً في حياته ، فأحرى أن يكون غريباً في مماته .

مات مصطفى كامل فعرفنا الموت وما كنا نعرفه قبل ذلك ؛ لأننا ما كنا نرى إلا أمواتاً ينقلون من ظهر الأرض إلى بطنها ، أما مصطفى كامل فكان حياً حياة حقيقية ، فكان موته كذلك .

لا يحسب الكتاتيون أنهم صنعوا شيئاً إذا بذلوا لذلك الفقيد العظيم قطرة من الدمع ، أو قطرة من المداد ، فإنه كان يبدل لهم ماء حياته قطرة قطرة حتى أفناه ومضى لسبيله ، فشتان ما بين صنيعهم وصنيعه !

أين قطرات الدموع التي يريح بها الباكون

أيها الراحل المودع : طبت حياً أو ميتاً ، خدمت أمتك في حياتك وبعد مماتك ، لولا حياتك ما نمت العاطفة الوطنية في نفوس المصريين ، ولولا مماتك ما عرف العالم بأجمعه أن الأمة المصرية ، على اختلاف مشاربها ومذاهبها ، تجمعها كلمة واحدة ، وهي حب الوطن ، وحب رجاله العاملين .

* * *

دمعة على الإسلام

كتب إليّ كاتب من علماء الهند كتاباً يقول فيه إنه اطلع على مؤلف ظهر حديثاً بلغة التاميل ، وهي لغة الهنود الساكنين بنافور وملحقاتها بجنوب مدراس ، موضوعه تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني ، وذكر فضائله وكراماته ، فرأى فيه من بين الصفات والألقاب التي وصفت بها السيد عبد القادر ، ولقبه بها صفات وألقاباً هي أجدر بمقام الألوهية منها بمقام النبوة فضلاً عن مقام الولاية ، كقوله : «سيد السموات والأرض» و «النفّاع الضرار» ، و «المتصرف في الأكوان» ، و «المطلع على أسرار الخليفة» ، و «محيي الموتى» و «مُبرئ الأعْمى والأبرص والأكمه» ، و «أمره من أمر الله» ، و «ماحي الذنوب» و «دافع البلاء» ، و «الرافع الواضع» ، و «صاحب الشريعة» ، و «صاحب الوجود التام» ، إلى كثير من أمثال هذه النعوت والألقاب .

ويقول الكاتب إنه رأى في ذلك المؤلف فصلاً يشرح فيه المؤلف الكيفية التي يجب أن يتكفّف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني يقول فيه :

« أول ما يجب على الزائر أن يتوضأ وضوءاً سابقاً ، ثم يصلي ركعتين بخضوع واستحضار ، ثم يتوجّه إلى تلك الكعبة المشرفة ، وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول :

« يا صاحب الثقلين ، أغثني ، وأمدني بقضاء حاجتي ، وتفريج كربتي ، أغثني يا محيي الدين عبد

ما كان مصطفى كامل من الأغنياء ، ولا من بيت الملك ، وما كان أمراً ولا ناهياً ، ولا رافعاً ولا خافضاً ولكنه لقي من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته ما لم يلق واحد من هؤلاء ، ولا فضل لهم في ذلك عليه ، فهو الذي علمهم كيف يحترمون العقول ، ويُجلون المناقب والمزايا .

فيأبها القارئ الكريم ؛ إن كان لك ولد تحب أن تجعله رجلاً ، فاجعل بين يديه حياة مصطفى كامل ليتعلّم منها الشجاعة والإقدام .

ويأبها المصري ؛ كن أحرص الناس على وطنيتك ، ولا تبغ بها بدلاً من عرض الدنيا وزخرفها ، فإنك إن فعلت كنت مصطفى كامل .

ويأبها الإنسان ؛ أقدم على عظام الأمور ، ولا تلتفت يمناً ولا يسرة ، واخترق بسيف شجاعتك صفوف المعترضين والمنتقدين والمتهمين ؛ فإنهم سيترفون بفضلك ويسمّونك عظيماً ، كما سمّوا مصطفى كامل .

ويأبها الراحل المودع ؛ إن بين جنبيّ لوحة تعتلج لفرأقك لا أعرف سبيلاً إلى التعبير عنها إلا القلم .
ها أنذا أعالج القلم علاجاً شديداً على أن يسعفني بحاجتي ، وما أنذا ألقبه ظهراً لبطن وأكثر من استمداده وأضغط به على القرطاس ضغطاً شديداً ، فلا أراه يغني عني شيئاً .

خطر لي أن الحزن في سويداء القلب ، وأنه بعيد الغور لا تبلغ إليه هذه الأداة القصيرة التي في يدي فاستبدلت بها أداة أطول منها ، فكان حكمها حكم سابقتها .

إذن كيف أعبر عن وجدي عليك أيها الفقيد الكريم ، وقد خرس القلم وعي اللسان ؟! الآن عرفت السبيل ، ووصلت إلى ما أريد .

أنت الآن في عالم الأرواح وقد انكشف لك كل شيء من أسرار القلوب ودخائل الصدور ، ولا بُدّ أن يكون قد انكشف لك ما يكنّ قلبي من الوجد عليك ، فما حاجتي بعد ذلك إلى ترجمة القلم أو تعبير اللسان .

يلغوا من الشرك بالله مبلغهم ولم يُغرقوا فيه إغراقهم ؟

يدين المسيحيون بآلهة ثلاثة ، ولكنهم كأنهم يشعرون بغربة هذا التعدد ويُعده عن العقل فيُجملون فيه ويقولون إن الثلاثة في حكم الواحد ، أما المسلمون فيدينون بالآلاف من الآلهة أكثرها جذوع أشجار ، وجثث أموات ، وقطع أحجار من حيث لا يشعرون !

كثيراً ما يُضمر الإنسان في نفسه أمراً ، وهو لا يشعر به ، وكثيراً ما تشتمل نفسه على عقيدة ، وهو لا يحس باشتغال نفسه عليها ، ولا أرى مثلاً لذلك أقرب من المسلمين الذين يلجؤون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور ، ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود ، فإذا عتب عليهم في ذلك عاتب ، قالوا: «إنا لا نعبدكم وإنما تتوسل بهم إلى الله .» كأنهم لا يشعرون أن العبادة ما هم فيه ، وأن أكبر مظهر من مظاهر الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين إليه يلتمسون إمداده ومعوته ، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون .

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ؛ ليرفع نفوس المسلمين ويغرس في قلوبهم الشرف والعزة والأنفة والحمية ، وليتق رقابهم من رق العبودية ؛ فلا يذلّ صغيروهم لكبيرهم ، ولا يهاب ضعيفهم قويهم ، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل ، وقد ترك الإسلام ، بسرّ عقيدة التوحيد ، ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولى ؛ فكانوا ذوي أنفة وعزة وإباء وغيره ، يضربون على يد الظالم إذا ظلم ، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده في سلطانه: « لا تغلّ في تقدير نفسك ، ولا تخرج عن دائرتك ، فإنما أنت عبد مخلوق ، لا ربّ معبود ، واعلم أنه لا إله إلا الله .»

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد ، أما اليوم ، وقد داخل عقيدتهم ما داخلها من الشرك الباطل تارة والظاهر أخرى ، فقد ذلت

القادر ، أغثنى يا ولي عبد القادر ، أغثنى يا سلطان عبد القادر ، أغثنى يا بادشاه عبد القادر ، أغثنى يا خوجه عبد القادر ، يا حضرة الغوث الصمداني ، يا سيدي عبد القادر الجيلاني ، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج إليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة .» ويقول الكاتب أيضاً: «إن في بلدة ناكور في الهند قبراً يسمى «شاه الحميد» وهو أحد أولاد السيد عبد القادر كما يزعمون ، وإن الهنود يسجدون بين يدي ذلك القبر سجودهم بين يدي الله ، وأن في كل بلدة وقرية من بلدان الهند وقراها مزاراً يمثل مزار السيد عبد القادر ؛ فيكون القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في تلك البلاد ، والملجأ الذي يلجؤون في حاجاتهم وشدائدهم إليه ، وينفقون من الأموال على خدمته وسدنته وفي موالده وحفلاته ما لو أنفق على فقراء الأرض جميعاً لصاروا أغنياء !»

هذا ما كتبه إليّ ذلك الكاتب ، ويعلم الله أني ما أنتمت قراءة رسالته حتى دارت بي الأرض الفضاء ، وأظلمت الدنيا في عيني ، فما أبصر مما حولي شيئاً حزناً وأسفاً على ما آلت إليه حالة الإسلام بين أقوام أنكروه بعد ما عرفوه ، ووضعوه بعد ما رفعوه ، وذهبوا به مذهب لا عهد له بها ، ولا قبل له باحتمالها .

أي عين يجمل بها أن تستقي من شؤونها قطرة لا تُريقها أمام هذا المنظر المؤثر - منظر أولئك المسلمين وهم رُكّع سجد على أعتاب قبر ميت ! ربما كان بينهم من هو خير منه في حياته ، فأحرى أن يكون كذلك بعد مماته !

أي قلب يستطيع أن يستقر بين جنبي صاحبه ساعة واحدة ، فلا يخفق وجداً أو يطير جَزَعاً حينما يرى المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر المشركين إشراكاً بالله ، وأوسعهم دائرة في تعدد الآلهة وكثرة المعبودات !

لماذا ينقم المسلمون التثليث من المسيحيين ؟ ولماذا يحملون لهم في صدورهم تلك الموجدة وذلك الضغن ؟ وعلام يحاربونهم ؟ وفيم يقاتلونهم وهم لم

الغيب إلا الله . وقوله مخاطباً نبيه : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضررا » . وقوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » !

إنكم تقولون في صباحكم ومساءلكم وغدوكم ورواحكم : « كل خير في اتباع من سلف ، وكل شر في ابتداع من خلف » . فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يُجصِّصون قبرا أو يتوسَّلون بضريح ؟ وهل تعلمون أن أحداً منهم وقف عند قبر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته يسأله قضاء حاجة أو تفرّج كربة ؟ وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ؟ وهل تعلمون أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل ، نهى عنها عبثاً ولعباً ، أم مخافة أن تعبد للمسلمين جاهليتهم الأولى ؟ وأي فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور مادام كل منها يجرُّ إلى الشرك ، ويُفسد عقيدة التوحيد .

والله ، ما جهلتم شيئا من هذا ، ولكنكم أثرتُم الدنيا على الآخرة ، فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم ، وانتقاص أمركم ، وسلط عليكم أعداءكم يسلبون أوطانكم ، ويستعبدون رعايكم ، ويخربون دياركم ، والله شديد العقاب .

* * *

السياسة

« حضرة السيد القاضل ،

« ما لك لا تكثر من الكتابة في الشؤون السياسية إكتارك منها في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية ؟ وكيف يضيّق بالسياسة قلمك وقد وسع كل شيء ؟ ! فاكتب لنا في السياسة ، فأمّتك تحب أن تراك سياسياً ، والسلام » .

(فلان)

رعايهم ، وخفقت رؤوسهم ، وضربت نفوسهم ، وفترت حميتهم ، فرضوا بخطة الخسف ، واستناموا إلى المنزلة الدنيا ، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم ، فغلبهم على أمرهم وملكوا عليهم نفوسهم وأموالهم ومواطنهم وديارهم فأصبحوا من الخاسرين .

والله ، لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم ، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهنائها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد . وإن طلوع الشمس من مغربها وانصباب ماء النهر في منبعه أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده مادام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله ، ويقولون للأول كما يقولون للثاني جل جلاله : « أنت المتصرف في الكائنات ، وأنت سيد الأرضين والسموات » !

إن الله أغير على نفسه من أن يسعد أقواما يزدرونه ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهرياً ، فإذا نزلت بهم جائحة أو ألمت بهم ملة ذكروا الحجر قبل أن يذكروه ، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه .

بمن أستغيث وبمن أستجد ؟ ومن الذي أدعو لهذه الملة ؟ أ أدعو علماء مصر الذين يتهافون على يوم الكنسة ^(١) تهافت الذباب على الشراب ، أم علماء الآستانة ، وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني فيلسوف الإسلام ، وأحيوا أبا الهدى الصيادي شيخ الطريقة الرفاعية ، أم علماء العجم ، وهم الذين يحجون إلى قبر الإمام ، كما يحجون إلى البيت الحرام ، أم علماء الهند ، وبينهم مثل مؤلف ذلك الكتاب ؟ !

يا قادة الأمة ورؤساءها ؛ علّنا العامة في إشراكها وفساد عقائدّها ، وقلنا : « إن العامي أقصر نظراً وأضعف إدراكاً من أن يتصور الألوهية إلا إذا رآها ماثلة في النصب والتماثيل والأضرحة والقبور » فما عذركم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله ، وتقرؤون صفاته ونعوته وتفهمون معنى قوله تعالى : « لا يعلم

(١) يوم يذهب فيه علماء الدين إلى ضريح الإمام الشافعي للتبرّك بكنس قرايه .

التي يتعلمها الإنسان في مدرسة أو يدرسها في كتاب ، وإنما هي مجموعة أفكار قانونها التجارب ، وقاعدتها العمل ، أ تدري لماذا ؟

لأن العلماء أشرف من أن يدونوا المكاييد والحيل في كتاب ، والمدارس أجل من أن تجعل بجانب دروس الأخلاق والآداب دروس الأكاذيب والأباطيل ، وإلا فكل طائفة من طوائف المعلومات المتشابهة تدخل بطبيعتها تحت قانون عام يؤلفها ويجمع بين أشنانها .

هؤلاء هم السياسيون ، وهذه هي أخلاقهم وغرائزهم في الأعم الأغلب من شؤونهم وأطوارهم . فهل تظن أيها الكاتب أن رجلاً نصب نفسه لنصرة الحقيقة والأخذ بضميعة القضية لاستنقاذها من بين مخالب الرذيلة ، ووقف قلمه على تهذيب النفوس وترقية الأخلاق ، وملاً في رسائله فضاء الأرض والسما بكاء ونواحاً على أمته المسكينة المستضعفة يستطيع أن يكون سياسياً أو محباً للسياسيين ؟

* * *

خداع العناوين

لقد جهل الذين قالوا : « إن الكتاب يُعرف بعنوانه » ، فإني لم أر بين كتب التاريخ أكذب من كتاب بدائع الزهور ، ولا أعذب من عنوانه ، ولا بين كتب الأدب أسخف من كتاب جواهر الأدب ، ولا أرق من اسمه ، كما لم أر بين الشعراء أعذب اسماً ، وأحط شعراً من ابن مليك وابن النيه ، والشاب الظريف .

لقد كثر الاختلاف بين العناوين ، وبين الكتب حتى كدنا نقول : « إن العناوين أدل على نقائضها منها على مفهوماتها ، وأصق بأضدادها منها بمنطوقاتها ، وإن العنوان الكبير حيث الكتاب الصغير ، والكتاب الجليل حيث العنوان الضئيل . »

أيها الكاتب ،

يعلم الله أنني أبغض السياسة وأهلها بُغضي للكذب والغش والخيانة والغدر .

أنا لا أحب أن أكون سياسياً ، لأنني لا أحب أن أكون جلاداً .

لا فرق عندي بين السياسيين والجلادين ، إلا أن هؤلاء يقتلون الأفراد ، وأولئك يقتلون الأمم .

هل السياسي إلا رجل عَرَفَ أمته أنه لا يوجد بين أفرادها من هو أقسى منه قلباً ، ولا أكثر كيداً ؛ فنصبته للقضاء على الأمم الضعيفة ، وسلبها ما وهبها الله من الحسنات ، وأجزل لها من الخيرات ؟

أليس أكبر السياسيين مقاماً ، وأعظمهم فخراً ، وأسيرهم ذكراً ذلك الذي نقرأ صفحات تاريخه ، فرى حرونها من أشلاء القتلى ، ونقطها من قطرات الدماء ؟

أ يستطيع الرجل أن يكون سياسياً إلا إذا كان كاذباً في أقواله وأفعاله ، يطن ما لا يظهر ، ويظهر ما لا يطن ، ويسم في مواطن البكاء ، ويكي في مواطن الابتسام ؟

أ يستطيع الرجل أن يكون سياسياً إلا إذا عَرَفَ أن بين جنبيه قلباً متحجراً لا يلققه بؤس البائسين ، ولا تزعجه نكبات المنكوبين ؟

كثيراً ما يسرق السارق ، فإذا قضى مأربه رفع يده متضرعاً إلى الله أن يرزقه المال حلالاً حتى لا يتناوله حراماً . وكثيراً ما يقتل القاتل ، فإذا فرغ من أمره جلس بجانب قتيله يبكي عليه بكاء الشكلى على وحيدها . أما السياسي ، فلا يرى يوماً في حياته أسعد من اليوم الذي يعلم فيه أن قد تم له تدبيره في إهلاك شعب وإفقار أمة ، وآية ذلك أنه في يوم انتصاره ، كما يسميه هو ، أو في يوم جنايته ، كما أسميه أنا ، يسمع هتاف الهاتفين مطمئن القلب ، مثلج الصلر ، حتى ليخيل إليه أن الفضاء بأرضه وسمائه أضيق من أن يسع قلبه الطائر المعطوق فرحاً وسروراً .

يقولون : « إن السياسة ليست علماً من العلوم

الأتقياء

لولا خداع العناوين ما سمينا صالِحًا تقياً كل من حرك سُبْحته ، وأطال لحيته ، ووسع جَبْته ، وكوّر عمامته . ولقد نعلم أن وراء هذا العنوان الأبيض كتاباً أسود الصفحات ، كثير السقطات ، وأن تحت هذا الستر الحريري الرقيق نفساً سوداء مظلمة لا ينفذ إليها شعاع من أشعة الرحمة ، ولا تهب عليها نسمة من نسيمات الإحسان .

لن يؤمن المؤمن حتى يذل في سبيل الله أو في سبيل الجماعة ، من ذات نفسه أو ذات يده ، ما يشق على مثله الجود بمثله ، أما الجود بالشفاء للمهممة ، والأنامل للمسيحة ، فعمل لا يتكلف صاحبه له أكثر مما يتكلف لتقليب ناظره ، وتحريك هديه ، وهل خلقت الشفاء إلا للتحريك ، والأنامل إلا للتقليب ؟

إن للإيمان مواقفَ يمتحن الله فيها عباده ، ليعلم الدين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فإن بدل الضنين بماله ماله في مواقف الرحمة والشفقة ، والشميح بنفسه نفسه في سبيل اللود عن حوضه ، والدب عن عشيرته وقومه ، وضعيف العزيمة ما يملك من قوة وأيد في مغالبة شهوات النفس ومقاومة نزواتها ، فذلك المؤمن الذي لا يشوب إيمانه رياء ولا دهان ، ولا يخالط يقينه خداع ولا كذب ، أو لا فأهون بهمهمته ودمدمته ، ومسواكه ومسيحته ، وهو بعنوان المنافق الكاذب أحرى منه بعنوان التقي الصالح ! « أ حسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون . »

الوطنيون

كنا وكان الرجل لا يبلغ مايشتهيه من رتبة الوطنية إلا إذا قام في أمته مقاماً محموداً ؛ يخاطر فيه بإحدى جوهرتيه ؛ ليدفع عنها خطباً مقبلاً ، أو يتقدها من بلاء محيط ، فإما بلغ في هجرته الغاية التي يريد ، وإما هلك من دونها هلاكاً لا تؤلم نفسه صدمته ، ولا تمر بفمه غضاضته ، لأنه مخلص . وحسب المخلص ، جزاء له على

إخلاصه ، أنه رقى دينه الذي كان يُثقل ظهره وكفى ، فأصبحنا وليس بين المرء وبين نيل ألقاب الوطنية الأولى ، وشاراتها الفضلى ، إلا صرخة عالية يصرخها في أحد المجامع ، أو كلمة تافهة يكتبها في إحدى الصحف حتى تقام له الحفلات كما تقام لعظماء الرجال ، وتمد إليه الأصابع كما تمد للقواد الأبطال . وربما كانت صرخة ذلك الصارخ جنة^(١) تمثلت في رأسه تمثلت النهي في رأس الحمار ، فلما حان حينها عطس بها في ذلك المجمع الذي صادفه في طريقه ؛ لينفّس عن نفسه ، ويفرّج من كبريته ، وربما كانت كلمة ذلك الكاتب نعمة من نعمات السؤال التي يترجم بها المتسولون ، أو رقية من رقى المخرقين التي يهمهمون بها استئداء للأكف واستدراكاً لحسنات المحسنين .

أعجب ما يعجب له المرء في هذه الأمة ، أنها لا تصدق الرجل المستور إذا ادعى على آخر بفلس أو سحت حتى تطالبه بالشهود العدل ، والصكوك المؤكدة والإيمان المخرجة ، فإذا قام بين يديها من لا تعرف له عدلاً في سيرته ، ولا صدقاً في قوله ، ولا إخلاصاً في عمله ، فادعى الوطنية لنفسه ، والوطنية أئمن من الجوهر المتقى واللؤلؤ المكنون ، حكمت له بصحة دعواه في قضيته حكم القضاة الظالمين ، بغير بينة ولا يمين !

لولا خداع العناوين لوجدنا بين التجار الأمناء الذين يخدمون أمتهم بالصدق في القول والأمانة في العمل ، والموظفين الشرفاء الأعفَاء الذين لا يحابون ولا يصانعون ، والحكام العادلين المخلصين لله وللأمة في السر والعلن ، والزارعين المستقيمين ، والصناع المجدين ، والأكابر^(٢) المستضعفين ، من هو أولى بلقب الوطنية من أولئك الصارخين المتهوسين ، والكاتبين المخادعين .

الأمجاد

يقولون : « إن الولد سر أبيه » ، ويريدون بذلك أنه المرأة التي ترسم فيها صورته ، والبذرة التي تكمن

(١) جنة: جنون . (٢) الأكابر: الحركات .

السَّبَق وراء الدَّرهم البعيد منالهُ حتى تنبهر أنفاسه ، وتتخاذل أوصاله ، حتى لو تخيل أن نجوم السماء دنائيرٌ منشورةٌ لطار إليها بغير جناح فسقط هاروكا ، أو أن في بطن الأرض كنزاً مذكوراً لتمنى أن لو انفجر بركائها تحت قدميه فابتلعه فأصبح من الهالكين .

الغنيُّ هو الغنيُّ بما في يده عما في أيدي الناس ، والفقير هو الذي لا يقنعه في هذه الحياة مقنع ، ولا تقف به نفسه عند مَطْمَع .

فانظر ، تحت أيِّ عنوانٍ من هذين العنوانين تَضَع البخلاء المومنين !

المجرمون

حضرتُ مجلساً من مجالس الأحكام حكم فيه قاضٍ مرتش على متهم سرق رغيفاً ، فوضعت يميني على فمي مخافة أن يخرج أمرُ نفسي من يدي فأهتف صارخاً ، لما أَلَمَ بقلبي من الرُّعب والفرع ، صرخةٌ تدوي بها جوانب القاعة ، دويُّ الموج الثائر ، في البحر الزاخر ، قائلاً : « مهلاً ، رويداً أيها الحاكم الظالم ، فأنت إلى قاضٍ عادل تقف بين يديه ، أحوج منك إلى كرسي فخم تجلس عليه ، ولو عدل القانون بينك وبين هذا المائل بين يديك لَبَتَ وأعلاكما الأسفل ! »

إنك ترتزق في كل شهر ثلاثين ديناراً ، فلم ترتش إلا لأنك شره طماع ! وهذا السارق لم يسرق ذلك الرغيف إلا لأنه جائع ملتحاح ، ولو ملك مما تملك ثلاثين درهماً ما فعل فعلته التي فعل ، فأنت مجرمٌ إلا أنك في وشاح شريف ، وهو شريف ، إلا أنه في سِمْلة مجرم .

فيا لله للحقيقة التي عبثت بها القوانين ، ولعبت بعقول الناس فيها العناوين !

رُبَّ نفس بين جدران السجون أظهر قلباً ، وأنقى رُذناً^(٢) وأبيض عِرضاً من مثلهما بين جدران القصور ، ورب طريدةٍ من طرائد المجتمع الإنساني ساقها المقدر ، الذي لا مفرٍّ من حكمه ، إلى وقفة فوق أعواد المشنقة كان أجدر بها ذلك المرابي الذي

(٢) الرُّذْنُ: الكُرم .

فيها حقيقته وماهيته ، وعلى هذه القاعدة بنى البانون قاعدة المجد ؛ فأعظموا شأن الرجل الذي يمسك بطرفِ سلسلةٍ في النسب يتصل أولها بعظيم من عظماء النفوس ، أو شريف من شرفاء الأخلاق .

ثم ما زال الناس يعبثون بعنوان الشرف ، ويتوسعون في معناه ، حتى نظموا في سلكه الجبابرة الذين يسمونهم أمراء ، والظلمة الذين يسمونهم ملوكاً ، والسفاحين الذين يسمونهم قواداً ، واللصوص الذين يسمونهم وجهاء ، فساقهم الخطأ في فهم الشرف إلى الخطأ في فهم المجد ؛ فسموا ماجداً كل من ولد في فراش ملك ، وإن كان الحاكمَ بأمر الله ، أو أمير وإن كان الحجاج ، أو وزير وإن كان ابن الزيات ، أو قائد وإن كان تيمورلنك ، أو غني وإن كان قارون !

لا مجدَ إلا مجدُ العلم ، ولا شرفَ إلا شرفُ التقوى ، ولا عظمة إلا عظمة الآخذين بيد الإنسانية البائسة رحمةً بها وحناناً عليها .

أولئك هم الأمجاد ، وأولئك الذين يفخر الفاعخرون بالاتصال بهم والانتماء إليهم ، وأولئك هم المفلحون .

الأغنياء

لم أر بين جماعة المتسولين الذين يضربون في الأرض وراء لقمة يتبلمون بها أو خرقة يتقون بخيوطها البالية ما يتقون من لفحة الرِّمضاء ، وهبة النكباء ، ولا بين البؤساء الذين يحرقون فحمة الليل بكاءً ونحيباً حول صغار كفراخ القطا يتلوون في مضاجعهم من الجوع تلويّ الأفاعي المضطربة ، فوق الرِّمال الملتهبة ، وتحت الشمس المحرقة ، أسوأ حالاً ، ولا أنكذ عيشاً ، ولا أكثرَ عناء ، من هؤلاء الفقراء ، الذين يسميهم الناس أغنياء .

يأكل المومر الباخل كما يأكل الفقير ، ويجلس كما يجلس ، وينام كما ينام ، ويتشهى كما يتشهى ، حتى لتكاد تثب أعضاؤه من جوفه ، وتسيل أحشأؤه من فمه شوقاً إلى ما حُرِّم على نفسه من شهوات العيش وملذاته ، ويستن^(١) استنان الجواد الضامر في ميدان

(١) استنَّ الجواد: قمص وعدا إقبالاً وإدباراً .

يعلم الناس جميعاً ، أن طلب المحال عثرة من
عثرات النفوس ، وضلّة من ضلالات العقول ،
ولكنني أطلب مطلباً واحداً لا أرى في عقول الناس
وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوّره وإدراكه ، أن
يهذبوا قليلاً من هذه المصطلحات التي أنسوا بها ،
والعناوين التي جمدوا عليها ، فلا يُسمّون المنافق تقيّاً ،
ولا المخادع وطنياً ، ولا المتمجّد ماجداً ، ولا
البخيل غنياً ، ولا المفلوك مجرماً ، ولا المتوحّش
متمدينّاً ، حتى لا ينزع محسن عن إحسانه ، ولا
يستمرّ مسيء في إساءته .

* * *

الإغراق

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذمّ ،
تموت الحقيقة موتاً لا حياة لها من بعده إلى يوم
يُعْثون .

يسمع السامع أن زيداً ملك كريم ، ثم يسمع أنه
شيطان رجيم ، فيخرج منه صيفر اليمين ، لا يعلم أين
مكأنه من هذين الطرفين .

يقولون: « إن المشعوذين إذا أرادوا أن يسخروا
أعين الناس وضعوا في سقف غرفة قطعة من
المغناطيس ، وفي أرضها قطعة أخرى ، ثم يتركون في
الفضاء قطعة من الحديد لا تزال تترجح بين هذين
الجاذبين . »

هكذا تضطرب الحقيقة في أيدي المغرّقين ،
اضطراب الحديدية في أيدي المشعوذين .

الحقيقة بين الكاذب والكاذب ، كالجل بين
الجاذب والجاذب ، كلاهما ينتهي به الأمر إلى
الانقطاع .

لو علّم الذي يتصبّ نفسه للموازنة بين
الأشخاص أنه جالس على كرسيّ القضاء ، وأن
الناس سيسألونه عما قال ، كما يسألون القاضي عما

ينصبّ حيالة ماله لخراب البيوت العامة ، وإطفاء
النجوم الزاهرة ، أو ذلك القائد الذي يسفك في
مواقفه دم مائة ألف أو يزيدون في غير سبيل سوى
سبيل المجد المصنوع ، والفخر الموضوع ، أو ذلك
السياسيّ الذي يدبر المكيدة للحملة على أمة
مستضعفة آمنة في مرقدها سعيدة في نفسها ،
فيستعبد أحرارها ، ويستذل أعزائها ، ثم يسلبها أمن
ما تملك يمينها من حرّيتها واستقلالها ، وسعادتها
وهناها .

التمدينون

ليس بين المصريّ وبين أن يأخذ من إخوانه
المصريين لقب الشابّ العصريّ ، أو الرّجل التمدّين
إلا أن يصقل جبهته ، ويصف طرّته ، ويفتح فمه
للابتسام المتصنع ، ويقوس يده للسلام المتعمل ،
ويستكثر في حديثه من ذكر المدينة الغربية وشؤونها ،
وسرد أسماء نساءها ورجالها ، وطرفها ونوادرها ،
ويستحسن ما تستحسنه ، وإن كان البراز والانتحار ،
ويستطرف ما تستطرفه ، وإن كان الزّندقة والإلحاد .
وربما زاد على ذلك شيئاً من العلم بفلسفة
الميكروبات ، ونظرية البالونات ، ثم لا يحول بعد ذلك
تمدينّه بينه وبين أن يكون فاسقاً ينتهك الحرمات ، أو
مدمناً يترامى على أعقاب الحانات ، أو أحمق لا
يصفح عن ذنب ، ولا يصانع في هفوة ، ولا يعفو عن
سيئة ، أو سفيهاً يشتم حتى أميره وسلطانّه ، ووالده
وأستاذّه ، أو وقّاح الوجه لا يستحي لمكرمة ولا يفضي
لمروءة ، أو شحيحاً لا يشرك صاحبه في مطعم ولا
مشرب ، ولا يفتح بابه لضيف زائر ، أو طارق حائر .

إن كان حقّاً ما يقولون من أن التمدّين يصقل
الطبائع الخشنة ، ويقومّ الألسنة المعوجة ، ويهذب
النفوس الجافية ، ويوسع الصدور الحرجة ، فكثير ممن
ندعوهم متمدينين متوحشون ، وكثير ممن نسميهم
همجيين مهذبون .

لو كان بي أن أكتب لمحو الفساد من
المجتمع الإنساني ، والقضاء على شروره وآثامه لما
حركت يدي ، ولا جرّدت قلمي ، لأنني أعلم ، كما

رجال العصور الآتية ، وأني ذهبتُ إلى دار من دور الكتب القديمة ، لأفْتش فيها عن تاريخ عظيم من عظماء عصركم ، فقرأتُ ما كتبتموه عنه في مؤلفاتكم وصحفكم ، فرأيتُه تارةً عظيمًا وأخرى حقيرًا ، ومرةً شريفًا ومرةً ضييعًا ، ورأيتُه عالمًا وجاهلاً وذكيًا وغبييًا وعاقلاً وممروراً^(١) في آن واحد ، فخرجتُ أضلُّ مما دخلتُ ، لا أعرفُ من تاريخ الرجل أكثر من أنه رجل ، أي أنه ذكّرُ بالغ من بني آدم .

أيها القوم ؛ إنكم لا تستطيعون أن تكونوا رجالاً عادلين في أحكامكم وآرائكم إلا إذا أصلحتم نفوسكم قبل ذلك ، وتعلّمتُم كيف تستطيعون أن تتجردوا عن أهوائكم وأغراضكم قبل أن تمسكوا بأقلامكم .

أيها القوم ؛ إن عجزتم عن أن تكونوا عادلين ، فكونوا راحمين ، فارحموا أنفسكم وأعفوها من الدُخول في مأزق أنتم عاجزون عنه ؛ فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات ، وسئمت نفوسنا تلك المبالغات .

* * *

اللقطة

مرَّ عظيمٌ من عظماء هذه المدينة برُقاق من أزقة الأحياء الوطنية في ليلة من ليالي الشتاء ضريح نجمها ، حالكٍ ظلامها ، فرأى تحت جدار متهدّم فتاةً صغيرةً في الرابعة عشرة من عمرها جالسةً القرفصاء^(٢) وقد وضعتُ رأسها بين ركبتيها انقاءً للبرد الذي كان يعيثُ بها عبثَ التكبّاء بالعود ،

(١) الممرور: المصاب بخبل في عقله .

(٢) القرفصاء: أن يحنّي الرجل يديه فيضعهما على ساقيه وهو جالس .

حكم ، ما طاش سهمه في حكمه ، ولا ركّبَ متنّ الغلو في تقديره .

كما أنه يجب على القاضي أن يقدر لكل جريمة ما يناسبها من العقوبة ، كذلك يجب على الكاتب أن يضع كل شخص في المنزلة التي وضعته فطرته فيها ، وأن لا يعلو به فوق قدره ، ولا ينزل به دون منزلته .

ليس بين كتاب هذا العصر من لم يقرأ في التاريخ الماضي متناقضات الأحكام على الأشخاص ، وليس بينهم من لم يتمنّ أن يكون في موضع أولئك المؤرخين حتى لا يغلو غلوهم ، ولا يتطرفَ تطرفهم في أحكامهم .

أيها الكتاب المحزونون ؛ لا يحزنكم ما كان ، فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشره ، ولئن فاتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الماضي ، فلن يفوتكم أن تكونوا مؤرخي العصر الحاضر ، كما أن للماضي مستقبلًا وهو حاضركم هذا ، فسيكون لهذا الحاضر مستقبلٌ يحاسبكم فيه رجاله على هفواتكم في أحكامكم ، كما تحاسبون اليوم رجالَ الماضي على غلوهم في أحكامهم ، وتطرفهم في آرائهم .

إن من التناقض بين أقوالكم وأعمالكم أن تنقموا من المؤرخين المتقدمين ما أنتم فاعلون ، وتأخذوا عليهم ما أنتم به آخذون .

كلُّ كاتب عندكم أكتُبُ الكتاب ، وكلُّ شاعر أشعرُ الشعراء ، وكلُّ مؤلف أعلمُ العلماء ، وكل خطيب رئيسُ الأمة ، وكل فقيه إمامُ الدين ؛ فأين الفاضلُ والمفضول ؟ وأين الرئيس والمرعوس ؟ وكيف يكون زيد اليوم أفضلَ من عمرو ، ويكون عمرو غدًا أفضلَ منه ؟ وأين ملكة التمييز التي وهبها الله لكم لتمييزوا بها بين درجات الناس ومنزلهم ؟ وهل بلغ التفاوت بين عقولكم وأذواقكم أن يكون الرجل الواحد في نظر بعضكم خيرَ الناس ، وفي نظر البعض الآخر شرُّ الناس ؟

إني حبستُ الآن قلمي عن الكتابة ؛ لأتجرّد عن نفسي ساعةً من الزمان ، فتحيلتُ كأنّي رجل من

وليس في يدها ما تنقيه به إلا أسمال تترأى مرّتها (١)
فوق جسمها العاري كأنها آثار السياط فوق أجسام
المستعبدين في عهود الاستبداد .

وقف الرجل أمام هذا المشهد المحزون المؤثر وقفة
الكريم الذي تؤله مناظر البؤس ، وتزعج نفسه مواقف
الشفاء ، ثم تقدّم نحوها وهزّ يدها برفق فرفعت رأسها
مرتاعة مذعورة ، وهمت بالفرار من بين يديه وهي
تصيح : « لا أعود لا أعود ! » فلم يزل يمسحها (٢)
ويروّضها حتى هدأ روعها ، وعاد إليها رشدها ،
وعلمت أنها ليست بين يدي الرجل الذي تخافه ،
فنظرت إليه نظرة هادئة ساكنة لو أنها اتصّلت بلسان
ناطق وفم لحدّثت عما وراءها من لواجع الأحزان ،
وأفانين الأشجان .

« ما اسمك أيتها الفتاة ؟ »

« لا أعلم يا سيدي ! »

« بماذا ينادونك ؟ »

« يدعونني اللقطة . »

« وهل أنت لقطعة كما يقولون ؟ »

« نعم يا سيدي ، لأنني لا أعرف لي أباً ولا أمّاً ،
في الأحياء ولا في الأموات ، سوى رجل يتولى شأني
ويضمّني في منزله . وكنت أحسبه أبي ، فيمتلئ قلبي
سروراً به وعطفاً عليه ، فلما رأيت أنه يعدّني عذاباً
أليماً ويحمّلني من آلام الحياة وأسقامها ما لا يحمله
الآباء أبناءهم ، علمت أنني وحيدة في هذا العالم ،
وفهمت معنى الكلمة التي يناديني بها ، فألمّ بنفسي
من الحزن والألم ما الله عالم به . وكنت كلما
مشيت في الطريق ورأيت فتاة صغيرة سألتها : « ألك
أم ؟ » فتجيبني : « نعم » ، ثم تقص عليّ من قصص
عطف أمها عليها ورأفتها بها ما يزيدني همّاً ، ويملاً
قلبي يأساً ، حتى كان يخيل إليّ أنني أذنبت قبل
وجودي في هذا العالم ذنباً عاقبني الله عليه بهذا
الوجود . بيد أنني صبرت على هذا الرجل ، وعلى ما
كان يكلفني به من التسوّل على قارعة الطريق إبقاءً

على نفسي ، وضناً بحياتي أن تغتالها غوائل الدهر .
وكان كلّما رأى حاجتي إليه وإلى مأواه اشتطّ في
ظلمي ولؤم في معاملتي ، حتى صار يضربني ضرباً
مُبرحاً كلما عدت إليه عشاءً بأقلّ من الجعل الذي
فرض عليّ جمعه في كل يوم . وما زلت أصابره
برهة من الزمان ، حتى جاءني هذه الليلة بداهية
الدواهي ومصيبة المصائب ؛ فقد حاول أن يسلب من
بين جنبيّ جوهرة العفاف التي لم يبق في يدي ما
يعزّيني عن ما فقدته من هناء الحياة ونعيمها سواها ،
فلم أر لي بداً من أن أفرّ من بين يديه متسلّلة تحت
جنح الظلام من حيث لا يشعر بمكاني . وما زلت
أمشي على غير هدًى ، لا أعرف لي مذهباً ولا
مُضطرّاً ، حتى أويت إلى هذا الرّفاق كما تراني .
فهل لك يا سيدي أن تحسن إليّ ، كما أحسن الله
إليك ؟ وأن تبتاع لي رغيّاً من الخبز أتبلّغ به ، فقد
مرّ بي يومان لم أذق فيهما طعاماً ولا شرباً ؟ »

سمع الرجل من الفتاة هذه المحزنة فما استقبلها
إلا بدموع حارة تنحدر على خديه انحداراً العقده وهي
سلّكه ، ثم أخذ يدها ومشي بها صامتاً واجماً لا
يكاد يستفيق شهيّاً وزفيراً حتى بلغ منزله . وهناك
صنع بها صنع الكريم بأهله ، وأبلغها من دهرها
ما لم تكن تمنّي نفسها بالوشلّ القليل منه . وما هي
إلا أيام قلائل حتى ظهرت في قصر ذلك الرجل
العظيم فتاة جديدة من أجمل الفتيات وجهاً ،
وأكرمهن أخلاقاً ، وأرقهن شمائل ، وأكملهن آداباً ،
لا يعرف عنها كل من عرف صاحب القصر سوى
أنها ابنة قريب له مات عنها ، وخلفها يتيمة ؛ فكان
إلى هذا القصر مصيرها .

وكان لصاحب القصر فتاة من الفتيات اللواتي
ربّين التربية الحديثة التي يسمونها التربية العصرية ،
ويريدون منها «التربية الإفرنجية» ، فكان كل ما
حصلت عليه من العلوم والمعارف ، الفنون الآتية :

(١) الرّطانة الأعجمية حتى مع خادمتها الرّنجي ،
وكلبها الرومي .

(٢) الولوع بمطالعة الروايات الغرامية .

(١) المزق : القطع . (٢) مسحه : أمرّ يده عليه .

حتى وصل إلى شجرة اللقاء ، فكمن وراءها ينتظر ما خبأ له الدهر من حدثاته ، وما أضمر له الغيب في طياته .

لم تكن الرسالة رسالة اللقطة الوضيعة ، بل رسالة السيدة الشريفة . وبينما كانت الثانية واقفة في غرفتها أمام مرآتها ، تختار لنفسها أجمل الأزياء وأليقها بمواقف اللقاء ، كانت الأولى نائمة في غرفتها نوماً هادئاً مطمئناً لا تزعجه زوارة الطيف ، ولا تروعه أحلام الشباب ، حتى سمعت وقع أقدام سيدها على سلم القصر فاستيقظت ، ثم رايها موقفه ؛ فأشرفت عليه من حيث لا يشعر بمكانها فغرفت كل شيء ، و علمت أن سيدها سيقف على سرابنتها الذي كانت تعالج كتمانها زمناً طويلاً ، وأنه لابد قاتل نفسه في ذلك الموقف حزناً وأأساً ، فعناها من أمره ما عناها ، ثم أطرقت برأسها لحظة تتلمس وجه الحيلة في دفع هذه النازلة ، وتطلب المخرج منها ، ثم رفعت رأسها وقد قررت في نفسها أمراً .

نزلت مسرعة من سلم القصر ، فرأت الفتاة قد خرجت من باب القصر إلى ذلك الموعد فأدركتها ، وأمسكت بطرف ثوبها فارتاحت والتفتت إليها ، وقالت لها : « ماذا تريدن مني ؟ أتعجسين علي ؟ » قالت لها : « لا يا سيدتي . » وأفضت إليها بالقصة من مبدئها إلى منتهاها ، فأسقط في يدها ، وعلمت أن أباه قد وقف على سرها . فقالت لها : « لا تزعجي نفسك ؛ فإن أباك لا يعلم أيننا صاحبة الكتاب ، فعودي إلى غرفتك ، وسأذهب إلى الموعد مكانك حتى إذا رأيته هناك ذهب من نفسه ما كان يخالجها من الشك في أمرك . »

ثم استمرت أدراجها حتى وصلت إلى تلك الشجرة . وهنالك ، برز الرجل من مكمنه ، واقترب منها حتى عرفها ؛ فحمد الله على سلامة شرفه وشرف ابنته ، ثم قال لها :

« أيتها الفتاة إني أحسنت إليك ، واستنقذتك من يد البؤس والشقاء ، فأسأت إلي بما فعلت حتى كدت أهلك الليلة حزناً وغماً ، وألصق بابنتي

(٣) البراعة في معرفة أي الأزياء أعلق بالقلوب وأجذب للنفوس .

(٤) الكبرياء والعظمة واحتقار كل مخلوق سواها حتى أبويها .

(٥) الأثرة وحب الذات حباً يملأ قلبها غيرة وحسداً ؛ حتى إنها لا تستطيع أن تسمع وصفاً من أوصاف الحسن يوصف به سواها .

رأت هذه الفتاة الشريفة أن هذه الفتاة اللقطة قد أصبحت تقاسمها قلباً أبيها وقلوب الزائرات من النساء بما وهبها الله من جمال الخلق وجمال الخلق ، فأضمرت لها في قلبها من البغض والموجدة ما يضره أمثالها من اللواتي زين ونهجن في سبل الحياة منهجها ؛ فكانت تتعمد إساءتها وازدراءها ، وتغري بتبكيته وتأييها ، والفتاة لا تبالي بشيء من هذا وفاءً لسيدها وولي نعمتها ، وترفعاً عن النزول إلى منزلة من يغضب لمثل هذه الهنات الصغيرة ، حتى حدثت ذات يوم هذه الحادثة :

دخل صاحب القصر قصره ليلة من الليالي ، فبينما هو صاعد على سلم القصر إذ عثر برقعة ملقاة فتناولها ، فقرأ هذه الكلمة :

سيدتي ،

أنا منتظركِ عند منتصف الليل في بستان القصر تحت شجرة السرو المعسورة .

عبيدك

فما أتم الرجل قراءة البطاقة حتى دارت به الأرض الفضاء ، وحتى لمس قلبه يمينه ؛ ليعلم أطار أم لا يزال في مكانه ، ثم كأنه أراد أن يخفف ما ألمّ بنفسه من الحزن والقلق ، فقال : « لعل ذلك الموعد مع تلك الفتاة اللقطة ، ومن الظلم أن أتهم ابنتي قبل أن أعلم الحقيقة . » فنظر في ساعته فإذا الساعة قريبة ، فرجع أدراجه ، ومازال يترقق في مشيته ، ويتنقل في الحديقة من شجرة إلى شجرة ،

أن تفعل فعلتك التي فعلت أنك ستبرز إلى هذا العالم فتاة تلاقى من شقائه وآلامه ما لا قيل لها ، ولا لمخلوق من البشر باحتماله ؟

ويأبىها الآباء العظماء ، إن كنتم تريدون أن تسلموا بناتكم إلى هذه المدنية الغربية تتولى عنكم شأنهن ، و تكفل لكم تربيتهن ، فانتزعوا من بين جنوبيكم ، قبل ذلك ، غرائر الشهامة والعزة والأنفة ، حتى إذا رزأكم الدهر فيهن ، وفجعكم في أعراضهن ، وقفتم أمام تلك المشاهد هادئين مطمئنين ، لا تتعذبون ولا تتألون .

ويأبىها الناس جميعا ، لا تحفلوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب ، ولا تفرقوا بين تربية الأكوخ وتربية القصور ، ولا تعتقدوا أن الفضيلة وقفت على الأغنياء ، وجائس على العظماء ، فقد علمتم ما أضمر الدهر في صدره من رذائل الشرفاء ، وفضائل اللقطاء .

* * *

الصندوق

« حضرة السيد الفاضل :

يوجد في ضريح السيد البدوي صندوق توضع فيه النذور التي يبلغ مجموعها في العام نحو ستة آلاف جنيه ، فإذا فتح ذلك الصندوق يختص بعض الخلفاء بأخذ نحو الربع مما فيه ، والباقي يوزع على أصحاب الأنصبة الكثيرين الذين يعدون بالمئات ، فهل ترون أن هذه القسمة شرعية ، مع أن الذين يأخذون الألواف أغنياء ، والذين يأخذون الآحاد فقراء ؟ أفنتا أيها السيد الفاضل بما يوجه الإنصاف والعدل الديني في هذه المسألة التي أصبحت الشغل الشاغل لكثير من الناس .

« ابن جلا »

أيها السائل :

أراك تسألني عن القسمة الشرعية في هذا المال ،

ذنيك ، وأحمل عليها عارك ، فاخرجني من منزلي ، فاللهم ليس أهلاً للإحسان !

فخرجت خائبة تتعثر في أذيالها حتى وصلت إلى شاطئ النهر . و هنالك ، أخرجت مذكرتها من محفظتها وكتبت فيها آخر كلمة خطتها أناملها :

« أحمد الله أنى قدرت على مكافأة ذلك الرجل الذي أحسن إليّ بستر عاره ، وإزالة همه وحزنه ، واقتدائه بنفسه ! »

ثم ألفت بنفسها في النهر ، وما هي إلا دورة أو دورتان حتى افترق ذاتك الصديقان الوفيان ، جسمها وروحها ، فطفا منهما ما طفا ، ورَسب ما رَسب .

و في صباح ذلك اليوم عثر الشرط بجثة الفتاة الشهيدة فمرفوها ، وعادوا بها إلى منزل سيدها ، فبكاها بكاء كثيراً وندم على ما أساء به إليها من طردها ولزعاجها ، ثم أمر بدفنها ، ولم يبق في يده من آثارها غير حقيبتها التي حفظها في صندوقه دهرًا طويلًا .

مرت الأيام تلو الأيام ، وجاءت الحوادث إثر الحوادث ، وظهر للرجل من أخلاق ابنته وطباعها ونهتها واستهتارها ما لم يكن يعرفه من قبل ، حتى ضاق بأمرها ذرعًا . وجلس في غرفته في إحدى الليالي يفكر فيما ساق إليه الدهر من خطوبه وزواياه ، ثم ألم به الضجر ، فقام يقلب في صندوقه حتى عثر بتلك الحقيبة ، ولم يكن قد فتحها حتى هذه الساعة ، فإنه ليقرأ فيها إذ عثر بتلك الكلمة التي كتبتها الفتاة على شاطئ النهر قبل موتها ، فما أتى على آخرها حتى عرف كل شيء ، فسقط مغشيًا عليه يعالج من الحزن والهم ما يعالج المحضّر من سكرات الموت .

فما استفاق من غشيته حتى صار يهذي هذيان المحموم ، وليث على هذا الحال بضعة أشهر يمرض ثم يُبَلِّ ، ثم يمرض ثم يبَلِّ حتى أدركته رحمة الله فمرض مرضًا لم ينقض إلا بانقضاء أجله .

فيأبىها الوالد المجهول الذي قذف بتلك الفتاة البائسة في بحر هذا الوجود الزاخر ؛ أ علمت قبل

في موضعها ، ولا يَطْرُقُ باباً من أبواب البر والمعروف .

وعندي أن مثلاً هذا المال بعد أن خرج من يد صاحبه إلى غير يد ، وانقطعت ملكيته الأولى من حيث لم تقم مقامها ملكية أخرى ، يُعتبر مالاً مهملاً لا صاحب له ، ولا علاقة لأحد به .

وأحسن الحالات الشرعية والعقلية في مثل هذا المال أن يُنفق في مصارف الصدقات التي اعتبرها الشارع واعتمدها وافتتحها بأداة الحصر التي تمنع غيرها من الاشتراك معها في حكمها في قوله تعالى: « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل » .

فإن كان بين هؤلاء القوم المتظلمين من قلة أنصبتهم في ذلك الصندوق ذو حاجة ، فهو داخل في قسمه من الآية الشريفة ، فله الحق في ذلك المال من حيث كونه فقيراً مُعَدِّماً كعامة فقراء المسلمين ، لا من حيث أن له علاقة بصاحب الضريح تُسَوِّغُ له أن يكون من ذوي الأنصبة في صندوقه ، فإن أمثال هذه العلاقات قد انقطعت بانقطاع الجاهلية الأولى ، فلا هياكل اليوم ولا سُدَّة ، ولا وسطاء ولا شفعاء ، ولا أقران تُعَلِّقُ في آذان الأصنام ، ولا عقود تُقَلَّدُ بها أعناق الأوثان ، ولا مال يوضع مع الموتى في قبورهم ؛ لينتفعوا به عندما يبدو لهم القيام من مراقدهم ، وإنما الناس جميعاً سواء بين يدي الله سبحانه وتعالى ، لا فضل لأحد عنده على أحد إلا بالتقوى ، ولا زُلْفَى لأحد يزِدلف بها إليه إلا بقيته وإيمانه وبره وإحسانه .

ذلك ما أراه في هذه المسألة ، وهذا ما أعتقد فيها ، ولا أعلم إن كنت أرضيت الناس فيما كتبت ، أو أغضبت ، وإنما أعلم أنني أرضيت ضميري وخالقي وحسي ذلك وكفى .

* * *

كأنك تعتقد أنه ميراث شرعي ، وأن لهؤلاء الذين تسميهم أصحاب الأنصبة من الحق في هذا المال ما للوارثين من مال المورثين .

إن الذي أعلمه أن هذا الحق المزعوم حقٌّ موهوم لا يستطيع أن يحمله الحامل على وجه من الوجوه الشرعية ؛ لأن الذين يضعون المال في ذلك الصندوق وأمثاله لا يريدون أن يهبوه لأحد من سُدَّة ذلك الضريح أو خدمته أو أصحاب العلائق بالميت المدفون فيه ، ولو أنهم أرادوا ذلك لما كان بينهم وبين هؤلاء القوم حائل يمنعهم عن وضع ذلك المال في أيديهم ، ولكنهم لما تصوروا أن ذلك الميت حي في قبره يسمع نجواهم ويفهم حديثهم ، ويلبي دعاءهم ، تجسم في نظرهم هذا الخيال ؛ فأرادوا أن يعطوه جميع أحكام الأحياء حتى في حب المال وادِّخاره ، فخيّل إليهم أن الصندوق من الميت بمنزلة الكيس من الحي ، فهم يهبونه المال ، ويضعونه في صندوقه ؛ لأنهم يعجزون عن وضعه في يده !

أما كيفية تصرف الميت بهذا المال ، والبحث عن مذاهبه ومراميه ، فهو أمر لا يخطر على بالهم ، ولا يدخل في باب مقاصدهم وأغراضهم ، فإن وجد بينهم من يعلم أن مرجع هذا المال الذي يضعه في الصندوق إلى سُدَّة الضريح وخدمته وأشياخ صاحبه ، فعلمه هذا لا يستفاد منه أنه يهبه لهم أو يمنحه إياهم ؛ لأنهم لو أرادوه على أن يعطيهم ذلك المال ، أو يعطيهم بعضه ويستبقوا لنفسه البعض الباقي لما وسعه ذلك ، ولا رأى إن فعله أنه عمل عملاً صالحاً .

بل هو يعتقد أن أخذهم المال من الصندوق أمر لا علاقة له به ، ولا شأن له فيه ؛ لأن المال قد خرج من يده إلى صاحب الضريح ، وصاحب الضريح يتصرف في ماله كيف يشاء .

فهو في جميع حالاته وشؤونه لا يهب هبة صحيحة ، ولا يتصرف تصرفاً شرعياً ، ولا يضع صدقة

الغناء العربي

وكما أن الأبيات قيود المعاني ، كذلك الألحان قيود الأبيات ، فلا يزال المعنى مُشردًا ههنا وههنا حتى يحويه بيت من الشعر فيستقر في مكانه ، ثم لا يزال البيت يتجانب عن الأذان ذات اليمين وذات الشمال حتى يقوده الصوت الحسن ، فإذا هو مستودع في الصدور .

والغناء فن من الفنون الطبيعية تهتدي إليه الأم بالفطرة المترنمة في هدير الحمام وخرير المياه وحفيف الأشجار ، فمن أبكاه الحمام غرد تغريده كلما أراد البكاء ، ومن أطربه صوت الناعورة رنّ رنينها ، ليطرب جملة أو ناقتة فينشطان للمسير .

وما زال هذا الفن مُتبدِّلًا ببدواة الأمة العربية لا يكاد يتخطى فيها حذاء الجمال ، ومناغة الأطفال ، حتى إذا انتقلت من مضيق الحاجيات إلى منقّسح الكماليات توسعت فيه ، وزادت في أنغامه وضروبه ، وتفتنت في آلاته وأدواته . وكذلك كان شأن العرب في جاهليتهم ينظمون أشعارهم على نسب متوازية ، فالبيت يوازن البيت في ترتيب الحركات والسكنات وتعدادها ، والشطر والتفعيلة يوازنان الشطر والتفعيلة كذلك ، فكانهم كانوا يهيئون لأنفسهم بمذهبهم هذا في الشعر ألحانًا موسيقية ، غير أن معارفهم لم تكن تتسع لأكثر من هذا النوع من الموسيقى ، وهو نوع التناسب الشعري الذي هو قطرة من بحر هذا الفن الزاخر ، ثم استمر شأنهم على هذا حتى جاء الإسلام واختلطت الأمة العربية بالأمة الفارسية التي كان لها من حضارتها وتمدينها متسع للبراعة في هذا الفن والتفنن في مناحيه ومقاصده ، ووفد الكثير من مغني الفرس والروم موالً في بيوت العرب ، وفي أيديهم العيذان والطناير والمعازف والمزامير يلحنون بها أشعارهم الفارسية والرومية ، فسمعها منهم العرب فاقبضوها ولحنوا بها أشعارهم تلحينًا بدوًا فيه أسانذتهم ، وولدوا ألحانًا وأنغامًا لم يؤت بها من قبلهم ، شأنهم في جميع الفنون والصناعات التي كانوا يقتبسونها من الأمم المتمدينة المعاصرة لهم ، وظهر فيهم رجال أذكىء كان لهم الفضل الباهر في تقدم الغناء واتساعه مثل ابن سريج ، ومخارق ،

الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن إبرازها اللسان ، فأبرزتها الألحان ، فهو أفصح الناطقين لسانًا ، وأوسعهم بيانًا ، وأسرعهم نفاذًا إلى القلوب ، وامتزاجًا بالنفوس ، واستيلاءً على العقول ، وأخذًا بمجامع الأفئدة . ويبان ذلك أن النطق ثلاث طبقات تختلف درجاتها باختلاف درجات الإبداع والتأثير فيها ؛ فأدناها النثر ، وأوسطها الشعر ، وأعلاها الغناء ، فلو أنّ عاشقًا برّح به الهجر مثلاً فأراد أن يُبلغك ما في نفسه من ذلك ، فإن قال لك : « إني مهجور » فحسب ، فقد أبلغك بعض ما في نفسه ، وترك في قلبك من الأثر بمقدار ما احتمله طبقة النثر من التأثير ، وإن أنشدك قول الشاعر :

فوا كبدا من حب من لا يحبني

ومن زفراتٍ ما لهن قنأء

أو قول الآخر :

كأن قطاةً علقتُ بجناحها

على كبدي من شدة الخفقانِ

فقد سلك بك طريق الخيال ، وصور لك خواطر نفسه بصورة أوضح من الصورة الأولى ، وترك في نفسك أثرًا أعظم من الأثر الأول ، وإن رفع عقيرته وكان يجيد التوقيع يتغنى بقول القائل :

وارحمتا للفریب بالبلد لنا

زح ماذا بنفسه صنعنا

فارق أحبابه فما انتفعوا

بالعيش من بعده ولا انتفعنا

فقد صور لك قلبه كما هو ، وألمسك مواقع الآلام والأوجاع فيه ، فبلغ بك التأثير منتهاه ، وربما بكيت عند سماعه حزنًا ورحمة ؛ وما بكيت إذ بكيت إلا لأن الغناء لم يُبق بقيةً من خواطر هذه النفس القريحة إلا نطق بها لك وأسمعك إياها .

فإن دعاه إلى الغناء لديه أمير أو وزير وجد من قوة الدالة بنفسه ما يدفع به الطلب عنه . ويروى أن ابن أبي عتيق ، وهو من نعلم في شرف البيت وجلال المحل ، رأى ابن عائشة يوماً وحلقه مخدوش فقال : « من فعل بك هذا ؟ » قال : « فلان » وأشار إلى ضاربه ، فمضى ونزع ثيابه وعاد فجلس للرجل على بابه ، فلما خرج أخذ بتلبيبه^(٢) وجعل يضربه ضرباً موجعاً والرجل يصيح : « أي شيء صنعت ؟ وما ذنبني إليك ؟ » وهو لا يجيبه حتى بلغ منه ، وأقبل الناس فحالوا بينه وبينه ، وسألوه عن ذنبه ، فقال : « إنه أراد أن يكسر مزماراً من مزامير داود ! يريد أنه خنق ابن عائشة وخدشه في حلقه . وما يروى من حوادث تبهه وترفعه أنه خرج من عند الوليد بن عبد الملك وقد غناه :

أبعدك معقلاً أرجو وحصناً

قد أعيتني المعاقل والحصون

فأطربه ، وأمر له بثلاثين ألف درهم وكثير من الثياب ، فبينما هو يسير إذ نظر إليه رجل من أهل وادي القرى كان يشتهي الغناء ، فدنا من غلامه ، وقال : « من هذا الراكب المختال ؟ » قال : « ابن عائشة المغني » . فدنا منه ، وقال : « جعلت فداك ! أنت ابن عائشة أم المؤمنين ؟ » قال : « لا أنا مولى لقرش وعائشة أمي ، وحسبك هذا فلا تكثر » . قال : « وما هذا الذي بين يديك ؟ » قال : « غنيت أمير المؤمنين صوتاً فأطربته ، فأمر لي بهذا المال وهذه الكسوة » . قال : « جعلت فداك ! هل تمن علي بأن تسمعي ما أسمعته إياه ؟ » فقال له : « وبلك ! أمثلي يكلم بمثل هذا في الطريق ؟ » قال : « فما أصنع ؟ » قال : « الحقني إلى المنزل » . يريد مخاتلته والنجاة منه ، وحرك بغلة شقراء تحته ؛ ليقطع عنه ، فعدا معه حتى وافيا المنزل كفرسي رهان . ودخل ابن عائشة ، فمكث طويلاً طمعاً في أن ينصرف فلم يفعل ، فلما أعياه قال لغلامه : « أدخله » . فلما

وطؤيس ، وإبراهيم الموصلي ، وابنه إسحاق ، وإبراهيم بن المهدي ، ومعبد الذي طالما ضربت به ويحسن صوته الأمثال على ألسنة فحول الشعراء ، كقول أبي عباد البحتري في وصف فرس كان أهدها إليه أحد الأمراء :

هزج الصهيل كأن في نبراته

نغمات معبد في الثقل الأول

والثقل والخفيف الأول والثاني أسماء اصطلاح عليها العرب ومرجعها إلى حركات الأصابع الخمسة في أوتار العود الخمسة شدة وضعفاً ، وما أحسن قول أبي العلاء المعري :

ولقد ذكرت لك يا أميمة بعد ما

نزل الدليل إلى التراب يسوفه^(١)

وهواك عندي كالغناء لأنه

حسن لدي ثقيله وخفيفه

وبالرغم من غضاضة الدين وغضارته في ذلك العهد ، عهد الصدر الأول وشدة في النهي عن التلهي بالغناء والعزف والزمز وأمثالها ، وتعيه على من يحترف بذلك أو يتخلقه ، فقد كان للمغنين الشأن الرفيع في مجالس الخلفاء والأمراء والنصيب الأوفر من جوائزهم ووصلاتهم ، ولا غرو في ذلك ، فسلطان الوجدان فوق سلطان الأديان ، ولقد بلغ من شأن المغنين وإدلالهم على الخلفاء أن إسحق الموصلي شتم إبراهيم بن المهدي في حضرة أخيه الرشيد غير هياب ولا وجل فما استطاع أخ الخليفة أن ينتصف لنفسه منه هيبة وإجلالاً ! وكان ابن عائشة المغني لا يغني إلا للملك أو ولي عهد حتى كان الخليفة إذا أراد أن يختار من بين أبنائه من يعهد إليه بالأمر من بعده لا يكتب له بذلك عهداً ؛ بل يأذن لابن عائشة أن يغني عنده ، فلا تطلع عليه الشمس حتى يفد الناس إليه يهتثونه بولاية العهد ،

(١) ساف التراب : اشتتمه ؛ يريد أنه ذكر حبيبته في أعظم أوقات

شدة وهو وقت ضلال الركب ونزول الدليل لشم التراب

ليعرف منه نوع الأرض التي يسرون فيها .

(٢) التلبيط : ما في موضع اللب من الثياب ، أي ما يدور بالنتوء

من القميص ونحوه .

أحدهم لا يحجم ، إن رأى في صوت صاحبه منتقداً ، أن يفجأه بالانتقاد ويبين له مواضع الخطأ ، مهما عظم شأن المجلس وشأن صاحبه . وكانت تقع بين بينهم المنافسات الشديدة في ذلك ، كما تقع بين العلماء في مجادلاتهم ومناظراتهم ، مما يدل على أن الغناء العربي كان له عند العرب صبغة جدية ، فوق صبغة اللهو ، وأن الغربيين في هذا العهد الأخير ليسوا بأعلم بصناعة الغناء ولا أقوم على أمرها من العرب في ذلك العهد الأول . ولو أن العرب توسعوا في فنونه وضروبه لبلغوا فيه الغاية التي لا غاية وراءها ، ولكنهم كانوا قلماً يحفلون بإدخاله في الأغراض العالية ، كالحروب ومواقف الفخر ، وأمثال ذلك من المناحي والمقاصد إلا قليلاً ، كما ورد في تاريخ الدولة العباسية أن أعداء البرامكة لما أرادوا الإيقاع بهم ، وعلموا أن سبيل الوشايات بهم إلى الرشيد سبيل وعز ، دسوا له من القيان من يغنيه بقول عمر ابن أبي ربيعة :

ليت هنذا أنجزتنا ما تعدُّ وشفت أنفسنا مما تعدُّ
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد
فحرك ذكر العجز والاستبداد ما كان كامناً في
نفس الرشيد ، من شعوره بسلطان البرامكة عليه
واستبدادهم بالأمر من دونه ، فقال عند تمام الصوت :
« نعم ، إني عاجز ، إني عاجز ! » ثم كان من أمره
معهم بعد ذلك ما كان .

ولقد مضى الصدر الأول من الإسلام وشأن فن الغناء العربي هذا الشأن العظيم ، خصوصاً في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية ، ثم أخذت شمسها الباهرة تنحدر إلى الغروب بانحدار اللغة العربية وشعرها ، حتى أصبح في حضارة الأندلس قُدوداً وموشحات ، بعد أن كان قصائد ومقطعات ، فكان لا يسمع أبناء العرب في ذلك العهد إلا قول المغني : « كحل الدجى يجري ، من مقلة الفجر ، على الصباح ، ومعصم النهر ، في حلال خضر ، من البطاح » ، أو قوله : « كَلَّيْ يا سحب تيجان الربى ، بالحلى ، واجعلي ، سوارها منعطف الجدول . »

دخل قال له : « من أين صَبَّكَ الله عليَّ ؟ » قال : « أنا رجل من أهل وادي القرى أشتهي هذا الغناء . » قال له : « هل لك فيما هو أنفع لك منه ؟ » قال : « وما ذاك ؟ » قال : « مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرف بها إلى أهلك . » فقال له : « جعلت فداك ! والله إن لي لبنية ما في أذنها - علم الله - حلقة من الورق ^(١) ، وإن لي لزوجة ما عليها - يشهد الله - قميص ، ولو أعطيتني جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على خلتي وحاجتي ، لكان الصوت أعجب إليّ منه ! » وما زال به حتى رحمه ابن عائشة وغناه الصوت بعد لأي ^(٢) ، فطرب له الرجل طرباً شديداً ، وجعل يحرك رأسه وينطح بها الجدار حتى خيف أن يندق عنقه ، ثم انصرف ولم يره في ماله شيئاً .

وفي هذا الحديث فوق الغرض الذي سقناه له ما يدل على أن الغناء العربي كان قريباً إلى القلوب ، وأنه كان منها بمنزلة الأصابع من الأوتار ، فإذا لمسها رنت رنين الثكلى المرزوعة في واحدتها ، وأن الوجدان العربي وجداناً رائق شفاف تأخذ منه مختلفات الأنغام ، فوق ما تأخذ الكهرياء من الأجسام ، كما تبلغ منه نظرات الغرام ، فوق ما تبلغ من عقل شاربها المدام . وكانت الأصوات عندهم تنسب إلى واضعها وتسمى بأسماء أصحابها كما هو الشأن في الشعر ، فيقال صوت إسحق أو معبد ، كما يقال شعر مسلم أو بشار . وكان أحرص على صوته من الكريم على عرضه ، فإذا صنع صوتاً لا يسمح لأحد من المغنين بأخذه عنه حتى يغنيه مراراً ، وتعرف نسبته إليه ، كما يفعل اليوم المخترعون والصانعون من أخذ الامتيازات بمخترعاتهم ومصنوعاتهم ، وكان لإسحق الموصلي القدرة الغريبة على مُخاتلة المغنين عن أصواته ، حتى صنع مرة صوتاً وأراد الفحول منهم أن يأخذوه بعد ما سمعوه منه أكثر من سبعين مرة ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

وكانت مجالس الغناء عندهم تشبه أن تكون مجالس علم لدراسة هذا الفن وتهذيبه ، فكان

(١) الورق : المفضة . (٢) اللائي : الجهد .

التوبة

علم فلان ، وكان شاباً من شبان الخلاعة واللهو وقاضياً من قضاة المحاكم ، أن المنزل الذي يجاور منزله يشتمل على فتاة حسنة من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرخاء ، فرنا إليها النظرة الأولى فتعلقها ، فكرها أخرى ، فبلغت منه ، فتراسلا ، ثم تزاورا ، ثم افترقا . وقد ختمت روايتهما بما تختم به كل رواية غرامية يمثلها أبناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود .

عادت الفتاة إلى أهلها تحمل بين جانحيها همًا يضطرب في فؤادها ، وجنيًا يضطرب في أحشائها ، ولقد يكون لها إلى كتمان الأول سبيل ، أما الثاني فسرّ مذاع ، وحديث مشاع ، إن اتسعت له الصدور ، لا تسع له البطون ، وإن ضنّ به اليوم لا يضمن به الغد .

ذلك ما أسهر ليلها ، وأقضى مضجعها ، وملك عليها وجدانها وشعورها ، فلم تر لها بدءاً من الفرار بنفسها ، والنجاة بحياتها ، فعمدت إلى ليلة من الليالي الداجية ، فلبستها وتلفعت بردائها ، ثم رمت بنفسها في بحر الأسود ، فمازالت أمواجها تتلفقها وتترامى بها حتى قذفت بها إلى شاطئ الفجر ، فإذا هي في غرفة صغيرة في إحدى المنازل البالية ، في بعض الأحياء الخاملة ، وإذ هي وحيدة في غرفتها ، لا مؤنس لها إلا ذلك الهمّ المضطرب ، وذلك الجنين المضطرب .

كان لها أم تحنو عليها ، وتتفقد شأنها ، وتجزع لجزعها ، وتبكي لبكائها ، وفارقتها . وكان لها أب لا همّ له في حياته إلا أن يراها سعيدة في أمالها ، مغتبطة بعيشها ، فهجرت منزله . وكان لها خدم يقمن عليها ويسهرن بجانبها فأصبحت لا تسامر غير الوحدة ، ولا تساهر غير الوحشة . وكان لها شرف يؤنسها ويملا قلبها غبطة وسروراً ، ورأسها عظمة وافتخاراً ، ففقدته . وكان لها أمل في زواج سعيد من

وليت الأمر وقف عند هذه الموشحات ، فإنها وإن لم تكن شعريّة اللفظ ، فهي شعريّة المعنى ، عالية الخيال ، وهي على علاقتها خير من شعر العامة الذي قضى عليهم فساد اللغة وانحطاطها بانتهاجه والتغني به ، كالزجل ، والموالي والقوما ، والدوبيت ، وكان ويكون ، وغير ذلك مما يسمى في عهدنا هذا بالأدوار ، والتواشيح ، والأغصان ، والمذاهب ، وأمثالها .

فهل لجماعة المغنين في عصرنا أن يعفونا من « أحب جميل طبعه الدلال » ، ومن « يا حلو صن عهد ودادي الله يصونك » ، ويأخذوا بنا في مسلك أشرف من هذا المسلك ، ويعيدوا للغناء العربي عهده الأول ، كما صنع شعراء العصر برفيقه الشعر ، فلقد كان الشعر والغناء أخوين أليفين ، رضيعي لثدي ، وضجيعي مهد ، ثم ضربهما الدهر بضرباته فافترقا . فماذا علينا لو قصرنا مسافة البعد بينهما ؟ وماذا على المغنين والشعراء في مصر لو عقدوا بينهم عهداً أن يهذبوا أخلاق أمتهم ويرفعوا شأنها ، ليكون لهم من الفضل في نهضتها وارتقائها ما عجز عن دركه الفلاسفة والحكماء ؟ فينظم الشاعر المقطعات الرقيقة العذبة السائغة في فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق كالشجاعة والشهامة والشرف وحب الوطن والاتحاد ، والترهيد في صفات الأمور والترغيب في عظائمها ، فيأخذها منه المغني ولا يتكلف في تلحينها أكثر مما يتكلفه في تلحين سواها من الأدوار والمواويل ، ثم يغنيها في الناس غير مبال بما يفجأ به ضعفاء النفوس من العامة من الانتقاد الملازم لكل عمل شريف في مبدئه . وفي اعتقادي أن لهذه الطريقة من الأثر الحسن في نفوس العامة ، وتهذيب أخلاقهم وطباعهم ، وتقويم ألسنتهم وعقولهم ما يخلد للملحنين والمغنين أجمل ذكر في تاريخ عظماء الرجال .

« إنها ستعيش من بعدي و تشقى في الحياة شقائي ، لا لذنب جنته ولا لجريمة اجترمتها سوى أنني أمها .

« هل تعيشين أيتها الفتاة حتى تغفري لي ذنب أمومتني حينما تسمعين قصتي ، وتفهمين شكاتي ؟
« لم يبقَ في يدي يا بنيتي من حُلَايَ إلا قليلٌ سألِعه كما بعث سابقه ، فكيف يكون شأني وشأنك بعد اليوم ؟

« محالٌ أن أعود إلى أبي فأقص عليه قصتي ، لأنه لم يبقَ لي مما يُعزيني عن شقاء العيش وبلاده إلا أن أهلي لا يعرفون شيئاً من أمري ، فهم سيكونني كما سيكون موتاهم الأعراء ، ولأن يكونوا مماتي ، خيرٌ لي ولهم من أن يكونوا حياتي !»

وكذلك ظلت تلك البائسة تحدث نفسها تارة وتلفتها أخرى بمثل هذا الحديث المحزن حتى غلبها صبرها على أمرها ، فأرسلت من جفنيها قطرات حارة من الدموع هي كلُّ ما يملك الضعفاء ، ويقدر عليه البؤساء .

دارت الأيام دورتها ، وباعت الفتاة جميع ما تملك يدها وما يحمل بدنها وما تشتمل عليه غرفتها من حليٍّ وثيابٍ وأثاث ، ولم يبقَ لها إلا قميصها الخلقان وملاءتها وبرقعها ، ولم يبقَ لطفلتها إلا ثيابٌ باليات تنم عن جسمها نيممة الوجه عن السريرة ، فكانت تقضي ليلها شرَّ قضاءٍ ، حتى إذا طار غراب الليل عن مجثمه أسدلت برقعها على وجهها ، وانثرت بمئزرها ، وأنشأت تطوف شوارع المدينة وتقطع طرقها لا تبني مقصداً ولا تريد غاية سوى الفرار بنفسها من همها ، وهمها لا يزال يسايرها ، ويترسم مواقع أقدامها .

وأحسب أن عجوزاً من عجائز الموابخر رأتها ، فألمت ببعض شأنها فاقفت أثرها حتى عادت إلى غرفتها ، فوغلَّت عليها ، ثم سألتها ما خطبها ، فأُنست بها وكذلك يأنس المصدورُ بنفثاته ، والبائس بشكاته ، فكشفت لها عن أمرها ، وألقت إليها بخبيثة صدرها ، ولم تترك خبراً من أخبار نعيمها ، ولا

زوج محبوب ، فرزأتها الأيام في أملها .

ذلك ما كانت تناجي نفسها به صباحها ومساءها ، بكورها وأصائلها ، فإذا بدا لها أن تفكر في علة مصائبها وسبب أحزانها ، علمت أنه ذلك الفتى الذي وعدها أن يتزوجها ، فخدعها عن نفسها ، ثم لم يبقَ لها بمعده فقذف بها ، وبكل ما تملك يمينها إلى هذا المصير .

فلا يكاد يستقر ذلك الخاطر في فؤادها ، ويأخذ مكانه من نفسها حتى تشعر بجذوة نار تتقد بين جنبتيها من الحقد والموجدة على ذلك الفتى ؛ لأنه قتلها ، وعلى المجتمع الإنساني ؛ لأنه لا يعاقب القاتل على جرمه ولا يسلكه في سلسلة المجرمين .

وما هي إلا أيام قلائل حتى جاءها المخاض ، فولدت وليدتها من حيث لا ترى بين يديها من يأخذ بيدها أو يساعدها على خطبها غير عجوز من جاراتها أملت بشأنها ، فمشت إليها وأعانتها على أمرها بضع ساعات ، ثم فارقتها تكابد على فراش مرضها ما تكابد ، وتعاني من صروف دهرها ما تعاني .

ولقد ضاق صدرها ذرعاً بهذا الضيف الجديد ، وهو أحبُّ المخلوقات إليها . وأكثرهم قرباً إلى نفسها . فجلست ذات ليلة وقد حملت طفلتها النائمة على حجرها وأسندت رأسها إلى كفها ، وظلت تقول :

« ليت أمي لم تلدني وليتني لم أكن شيئاً !

« لولا وجودي ما سعدت ، ولولا سعادتني ما شقيت .

« إن كان في العالم وجود أفضل منه العلم ، فهو وجودي !

« لقد كان لي قبل اليوم سبيل إلى النجاة من الحياة ، أما اليوم وقد أصبحت أمّاً فلا سبيل .

« أ أقتل نفسي فأقتل طفلي ، أم أحيا بجانبها هذه الحياة المريرة ؟

« لا أحسب الموت تاركي حتى يذهب بي إلى قبري ، فماذا يكون حال طفلي من بعدي ؟! »

ما كاد يذهب برشدها ، ذلك أنها عرفت وعرفت أنه ذلك الفتى الذي كان سبب شقائها ، وعلّة بلائها ، فنظرت إليه نظرةً شذراء ، ثم صرخت صرخة دوى بها المكان دويًا وقالت :

« رويدك يا مولانا القاضي ، ليس لك أن تكون حَكَمًا في قضيتي ، فكلانا سارق وكلانا خائن ، والخائن لا يقضي على الخائن ، واللص لا يصلح أن يكون قاضيًا بين اللصوص ! »

فعجب القاضي والحاضرون لهذا المنظر الغريب ، وغَضِبَ لهذه الجرأة العجيبة ، وهم أن يدعوا الشرطي لإخراجها ، فَحَسَرَتْ قناعها عن وجهها ، فنظر إليها نظرةً أَلَمَ فيها بكل شيء ، فشر بالردة تتمشى في أعصابه ، وسكن في كرسيه سكون المحتضر على سرير الموت ، وعادت الفتاة إلى إتمام حديثها فقالت : « أنا سارقةُ المال ، وأنت سارق العِرض ، والعرض أئمن من المال ، فأنت أكبر مني جناية ، وأعظم جرمًا . »

« إن الرجل الذي سرقَ ماله يستطيع أن يعزّي نفسه باسترداده أو الاعتياض عنه ، أما الفتاة التي سرقَتْ عرضها فلا عزاء لها ، لأن العرض الداهب لا يعود . لولاك لما سرق ، ولا وصلت إلى ما إليه وصلت ، فاترك كرسيك لغيرك ، وقف بجانيبي ليحاكمنا القضاء العادل على جريمة واحدة ، أنت مدبرها وأنا المسخرة فيها . »

« إن شريعة تعلم أننا شركاء في جريمة واحدة ، ثم تأتي بنا إلى هذا المكان ، فتقف أحدنا في أشرف المواقف ، وتقِفُ الآخر في أدناها ، لشريعة ظالمة ليس بينها وبين العدل نسب موصول ، أو ذمام غير منقُض . »

« رأيتك حين دخلت إلى هذا المكان ، وسمعت الحاجب يصرخ لمقدمك ، ويستنهض الصفوف للقيام لك ، ورأيت نفسي حين دخلت والعيون تتخطاني والقلوب تقتحمني ، فقلت يا للعجب ، كم تكذب العناوين ، وكم تتخدع الألقاب ، وكم يعيش ها العالم في ضلالة عمياء ، ورجالة جهلاء ! »

حادثًا من حوادث بؤسها لم تحدثها به . فعرفت الفاجرة محتتها ورأت عينها ذلك الماء من الحسن الذي يجول في أديم وجهها جولانَ الراح في زجاجتها ، وعلمت أنها إن أحرزتها في منزلها ، فقد أحرزت لنفسها غنى الدهر ، وسعادة العمر ، فلم تُرسل إليها عقاربها وتفت في نفسها عزائمها ورقاها حتى غلبتها على أمرها وقادتها إلى منزلها ، فما هي إلا عشية أو ضحاها ، حتى بلغت تلك الفتاة البائسة الغاية التي لا مفر لها ولا أمثالها من بلوغها .

عاشت تلك البائسة في منزلها الجديد عيشًا أشقى من عيشها الأول في منزلها القديم ، لأنها ما كانت تستطيع أن تزدرد لقمعتها التي هي كل ما حصلت عليها في دورها الثاني ؛ إلا إذا بذلت راحتها وشردت نومها ، وأحرقت دماغها بالسهر ، وأحشأها بالشراب ، وصبرت على كل من يسوقه إليها حظها من سباع الرجال وذئابهم على اختلاف طباعهم ، وتنوع أخلاقهم ؛ لأنها لم تر لها بدًا من ذلك ، فاستسلمت استسلام اليائس الذي لم تترك له ضائقة العيش إلى الرجاء سيلاً .

ولو أن الدهر وقف معها عند هذا الحد ؛ لألفت الشقاء ومرّت عليه ، كما يألف ويمرّ عليه كل من أصيب بمثل ما أصيبت به ، ولكنه أبى إلا أن يسقيها الكأس الأخيرة من كؤوس شقائه ؛ فساق إليها رجلاً كان يتقم عليها شاكًا من شؤون شهوراته ولذاته ، فزعم أنها سرقَت كيس دراهمه في إحدى لياليه عندها . ورفع أمرها إلى القضاء ، واستعان عليها ببعض أترابها الساقطات اللواتي كن يحسدنها ، وينقُسن عليها حسناتها و بهاءها حتى أدانها .

جاء يوم الفصل في أمرها ، فسيقّت إلى المحكمة ، وفي يدها فتاتها ، وقد بلغت السابعة من عمرها فأخذ القاضي ينظر في القضايا ويحكم فيها بما يشاء ، ويشاء له قانونه أو ذمته حتى أتى دور الفتاة ، فأدناها منه ، فما وقع بصرها عليه حتى شذمت عن نفسها وألم بها من الاضطراب والحيرة

العطف وألوان الإحسان ، حتى نسيا ما فات ، ولم يبق أمامهما إلا ما هوأت .

* * *

الحسد

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد ، وما أسدى إليه من نعمة ؛ لأنزله من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين ، ولوقف بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون بين أيدي المحسنين .

لا يزال صاحبُ النعمة ضالاً عن نعمته لا يعرف لها شأنًا ، ولا يُقيم لها وزنًا ، حتى يدله الحاسد عليها بئكرانها ، ويُرشده إليها بتزييفها والغض منها ، فهو الصديق في ثياب العدو ، والمحسن في صورة المسيء .

أنا لا أعجبُ لشيءٍ عَجَبِي لهذا الحاسد ، يَنقِمُ على حسوده نِعَمَ اللَّهِ عليه ، ويتمنى لو لم تَبَقْ له واحدةٌ منها ، وهو لا يعلم أنه في هذه النقمة وفي تلك الأمنية قد أضاف إلى نعم محسوده نعمةً هي أفضل من كل ما في يديه .

وجهُ الحاسد ميزان النعمة ومقياسُها ، فإن أردت أن تزن نعمةً وافتك ، فارم بخبرها في فؤاد الحاسد ، ثم خالسه نظرةً خفيةً فحيثُ ترى الكآبة والهم ، فهناك جمال النعمة وسناؤها .

ليس بين النعم التي يُنعم بها الله على عباده نعمةٌ أصغر شأنًا وأقلَّ خطرًا من نعمة ليس لها حاسد ، فإن كنت تريد أن تصفو لك النعم ، فقف بها في سبيل الحاسدين ، وألقها في طريق الناقمين ، فإن حاولوا تحقيرها وازدراءها ، فاعلم أنهم قد منحوك لقب «المحسد» فليهنأ عيشك ، وليعذبُ موردك !

إن أردت أن تعرف أيَّ الرجلين أفضل ، فانظر إلى أكثرهما نقمةً على صاحبه وكلفاً بالغض منه والتيل من عرضه ، فاعلم أنه أصغرهما شأنًا وأقلهما فضلاً .

« بَخْ بَخْ لأولئك القوم الذين منحوك هذه الشهادة ، شهادة العلم والفضل والأخلاق والآداب ومرحى مرحى لأولئك الذين أقعدوك هذا المقعد ، ووضعو بين يديك هذا القانون ، ووقفوا أمامك هذا الشرطي يأتمر بأمرك ، ويُنفذ حكمك وينزل على هواك !

« إن تحت هذه الثياب التي تلبسونها معشر القضاة نفوساً ليست بأقلَّ من نفوسنا شراً ، ولا أحبث منها مذهباً ، وربما لا يكون بيننا وبين الكثير منكم فرقٌ إلا العناوين والألقاب ، والشمائل والأزياء .

« أتيت بي إلى هنا ؛ لتحكم عليّ بالسجن كأن لم يكفك ما أسلفت إليّ من الشقاء حتى أردت أن تجيء بلاحتي لذلك السابق .

« أ لم أحسن إليك بساعة من ساعات السرور؛ فترعاها ؟

« أ لم تك إنساناً ، فترثي لشقائي ويلاتي ؟

« إن لم تكن عندي وسيلةً أمتُّ بها إليك ، فوسيلتي إليك ابتئك هذه ، فهي الصلة الباقية بيني وبينك .»

رفع القاضي رأسه ، ونظر إلى ابنته الصغيرة نظرة شفقة ورحمة ، وقد قرر في نفسه أن لا بدَّ له من أن يُنصفَ تلك البائسة ، ويتنصفَ لها من نفسه . غير أنه أراد أن يخلص من هذا الموقف خلوصاً جميلاً ، فأعلن أن المرأة قد طاف بها طائف من الجنون ، وأن لا بدَّ من إحالتها على الطبيب ، فصدق الناس قوله .

ثم قام من مجلسه بنفس غير نفسه ، وقلب غير قلبه ، وما هي إلا أيامٌ قلائل حتى هجر القاضي منصبه بحجة المرض ، وما زال يسعى سعيه حتى ضم إليه ابنته ، واستخلص أمها من قرارتها ، وهاجر بها إلى بلدٍ لا يعرفهما فيها أحد ، فتزوج منها ، وأنس بعشرتها واحترف في دار هجرته بحرفة لولا أن أدلَّ عليه إذا ذكرتها لفعلت . ولا يزال حتى اليوم يكفر عن سيئاته إلى زوجته بكل ما يستطيعه من صنوف

تستطيع أن تدخر لنفسك عند الله من المثوبة والأجر ما يدخر أمثالك من الصابرين المحسنين .

لا تقل إنها عمية ؛ فلا خير لي فيها ولا غبطة لي بها ، فإنك ستجد في نفسك من لذة المروءة والإحسان ، والعلف والحنان ، ما يحسدك عليه الناعمون بالحر الحسان ، في مقاصير الجنان .

اجلس إليها صباحك ومساءك ، وحادثها محادثة الصديق ، بل الزوج لزوج ، وتلطف بها جهدك ، وروح عن نفسها ما يساورها من الكروب والأحزان ، وقل لها لا تجزعي ولا تحزني ، فإنما أنا بصرك الذي به تبصرون ، وبك التي بها تبطشون .

أعذك أيها الإنسان بالله ورحمته ، والعهد وذمامه ، أن تجعل لهذا الخاطر السيئ - خاطر الطلاق أو الفراق سبيلاً إلى نفسك ، فإنها لم تسع إليك فتسيء إليها ، ولم تنقض عهدك فتنتقض عهداً ، فإن كنت لا بد نائراً لنفسك ، فاثار لها من القدر إن استطعت إلى ذلك سبيلاً .

إن عجزاً من الرجل وضعفاً أن يغضب ، فيمد يده بالعقوبة إلى غير من أذنب إليه ، ويعتدي على من لم يعتد عليه .

إن لم يكن احتفاظك بزوجه وإيقاظك عليها عدلاً يسألك الله عنه ، فليكن إحساناً تخاسبك الإنسانية عليه .

إنك خسرت بصرها ، ولكنك ستريح قلبها ، وحسب الإنسان من لذة العيش وهوائه في هذه الحياة قلب يخفق بحبه ، ولسان يهتف بذكره .

إنها أسعدتك برهة من الزمان ، فليخفق قلبك حناناً عليها بقدر ما خفق سروراً بها .

لا أحسب أنها كانت تاركك ، أو مُغفلة أملك لو أن هذا السهم الذي أصابها أصابك من دونها ، فاحرص الحرص كله على أن لا تكون امرأة ضعيفة أسبق منك إلى فضيلة الصدق والوفاء .

إلى من تعهد بها بعد فراقك إياها ؟ وأي موطن من المواطن هيأتها لمقامها ؟ وماذا أعددت لها من

قد جعل الله لكل ذنب عقوبة آتية يتألم لها ، فالشارب يتألم عند حلول مرضه ، والمقامر يوم نزول فقره ، والسارق يوم زيارة سجنه .

أما الحاسد فعقوبته حاضرة لا تفارقه ساعة واحدة ، إنه يتألم لمنظر النعمة كلما رآها ، والنعمة موجود من الموجودات الثابتة التي لا يلم بها إلا التنقل من مظهر إلى مظهر ، والتحول من موقف إلى موقف ، فهيهات أن يفنى ألمه ، أو ينقضي عذابه ، حتى تفر عينه التي تبصر ، ويسكن قلبه الذي يخفق !

الحسد مرض من الأمراض القلبية الفاتكة ، ولكل داء دواء ، ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود ؛ ليبليغ مبلغه من تلك النعمة التي يحسده عليها ، ولا أحسب أنه ينفق من وقته وعمله في هذه السبيل أكثر مما ينفق من ذلك في الغرض من شأن محسوده والنيل منه ، فإن كان يحسده على المال ، فليتنظر أي طريق سلك إليه فيسلكه ، وإن كان يحسده على العلم فليتعلم ، أو الأدب فليتأدب ، فإن بلغ من ذلك ما يره فذاك ، وإلا فحسبه أنه ملأ فراغ عمره بشؤون لولاها لقضاه بين الغيظ والفاتك ، والكمد القاتل .

* * *

الوفاء

« يا صاحب النظرات :

« تزوجت منذ سنة من زوجة صالحة طيبة القلب والسريرة ، فاغتبطت بعشرتها برهة من الزمان . وفي هذه الأيام عرض لها رمد في عينيها ؛ فذهب ببصرها ، فأصبحت عمياء ، وأصبحت أعمى بجانبها ، قد بدا لي أن أطلقها ، وأتزوج من غيرها فماذا ترى ؟ »

« إنسان »

أيها الإنسان لا تفعل ؛ فإنك إن فعلت كان عليك إثم الخائنين ، وجرم الغادرين . كن اليوم أحرص على بقائها بجانبك منك قبل اليوم ، حتى

الدولة العباسية ، وكان كفيف البصر : « اختلفت إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد أربعين سنة ، فما سمعته يقول لغلامه عند تشييعي خذ بيده يا غلام ، بل يقول اخرج معه يا غلام . »

فإن كنت تريد أن يُسجّل لك من الوفاء في صفحات القلوب ما سَجّل لأحمد بن أبي دؤاد في صفحات التاريخ ، فلا تطلق زوجتك ولا تنقم منها أمراً قد خرج حكمه من يدها ، وإن أبيت إلا أن تأخذ لنفسك حظها من لذة العيش وهوائه ، فاعلم أنه ما من لذة يَلْكُ بها الإنسان في حياته إلا ويشوبها الكدر ، أو يعقبها الألم ، إلا لذة الإحسان .

* * *

خبايا الزوايا

جلس قاضي التحقيق أمس على كرسيه في غرفته ، ووقف عن يمينه رجل من ذوي الأسنان^(١) قدر الثوب ، دميم المنظر ، تسنح شعرته البيض في أكتاف رأسه ولحيته سُوح الشرر الأبيض في الدخان الأسود ، وتشمشى في أديم وجهه صفرة مغبرة من رآها علم أنها نسيج ذلك الدخان ، دخان الحشيشة الذي ينفثه من فيه في صباحه ومساءه ، وغدوه ورواحه ، ووقف عن يساره صبابة ستة نُحُلُ الأبدان جوع الأكباد لم يترك لهم الدهر آكلُ البؤساء وشاربهم إلا هياكل من عظام تضطرب في رؤوسها عيون لا تستقر في محاجرها إلا إذا استقر الزئبق في قرار مكين .

نظر إليهم قاضي التحقيق نظرات تمازجها الرحمة ، وتخالطها الشفقة ، والقضاة لا يرحمون ولا يشفقون لولا أن من المناظر مناظر تنال من القلوب القاسية ، وتستهوئ الأقدمة المتحجرة . وأنشأ يسألهم واحداً بعد واحد ما شأنهم وما خطبهم وما مصيرهم ،

(١) جمع سن وهو العمر .

الوسائل التي تستعين بها على شؤون عيشها ، وتأنس بها في وحشتها ووحدها ؟ !

كيف يهنأ لك عيشٌ أو يغمضُ لك جفن إذا أظلك الليل فذكرتها ، وذكرت أنها تقاسي في وحدتها من الوحشة ما لا قبل لها باحتماله ، وأنها ربما كانت تطلب جرعة ماءٍ فلا تجد من يقدمها إليها ، أو كسرة خبز فلا تجد من يدّلها عليها ، أو ربما قامت من مضجعتها في سكون الليل وهدوئه تتلمس الطريق إلى حاجة من حاجها ، فأخطأ تقديرها فصدمها الجدارُ في جبينها صدمة سال لها دمها حتى امتزج بدمعها !

أيها الانسان ؛ إن لم تكن عادلاً ولا وفيّاً ولا محسناً ، فارحم نفسك من هذا الخيال الذي لا بد أن سيساورك ، ويقت في عضدك ، ويزعجك من مرقدك ، فإن لم تكن هذا ولا ذاك ، فغيرك أخاطب ؛ لأنني لا أحسن إلا مخاطبة الإنسان .

إني محدثك عن صديق لي من كرام الناس وأوفيائهم تزوج زوجة حسناء ، فاغبط بها برهة من الزمان ، ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجتك ، ولم يترك لها من ذلك النور الداهب إلا مثل ما تترك الشمس من الشفق الأحمر في صفحة الأفق بعد غروبها ، فلم يقنعه من الوفاء لها أن استبقاها واستمسك بها ، بل كان يحرص جهده على أن لا تعلم أنه ينكر من أمرها شيئاً ، حتى إنه كان يعتب عليها في بعض الأحيان في ذنوب ما كان له أن يؤاخذها بها إلا من حيث كونها ناظرة مبصرة ، يريد بذلك أن يلقي في نفسها أنه لا يعرف من قصة نظرها شيئاً ، وأنه لا يرى فيها غير ما يراه الرجال من نسائهم المبصرات ، وفقاً بها وإبقاء على ما ربما تحب أن تحاول من الاعتداد بنفسها ، والإدلال بمزاياها .

ولقد قرأت جملة صالحة من نوادر العرب في آدابهم ، ومكارمهم وأخلاقهم ، ولطف وجدانهم ؛ فلم أرَ بينها نادرة أعلق بالقلوب ، ولا أجمل أثراً في النفوس من قول أبي عبيدة الكاتب المعروف في عهد

وقائع لا يسرُ منظرُها ، ولا يروق مخبرها ، وحوادث لو تلاها التالون على مسمع الفلك الدائر ، لوقف عن دورته ! أو الجبل الشامخ لصيق من دهشته !

« إن بين هؤلاء الذين تراهم وقوفاً في أشرف المواقف بعد مواقف الرُّسل ، والذين تُغضي بين أيديهم العيون إجلالاً وإكباراً ، وتترامى على أيديهم الأفواه لثماً وتقبيلاً ، والذين أسلمت الأمة أمر بنيتها إليهم ، وأخذت عليهم ما شاء الله أن تأخذ من العهود والمواثيق أن يكونوا لأولئك الأبناء آباء محسنين ، وأوصياء راحمين ، قوماً لصوباً يسرقون الأعراس ، وخونةً يعشون بالأمانات ، وقتلةً يقتكون بأعراس تلاميذهم ، فيوردونهم موارد الحثف والهلاك ، ويجعلون مصيرهم مصير أولئك الصبيان الذين فارقناهم في غرفة التحقيق ».

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد ، حتى سرى عن نفسي ما كنت أمسكه بين جنبي من الموجدة على ذلك الرجل ، وعلمت أن الجناية ليست جنابة الحشاشين والحمارين ، وإنما هي جنابة المريئين ، وجريرة المهذَّبين .

أساء الأبُ بإدخال ولده المدرسة ، وكان خيراً له لو أدخله المزرعة حيث لا سقوف ولا جدران ، ولا خبايا ولا زوايا ، ولا مكان ولا مخادع ، وحيث يجد الثابتُ هناك من الطيبة . الطاهرة أستاذاً أميناً مستقيماً ، لا عاهراً ولا فاسقاً ، ولا خائناً ولا غادراً ، وحيث يرتشف من عرق جبينه نهلات بارداتٍ أصفى من المرآة وأطهر من الكوثر .

وأساء المعلمُ ؛ لأنه هو الذي عمد إلى ذلك الصبي الطاهر ، فمزق عنه برقع عقافه وتصونه ، ثم قذف به في ذلك المزدحم الإنساني المائج بالشور والآثام لا يحمل في يده سلاحاً يحارب به ، ولا يعرف السبيل إلى جنة يدفع بها عن نفسه ، فما له بدٌ من العجز أمام القادرين ، والهزيمة بين أيدي المهاجمين .

وأساء الناسُ جميعاً بإغفالهم أمر هؤلاء البؤساء ، وإسكاحهم القوت عنهم والمعونة لهم ، ولو أحسنوا

فكان جوابهم جواباً واحداً خلاصته أن هذا النمر اللابس ملابس الإنسان رأى خلعتهم ^(١) من حيث يخفى مكانها ، ففزع ^(٢) فيها ثغرة انحدر منها إلى أعراضهم ، فعبث بها ماشاء وشاء العابثون ، فكانوا في داره الضروع التي يحلبها ، حتى إذا استنفذ ذرئها ^(٣) ألح على دماها فاستنزفها ، وقالوا إنه كان يُديم مطال الجوع في بطونهم ، فإذا علم أنهم هلكوا أو كادوا طفق يُعلمهم باللقمة بعد اللقمة ، والمضغة أثر المضغة ، ويُرمقهم ^(٤) العيش ترميقاً لا إبقاءً عليهم ، بل على ما كان يفتنهم من بسطة العيش من ورائهم . وزعموا أنه كان يرئيه منهم في بعض الأحيان تمردهم عليه واحتفاظهم بأعراضهم من دونه ، فيدخل في أدمغتهم لصاً من دخان الحشيشة يسرق عقولهم ، ويحل عقدة منعتهم ، ويتركهم لا يدرون ما يأتون ، ولا ما يدعون .

وما وصلوا من شكواهم إلى هذا الحد حتى سقط منهم اثنان بين يدي القاضي ، فزاعه من أمرهم ما راعه ، ثم علم أنه الجوع فأمر لهم بخبز وأدم ، فازدحموا عليه يتناهبونه ويزدردونه ازدرداد الوحش فريسته ، وقد وقف ذلك الذئب المستأنس ينظر إليهم نظرة شزراء كمثل النظرة التي يرمي بها الصائد صيده إذا أفلت من حبالته .

بذلك حدثني من رأى هذا المنظر بعينه ، فارتعت لسماع حديثه الارتياح كله ، وحسبت أنه يحدثني عن حادثة وقعت في ميدان الخليقة في مغارة من مغاور الجن أو شعبة ^(٥) من شعبات الجبال ، وقلت له : « أ تعلم أيها الرجل أنك تحدثني عن إنسان ؟ » فقال : « لا تعجل ، فما حدثتك إلا عن رجل حمار لا يفارق وجهه سوءة حماره ليلاً ونهاره ، وربما سرت إليه تلك النتيجة من هذه المقدمة ؛ فكيف بك لو علمت أن هذه الرذيلة لا يترفع عنها في هذا البلد كثير من الأتقياء والصالحين والأساتذة والمعلمين ؟ »

« إن بين جدران هذه البنى التي يسمونها المدارس

(١) الخلعة : الحاجة . (٢) فزع الشيء : ثلمه وفتحه .

(٣) الذرة : اللبن . (٤) ترمق اللبن : أخذه حسوة حسوة .

(٥) الشعقة : أعلى الشيء ، يقال شعقة الجبل ، وشعقة الرأس .

إليهم لأنقلوهم من حياة كلها شقاء وبلاء ، وعيب وعار .

ليست مسألة خبايا الزوايا أمراً يستهان به ، فإننا نريد أن نُعيدَ لوطننا من بعدنا رجالاً ذوي شجاعة وجُرأة ، وثبات وإقدام ، من الذين إذا عَظُم الخطب كانوا حُماة الديار ، وإذا اشتدَّ البأس لا يولون الأدبار .

* * *

الجامعة الإسلامية

أنا لا أحب أن أخدع نفسي عن نفسي ، ولا أحب أن أخدع الناس عنها .

أنا مسلم قبل كل شيء ، أي قبل أن أكون وطنياً أو سياسياً أو مجتمعياً ، بل قبل أن أكون نسمة حية في هذا الوجود .

لو علمتُ أن مآرب هذه الدنيا وأغراضها لا تنال إلا بترك شريعة من شعائر الدين أو العبث بفريضة من فرائضه لعفنتها واجتويتها ، ونفضت يدي منها ، وقلت لها كما قال لها عليّ بن أبي طالب من قبل : « إليك عني ، غُريّ غيري ، ما لي بك حاجة . »

لو لم يكن في الأمر إلا أن أخسر ديني فأريح دنيائي ، أو أخسر دنيائي فأريح ديني ، لآثرت أخراهما على أولاهما ، لأنني أعلم أنني إن خسرت ديني ، فقد خسرت كل شيء .

لو علمت أن الوطنية ، وهي أفضل ما حمل امرؤ بين جنبيه من خلال الخير ، تعترض دون طريقي إلى آخرتي ، أو تمتد حجايًا بيني وبين ربي ، لخرجت منها كما أخرج من ردائي ، ثم خلصت إلى شعبة من شعفات الجبال ، أو صخرة في منقطع العمران أخلو فيها بنفسي من حيث لا أسمع دعاءً غير دعاء القلب ، ولا نداءً غير نداء الله ، حتى يحين حيني ، وينقضي أجلي .

ما أبغضت في حياتي شيئاً بغضتي للكذب والرياء ، فإما أن أكون مسلماً ، فهذا هو الإسلام ، وهذه شروطه وقبوده ، وصفاته وطبائعه ، أو لا ، أبديتُ للناس صفحتي ، وأعلنت لهم أمرّي ، حتى يعلموا من أمر نفسي مثل ما أعلم منها .

أنا لا أحدث في ذلك عن نفسي خاصة ، بل عن المسلم من حيث كونه مسلماً ؛ أي مصدقاً بالله ورسوله ، ووعده ووعيده ، وثوابه وعقابه ، معتقداً أن الحياة الدنيا مَعْبَرٌ يعبره إلى الحياة الأخرى ، وأنه محاسبٌ في آخرها حساباً غير يسير على ما فرط في أولاه ، وأن الله لا يقبل منه في موقف الحساب من المعاذير إلا ما رخص له فيه أو رفع عنه مؤونته ، فلا سبيل له إلا أن يلبس ثوب الإسلام معلماً ، لا خائفاً ولا مترقباً ، ولا متتكراً ولا متكسماً ، ولا محتفلاً بقول العيسوي أو الموسوي له : « أنت متعصب ! » ، ولا بقول الملحد أو الجاحد : « أنت مخرف ! » فهو ليس متعصباً بل متمسكاً ، ولا مخرفاً بل مستيقناً ، وأن يعترف به جبهة في جميع مواطنه ومواقفه لا مستحياً ولا خجلاً . قد انقضى عهد الأسرار والإخفاء من تاريخ ذلك اليوم الذي أسلم فيه عمر بن الخطاب ، فمشى إلى المسجد الحرام حيث يجتمع كفار قريش ، وأعلن فيه إسلامه بين هياجهم ونقماتهم ، ثم مرّ يقرع أبواب رؤسائهم باباً باباً ، فإذا فتحو له حُطَّهم عن إسلامه ، فضرَبوا الباب في وجهه غيظاً وحنقاً .

التمسك غير التعصب ، والتهاون غير التسامح ، فليس كل متمسك متعصباً ، لأن التمسك محافظة المرء على العمل بأوامر الدين ونواهيه ، والتعصب بغضه لمخالفيه في دينه بغضاً يحمله على محاولة النكاية بهم ، والعبث بما حقن الله من دمائهم ، وصان من أعراضهم وأموالهم ، وليس كل متهاون متسامحاً ، لأن التهاون ترك المرء العمل بما فرض الدين عليه أن يفعل أو أن يترك ، والتسامح إغضائه عن خلف المخالفين له ، بحيث لا يعدُّ تلك الفروق الدينية التي بينه وبينهم وسيلة إلى بغضهم أو

ولتعلموا أن المسلم لا يستطيع أن يكون متعصباً ما دام متمسكاً بدينه ، لأن في تعصبه هدماً لأعظم ركن من أركان الدين الذي يتعصب له .

فإن رأيتم أنه يغضب لشتن دينه أو نبيه في صحيفة تنشر في بلاده ، أو يضمر في قلبه جزءاً من العهد بشؤون المسلمين الدينية إلى غير مسلم ، فلا تقولوا إنه متعصب ، وإنما هو متمسك بدينه متمسككم بدينكم ، ولا تطلبوا عنده أكثر مما تطلبون عند أنفسكم ، وارحموه ولا تعذبوه بإدماء قلبه ، وإخراج صدره ، فإنه يرحمكم ولا يعذبكم .

وإن خيّل إليكم أن في المسلمين متعصبين ، فاعلموا أنهم متعصبو أقوال ، لا متعصبو أفعال ؛ أي أنهم يعضون المسيحيين ولا يقاطعونهم ، ويدعون عليهم بالهلاك ولا يمدون إليهم يد سوء ، ويسبون الظن بهم وهم يستعينون بهم في جميع أعمالهم سرها وجهرها ، ويتمنون لهم الخسران وهم يحمونهم بما يحمون منه أنفسهم وأولادهم . فهذا التعصب لو تبيّن مظهر من مظاهر الحماقة والبلاء لأثر له في نفوسهم ، ولا علاقة بينه وبين تدينهم ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يشبه تعصب المعروفين بالتعصب من المسيحيين الذين يضمرون للمسلمين في قلوبهم ما تصمت عنه ألسنتهم ، وتنطق به أعمالهم ، فترى الواحد منهم لا يبتاع حاجته إلا من المسيحي إن كان مشترى ، ولا يستعين على عمله إلا بالمسيحي إن كان تاجراً أو صانعاً ، ولا يوظف إلا المسيحي إن كان رئيساً في مصلحة ، ولا يهتم إلا بالدفاع عن المسيحي إن كان محامياً ، ولا يرحم إلا المسيحي إن كان قاضياً .

إن المسيحي الذي يقول للمسلم أنت متعصب قبل أن يرى في سيماء وجهه أثر العداوة والبغضاء له وإرادة الإيقاع به ، لا يريد بكلمته هذه مصارحته برأيه فيه ، بل خديعته عن دينه والهجوم على قلبه ، والتمكن من مجالسته على مائدة واحدة تختلط فيها الأيدي والأفواه ، ويخطئ فيها العد ، ويضيع الحساب ، فيتناول منها ما لذّ وحلا ويترك له ما مرّ

مناضلتهم ، أو نصب الغوائل لهم ، أو سدّ سبل العيش في وجوههم . ولقد اعترضت الآراء والمذاهب حلّوها ومرها ، ومعوجّها ومستقيمها ، فلم أر رأياً أضعف حجة ولا أضلّ سبيلاً من رأي الذي يقول : « إن الدين لا يجوز أن يتجاوز عتبة المسجد . » وكيف يستطيع المسلم أن ينفرد بنفسه عن دينه في موطن من المواطن ، أو مذهب من المذاهب ، وهو رفيق طيّته ولصيق نفسه ، في قيامه وقعوده ، ويقظته ونومه ، وانفراده واجتماعه ؟

ذلك أن المسلم لا يستطيع أن لا يعطف على أخيه المسلم عطفاً خاصاً به فوق عطفه على غيره من أفراد البشر ؛ لأنه مأمور أن يكون منه بمنزلة اللبنة من اللبنة في البناء الواحد ؛ أي أن يكون عضداً له في شؤون دينه ودنياه .

ولا يستطيع أن يسمع كلمة سوء يريد بها قائلها النيل من دينه ، والغضب منه دون أن يغضب لها ؛ لأنه من دينه على بينة ، والغضب لا يزال رذيلة من الرذائل حتى يكون للحق ، فهو أفضل الفضائل .

ولا يستطيع أن يبيع أو يبتاع ، ويقرض أو يقترض ، وينطق أو يصمت ، ويعاشر أو يقاطع ، ويوافق أو يخالف ، إلا إذا نظر فيما أحل الدين من البيع وحرّم من الربا ، وفي ما رخص للمتكلم أن ينطق به ، وأوجب عليه أن يمسك عنه ، وفيما شرع من معاشرة خيار الناس ومجانبة شرارهم ، وموافقة المحقين ، ومخالفة المبطلين ، وهكذا حتى لا يخرج عنه في جميع شؤون وحالاته ، سواء أ كان في المسجد أو البيعة ، أو المنزل أو السوق ، أو المجمعات العامة ، أو الأندية الخاصة .

وكما لا يستطيع أن يخرج عن أحكام الدين في شيء من هذا ، كذلك لا يستطيع أن يخرج عنها في كيفية معاملة المخالفين له في الدين من الرأفة بهم ، والعطف عليهم ، والإحسان إليهم ، ماداموا موالين له ، غير خارجين عليه ، ولا مادّين إليه يد سوء .

فلتتعلموا أيها المسيحيون بالأا وتثلجوا صدوركم ،

إن المصانعة والمجاملة في الدين ليست سبيل الاتحاد والاتفاق كما يظن الذين يصنعون ويجاملون ، وما هي إلا الخداع والغش ، وما علمنا أن أمة أسعدها الغش أو رفعها الخداع . وها هي ذي الجرائد المسيحية والإسلامية في مصر يفتتح أكثرها كل يوم فصول العداوة والبغضاء بعنوانين المحبة والإخاء ، فلم يف خيرها بشرها ، ولا نفعها بضرها ، بل السبيل إلى ذلك أن يعلم المتدين علماً صحيحاً أن الاختلاف في الدين شيء ، والتباغض فيه شيء آخر ، وأن الدين الذي يسوق العالم إلى الهلاك والفناء لا يمكن أن يكون ديناً إلهياً .

إن الإبهام والإغماض في التدين يقتل الدين في نفوس المتدينين قتلاً لا حياة له من بعده ، فلا بد للمسلم من أن يكون مسلماً في جميع حالاته وشؤون ، وإسراره وإعلانه ، فلا يستحي أن يلبس عمامته في باريس كما يلبسها في مصر ، وأن يقيم الصلاة لوقتها في قصر الفانيكان كما يقيمها في مسجد قرينته ، وأن يترفع عن مجارة الغربيين في عاداتهم التي يرى أنها لا تلائم دينه ، فلا يشرب نخب أحد من الناس وإن كان في مجلس الإمبراطور ، ولا يأكل لحم الخنزير وإن قدمه له بيده القيصر ، ولا يحمل بساط الرحمة في جنازة ميت من الأموات وإن كان بابا رومه ، ولا يحمل سلاحه راکضاً إلى مقاتلة أخيه المراكشي إن كان جزائرياً ، أو المصري إن كان هندياً ، ولو كان دون ذلك موته صبراً . وليعلم أن ذلك سبيله الذي لا سبيل له غيره إلى العظمة التي يحب أن تكون له في نفوس مخالفيه في دينه أو عاداته ، وإن حاول مخادع أن يخدعه عن نفسه ، ويلقي في روعه أن اطراح المسلمين للدين وسيلة تقدمهم ، كما كان اطراحه وسيلة تقدم المسيحيين ، فليذكر دائماً كلمة ذلك الرجل العظيم السيد جمال الدين الأفغاني في قوله : « ترك المسيحيون دينهم فتقدموا ، وترك المسلمون دينهم فتأخروا »

الجامعة الإسلامية بالنسبة للمسلم هي الجامعة الكبرى التي يجب أن يمنحها بنات قلبه ، وجوهر لبّه ، قبل أن يمنح ذلك غيرها من الجوامع الأخرى .

وتفه . ولقد بلغ منه في كثير من الأحيان الغرض الذي أراده ؛ فخدع كثير من المسلمين عن دينهم ، ونالت تلك المكيدة المدبرة من نفوسهم ، وعظم عليهم أن يسموا متعصبين ، وكانوا لا يدركون فرق ما بين التمسك والتعصب ؛ فتهاونوا في أمر دينهم وازدروه ، واستحووا من اللصوق به ، والأخذ بشعائره ، فأصبح الواحد منهم لا يجرؤ أن يفتتح خطابه أو كتابه أو طعامه بالبسملة ، ولا يجرؤ على السلام أو رده بالصيغة المأثورة ، ولا على إقامة الصلوات في أوقاتها في مجتمع عام ، ولا على الاعتذار عن ترك منكر من المنكرات بعذر الدين ، بل إن فيهم من يرائي بالفسق والضلال ، كما يرائي الفساق والضلل بالصلاح والتقوى ، فيقيم الصلاة في بيته ، ويزعم أنه تاركها ، ويترك شرب الخمر تديناً ، ويزعم أنه تاركها توفيراً لماله أو خوفاً على صحته ، فراراً من تهمة التعصب ؛ أي تهمة التدين ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ولم أر في حياتي منظرًا أبعد ولا أسمع من منظر المسلم الذي يجالس المسيحي في مجتمع عام ، فيقول له : « إني أحبك محبتي لنفسي ، لأنني أعتقد أن كليتنا بعيدة إلهياً واحداً ، وبلدين بدين صحيح يأمر بفضائل الأعمال وينهى عن رذائلها . » وربما كان يضممر له في قلبه في تلك الساعة من العداوة والبغضاء ما لو طارت شرارة منه لأحرقتهما جميعاً ، وتركتهما رماداً تذروه الرياح . وعندي أن الأفضل من هذا الرياء الكاذب والدهان المصنوع أن يقول له : « إني أعتقد صحة ديني ، فلا بد لي من أن أعتقد فساد غيره من الأديان ، لأنني لو كنت معتقداً صحتها ؛ لتقلدتها وهجرت ديني لأجلها ، وإنني على ذلك لا أحمل لك في صدري ضغينة ولا موجدة ، لأنني أعلم أنك إنسان ، وديني لا يسوغ لي أن أبغض أحداً من الناس ، غير أنني لا أستطيع أن أحبك محبتي لأختي المسلم ، لأنني إن أحببت الذي يساعدني على حفظ مالي أو صيانة ولدي حباً جماً ، فأحرى بي أن أحب الذي يساعدني على حفظ ديني الذي هو أعز عليّ من نفسي وولدي حباً لا حد له . »

بعض الشهوات استهتاراً يستهلك نفسه ويستهوئ عقله ، وزهده في بعضها زهد الأعفَاء المستمسكين ، فذلك لأنه رغب في الأولى فاسترسل وراء رغبته ، ولم يدعّه إلى الأخرى داع من خواطر قلبه ونزوات نفسه ، ولو دعاه لخف إليه ولبّاه ، ولن يُسمّى الرجل زاهداً أو عفيفاً إلا إذا أمسك نفسه عن شهوة تدعوه إليها فيدافعها ، وتلهب بين جنبيه فيطفئها .

لا تقل إنَّ السكير عاقل إنَّ رأيته غير فاسق ولا عاهر ، واعلم أنه لا يشتبهى الفسق ، ولا تجذبه إليه جواذبه ، ولو اشتهاه لوقف من المواقف موقفه من الحانات . ولا تقل إنَّ الفاسق عاقل إنَّ رأيته غير سارق ولا مختلس ، فإنه لا يحبُّ السرقة ولا الاختلاس ، ولو أنه أحبهما لكان في تسلق الدور والقصور أبرع منه في التسلل إلى مكامن الفسق والفجور . ولا تقل إنَّ المقامر عاقل إنَّ رأيته لا شارباً ولا فاسقاً ، فإنَّ القمار قد استهلك شهوته واستخلصها لنفسه ، ولم يدع فيها فضلة لسواها ، ولولا ذلك لكان أكبر السارقين وأفسق الفاسقين .

لو كنتُ من المصانعين الذين يزخرفون لأرباب الرذائل رذائلهم حتى يصوروها في نظريهم فضائل بما يلبسونها من أثواب التأويل ، ويصبغونها من ألوان التعليل ، لما استطعتُ أن أصانع المقامر ، لأن حاله من الجهل الفاضح والغباوة المستحكمة أبعد الحالات عن علر المعتلرين ، وتأويل المتأولين .

أي عذر يعتذر به المعتلر عن رجل يريد أن يمشي في طريق الغنى ، فيمشي في طريق الفقر والطريقان واضحان معلّمان لا غموض فيهما ولا إبهام .

ما جلس المقامر إلى مائدة القمار إلا بعد أن استقرّ في نفسه أن الدرهم الذي في يده سيتحول بعد برهة من الزمان إلى دينار يعود به إلى أهله فرحاً مغتبطاً ، وأحسب أن العقول العشرة مجتمعة ومتفرقة تعجز عن إدراك سرّ هذه العقيدة ومثارها .

إن كان يؤمل الريح ، لأنه رأى عن يمينه رجلاً قد ربح ، فلم لا يخاف الخسران ، لأنه رأى عن يساره مائة خاسرين ؟ وإن كان يضحكه منظر الريح ،

وما احتاج المسلمون إلى تلك الجامعة في دور من أدوار حياتهم احتياجهم إليها في هذا العصر الذي أصبحوا فيه شتى المسالك والمذاهب بين سمع الأرض وبصرها ، وأصبحوا لا موطن لهم إلا تلك البقاع المبعثرة في مشارق الأرض ومغاربها التي يعيشون فيها عيش الأذلاء المستضعفين ، بين مهاجر يأكل خبزهم ، ومستعمر يشرب دمه ، ومبشر يفتنهم عن دينهم ، أو ينغص عليهم عيشهم بمشاغبتهم ومجادلتهم ، والاستهزاء بمقائدهم وشعائهم . فإن لم يتعارفوا ويتعاقدوا على التعاون والتناصر تعاقدًا يأنسون به عند اشتداد الكرب ، ويفزعون إليه من كلّ الزمان وغدرة ، كان آتيهم شرٌّ من حاضرهم ، كما كان حاضرهم شرّاً من ماضيهم .

أنا لا أريد بالجامعة الإسلامية أن يجتمع المسلمون على قتال المخالفين لهم في دينهم ، فقد مضى زمن القتل والقتال ، بل أريد أنهم إن كانوا يحتفلون بالجامعة الجنسية أو الوطنية مرة ، لأنها وسيلة دنياهم ، فأحرى بهم أن يحتفلوا بالجامعة الدينية ألف مرة ، لأنها وسيلة دنياهم وأخراهم « وللاخرة خير وأبقى » .

القمار

لا أستطيع أن أعتقد ما يسمونه الجنون الفرعي ويريدون منه جواز أن يكون الإنسان مجنوناً في بعض شؤونه عاقلاً في باقيها . وعندى أن الرجل إما أن يكون عاقلاً أو مجنوناً ، ولا ثالث لهما .

العقل قوة يقتدر بها المرء على الاستمسك في مزالق الشهوات وبين مهاب الأهواء ، فموقفه أمامها موقف واحد ، فإما أن يغلبها جميعها أو يغلبه جميعها .

أما ما يراه الرائي أحياناً من استهتار الرجل في

هزل القمار يجرُّ إلى جَدِّه ، ولا تمرُّوا بمعاهد القمار ، فإنَّ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ولا تصاحبوا المقامرين فإنهم لا يرضون عنكم حتى تتخذوا ملئهم ، فإن فعلتم خسرتهم مالكم وشرفكم وعزيمتكم وحياتكم ، من حيث لا تجلدون من رحمة القلوب ورأفتها ما يعوض عليكم ما خسرتهم ، فارحموا أنفسكم إن كنتم راحمين ، وانقوا الله إن كنتم مؤمنين .

* * *

الأوصياء

مرض فلان مرض الموت ، فلم يحفل بالمنية لأنه اقتطف زهرة الحياة جميعها ، ولأن الثمانين قد ألحت عليه بصبيحتها ومسائها وليلها ونهارها ، فلم تترك له خيطاً من خيوط الأمل ولا شعاعاً من أشعة الرجاء ، لولا أن بين يديه ولدك صغيراً في السابعة من عمره قد ماتت أمه من عهد قريب ، وللشيوخ الكبار إلى أبنائهم الصغار حينئذ الإبل إلى أعطانها ^(١) ، فنظر إليه وهو يحوم حول فراشه نظرة طويلة لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع المنسجم ^(٢) ، ثم زفر زفرة شديدة خيل لرائحتها أنها الزفرة الأخيرة ، وأنشأ يقول :

« أي بني ، من لي بقلب يرداك مثل قلبي ، وعين تسهر عليك مثل عيني ، وروح ترفرف فوق رأسك مثل روحي ، ونفس تضم جوانحها عليك مثل

نفسي ١٩

« أي بني ، كأنني يركب الموت وقد نزل بي وحلٌ بساحتي ، وكأنني به وقد احتملني من فضاء القصر إلى مضيق القبر ، ومن نور الحياة إلى ظلمة الموت ، وكأنني بك وقد طفقت تشدني فلا تجدني ، وتفتش عني فلا تراني ، ففرغت وارتعت ، ثم صرخت

(١) اللَّعَنُ: مَرَّكَ الْإِبِلَ وَمَرِضَ الْغَنَمَ عِنْدَ الْمَاءِ، الْجَمْعُ أَعْطَان .

(٢) الْمَنْسَجِمُ: الْمَنْسَبُ .

لأنه رأى في بعض موافقه أحد الرايحين مبتسماً ، فلم لا يكيه منظر أصدقائه ورقائه الخاسرين ، وهم يتساقطون حواليه تساقط جنود الحرب بين يدي القذائف ١٩

ما أشبه المقامر الذي يطلب من الدينار الواحد مائة بالكيماوي الذي يطلب من القصدير فضة ، ومن النحاس ذهباً ، كلاهما يتاجر بالأحلام في سوق الأوهام ، فيريح ربحاً مقلوباً ، ويكسب كسباً معكوساً ، وما أشبههما جميعاً بذلك الرجل الذي علم أن في صحراء من صحاري إفريقيا كنزاً دفيناً لا تعرف له بقعة ، وليس عليه دليل ، فحمل فأسه على كتفه ومشى في تلك الصحراء يحفر الحفرة التي تستنفد قوته ، وتستهلك منته ، وتبلغ من نفسه ما لا يبلغ منها كُرُّ الغداة ومرُّ العشي ، حتى إذا بلغ مستقرها ، وعلم أنه لم يعثر بضالته تركها ، وبدأ يحفر غيرها بجانبها ، فلا يكون نصيبه من الأخرى أوفر من نصيبه من الأولى . وهكذا حتى أدركه الموت وهو في بعض تلك الحفر ، فكان هو نفسه الكنز الدفين في تلك الصحراء ، إلا أنه كنز لا يطمع فيه طامع ولا يرغب فيه راغب !

إن كنت لم تسمع في حياتك باجتماع النقيضين وتلاقي الضدين ، فاعلم أن المقامر في آن واحد أجشع الناس وأزهق الناس ، فلولا حبه المال لما هان عليه أن يبذل راحته وشرفه وحياته في سبيله ، ولولا زهده فيه لما أقنم باختياره على تبديده على مائدة القمار ، لا لغاية يطلبها ، ولا لمأرب يسعى إليه .

أنا لا أريد أن أنصح إلى المقامر بترك القمار ، لأنني أعتقد أن من يملك عقلاً مثل عقله وفهماً مثل فهمه ، لا يستطيع أن يفهم كلمة مما أقول . ومن عجزت حوادث الدهر وغير الأيام عن أن ترد عليه ضالة عقله وتهديه السبيل إلى نفسه ، فلن تنفعه كلمة كاتب ، ولا موعظة خاطب ، وإنما أريد أن أقول للذين لم يخطوا خطوة واحدة في هذا الطريق الوعر حتى اليوم : « لا تقامروا جدلاً ولا هزلاً ، فإن

وقد فعل ، وما كان اختلافه إليه ولا تردده عليه إلا طمعاً في هذا المصير الذي صار إليه ، فلما علم أن قد تمّ له من أمره ما أراد ؛ أطلق يده في مال الصغير يعيث به عبث النكباء بالعود ، ويتنازع به لنفسه ما شاء الله أن يتنازع من قصور ودور ويساتين وضياح ، فنبه ذكره بعد ما كان خاملاً ، ونبت ريشه بعد ما كان عارياً ، وأصبح صاحب السلطان المطلق في ذلك القصر يذل من يشاء ويعز من يشاء .

أما شأنه مع الولد ، فقد علم أنه سيلبغ عما قليل أشده ، ويملك رشده ، وأنه سيقطع عليه لذته ، ويقف له موقف المعترض سبيله ، ويحاسبه على القليل والكثير والصغير والكبير ، فلم ير له بداً من أن يعدّ لذلك اليوم عدته ، فعمد إلى الولد فقطعه عن المدرسة ، لأنه لا يحب أن ينشأ متعلماً ، ثم أغرى به من ساقه إلى مواطن الفسق ومجامع الشراب ؛ لأنه لا يحب أن ينشأ عاقلاً ، وما زال ينفق عليه وعلى الموكلين بإفساده من وراء حجاب ، حتى علق برأسه الشراب علوق السلاسل بالصدور ، فأصبح بين الحانات والمواخير كالطائر بين أغصان الأشجار لا يرسل الساق إلا ممسكاً ساقاً .

فكأنما وكل بعقله مقراضاً يقرض له في كل يوم منه قطعة حتى كاد يأتي عليه ، فما بلغ السن التي يرشد فيها القاصرون حتى استحالت الوصي على القاصر قيماً على المعتوه ، ولم يذل في سبيل الوصول إلى ذلك أكثر من لقيمات ألقاهما من فئات تلك المائدة إلى المجلس الحسيني ، فأدخله تلك الجنة الزاهرة بغير حساب ولا عقاب .

شرع الله شريعة الحجر على السفهاء والمعتوهين ، وإقامة القوام عليهم رحمة بهم ؛ فاستحالت على يد المجالس الحسينية نقمة عليهم ، وأصبح اللص الذي لا يحسن صناعة فتح الأقفال ، ويتقي مغبة تسلق الجدران قادراً على أن يسرق ما يشاء حينما يشاء تحت راية هذه الشريعة المقلوبة من حيث يأمن الوقوف أمام محكمة الجنايات ، وجرّ الأثقال في غيايات السجون . وانتقلت الثروات العظيمة من أيدي

فصعقت ، فلم تجد بجانبك من يمسح دمعك ، ويخفف حزنك .

« من لي بصديق ألق بوده وإخلاصه ورحمته وحنانه ، فأكل إليه أمرك ، وأعتمد عليه في تأديك وتخريبك وإبلاغك ما أرجو لك من السعادة في مستقبل دهرك ؟ »

فما أتمّ تجمّعه حتى دخل عليه صديقه الوحيد الذي كان يأنس به ويستخلصه لنفسه ، وقد سمع آخر نجواه ، فقال له : « هوّن عليك أيها الصديق ، فأنا صديقك الذي تشده ، وأنا والد ولدك من بعدك ، وخليفتك بعد الله عليه . » ثم ترامى على فراشه يبكي لبكائه ، وينشج لنشيجه ، فاستنار قلبه بنور الأمل ، وقال : « أحمدك اللهم فقد رحمت ولدي ، وحفظت بيتي . »

وما هي إلا أيام فلائيل حتى كتب الشيخ كتاب الوصية بيده ، ثم أجاب دعوة ربه تاركاً في يد ذلك الصديق الكريم مجده وشرفه وماله وولده .

اتخذ الشيخ ذلك الرجل صديقاً له في العامين الأخيرين من أعوام حياته بعد ما رآه يكثر الاختلاف إليه وبطيل اللبث بجانبه ، ويلازم الوقوف عند أمره ونهيه ، ويخفّ لقضاء حاجاته وللباناته . ذلك إلى ما كان يراه متجماً به من صلاح مملوء بالركعات والسجادات ، والتسبيحات المتواليات ، وعفة حتى عن لقمة من الزاد يصيبها على مائدته ، وتورع حتى عن جرعة من الماء يتجرعها في حضرته ؛ فاستخلصه لنفسه ، وأنزله من قلبه المنزل التي لا يجاوره فيها غير ولده ، وأصبح أثر الناس عنده حتى لا يستطيع فراقه لحظة ، ولا يصبر عنه ساعة إلى أن أحس باقتراب الأجل ، فأوصاه بما أوصى وعهد إليه بما عهد .

هذا تاريخ ذلك الصديق في حياة الشيخ ، أما تاريخه بعد مماته ، فسأسمعك منه ما تهوي له الأفلاك عجباً وتختر له الجبال هدأ .

لم تكن صلاته إلا رياءً ونفاقاً ، وركوعه وسجوده إلا كيداً ودهاناً ، وعفته وزهادته إلا حيلة نصبها ، ليعلق بها عقل الشيخ وقد علق ، فيسلبه ماله وولده

وفمه بأمر سيدهم ، وأخرى يعود إليه بلهه ، فينظر إلى هذه المناظر المؤلة نظر الضاحك اللاعب .

مرت على تلك الحوادث سنوات عديدة استأثر فيها ذلك الوصي بتلك الدائرة الواسعة ، وألح عليها بكليلة حتى اجتز وبرها ، ثم استكشط جلدها ، فلم يبق منها إلا هيكل العظام ، وعلم أن قد قامت قيامة الناس عليه ، وأن قصته مع زوجة الغلام ، وماله قد ملأت مسمع الخافقين ، وأن نجمه الثاقب قد مال إلى الأفول ؛ عمد إلى حيلة شيطانية ختم بها تلك الرواية بمثل ما تختم به الروايات المحزنة .

تفتّح للغلام بعد انقباضه ، وابتسم إليه بعد تقطيعه ، وابتاع له ما اقترحه عليه من ثوب فاخر ، ومركب فاره ومزاهر وعيدان ، وكؤوس ودنان ، ثم خلا به في ساعة من ساعات نشوته ، وارتياحه فقال له : « أيها الصديق قد آن أوان قيامك بشأنك ، وانفردك بأمرك ، فاكتب إلى المجلس الحسيني رقعة تطلب فيها رفع الحجر عنك واكتب توقيعك على هذه الجريدة - جريدة الحساب . » فدخل الغلام من السرور والغبطة ما طار بلبه ، فكتب الأولى ووقع الأخرى ، ثم أوعز الوصي إلى المجلس الحسيني بتلبية طلبه ، فلباه وقضى برفع الحجر عنه ، فاستقبل الغلام تلك النعمة استقبال الظامع كأس الشراب . وكان لا بدّ له من أن يشرب حتى ييشم ، ففتش بين يديه عن مال ينفقّه ، فلم يجده . وكان الرجل قد وكلّ به عوناً من أحواله يداخله ويتحين فرصة حاجته إلى المال فيمنحه ، فكان يعطيه المال باليمين ويأخذ منه صكّ البيع باليسار . فما زال هذا يعطي ويأخذ يأخذ ، حتى أصبح نصف تلك الدائرة بعد عامين اثنين ملكاً لعون الوصي اليوم ، وللوصي غداً بضمن لا يساوي عشر معشارها بل بغير ثمن ، وهل ابتاعها مبتاعاً إلا بمالها وأنفق عليها إلا ثمرتها ١٩

هنالك قام الوصي وقعد ونادى في الناس بصوت يشبه صوت الحق ، ونغمة تشاكل نغمة الصدق : « أيها الناس قد كنت أنذركم بمصير هذا الغلام إن صار أمره إلى نفسه ، فكذبتم قولي وفندتم رأيي ، وما

أصحابها مخافة أن يسرفوا فيها إلي أيدي آخرين يبدونها بتديك ، ويمزقون أديمها تمزيقاً من حيث لا يكون بينهم وبين المورث صلة نسب أو شيجة رحم ، حتى أصبح السعي في جمع المال في هذا العصر وادّخاره للوارثين عملاً من الأعمال الباطلة ، وضرباً من ضروب الجهل الفاضح ، فمن لي إن أنا دبّرت المال وجمعت أنه لا يكون وارثي فيه من بعدي لصاً من أولئك اللصوص الذين تمنعهم المجالس الحسينية ما تمنعهم الشرائع الإلهية ! ومن لي أن أعيش إلى أن أدرك ولدي فأتولى أمر تربيته بنفسي قبل أن يظفر به في حدائته ظفر جراح من أظفار الأوصياء ؛ فيميت نفسه ويقتل عقله ويفسد عليه شأن حياته ويلبسه من الفضيحة والعار ما يقلق نفسي في عالمها ، ويزعج عظامي في مرقدتها !

فلقد حدثني من قصّ عليّ تلك القصة الماضية أن ذلك الوصي لما علم أن قد تم له من الحجر على ذلك الغلام ما أراد ، عمد إلى تزويجه من فتاة حسنة من بنات الأشراف ما كان يعنيه أن يزوجه منها ؛ لولا أن له في ذلك مأرباً من المأرب الفاسدة . فما كادت تخلع العروس خلعة عرسها حتى أنشأ يختلف إليها ، ويكثر ازديارها في الجناح الذي تسكنه من القصر بما له عليها من حق الولاية والرعاية والنظر في شؤونها ومراقبتها ، ثم ما زال يختلها عن نفسها ، ويزين لها ما يزينه الشيطان للإنسان حتى علقت بجالته كما علق بها غيرها من قبلها ، ففكرت زوجها ، وبرت به فرا به من أمرها ما رابه فرصدها حتى عرف موطن سرّها ، وموقع هواها ؛ فشكا فلم يجد سامعاً ، ثم بكى ، فلم يجد راحماً ، فكان يقضي كثيراً من ليلاته في غرفة من غرف القصر واجماً مطرقاً مسلماً رأسه إلى ركبتيه ودমে إلى خديه لا سمير له ولا مؤنس إلا نغمات الضحكات التي كان يسمعها في غرفة زوجته ، فتارة يثب وثبة الأسد ، فيشير في القصر نائرة شعواء تضج لها جوانبه ؛ فيتسارع إليه الخدم فيضربون على يده

أن نال منه الأين^(٣) والكلال ، وأنضاه سُرَى الليل
ومسير النهار خمسة وستين وثلاثمائة يوم .

هنالك يجتمع السفر في صعيد واحد ، فيتعارفون
ويتفقد بعضهم بعضاً ، فيجدون أن فلاناً مات جوعاً ،
وفلاناً مات ظمأً ، وآخر افترسه سبع ، وآخر قتله لص ،
وآخر مات غيلة^(٤) ، وآخر سقط عياً ، وآخر طارت به
قنبلة ، وآخر هوت به طيارة ، وآخر اجتاحه بركان ،
وآخر تردى عليه منجم . ثم يعودون إلى جرائد
الإحصاء ليدونوا فيها حاضرم كما دونوا فيها
ماضيهم ، ثم يوازنون بين هذا وذاك ، فيجدون أن
الحاضر شرٌّ من الماضي ، وأن ميادين الحروب لا تزال
ملوثة بالدماء ، ومصانع الموت لا تزال تفتن في عدده
وتستكثر من أدواته ، وأن أغراس الشر لا تزال عالقة
بنفوس البشر ؛ حتى ما يكاد أحد يتمنى أن تقع عينه
على أحد ، وأن سحائب البغضاء لا تزال ناشرة
أجنحها السوداء على المجتمع الإنساني من أدناه
إلى أقصاه شعوباً وقبائل وأجناساً وأنواعاً ومذاهب
وأدياناً ، ومنازل وأوطاناً ، فيبغض الرجل صاحبه ؛ لأنه
يخالفه في جنسه ، فإن عرف أنه يوافقه أبغضه ؛ لأنه
يخالفه في دينه ، فإن وافقه في هذه أبغضه ؛ لأنه
يخالفه في لغته ، فإن نطق بها أبغضه ؛ لأنه لا يشاركه في
وطنه ، فإن كان مشاركاً له أبغضه ؛ لأنه يزاوجه في
حرفته أو صناعته ، فإن بعد عن طريقه أبغضه ؛ لأنه
يخالفه في رأيه ، فإن كان موافقاً له أبغضه ؛ لأنه لا
يحاكيه في لونه ، فإن لم يجد شيئاً من هذا ولا ذاك
أبغضه ؛ لأنه شخص سواه ، كأن قضاء حتماً على
الإنسان أن يبغض كل صورة غير الصورة التي يراها
كل يوم في مرآته . فإذا فرغوا من النظر في جرائد
حسابهم والموازنة بين حاضرم وماضيهم أضافوا
إلى سيئاتهم الماضية سيئة الغش والكذب ، فتناسوا
كل هذا ، ووضع كل منهم يده في يد أخيه مهنتاً له
بالعيد السعيد داعياً له بدوام الرفاهية والسعادة ، ثم
تنادوا للرحيل ليستقبلوا المرحلة الآتية بعد قطع
المرحلة الماضية .

علام يهتئ الناس بعضهم بعضاً ؟ وماذا لقوا من

(٣) الأين: التعب والإعياء . (٤) غيلة: غدرًا .

زلتهم تقولون كَيْتَ وكَيْتَ حتى أخرجتم صديري
ودفعتموني إلى الغدر بذلك العهد الذي أخذه عليّ
ذلك الصديق الكريم أن أتولى شأن ولده من بعده ،
وَأَلا أتخلي ساعة واحدة عن رعايته وتمهده ، فكان ما
كان مما تعلمون من تبديد ثروته وتمزيقها ، فما أنتم
ترون بأعينكم شؤم رأيكم وجريرة سعيكم !

ثم أعاد كُرتَه على الغلام ، وسعى سعيه في
المجلس الحسي ، فأعاده سيرته الأولى ، ووضع في
عنقه غلا لا فكاك له من بعده إلى يوم يبعثون .

ليت شعري هل يعلم ذلك المقبور في لحدّه ما
صنعت يد الحدثان بهاله وولده ، وأن المال قد ورثه
غير وارثه ، واستأثر به غير صاحبه ، وأن الولد قد
أصبح بعد ذلك الملك الكبير ، والجنة والحريز ،
يطلب المضغة فتعوزه ، والجرعة فتتعدر عليه ، وأنه
يبيت الليالي ذوات العدد مطرّحاً في زاوية من زوايا
الحانات ، لا وطاء^(١) غير أديم التراب ، ولا غطاء غير
قطع السحاب !؟ وهل أعدّ عدته للوقوف بين يدي
الله في ذلك اليوم المشهود يوم تكشف الهنات ،
وتفضح العورات ، فيمسك ولده يميناً ووصيته
بيسراه ، ثم يناجي ربه ويقول : « اللهم أعِدني على
هذا الكاذب الذي خلتني وخذعني وخفر ذمتي ،
وخاس^(٢) بعهدي وخان أمانتي ، وأفسد وصيتي ، وخذ
لولدي بحقه من هذا الظالم الذي سرق ماله وهتك
عرضه ، وعدّب نفسه ونغص عيشه ، فأنت أعدل
الحاكمين وأرحم الراحمين ! »

* * *

العام الجديد

في مثل هذا اليوم من كل عام ، يقف ركب
هذا العالم السائر على منزلة من منازل الحياة ، فينزل
عن مطايها ؛ ليستريح فيها ساعة من وعثاء السفر بعد

(١) الوطاء: الجهاد الوطني . (٢) خاس: بالمهد: نقضه وخانه .

حساباً ، فلما ذاقوها استعذبوها ، فاستزادوا منها ، فلم يجدوا ما يريدون ، فتمتلئ صدورهم حقدًا على تلك اليد التي هاجت بطنتهم ، وأشعلت نارها ثم لم تطفئها . أو لأنهم من أصحاب النفوس الشريرة الذين يشعرون كأن المحسن يريد أن يشتري منهم نفسه بما يسدي إليهم من إحسانه ، فيتناولون منه الإحسان لأنهم طماعون ، ويطوون القلوب على الحقد عليه والموجدة له ، لأنهم كانوا يريدون أن يتمكنوا من عرضه ينالون منه كما يشاؤون فحيل بينهم وبين ذلك .

لا سعادة في هذه الحياة إلا إذا نشر السلام أجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشري ، ولن ينتشر السلام إلا إذا هذأت أطماع النفوس ، واستقرت فيها ملكة العدل والإنصاف ، فعرف كل ذي حق حقه ، وقنع كل بما في يده عما في يد غيره ، فلا يحسد فقير غنياً ، ولا جاهل عالماً ، وأشعرت القلوب رحمةً وحناناً على البؤساء والمنكوبين ، فلا يهلك جائع بين الطامعين ولا عار بين الكاسين ، وامتألت النفوس عزةً وشفقاً ، فلا يبقى شيء من تلك الجبال المنصوبة لاغتيال أموال الناس باسم الدين أو باسم الوطنية أو باسم الإنسانية أو باسم العلم ، ولا نرى طبيباً يدعي علم ما لم يعلم ، ليسلب المريض روحه وماله ، ولا محامياً يخدع موكله عن قضيته ؛ ليسلب منه فوق ما يسلب منه خصمه ، ولا تاجرًا يشتري بعشرة ويبيع بمائة ، ثم ينكر بعد ذلك أنه لصٌ سارق ، ولا كاتباً يضرب الناس بعضهم ببعض حتى تسيل دماؤهم فيمتصها كما يضرب القادح الزند بالزند ليظفر بالشر المتطاير منهما ، وما دامت هذه المطالب أحلاماً كاذبةً وأمانياً باطلةً ، فلا مطعم في سلام ولا أمان ولا أمل في سعادة ولا في هناء ، ولا فرق بين أمس الدهر ويومه ، ولا بين يومه وغده ، ولا فرق بين مَقَفَلات أيامه ، ومُعَلَمات أعياده ، فليهنأ بالعيد من عرف من أيامه غير ما عرفت ، وذاق من نعمائه غير ما ذقت ، وليفرح بالعام الجديد من حمد ماضٍ أيامه ، وسالف أعوامه .

الدنيا فيحرصوا على البقاء فيها ، ويغتبطوا بقطع المراحل التي يقطعونها منها ؟ ومن منهم يستطيع أن ينطق بلسان يصدق الحديث عما في نفسه ، فيقول إنه أصبح سعيداً كما أمسى ، أو أمسى سعيداً كما أصبح ، أو أنه رأى بارقاً من بوارق السعادة قد لمع يوماً من الأيام في سماء حياته ، ولم يرَ بجانبه مثل ما يرى في الليلة البارقة من نجوم هاوية ، ورجود قاصفة ، وصواعقٍ محرقة ، وغيوم متلبدة ؟

بأي نعمة من النعم ، أو حسنة من الحسنات تمنّ الحياة على رجل يتنقل فيها من ظلمة الرحم إلى ظلمة العيش إلى ظلمة القبر ، كأنما هو يونان الذي التقم الحوت فأصبح في ظلمات بعضها فوق بعض ؟ وأي صنعة من الصنائع أسدتها الأيام إلى إنسان يظل فيها من مهده إلى لحده حائرًا مضطربًا يفتش عن ساعة راحة وسلام يلب بها غلته ، ويثلج بها صدره ، فلا يعرف لها مذهباً ولا يجد إليها سبيلاً ؟ إن كان غنياً اجتمعت حوله القلوب المضطغنة ، واصطلحت عليه الأيدي الناهبة ، فإما قتلته وإما أفقرته . وإن كان فقيراً عدّ الناس فقره ذنباً جنته يده فتتناوله الأكف ، وتتقاذفه الأرجل ، وتتجاذبه الألسن حتى يموت الموتة الكبرى . وإن كان عالماً ولع به الحاسدون واستهتروا في تزييفه والتشهير به ، وأغروا بنفثاته وآثاره حتى يعطيهم عهده وميثاقه أن يعيش عالماً كجاهل وحيًا كميت ، وأن يكتم سر علمه في صدره فلا يفضي به إلى لسان ولا قلم أو يموت دون ذلك . وإن كان جاهلاً اتخذ العالمون مطية لا يزالون يركبونها إلى مقاصدهم وأغراضهم من حيث لا يرحمونهم ، ولا يرفقون بها ولا يقيمون صلبها حتى يعقروها . وإن كان بخيلاً ازدرت القلوب ، واقتحمت العيون ، وتقلصت له الشفاه وبرزت له الأنياب ، وانقبضت له الأسرة والتهبت له الأنظار ، وأرسلت إليه الأضغان ألسنة نيرانها حتى تحرقه . وإن كان كريماً مُحسناً عاش مترقباً في كل ساعة من ساعات ليله ونهاره شر الذين أحسن إليهم ، إما لأنه منحهم أولاً ثم منعهم آخرًا ، فهم يحاولون أن ينتقموا منه لأنه أذاقهم لقمة ناعمة ما كانوا يقدرون لها في أنفسهم

هزيانه وهو يتلمس في هذه الظلمة الحالكة المخرج
من جرمه .

الخطبة

بروتس (وهو على منبر الخطابة) : « أيها
الرومانيون ؛ أ تعدوني بالصبر القليل على سماع ما
أقول من حلول الكلام ومره إكراماً لموقفي وإكراماً
للعدل ؟

« أنا لا أريد أن أخدعكم عن أنفسكم ، ولا أن
أعيب بقولكم وأهوائكم ، بل أريد منكم أن تنظروا
إلى قضيتي نظراً المستيقظ الحذر الذي لا يعطي هواده
ولا يسلس قياداً ؛ ولا ينأ عن شاردة ولا واردة ، لأني
لا أعتقد أن في زاوية من زوايا قضيتي هذه كميناً
أخاف أن تقع عليه العيون .

« أيها الرومانيون ؛ إن كان بينكم صديق لقيصر
يحبّه ويتهالك وجداً عليه ، فليسمح لي أن أقول له ،
أيها الصديق الكريم ، إن بروتس قاتل قيصر كان يحبه
أكثر من حبك إياه .

« أيها القوم ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما
كذبتكم ، فاعلموا أنني ما قتلْتُ قيصر لأني كنت
أبغضه ، بل لأني كنت أحبُّ رومه أكثر منه .

« كان قيصر يحبني فأحبته ، وكان شجاعاً
فاحترمته ، ولكنه كان طماعاً فقتلته ، ففي ساعة
واحدة منحته دمعي وقلبي وخنجري .

« أنا لا أصدق أن بينكم من يحزن لموت قيصر ،
فأنتم رومانيون ، والروماني لا يحب أن يعيش ذليلاً .

« من منكم يكره أن يكون رومانياً ؟ من منكم
يكره أن يكون حراً ؟ من منكم يحقر نفسه ؟ من
منكم يزدري وطنه ؟ إن كان بينكم واحد من هؤلاء ،
فليتكلم ؛ لأنه هو الذي يحق له أن يثار لنفسه مني ؛
لأنني لم أسئ إلى أحد سواه .

الشعب : « لا ، لا ، ليس فينا واحد من هؤلاء .
بروتس : « إذا أنا لم أسئ إلى أحد منكم .

وما وصل بروتس من حديثه إلى هذا الحد حتى
دخل أنطونيوس صديق قيصر ، ورأس الناقمين على

سحر البيان

رأيت في إحدى روايات شكسبير ، وهي الرواية
المعروفة برواية « يوليوس قيصر » ، موقفاً لبطلين من
أبطال الفصاحة وفارسين من فرسان البيان قد وقف
كل منهما من صاحبه موقف اللاعب من اللاعب ،
ووقف الشعب الروماني بينهما موقف الكرة بين
مضارب الأقدام تعلق بها حيناً ، وتسفل أحياناً ، فلا
تثبت صاعدة ولا تستقر هابطة ، فعلمت أن العامة
عامة في كل عصر ، والشعب شعب في كل مصر ،
وأن سواد الأمة تحت صرح فرعون مثله تحت عرش
قيصر ، وأنه في رأس التاريخ اليسوعي مثله في ذنب
التاريخ المحمدي ، تدنو به كلمة وتناى به أخرى ،
وتجذبه دمة وتدفعه ابتسامة ، وتطير بلبه الشعريات
والخيالات طيران الريح الهوجاء ، بذرات الهباء .

علم بروتس الشريف الروماني أن يوليوس قيصر قد
استبعد الشعب الروماني وأذل نفسه ذلاً ملك عليه
حواشيه ومشاعره حتى ما يكاد يشعر بمرارته ،
وكذلك الذل إذا نزل بالنفوس سلبها كل شيء حتى
الشعور بنزوله بها ، وعلم أن حياة ذلك الشعب في
موت ذلك القيصر ، فهان عليه أن يقتل صديقه
وسيده افتداءً لأمته ، فطعن طعنة نجلاء^(١) سلبته نفسه ،
فهاج الشعب الروماني على القاتل وأعوانه هياج
الأمواج المتدفعة على السفن المبعثرة في أكناف
الدأماء^(٢) ؛ فوقف الرجل خطيباً في وجه هذا الشعب
المائج المحتدم حزناً على خلاصه من يد قاتله وقفة
المستبسل المستميت ، وكان لابد له في موقفه من
أحد المصيرين ؛ إما نصر يعلو به إلى مدار الأفلاك ، أو
خذلان يهوي به إلى مقر الأسماك ، ومن أحد
المخرجين ؛ إما مخرجه مرفوعاً على محفة الأبطال ،
أو محمولاً على أعناق الرجال ، فبعد لأي ما استطاع
بعض الناس أن يسكن نائرة التأثيرين ويستدرجهم إلى
سماع دفاع القاتل عن نفسه ، أو التفككه بمنظر

(١) طعنة نجلاء : طعنة قاتلة . (٢) الدأماء : البحر .

القصيد

أنطونيوس : « أيها الرومانيون ! »

أحد الناس : « اسمعوا ما يقوله أنطونيوس . »

آخر : « لا ، لا نسمعه . »

أنطونيوس : « اسمعوني إكراماً لبروتس . »

أحد الناس : « ماذا يقول هذا الرجل عن بروتس ؟ »

آخر : « لا يقول شيئاً . »

آخر : « إذا نسمعه . »

أنطونيوس : « أيها الأصدقاء ، أنا ما جئت هنا اليوم لأرثي قيصر ، بل لأدفن جثته . »

« أيها القوم ، ما من أحد من الناس إلا وله في حياته أعمال حسنة وأخرى سيئة . أما حسناته فتموت بموته ، وأما سيئاته فتبقى من بعده خالدة إلى يوم يبعثون . »

« كذلك كان قيصر في حياته ومماته ، وحسناته وسيئاته . »

« أيها القوم ، ما كنت لأستطيع أن أقف موقفى هذا بينكم ولا أن أقول كلمة مما أريد أن أقول ، لولا أن بروتس قاتل قيصر أمرنى بالوقوف ، وأمرنى بالكلام ، وها أنتم ترون أنني قد أطعته واستمعت له ، لأنه رجل شريف . »

« أيها القوم ، يقول الشريف بروتس إن قيصر كان رجلاً طماعاً ، وأنا لا أستطيع أن أخالفه فيما يقول لأنه رجل شريف . »

« أنا لا أستطيع أن أقول إن قيصر كان رجلاً قانعاً عادلاً أميناً ، لأن الشريف بروتس يقول غير هذا . »

« كل ما أستطيع أن أقوله إن الفدية التي افتدى بها أعداؤنا أسراهم الذين جاء بهم قيصر إلى رومه قد ملأت الخزانة العامة حتى فاضت بها . »

« كل ما أستطيع أن أقوله إنني رأيت قيصر بعيني يبكي لبكاء الفقراء ، ويحزن لحزنهم ، ويبست الليالي ذوات العدد ساهراً لا يغتمض له جفن حديقاً بهم »

قتلته ، والطالين بثأره هو وآخرون ، ومعهم جثة قيصر لتأبينه في هذا المجمع الحاشد ، فاستأنف بروتس الكلام ، وقال :

« ها هي جثة قيصر ، وها هو صديقه أنطونيوس قد جاء ليؤبئ فاستمعوا له ، واعلموا أن قيصر المذنب غير قيصر الماجد ، وقد سمعتم ما قيل عن الأول فاسمعوا ما قيل عن الثاني ، واسمعوا لي أن أقول كلمة أختم بها خطابي . »

« أيها الرومانيون ، إن الخنجر الذي ذهبت به قيصر في سبيل رومه لا يزال باقياً عندي للذبح بروتس في سبيل قيصر إذا أرادت رومه ذلك . »

تأثير الخطبة

الشعب : « ليحيى بروتس . »

أحد الناس : « أنا أقترح أن نحمله على الأكف والرؤوس إلى بيته . »

آخر : « انصبوا له تمثالاً . »

آخر : « امنحوه عرش قيصر . »

آخر : « إنه أفضل من قيصر . »

آخر : « إن قيصر كان ظالماً . »

آخر : « إنه كان الظلم بعينه . »

آخر : « لتهنأ رومه بالخلاص منه . »

آخر : « ألا نسمع تأبين أنطونيوس ؟ »

آخر : « نعم نسمعه لأن بروتس أمر بذلك . »

وهنا خرج بروتس ، والقلوب طائرة حوله ، والعيون حائمة عليه ، وقد نال بتأثير خطابه من نفوس الشعب الروماني ما أراد ، ثم صعد أنطونيوس على منبر الخطابة ، فهزأ الشعب بموقفه ، ولولا كلمة من بروتس ما ثبت في موقفه لحظة واحدة ، ثم أنشد قصيدة التأبين المشهورة التي هي آية الآيات في اللغة الإنكليزية فصاحة وبياناً ، والتي يكاد لا يوجد إنكليزي لا يحفظها ولا يمجدها تمجيد الأمم المتعبدة آيات الكتب المقدسة .

(وهنا أرسل أنطونيوس من جفنيه قطرات من

الدموع) .

الانقلاب

أحد الناس (يقول لصاحبه): « يلوح لي أن فيما

يقول الرجل شيئاً معقولاً » .

آخر : « إنك إذا أنعمت النظر وجدت أن قيصر قد

أسيء إليه » .

آخر : « لقد أثر في نفسي زهده في تاج الملك » .

آخر : « لقد أحزنني عليه أنه كان يبكي لبكاء

الفقراء » .

آخر : « إن الذي يرثي لبؤس البؤساء لا يكون

طماعاً ولا ظالماً ولا قاسياً » .

آخر : « إذا فسيكون لمقتل قيصر شأن غير شأنه

الأول » .

آخر : « لا بد من عقاب القاتل » .

آخر : (يقول لجليسه) : « انظر إلى أنطونيوس

فقد بكى حتى احمرت مقلته » .

آخر : « ليس في رومه رجل أشرف من أنطونيوس » .

أنطونيوس : « أ تأذنون لي بالنزول من المنبر لأقف

قليلاً بجانب جثة القتيل ؟ »

الشعب : « نعم ، نعم » .

(فنزل أنطونيوس ومشى حتى وصل إلى جثة

قيصر ، وهو لا يزال في ملابسه التي قتل فيها ، ولا

تزال طعنات الخناجر ظاهرة في قبائه ثم قال)

أنطونيوس : « من كان يملك منكم دموعاً ،

فليدعها لهذا الموقف ، فإنني سأبكيكم في هذه

الساعة بكاءً شديداً .

« إنكم جميعاً تعرفون هذا القباء ، ولكنكم

لا تعرفونه كما أعرفه أنا ، أنا أعلم أن قيصر لبسه

أول مرة في مساء اليوم الذي انتصر فيه على (الدفى)

ذلك الانتصار الباهر الذي نالت به رومه فخراً

عظيماً » .

(ثم وضع يده على الثقوب التي في القباء)

وعطفاً عليهم .

« كل ما أستطيع أن أقوله إنني عرضتُ بنفسي

تاج الملك على قيصر في لوبركال ثلاث مرّات ،

فأباه زهداً فيه وازدراءً له .

« كنت أستطيع أن أقول إن الطمع لا يسكن قلباً

مثل هذا القلب ، ولا يخالط فؤاداً مثل هذا الفؤاد ؛

لولا أن بروتس يقول إن قيصر رجل طماع ، وأنا

لا أستطيع مخالفته لأنه رجل شريف .

« أيها الرومانيون ؛ إنكم أحببتم قيصر قبل اليوم

حباً جماً ، فما الذي يمنعكم اليوم من البكاء عليه ؟

« إن لم تبكوه لصفاته الكريمة ، فابكوه لأنكم

كنتم تحبونه ، ابكوه لأنه كان بالأمر ينطق

الكلمة ، فتدوي في صدور العظماء ، دوي الرعد في

آفاق السماء ، فأصبح اليوم مطرَحاً في ظل هذا

الحائط لا يجد بين الناس من يأبه له ، ولا من ينظر

إليه .

« أيها العقل الإنساني ؛ كيف حالت حالك ،

وتغيرت آيتك ؟ وكيف انتقلت من الصدور الإنسية

إلى الصدور الوحشية ؟ وكيف ضللت سبيلك ،

وعميت عليك مذهبك فحسبت الخير شراً ، والشر

خيراً ، واختلط عليك الأمر بين الحسنات والسيئات

والمكarms والجرائم ؟

« أيها الرومانيون ؛ عفواً إن هديت بينكم ، أو

أسأت إليكم ، واعلموا أن الحزن قد قسّم فؤادي

قسمين ، قسم على هذا المنبر ، وقسم في ذلك

النعش .

« أيها الأصدقاء ؛ إن بين جنبي قلباً يخفق

بحبكم والعطف عليكم والرأفة بكم ، ولولا مخافة

أن تنفجر صدوركم حزناً وجزعاً ؛ لقلت لكم إن

قيصر قتلَ مظلوماً .

« إنني أعتقد أن بروتس ورفاقه قوم شرفاء عظماء ،

لذلك أحب أن أسيء إلى نفسي وإلى قيصر وإليكم

قبل أن أقول إنهم أخطأوا في قتل قيصر فأسيء

إليهم » .

وقال :

« في هذا القباء الشريف تمزقت جثة هذا الفاح العظيم ، في هذا الثقب طعنه بروتس طعنته ، ومن هذا الثقب أطل دم قيصر ليرى بعينه وجه الضارب ، وأحسب أن أفراد النوع الإنساني جميعهم قد مروا بخاطر قيصر فرداً فرداً قبل أن يمر بخاطره بروتس .

« عرف قيصر أن قاتله هو صديقه وصنيعة إحصانه ؛ ففترت همته وعجز عن المقاومة لأن الطعنة التي أصابته في جسمه لم تكن أقل من الطعنة التي أصابته في قلبه ، ولم يكن منظر الملقى والخناجر أبشع في نظره من منظر الخيانة والغدر ، هنالك عجز قيصر عن أن يقول شيئاً غير الكلمة التي ودع بها قاتله الوداع الأخير : وأنت أيضاً يا بروتس ! »

« وهنالك تحت تمثال بومباي وجد قيصر قتيلاً ، وقد لف وجهه بقباؤه حتى لا تتألم نفسه مرة ثانية بمنظر كفر النعمة ونكران الجميل . ها أنتم تبكون على قيصر ، فشكراً لكم على هذه الدموع الكريمة التي طهرتم بها ما لوث به الخونة تربة الأرض من الدماء .

« إنكم تبكون لمنظر قباة قيصر الممزق ، فكيف بكم لو شاهدتم ما تمزق من جثته ! »

(ثم دنا وكشف القباة عن جسمه وقال) :

« إن في كل جرح من هذه الجروح لساناً يشكو إليكم فاستمعوا له فهو أنطق من لسان الرثاء .

أحد الناس : « يا له من منظر فظيع ! »

آخر : « وا رحمته لقيصر ! »

آخر : « إن يوماً يقتل فيه قيصر ليوم شره مستطير ! »

آخر : « يا للدناءة والسفالة ! »

آخر : « يا للغدر والخيانة ! »

آخر : « الانتقام ! الانتقام ! »

الشعب (وهو يضح ضحيقاً عظيماً) : « أحرقوا القتلة ! مزقوهم ! لا تبقوا على أحد منهم ! »

أنطونيوس : « مهلاً ! مهلاً ! أنا لا أريد أن أشعل

بينكم فتنة عمياء ، ولا أريد أن تطالبوا القتلة بالدماء التي أراقوها ، فإني لا أزال أعتقد أنهم قوم شرفاء . وربما كانوا يعرفون أسباباً لقتله لا نعرفها ، وإنما أريد أن أقول لكم إن قيصر كان يحبكم حباً جماً ، فهو يستحق رثاءكم له وبكاءكم عليه .

« لولا أنني أوتر الإبقاء عليكم ، ولولا أنني أحب تخفيف ما ألم بقلوبكم من الحزن على فقيدكم ؛ لتلوت عليكم وصيته لتعلموا أن الرجل كان يحبكم ، وأنه ما كان خليقاً أن يقتل بينكم ، وفيكم عين تطرف وفؤاد يخفق .

الشعب : « اقرأ الوصية . »

أنطونيوس : « إنني أخاف على صدوركم أن تنفجر حزناً على القتل الشهيد .

الشعب : « نريد سماع الوصية . »

أنطونيوس : « إنه يعطي كل فرد من أفراد الرومان خمسة وسبعين فرنكاً ويوصي بجميع غاباته ومنزلهاته ورياضه لأمتيه . »

أحد الناس : « يا له من رجل كريم ! »

آخر : « يا له من رجل شريف ! »

آخر : « ويل للقتلة ! »

آخر : « الثورة ، الثورة ! »

آخر : « سنحرق منزل بروتس ومنازل رفاقه . »

ثم خرج الشعب يتدفق في شوارع رومه تدفق الأمواج الثائرة في القاموس المحيط .

أنطونيوس (في موقفه وحده) : « أيتها الفتنة العمياء قد أيقظتك من مرقدك ، فارفعي رأسك ، وامضي في سبيلك ، واشتعلي حتى يحرق لسانك أديم السماء ، وحتى لا تبقي على شيء مما حوالبك .

انتهى

وهكذا استطاع أنطونيوس في موقف واحد أن يستعبد الشعب الروماني لنفسه ، وما كاد يخلص من استعباد قيصر ، وهكذا الأمم الضعيفة لا مفر لها من العبودية لحملة التيجان ، أو حملة البيان !

* * *

البؤساء وأمانهم أنه ما وقف بجانبك إلا طمعاً في دورة الفلك التي علت بك ، وأنزلتلك منازل العظماء أن تدور به دورتها بك ، وأن تنزله منزلتك ، فاغفر له جهله وقصوره ، فمثلك من يقل العثرة ويستر الزلّة !

إنك تريد مني أن ألتبس لك في أبواب الشريعة الإسلامية مسوِّغاً يسوِّغ لك طرد هذا الصعلوك المجترئ عليك من موقفه الذي اختاره لنفسه بجانبك ، فاسمع ما ألقى عليك :

إن الذي وقفت بين يديه في مصلاك أجل شأنًا وأعظم خطراً من أن يحفل بثوبك اللامع ، وجبينك الساطع ، وردائك المطرز ، وقميصك المحبر ، وأن يعرف لك من الفضل والشرف أكثر ممّا يعرف لصاحبك ، فما كان له أن يأمر أن تتقدمه ، أو يأمره أن يقف منك موقف العبد من السيد ، والمحكوم من الحاكم .

إن للجمعة والجماعة فضائل كثيرة وحكمًا جمّة أرادها الشارع منهما ، وإنك لن تجد بين هذه الحكم وتلك الفضائل حكمة أدق ، ولا فضيلة أنفس من التواضع الذي يشعره العظيم قلبه كلما رأى أنه قد وقف من الفقير في ذلك الموطن المقدس ، موقف الأخ من أخيه والنظير من نظيره .

إن كنت تريد يا مولانا الحاكم من الاختلاف إلى المسجد ألا تترك للفقير موطنًا من المواطن يملك فيه الخيار لنفسه في مواقفه ومذاهبه حتى موقفه بين يدي ربه ، فخير لك أن تستصحب معك فريقًا من شرطتك وأعوانك ؛ لتأمرهم في ذلك الفقير بما يرضيك من إقصائه أو طرده أو التنكيل به كلما رأيت تهادي في وقاحته وسوء أدبه ، فإن تم لك من ذلك ما أردت ، فاحذر أن يخدعك خادع عن نفسك ، فيزين لك أن تنطق في موقفك هذا بأية العبودية بعد ما نطقت بكلمة الألوهية ؛ حتى لا تجتمع على نفسك بين رذيلتين ؛ رذيلة الظلم ورذيلة الرياء .

فإن كنت تريد الصلاة للصلاة ، فاعلم أن الله لا يقبلها منك ، ولا يُجزل لك ثوابها حتى تقف بين يديه موقف من ألت بقلبه الخشية ، وملكك عليه

الكبرياء

« حضرة السيد الفاضل :

« لي في البلدة التي أسكنها كرامة الحاكم ، لأنني أشغل وظيفة عالية فيها ، وقد بدا لي أن أختلف إلى المسجد لصلاة الجمعة فاختلقت حتى فاجأني يوماً من الأيام ما لم يكن في الحسبان .

« حدث أن صعلوكاً يعرفني ويعرف مقامي تهادى في وقاحته وسوء أدبه حتى وقف بجانبني في الصلاة ، فاشمأزت نفسي من هذا الأمر كل الاشتمزاز ، وحاولت أن أحمله ، فلم أستطع ، وخفت إن طردته أن يؤاخذني الناس به ، فهل تعرف مسوِّغاً شرعياً يفرق بين درجات الناس في مواقف الصلوات ؟ »

(سائل)

يا مولانا الحاكم :

رحماك بهذا الصعلوك المفلوك ^(١) الواقف بجانبك ، لا تضنّ عليه بذلك الظليل أن يمتد إليه فيقيه أشعة التصعلك الحارة ساعة من الزمان ، ولا تحرمه نفحة من نفحات السعادة التي تهبّ عليه من بين أردائك ^(٢) العطرة علّه يجد في تلك اللذة الخيالية ما يهون عليه مصابرة البلاء ، ومعاناة الشقاء . وأحسن كما أحسن الله إليك ؛ إن الله يحب المحسنين .

ليُفرخ روعك ، وليثلج صدرك ، واعلم أن هذا الفقير الصعلوك الواقف بجانبك لا يستطيع مهما نال منه العدم وبرح به الشقاء أن يقطع قطعة من سعادتك ، أو يقتل فلذة من شرفك ، فسادتك وشرفك كالمصباح تستنير منه المصابيح ، ونوره نوره ، وبهاؤه بهاؤه .

لا تظلم الرجل ، ولا تقل إنه وقاح الوجه ، أو سيئ الأدب ، فإني أعلم بما أعرف من آمال هؤلاء

(١) المفلوك: الفقير . (٢) جمع رذن ، وهو الكم .

إنَّ الرجل مؤمن يعتقد ولا شك بسوء عاقبة المنتحر ، فكيف هان عليه وهو في آخر يوم من أيام حياته أن يضمَّ إلى خسارة دنياه خسارة آخرته ، وهي العزاء الباقي عن كل ما يلاقي المؤمن في حياته من شقاء وعناء .

إنَّ الانتحار من حيث هو مبدأ فاسد ، وعادة مستهجنة رمتنا بها المدنية الغربية فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتها .

ولقد كنا نعجب قبل اليوم من تهالك المصريين على حب تقليد الغربيين حتى فيما يؤذيهم في مالهم أو عُرْضهم وصحتهم ، أو كنا إذا أردنا المبالغة في تمثيل هذا التهالك قلنا يوشك أن يقتل المصري نفسه بنفسه إذا علم أن ذلك عادة من العادات الغربية ، فقد صار قريباً ما كان بعيداً ، وأصبح مألوفاً ما كنا نعدُّه مثلاً من الأمثال .

الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس من الجبن والخور ، وما يصل إليه العقل من الاضطراب والهوس . وأحسب ألا يُقدم الإنسان على الانتحار وفي نفسه ذرة من العزم ، أو في عقله لمحة من الحزم .

حُبُّ النفس غريزة وضعها الله سبحانه وتعالى في نفس الإنسان ، لتكون ينبوع العمل ، ومبعث الحركة ، ومطلع شمس المدنية والعمران ، والمتنحّر يبغض نفسه بأشدَّ مما يبغض الإنسان أعدى أعدائه . فهو شاذٌّ في طبيعته ، غريب في خلقه ، معاند لإرادة الله تعالى في حياة الكون وعمرانه ، ومن كان هذا شأنه كان بلا قلب ولا عقل .

لا عذر لمتنحر في انتحاره مهما امتلأ قلبه من الهمِّ ونفسه من الأسى ، ومهما ألت به كوارث الدهر ونزلت به ضائقات العيش ، فإنَّ ما أقدم عليه أشدُّ مما فرَّ منه ، وما خسره أضعاف ما كسبه .

لو كان ذا عقل ؛ لعلم أن سكرات الموت تجتمع في لحظة واحدة جميع ما تفرق من آلام النفوس وشدائدها ، وأن قضاء ساعة واحدة فيما أعد الله لقاتل نفسه من العذاب الأليم الدائم أشدُّ مما يلاقيه

السكينه سمعه وبصره ، فلم يعد يصبر شيئاً مما حوله ، ولا يعلم إن كان واقعاً في حضرة الملوك ، أو في زمرة الصعاليك .

أيها العظماء :

ليست العظمة التي تعرفونها لأنفسكم إلا منحة من منح الفقراء عليكم ، وحسنة من حسناتهم إليكم ، فلولا تواضعهم بين أيديكم ما علوتم ، ولولا تصاعرهم في حضراتكم ما استكبرتم ، فلا تجزؤهم بالإحسان سوءاً ، ولا تجعلوا الكفر مكان الشكر تستدفعوا النقم وتستديموا النعم .

أيها العظماء :

ما هذه القصور التي تسكنونها ، ولا هذه النعم التي ترفلون في أثوابها ، ولا هذه الحاشية التي تدلون بها إلا ألواناً وأصباغاً لا علاقة بينها وبين نفوسكم ، ولا دخل لها في جوهر من جواهر أقدتكم وقلوبكم ، وما هي إلا أن تشرق عليها شمس الحقيقة ، فتذهب بها ذهابها بألوان السحاب ، وأصباغ الثياب ، فإذا أنتم عراة مجردون لا تشفع لكم إلا فضائلكم ، ولا تنفعكم إلا مواهبكم ومزاياكم .

أيها العظماء :

لا عذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم وشؤونكم ، فإن كنتم من أرباب الفضائل ، فحري بالفاضل أن لا يشوّه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء أو لا فما تحمل الأرض على ظهرها أسمج وجهها ولا أصلب خدّاً من جهلة المتكبرين ، فانظروا أين تنزلون ، وفي أيِّ مقام تقيمون .

* * *

الانتحار

قرأت في الصحف أن رجلاً من تجار المسلمين انتحر لا لضيق يد ، أو شدة مرض ، أو يؤس حال ؛ بل لأنه حزن على وفاة صديق له ، فقتل نفسه .

الحياة الشعرية

لولا الحياة الشعرية التي يحياها الناس أحياناً ؛
لسمح في نظرهم وجه الحياة الحسية ، ومَرَّ مذاقها
في أنوارهم حتى ما يغتبط حيّ بنعمة العيش ، ولا
يكره ميت طلعة الموت .

لذلك نرى كل حيّ يهرب من الحياة الحسية
جداً الهرب لاجئاً إلى الحياة الشعرية من أي باب من
أبوابها ؛ لأنه يرى في هذه ما لا يراه في تلك مما يريح
فؤاده ، ويثلج صدره ، وينفي عن نفسه السامة
والضجر من صنوف المناظر ، وأفانين المشاهد ،
وغرائب المؤتلفات ، وعجائب المختلفات .

لولا حبّ الناس الحياة الشعرية ؛ لما وجد فيهم
كثير من المولعين بتخدير أعصابهم كشارب الخمر
ومدخني الحشيشة والأفيون . وهي وإن كانت في
نظرهم حياة سعادة يتخللها شقاء ، إلا أنها عندهم
خير من حياة شقاء لا تتخللها سعادة ، ولولا حبّ
الحياة الشعرية ؛ لما وجد في الناس هذا الجرم الغفير
من الشعراء المتخيلين ، والمتصوّفة المتهوّسين .

لا يجد السكّير لذّة العيش وهناؤه إلا إذا أسلم
نفسه إلى كأس الشراب ، فقله من هذا العالم
البيسط المحدود إلى عالم هائل غريب يرى فيه كل
ما تشتهي نفسه أن يراه ، فإن كان قبيح الوجه مشوّه
الخلق تخيل أنه شرك الأبصار ، وفنتة النظر ، وأن
القلوب معلقة على جماله تخليق الأطيّار على
الأشجار ، وإن كان ضيقاً حقيراً لا يملك فلساً
توهّم أنه جالس على كرسي الملك ، والصولجان في
يمينه والتاج فوق رأسه ، واعتقد أن عبيد الله عبيدّه ،
وجنود الحكومة جنوده ، حتى الجندي الذي يسجّه
على وجهه إلى السجن . وبالجملة لا تقع عينه على
ما يحزنه من المنظورات ، ولا تسمع أذنه ما يفره من
المسموعات ، حتى ليرى الجمال الباهر في وجه
العجز الشمطاء ، ويسمع في صوت الرعد القاصف
ألحان الغناء .

من مصائب الحياة وأرزائها لو يعمر ألف سنة .

ما أكثر هموم الدنيا وما أطول أحزانها ، لا يفيق
المرء فيها من هم إلا إلى هم ، ولا يرتاح من فاجعة
إلا إلى مثلها ، ولا يزال بنوها يترجون ما بين صحة
ومرض ، وفقر وغنى ، وعزّ وذلّ ، وسعادة وشقاء ،
فإذا صح لكل مهموم أن يكره حياته ، وكل محزون
أن يقتل نفسه ، خلت الدنيا من أهلها ، واستحال
المقام فيها بل استحال الوقود إليها ، وتبدلت سنة الله
في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ما سُمّي القاتل مجرماً إلا لأنه قاسي القلب
متحجر الفؤاد ، وأقسى منه قاتل نفسه ؛ لأنه ليس
بينه وبينها من الضغينة والموجدة ما بين القاتل
والمقتول ، فهو أجرم المجرمين ، وأفظع القتالين .

يخدع المنتحر نفسه إن ظنّ أنه مقتنع بفضل
الموت على الحياة ، وأنه يفعل فعلته عن روية وبصيرة ،
فإنه لا يكاد يضع قدمه في المأزق الأول من مأزق
الموت حتى يثوب إليه رشده وهذاه ، ويحاول التخلص
مما وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلاً .

إن ألقى نفسه في الماء تخبط ، ومدّ يده إلى من
يرجو الخلاص على يده ، وودّ لو يفتدي نفسه بكل
ما تمتلك يمينه . وإن أغلق على نفسه نوافذ غرفة
مملوءة بغاز الفحم ودّ لو سقط عليه سقف الغرفة ؛
ليستنشق نسمات الهواء ، ولو عاش بعد ذلك كسير
اليد والرجل فاقد السمع والبصر .

إن فكرة الانتحار نزعة من نزعات النفس ، وخطرة
من خطرات الشيطان ، فمن حدثته نفسه بقتل نفسه
فليتمهل ريثما يتبين كيف يكون صبره على احتمال
سكرات الموت وآلام النزاع ! وكيف يكون حديث
الناس عنه بعد موته ! وهل يمكن أن يوجد بينهم
عاذر له أو ساكت عن ازدراءه واحتقاره ورميه بالعته
والجنون ؟ وليستحضر في مخيلته أشكال العذاب
وألوان العقاب التي أعدّها الله في الدار الآخرة
لأمثاله ، ثم لينظر أيرتكب جريمة الانتحار ؟ لا أظنّه
بعد ذلك فاعلاً إلا إذا كان رجلاً في ثوب إنسان ،
أو بطلاً من أبطال البيمارستان .

سعة العيش من وراء الأمل كبقية المؤمنين ، ولا يتلذذ بتصديق ما لا يكون تلذذ المجانين .

والحق أقول : لولا الحياة الشعرية التي أحيانا أحيانا في هذه النظرات ، لأحببت زهدا في الحياة الحسية أن تطلع الشمس من مغربها ، ولو قامت القيامة بعد ذلك ، ولتمنيت حباً في الانتقال من حال إلى حال ، أن أنتقل ولو إلى رحمة الله .

* * *

رباعيات الخيام

وقفت برباعيات عمر الخيام^(١) كما يقف مسافر ضلّ به سبيله في فلات الأرض ومجاهلها بوايد معشوشب زاهر في وسط فلاة جرداء عند منقطع العمران ، فما خطوط فيه بعض خطوات حتى رأيت ما شاء الله أن أرى من أنوار^(٢) بيضاء وورود حمراء ، وألوان من النبات ، مشتهات وغير مشتهات ، وغدران سلسلة مطردة تبسط في تلك الدياجة الخضراء ، تبسط الشهب الثاقبة في الدياجة الزرقاء ، وأسراب من الحمام والعصافير والكراكي والبلابل تتطاير من فرع إلى فرع ، وتتناثر من غصن إلى غصن ، وتجتمع لتفترق ، وتفترق لتجتمع ، وتقتتل مرة وتلتئم أخرى ، وتبعد حتى تلامس بأجنحتها جلدة السماء ، ثم تهبط فتقبل صفحة الماء ، ولا تزال تغرد في صعودها وهبوطها تغريداً مختلف النغمات متنوع اللهجات ، فيتألف من ذلك الاختلاف نغم بدیع لا أعرف له شبيهاً إلا تلك الصورة الخيالية التي أنتجها في نغم الحور الحسان ، في فرايس الجنان .

(١) عمر الخيام : عالم بالرياضيات وفلكي وشاعر فارسي ، توفي عام ١١٣٢م. ترجمت رباعياته إلى عدة لغات حية ، وأشهر الترجمات العربية ترجمات الصافي النجفي وديع البستاني ومحمد السباعي وأحمد رامي .

(٢) جمع نورة ، وهي الزهرة .

ولا يشعر الصوفي بنعيم الحياة إلا إذا جنّ الليل وأوى إلى معبده وخلّا بنفسه ، فتخيل أن له أجنحة من النور كأجنحة الملائكة يطير بها في فضاء السماء ، فيرى الجنة والنار والعرش والكرسي ، ويسمع صرير قلم القدرة في اللوح المحفوظ ، ويقرأ في أم الكتاب حديث ما كان وما يكون وما هو كائن !

ولا يستفيق الشاعر من هموم الدنيا وأكدارها ومصائبها وأحزانها ، إلا إذا جلس إلى مكتبه وأمسك بيراعه ، فطار به خياله بين الأزهار والأنوار ، وتنقل به بين مسارح الأفلاك ، ومسايح الأسماك ، ووقف به تارة على الطلول الدوارس يكي أهلها النازحين وقطانها المفارقين ، وأخرى على القبور الدوائر يندب جسيمها الباليات ، وأعظمها النخرات .

ليس الأمل إلا باباً من أبواب الحياة الشعرية ، ولا يمكن أن يوجد بين قلوب البشر قلب لا يخفق بالآمال ؛ فالأمل هو الحياة الشعرية العامة التي يشترك في العيش فيها جميع الناس أذكى وأغبياء ، فهماء وتلداء ، والأمل هو السد المنيع الذي يحترض في سبيل اليأس ، ويقف دونه أن يتسرب إلى القلوب ، ولو تسرب إليها ؛ لزهد الناس العيش في هذه الحياة الحسية التي لا قيمة لها في أنظارهم ، ولا لذة لها في نفوسهم ، ولطلبوا الفرار منها إلى الموت تسلياً بالتغير والانتقال ، وتلذذوا بالتحوّل من حال إلى حال .

يقولون : « أشقى الناس في هذه الحياة العقلاء » ويقولون : « ما لذة العيش إلا للمجانين ! »

أتدري لماذا ؟

لأن نصيب الأولين من الحياة الشعرية أضعف من نصيب الآخرين ، وذلك أن عقل العاقل يحول بينه وبين استمرار الطيران في فضاء الخيالات الذهنية ، والمغالطات الشعرية ، فلا يرى سوى ما بين يديه من المحسوسات ، ويمتنع علمه بأحوال الدنيا وشؤونها ، ومعرفة أن الهموم والأحزان لازمة من لوازمها لا تنفك عنها أن يؤمل منها ما ليس في طبيعتها من دوام السعادة واستمرار السرور والهناء ، فلا يطلب

ثم يعود إلى نفسه مستغفراً الله من ذنبه في شكّه
وارتيابه فيقول : « اللهم إنك تعلم أنني ما كفرت بك
مدّ أنت ، ولا أضمرت لك في قلبي غير ما يضر
لك المؤمنون الموحّدون ، فاغفر لي آثامي وذنوبي ،
فإني ما أذنبت عناداً لك ولا تمرداً عليك ، ولكنها
الكأس غلبتني على أمري ، وحالت بيني وبين
عقلي ، وأنت أجلّ من أن تقاضيني كما يقاضي
الدائن مدينه ، لأنك كريم والكريم يرحل المنحة
ارتجالاً ، ولا يقرضها قرضاً ، ويسخ نعمته حتى على
العصاة والمذنبين . »

وأحياناً يستشعر قلبه الرحمة بالعباد فيبكي
أحياءهم وأمواتهم ويقول مخاطباً فتاته : « رويداً أيتها
الفتاة في خطواتك على هذه الأعشاب ، فعمل
جذورها تستمدّ حياتها من كبدة فتاة مثلك كان لها
قلب مثل قلبك ، ووجدان مثل وجدانك ، وجمال
ورواء مثل جمالك وروائك ، ثم ضرب الدهر
ضرباته ، فإذا أنت في غلالة هذه الأشعة البيضاء ،
وإذا هي في دجّة تلك الأعماق السوداء . فارفقي
بها واسكبي هذه الفضلة من كأسك على تربتها
علها تتسرّب إلى نفسها ، فتطفئ ذلك اللعج الذي
يتأجج بين جوانحها . »

ثم يتخيل أحياناً كأنه واقف أمام رجل خزاف
يحرق أنيته في تنوره ، فيقول له : « رحمة أيها
الخرّاف بهذه الحماة التي تقلبها في هذه النار ، فقد
كانت بالأمس إنساناً مثلك ، وستكون في مستقبل
الأيام حماة مثلها ، وربما ساقك الدهر إلى يدي
خرّاف تحتاج إلى رحمته ورقه ، فارق بها اليوم يرفق
بك خزافك غداً . » وأونةً يليس ثوب الواعظ المنذر ،
فينعى على السعداء سعادتهم ويدكرهم بما آلت
إليه حال الملوك السالفين ، والأقيال^(١) الماضين ، من
خراب دورهم ، وعمران قبورهم ، وغروب شمسهم
واندثار آثارهم . ثم ينتقل من ذلك إلى البكاء على
نفسه ، وترقّب ذلك اليوم الذي تصوّح^(٢) فيه زهرته ،
وتنطفئ جذوته ، وتضعف منته ، ويمحو نهار مشيبه

فلم أزل أنقلب في أعطاف تلك الغلائل
الخضراء ، وأجرّ ذبول تلك الجداول البيضاء ، وأقلب
في طرفي ، فلا أرى رائحاً ولا غادياً ، وأسمع ، فلا
أسمع هاتفاً ولا داعياً ، حتى وقف بي الحظّ على
دوحة فرعاء ، مائلة على رأس بعض الجداول ، قد
اضطجع في ظلها على قطيفة من ذلك العشب
الناعم ، رجل هاني باسم ، يقرأ تارة سورة الجمال في
وجه فتاة جالسة بين يديه ، ويقبل أخرى نغر الكأس
التي في يمينه ، وترنّم فيما بين هذا وذاك
بمقطوعات شعرية بديعة ، يمثل فيها جمال الطبيعة
وهدهوها ، وسعادة الوحدة وهناءها ، ويطير بأجنحة
خياله في عالم بديع من عوالم الغيب ، كأنما
يريد أن يفرّ بنفسه من هذا العالم المملوء بالآلام
والأحزان ، ويحاول أن يطارد كل خاطر من خاطرات
الهموم التي تتطاير حول قلبه ، ليستكمل لذته في
العيش ، ويتغلغل في أعماق المتعة بوحده وكتابه ،
وكأسه وفتاته .

فإن مرّ بخاطره ذكر الملوك والأمراء ، وما ينعمون
به من عز وسلطان ، ولذة واستمتاع قال : « ما لي
وللملك والسلطان ، والحاشية والجند ، والقصور
الشماء ، والجنان الفخياء ، هنالك المحنة والشقاء ،
والفتنة الشعواء ، والهموم والأرزاء ، والدماء
والأشلاء ، والعويل والبكاء ، وهنا الراحة والسكون
في ظلال الوحدة والانفراد ، حيث لا سيد ولا مسود ،
ولا عابد ولا معبود . وبين هذين الثغرين نغر الفتاة
ونغر الكأس ، وذنبك الصديقين ، هذا الكتاب
المفتوح ، وذلك الغصن المطلق ، كل ما يقدر
السعداء لأنفسهم من غبطة في الحياة وهناء . »

وإن ذكر الآخرة ، وما أعدّ الله فيها من العذاب
للمسرفين على أنفسهم قال : « إنّ من العجز أن
أبيع عاجل السعادة المعلوم بأجلها المجهول . أنا
اليوم موجود ، فلا بد أن أستمتع بمتعة الوجود ،
أما الغد فلا علم لي به ولا بما قدّر لي فيه .
وعسير عليّ أن أتصور أننا معشر الأحياء كنوز من
الذهب ندفن اليوم في باطن الأرض ، لينبش عنا
النايشون غداً . »

(١) الأقيال: الملوك، المفرد قيل .

(٢) تصوّح: تَشَقَّقَ، وَيَسَّ، وَجَفَّ .

غاب تسمع زئير مباحه ، أو دير تأنس برنة ناقوسه ،
 وأسجلت أن لا تعود إليه ، وأن تقطع كل سبيل بينك
 وبينه ، فعذرناك ، ولم نعتب عليك ، ولم نسمك
 جباناً ولا منهزماً ولا مولياً ولا مذبراً ؛ لأنك قاتلت
 فأبليت حتى لم يبق في غمدك سيف ، ولا فوق
 عاتقك رمح ، ولا في كنانتك سهم ، والعدو كثير
 عدده ، صعب مراسه ، وافرة قوته ، والشجاعة في غير
 موطنها جنون ، والوقوف أكثر من ثمانين عاماً أمام
 عدو لا أمل في براحه ولا مطعم في زياهه عناد ،
 وهل كان يكون مصيرك إن أنت قاتلت حتى سقطت
 قتيلاً في المعركة إلا مصير الفلاسفة من قبلك الذين
 قاتلوا حتى قتلوا ، فهدرت دماؤهم واغتمضت عيونهم
 قبل أن يروا منظراً من مناظر الصلاح والاستقامة في
 المجتمع البشري يعزّون به أنفسهم عن أنفسهم ،
 ويروحون به ما يجدون بين جوانحهم من ألم النزع ،
 وفي أفواههم من مرارات الموت .

ماذا لقيت من الدنيا وماذا أهدت منها ؟ وأين وقع
 علمك وفضلك ، ولسانك وقلمك ، وقوة عارضتك
 ومضاء حجتك من آلام الناس وشروهم ، وقسوة
 قلوبهم وظلم ألسنتهم وأيديهم ؟

قلتَ للقيصر : « أيها الملك إنك صنيعه الشعب
 وأجيره لا إلهه ورثه ، وإنك في مقعدك فوق عرشك
 لا فرق بينك وبين ذلك الأكار في المزرعة ، وذلك
 العامل في المصنع ، كلاهما مأجور على عمل
 يعمل فيسدده ، وكلاهما مأخوذ ببيعة زلله وسقطه ،
 فكما أن صاحب المصنع يسأل العامل هل وئى
 عمله ليمنحه أجره ، كذلك يسألك الشعب هل
 قمت بحماية القانون الذي وكل إليك حراسته
 فأنفذته كما هو من غير تبديل ولا تأويل ؟ وهل
 عدلت بين الناس ، فأسيت بين قويهم وضعيفهم ،
 وغنيهم وفقيرهم ، وقريهم وبعيدهم ؟ وهل استطعت
 أن تستخلص عقلك من يدي هواك فلم تدع للحب
 ولا لليغض سلطاناً على نفسك يعدل بك عن منهج
 العدل ومحجته ؟ وهل أصحمت أذنك عن سماع
 الملق والدّهان ، والمدح والثناء فلم تفسد على الناس
 فضائلهم ، ولم تقتل عزة نفوسهم ، ولم يذهب بهم

ليل شبابه ، فيزحف إلى قبره شيئاً فشيئاً حتى يتردى
 فيه ، فيعود كما كان سرّاً مكتوماً في ضمائر
 الأقدار ، وذرة هائمة في مجاهل الأكوان .

وهكذا ما زال ينتقل من عبرة بليغة ، إلى عظة
 بديعة ، ومن خيال جميل ، إلى تشبيه رقيق ، ومن
 وصف ناطق ، إلى تمثيل صادق ، حتى أصبحت
 أعتقد أن هذه النفس التي تشتمل عليها برودة هذا
 الشاعر الجليل مرآة صافية قد تمثل فيها هذا الكون
 بأرضه وسماؤه ، وليله ونهاره ، وناطقه وصامته ،
 وصادحه وباغمه ، وأن فخار الأعراب بمتنيها
 ومعريها ، والفرنسة بلامرئيتها وفيكتورها ، والسكسون
 بشكسبيرها وملتونها ، والطياليان بدانتيتها ، والألمان
 بجيتتها ، والرومان بفرجيلها ، واليونان بهوميروها ،
 ومصر القديمة ببنيتاؤورها ، ومصر الحديثة بأحمدها ،
 لا يقل عن فخار فارس بخيامها .

* * *

إلى تولستوي^(١)

قف ساعة واحدة نودعك فيها قبل أن ترحل
 لطيتك ، وتتخذ السبيل إلى دار عزلتك ، فقد عشنا
 في كتفك على ما بيننا وبينك من بعد الدار ، وشط
 المزار ، عهداً طويلاً كنا فيه أصدقاءك وإن لم نرك ،
 وأبناءك وإن كنا لنا آباء من دونك . وعزير علينا أن
 تفارقنا قبل أن نقضي حق عشرتك بدمعة واحدة
 نسفحها بين يديك في موقف الوداع .

حدثنا الناس عنك ، أنك ضبقت بهذا المجتمع
 الإنساني خرقاً بعد أن أعجزك إصلاحه وتقويمه ،
 فأبغضته وعفت النظر إليه ، وأبغضت لبغضه كل
 شيء حتى زوجك وولدتك ، ففررت بنفسك منه إلى

(١) كتبت بمناسبة ما أنبئ عن الأديب الروسي الشهير ليو
 تولستوي، المتوفى عام ١٩١٠، من أنه ترك قبل وفاته
 بيضة أيام منزله هائماً على وجهه ليعتزل الناس في أحد
 الأديرة .

الخوف من ظلمك أو الطمع في غفلتك مذهب التوسل إليك بالكذب والنميمة والتجسس وذلة الأعناق وضرع الخدود ؟ فإن وجدك الشعب عند ظنه ، وراك أميناً على العهد الذي عهد به إليك أبقي عليك ، وأبقى لك سلطانك ، وعرف لك يدك عنده ، وأحسن إليك كما أحسنت إليه ، أو لا كان له معك شأن غير ذلك الشأن ، ورأي غير ذلك الرأي ؟ « فما سمع منك هذه الكلمات حتى أكبرها وأعظمها ؛ لأنه لم يجد بين الكثير الذي يعاشره من يُسمعه مثلها ، فحقد عليك ونقم منك وأزعجك من مكانك واستعان على مطاردتك بأولئك الذين أذل نفوسهم ، وأفسد ضمائرهم بظلمه وجوره من قبل ؛ ليعدهم لمقاتلة الحق ومصارعته في أيام خوفه وقلقه .

وقلت للجبار الروسي : « ليس من العدل أن تملك وحدك ، وأنت نائم في سريرك في قصرك بين روضك ونسيمك ، وظلك ومائك ، هذه الأرض التي تضم بين أطرافها مليون فدان ، ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين الذين يحرقونها ، ويبنون بذورها ويستنبتون نباتها ، ويربون ماشيتها ، ويتقلبون بين حرها وبردها ، وأجيجها وثلجها ، شبراً واحداً فيها ، فأعرف لهم حقهم ، وأحسن القسمة بينك وبينهم ، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقايتهم في سبيل سعادتك ، وموتهم في سبيل حياتك . واعلم أن الأرض لله يورثها من يشاء ، ثم لم تقنع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلاً من نفسك ، فعمدت إلى أرضك ، فجعلتها قسمة بينك وبين القائمين عليها من الزارعين ، ثم عمدت إلى فأسك فاعتقلتها ، وماشيتك فأخذت بزمامها ، وما زلت حتى بلغت مزرعتك الصغيرة التي استبقيتها لنفسك فضربت مع الضاريين وخضت مع الخائضين ، لتعلم ذلك الجبار بيدك ما عجزت عنه بلسانك ، فسخر منك ورثي لعقلك ، وألف من حادتك رواية غريبة يروح بها عن قلبه في مجتمعات أنسه ولهوه ما يكابده من ألم السامة والضجر . وقلت للكاهن : « إن المسيح عاش معذباً مضطهداً لأنه لم يرض أن يقر

الظالمين على ظلمهم ، وأني أن يخفي ذلك المصباح الذي في يده تحت ثوبه ، بل رفعه فوق رأسه غير مبالٍ بنقمة الملوك على ذلك النور الذي يكشف سوءتهم ، ويهتك سترهم ، وأنت تزعم أنك خليفته وحامل أمانته والقائم بنشر آياته وكلماته ، والمترسم مواقع أقدامه في خطواته ، فما هذه الجلسة الذليلة التي أراك تجلسها تحت عروش الظالمين ، وما هذه اليد التي تضعها في أيديهم ؛ كأنك تأخذ عليهم العهود والمواثيق أن يقتلوا ويسلبوا باسمك ، وفي حمايتك وحماية الكتاب المقدس ! وما هذه السلطة التي تزعمها لنفسك أن تدخل الجنة من تشاء ، وتخرج منها من تشاء ! وما هذه القصور التي تسكنها ، والدياج الذي تلبسه ، والعيش البارد الذي تنعم به ، وأنت الراهب المتبتل الذي كتب على نفسه الانقطاع عن زخرف الدنيا ونعيمها إلى عبادة الله والانكماش في طاعته ! »

ذلك ما قلت للكاهن ؛ فكان جوابه أن أرسل إليك كتاب الحرمان ، وهو يعلم أنك لا تعترف له بالقدرة على إعطاء أو منع ، ولكنه أراد تشويه سمعتك والغضب منك وإغراء العامة بك وصرف القلوب عنك ، فكان ذلك كل ما استقدت من نصيحتك وعظمتك .

وأبكاء منظر المنفيين في سيبيريا ، وما يلاقون من صنوف العذاب ، ويعالجون من أنواع الآلام ، فصرخت صرخة دوى بها الملاً الأعلى والملاً الأدنى ، وقلت : « أيها الناس ؛ إن الشر لا يدفع الشر ، والأشقياء مرضى فعالجهم ولا تنتقموا منهم ، فالترية الصالحة تمحو الجرائم والانتقام يلهب نارها ، واجعلوا مكان السجون مدارس ، ومكان السجّانين معلّمين . » فلم يسمع صرختك سامع ، ولا بكى لبكائك باك ، وما زال القضاة يحكمون ، والجند يصادرون ، والسجّانون يعذبون ، والمسجونون يصرخون .

وأزعجك منظر الدماء المتدفقة في معارك الحروب وبكاء النساء المعولات خلف أزواجهن وأولادهن

وقلت للجبار الروسي : « ليس من العدل أن تملك وحدك ، وأنت نائم في سريرك في قصرك بين روضك ونسيمك ، وظلك ومائك ، هذه الأرض التي تضم بين أطرافها مليون فدان ، ولا يملك واحد من هؤلاء الملايين الذين يحرقونها ، ويبنون بذورها ويستنبتون نباتها ، ويربون ماشيتها ، ويتقلبون بين حرها وبردها ، وأجيجها وثلجها ، شبراً واحداً فيها ، فأعرف لهم حقهم ، وأحسن القسمة بينك وبينهم ، وأشعر قلبك الخجل من منظر شقايتهم في سبيل سعادتك ، وموتهم في سبيل حياتك . واعلم أن الأرض لله يورثها من يشاء ، ثم لم تقنع بما بذلت له من العظة والنصيحة حتى ضربت له مثلاً من نفسك ، فعمدت إلى أرضك ، فجعلتها قسمة بينك وبين القائمين عليها من الزارعين ، ثم عمدت إلى فأسك فاعتقلتها ، وماشيتك فأخذت بزمامها ، وما زلت حتى بلغت مزرعتك الصغيرة التي استبقيتها لنفسك فضربت مع الضاريين وخضت مع الخائضين ، لتعلم ذلك الجبار بيدك ما عجزت عنه بلسانك ، فسخر منك ورثي لعقلك ، وألف من حادتك رواية غريبة يروح بها عن قلبه في مجتمعات أنسه ولهوه ما يكابده من ألم السامة والضجر . وقلت للكاهن : « إن المسيح عاش معذباً مضطهداً لأنه لم يرض أن يقر

مقدمة « مختارات المنفلوطي »^(١)

عرفتُ حاجتك يا بني ، أعزك الله ، إلى كتاب يجمع لك من جيد منظوم العرب ومنثورها في حاضرها وماضيها ، وفي كل فن وغرض من فنونها وأغراضها ما تستعين باستظهاره ، أو تريد النظر فيه على تهذيب بيانك وتقويم لسانك . وعلمت أنك لن تستطيع أن تجد طلبتك هذه في مختار من مختارات المتقدمين ، ولا في مجموعة من مجموعات المعاصرين . أمّا المتقدمون فهم بين نحوي لا يعجبه من الكلام إلا ما يجد فيه مذاق شواهد العلم الذي يعالجه ، ولا تسكن نفسه إلا إلى البيت الذي يرى فيه عقدة يتفصح بحلّها أو خطأ يتفكّه بتأويلها ، أو نادرة من نواحر الإعراب والبناء يؤيد بها رأياً أو يساجل بها خصماً . ولغوي مولع بما يشتمل على الغريب النادر من مفردات اللغة وتراكيبها ، فلا يكاد يعدل بشعر الجاهلية وما جرى مجراه شعر طبقة من الطبقات ، ولا يرى غير كلامهم كلاماً ولا مذهبهم مذهباً . وعصر الجاهلية فيما أعتقد هو عصر الطفولة الشعرية أي أن الشعر كان فيه بسيطاً ساذجاً لم يهذب العلم ، ولم تصقله الحضارة ، ولم تتصل به أشعة الخيال فتتير ظلمته ، فهو وإن كان أصدق الشعر وأجدره أن يكون صفحة صحيحة لتاريخ عصره ، ولكن قلماً يستفيد شاعر الحضارة من أكثره أكثر من المادة اللغوية ، وما الفرق بين شعر الجاهلية ، وشعر طبقة المحدثين والمولدين من بعده إلا كالفرق في الموسيقى بين نغمات الحداثة في أعقاب الإبل ، ونغمات الضاريين على أوتار الأعواد والبرابيط^(٢) في عصر الحضارة الإسلامية . وعندني أن للنزعة التاريخية سلطاناً على نفوس المولعين بالشعر الجاهلي أكثر من النزعة الفنية ، فمثلهم كمثّل المولعين بالعدانيات الذين يؤثرون حجر الغرانيت على حجر الماس ، ويعجبهم منظر هرم خوفو أكثر مما يعجبهم منظر برج

وأخوتهم ، وهم سائرون إلى حرب لا يعرفون لها مصدراً ولا مورداً ، وقد حمل بعضهم لبعض بين الجنوب ضغائن وسخائم لا سبب لها إلا ذلك الوهم الذي غرسه في قلوبهم قساة السياسة ؛ فتخيلوا أنهم أعداء وهم أصدقاء ، فتسلّبوا من لباس الإنسانية ، ولبسوا فراء السباع ، وتقلدوا أظفارها ، وأنشأ كل منهم ظفّره في صدر أخيه كأنما يفتش عن قلبه ، فينتزعه من مكانه فيلوكه في فمه ثم يلفظه ، ذلك القلب الذي لو شقّ عن سويدائه ؛ لوجد لنفسه فيه مكاناً علياً لولا جور السياسة وضلالها .

فما أغنى عنك بكاؤك وحنينك ، ولا أجدى عويلك وأنينك ، فالجرب لم تزل باقية ، ومصانع الموت لم يقنعها ما أعدت من المهلكات لمعارك الأرض ، حتى أصبحت تعدّ مثلها لمعارك السماء !

فهنيئاً لك أيها الرجل العظيم ما اخترت لنفسك من تلك العزلة المطمئنة ، فقد تجوّت بها من حياة لا سبيل للعاقل فيها إلا أن يسكت ؛ فيهلك غيظاً ، أو ينطق ؛ فيموت كيداً .

إن الحكيم يستطيع أن يحيل الجهل علماً والظلمة نوراً والسواد بياضاً والبحر برّاً والبرّ بحراً ، وأن يتخذ نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء ، ولكنه لا يستطيع أن يحيل رذيلة المجتمع الإنساني فضيلة وفساده صلاحاً .

ما دام الإنسان لا ينتهي عن ظلم الإنسان حتى يخافه ، وما دام لا يحسن إليه إلا إذا أراد أن يتخذه عبداً يعبد من دون الله ، وما دام للأثرة هذا السلطان الأكبر على أفراد المجتمع من أكبر كبارها إلى أصغر صغارها ؛ فالإنسان اليوم هو بعينه إنسان الغابات والأحراش بالأمس لا فرق بينه وبينه إلا أنه اليوم قد أوى بشروره ومفاسده إلى بيت من الزجاج يفعل فعلاته من ورائه ، ولكن الزجاج شفاف كثوب الرياء .

* * *

إيفل . وراوية همُّه في حياته أن يدور بيده ليله ونهاره في زوايا رأسه علّه يعثر ببيت لا يعرفه غيره منسوباً إلى قائل لا يعرف نسبته إليه سواه ، ثم لا يبالى بعد ذلك أحسن أم أساء ، فهو بالمؤرخ أشبه منه بالأديب . وأديب جمع ما جمعه لعصر غير عصرك وقوم غير قومك ، وحال ومجتمع غير حالك ومجتمعك ، فإن أفادك قليله لا ينفعك كثيره ، وأحسب أن ما جمعه من الشعر بالحماسة ووصف الحروب وأسلحتها ، ودمايتها وغبارها وأشلائها ، ووصف الإبل في مباركتها والشاء^(١) في حظائرها ، والأبقار في مراتعها هو آخر ما يحتاج المتأدب إلى النظر فيه في هذا العصر . وبين مطيل قد خلط جيده برديته ، وغثه بسمينه ، فلا تصل يدك إلى ما في منجمه من ذرات التبر حتى تنبش عنها ما لا قبل لك باحتماله من حقائب الرمل . ومقصّر يختص بالاختيار عصراً دون عصر ، أو فرداً دون فرد ، أو قوماً دون قوم ، أو باباً من أبواب البيان دون باب ، وهو يعلم أن المتأدب شاعراً كان أو كاتباً لا يكمل أدبه ، ولا تصفو قريحته ، ولا تلمع صفحة بيانه ولا تنحل عقدة لسانه ، إلا إذا تمهل في روض البيان ، فاقتطف ألوان زهراته من أنواع شجراته . وأن الشاعر لا يغنيه المدح والهجاء ، عن البكاء والرثاء ، ولا العتاب والودّ عن التشبيه والوصف ، ولا البكاء على المنازل والديار ، وفراق الأحبة وموت الموتى عن البكاء على المجد الضائع ، والملك الساقط ، والعرض المغلوب ، والشرف المسلوب ، كما لا يغنيه وصف السيف في رونقه وبهائه ، عن وصفه في حدته ومضائه ، ولا وصف البدر في جماله ورؤيته ، عن وصفه في عزته وخيالاته ، ولا تشبيه قوادم الحمامة عن تشبيه ذنب القطاة ، ولا تصوير ذكاء الفيل عن تمثيل إحساس النملة . وأن الكاتب لا يبلغ مرتبة البيان ، ولا يصل إلى منزلة القدرة على الإفصاح عن أغراضه ومراميه في جميع مواقفه ومذاهبه ، حتى يأخذ بأزمة القول جميعها ، ويشتمل على أساليب الكلام بأنواعه ، ويعلم أن الكتابة في العلم غير

الكتابة في الأدب ، وأن للخطب أسلوباً غير أسلوب الكتب ، وأن لكل نوع من أنواع العلوم والفنون طريقاً في الكتابة خاصاً به لا يفارقه إلى غيره ، ولا يشركه فيه سواه ، وأن الانتقاد غير الهجاء ، والهجاء غير التهكم ، والتهكم غير التأنيب ، والتأنيب غير الإنذار والتهديد . وأما المعاصرون فهم إما تابع متأثر يعتمد في اختيار ما يختار على نباهة النابه ، وفي أطراح ما يطرح على خمول الخامل ، ويعتبر التقدم في الزمن شافعاً يشفع في إساءة المسيء ، والتأخر فيه ذنباً يذهب بإحسان المحسن ، وإما خابط متقمم يعتمد في الاختيار على يده لا على بصره ، فيأخذ من كل كتاب صفحة ، ومن كل ديوان ورقة ، ثم يعرض على الأنظار كتاباً غريباً في اختلاف ألوانه ، وتزايّل أوصاله ، جامعاً بين معلقة امرئ القيس وألفيّة ابن مالك في مكان ، وبين مقامات البديع ومقامات السيوطي في مكان آخر . وإما عالم أديب قد حال بينه وبين انتفاع المتأدبين بعلمه وفضله ، وسلامة ذوقه وصفاء قريحته ، أنه يبالغ في سوء الظن بأفهامهم ، ويذهب في تقدير مداركهم مذاهب ما كان لثله أن يذهب إلى مثلها ، فتراه يعمد في اختيار ما يختار إلى ما يزعم أنه القريب إلى أذهانهم اللاصق بقولهم غير المتلوي عليهم ، ولا المتعثر بهم ، فيتبدّل كل التبدّل ، ويسفّ كل الإسفاف ، ويورد في كتابه من قطع الشعر وجمل النثر ما يشبه أن يكون مادة للطفل في هجائه ، لا مادة للأديب في بيانه .

وسبيلُ كتب المختارات التي يراد منها غرس ملكة البيان في نفس المتأدب ، غير سبيل كتب العلم التي لا يراد منها غير حصول ما تشتمل عليه من قواعد العلوم ومسائلها في ذهن المتعلم ، ولن تستقر ملكة البيان في النفس حتى يقف المتأدب بطائفة من شريف القول ، منظومه ومنثوره وقوف المستثبت المستبصر الذي يرى المعنى بعيداً فيمشي إليه ، أو نازحاً فيستدنيه أو محلّقاً فيصعد إليه أو متغلغلاً فيتمشى في أحشائه حتى يصيب لبه ، ولا يزال يعالج ذلك علاجاً شديداً ينضج له جبينه وتبهر له أنفاسه حتى تتكيف ملكته بالكيفية التي يريدّها . وما أرى

وتوسط معناه ، وقد أختار ما توسط لفظه وسما معناه ، كما صنعت في بعض مختارات قسم المنشور من الباب الأول ، وهو باب الفصاحة والبيان ، ولكنني لا أختار بحال ما كان معناه سامياً ونظمه فاسداً ، أما الجيد فقاعدته عندي ما يأتي « كل كلام صحيح النظم والنسق إذا قرأه القارئ وجد في نفسه الأثر الذي أراده الكاتب منه من حيث لا يجد فيه مسحة تدل على أن صاحبه يحاول أن يكون فيه بليغاً فهو بليغ » ولا أكتمك أنني قد استجرت لنفسني ما استجازه لأنفسهم المختارون من قبلي فتصرفت في قليل من المختارات بعض التصرف بالتقديم والتأخير والاختصار والتلخيص والحذف . وقد لقيت في هذا السبيل - وفي كل سبيل سلكته - إلى جمع هذه المختارات عناءً كثيراً لا أسألك يا بني عليه أجراً سوى أن تتصفح بما أنصحتك به في كلمتي هذه ، وهي أنك لن تستطيع أن تتنفع بهذه المختارات إلا بشروط ثلاثة : أولها أن تملأ قلبك من الثقة بها والسكون إليها حتى لا يصرفك عنها صارف ، ولا يخذلك عنها خادع . وثانيها أن تقف بها وقوف الدارس المتعلم لا وقوف المتنزه المتفرج ، فلا يمنعك فهم ما فهمته من معاودته وتريد النظر فيه حتى ترشف فيه من الكأس ثمانيتها ، ولا تصعب ما تصعب عليك من مراجعته والاختلاف إليه والتغلغل في أحشائه ، فإنك لا بد ماخض زبدته ومصيب لبه . وثالثها أن تحمي نفسك النظر في هذه المخطوطات المختلفة التي تتجدد كل يوم أمام عينيك في أسفار هذا العصر وصحفه ، فإن التربية الكتابية مثل التربية الأخلاقية يسري فيها الداء ثم يعوز الدواء ، اللهم إلا ما كان من أمثال ما يكتبه الكتاب وينظمه الشعراء الذين اخترت لهم في هذا الكتاب في المعاني التي عرفوا بها وبرزوا فيها . فإن أخذت بنصيحتي ، وعنت بها العناية كلها ، وكنت ممن رزقهم الله قريحة خصبة صالحة لنماء ما يغرس فيها من البذور الصالحة ؛ بلغت ما أردت لك إن شاء الله تعالى .

* * *

هذه النكية العامة التي أصابت الناشئين في ملكاتهم الكتابية ، وما رزقوا به من نضوب مادتهم اللغوية والنزوع إلى تلك المنازع الأعجمية في التصور والتخيل إلا أثاراً من آثار تلك المختارات التي يجمعها لهم الجامعون جمعاً محفوظاً بالحذر والاحتياط ، بل بما هو فوق ذلك من الخوف والوسواس ، فيستكثرون لهم من أبواب الحكم والأخلاق ، والمواعظ والزهد وأمثال ذلك مما لا يكاد يترأى فيه قلب الشاعر ، ولا تتجلى فيه نفس الكاتب ، ويفرون القرار كله من كل ما يتعلق بوصف جمال الطبيعة ، أو جمال الصناعة أو تصوير عواطف النفوس وخوالجها في الخير والشر والعرف والتكر ، كأنما يحسبون أن كل بيت غزل بيت ريبية ، وكل قصيدة خمرة حانة شراب ، وما سمعنا من قبل ولا نحسب أن نسمع السامعون من بعد أن متادباً أفسده ديوان غزل ، أو أغراه بالشراب وصف خمر ، لا بل إنما يرد ذلك على من يرد عليه منهم من فساد المخطيء أو ضلال المؤدبين .

أما الشعر المشتغل على وصف الجمال ، والنثر المتضمن تصوير دقائق المعاني النفسية والخواطر القلبية مادام بعيداً عن فاحش القول وهجره ، فهو أعون الذرائع على تنمية ملكة الفصاحة والبيان في نفس الناشئ ، لذلك لم أريد أن أستخير الله تعالى في أن أجمع لك ، يا بني ، في هذا السفر من جيد المنظوم والمنثور ما أعلم أنه ألصق بك وأدنى إليك ، وأنفع لك في تثقيف عقلك وتقويم لسانك ، وتحليل ما أسأرت^(١) الأيام من العجمة^(٢) في قلمك ولسانك ، فهزرت لك دوحة الأدب العربي هزة تنارت فيها هذه الثمرات الناضجة التي تراها بين يديك ، ولم أترك من ورائي في جميع ما تصفحه من دواوين الشعر ، ومجاميع الأدب ، وكتب المختارات إلا ما كان رديفاً أو مشوياً بشيء من هجر القول ومعيبه ، أو بالغاً من الشهرة والسيرورة منزلة لا يخطئها نظر الناظر ، أو واقعاً في منزلة بين الجودة والرداءة . وقد جعلت قاعدتي في الاختيار جمال الأسلوب أولاً ، وجمال المعنى ثانياً ، فريما أختار ما حسن لفظه

(١) أسأرت: أبقى بقية . (٢) العجمة: علم إفصح في الكلام .

لا يفتح إلا بين يدي الأرواح التي احتقرت أجسادها وازدترتها ، فتجردت من أثوابها الرثة البالية ، وألقته من ورائها ، وكأنني أرى الرجل منهم وقد دخل إلى بيته ليعدّ عدته ، ويودع أهله الوداع الأخير ، فبكت أمّه وناحت زوجته ، وصاح ولده فبكى لبكائهم ، ورنّ لرنينهم ، لا جزعاً من الفراق ، لأنه فراق يعزيه عنه لقاء الله تعالى ، ولا خشيةً من الموت ، لأنه يعلم أن الحياة الذليلة أحقر من أن يرضن صاحبها بروحه في سبيل الله حرصاً عليها ، بل مخافة أن تستبدّ بأعراض بيته وحرمانه تلك الأيدي الظالمة التي لا ترحم صغيراً ، ولا تعطف على كبير ، أو أن يهلكوا من بعده جوعاً وفقراً ، لأنه لم يترك لهم قوتاً يتبلّغون به ولا عماداً يعتمدون عليه . فإذا علم أن موقفه بينهم موقفٌ جلل يكاد يغلب فيه على أمره حزناً وإشفاقاً ، نظر في وجه السماء نظرة طويلة أرسل فيها إلى حضرة ربّه كل ما تهتف به نفسه القريحة من وجد ورحمة وبكاء وحنين ، ثم انفتل من بين أيديهم انفتالاً ، ومضى لسيبله لا يلوي على شيء مما وراءه حتى يبلغ ساحة الحرب ، فلا يزال يقرع باب الحياة الأخرى حتى يفتح له .

هنالك تنوح النائحات ، وتبكي الباقيات ، وتطير النفوس وتصعق القلوب ، وترنّ المنازل والدور بالنحيب والتعديد ، وهنالك ترى المرأة المسلمة المخبأة التي لم تر في حياتها وجه الشمس إلا من كوة بيتها بارزة الوجه ، عارية الرأس ، حيرى مولده هائمة في الطرق والمذاهب ، تسأل الغادين والرائحين ما فعل الله بولدها أو زوجها أو أخيها ، فلماً بقيت في حيرتها يباشر يومها وسواد ليلها ، ولماً عادت إلى بيتها بالكل القاتل والحزن الدائم . وترى الشيوخ الكبار ، والأطفال الصغار والعاجزين والضعفاء لائذين بالتلال والآكام يتّقون بها صواعق الحرب وشهبها ؛ فلا تقيهم ، أو عائذين بالمضايق والمنافذ يفرون إليها من وجوه الغيل وسنابكها ؛ فلا تحميهم ، وهنالك ترى أولئك القوم الذين يسمون أنفسهم مجاهدين أو فاتحين ، أو قوادك عظاماً أو سؤاساً كباراً يمشون بين بيوت المسلمين ومجامعهم مشية الفرع المختال ،

وارحمته !

في ذلك البلد القفر من تلك الصحراء المحرقة من هذا الإقليم القاحل طائفة من فقراء المسلمين وضعفائهم ، لا يملكون من الحول غير قلوب يملؤها اليقين بالله ، والثقة به والاعتماد عليه ، ولا من القوة غير ألسنة لا تزال تهتف في صباحها ومساءها وبكورها وأصائلها بالدعاء إلى الله تعالى أن يتولى أمرهم ، ويسدّ خطواتهم ، ويسر لهم السبيل إلى الخلاص من ذلك العدو القاهر الذي نزل بهم في دار أمنهم وسكونهم نزول القضاء الذي لا مردّ له ، ولا منتدح عنه يريد أن يسلبهم ما أبقت يد الأيام في أيديهم من لقيمات غير سائغة ، وجرعات غير هنيئة وظلّ غير ظليل .

وارحمته لجماعة المسلمين في طرابلس ! إنهم عاجزون عن أن يعدّوا لعدوهم الزاحف عليهم بقنابله ورصاصه غير أجسام تستصيح في الغد أشلاء ممزقة تطوؤها النعال وتدوسها الحوافر ، وقلوب لا تزال تدقّ حتى تسمع دقات المدافع والبنادق فتسكن ، وأرواح ستطير في علياء السماء طيران ذلك الدخان في أجواز الفضاء .

وارحمته لهم ! إنهم يستغيثون فلا يجدون مغيثاً ، ويستصرخون فلا يسمعون مجيئاً ، قد تقطعت بهم الأسباب ، وأعوزتهم الوسائل وسدّت في وجههم السبل ، فلم يبقَ لهم منها إلا سبيل الموت ، وفي الموت راحة البائسين والمنكوبين من شقاء الحياة وبلائها ؛ لولا أنهم يتركون من بعدهم بين يديّ ذلك العدو الظالم أرامل ضعفاء ، وأيتاماً صغاراً ، وشيوخاً كباراً لا يعلمون ماذا أضمر لهم القدر في صدره من نعيم أو شقاء .

كأنني أراهم وقد غلت في صدورهم حمية الدين والوطن ، ودارت في رؤوسهم سكرة العزة العربية ؛ فأبوا إلا أن يتقدموا إلى الموت الأحمر تقدم المستقتل المستبسل ، الذي يعلم أن باب الحياة الأبدية السعيدة

وشيجة^(٢) أوثق من وشيجة القريبى ، وإنكم جميعاً تصلون إلى قبلة واحدة وتهتفون في الغداة والعشي بذكر واحد ، وتتوجهون بقلوبكم في نعمائكم وبأسائكم إلى إله واحد ، وتقفون في بيت الله وحرمة بين الركن والمقام موقفاً واحداً .
أيها المسلمون :

إنكم إن اجتمعتم اليوم لن تفتروا غداً ، وإن هديتم لرشدكم في موقفكم هذا لن تضلوا من بعده ، وإنكم إن قدمتم بين أيديكم هذا العمل الصالح أحسن الله جزاءكم وأعانكم على أمركم ، ووفى لكم بما وعدكم من نصره ومعونته ، وإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم .

* * *

خطبة الحرب

يا أبطال برقة وليوث طرابلس ، وحماة الثغور وذادة المعازل والحصون ، صبراً قليلاً في مجال الموت ، فها هي نجمة النصر تخفق في آفاق السماء ، فاستنبروا بنورها واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم .

إن الله وعدكم النصر ، ووعدتموه الصبر ، فأجيزوا وعدكم ؛ ينجز لكم وعده .

لا تخذلوا أنفسكم بالفرار ، فوالله إن فرتم لا تفرون إلا عن عرض لا يجد له حامياً ، ودين يشكو إلى الله قوماً أضاعوه ، وأنصاراً خذلوه .

إنكم لا تخاربون رجالاً أشداء بل أشباحاً تترأى في ظلال الأساطيل ، وخيالات تلوذ بأكتاف الأسوار والجدران ، فاحملوا عليهم حملة صادقة تطير بما بقي من ألبابهم ، فلا يجدون لبنادقهم كفاً ولأسيافهم ساعداً .

وينظرون إلى أولئك القوم الذين سرقوا حريتهم واستقلالهم ، وانتهبوا أرواحهم وأموالهم نظراً السيد إلى مولاه الذي ملك ولأه بماله ، واستعبده بفضله وإحسانه ، وربما رموا إليهم في تلك الساعة بلقىمات كتلك التي يلقيها سيد الكلب إلى كلبه ، أو صاحب الماشية إلى ماشيته ؛ ليشهدوا العالم الإنساني بأجمعه على كرمهم وسخائهم وعطفهم ورحمتهم ، وأنهم ما سفكوا الدماء ولا قطعوا الأوصال ولا يمتوا الأطفال ، ولا انتهكوا الحرمات ، إلا خدمة للإنسانية العامة وإجلالاً لشأنها .

لا أحسب أن مسلماً دخل الإيمان قلبه ، فملأه رحمة وإحساناً وعطفاً وحناناً يستطيع أن يتخذ لجنبه في ظلمة الليل مضجعاً ، أو يجد لنفسه في ضحوة النهار قراراً حزناً على هؤلاء المنكوبين الحائرين الذين يدورون بأعينهم في مشارق الأرض ومغاربها يتلمسون ناصراً يعينهم على أمرهم ، أو منجداً يدفع عنهم عادية البلاء ، فلا يجدون إلا أمماً إسلامية قد أصابها مثل ما أصابهم من قبل ، فهي تعجز عن النظر لنفسها فأخرى أن تعجز عن النظر لغيرها ، فلم يبق بين أيديهم من الأمل إلا تلك الرحمة التي يعتقدون أنها باقية لهم في قلوب الأفراد من إخوانهم المسلمين أن يمدوهم بقليل من القوت يستعينون به على جهاد عدوهم ، ويعودون بما بقي منه على عيالهم الذين يتضورون جوعاً من بعدهم .

أيها المسلمون :

إنكم لن تجدوا بعد اليوم موقفاً هو أقرب إلى الله ، وأدنى إلى رحمته وإحسانه ، وأجلب لمغفرته ورضوانه من موقفكم بين هؤلاء الضعفاء المساكين تطعمون جائعهم ، وتكسون عاريهم ، وتسلحون أعزلهم ، وتعالجون جريحهم ، وتخلفون قتيلهم في أهله وولده .

إنكم إن تحسنوا إليهم تحسنوا إلى أنفسكم ، وإن تنقذوهم من كربتهم تنقذوا جامعتكم وملتكم ، فإن بينكم وبينهم لحمة^(١) أقوى من لحمة النسب ،

(٢) الوشيجة: القرابة المشتبكة المتصلة .

(١) اللحمة: القرابة .

ثقوب آنا فكم مقاود يقودونكم بها إلى موافق الذل والهوان كما تقاد الإبل المَخشوشة^(١) إلى معانها^(٢) ، فافتدوا أنفسكم من هذا المصير المهين بجولة تجولونها في سبيل الله ثم تموتون .

موت الجبان في حياته ، وحياة الشجاع في موته ؛ فموتوا لتعيشوا ، فوالله ما عاش ذليل ، ولا مات كريم .

إن هذه الأساطيل الرابضة على شواطئكم ، والمدافع الفاغرة أفواها إليكم ، والبنادق المسددة إلى صدوركم ونحوركم ، لا يمكن أن يتألف منها سور منيع يعترض سبيلكم في رحلتكم من هذه الدار إلى تلك الدار ، فسيروا في طريقكم إلى آخرتكم ، فإن الأعداء إن ملكوا عليكم طريق الحياة لا يملكون عليكم طريق الموت .

المستमित لا يموت ، والمستقتل لا يقتل ، ومن يهلك في الإدبار أكثر ممن يهلك في الإقدام ، فإن كنتم لا بدّ تطلبون الحياة فانتزعوها من بين ماضني الموت .

إن كتاب التاريخ قد علّقوا أقلامهم بين أناملهم ، ووضعوا صحائفهم بين أيديهم ، وانتظروا ماذا تملّون عليهم من حسنات أو سيئات ، فأملوا عليهم من أعمالكم ما يترك في نفوسهم مثل ذلك الأثر الذي تجذونه في نفوسكم عندما تقرأون تلك الصحائف البيضاء التي سجلها التاريخ لأبطال الأبطال العظماء .

موتوا اليوم أعزاء قبل أن تموتوا غداً أذلاء .

موتوا قبل أن تطلبوا الموت فيعوزكم ، وتشدوه فيعجزكم .

موتوا اليوم شهداء في ساحة الحرب تكفّنكم ثيابكم ، وتغسلكم دماؤكم ، وتصلّي عليكم ملائكة الرحمن قبل أن يسبق قضاء الله فيكم ، فيموت أحدكم ، فلا يجد بجانبه مسلماً يصلّي عليه صلاة

(١) المَخشوشة: المشدودة بالخشاش؛ أي بالعود الذي يَشُدُّ به أنف البعير .

(٢) المعطن: مبرك الإبل ، ومريض الغنم عند الماء .

إنهم يطلبون الحياة ، وأنتم تطلبون الموت ، ويطلبون القوت وتطلبون الشرف ، ويطلبون غنيمة يملأون بها فراغ بطونهم ، وتطلبون جنة عرضها السموات والأرض ، فلا تجزعوا من لقاءهم ، فالمت الموت لا يكون مرّ المذاق في أفواه المؤمنين .

إنكم تعتمدون على الله وتتقون بعدله ورحمته ، فتقدموا إلى الموت غير شاكين ولا مرتابين ، فما كان الله ليخذلكم ويكلّكم إلى أنفسكم ، وأنتم من القوم الصادقين .

إن هذه القطرات من الدماء التي تسيل من أجسامكم ستستحيل إلى شهب نارية حمراء تهوي فوق رؤوس أعدائكم فتحرقهم ، وإن هذه الأثأت المترددة في صدوركم ، ليست إلا أنفاس الدعاء صاعدة إلى إله السماء أن يأخذ لكم بحقكم ، ويُعديكم على عدوكم ، والله سميع الدعاء .

إن أعداءكم قتلوا أطفالكم ، وبقروا بطون نسائكم ، وأخذوا بلمحى شيوخكم الأجلاء ، فساقوهم إلى حفائر الموت سوقاً ، فماذا تنتظرون بأنفسكم ؟

أجلبوا عليهم بخیلکم ورجلکم ، واصدقوا حملتكم عليهم وجمعوا بهم ، واقتلوهم حيث ثقفتهم ، واطلبوهم بكل سبيل ، وتحت كل أرض وفوق كل سماء ، وأزعجهم حتى عن طعامهم وشرابهم ، ويقظتهم ومناهم ، فما أعذب الموت في سبيل تنغيص الظالمين !

احفروا لأنفسكم بسوفكم قبوراً ، فالقبر الذي يحفر بالسيف لا يكون حفرة من حفر النار .

لا تطلبوا المنزلة بين المنزلتين ، ولا الوسطة بين الطرفين ، ولا العيش الذي هو بالموت أشبه منه بالحياة ، بل اطلبوا إما الحياة أبداً ، وإما الموت أبداً .

غداً يخفر أعداؤكم حرمة أرضكم ودياركم ، ويملكون عليكم نساءكم وأولادكم ، ويظفون بحوافر خيولهم مساجدكم ومعابدكم ، وينظمون في

في إيمانه وكفره ، وصلاحه وفساده ، واستقامته واعوجاجه ، لا يتغير لونها ، ولا يتحول ظلها ، ولا تستحيل مادتها ، ولا تبلى جذتها على كثر الليالي ومر الأيام .

ما من جامعة من الجوامع القومية أو الجنسية أو الدينية أو الأهلية ، إلا وهي تعتمد على الجامعة الإنسانية في سيرها ، وتستظل بظلها ، وتهتدي بهديها ، فالمجاهد الوطني يقول : « إني أدافع عن وطني وأحمي حوزته ، وأقوم على ثغوره وعوراته مقام الذائد المناضل ، لأنني أعتقد أنني إن أغفلت ذلك ، وأغفله في وطنه كل مضطلع بمثل ما أنا مضطلع به في وطني تساقطت الحواجر القائمة في وجه المطامع البشرية ، فجرى سيلها متدفقا لا يقوم له شيء حتى يأتي عليه . » والفاخ الديني يقول : « إني أعتقد أن الإنسانية لا تزال معدبة يأكل قوتها ضعيفا ، ويقتل كبيرها صغيرها ، ويستضعف حاكمها محكومها حتى تدين بالدين الذي أدين به ، فأنا إن حاربت البلاد ، وقاتلت العباد فإنما أريد أن أخوض هذا البحر الأحمر من الدماء ، لأصل إلى سفينة الإنسانية المشرفة على الغرق ، فأستخلصها من يد الموت الذي يساورها . »

هكذا يقول دعاة الدين ، ودعاة الوطن ، ودعاة كل جامعة ، وهكذا يجب أن يقولوا ، فإن لم يفعلوا ، وأبوا إلا أن يغفلوا الجامعة الإنسانية ، في دعائهم إلى جوامعهم التي يدعون إليها ، فليعلموا أن الإنسانية ملاك كل شيء ، فإذا ذهب ذهب بذهابها كل شيء .

ليس لسكان وطن من الأوطان ، أو صاحب دين من الأديان أن يقول لغيره ممن يسكن وطنًا غير وطنه ، أو يدين بدين غير دينه : « أنا غيرك ، فيجب أن أكون عدوك ! » لأن الإنسانية وحدة لا تكثر فيها ولا غيرية ، ولأن هذه الفروق التي بين الناس في آرائهم ومذاهبهم ومواطن إقامتهم وألوان أجسادهم ، وأطوالهم وأعراضهم ، إنما هي اعتبارات واصطلاحات ، أو مصادفات واتفاقات تعرض لجوهر الإنسانية بعد تكونه واستتمام خلقه ، وتختلف عليه

الجنابة ، ثم يرافق نعشه ، إلى قبره حتى يودعه حفرته ، ويخلي بينه وبين ربه .

إن الشيخين أبا بكر وعمر ، والفارسين خالدا وعليًا ، والأسدين حمزة والزبير ، والفاحين سعدًا وأبا عبيدة ، والمهاجرين طارق بن زياد وعقبة بن نافع ، وجميع حماة الإسلام وذادته السابقين الأولين المجاهدين الصابرين يشرفون عليكم اليوم من علياء السماء ؛ لينظروا ماذا تصنعون بميراثهم الذي تركوه في أيديكم ، فامضوا لسيلكم ، واهتكوا بأسياقكم حجاب الموت القائم بينكم وبينهم ، وقولوا لهم : « إنا بكم لاحقون ، وإنا على آثاركم لمهتدون . »

إن هذا اليوم له ما بعده ، فلا تسلموا أعناقكم إلى أعدائكم ، فأنكم إن فعلتم ؛ لن يعبد الله بعد اليوم على ظهر الأرض أبدا !

* * *

الإنسانية العامة

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الكلية العامة التي يلجأ إلى كنفها هذا المجتمع الإنساني كلما أزمته أزمة ، أو نزلت به نازلة ، وهي المطلع الذي تشرق منه شمس الرحمة الإلهية على هذا الكون فتتير ظلماءه ، وتكشف غمائه ، وهي الحكم العدل الذي يفصل في قضايا المجتمعات البشرية حين تنقسم عروتها ، ويدب ديبب العداوة والبغضاء بين أحيائها ، وهي السلطان المطلق الذي يجلس في كرسي عظمته وجلاله ، فتعثر له جميع الجباه سجداً ، وتبتدر يديه لثماً وتقبيلاً .

الجامعة الإنسانية هي الجامعة الجوهرية الثابتة التي رأت طينة آدم أولاً ، وسترى نفخة إسرافيل آخرًا ، والتي تسيّر مع الإنسان حيث سار في بئرته وبحره ، وسهله وحزنه^(١) ، وحياته وموته ، وتدور معه حيث دار

(١) الحزن : من الأرض ، ما غلظ منها .

سواها ، ولولا أن ستاراً من الجهل والعصبية يسبله كل يوم غلالة الوطنية والدين أو تجارهما على قلوب الضعفاء والبسطاء ؛ لما عاش منكوبٌ في هذه الحياة بلا راحم ولا ضعيف بلا معين .

لا بأس بالوطنية ، ولا بأس بالحمية الدينية ، ولا بأس بالعصبية لهما والزيادة عنهما ، ولكن يجب أن يكون ذلك في سبيل الإنسانية وتحت ظلالها ؛ أي أن تكون جميع دوائر المجتمعات باقية في أماكنها دائرة حول نفسها بحيث لا تخرج واحدة منها عن دائرة الإنسانية العامة التي تضمها جميعاً وتشتمل عليها . والوطنية لا تزال عملاً من الأعمال الشريفة المقدسة حتى تخرج عن حدود الإنسانية ، فإذا هي خيالات باطلة وأوهام كاذبة ، والدين لا يزال غريزة من الغرائز المؤثرة في صلاح النفوس وهداها ، حتى يتمرد على الإنسانية ويعزلها ، فإذا هو شعبة من شعب الجنون .

فإن كان لا بد للإنسان من أن يحارب أخاه أو يقاتله ، فليحاربه مدافعاً لا طاعناً ، وليقاتله مؤدباً لا منتقمًا ، وليقف أمامه في كل ذلك موقف المحق المنصف و الشفيق الرحيم ، فيدفنه قتيلاً و يعالجه جريحاً ، ويكرمه أسيراً ، ويخلفه على أهله وولده بأفضل ما يخلف الرجل الكريم أخاه الشفيق ، أو صديقه الحميم على ذريته من بعده ، وليكن شأنه معه شأن تلك الفئة المتحاربة التي وصفها الشاعر في قوله :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها

تذكرت القريبى ففاضت دموعها

* * *

أدوار الشعر العربي

كانت العرب في جاهليتها أمة هائمة متبدية على الفطرة البيضاء النقية لا تعبت الحضارة بجمالها ، ولا تغبر المدنية في وجهها . تطلع الشمس

اختلاف الأعراض على الاجسام ، ففي كل بلد وفي كل يوم يستعجم العربي ، ويستعرب الأعجمي ، ويسلم المسيحي ، ويتهود الوثني ، ويلحد المؤمن ، ويؤمن الجاحد ، ويستشرق المغربي ويستغرب المشرقي ، ولو أشاء أن أقول ؛ لقلت إنه لا يوجد فوق رقعة الأرض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلة ينتهي طرفها الآخر بوطن غير وطنه ، ودين غير دينه ، وأمة غير أمته .

إذا جاز لكل إقليم أن يتنكر لغيره ، جاز لكل بلد أن يتنكر لكل بلد ، بل جاز لكل بيت أن ينظر تلك النظرة الشراء^(١) إلى البيت الذي يجاوره ، بل جاز للأب أن يقول لولده ، وللولد أن يقول لأبيه : « إليك عني » لا تمد عينيك إلى شيء مما في يدي ، ولا تطمع أن أثرك على نفسي بشيء مما اختصاصتها به ؛ لأنني غيرك ، فيجب أن أكون عدوك ! وهناك تنحل كل عقدة ، وتنفصم كل عروة ، ويحمل كل إنسان لأخيه بين أضلاعه من لواجع البغض والشحناء ما يرتق^(٢) عيشه ، ويظيل سهده ، ويقلق مضجعه ، ويحبب إليه صورة الموت ، ويغض إليه وجه الحياة . وهناك يصبح الإنسان أشبه شيء بذلك الإنسان الأول في وحشته ، وانفراده ، يقلب وجهه في صفحات السماء ، ويفتش يديه في طبقات الأرض ؛ فلا يجد له في الوحشة مؤنساً ، ولا على الهموم معيناً .

الجامعة الإنسانية أقرب الجوامع إلى قلب الإنسان ، وأعلقها بفؤاده وألصقها بنفسه ؛ لأنه يكي لمصاب من لا يعرف ، وإن كان ذلك المصاب تاريخاً من التواريخ أو خيالاً من الخيالات ، ولأنه لا يرى غريقاً يتخبط في الماء ، أو حريقاً يتقلب في النار حتى تحذنه نفسه بالمخاطرة في سبيله ، فيقف موقف الحزين المتلهف إن كان ضعيفاً ، ويندفع اندفاع الشجاع المستقتل إن كان قوياً . ويسمع وهو بالشرق حديث النكبات بالمغرب ، فيخفق قلبه ، وتطير نفسه ، لأنه يعلم أن أولئك المنكوبين إخوانه في الإنسانية ، وإن لم يكن بينه وبينهم صلة في أمر

(١) نظرة إعراض أو غضب . (٢) يرتق: يكثر .

تكن معروفة ، فقلنا لا بأس فالشعر العربي أوسع من أن يضيق بحاجات أمته في جميع شؤونها وحالاتها . حتى جاء أبو تمام شيخ المحسنات اللفظية ، فسلك - إلى أكثر معانيه البديعة - طريق اللفظ المصنوع والأسلوب المزخرف ، ففغر في الشعر العربي ثغرة ألح عليها السائرون على أثره من بعده بأظفارهم وأنيابهم حتى صيروها باباً أفوه^(١) لا يمنع ما وراءه ، ولا يدفع ما أمامه ، فأصبح الشعر على عهد ابن حجة ، وابن الفارض ، وابن مليك ، والصفدي ، والسراج ، والجزار ، والجلبي ، وأمثالهم أشبه شيء بتلك الآنية الفضية أو الصينية التي يضعها المترفون في زوايا مجالسهم ، وعلى أطراف مواعدهم ظهراً زاهياً ، وبطناً خاوياً لا تشفي غلة ، ولا تبض بقطرة ، ولا تسمن ولا تغني من جوع . ثم جاء على أثر هؤلاء من تدلى إلى منزلة أدون من هذه المنزلة فجاءوا بشيء هو أشبه الأشياء بتلك المقاييس والتفاعيل التي وضعها الخليل ميزاناً للشعر لا يروق لفظها ، ولا يفهم معناها .

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر بضعة قرون وقفة لا يتزحزح عنها ولا يتحلل^(٢) ، حتى أنزل الله إليه من ملائكة البيان رسلاً في هذا العهد الأخير أخذوا بيده ونشروه من قبره ونفضوا عنه غباره ، فأصبحنا نرى في أبراد الكثير منهم أجسام أبي نواس ، وأبي عباد ، وأبي تمام ، والشريف ، و بشار لا فرق بينهم وبينهم إلا أن هؤلاء مقلدون يتبعون الآثار ، وأولئك مبتدعون يفترون^(٣) الأبحار .

* * *

حوانيت الأعراض

أنا لا أستطيع أن أنصوّر الفرق بين رجل يمد يده إلى خزانة من خزائن بيتي ؛ فيسرق مالي ، وبين آخر يمد لسانه أو قلمه إلى شرفي فيستلبه ؛ كلاهما مجرم (١) متّسع . (٢) تحرك عن موضعه . (٣) يفتقر : يفتقر .

في آفاقها فتتبسط على سهولها وحزونها ونجادها وهادها من حيث لا تعتز في سبيلها من المظلات سحب ، ولا من السقوف حجب ، وينبت نباتها حيث يجري ماؤها لا تعبت فيه الأيدي بتربيع ولا تدوير ، ولا تقويس ولا تعريج . ويجري ماؤها في سبيله متدفقاً حيث ينساب به تسلسله واطراده لا تلوي به عن قصده الحفائر ، ولا تنتصب في وجهه القناطر ، ويهيم وحشها في جبالها ، وطيرها في أجوائها من حيث لا يجس الأول عرين موصود ، ولا الآخر قفص محدود ، والشعر من وراء ذلك كله مرآة صافية تتمثل فيها تلك المناظر الفطرية على طبيعتها وجوهرها .

ينطق العربي بما يعلم ، ويقول ما يفهم ، ويصور ما يرى ، ويحدث عما تمثّل في نفسه حديثاً صادقاً لا تكلف فيه ولا تعمل ؛ لأن كل ما هو محيط به من هواء وماء وأرض وسماء ، وطعام وشراب ومرافق وأدوات على الفطرة السليمة الخالصة ، فأحرى أن يكون شعره كذلك .

ذلك كان شأن الشعر العربي - والعرب على فطرتهم - وذلك معنى قولهم الشعر ديوان العرب ؛ لأنه صورة حياتهم الاجتماعية والأدبية ، وتمثال خواطرمهم الحقيقية والخيالية ، فإن ظن ظان أن التماثيل والنصب والمخطوطات والمنسوجات ، والصور والتهابيل ، وبقايا الآثار وقطع الأحجار التي نراها في خرائب اليونان والرومان والفينيقيين والفراعنة أدل على تواريخ أولئك الأقوام من الشعر العربي على تاريخ العرب ؛ قلنا له : « ما من ديوان من دواوين الأمم الماضية إلا وتحدث المؤرخون بعث الأيدي به ولعبها بسطوره وسجلاته . أما الديوان العربي فصورة صحيحة ، وآية مقدّسة لا تغيير فيها ولا تبديل . »

ثم جرت بعد ذلك جوار بالسعد والنحس ، فانتقلت الأمة العربية من بداوتها إلى حضارتها ، وهاجر معها شعرها بهجرتها ، فطلع جيش المولدين يحمل لواءه الشاعران الجليلان بشار وأبو نواس ، فطرقوا معاني لم تكن مطروقة ، ونهجوا مناهج لم

مفاليك^(٣) قد دارت عليهم الأيام دورتها ، وسلبتهم المواهب التي يعيش بها أمثالهم ممن ولد مولدهم ، ونشأ في تربيتهم ؛ فضاقت بهم سبل العيش التي ما كانت تضيق بهم لو أن الله أبقى لهم بعد أن سلبهم فضيلة الفهم والعلم ، مزية العمل الصالح ، والسيرة المستقيمة ، فلما لم يجدوا بين أيديهم منفذاً ينفذون منه إلى القوت ؛ فتحو حوانيت للتجارة بأعراض الناس سموها صحفاً . وأكثر مشتملات حوانيتهم من تلك البضاعة أعراض الأشراف والعظماء ، وأرباب الجد والعمل الذين سبقوهم إلى فردوس السعادة ، وخلفوهم وراءهم يتأكلون غيظاً لحرمانهم مما قسم الله لهم ؛ فهم إن فتشت عنهم وكشفت عن دخائل نفوسهم ، علمت أن لا فرق بينهم وبين أولئك الفضوليين الذين يدينون بقتل العظماء والأمراء ؛ وأستغفر الله للفضوليين مبدأ منظم يتقلدونه ، ورأي في تلك الجرائم على ما به من خطئ يتمذهبون به من حيث كونه عقيدة ثابتة لا تجارة رابحة ، بل هم كقطاع الطريق الذين يهاجمون الغادين والرائحين ، ولا ذنب لهم عندهم إلا أنهم مزودون ، وهم مقفرو الأيدي من الزاد .

ولقد كان يكون خطبهم سهلاً ، ومصابهم محتملاً ، لو أنهم صرحوا عن أنفسهم ، وأبدوا للناس صفحات وجوههم ، وطلبوا قوتهم من طريق الكُذبة^(٤) الواضحة البينة ، ولكنهم مراعون مخادعون يشتمون باسم الموعظة ، ويقرضون الأعراض باسم النصيحة ، ويتهمون الأبرياء باسم الغيرة الدينية ، ويملاؤن فضاء الأرض والسماء كذباً وابتداعاً وتدليساً وتضليلاً باسم الوطنية . والله ما بهم من وطنية ولا دين ولا عظة ولا نصيحة ، ولكنهم قوم محدودون قد بلغت الفلاكة من نفوسهم مبلغها ، وضائق بهم الأرض الفضاء على رحبها ، فهم يروّجون عن نفوسهم بالنيل من شرف الشرفاء ، وتغيص لذة السعداء ، ويطلبون قوتهم فيما بين ذلك من يد تلك الفئة الساذجة من الأمة التي لا تستطيع

(٣) المفاليك جمع مفلوك ، أي الفقير .

(٤) الكُذبة: حرفة السائل الملح .

فاتك وكلاهما لصٌ مقتال ، وإن كان أولهما في نظر القانون ، وفي نظر الناس أكبرهما إثماً ، وأسوأهما أثراً .

المال خادِم من خدام الشرف ، وحاجِب من حجابهِ الوقوف على بابهِ . ولولا مكان الشرف والكلف بصيائنه والضنُّ به أن يعيث بجوهره عاث ما كان لامرئ في هذا المعدن الصامت أربُّ أكثر من أن يقيم به صلبه ويمسك به حواءه^(١) . فإن كان سارق المال مجرماً من حيث كونه هاتكاً لذلك الستار المسبل دون الشرف ، فجزير بمن يسرق الشرف نفسه أن يكون رأس الجانين ، وأكبر المجرمين .

يكون للرجل من الصحفيين مثلاً عند الرجل من كرام الناس ، وسراتهم ، وذوي السيرة الصالحة فيهم ، مأربٌ من المأرب التي لا يعرف لنفسه فيها حقاً ، ولا يمت إليها بسبب من الأسباب الظاهرة أو الباطنة ، فما هو إلا أن يمتنع عليه حتى يرميه بسهم جارح من مريشات سهامه يصيب به مقتلاً من شرفه ، ولا ذنب له عنده إلا أنه لم يملكه من لحيته يلف عثونها^(٢) حول أصابعه ثم يقوده بها إلى حيث شاء كما يقاد التيس إلى مربعه .

يحبُّ الرجل المجد حباً يملأ ما بين جوانحه ، ويغري به حتى يصبح أثر في نفسه من نفسه التي بين جنبيه ، ويظل يقضي سواد ليلاليه يساهر الكوكب حتى ينحدر إلى مغربه ، ويطوي بياض نهاره بين شمس تحرق عارضيه ، وحصباء تمزق قدميه ، ويقيم بينه وبين شهوات نفسه ونزعات قلبه حرباً عواناً يحمل في سبيلها ما لا يستطيع أن يحمله بشر كلفاً به ووجداً عليه ، حتى إذا أمكنه المقدار منه ، وبدأ ينهل أول نهلة من مورده البارد العذب ، رآها ممزوجة بذلك العلقم المرّ مما صبه له في إنائه ذلك المجرم الأليم .

إن بين جدران بعض قاعات الصحف قوماً

(١) الحواء: النفس .

(٢) العثون: ما ابت على الذن ونحته .

صليبه ، ويمسك حوباءه ، ويستر سَوَوتَه ؛ فزَوَّجَه أبوه بابنة عم له ذات مال لم يك مثلهما في دمايتها ، وسوء خلقها وجفاء طبعها ممن يطمع في مثله في جمال خلقه ، ولين حاشيته ، وانسجام طبعه ؛ فكبرت نفسه عن مخالفة أبيه ، لأنه كان برأ به مطيعاً له ، نازلاً عند أمره ونهيه ، وعن مفاجاة زوجه واطراحها والانقباض عنها ، لأنه كان كريم الأخلاق واسع الصدر ، رفيقاً بالضعفاء والمنكوبين ، فتزوجها وفي نفسه من المضض والارتماض^(١) ما يلهب الجوانح ، ويذيب لفائف القلوب .

وأذكر أنني على طول معاشرتي له ، ولصوقي بنفسه ، ما سمعته ولا سمعت عنه أنه شكا إلى أحد من الناس ما يواثب قلبه عند النظر إليها ، أو إلى ما يدب من عقارب شرها إليه نقة منه بالله ورحمته ، وإثارة لفضيلة الصبر ، وسكوناً إلى ما جرت به الأقلام في ألواح المقادير ؛ فكنيت أرحم صمته وسكونه ، وأبكي لجمود عينيه عن البكاء ، لأنني أعلم أن نيران الأحزان لا يسكن اضطرامها ، ولا يهدأ اعتلاجها^(٢) إلا باطراد العبرات ، و تصاعد الزفرات .

وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياة وأنعمها ، أنه كان يسافر في كل شهر مرة أو مرتين إلى صديق له في بلد ريفي ناءٍ يقضي فيه يومين أو ثلاثة ، ثم يعود وفي ثغره ابتسامة تتلألأ تألؤل نجمية الصبح عند انحدارها إلى الغروب ، ثم لا تلبث أن تتلاشى ، ولا يلبث أن يعود إلى جموده الأول لا يحزن فيكي ، ولا يفرح فيبتسم ، حتى يخيل للناظر إليه أنه في عالم غير هذا العالم لا يظله ليل ، ولا يضيئه نهار .

قضيت في صحبته على حاله تلك بضعة سنين أعلم من آلام قلبه ما يحسب أنني أجهله ، فأكاثمه ذلك العلم جهدي رفقا به وإجلالاً له وإشفافاً عليه ، حتى زرت في منزله ذات يوم ، فرأيت جاثماً في مقعده الذي كان يقعده من غرفته ، وقد أطرق إطرافاً طويلاً

(٢) الاعتلاج: الانطام .

(١) الارتماض: الحزن .

أن تفرق بين أشراف الصحافة والدخلاء فيها ، وبين الكاتب الذي يكتب ، ليقوم معوجاً ، أو يصلح مختلاً ، أو يرفع بدعة باطلة ، أو يكشف حقيقة خافية ، والآخر الذي يدور مع الدينار دورة الحرباء مع الشمس صعوداً وهبوطاً ، والذي لا يلذه شرب الماء ، إلا ممزوجاً بالدماء . والله ما أدري من الذي أقامهم هذا المقام ، وعهد إليهم بهذا العهد ، ومن الذي وكل إليهم النظر في شؤون الناس ، والفصل في قضاياهم ، والقيام على حسناتهم وسيئاتهم ، وما هم بالبررة الأتقياء الذين يصلحون أن يكونوا أمثلة حسنة في منازلهم ، فيكونوا قدوة صالحة في أمتهم ، ولا بالعلماء الفضلاء فهتدي بهداهم ، ونترسم مواقع أقدامهم ، ولا بالصادقين المخلصين الذين يؤثرون أمتهم على أنفسهم ، فتتعبد لأجلهم وإعظامهم ، بل ليس لواحد منهم فضل الصانع في مصنعه ، ولا التاجر في حانوته فضلاً عن الوزير في كرسيه والأمير في عرشه ، فيصلح أن يكون حكماً بينهم ، وميزاناً لحسناتهم وسيئاتهم . وعندي أن لو جمعت عيوب الناس جميعها في كفة ميزان ، وضعت في الكفة الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة ، والكذب ، والنميمة ، والتجسس ، وهتك الأعراض ، وإتهام الأبرياء ، واستهواء الضعفاء ، لثقلت كفتهم أمام كفة الذين يزعمون أنهم يقومون معوجهم ، ويصلحون فاسدهم !

* * *

الرثاء

ما أنسى لا أنسى رجلاً كان خير من لقيت من الرجال وكان يعجبني منه أدبه وفضله وعفته وحيائه وشرف نفسه وطهارة قلبه ، وأنه كان صبوراً محتملاً تفرع الخطوب صفاة قلبه ، فتردد عنها نايبة كما تردد الكرة عن الحائط إذا قرعتها .

كان فقيراً لا يملك من هذه الدنيا أكثر مما يقيم

قال : « حدثني إذا عن الولد الصغير الذي لم يخالط نفسه شرًّا ، ولم يتسرّب إلى قلبه كيد ، ما لي أراه مفترشاً حجر أمه ، وقد تولى الليل إلا أقله يتقلب على مثل شوك القتاد من الآلام التي تساوره ، فيشب تارة ، ويضطرب أخرى ، ويصرخ صرخات تستمطر المدامع وتحول بين الجنوب ومضاجعها ؟ وما لي أرى أمّه باكية مولهة مقرّحة الجفون منحلة الشعور موجعة القلب ، تفزع لفزعاته ، وتصرخ لصرخاته ، وقد اختيل عقلها ، واضطرب أمرها ، وعظم بأسها وفنيت حيلتها ، وقلّ مساعدتها ، وضعف ناصرها ، فأنشأت تقلّب وجهها في السماء ضارعة إلى الله تعالى أن يأخذ بيدها ، ويرحم نفسها برحمة ولدها ، وبينما هي تنتظر صوت الإجابة يرنّ في أفق السماء ، إذ بها تسمع حشرجة الموت في صدر ولدها ، وإذا به ينزع نزعاً مؤلماً يطير باللبّ ، ويذهب ببقية الصبر حتى تفيض نفسه ، فماذا جنى هذا الولد الصغير حتى أصبح لا يستحقّ رحمة من الله ولا رأفة ؟ »

قلت : « وما يدريك لعلّ الله أراد به خيراً ، فرحمه بالموت المعجل من حياة علم أنه سيلقى فيها كما تلقى أنت اليوم عذاباً أليماً وشقاءً مضاً . »

فالت هذه الكلمة من نفسه وانتفض لها ، ثم قال : « أحسنت يا صديقي ، ليت الذين يشقون في هذه الحياة يشعرون بصغر هذه الدنيا ، وحقارة شأنها ، فيتمنّون لو لم تلدهم أمهاتهم ، ولم يكتب لهم سطر واحد في ألواح المقادير . وبعد ، فهل لك في سفرة معي إلى صديقي الرفيقي نقضي عنده يوماً واحداً ، ثم نعود على أن تكون معي كما كان فتى موسى مع موله فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ؟ »

فوافيت رغبته ، وقبلت شرطه ، ثم قام وقمت ، وبودّي لو ملكت الدنيا بخافيرها لحظة واحدة ؛ لأهبها لمن يكشف لي سرّ صديقي ، ويدلّني على نكته التي زعزعت نفسه ، وصهرت قلبه ، وملكته عليه لبّه ، وكادت تعبت بيقينه . وما هي إلا ساعات قلائل حتى كنا في المنزل الذي أردناه ، وقد أظّل الليل بجناحيه ، فقضينا واجب التحية والسلام ، ثم خلا الصديق بصديقه

ذهب فيه عن نفسه ، فلم يشعر بخفق نعليّ حتى أخذت مكاني ، رفعت رأسه فأدهشني من منظره اصفرار وجهه ، وذبول عينيه ، وما كان يغشى جبينه من دخان تلك النار التي تشتعل بين جوانحه ، ثم نظر إليّ نظرة طويلة لا عهد لي بمثلها من قبل ، ثم قال بصوت خافت مضطرب :

« أعتقد أن الله موجود ؟ »

فقلت : « نعم . » معالجا نفسي على كتمان ما كاد يذهب بلبي من تنكر حاله ، وغرابة أمره .

فقال : « وعتقد أنه عادل ؟ »

قلت : « نعم . »

قال : « وراحم ؟ »

قلت : « نعم . »

فبسط يده إليّ فعل الضارع المستصرخ ، وقال : « هل لك أن تخدني أيها الصديق عن نزول الصواعق ، وثورة البراكين ، وطغيان البحور ، وغرق السفن ، وانتشار الأوباء ، وفلك الأدواء^(١) ، ونكبات الفقر والجوع ، وتلك العيون التي لا تزال منهلة بالبكاء ، والضلوع التي لا تزال ملتهبة بالآلام والأحزان ؟ هل تعتقد أن ذلك كله عدلّ من الله ورحمة ؟ »

قلت : « نعم ، إنّ الله يمتحن عباده ؛ ليعلم الذين صبروا ، فيدخر لهم في دار نعيم من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا يقدرون لأنفسهم من سعادة الحياة وهنائها . »

قال : « إن الله أكرم من أن يجعل الشرّ طريقاً إلى الخير ، وأن لا يحسن إلا بعد أن يسلف الإساءة ! »

قلت : « ذلك ما كتب على نفسه أن يجازي كلّ عامل بعمله إنّ خيراً فخير ، وإنّ شراً فشر . »

قال : « إنه قد كتب على نفسه الرحمة . »

قلت : « نعم ، إنه أكرم الكرماء ، وأرحم الرحماء . »

(١) الأدواء: الأمراض، المفرد داء .

سمعته يقول :

« اللهم إنك تعلم أنني ما كفرت بنعمتك ، ولا
خفرت ذمتك ، ولا هتكت حرمة من حرمتك ، ولا
نزلت عند سخطك ، ولا تبرمت بقضائك وقدرتك ،
وأنتك جازيتني ، فأحسنت جزائي ، وهبتني تلك
الفتاة ، فكانت كل ما أفدت من نعيم هذه الحياة
وهنائها ، ثم لم تلبث أن سلبتنيها وشيكاً أشوق ما
كنت إليها وإلى قضاء ساعات العمر بجانبها ،
فاغفر لي جزعي وحزني ، فكثير علي أن لا أجزع
ولا أحزن .

« لقد تبدلت الأرض غير الأرض والسموات ،
وكأنما استحالت في نظري حقائق الأشياء ،
فأصبحت لا أرى في النجمة لألاءها ، ولا في
الزهرة جمالها ، ولا في السماء صفاءها ، ولا في
البحر جلاله ، فهل كانت فتاتي سر هذا الوجود حتى
ذهبت ، فذهب بذهابها كل شيء ١٩

« ذهبت بي الأيام كل مذهب ، وجرعتني من
كؤوس الشقاء جرعة ما احتمل فم قبل فمي مرارتها ،
فاغتفرت لها كل ذنوبها عندي ، لأنها أسدت إليّ
صنيعة كانت هي العزاء لي عن هموم الحياة
وأحزانها ، أما اليوم وقد صفرت^(٢) منها يدي ، وأقفر
بفراقها ربيعي ، وحالت تلك الصفائح بيني وبينها ،
فلا سلوى ولا عزاء .

« من لي بضربة من ضربات الدهر تذهب
بذاكرتي ، فلا أعود أذكر أيام حياتها ومقعدنا
بجانبني ، وابتناسمها إليّ واعتناقها لإياي ، وصوتها
الرقيق ، وحديثها العذب ، وصفاء عينيها ، وجمال
وجهها ، وقيامها وقعودها ، وجيبتها وزهوها ،
وضحكها وبكاءها ، ويقظتها ومنامها ، وحزنها
لفراقها وسرورها بلاقائي ١٩ فإني كلما ذكرت ذلك
شعرت كأن قلبي المجموع قد استحالت إلى أفلاذ^(٣)
صغيرة لا يلوي بعضها على بعض .

« اللهم إني أعلم أن الدنيا ليست بدار قرار ، فلا
أمل في البقاء فيها والركون إليها ، والاستمتاع بلذة

(٢) صفرت: خلت .

(٣) جمع فِلْذَة ، وهي القطعة من اللحم أو المعدن .

خلوة طويلة لا أعلم ما دار فيها بينهما ، ثم خرجا إليّ ،
فجلسنا ساعة نتحدث ، ثم قمنا إلى فراشنا ، فممت نوماً
متقطعاً مملوءاً بالسواوس والهواجس . فما انتصف الليل
حتى شعرت أن صديقي يتحرك في فراشه ، وينظر
إليّ ليعلم أنا أم مستيقظ ، فتناومت حتى رأيت
قد قام من مكانه يخلس الخطى حتى وصل إلى
مشجب الملابس ، فلبس أثوابه ، ثم خرج من الغرفة ،
فخفق قلبي خفقة الرعب والفرع ، وقلت : « لا بد
أن الرجل يريد بنفسه شراً ، وإني أكون ألام صديق
إن أنا تركته شأنه ! » فممت على أثره أترسم خطواته ،
وأنتبه مخرجه ومدخله من مدرجة إلى أخرى حتى
بلغ ضاحية البلد ، ثم استمر في شأنه حتى أطل على
مقبرة واسعة قد جثت قبورها في أرجائها جثوم
الآبال في مراتعها ، فوقف هنيهة ، ثم مشى فمشيت
على أثره من حيث لا يشعر بمكاني منه ، ثم أنشأ
يتصفح القبور قبوراً ، فخيّل لي أنه شبح من أشباح
الموتى يتنقل في أرجاء تلك المقبرة ، فملكني من
الخوف والرعب ما كاد يحل عقدة لساني لولا
إجلالي هذا الموقف المرهب ، وشعوري أنني واقف
على أبواب تلك الدور التي سلب خوفها العاقلين
عقولهم ، وأطار طائر الاغتماض عن أجفانهم ،
ونقص عليهم ما يتمنون أن ينعموا به من مطاعمهم
ومشاربهم ، والتي يفد إليها كل يوم وفود البشر
محمولين على أيدي آبائهم وأمهاتهم ، ليقدموهم
بأنفسهم هدايا ثمينة إلى الدود ، ثم يخلون بينهم
ويبنيء يأكل لحومهم ، ويمتص دماءهم ، ويتخذ من
أحداق عيونهم ، ومباسم ثغورهم مراتع يرتع فيها كما
يشاء بلا رقي^(١) ولا حذر من حيث لا يملك مالك
عن نفسه دفعا ، ولا يعرف إلى نجاة سبيلا .

مرت بخاطري تلك الذكرى ، فملك عليّ
نفسي حتى ذهلت عن موقعي ، وأنستني الحيرة في
أمر نفسي الحيرة في أمر صديقي ، وفيما ساقه إلى
هذا الموطن ، وأين يذهب ، وماذا يريد ، وعمّ يفتش .
ثم استفتت ، فرأيت جاثياً فوق قبر من تلك القبور جثو
العابد أمام معبده ، فدلقت إليه حتى دنوت منه ،

(١) الرقي: المراقبة .

نفسه من البغضاء لزوجته التي زوجه أبوه منها على الرغم منه فخفت عليه التلف حزناً وكمدًا ، فزوجته منذ عشر سنين بأخني سرًا من حيث لا يعلم أبوه ؛ لأنه كان يخاف غضبه ، ولا زوجته ؛ لأنه كان يرحمها ، فكان يزورها في كل شهر مرة أو مرتين حتى ماتت تلك الأخت - رحمة الله عليها -

وتركت له هذه الفتاة ، فما زال يزورها كما كان يزور أمها ، ويعزي بالثانية نفسه عن الأولى ، فشغل بها شغلًا بلغ به حد الجنون ، وكان كثيرًا ما يقول لي : « إني أشعر أن حياتنا حياة واحدة ، وأنا إما أن نعيش معًا ، أو نموت معًا . » وكأنه ألهم بما سيكون ، فحُتَّ الفتاة منذ ستة أيام فما نشبت أن هصر الموت غصنها النضير ، ولم تسلم ثمانتي حجج ، فنعمتها إليه بكتاب أرسلته له ، فجاء وجت معه ، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله أن يكون .

دفنت صديقي بيدي ، وألحقت بجانب تلك الصغيرة التي قطع جسر الحياة الطويل في لحظة واحدة شوقًا إليها وجدًا عليها ، ثم عدت إلى بلدي صفر اليد من ذلك الإنسان الذي كنت مالتًا منه يدي ، والذي كنت أجهله وأعظمه حيًا ، ولا أزال أبكيه وأذكره ميتًا ، وأتخذ حياته الشريفة الحافلة بمواقف الصبر والجلد والوفاء والكرم درسًا أنعلمه ، وأعلمه الناس حتى يجمع الله بيني وبينه .

كفى حزنًا بموتك ثم إني
نفضت تراب قبرك من يديًا
وكانت في حياتك لي عظات
وأنت اليوم أوعظ منك حيًا

* * *

الشعر

كتب إليَّ كاتب يقول : « عرفناك قبل اليوم شاعرًا ما تكتب قِقرة ، ثم رأيناك بعد ذلك كاتبًا ما

الحياة فيها ، وأنها الجسر الذي يمرُّ به الأحياء إلى الدار الأخرى ، وقد أحسنت إلى كل عبد من عبيدك برفيق يكون عونًا له على قطع تلك الشقة ، واختصصتني وحدي بالحرمان من ذلك المعين ، فكيف أسير ؟ وأين أذهب ؟ ومن أين أبتدى ؟ وإلى أين أنتهي ؟

« اللهم إنك سلبتني كل شيء حتى الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم ، ويطفي بها المحزونون لوعات قلوبهم ، فأصبح الحزن يغلي بين جوانحي غليان الماء في قدر محكمة الغطاء ، فأمن عليَّ يدمعة واحدة أبرد بها غليلي ، ولا أحسب أنك تمنعنيها ، فالدموع هي الرحمة العامة التي كتبت على نفسك أن تعالج بها جراح المنكوبين .

« اللهم لا رية في عدلك ، ولا ظنة ^(١) في كرمك ، ولا اعتراض على قضائك وقدرك ، ولا سخط في ابتلائك ومحتك ، ولكنك سلبتني عقلي بعد ما سلبتني راحتي وهنائي وفتائي ، فخرج أمر نفسي من يدي ، وأصبحت لا أعرف لي مذهبًا في هذه الأرض ولا مضطربًا .

« اللهم إنك منعني حظي من الحياة ، فلا تمنعني حظي من الموت ، فاستردَّ إليك عاريتك ^(٢) التي أعرتنيها ، فقد عجزت عن احتمالها ، وضقت ذرعًا بأمرها ، إنك بعبادك رؤوف رحيم .

وما أتم كلمته هذه حتى سقط على صفائح القبر مكبًا على وجهه ، فعلمت أن الرجل قد انفجر ، وأن الله قد اجتبي ^(٣) هذا الرجل لنفسه ، واختار له ما عنده ، فصرخت صرخة كانت ثانية لصرخة أخرى بجانبني ، فالتفت فإذا صديقه واقف ورائي ؛ فدنونا منه معًا وحركناه ، فإذا هو ميت ، فنقلناه إلى المنزل ، وبتنا حول سريره نقضي حق صبحته تارة بالدموع ، وأخرى بالخشوع . وهناك قصَّ عليَّ صديقه قصته ، وكشف لي عن ذلك السر الذي كان يكتمه عني ، فحدثني : « إنه قضى زمانًا طويلًا يشكو إليَّ ما يجد في

(١) الظنة: التهمة .

(٢) عارية، وعارية: الإعارة؛ ما تعطيه غيرك على أن تسترده، الجمع عوار، عوارِي . (٣) اجتبي: اختار .

وأعلقه بالنفوس ، وآخذه بالألباب ، وأملكه للعواطف والوجدان ، وأجمعه لصنوف التشبيهات البديعة والاستعارات الدقيقة والمجازات الرائعة والكنائيات المستطرفة ، وأمثال تيك مما لا ينطق به الناطق في أكثر مناحيه ومنازعه إلا عند ذهابه مذهب الخيال الشعري ، فشبه له ، فسمي ما سمعه شعراً ، وسمي الناطق به شاعراً ، وما هو بشاعر ، ولا ساحر ، ولا كاهن ، ولا مجنون .

ما كل موزون شعراً ، ولا كل ناظم شاعراً ، فالوزن ملكة تعلق بالنفوس من طول ترديد المنظوم ، والتغني به مقطعاً تقطيعاً يوازن تفاعيله ، فهو نغمة موسيقية ، ولحن خاص من ألحان الغناء يتمثل في قول الملك الضكَّيل^(٥) « قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل » ، كما يتمثل في قول الخليل : « فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن » ، ويتراءى في أوتار الحلق الناطق ، كما يتراءى في أوتار العود الصامت .

أما الشعر ، فأمر وراء الأنغام والأوزان ، وما النظم بالإضافة إليه إلا كالحلي في جيد الغانية الحسناء ، أو الوشي في ثوب الديباج المعلم ، فكما أن الغانية لا يحزنها عطل^(٦) جيدها ، والديباج لا يزري به أنه غير معلم ، كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون .

ذلك هو الفرق بين الشعر والنظم ، وما أنت ترى أن لا صلة بينهما إلا تلك الصلة الاصطلاحية التي لا سبب لها إلا اعتياد الناس أنهم ينظمون ما يشعرون ، وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما ، وعمت على كثير من الناس أمرهما ، وهي التي أدخلت النظامين في عداد الشعراء ، وألقت عليهم جميعاً رداءً واحداً لا يستطيع معه التمييز بينهما إلا للقليل من الناقدين المستبصرين ، فأصبحنا نقرأ لبعض المعاصرين القصيدة ذات المائة بيت فلا نجد بيتاً ، وننصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر بقصيدة ، وأصبحنا لا نكاد نجد بيتاً قارئاً غير شاعر ، لأنه لا يوجد في الناس شخص واحد يعجزه تصور تلك النغمة

تنظم بيتاً ، فلم لم تكتب في عهدك الأول ، ولم تنظم في عهدك الثاني ؟ كأنما ظن - عافاه الله - أنني أكتب اليوم بقلم غير قلم الأمس ، أو أهيم في وادٍ غير ذلك الوادي ، وهل الشعر إلا نثارة^(١) من الدر ينظمها الناظم إن شاء شعراً ، وينثرها الكاتب إن شاء نثراً ، أو نغمة من نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلايل والحمائم ، وأخرى من أوتار العود والمزاهر ، أو عالم من عوالم الخيال يطير فيه الطائر بقادمتين^(٢) من عروض وقافية ، أو خافيتين^(٣) من فقر وأسجاع .

الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر ، وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغ تعرض للكلام فيما يعرض له من شؤون وأطواره ، لا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته . ولولا أن غريزة في النفس أن يردد القائل ما يقول ، ويتغنى بما يردد ترويحاً عن نفسه ، وتطريفاً لعاطفته ما نظم ناظم شعراً ، ولا روى عروضي بحراً .

ما كان العربي في ميلاد عهده ينظم الشعر ، ولا يعرف ما قوافيه ، وأعارضه ، وما علله وزخافاته ، ولكنه سمع أصوات النواخير^(٤) ، وحفيف أوراق الأشجار ، وخبر الماء ، وبكاء الحمائم ، فلذ له صوت تلك الطبيعة المترنمة ، ولذ له أن يكي لبكائها ، وينشج لنشيجها ، وأن يكون صدها الحاكي لرناتها ونغماتها ، فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم منه إلا أنه ذلك الخيال الساري المتمثل في قريحته ، المتردد بين شذقيه ، ولا من أوزانه وضروبه إلا أنها صورة من صوره ولون من ألوانه .

ذلك منتهى نظر العربي إلى الشعر ، وذلك ما دعاه إلى أن يسمي النبي الذي بعثه الله إليه شاعراً ، وهو يعلم كما يعلم غيره من الناس أنه ما قصد في حياته قصيدة ، ولا رجز أرجوزة ، ولكنه سمع من كتاب الله وآياته المصطلات أبلغ الكلام ، وأفصحه ،

(١) النثارة : ما تثار من الشيء . (٢) القادمة : مفرد قوام ، وهي عشر ريشات في مقدم جناح الطائر .

(٣) الخرافي : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه اختفت .

(٤) النواخير جمع ناعورة ، وهي الساقية .

(٥) هو لقب امرئ القيس . (٦) العطل : الخلو .

الخضراء ، فتولهنَ وفزعنَ إلى جوانب عقودهنَّ
يلمسنها بأطراف بنانهنَّ يحسبنَ أن قد وهت ،
فانتثرت جواهرها في ذلك الروض الأريض .
وإن سمع قول الآخر :

ودار ندامسى عطلوها وأدلجوا
بها أثر منهم جديد ودارس
حبست بها صبحي وجمعت شملهم
وإني على أمثال تلك لحابس
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً
ويوماً له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح في عسجدية
حبثها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها
مهاً تدريها^(٣) بالقسي الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها

وللماء ما دارت عليه القلائس
تمثل له كأنه مرّ في ضاحية من ضواحي بغداد
بدار موحشة ، فسمع فيها أصوات قوم يلهون
ويقصفون^(٤) ويقرعون الكؤوس بأمثالها ، فاقترب منها
وأطلّ من خصاص^(٥) بابها ، فرأى أولئك القوم
مجتمعين حول دَنّ من الخمر قد تكاملت سنّه ،
وشيب الدهر فوديه^(٦) فقصده ، فسال دمه الأحمر في
كؤوس من الذهب منقوشة نقوشاً فارسية قد استقرّت
في قرارتها صورة كسرى فارس ، ودارت في باطنها
صور فرسانه متكنبي قسيهم ، كأنما يطاردون بقر
الوحش أمامهم ، ورأهم يملؤن الكؤوس إلى ما
يوازي أعناق أولئك الفرسان ، ثم يمزجونها بالماء إلى
ما يغطي رؤوسهم ، فتسلل من مكانه مغتبطاً
بمجمعهم ، وبما همّج لهم من الهناء والنعمة فيه ،
ثم مرّ بتلك الدار بعد أيام ، فرأها مقفرة من أهلها لا

(٣) أدري الصيد: خله .

(٤) قصف: أقام في أكل وشرب ولهو .

(٥) الخصاص: كل خلل وخرق في باب أو غيره .

(٦) الفردان: ناحيتا الرأس .

العروضية وتصويرها حتى العامة والأميين .

ولقد كتب الكاتبون في تعريف الشعر ، وافتتوا
في ذلك افتتاءً يعد به عن مكانه ، وعندني أن أفضل
تعريف له أنه (تصوير ناطق) لأن قاعدة الشعر المطردة
هي التأثير ، وميزان جودته ما يترك في النفس من
الأثر ، وسرّ ذلك التأثير أن الشاعر يتمكن ببراعة
أسلوبه ، وقوة خياله ودقة مسلكه ، وسعة حيلته من
هتك ذلك الستار المسبل دون قلبه ، وتصوير ما في
نفسه للسامع تصويراً يكاد يراه بعينه ويلمسه بينانه ،
فيصبح شريكه في حسّه ووجدانه ييكى لبكائه ،
ويضحك لضحكّه ، ويغضب لغضبه ، ويضطرب لطريره ،
ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال ، فيرى
الطبيعة بأرضها وسماها ، وشموسها وأقمارها ،
ورياضها وأزهارها ، وسهولها وجبالها ، وصادحها
وباغمها^(١) ، وناطقها وصامتها ، من حيث لا ينقل
إلى ذلك قدماً ، ولا يلاقي في سبيله نصيباً .

فإن سمع قول القائل :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ

سقاء مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا
حنّ المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمإ زلالاً
الذّ من المدامة للنديم
يصدّ الشمس أنى واجهتنا
فيحببها ويأذن للنسيم
يروع حصاة حالية^(٢) العذاري

فتلمس جانب العقد النظيم

خيّل إليه أنه يخطر في ذلك الروض البليل ، بين
أنواره وأزهاره ، خطرآنّ النسيم بين ظلاله وأشجاره ،
وأنه يرى بعينه أولئك العذاري السانحات ، وقد
راعهنّ منظر الحصباء اللامع فوق تلك اللديباجة

(١) باغم الغزال: صوت بأرخم صوته ، فهو باغم .

(٢) الحالية: لابسة الحلي .

تُسمع بها نغمة ولا نأمة^(١) فدخلها ، فلم يرَ فيها إلا
أعواد ريحان قد ييس أكثرها مبعثرة في جوانبها ،
وخطوطاً كانت رسمتها زقاق الخمر فوق تربتها في
غدوها ورواحها بين أولئك الندماء ؛ فانصرف حزينا
مكتئبا يسمع صفير الريح الضاربة في جوانبها ، فيردد
قول القائل :

رُبَّ ركب قد أناخوا حولنا

يشربون الخمر بالماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا

وكذلك الدهر حالا بعد حال

وإن سمع قول الآخر :

ويوم كتشور الإماء سجرته^(٢)

وأوقدَ فيهِ الجزل حتى تضرما

رميتُ بنفسي في أجيج سموه

وبالعيس حتى بض منخرها دما

شعر كأن لهيب تلك الهاجرة يهبُ في وجهه ، فيشيع
عنه فرارا من لفحاته ، ويكاد ييكي رحمة لذلك الشيع
المصهور الذي ملكتْ عليه تلك التثوفة^(٣) الحمراء
سبيله ، وحالت بينه وبين نفسه ، فلا هو بصابر إن رام
صبرا ، ولا بناج إن أراد نجاء .

وإن سمع قول الآخر :

وارحمتا للغريب في البلد النا

زح ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابه فما انتفعوا

بالعيش من بعده ولا انتفعا

هملت عيناه وجدا على ذلك الغريب الحائر ،
وتمنى أن لو رآه في بعض مذاهبه ، وعطف عليه
وأنس وحشته ، وخفض لوعته ، ثم أخذ بيده فأنزله من
نفسه منزلا كريما ، وأبدله أهلا بأهل وجيرانا
بجيران .

وإن سمع قول الآخر :

(١) النأمة: النغمة والصوت .

(٢) سجر الرجل التنور: ملأه وقودا .

(٣) التثوفة: القلاء؛ لا ماء فيها ولا أنيس، الجمع تنائف .

وإن الذي بيني وبين بني أبي

وبين بني عمي لمختلف جدا

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم

وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم

وإن هم هورا غيبي هويت لهم رشدا

وإن زجروا طيرا بنحس تمر بي

زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهم

وليس رئيس القوم من يحمل الحقد

لهم جل مالي إن تتابع لي غنى

وإن قل مالي لم أكلفهم رقدا^(٤)

وإني لأبذل الضيف ما دام ثاويا

وما شيمة لي غيرها تشبه العبد

أكبر تلك المكرمة العظيمة ، وأجلها ، ونظر إليها في
علياء سمائها كما ينظر الفلكي إلى كوكبه ، وشعر
كأن نورها قد لمع فامتد شعاعه إلى جوانب نفسه ،
فأضاءها .

ولا غرو أن يبلغ الشعر من نفسه هذا المبلغ !
فلطالما كان للشعر السلطان الأكبر على النفوس
العظيمة ، فقد نكب الرشيد البرامكة عندما دس له
أعداؤهم ذاك المغني الذي غناه هذا الصوت :

ليت هنذا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجدد

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وأمر السقاح بقتل وجوه بني أمية بعلما قرأهم ،
وأدناهم عندما دخل عليه سديف مولاه ، وأغراه بهم
في قوله :

لا تقيلن عبد شمس عشارا

واقطن كل رقلة^(٥) وغراس

أنزلوها بحيث أنزلها الله

— يدار الهوان والإنعاس

(٤) الرقذ: المعونة، والعطاء والصلة .

(٥) الرقلة: النخلة التي تقوت اليد .

الصامت فالتمثيل التي يراد بنصبها تمثيل حياة
عظماء الرجال شعر . وهذه النغمات الموسيقية التي
تصور خواطر القلوب وجداناتها ، فتهيج عاطفة
الحب في نفس العاشق وعاطفة الحماسة في نفس
الجندي شعر . وهدير الأمواج شعر ؛ لأنه يمثل عظمة
الجبارين . وظلام الليل شعر ؛ لأنه يطلق دموع
الباكين . وحفيف أوراق الأشجار شعر ؛ لأنه يمثل
المناجاة في مواقف العشاق . وبكاء الحمايم شعر ؛
لأنه يمثل فجعة البين ولوعة الفراق . تلك النغمات
الشعرية التي نسمعها من فم الإنسان مرة ، وفم
الطبيعة مرة أخرى هي التي زخرت لنا هذه الحياة ،
وألبستها ذلك الثوب الناعم الأبيض من السعادة
والهناء حتى أحبينها ، ولعننا بها ، وحرصنا عليها ،
وأعدنا العدد للبقاء فيها والسكون إليها ، فكتبنا
ودوننا وألقنا واخترعنا ، وتعلمنا فعلنا ، وبنينا فشيئنا ،
وغرسنا فجئنا ، وعملنا فربحنا ، واجتهدنا فأثرينا ،
وأملنا فسعيننا ، وسعيننا فبلغنا . فكأن الشعر سر هذه
الحياة وعلة هذا الوجود ، لا تطير إلينا الحقائق إلا
على جناحيه ، ولا يطيب لنا العيش إلا في جواره ،
فلنمجد الشعراء كل التمجيد ، ولنكبرهم كل
الإكبار ؛ فهم مشارق شمس الحكمة ، وأفلاك
كواكب العلم والفضل ، وهم الينابيع الصافية التي
يترقق ماؤها ، ثم يتسرب إلى الأقدسة والقلوب ؛
فيملؤها سعادة وهناء .

* * *

الشهيدتان

لم تفتعض عينا ليلة أمس ، لأنني بت أسمع
في الدار اللاصقة لبיתי أنين امرأة متوجعة تعالج قعاً
ثقيلاً ، وتشكو مرضاً أليماً . وكان يخيل إلي أنني
لا أسمع بجانبها معللاً يعللها ولا جليسا يتوجع
لها ، فلما أصبح الصباح ذهبت إليها ، فإذا قاعة
صغيرة مظلمة تكاد لا تشتمل على أكثر من سرير

خوفهم أظهر التودد فيهم
وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم
عنك بالسيف شافة الأرجاس
فلقد ساءني وساء سوائي
قربهم من نمارق^(١) وكراسي
بل عطف عمر بن الخطاب على الحطيفة ،
وأطلقه من سجنه حين سمعه يقول :
ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ
حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسيهم في قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله يا عمر
بل سمع النبي ﷺ قول قتيلة بنت الحرث تعاتبه
في قتله أخاها النضر بن الحرث على رحمه
منه ، واتصال نسبه به :

أ محمد يا خير صنو كريمة
في قومها والفحل فحل مُعرق
ما كان ضرك لو مننت وربما
من الفتى وهو المغيظ المحضق
والنضر أقرب من أصبت وسيلة
وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه

لله أرحام هناك تشق
فبكي وقال وهو من لا ظنة^(٢) في عدله ، ولا
رية في حكمه : « لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته » .

لا مؤثر في نفس الإنسان غير الشعر ، وما خضع
الإنسان لشيء في جميع أدوار حياته إلا للشعر .
وللشعر الفضل الأول في نبوغ الإنسان وارتقائه ،
وبلوغه هذا المبلغ من الكمال ، ولقد أحب الإنسان
الشعر ناطقاً وصامتاً ؛ أما الناطق فقد عرفته ، وأما

(١) الثمرق: الوسادة الصغيرة يُنكأ عليها .

(٢) الظنة: التهمة .

أملك من حلية وذخيرة وكسوة وآتية ، وأصبحت لا أملك درهماً أبتاع به قارورة الدواء ، ولا أجد مزقة أمسك بها قوائم هذا السرير المضطرب . وما قنع الدهر مني بذلك حتى رماني بالدهية الدهياء التي يصفر في جانبها كل عظيم من خطوبه ونكباته ، فقد كتبتُ إلى والد الفتاة منذ شهر أصف له حالتي ، وأقضي إليه بذات نفسي ، وأسأله أن يمدني وابنتي بقليل من القوت نَمسك به تلك الصُّبابة^(١) التي أبقتها خطوب الأيام ورزاياها من أعظمنا وجلودنا . ولبثت أترقب رجوع الكتاب كما يترقب الغريق سواد السفينة ، فإني لجالسة في هذا المقعد أعد على الدهر ذنوبه إليّ وسيئاته عندي ، فلا أفرغ من عقد إلا إلى عقد ، ولا أنتهي إلا حيث أبتدئ ، وقد جلست طفلاتي بين يدي أطلع إلى وجهها الساطع في ظلمات تلك الخطوب كما يتطلع الملاح في ظلماته إلى نجمة القطب ؛ إذ هجم عليّ ذلك الظالم الجبار ، فاخطف ابنتي من بين يديّ من حيث لا أملك دفعاً لما نابني ، ولا أجد ما أدود به عن نفسي إلا زفراتٍ لا يسمعها سامع ، وعبراتٍ لا يرحمها راحم . فشعرت كأنّ أسهم الدهر التي كانت تروغ ههنا وههنا قد أصابت في هذه المرة المقتل ، فبت ليلتي تلك كما يجب أن تبيت امرأة بائسة معذمة فجّحها الدهر في نفسها بعد أن فجّحها في زوجها وأبيها ولدها ، فأصبحت لا تجد أمامها يدًا تنبسط إليها ولا عيناً تبكي عليها . وقد مرّ بي بعد ذلك نيف وعشرون ليلة لا يرقأ لي دمع ، ولا يهدأ بي مضجع ، حتى إذا اخجلست من يد الظلام نعسة تراءت لي الفتاة كأنها في فراشها مريضة تهتف باسمي ، وكأنّ أباهاً يوسعها ضرباً وتعذيباً ، وكأنّني أحاول أن أستنقذها فلا أجد إليها سبيلاً ، وها أنا ذا أشعر أن سحابة الموت السوداء تغشي عليّ بصري ، وأنني مفارقة هذا العالم قبل أن أنظر إلى فتاتي نظرة أتزودها في سفري إلى تلك الدار . »

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحدّ حتى

بالبراءى فوقه شيخ مائل من أشباح الموتى ، فترفت في مشيتي حتى دَوْنْتُ منها ، وكأنها شعرت بمكاني؛ فحركت شفتيها تطلب جرعة ماء ، فأسعتها بها فاستفاقت قليلاً ، ثم تقدمت نحوها أسألها عن خطبها ، فأنشأت تقصّر عليّ قصتها بصوت خافت متقطع كنت أكاد أنترعه منها انتراعاً ، وتقول :

« زوّجني أبي منذ سبع سنين من رجل مزواج مطلق لا يكاد يصبر على امرأة واحدة عاماً وحداً . ولو كان لفتاة أن تستبدّ بأمرها من دون أوليائها ؛ لأحسنت الاختيار لنفسي ، بل لو لم يكن في الأمر إلا أن أتبتّل أو أصير إلى هذا المصير ؛ لكان لي في الرهبانية رأيّ غير ما يراه فيها النساء ، ولكنني عجزت ، فأذعنت وزفقت إليه فاستقبلني بأحسن ما يستقبل به الزوج الكريم أحظى نسائه عنده وأكرمهنّ عليه ، فكان يريني من ذلك ما يريب الفريسة من ابتسامة الأسد ، وكنت أنتظر يوم الفراق كما ينتظر القاتل يوم القصاص ، فما أفقت من صرعة النفاس حتى علمت أنه خطب ، فتزوّج فبنى ، وأني أصبحت في المنزل وحيدة لا مؤنس لي إلا طفلاتي الصغيرة ، فجزعت عند الصدمة الأولى ، ثم نزلت على حكم القضاء الذي لا أملك ردّه ، ولا أعرف وجه الحيلة فيه ، واحتلمت طفلاتي إلى بيت أبي ، فوجلت مريضاً مشرفاً ، فبكي رحمة بي واستغفرتني من ذنبه إليّ فغفرته له . وما هي إلا أيام قلائل ، حتى مضى لسبيله مفجوعاً برزئي ووزّته ، فعلمت أن الدهر قد سجل عليّ في جريدة الشقاء أياماً طوالاً لا أعلم متى يكون انقضاءها ، ولا أدري ما الله صانع فيها ؛ فظلت أستكتب الناس الكتب إلى ذلك الرجل ، أسأله القوت فأستعين به على تربية طفله ، أو التسريح عسى أن يبدلني الله خيراً منه زكاةً وأقرب رُحماً ، ففضن بالأولي ، واستعظم الأخرى ؛ فلم أر لي سبيلاً غير سبيل العمل ، فلبثت بضع سنين ساهرة الليل قائمة النهار أستقطر الرزق من سَمّ الخياط ، فلا أكاد أبلغ منه الكفاف حتى بلغ منّي الجهد ، فدهيت بمعضلة من الأدوية خرجت لها عن كل ما

(١) الصُّبابة: البقية القليلة من الماء ونحوه .

الدُّعَاء

وهو ملخص قصيدة لفكتور هوجو بتصرف .

قومي يا بنيةً إلى الصلاة ، فقد نزل ستار الليل ،
ودبَّ الشفق الأحمر في حاشية الأفق ، وأطلت عيون
الكواكب من فروج السحب ، وأجرى البدر المنير
ليقته الفضية البيضاء على صفحة النهر ، ومسحت
أيدي النسائم المبتلة بندى الليل عن أوراق الأشجار
غبار النهار .

قومي يا بنيةً إلى الصلاة ، فقد مات النهار ،
ومات بموته الآلام والأحزان ، والأحقاد والأصغان ،
والمظالم والمآثم ، ولم يبقَ من تلك الأعاصير والزوابع
ما يعترض وفد الدعاء في طريقه إلى أبواب
السماء .

قومي يا بنيةً إلى الصلاة ، فقد أوى الناس إلى
منازلهم ، والطيور إلى وُكُنَّاتها ، والوحش إلى
أوجرته^(٢) ، وأخذت الطبيعة مكانها من مرقدِها ، ولم
يبقَ من أصواتها إلا أنين الراحة المتمثل في رنين هذه
المركبة المقلبة في جوف الليل ، وجوار هذه
السائمة^(٣) العائدة من حقولها ، وهدير تلك الرياح
الضارية في ذوائب الأشجار ورؤوس الأبراج .

قومي يا بنيةً إلى الصلاة ، فقد جاءت الساعة
التي يجشو فيها الأطفال حول أسرهم حفاة عراة
الرؤوس شواخص الأبصار يطلبون الرحمة من الله
تعالى لآبائهم وأمهاتهم وللناس أجمعين ، فترنَّ
أصواتهم في الملأ الأعلى رنين نغمات الموسيقى في
أجواف الفضاء ، فيردها الملائكة طائرَين بها إلى
عرش الرحمن . فإذا فرغوا من دعائهم ، وقضوا حق
الله عندهم ، وحقهم عند أنفسهم ذهبوا إلى
مضاجعهم ، وناموا نومًا هادئًا مطمئنًا تتطاير فيه
الأحلام الجميلة حول ثناياهم الباسمة ، كما تتطاير
أسراب النحل حول أحواض الأزهار .

(٢) الأوجرة: الجُور، ومفردها وِجار .

(٣) السائمة: كل إبل أو ماشية ترسل للرعي، الجمع سوائم .

جَرَضَتْ^(١) بريقها ، وحشرجت أنفاسها ، وَشَطَرَ
بصرها ، فجثوت عند سريرها أدعو لها الله أن يعينها
على أمرها ويمدّها برحمته وإحسانه ، فإني لكذلك
وقد استغرقت في هذا المشهد الذي بين يدي استغرق
العابِد في هيكله ، إذ رأيت في خلال الدموع
التي كانت تزدحم في عينيّ شبحًا منتصبًا عند
باب الغرفة ، فتأملتُ فإذا رجل يحمل بين يديه فتاة
صغيرة ، فتقدّمتُ إليه ، فرأيتُه خاشعًا مستكينًا ينظر
إلى تلك التي يحملها نظرات الوجد والرحمة ،
ورأيت الفتاة كأنها خرقة بالية ملقاة لا يتحرك لها
عضو ، ولا ينبض منها عرق ، فقلتُ : « من أنت ،
وماذا تريد ؟ » قال : « أنا زوج هذه المرأة ووالد هذه
الفتاة . » قلت : « لعلك جئتَ تستغفر هذه البائسة
المسكينة من ذنبك إليها في التفريق بينها وبين
ابنتها . » قال : « يا سيدي ما زالت الفتاة منذ فارقت
أمها تبكي عليها بكاءً مرًّا ، وتهتف باسمها في
يقظتها ونومها ، حتى سقطت مريضة لا ينفعها طبٌّ ،
ولا ينجع فيها دواء . فلما رأيتُ أنها وصلت إلى
الحالة التي تراها جئتُ بها إلى أمها أرجو أن تجد
بين ذراعيها شفاء من داءها . » قلت : « ذلك
موكول إلى القضاء ، ولا يعلم الغيب إلا الله . » ثم
تقدّمت نحو الفتاة ، فرأيتها تجود بنفسها ، فاحملتها
برفق حتى وضعتها بين ذراعي أمها ، فما هو إلا أن
هتفت الفتاة بأمها ، والأم بفتاتها حتى فاضت
نفساهما معًا ؛ كأنما كانتا من الردى على ميعاد .

الآن ، وقد عدت من دفن الشهيدتين ، وجلست
لكتابة هذه السطور ، أشعر أنني لا أكاد أمسك
قلمي من الاضطراب ، ولا مدمعي عن الانفجار
حزنًا على تلك البائسة المسكينة ، لا بل حزنًا على
جميع البائسات من النساء اللواتي يقتلهن الرجال
كلّ يوم صبرًا من حيث لا يجدن راحمًا يأخذ
بأيديهن ، ولا ناثرك يثأر لهن .

* * *

(١) جَرَضَ فلانٌ بريقه: بَلَمَهُ بِعَنَاءٍ .

حينما يعودون إليهم .

اطلبي الرحمة لجميع الأمهات الجالسات حول أسرة أبنائهن المرضى ، وقد خفقت قلوبهن ، وحارت أبصارهن مخافة أن يذقن مرارة الشكل ، والشكل كثير على قلوب الأمهات .

اطلبي الرحمة للبخیل الذي يجيع بطنه ، ويشبع صندوقه ، والأحمق الذي يتسم للمعان الحرير في صدره ، والذهب في أصابعه ، والقاضي الذي يرى القاتل المتعمد ، ويدن السارق المضطر ، والمملك الذي يشعل نار الحرب في أمته ليطفي نار غضبه ، والظالم الذي لا يحاسب نفسه على ليلة سوء يقضيها خارج بيته ، ويحاسب زوجته على ابتسامة كرم تبسمها لغيره ، ومائر البؤساء الذين لا يشعرون بيؤسهم ، والأشقياء الذين يظنون أنهم سعداء .

اطلبي الرحمة لأولئك الذين عمروا الأرض ، وبنوا دورها ، وشادوا قصورها ، وزخرفوا سهولها وجبالها وأغوارها وأنجادها ، فجازتهم سوءاً بما عملوا ، وابتلعتهم في جوفها ، فأصبحوا في تلك الحفرة المظلمة المخيفة التي تختلط فيها الرؤوس بالأقدام ، والقوادم بالخوافي ، والنعال بالتيجان ، والتي ينطوي فيها كل قديم تحت كل حديث انطواء اللجج المتراكبة في البحر العميق ، يتألمون ولا ينطقون ، ويستصرخون فلا يجدون من يسمع نداءهم أو يلبي دعاءهم .

اطلبي الرحمة لهم ، فإن الدعاء الخالص يستحيل في أنظارهم إلى روضة من رياض الجنان تنبت فوق أجداثهم ، فتعد إليهم ظلالها ، وتثر بينهم أوراقها وأزهارها ، واركعي فوق التربة التي يثنون تحتها ، واسقيها من دموعك قطرات باردة تبيل غلتهم ، وتطفئ جذوة الندم المتوقدة في أحشائهم ، إنهم إلى الرحمة محتاجون ، وإلى الله راغبون .

اطلبي الرحمة للأبرار والفجار ، والعصاة والطائعين ، والمؤمنين والملحدين ، وكل دارجة في الأرض ، وكل سائحة في السماء ، ولا تيأس أن يستجيب الله دعاءك ، فلكل بداية نهاية ، ولكل

قومي يا بنية إلى الصلاة ، واطلبي الرحمة لتلك التي التقطت ذرتك الأولى من عالمها ، ثم اتخذت لك من حنايا ضلوعها سريراً قبل سريرك ، ومن أحشائها مهاداً قبل مهادك ، والتي قدم لها الدهر كأساً شقائه ونعيمه ، فشربت الأولى وأثرتك بالأخرى .

اطلبي لها الرحمة ، فإنها كانت بيضاء القلب صافية النفس تحب من لا يحبها ، وترحم من لا يرحمها ، وتبتسم ابتسامة عذبة راقية لا تمازجها ريبة ، وتمد يدها إلى اجتناء كل ثمرة إلا ثمرة الشجرة المنهي عنها ، وكانت تقف أمام مسرح الحياة الحافل بالزخارف والتهاويل وقفة المترث المرتاب الذي يتهم سمعه وبصره ، وتتنظر إليه نظر الحكيم العاقل الذي يعلم أن السعادة الكاذبة أمر مذاقاً في الأفواه من الشقاء الصادق ، وأن هؤلاء الذين يضحكون سروراً بهذه الصور الخيالية لا يعلمون أنهم يكون من حيث لا يشعرون ، وأن أولئك الجالسين حول مائدة الشهوات إنما يقامرون بأنفسهم ، ولا بد أنهم خاسرون ، فتغض بصرها ، وتشيع بوجهها ، وتعود أدرجها بقلب غير مخدوع ، وفؤاد غير مصدوع .

اذكري يا بنية أن تطلبي الرحمة لأبيك ، كما تطلبيها لأمك ، فهو أخرج إليها منها ، لأن الخطايا قد أثقلت ظهره ، فأصبح لا يستطيع أن يرفع رأسه إلى السماء ، وغلت يده ، فلا يستطيع أن يمدّها إلى الله بالدعاء .

إنني أشعر يا بنية حينما أسمع دعاءك لي كأنني أسمع صوت انفصام القيود عن قدمي ، وكأن سحابة سوداء تنقشع عن قلبي قليلاً قليلاً ، وكأن جناحي المهيض قد نبت له ريش ناعم جميل أحاول أن أطير به إلى أعالي السماء .

اطلبي الرحمة لجميع الآباء العائدين إلى منازلهم تحت ستار الظلام بدموع منهلة ، وقلوب واجمة بعد أن سايروا الشمس من مشرقها إلى مغربها ، فلم يجدوا ما يمسخون به دموع أبنائهم

وبالجملة ، فقد كان أصحاب الأغراض المختلفة في هذه الرواية كثيرين جداً ، وكانوا إذا اشتركوا في هتاف ، أو تصفيق ، دوى لهم في أرجاء القاعة صوتٌ يصدع الرؤوس ، ويؤثر في أعصاب السمع تأثيراً سيئاً ، فكنتُ إذا شرع المغني في نشيد وترقب الناس النغمة الأخيرة بتشوق وتلهف ، ترتبها بخوف وجزع ، لأنني لا أحب أن تكون آخر نغمة أسمعها في حياتي .

رأيت فيما رأيتُ في ذلك المعرض العام أن عامة المصريين يحبون التصفيق حباً جماً ويتهاكون وجداً عليه .

رأيتُ من كان يصفق حتى تحمرَّ كفاه ، وتكاد تبضاً دمًا ، ومن كان يضرب الأرض بقدميه ؛ حتى يكاد يجمد الدم في عروقهما .

رأيتُ ملكة التقليد آخذةً من نفوسهم مأخذها ؛ لأنهم ما كانوا يصفقون في مواقف الاستحسان جميعاً ؛ بل كان يتدبأ أحدهم ، فيقلده الجالسون حوله ، ثم يسري التصفيق تدريجياً بين الجميع ، ولقد رأيتُ من استغرق في الضحك حتى كاد يسقط عن كرسیه ، ثم سمعته يسأل بعد ذلك جليسه : « تمَّ تضحكون ؟ »

ولقد كنتُ أحسب أنهم لا يصفقون إلا في مواطن الاستحسان كما هو الشأن في ذلك ، فإذا هم يصفقون لكل مشهد من المشاهد المؤثرة مفرحاً كان أو محزوناً ، هزلاً أو جدلاً ، فصفقوا لمنظر جوليت وهي تتجرع السم ، وصفقوا لمنظر روميو وهو يتحرق وجداً حينما فاجأه الخبر بموتها .

أما النساء فملأن خدورهن^(١) ضحكاً عندما سقط روميو قتيلًا ، ولا أعلم لذلك سبباً إلا أن تكون عداوة الجنسية ، وحب الانتقام .

أما آداب الاستماع ، فلا تسل عنها ، لأنك لا ترى في جوانبي ما يسرك ، وأي منظر يروقك من مجتمع ما اجتمع في مثل هذا المكان إلا للاستماع ، ثم لا ترى بينه إلا مصفقاً أو هاتفاً أو

(١) الخدر: ستر يمدُّ للمرأة في ناحية البيت، الجمع خدور .

سائلة قرار ، فكما أن النهر يتسرب إلى البحر ، والطائر يقع على الغصن ، والشمس تجري لمستقرها ، والنفس تصعد إلى عالمها ؛ كذلك أبواب السماء مفتحة لخالص الدعاء .

* * *

ليلة في التمثيل

من أراد أن يعرف الأخلاق العامة المصرية كما هي ، فليزر دار التمثيل العربي ، فإنه يرى هنالك ما تفرق من أخلاق هذه الأمة وغرائزها ، وميولها وأهوائها مجتمعاً في بقعة واحدة .

زرتُ تلك الدار ليلة أمس ، وكثيراً ما أزورها ، لأنني أحب التمثيل حباً يكاد يساوي حبي للشعر والموسيقى والجمال ، فبدا لي أن أكون في تلك الليلة فيلسوفاً أكثر مني متفرجاً ؛ أي أن أكون متفرجاً على المتفرجين ، ومطلعاً على المطلعين ، فكانوا جميعاً يشاهدون ملعباً واحداً ، وكنتُ أشاهد وحدي ألف ملعب لا يقل كل واحد منها عن ملعبهم غرابة وإبداعاً .

كان الزحام في هذه الليلة شديداً ، لأن الأدباء يعجبهم من رواية روميو وجوليت ذلك الأسلوب الفصيح ، والترتيب البديع الذي انفرد به المرحوم الشيخ نجيب الحداد من بين كتاب الروايات و مترجميها . ولأن العاشقين يهيمهم منها أن يروا فيها مواقف العناء والشقاء التي وقفها روميو وجوليت ، ليتخذوا منها لأنفسهم تعزية عما يلاقونه في أمثال هذه المواقف من عناء وشقاء . ولأن النساء يطربهن منها منظر جوليت ، وهي قتيلة مخضبة بدمها ، ليجدن السبيل إلى الشماتة بها ، والسخرية بضعف حياتها ، وعجزها الذي كان سبباً في حرمانها من سعادتها وحياتها ، فكأنهن يقلن لها: « لو كنا مكانك آيتها الفتاة الحمقاء ، لما بدلنا حياتنا في سبيل رجل لا يفوتنا حظنا من غيره إن فاتنا حظنا منه . »

إليها ، وأرثي له ، وأبكي على عقله إن مشى
الخيلاء ، وطاول بعنقه السماء ، وسلم بإيماء
الطرف ، وإشارة الكف ، ومشى في طريقه يخزر
عينيه خزراً ، ليرى هل سجد الناس لمشيته ، أو صعدوا
من هيئته ! وأرحمة الرحمة كلها إن عاش شحيحاً
مقتراً على نفسه وعياله بغيضاً إلى قومه ، وأهله
ينقمون عليه حياته ، ويستبطلون أجله .

أما الفقير فهو عندي أسعد الناس عيشاً ،
وأروحهم بالاً إلا إذا كان جاهلاً ضعيفاً مخدوعاً
يملك الوهم عليه مشاعره ، فيظن أن الغني أسعد
منه حظاً ، وأرغد عيشاً وألج صدره ، فيحسده على
تلك السعادة التي يزعمها له ، فيجلس في كسر بيته
جلسة الكتيب المحزون يُصعد الزفرة فالزفرة ، ويرسل
الدعوة إثر الدعوة ، ولولا جهله وضعف قلبه ؛ لعلم
أن رُبَّ صاحب قصر باذخ يتمنى كوخ الفقير
وعيشه ، ويرى أن ذلك السراج من الزيت أسطع
ذبلاً وأكثر لألاء من أنوار الشموع وباقات الكهرياء
التي تأتلق بين يديه ، وأن تلك الحشية من الأديم أو
الوبر أنعم ملمساً ، وألين مضجكاً من وسائد الحرير
ونضائد الديباج .

لقد بلغ التسؤل ، وضعف النفس بكثير من
الناس أنهم يحفلون بشأن الأغنياء لأنهم أغنياء ، وإن
كانوا لا يتالون منهم ما ييل غلة أو يسبخ غصة .
وليت شعري إن كان لا بدّ لهم من إجلال المال
وإعظامه لذاته ، فما لهم لا يقبلون أيدي الصيرافة ولا
ينهضون إجلالاً للكلاب المطوقة أعناقها بأطواق
الذهب ، وهم يعلمون ألا فرق بين هؤلاء وهؤلاء .

لو عامل الفقراء بخلاء الأغنياء بما يجب أن
يعاملوا به ؛ لوجدوا أنفسهم في وحشة من أنفسهم
وأموالهم ، ولشعروا أن بدرات الذهب أساود^(١)
ملتفة على أرجلهم وأغلال آخذة بأعناقهم ، ولعلموا
أن الشرف في كمال الأدب لا في رنين الذهب ،
وفي جلائل الأعمال لا في أحمال المال .

فليعضّم الناس الكرماء ، وليحتقروا الأغنياء ،

(١) الأساود: العظيم من الحيات، المفرد أسود .

راكضاً أو ضاحكاً أو صارخاً أو مصفراً أو ماضعاً أو
متكلماً ، وكان يكون ذلك هيئاً ، لو وقع بين
الفصل والفصل ، أو المنظر والمنظر ، أو الجملة
والجملة ، ولكنه يقع مطرداً حيثما اتفق ، وكيفما
بدا !

وبعد .. فقد استنتجت من منظر ذلك المعرض
العام أن للجمهور المصري ثلاثة أخلاق ، هي ألزم
من ظله ، وألصق به من نفسه : يحب التقليد ، ويحب
الهزل ، ولا يستطيع أن يصبر عن إظهار ما تتأثر به
نفسه من حزن وسرور لحظة واحدة .

* * *

الكوخ والقصر

أنا إن كنت حاسداً أحداً على نعمة ، فإني أحسد
صاحب الكوخ على كوخه قبل أن أحسد صاحب
القصر على قصره ، ولولا أن للأرواح سلطاناً على
النفوس لما سجد الفقراء بين أيدي الأغنياء ، ولا
ورم^(٢) أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أرباباً من
دون الله .

أنا لا أغبط الغني على غناه إلا في موطن واحد
من مواطنه ، فأغبطه إن رأيته يشبع الجائع ، ويواسي
الفقير ، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي
سلبه الدهر أباه ، والأرملة التي فجعها القدر في
عائلها ، ويمسح بيده دعة البائس والمحزون ؛ ثم
أرثي له بعد ذلك في جميع مواطنه الأخرى .

أرثي له إن رأيته يترصّ بالفقير وقوع الضائقة به ؛
ليدخل عليه مدخل الشيطان من قلب الإنسان ،
فيمتص الثمالة الباقية له من ماله ، ليسد في وجهه
باب الأمل ، وأرثي له إن رأيته يعتقد أن المال
هو منتهى الكمال الإنساني ؛ فيرغب عن الفضائل
والكمالات لأنه يظن أنه قد كُفي مؤونة السعي

(١) رَمَ أَنفه: غَضِبَ .

خلوت بنفسي والأوراق ، ففترتها فرأيتها مجموعة
خواطر عاشق تناول كأس الحب بيده ، فارتشف منها
الجرعة الأولى ، فوجدتها حلوة المذاق ، فاستمر في
شأنه يشرب ولا يرفع الكأس عن فمه ، فلم يشعر
بالمرة المتجددة في الجرعات الأخرى حتى أتى على
آخر جرعة ، فاذا هي السمُّ النافع^(١) الذي قتله
وذهب بحياته .

قرأت تلك المفكرات ، فبكيت بكاءً رحمت
نفسي منه ، ثم طويتها ، وألقيت بها في بطون
الأعوام وبين ودائع الأيام .

وبينا أنا أقلب أوراقى ليلة أمس إذ عثرت بها في
ملف صغير قد اصفر لونه ، لتقدم العهد عليه كما
يصفر الكفن حول الجثة البالية ، فشعرت برعدة
تتمشى في أعضائي حينما تخيلت أنها في هذا
السَّقَط^(٢) شيخُ كاتبها في ذلك القبر .

ثم عدت إلى نفسي ، ففترتها للمرة الثانية ،
وأعدت قراءتها ، فرأيت قلب العاشق مرسومًا فيها
رسمًا صحيحًا في حالي سعادته وشقاؤه ، وهما أنا
أنشرها في الناس ، لتكون عبرة يعتبر بها المخاطرون
بقلوبهم في هذا السبيل - سبيل الحب القاتل .

(١)

رأيتها فأحببتها ، وما كنت أعرف الحب من
قبلها .

كان قلبي في ظلام حالك لا يرى حتى نفسه ،
فلما أشرق فيه الحب أشرقت فيه شمس ساطعة منيرة
لها من الشمس نورها وجمالها ، وليس لها منها
حرارتها ولذعاتها .

كنت أشعر كأن قلبي في صحراء هذه الحياة
وحيد موحش لا يعرف القلوب ، أو يعرفها ثم
ينكرها ، فلما أحببت رأيت بجانب قلبي قلبًا لاصقًا
به يخفق لخفقانه ، ويتحرك بحركته ، فكنت أجد
بين جوانحي من السرور والهناء ، واللذة والاعتباط ما
لو قسم على القلوب جميعها ما خالطها حزن ، ولا
مسها ألم .

(١) السمُّ النافع: البالغ القاتل . (٢) السَّقَط: وعاء الطيب

وليعلموا أن الشرف شيء وراء الغنى والفقر ،
والسعادة أمر وراء الكوخ والقصر .

* * *

حول سرير الموت

مررت منذ سنوات على باب منزل في أحد أزقة
القاهرة ، فرأيت حوله مجتمعًا حافلًا تصطبك فيه
الأقدام بالأقدام ، وتمتزج فيه الأنفاس بالأنفاس ،
وقد تخلله قوم من رجال الشرطة ، وسمعت قائلًا
يقول: « قبح الله الانتحار! » وآخر يقول: « أحسبه شابًا
غريبًا لأنني لم أر عينًا تدمع عليه . » فعرفت مجمل
القصة ، وأن في هذا المنزل شابًا غريبًا متحركًا ، وأن
هذا الحادث سبب هذا الاجتماع .

لم أقتنع بالإجمال ، فأحببت معرفة التفصيل ،
فحاولت الدخول إلى المنزل فما استطعت ، فترثت
حتى جاء ضابط أعرفه من ضباط البوليس ، فدخلت
معه .

وهناك رأيت على سرير الموت شابًا في نحو
العشرين من عمره ، رقيق الجسم أصفر اللون ، لم
تستطع يد الموت أن تمحو كل آثار جماله بل بقيت
منه بعد الموت بقية كتلك البقية من الرائحة العطرة
التي يستنشقها الإنسان في الزهرة الذابلة .

اهتم الضابط بملابسه ، لعله يجد فيها ما يدلُّ
عليه أو على سبب انتحاره ، واهتم الطبيب بالميت
ليعرف علّة موته ، وجلس بجانبه جلسة الكتيب
المحزون أفكر في مصيبتيه ، وأندب شبابه وجماله ،
فلمحت حول السرير أوراقًا منتشرة ، فجمعتها
ووضعتها في محفظتي من حيث لا يشعر الضابط ولا
الطبيب .

قرر الطبيب أنه منتحر بشرب سائل سام ، وقرر
الضابط نقل جثته إلى المستشفى ، فنقلت ، وانفضَّ
الجمع المزدهم ، ثم لم أعد أعلم بعد ذلك من أمره
شيئًا .

فيها مآرباً ، وإن كنت تخبني لهذه الصورة الجثمانية ،
فما أضعف همتك ، وما أصغر نفسك !
« أ تدرى دمعك ، وتسهر ليلك ، وتذيب حبة
قلبك من أجل عظمة تلمسها ، أو جلدة تلتصقها ؟
« أنت شريف في نفسك ، فكن شريفاً في
حبك ، واعلم أنني ما أحببت غير نفسك ، فلا تحب
غير نفسي . »

وما وصلت من حديثها إلى هذا الحد ، حتى
رأيتني قد صغرت في عين نفسي ، وتمنيت أن لو
عجل إليّ أجلي قبل أن يمرّ هذا الخاطر الفاسد في
ذهني ، ثم استوهبتها ذنبي ، فوهبته لي ، وما عدت
من يعدها إليّ مثلها .

(٤)

الآن عرفت مبلغ عظمتها ، وفضل هدايتها ،
ومقدار ما يبلغه الحب الشريف من النفس ، فها أنا
أشعر كأن نفسي المرأة التي يغشاها الصدأ ، وكأن
الحب صيقل^(١) يصقلها ، فيجلو صفحتها شيئاً
فشيئاً .

كنت أحمل بين جوانحي لأعدائي ضغناً وحقدًا ،
فأصبحت لا أشعر بما كنت أشعر به من قبل ، لأن
الحب ملك عليّ قلبي واستخلصه لنفسه ، فلم يترك
فيه مجالاً لشيء سواه .

كنت ضيق الصدر إن مسني ضررٌ ، سريع الغضب
إن فانتني مأرب ، فأصبحت فسيح رقعة الحلم ، لا
يستفزني غضب ، ولا يحرّجني محرج ، لأنني قنعت
بسعادة الحب ، فأغفلت بجانبها جميع أنواع
السعادة .

كنت شديد القسوة متحجّر القلب ، لا أعطف
على بائس ، ولا أحنو على ضعيف ، فأصبحت أشعر
بالمصيبة أراها تصيب غيري ، وأتألم لبؤس البائسين
وحزن المحزونين ، لأن الحب أشرق في قلبي ،
فملأه نوراً فارتفع ذلك الستار الذي كان مسبلاً بينه
وبين القلوب .

(١) الصيقل: الصقل، من صناعته الصقل.

كنت أسمع باسم السعادة ، ولا أفهم معناها
غير أنني كنت أسمعهم إذا ذكروها ذكروا بجانبها
القصر والحديقة ، والفضة والذهب ، والسلطة
والجاه ، والشهرة والصيت ، فلما أحببت اعتقدت ألا
سعادة غير الحب ، وأيقنت أن الناس جميعاً يطلبون
سعادة الأجسام لا سعادة الأرواح ، فمثلهم كمثل
الدفين المكفّن بالحرير والدياج ، وباطنه مسرح
الدود ، ومرتع الهوام والحشرات .

(٢)

أحببتها قبل أن أعرفها ، أو أعرف شأنًا من شؤونها
سوى أنها تخبني ، فكأنني ما منحتها قلبي إلا لأنها
منحتني قلبها ، وهو ثمن قليل في جانب هذه النحة
الغالية التي ما كنت أحدث نفسي بها ، ولا كانت
تستطيع أن تمثّلها في عيني خواطر الأمانى ، ولا سوانح
الأحلام . عشتُ دهرًا طويلاً بين أقوام لا يعنيهـم أمرى ،
ولا يهمهم شأنى ، وذقت من آلام الحياة وشقاء
العيش ما لا يستطيع أن يحمله بشرٌ ، فسمعت من
يسألني كيف حالك ، ومن يقول لي ما أشدّ جزعي
لمصابك ، ومن يتباكى رحمة بي وحناناً عليّ ، ولكن
لم أر بجانبى عيناً تدمع ، ولا قلباً يخفق .

رأيت من يحبّ جمالي كما يحبّ تمثالاً متقن
الصنع ، ورأيت من يحبّ مالي كما يحبّ في كيسه
أو خزانته ، ورأيت من يعجب بحديثي كما يعجب
برواية بديعة ، ولكن لم أر في حياتي من يحبّني .

أمّا اليوم ، فقد وجدت بجانبى القلب الذي
يخفق لأجلي ، والعين التي تدمع عليّ ، والنفس
التي تخبني لا لشيء سواي ، فقليل لها مني أن
أمنحها حياتي ، فكيف أبخل عليها بقلبي ؟

(٣)

خلوت بها للمرة الأولى ، فحدثني نفسي أن
أمدّ يدي إلى يدها ، فأضعها على صدري ، لأطفيئ
بها غلتي ، فما لمستها حتى نظرت إليّ نظرة العاتب
اللائم ، وقالت : « كن رجلاً في حبك ، واترك
الطفولة لغيرك . إن كنت تخبني لنفسى ، فها أنت
قد ملكتها عليّ ، وأحرزتها دوني حتى لا أعرف لي

طويلاً ، فرأيت مدامها تنحدر من مقلتيها كأن عقداً وهي سلكه ، فانتشرت حياته ، فبكيت لبكاؤها ، وقلت : « لَمْ تَبْكِينَ ؟ » قالت : « من خوف الفراق . » قلت : « فراق الحياة أو فراق الممات ؟ » قالت : « لا أريد فراق الحياة ، فليس في هذه الكائنات من ناطقها وصامتها ما يمنعني من الوصول إليك ما دام يجمعني ولياك عالم واحد . أنا لا أخاف إلا فراق الموت . » قلت : « هل لك أن نتعاهد أن نعيش معاً ونموت معاً ؟ » فتعاهدنا ثم عدنا على أعقابنا ، والليل يشمر أذباله للفرار من وجه النهار ، ثم افترقنا على ميعاد ، وذهب كل منا لسبيله .

(٦)

أ لا يستطيع هذا الدهر الغادر أن ينأى ساعة واحدة عن هذا الإنسان ؟
أ لا يستطيع أن يسقيه كأساً لا يخالطها كدر ولا يمازجها شقاء ؟
أ لا يستطيع أن يمنعه السعادة مادام يمنحها اليوم ليسلبها غداً ؟
إن الإنسان لا يعجز عن احتمال الشقاء الدائم ، ولكنه يعجز عن احتمال السعادة المسلوقة .
يقولون إن الأمل حياة الإنسان ، وما يقتل الإنسان إلا الأمل ، فليتنى ما سعدت ، لأنني ما شقيت إلا بسعادتي ، وليتنى ما أمّلت لأن اليأس القاتل ما جاء إلا من طريق الأمل الباطل . ماتت الفتاة التي كانت شمس حياتي ، وأشعة آمالي ، وينبوع سعادتي وهنائي .

ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا بهاءً وجمالاً ، فمات بموتها كل حي في هذا الوجود .
أرى الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء ، وأرى الطير صامتة لا تغرد ، والغصون ساكنة لا تتحرك ، وأرى النجوم آفلةً والزهور ذابلة ، والطبيعة واجمة حزينة لا يفتّر ثغرها ، ولا يتلألأ جمالها ، وأرى الدنيا كأنها عادت إلى عصرها الأول لا يسكنها إنسان ، ولا يخطر بها حيوان ، وكأنتي فيها

وبالجملة كنت وحشاً ضارياً أعيى العالمين رياضته ، فصرّت بين يدي الحبّ الشريف إنساناً شريفاً ، وملكاً كريماً .

(٥)

خرجت بها الليلة إلى شاطئ النهر ، وكان الماء رائقاً والسماء صافيةً ، وفي كل منهما نجوم وكواكب تتلألأ في صفحته ، فاختلط علينا الأمر حتى ما نفرق بين الأصل والمرأة ولا ندري أين مكان الماء من مكان السماء .

فمشينا طويلاً لا يكلم أحدهما صاحبه ، كأن سكّون الليل سرى إلى أفئدتنا ، وملأ ما بين جوانحنا ، فأمسكنا عن الحديث هيبّة وإجلالاً .

وكنت أشعر في تلك الساعة بخفة في جسمي ، وصفاء في نفسي حتى كان يخيل إليّ أنني لو شئت أن أطير عن وجه الأرض لطرت بغير جناح ، وأني أستطيع أن أخترق بنظري حجاب السماء ، وأنفذ إلى الملا الأعلى ، فأرى هنالك ما هو محبوب عن نظر الناس أجمعين ، وحتى صرت أتمنى أن يفضلّ النجم سبيله فلا يهتدي إلى أفقه ، وأن يتلفع الليل بردائه ، فلا يعثر به فجره ، وأن تستمرّ مشيتنا هذه ما ضلّ النجم ، وما دام الظلام . فالتفتُ إليها ، وسألتها هل تشعر بالسعادة التي أشعر بها .

قالت : « لا ، لأنني أعرف من شؤون الأيام وأطوارها غير ما تعرف ، ولأنني لا أنظر إلى الدنيا بالعين التي تنظر بها إليها .

» أنت سعيد بالأمل ، وأنا شقية بالحقيقة الواقعة .

» إنك سعيد ، لأنك تظنّ أن سعادتك دائمة لا انقطاع لها ، وأنا شقية ، لأنني أتوقع في كل ساعة زوالها وفناءها .

» إن استطعت أن تقف الشمس في كبد السماء ، وأن تحوّل بين الأرض ودورانها ، وأن تمنع الساكن أن يتحرك والمتحرك أن يسكن ، فاضمن لنفسك استمرار السعادة ويقاءها .

وهنا أمسكت عن الكلام ، وأطرقت برأسها

آدمها يندب جنته ، ويشكو وحدته .

أيها الدهر الغادر إن غلبتني عليها ، فلن تغلبني على نفسي ، لك أن تخرج من الدنيا من تشاء ، وليس لك أن ترد إليها من يخرج منها .

ويا أيتها النفس الهائمة في سماءها لا تجزعي ، ولا تعجلي ، فوالله لأفني بعهدك ، ولأذهبن عما قليل وحشتك ، وليكونن عهدنا في مستقبلنا كمهدنا في ماضينا ، فما تعارفنا في العالم الأول إلا بأرواحنا ، فلنكن كذلك في العالم الثاني .

* * *

غدر المرأة

يقصّون في القصص الخرافية أن حكيماً من حكماء اليونان كان يحب زوجته حباً ملك عليه عقله وقلبه ، وأحاط به إحاطة الشعاع بالمصباح المتقد ، وكان يمازج هناءه الحاضر شقاء مستقبل يسوقه إلى نفسه الخوف من أن تدور الأيام دورتها فيموت ، ويُفقد من أشاركه ذلك القلب الذي كان مختبطاً باعتلاقه إلى صائد آخر يعتلقه من بعده . وكان كلما أبث زوجته سره ، وشكا إليها ما يساور قلبه من ذلك الهمّ حث عليه ، وعللته بمعسول الأمان ، وأقسمت له بكل محرّجة من الأيمان أنها لا تسترد هبة قلبها منه حياً وميتاً . فكان يسكن إلى ذلك سكون الجرح الدّرب^(١) تحت ميزاب الماء البارد ، ثم يعود إلى هواجسه ووساوسه ، حتى مرّ في بعض روحاته إلى منزله في ليلة من الليالي المقمرة بمقبرة المدينة ، فبدا له أن يدخلها ليروح عن نفسه هموم الموت بوقفة بين قبور الموت ، وكثيراً ما يتداوى شارب الخمر بالخمّر ، ويدفع الخوف الخائف إلى مبعث خوفه ، ويلدّ للجان ، وهو يرتعد فرقا ، الإصغاء إلى حديث الأفاعي وقصص الجان . فرأى

(١) دَرَبَ الْجَرَحِ: قَسَدَ وَاتَّسَعَ .

في بعض مسالكة بين تلك القبور امرأة متسلية^(٢) جالسة أمام قبر جديد لم يجفّ ترابه ، وبيدها مروحة من الحرير الأبيض مطرزة بأسلاك الذهب تحركها بمئة وسرة ، لتجفّ بها بلل ذلك التراب ، فعجب لشأنها ، وتقدّم إليها فارتاعت لمراه ، ثم أنست به حينما عرفته ، فسألها ما شأنها ، وما مقامها هنا ، ومن هذا الدفين ، وما الذي تفعل ! فأبت أن تجيبه عما سأل حتى تفرغ من شأنها . فجلس إليها ، وتناول منها المروحة ، وظلّ يساعدها في عملها حتى جفّ التراب ، فحدثه أن هذا الدفين زوجها ، وأنه دفن منذ ثلاثة أيام ، وأنها منذ الصباح جالسة مجلسها هذا ، لتجفّ تراب قبره وفاءً يمين كانت أقسمتها له في مرض موته أن لا تتزوج من غيره حتى يجفّ تراب قبره ، وأن هذه الليلة هي موعد بنائها بزوجها الثاني ، فأبى لها وفاؤها لهذا الدفين الذي كان يحبها ويحسن إليها أن تحت يمين أقسمتها له ، أو تخيس بما عاهدته عليه ، ثم قالت له : « هل لك يا سيدي أن تقبل هذه المروحة هدية مني إليك ، وجزاء لك على حسن صنيعك معي ؟ » فقبلها منها شاكرًا بعد أن هتأها بزواجها الجديد . ثم انصرف ، وليس وراء ما به من الهمّ غاية . ومشى في طريقه مشية الرائع النشوان يحدث نفسه ، ويقول إنه أحبها ، وأحسن إليها ، فلما مات جلست فوق قبره ، لا لتبكيه ، ولا لتذكر عهده ، بل لتتحلّل من يمين الوفاء التي أقسمتها له ؛ فكأنها وهي جالسة أمام زوجها الأول تعدّ عدد الزواج من زوجها الثاني ، وكأنما اتخذت من صفائح قبره مرآة تصقل أمامها جبينها ، وتصفّف طرتها ، وتلبس حليتها بين سمعه وبصره للزفاف إلى غيره !

وما زال يحدث نفسه بمثل ذلك حتى رأى نفسه في منزله من حيث لا يشعر ، ورأى زوجته ماثلة أمامه مرتاعة لمنظره المحزن ، فقال لها : « إن امرأة خائنة غادرة أهدت إليّ هذه المروحة ، فقبلتها منها لأهديها إليك ؛ لأنها أداة من أدوات الغدر والخيانة ، وأنت

(٢) مُتَسَلِّية: كَيْسَتِ السَّلَابَ؛ وهو ثوبٌ يلبس في الجناد .

فأنساها الحزنُ على المريض المشرف الحزنَ على الفقيدها الهالك ، وعناها أمره ، فلم تترك وسيلة من وسائل العلاج إلا توسلت بها إليه حتى استفاق ، ونظر إلى طبييته الراكعة بجانب سريره نظرة الشكر والثناء ، ثم أنشأ يقصُّ عليها تاريخ حياته ، فعرفت من أمره كل ما كان يهمها أن تعلمه ، فعرفت مسقط رأسه ، وصلته بزوجها ، وأنه فتى غريب في قومه لا أب له ، ولا أم ، ولا زوجة . وهنا أطرقت برأسها ساعة طويلة عالجت فيها من هواجس النفس ونوازعها ما عالجت ، ثم رفعت رأسها ، وأمسكت بيده ، وقالت له : « إنك قد نكلت أستاذك ، وأنا نكلت زوجي ، فأصبح همتنا واحداً ، فهل لك أن تكون عوناً لي ، وأن أكون عوناً لك على هذا الدهر الذي لم يترك لنا مساعداً ولا معيناً ؟ » فألمَّ بما في نفسها ، فابتسم لها ابتسامة الحزن والمضض ، وقال لها : « من لي يا سيدتي أن أكون عند ظنك بي ، وهذا المرض الذي يساورني ، ولا يكاد يهدأ عني قد نغص عليّ عيشي وأفسد عليّ حياتي ، وقد أُنذرتني الطبيب باقتراب ساعة أجلي إلا أن تدركني رحمة الله ، فاطلبي سعادتك عند غيري ، فأنت من بنات الوجود ، وأنا من أبناء الخلود . » فقالت له : « إنك ستعيش ، وسأعالجك ، ولو كان دواؤك بين سحري ونحري . » قال : « لا تصدقي يا سيدتي ، فأنا عالم بدوائي ، وعالم بأنني لا أجد السبيل إليه . » قالت : « وما دواؤك ؟ » فامتنع عليها هنيهة لا يجيبها ، فلما أعياه إلحاحها قال : « حدثني طبيبي أن شفائي في أكل دماغ ميت ليومه ! ولقد علمت أن ذلك يعجزني ، فأُسجلتُ أن لا دواء لي ولا شفاء . » فارتعدت وشحب لونها ، وأطرقت طويلاً ثم رفعت رأسها هادئة ساكنة ، وقالت : « لا أزال أقول لك إنني سأعالجك ، وإن كان دواؤك في ذهاب نفسي . ثم أمرته أن يأخذ قسطه من الراحة ، وخرجت من الغرفة متسللة حتى وصلت إلى غرفة سلاح زوجها ، فأخذت منها فأساً ، ثم مشت تختلس خطواتها اختلاساً حتى وصلت إلى غرفة الميت ، ففتحت الباب فلار على عقبه وصراً صريعاً مزعجاً ؛ فجمدت في

أولى بها مني . » ثم أنشأ يقصُّ عليها قصة المرأة حتى أتى عليها ، فغضبت وانتزعت المروحة من يده ، ومزقتها ، وأنشأت تسبُّ تلك المرأة ، وتنعى عليها غدرها وخيانتها ، وتلقبها بأفحش الألقاب وأقبحها ، ثم قالت : « أ لا يزال هذا الوسواس عالقاً بصدرك مادمت حياً ؟ وهل تحسب أن امرأة في العالم ترضى لنفسها بما رضىت به لنفسها تلك المرأة الغادرة ؟ » فقال لها : « إنك أقسمت لي ألا تتزوجي من بعدي ، فهل تفين بعهديك ؟ » قالت : « نعم ، ورماني الله بكل ما يُرمى به الغادر إن أنا غدرت ؟ » فاطمأن لقسمها ، وعاد إلى راحته وسكون .

مضى على ذلك عام ، ثم مرض الرجل مرضاً شديداً ، فعالج نفسه ، فلم يجد العلاج حتى أشرف ، فدعا زوجته ، وذكرها بما عاهدته عليه ، فادكرت . فما غربت شمس ذلك اليوم حتى غربت شمسها ، فأمرت أن يُسجى في قاعته حتى يُحتفل بدفنه في اليوم الثاني ، ثم خلت بنفسها في غرفتها تبكي عليه وتندبه ، وإنها لذلك إذ دخلت عليها الخادم ، وأخبرتها أن فتى من تلاميذ مولاهما حضر الساعة من بلدته لما سمع بأمر مرضه ، وأنها حدثته حديث موته ، فصعق في مكانه حزناً ووجداً ، ولا يزال عند باب المنزل مطرحاً لا تدري ما تصنع في أمره ! فأمرتها أن تذهب به إلى غرفة الأضياف ، وأن تتولى شأنه حتى يستفيق ، ثم عادت إلى بكائها ونحيبها ، فلما مرَّ الهزيع الثاني من الليل دخلت عليها الخادم مرة أخرى مرتاعة موهمة ، وهي تقول : « رحمتك وإحسانك يا سيدتي ، فإن ضيفنا يعالج من آلامه وأوجاعه عذاباً أليماً ، وقد حرت في أمره ، وما أحسبه إن أغفلنا أمره ساعة واحدة إلا هالكا . » فراعها الأمر ، فقامت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفة المريض ، فرأته مسجى على سريره ، والمصباح عند رأسه ، فاقتربت منه ، ونظرت في وجهه ، فرأت أبداع سطر خطته يد القدرة الإلهية في لوح المقادير ، فتخيلت أن المصباح الذي أمامها قيس من ذلك النور المتلألئ في ذلك الوجه المنير ، وتمثلت كأن أنيه نغمة موسيقية محزنة ترنُّ في جوف الليل البهيم ،

عواصف البادية ، ولم تلوّثه الإبلُ والأبقار بأبوالها وأرواثها ١٩

أ ليس من الظلم المبين ، والغبن الفاحش أن تضيق حاجاتهم عن لغتهم ، فيتفكهوا بوضع خمسمائة اسم للأسد ، وأربعمائة للداهية ، وثلاثمائة للسيف ، ومائتين للنحية ، وخمسين للناقة ، وتضيق لغتنا عن حاجتنا ، فلا نعرف لأداة واحدة من الآلاف المؤلف من أدوات العمل الواحد اسماً عربياً إلا قليلاً من أمثال المسير ، والمبرد ، والمنشار ، والمسمار ١٩

أ يكون لسفينة البر ، وهي لا تحمل إلا الرجل أو الرجلَ وديقته مائتا اسم ، ومئين من الأسماء لأعضائها وأوصالها ورحلها وكورها ، ولا يكون لسفينة البحر ، وهي المدينة المتنقلة في الدماء قليل من ذلك الحظ الكثير ١٩

كان لعرب الجاهلية الأولى مؤتمر لغوي يعقدونه في كل عام بالحجاز بين نخلة والطائف ، يجتمع فيه شعراؤهم وخطباؤهم ، يتناشدون ، ويتساجلون ، ويتحاورون ، ويعرضون أنفسهم على قضاة من نوابغهم يوازنون بينهم ، ويحكمون لميزهم على مقصرهم حكماً لا يرد ولا يعارض . ولقد شعروا بضرورة عقد هذا المؤتمر عندما أحسوا بتفرق لغتهم بين اليمن والشام ، ونجد ونهامه ، لصعوبة التواصل في تلك البقاع ، وتعد ما بين قاصيها ودانيها ، فكان مطمح أنظارهم في ذلك المجمع توحيد لغاتهم ، وجمع شتاتها والرجوع بها جميعها إلى لغة قريش التي هي أفصح اللغات ، وأقربها مأخذاً ، وأسهلها مساغاً ، وأحسنها بياناً .

أ يقدّر هؤلاء العجزة الضعفاء في جاهليتهم الأولى على ما نعجز عنه نحن ١٩ ونحن إلى مؤتمرهم أحوج منهم إليه ؛ لأن تفرق اللغات في عصرهم لا يمكن أن يبلغ مبلغ تفرقها في عصرنا بين لغات العامة المتباعدة ، ولغة العلماء ، ولغة الدواوين ، ولغة القصاصين ، ولغة الصحافيين .

إن كان الجاهليون في حاجة إلى مجمع لتوحيد اللغات المتفرقة ، فنحن في حاجة إلى مجتمعات

مكانها ، وقد امتلأ قلبها رعباً وخوفاً ، وذهبت بها الظنون كل مذهب ، ثم عادت إلى سكونها ، فتقدمت لشأنها حتى دنت من السرير ، ورفعت الفأس ، وماكادت تهوي بها حتى رأت الميت فاشتكا عينيه ينظر إليها ، فسقطت الفأس من يدها ، وسمعت حركة وراءها ، فالتفتت ، فرأت الضيف وال خادم واقفين يتضاحكان ففهمت كل شيء .

وهناك تقدم إليها زوجها وقال لها : « أ ليست المروحة في يد تلك المرأة الغادرة أجمل من الفأس في يدك ١٩ أ ليست التي تجفف تراب قبر زوجها بعد دفنه أفضل من التي تكسر دماغه قبل نعيه ١٩ » فصارت تنظر إليه نظراً غريباً ، ثم شهقت شهقة كانت فيها نفسها .

* * *

الضاد

إذا كان العرب الأولون يعبرون بالرأس عن مئين من الأعضاء والعظام ، والأعصاب والشرابين ، فلم لا نعبر نحن بالضاد عن ثمانية وعشرين حرفاً (١) ؟ ونحن عرب مثلهم تجري في عروقنا دماؤهم ، كما تجري في عروقهم دماء آبائهم من قبل ، فسهمنا في الضاد سهمهم ، وحققنا فيها حقهم ، فلم يضعوا الألفاظ للتفاهم والتخاطب ، ولا نضعها مثلهم لمثل ما وضعوا وحاجتنا أكثر من حاجاتهم ، ومرافقنا أوفر عدداً من مرافقهم وأوسع فصولاً وأنواعاً ؟

أين باديتهم الخلاء الجرداء المقفرة المصفرة إلا القليل من الخيام المبعثرة بين معادن الإبل ، ومراتع الشاء ومرابض الوحش ، ومغاور الجن ، من مدائننا الفاخرة الزاخرة الحافلة بصنوف الموجودات ، وأنواع الآلات والأدوات ، وغرائب المصنوعات والمنسوجات ، وأكثرها مستحدثت مستطرف لم تعبر في وجهه

(١) أي أنه لا مانع من أن تسمى اللغة العربية بالضاد ، وهي مهما تعددت كلماتها لا تخرج عن حروف الهجاء .

ترحيب العشاق ، يوم التلاق ، بعد طول الفراق ،
ويسمون له ابتسام الرياض الزاهرة ، للسحب الماطرة ،
وقد ذهبوا في شأنه المذاهب كلها ، فمن صاعد إلى
رؤوس الجبال ، وسارب في سهول الرمال ، و واقف
موقف الإعجاب والإجلال ، بين جمال الأنوار وأنوار
الجمال ، ومقلب طرفه بين حسن الزهرات ، وحسن
الفتيات ، لا يعلم أ تشبه القامات الغصون ، أم
الغصون القامات ؟

ذهب الناس في ذلك اليوم تلك المذاهب ، وما
كان لي أن أذهب مذهبهم ، لأنني لا أعجب بما
يعجبون ، ولا أمر بما يسرون ، فقيعت في كسر بيتي
أبحث عن ضالة خيال أجد فيها من السعادة والهناء ،
ما يجده الهائمون بين ثغر الحسناء ، و ثغر الصهباء ،
فلمحت بجاني كتاب بلاغة الغرب - وهو الكتاب
الذي ترجمه بعض فضلاء الكتاب ، وجمع فيه
نفائس اللغة الفرنسية ، وزبدة ما جادت به قرائح
كتّابها وشعرائها ، فقلت : « حسبي من الرياض هذه
الزهرات ، ومن التسمائم تلك النفحات ».

خطوت الخطوات الأولى من سياحتي في هذا
الكتاب ، فرأيتني واقفاً تحت نافذة قصر اللوفر في
باريس ، ورأيت الناس وقوفاً في ذلك الميدان القسيح ،
وقد ماج بعضهم في بعض ، حتى ضاقت بهم رقعة
الأرض ، ورأيتهم يمدّون أعناقهم إلى تلك النافذة ،
وينظرون إليها نظر المنجم في الأسطرلاب ، ويرقبون
منها ما يرقب الروض من غادية السحاب ، وإنهم
لكذلك ، وإذا نابليون الأول قد أطل من نافذة قصره ،
كما يطل البدر من وراء الأفق يحمل بين يديه طفله
الصغير كما يسميه الناس ، وملك رومة كما يسميه
أبوه ، فضج الناس لمطلعه ضجيجاً ملاً مسمع
الخافقين ، وابتسموا لمראה ابتساماً أضاء ما بين
المشرقين والمغربين ، وهنا سمعت الشاعر الكبير^(١)
يخاطب ذلك الملك العظيم بصوت يشبه صوت البحر
الزائر قاتلاً له :

« رويدك أيها الرجل المغرور بالتاج والسرير ،

كثيرة ، مجتمع لجمع المفردات العربية المؤثرة
جميعها ، وشرح أوجه استعمالها الحقيقية والمجازية
في كتاب واحد يقع الاتفاق عليه والإجماع على
العمل به ، ومجتمع دائم لوضع أسماء للمسميات
الحقيقية سواء كانت أعياناً أو معاني بطريق التعريب أو
النحت ، أو الاشتقاق الكبير أو الصغير ، وآخر
للإشراف على الأساليب العربية المستعملة ، وتهذيبها
وتصفيتها من المبتذل الساقط والمستغلق النافر ،
والوقوف بها عند الحد الملائم للحصر الحاضر ،
ولأذهان المعاصرين ، وآخر للمفاضلة بين الكتاب
والشعراء والخطباء ، ومجازاة المبرز منهم والمقصر ، إن
خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* * *

سياحة في كتاب

أعجب ما أعرف من أمر نفسي ، أنني أحب
الجمال خيلاً أكثر مما أحبه حقيقة ، فيعجبني وصف
الروض أكثر مما يعجبني مرأه ، ولا أطرب لمنظر
الفتيات الجميلات ، طربي لمنظر القصائد الغزليات ،
وأحب أن أسمع وصف المدن الجميلة ، وأن أقرأ ما
يكتبه الكتّابون عن رياضها ومنازلها ، وقصورها
ودورها ، وسهولها وبطاحها ، وأنهارها وجداولها ،
وميادينها وتمائيلها ، وأنديتها ومجامعها ، ولا يهمني
أن أراها ، كأنني أريد أن أستديم لنفسي تلك اللذة
الخيالية ، وأخاف أن تحول الحقيقة بيني وبينها ،
وأحسب أنني لو كنت عاشقاً لأصبحت أضحوكه
العاشقين ، وأعجوبة الهازئين والساخرين ، وكان
يكون مثلي مثل ذلك الرجل الذي أحب امرأة ،
فاستزارها فمانمته حيناً ، ثم زارته ، فلما رآها تركها
وذهب لينام ، فعجبت لشأنه وسألته ما باله ؟ فقال
لها : « أريد أن أنام علني أرى طيفك في المنام »

جاء يوم شم النسيم ، فخرج الناس إليه يستقبلونه
استقبال الجيش المدسج ، للملك المترج ، ويرحبون به

(١) فيكتور هوجو .

أرسلتُ فيها قطراتٍ من الدموع على هذا البائس المسكين ، وقلت في نفسي : « إنني قد عجزت عن إسماعه في نكته ، ومعونته في شدته ، فلا أقلُّ من أن أسعده بقليل من الزفرات ، ووشل^(٢) من العبرات . » ثم فارقه ومشيت حتى بلغت منزل الشاعر لامارتين ، فرأيت جالساً في غرفته ، وليس معه في منزله من يؤنسه غير كلبه ، فسمحته يخاطبه ، ويقول له :

« أيها الكلب الأمين ؛ قد هجرني الناس وبقيت بجاني ، وخانني الأصدقاء وفيت لي ، فأنت في نظري أوفى الأوفياء ، وأصدق الأصدقاء ، ولولا أنك كريم الأخلاق متواضع تأبى إلا أن تعرف لسيدك منزلته من السيادة عليك ، وتحفظ له فضل ما أسدى من النعمة إليك لأكبرتُ جلستك هذه عند عتبة الباب ، ولأجلستك بجاني ؛ لأنك صديقي ، ومؤنسي ، ولأنك أحقُّ بالإكرام من كثير من أولئك الذين يفترون الطنافس^(٣) ، ويتوسدون الوسائد ، حسبي منك نظراتك التي تنظر بها إليّ بودٍّ وإخلاص ، كأنني أشعرُ حينما أراك تحذق بي أنك تفتش عن سريري في أسرتي ، وتقرأ في صفحة وجهي ما غاب عنك من دخيلة أمري ، وكأنني أسمعك تقول : « ما باله ! وما شأنه ! وما الذي يحزنه وما الذي يكيه ؟ » حسبي منك ذلك ، وهل يجد الإنسان من أوفى أصدقائه أكثر مما أجده في لفتاتك ، وألمحه في نظراتك من الاهتمام بأمري والعناية بشأني والحزن لحزني ، والبكاء لبكائي . »

سمعت لامارتين يناجي كلبه بهذا النجاء الرقيق ، فانسلت وذهبت لشأني ، وأنا أقول في نفسي :

« إذا كان لامارتين ، وهو أشعر شاعر في فرنسا - وفرنسا مهبطٌ وحي الشعر - لم يجد صديقاً وفياً غير كلبه المقيع على عتبة غرفته ، فأين يذهب سائر الشعراء ؟ ومتى يجدون الأصدقاء ؟ »

(٢) الوشل: القليل من الدمع .

(٣) الطنافس: البساط .

والملك الكبير ، والجيش الخاضع ، والشعب الطائع . أنت تقدّر لطفلك في مستقبل الأيام ملكاً كملكك ، ومجداً كمجداك ، وعزاً وسلطاناً كعزك وسلطانك ، غير عالم بما تكتمه ضمائر الأيام ، من الحوادث العظام ، والخطوب الجسام . هل أخذت على الأيام عهداً لنفسك فتأخذ لولدك ؟ وهل وثقت بما في يدك ، فتثق بما في يد غيرك ؟

« أيها الملك المغرور ؛ إنك ستفارق عمّا قليل هذا القصر الكبير ، إلى ذلك الكوخ الحقيق ، وسيحيط بك الجند في منفاك إحاطة الإخضاع والإذلال ، لا إحاطة الإعظام والإجلال ، وسيموتُ ولدك محروماً هذا العرش الذي هيأته له ، بل محروماً بضعة أشبار من تربة فرنسا يضطجع فيها ضجعة الموت . »

« أيها الملك المغرور ؛ لا تقل إن المستقبل لي ، فإنما المستقبل لله . »

تركتُ هذا الموقفَ الفخمَ الجليل ، وقد امتلأتُ نفسي عبرة بمصائر الأيام ، ومصارع الكرام ، وتقلبات الدهور ما بين رفع وخفض ، وإبرام ونقض . ومشيتُ حتى وصلتُ إلى بركة جرداء ، ودوية^(١) قفراء ، لا يطرُقها إنسان ، ولا يدب بها حيوان ، فلمحتُ على البعد رجلاً يمشي على شاطئ بحر فوق أرض رملية يخدع ظاهراً ، ويقتل باطنها ، ويدب الماء في أحشائها ديب الصهباء في الأعضاء ، ويكمن في صدرها كمون الأسرار في صدور الأقدار .

فما هي إلا بضعة خطوات ، حتى رأيت الرجل المسكين وقد غاصت قدماه في الرمل ، فحاول نزعهما فغاص إلى ركبتيه فتحلحل فغاص إلى صدره ، وما زال يساعد على نفسه بمنازعته ومحاولته حتى لم يبق له فوق ظهر الأرض غير فم يصرخ بالنداء ، وعين تذرف بالبياء ، ثم ما لبث أن غطاهما الرمل فرفع يديه بالنداء ، فلم يجد من رحمة في الأرض ولا في السماء .

وقفت بين يدي هذا المشهد المؤثر المحزن وقفة

(١) الدوية: القلاة الواسعة .

هذه الغضون عن تلك الجهة التي تجود عليكم كل يوم بما يفرّج كربتكم ، وينعش نفوسكم ١٩» ثم رجعت أدراجي ، وأنا أقول : «كأنّ قضاءً حتماً على الدهر ألا ينيل هؤلاء الأدباء من دهرهم ما يريدون ، ولا يمنحهم من العيش ما يشتهون .»

إن في جلسة لامارتين منفرداً في منزله لا مؤنس له غير كلبه ، وفي عزلة دي موسيه في غرفته وخلوته بيكائه ونحيبه ، وفي ضجعة كورني أمام حانوت الإسكاف لآية للمتفكرين ، وعبرة للمعتبرين .

الآن عدت من سياحي في ذلك الكتاب أشكر للكاتب ما كتب ، وللمترجم ما ترجم ، وأقول : « من لي في كل يوم بسياحة مثل هذه السياحة في كتاب مثل هذا الكتاب ١٩»

* * *

دعوة على الأدب

مات بالأمس إمام الشعر البارودي ، وإمام النثر محمد عبده ، فجزعنا ما جزعنا ، وسكبنا عليهما من الدموع ما سكبنا ، ثم كشفنا من تلك الدموع ، وخففنا من زفرات الضلوع ، حينما سمعنا قول القائل إنّ في الباقي عزاءً عن الفاني ، وإنّ في الأبناء خلفاً من الآباء . ولقد كرّر على عهدهما الشهر بعد الشهر ، والدهر إثر الدهر ، والأدب جاثٍ في مكمنه جائئ ، لم يُبعث من مرقده بعدما قبرناه ، ولم ينشر من قبره بعدما واريّناه ، فتساءلنا أين الباقي الذي يزعمون ، والخلف الذي يذكرون ؟

أين فطاحل اللغة الأدبية لا السياسية ، وأرباب الأقلام العربية لا الأعجمية ؟

عذرنا المويلحي الكبير ، واليازجي ، لأنهما ماتا ولحقا بصاحبيهما ، فهل مات شرقي ، وحافظ ، والبكري ، والمويلحي الصغير ؟

ما مات منهم أحد ، وإنما كانت حياة الرجلين

تركت منزل لامارتين وذهبت إلى منزل دي موسيه ، فرأيتته معتزلاً في غرفة من غرف منزله بيكي بكاءً مرّاً ، ويزفر زفيراً تكاد تتقطع له أحشائه ، فقلت :

« ليت شعري ما أبكاه ، وما الذي دهاه ١٩» فسمعت يترنم بقصيدة من قصائده يشرح فيها تاريخ وجده وهواه شرحاً مؤثراً مؤلاً ، حتى خيل إليّ أن كل بيت من أبياتها جدوة نار ملتبهة ، وسمعت يشكو فيها من خيانة حبيبته « جورج صائد » ، ويعالج نفسه على أن يسلوها ، ويتناسى عهداً وذاً ، فلا يجد إلى ذلك سبيلاً ، وما هو إلا أن أتم قصيدته حتى تغير لونه ، وشخص بصره واضطرب اضطراب الأغصان اليابسة ، بين أيدي الرياح العاصفة ، ثم أخذ يهذي هذيان المحموم ، ويخلط في كلامه خلطاً شديداً ، فعلمت أن الرجل قد جنّ ، وأن العالم الشعري قد فجع فيه ، فمضيت لسبيلي وأنا أسأل الله العافية ، وأقول : « إن جمال المرأة أحقر من أن يقتل أوفر عقل ، وأعجز من أن يطفئ أكبر قريحة ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا وأمر الغيب سرّ محجّب .»

تركت منزل دي موسيه ، ومشيت في شارع من شوارع باريس ، فرأيت شيخاً رث الثياب زري الهيئة يمشي مشيةً هادئةً مطمئنة ، ويجرّ في رجليه نعلًا بالية قد أطلت أصابعه من خروقتها ، كما تطلّ الحيات من أحجارها ، فأبعتته نظري ، فرأيت لا يرفع طرفه سكوناً وإطرافاً ولا يحرك عضواً من أعضائه رزاةً ووقاراً ، فقلت في نفسي : « إن لهذا الرجل شأنًا !» فمشيت وراءه حتى رأيته قد وقف على باب حانوت إسكاف ، فلم يجد صاحب الحانوت في مكانه ، فجلس على الأرض ينتظره حتى يعود ، فيخفف له نعله ، فسألت بعض المارة عنه فقال : « هذا كورني شاعر فرنسا .» فأخذتني الدهشة ، وملكني العجب حتى كاد يحول بيني وبين عقلي ، فقلت في نفسي : « ويحّ لكم معشر الناس ، أترضون بقطعة من الجلد الأسمر ، على رجل يقلّد أعناقكم الدرّ والجوهر ١٩» أ عجزتم عن أن تجمعوا أمركم على أن تمسحوا

لما أَسْنُ عَمْرُ بن أبي ربيعة ، ورأى أن الغزل
والتصاني غير لائق بشيبي ووقاره ، عزم على هجره ،
فما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وغلب على أمره كما
يُغلب المرء على غرائزه وسجاياه ، فاحتال لذلك بأن
حلف ألا يقول بيتا من الشعر إلا أعتق رقبة ، فشكا
إليه رجل حباً برح به ، فحنّ واحتاج ، ونظم أبياتاً في
شأن الرجل ووجدته ، ثم أعتق عن كل بيت رقبة .

فهل نذر أدباؤنا ما نذر عَمْرُ بن أبي ربيعة ، وهم
في شرح الشباب وإبان الفتوة ؟ إن كانوا فعلوا
ذلك ، فأسأل الله لهم قصة كقصة عمر تهيجُ
أشجانهم فتحتُ أيمانهم ، والأمة كفيلة لهم بوفاء
النذور ، وكفارات الأيمان .

و ذو الشوق القديم وإن تعزى

مشوق حين يلقى العاشقين

* * *

الصحافة

« يا صاحب النظرات :

« أنا عامل من العمال في دائرة من دوائر
الحكومة أتناول منها في كل شهر عشرة ذهباً ، وقد
أشار عليّ بعض الذين يعتقدون أنني صاحب قلم أن
أستقيل من ذلك العمل وأشتغل بالصحافة ،
وحججهم في ذلك أن الصحفيّ يخدم أمته أكثر
مما يخدمها غيره ، وأنه يربح من المال أكثر مما يربح
سواه ، وقد أوشكت أن أصغي لقولهم ، وأعمل
برأيهم فماذا ترى ؟

« أشّر عليّ برأيك ، فقد أصبحت أعتقد أنك
أعقل الكتاب ، وأكثرهم إخلاصاً ، والسلام .

« موظف »

أيها الرجل لا تفعل ، فإنك إن فعلتَ خسرتَ
ماضيك من حيث لا تنفك مستقبلك ، فاحذر أن
يخدعك عنك خادع ، وارياً بنفسك أن تكون من

حياة الصناعتين ، وكان لوجودهما سرّ من الأسرار
ينبعث في الألسنة فيطلقها ، والأقلام فيجريها ،
وكانت منزلتهما من الأحياء منزلة الأم من مصايح
الكهرياء ، تشتعل المصايح بتيارها ، وتضيء
بأسرارها ، فإذا فرغت مادتها وانقضى أجلها ؛ عمّ
الظلام واشتدّ الحلك ، والمصايح كما هي جسم بلا
روح ، ولفظ بلا معنى .

أما شوقي ، فقد طار في جو غير هذا الجو ، وهام
في وادٍ غير ذلك الوادي ، ومازالت تعبت به الأنواء ،
حتى أغرقته في شبر من الماء ! وأما حافظ ، فقد
انقضت حياته النثرية قبل انقضاء البؤساء^(١) ، أما
حياته الشعرية ، فلم يبق منها غير نظم المقالات
السياسية من العام إلى العام ، وأين هذه القيّارة
البسيطة ذات اللحن الواحد من ذلك العود الأجوف
الرتان الذي كنا نسمع منه مختلف الألحان ، وأفانين
الأشجان ؟ وأما البكري ، والموليحي ، فقد قضيا حق
التأليف هذا بصهاريج^(٢) ، وذلك بفتراته^(٣) ، ثم
لحقا بالسابقين ، ومضيا على أثر الماضين .

أين سكانك لا أين لهم

أ حجازاً أو طينوها أم شاما

أين الروضة الغناء التي كنا تنفياً ظلّالها ، ونهصر
أغصانها ، ونقطف ما شطنا من ورودها ورياحينها ؟
وأين البلابل التي كانت تتنقل بين أشجارها ، فتطرب
بالأغاريد ، وتستهوئ بالأناشيد ؟

فاسألنها واجمل بكاك جوابا

تجد الدمع سائلاً ومجيباً

أنا لا أعجب لشيء عجبي لهؤلاء الأدباء ،
يحزنون فلا يكون ، ويَطربون فلا يضحكون ، ويتألمون
بلا أنين ، ويعشقون بغير حنين .

أ يطرب البلبل فيغرد ، ويشجى الحمام فينوح ،
ويطرب الشاعر ويشجى الكاتب ، فلا ينطق لسانهما
ولا يهتز قلمهما ١٢

(١) رواية للشاعر الفرنسي فيكتور هوجو .

(٢) هو كتاب صهاريج اللؤلؤ للسيد البكري .

(٣) هو كتاب « فترة من الزمن للمسي عيسى بن هشام »
لمحمد إبراهيم الموليحي .

الجاهلين !

إنك لن تستطيع أن تكون صحافياً رابحاً إلا إذا كنت صحافياً كاذباً ، فإن كانت منزلة الأخلاق عندك دون منزلة المال ، فامض لشأنك .

أنت في مستقبل أمرك بين التنتين ، إما أن تكون صاحب الصحيفة ، أو أحد المحررين فيها .

فإن كنت الأول ، فأنت بين خاصة لا يرضيهم إلا أن تصعد عندهم ، وعامة لا يعجبهم إلا أن تهبط إليهم . فإن صعدت إلى الأولين هلكت ، لأن الخاصة هم الأقلون عدداً والأقلون مالاً ، وإن نزلت إلى الآخرين خسرت ، لأن العامة يعضون الحقيقة ، ويعضون لأجلها المحققين . وإن وقفت في منزلة بينهما ، سخط الفريقان عليك وإرتابا بك ، وأقسما جهد أيمانهما أنك من المرائين المتقلبين ، وإن كنت الثاني ، فسيبتليك الله برئيس يخرج صدرك بمقترحاته ، ويجرح قلبك بمؤاخذاته ، ويطلب عندك من الرأي والفهم والأسلوب والنسق ما عند نفسه ، وهيئات أن يجد عندك ما يريد منك إلا إذا صح مذهب التمسك ، واستطاعت نفس كل منكما أن تتسرب في أطواء صاحبها ، وتتلاشى فيها .

ذلك إلى ما يبرزوك به كل يوم من الوقوف بينك وبين عقلك ، فيستكتبك ما يريد ، ويحول بينك وبين ما تريد ، فكأنما يعمد إلى عقلك - وهو أئمن من الجوهر - فيبتاعه منك بـلقيمات لا تكاد تقيم بها صلبك ، وكأنما إدارة الجريدة التي تعمل فيها آلة ميكانيكية أنت فيها عمود يدور اضطراراً ، لا إنساناً يتحرك اختياراً .

إن هؤلاء الكاتبين الذين تراهم جلوساً على مقاعدهم في إدارات الجرائد المصرية ، أسوأ الناس حظاً ، وأعظمهم شقاء ، يكتب أحدهم في الصباح ما يستحي له في المساء ، ويقول في المساء ما يكتب غيره في الصباح ، ويظل طول حياته كرة تعلقها الأحزاب في أنديتها ، والجرائد في إداراتها ، ولقد يكتب أحدهم الرسالة يذيب فيها دماغه ، ويريق فيها غصارة مخه حتى إذا استوت له ، وظن أن قد بلغ من

الإحسان غايته ، رفعها إلى رئيسه ، فما هو إلا أن يقرأها ، ويرى فيها مدح من لا يحب ، أو نقد ما لا يكره حتى يرمي بها وجهه ، ويردّها عليه ردّ المبتاع على البائع سلعته ، فيعود بها باكياً مستعبراً ، ولا يعلم إلا الله ما يلّم بقلبه في تلك الساعة من الحزن على حياة كلها نفاق ورياء ، وذلّ وضرع ، يتلمس فيها عقله فلا يجده ، لأن الصحافة قد ملكته عليه ، وسلبته إياه ، ويسائل عن فهمه وإدراكه ، فلا يهتدي إليهما ، ولا يعرف لهما وجوداً خاصاً بهما ، لأنه أصبح لا ينطق إلا بلسان غيره ، ولا يكتب إلا بقلمه .

لولا أن الله سبحانه وتعالى صنع لهؤلاء المحررين ، فرحمهم بتلك البساطة التي أودعها عقول السواد الأعظم من هذه الأمة ، لما وجدوا في الناس من يسمع لهم قولاً ، أو يعتمد لهم رأياً .

من ذا الذي يحفل بفكرة يعلم أنها لم تخالط قلب الكاتب ، ولم تمتزج بأجزاء نفسه ، ولم تلتهم مع ما يعرف له من أخلاقه وطباعه وميوله وأهوائه ، وما هي إلا طريدة من طرائد الحاجات ، وصنيفة من صنائع الحوادث ، تعرض ثم تزول كما تعرض وتزول نقائضها وأضدادها ، كالأمواج يأخذ بعضها برقاب بعض ، وتخلّ أخراها محلّ أولاه ؟

من ذا الذي يحفل بفكرة كاتب يحرق في « المؤيد » اليوم ، فينتقد « اللواء » وكاتبه ، ويحرق في « اللواء » غداً ، فيدّم « المؤيد » وصاحبه ، حتى إذا صار إلى « الجريدة » ذم الجريدتين ، واستهجن الخطتين ؟

أنا لا ألوم المحررين على تقلبهم في المذاهب ، واضطرابهم في الآراء ، ولا ألوم أصحاب الصحف على وقوفهم في حياتهم هذه المواقف التي ساقهم إليها العيش ، ونزولهم تلك المنازل التي ألقتهم فيها يد الحاجات ، وإنما ألوم الأمة على استهانتها بأدبائها ، واحتقارها لكتابها ، وأنها لا تقيم من الوزن لحملة المحابر والأقلام ، ما تقيم لحملة المزامير والعيدان ، حتى إنك لترى الرجل الذي لا

بأس بعقله وليّه ، وفهمه وإدراكه ، يسهل عليه أن يمنح مائة دينار لمغن واحد غنى له صوتاً واحداً في ليلة واحدة ، ولا يسهل عليه أن يمنح مائة قرش لجمعية من جمعيات التأليف والنشر في كل عام ، وثره ينفق في العام على مسح نعاله عشرة دنائير ، ولا ينفق واحداً منها على مجموعة ثمينة مؤلفة من كتاب « التربية الاستقلالية » و « روح الاجتماع » و « اليأس » و « سرّ تقدم الإنجليز » و « تحرير المرأة » و « عيسى بن هشام » .

إني أتمنى على الله الغنى ، لا لأنني في حاجة إلى المال ، فقد رزقني الله منه مالا يغنيني أن أطلب لنفسني من بعده مزيداً ، بل لأجمع خمسة من كتاب هذه الأمة ، وخمسة من شعرائها ، وعشرة من علمائها في منزل واحد ، وأسبغ عليهم وعلى عيالهم من نعمة العيش ، ونعمة المال ما تُلجّج به صدورهم ، وتطمئن به نفوسهم ، ثم أقول لهم : « دونكم هذه الأمة فاكتبوا لها من الرسائل ، وانظّموا لها من القريض وآلفوا لها من الكتب ما تعلمون أنه يأخذ بضربها ، ويطيّر بها من قرارة الجهل إلى سماء العلم . وكونوا فيما تأخذون به أنفسكم أحراراً غير مقيدين ، وطلقاء غير مأسورين ، لا يُزعجكم عن مكانكم مُزعج ، ولا يكدر صفاءكم مكدر ، ولا يُجلكم عن أمركم مُعجل ، ولا يصدّكم عن سبيلكم خوف من كساد بضاعتكم ، أو حذر من هياج الجاهلين عليكم . ثم أعمدُ إلى نفثات أقلامهم ، فأثرها على رؤوس الناس نثرًا من حيث لا أبتغي لها ثمنًا ، أو أطلب عليها أجرًا غير ذلك الأجر الذي يدخره الله في دار جزائه لعباده الصالحين . فليت شمري ! هل يمنحني الله طلبةً ، أو يلهم قوماً من الأغنياء فكري ، فيتم للأمة على يد تلك الجمعية العلمية الأدبية الحرة في عملها المستقلة برأيها في عشرة أعوام ما لا يتم لها على يد هؤلاء الصحافيين المقيدين ، والمؤلفين المغلولين في عشرة أعوام ؟

أمنية شغفت روعي بها زمناً

واليوم أحسبها أضغاث أحلام

* * *

التمائيل

جاءني الكتاب الآتي من حضرة الكاتب الفاضل محرّر جريدة « ثمرات الفنون » ببغروت ، وقد ناشدني الله أن أنشره بنصّه ، فلم أربأُ من تلبية طلبه ، وها هو :

« سيدي المنشئ الفاضل :

« أحبيك بتحية الإسلام ، وأبئك الشكر والثناء على ما تزين به صدر « المؤيد » ، الأغرّ من أبكار الأفكار ، ونفائس الآثار ، مما يتلقاه أبناء هذا الثغر بالارتياح والابتهاج ، حتى إننا حلينا جيد الثمرات بعدة من هاتيك الدراري اللامعات ، فجزاك الله عنا جزاء الخادم لأتمته ، المحبّ لوطنه ، الغيور على دينه ، وزادك همّة ونشاطاً في هذا السبيل - سبيل الإصلاح والهداية .

« ما كتبت إليك هذه الكلمات بقصد الإدلال على فضلك والاعتراف بخدمتك ، فإن نفثات قلمك تدلّ على أنك من ذوي الأخلاق الفاضلة ، والنفوس الكبيرة الذين لا تغرهم أمثال هذه الزخارف الباطلة ، فضلاً عن أنك غني بنفسك عن كل مدح وثناء ، وإنما كتبت إليك ؛ لألفت نظرك الكريم إلى أمر

في جريدتك ، ولكن حال بينك وبين ذلك ، ظنّ قام في نفسك أن اللسان في مصر أطلق منه في بيروت ، وأنتك واجد في بلدنا ، لا تجد في بلدك من حرية الفكر وسعة الصدر ، وليتك تعلم يا سيدي أن كلمتك هذه لم يستطع أن ينطق بها في مصر غير رجلين ، فكان نصيب أحدهما السب ، والآخر الضرب .

ليتك تعلم ذلك ، فلا تبالي في حسن ظنك بحرية الأقلام في مصر ، فإنها حرية موهومة لا يفتّر بها من يعرف حقيقة الحرية ، ومن يعتبرها بنتائجها وآثارها ، لا يزخرفها وتهاولها .

نعم لا توجد في مصر شكائهم في أفواه الناطقين ، ولا جوامع ^(١) في أيدي الكاتبين ، ولكن محكمة الرأي العام فيها محكمة وجدانية أكثر منها قانونية ، فهي إما أن تبرئ المتهم ، فتعوله إلى مدار الأفلاك ، أو تدنيه فتهدوي به إلى مقرّ الأسماك .

إن كثيراً من عقلاء الرجال في مصر يهابون التصريح بالحقائق التي يعلمون أنها نافعة لأمتهم أكثر مما يهاب الكُتّاب في سوريا الشكائم والأغلال ، ذلك لأن الرأي العام هنا متهور في مذاهبه ومراميه ، ظالم في أحكامه لم يخطئ إلى اليوم الخطوة الأولى في احترام الآراء ، وإجلال الأفكار وإنزالها المنازل التي تستحقها .

إنّ منظر العقلاء في مصر منظر محزون مؤثر يبعث الرحمة ، ويستمطر العبرة ، إنهم يعالجون من العامة فوق ما يعالج طبيب البيمارستان من مرضاه ، إنهم يعانون من مجارة الجاهلين في جهالاتهم ، وكنيمان الحقائق التي تغلي في صدورهم غليان الماء في المرجل ، ما يرقّ صفاء العيش ، ويشوّ وجه الحياة . إنهم في حيرة لا يجدون إلى الخلاص منها سبيلاً ، إن نطقوا بكلمة إصلاح في الدين سماهم الجاهلون كفاراً ، أو في السياسة سموهم خونة ، وإن سكثوا أغضبوا الله وأغضبوا الحق ، فهم بين هذا وذاك كهارب من سبع مفترس لم يجد أمامه إلا الماء ،

(١) الجوامع: مفردا جامعة، وهي التلّ يجمع اليدين إلى العنق

كان له عندنا أثر سيّئ في نفوس المسلمين قاطبة ، وهو عزم المصريين على نصب تمثال لفقيد مصر مصطفى كامل باشا ، رحمه الله ، كأخ إخواننا المصريين أصبحوا أغنياء عن كل مشروع علمي أو أدبي أو اجتماعي ، فلم يبق بين أيديهم ما ينفقون فيه أموالهم إلا أمثال هذه المشاريع التافهة ، أو كأنهم لا يعلمون أنها محرّمة في دينهم ، دين الإسلام ، أو كأنه صار من المحتمّ اللازم علينا أن نقلد الأوربيين في كل ما يعملون شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا - كما قال عليه الصلاة والسلام - جحر ضبّ لدخلناه ، أو شربوا نخباً لشربناه ، أو صنعوا صنماً لصنعناه . كل ذلك يدلّ أصرح دلالة على أن الجمود ما برح مستحكماً فينا ؛ لأن التقليد الأعمى شأن العاجز الضعيف الذي لا يدري بماذا فاقه القوي القادر ، فهو يقلده في جميع حركاته وسكناته ؛ ظناً منه أنها سرّ قوته وقدرته .

« لو أقام المصريون لكل عامل بينهم تمثالاً لعادت مصر إلى عهدها الأول في زمن الفراغة حيث في كل بقعة هيكل وتمثال ، وظنّ أن لو كان المرحوم مصطفى كامل باشا حيّاً ، لما رضي عن مشروع كهذا يمسّ الأمة المصرية في وطنيتها ودينها .

« فنأشدتك الله يا سيدي أن تنشر كلماتي هذه بنصّها على صفحات المؤيد الأغرّ ، فإن اليراع عندنا مغلول ، إلى درجة ألفت معها الخمول ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !»

محرم « ثمرات الفنون »

(أحمد حسن طباره)

هذا نص كتابه ، وقد كتبت إليه الرد الآتي :

حضرة الكاتب الفاضل :

قرأت كتابك ، فهيت عليّ من بين سطوره نسمة شرقية ، تمرّ بي الساعات والأيام ، والأشهر والأعوام في مصر أترقب هبوبها ؛ فلا أجد إليها سبيلاً .

كتبت إليّ كلمة كان في استطاعتك أن تكتبها

فالهلاك إن أحجم ، والغرق إن أقدم .

ربما تقول إن الصحافة في مصر تملك زمام الرأي العام ، فكيف تعجز عن حبس تياره ، وكسر شيرته ، وقيادته إلى رشده وهداه ؟

والجواب على ذلك أن الصحافة المصرية ناقصة نقصاً كبيراً ، مشتملة على عيوب ورذائل ، لو تجردت منها لبلغت الغاية التي تريدها من تعليم الشعب وتهذيبه ، وتقويم المعوج من ميوله ومذاهبه .

الكتاب في مصر ثلاثة : جاهل لا يميز بين ما ينفع أمته وما يضرها . وعامل يهاب مصادرة الرأي العام في مآلوفاته ومعهوداته ، فيسكت مغلوباً على أمره . ومنافق يعرف الحقيقة ويعيث بها ، فمن أي واحد من هؤلاء الثلاثة تستفيد الأمة ؟ رسلها وهداها ١٩

وأكبر هؤلاء الثلاثة جرماً ، وأشداهم ضرراً ، وأسوأهم أثراً ، ذلك الكاتب المنافق الذي هو أشبه شيء بالنائحة التي تسدل على وجهها نقاباً تتباكى من ورائه ؛ لتستبكي اللواتي يردن البكاء من النساء ، وما في جفنها - يعلم الله - قطرة من الدمع ، ولا في قلبها لآعج من الحزن ، ولكن هكذا قدر لها أن يجري رزقها من بين العبرات والزفرات . وإن شئت فقل إنه كشاعر القهوات يسرد على السامعين قصص الوقائع والحروب بين الأبطال الخياليين حتى يثير عواطفهم ، ويهيج أحقادهم ، فإذا قسمهم على أنفسهم ، وضرب بعضهم ببعض ، خلص من بينهم إلى منزله فرحاً مغتبطاً برنين الدراهم في كيسه ، وقد ترك وراءه أولئك البسطاء أسرى الهموم والأحزان ، قتلى الضغائن والأحقاد .

الكاتب العاقل يخدم عواطف الأمة بتنميتها وتهذيبها ، وتخويل تيارها إلى العظمة المثلى ، أما الكاتب المنافق فإنه يستخدمها لنفسه وإن أفسدها على أصحابها .

ولقد دخلت مرة على بعض الكتاب ، فعبت عليه أنه يكتب غير ما يعتقد ويقول غير ما يعلم ، وقلت : « إن خطبتك هذه مضرّة بالأمة التي أنت أحد

قاداتها ، وإنك قد سلكت في مذهبك هذا سبيلاً ما كنا نعرفه لك قبل اليوم ، فقد عهدناك تصدع بالحق ، لا تبالي أ غضب الناس أم رضوا ، وتجهر به ، وإن لم تجد أذنًا واعية ، أو صدراً رحيماً . » فأطرق طويلاً ، ثم رفع رأسه ، وأحسب أنني رأيت قطرة من الدمع تترقق في عينيه ، وقال : « واللّه ما سلكت هذا السبيل وأنا أعلم أن فيه رضى الله أو رضى الحق ، ولكنني امرؤ لا أعرف لنفسي صناعة غير صناعة القلم - قبحها الله ، وقبح كل ما تأتني به - وكنت أحسبني أستطيع أن أجمع فيها بين شرف النفس ، ورغد العيش ، فخاب ما أملت ، إذ رأيت نفسي كسفينة مآخرة في بحر زاخر من شعب قاصر يطلب مني ما يلهه لا ما يفيده ، ويتقاضاني ما يعجبه لا ما ينفعه ، فطفقت أرثي بين أن أرضي الحقيقة ، فأهلك جوعاً ، أو أرضي الأمة ؛ فأعيش سعيداً ، فغلبنني حب الحياة على أمري ، فلم أر بُدّاً من الدخول على الأمة من ذينك البايين المعروفين - باب الوطنية ، وباب الدين ؛ فاصطنعتما لنفسي بعد ما كنت أصطنع نفسي لهما ، فرغد عيشي ، وحسن حالي ، وأصبحت لا يكدر عليّ صفائي غير الأسف على الحقيقة الضائعة . »

هذه الأمة المصرية أيها الكاتب الفاضل ، وهذه صحافتها ، وهذا مبلغ الرأي العام فيها ، وهذا موقف العقلاء بين يديه ، فهل تظن بعد ذلك أن كاتباً يستطيع أن يقول للأمة ما لا تهوى ، أو يجرؤ على التصريح بحقيقة يعتقدها بين هذا الشعب الهائج ، وتلك الصحافة المتحلقة ؟

إن كثيراً من عقلاء مصر ينكرون - كما تنكر أنت - نصب تمثال للمرحوم مصطفى كامل باشا ، لا لصفته الشخصية ، فإنه ممن يستحقون الإجلال والإعظام ، بل لأنه مسلم شرقي ، والأمة التي تريد نصب تمثال له مسلمة شرعية كذلك ، فإسلامها يحرم عليها نصب التماثيل ، وشرقيتها تنعى عليها هذا الإسفاف في تقليد الغربيين في جميع عاداتهم ومآلوفاتهم ، بينما يترفعون عن الاعتراف باستحسان شيء من عاداتنا وصفاتنا فضلاً عن الأخذ بها أو

محاكاتها . الإسلامية داعية الجِدِّ والاجتهاد في الأعمال ، أو

باعثاً على التشبه بعظماء الرجال .

إن للرجل العظيم بعد موته جلالاً في القلوب لا يذهب به إلا نصب تمثاله على قارعة الطريق تحت نظرات الرجال والنساء والأطفال ، والأذكى والأغبياء ، ومن يعرف قيمة الرجال ، ومن يجهل فائدة التمثال ، ومن لا يرى فرقاً بينه وبين الصور الخشبية المنصوبة في حوانيت التجار .

وغاية ما يستنتجه السواد الأعظم عند رؤية تمثال لأحد عظماء الرجال معرفة صورته الظاهرية ، وأنه طويل أو قصير ، ونحيف أو بدني ، وهي اعتبارات لا يعتدُّ بها في رجولة الرجل ، ولا علاقة بينها وبين علمه وجهله ، وذكائه وغباوته ، وجنبه وشجاعته ، وإنما تظهر رجولة الرجل واضحة مفهومة حتى للبلدائ والأغبياء في ثمرات عقله ، ونتائج أعماله ، وفي مكرمة يخلدها ، أو مدرسة يشيدها ، أو كتب يؤلفها ، أو عقول يثقفها .

هذه ، أيها الأخ الفاضل ، آراء كثير من عقلاء المسلمين في مصر يتحدثون بها في مجالسهم ، ولا ينشرونها في الصحف مخافة أن تلتصق بهم تهمة الخيانة للوطن ، وهي الكلمة التي يتسلح بها الكتاب المنافقون في مصر ، ليحاربوا بها كل من خالفهم في رأيهم أو نازعهم حرقهم ، كما كان يصنع رجال الإكليروس في العصور الوسطى في استخدام تهمة الكفر للفتك بأعدائهم ، والانتقام من خصومهم ، والله أعلم بالخيانة ، أين مكائنها ، وفي أي قلب مُستقرها !

أحسن أثر يقام لفقيد الوطن أن تنشأ باسمه مدرسة تُربى فيها الناشئة الحديثة تحت رعاية الحزب الوطني - على ما كان يحبُّ الفقيد أن يكون عليه النشء الحديث في المعارف والأخلاق والآداب الدينية ، والمذاهب الوطنية - وينتخب لها معلمون مُتدنيون مخلصون لله والوطن ، يستطيعون أن يقدموا للأمة في كل عام رجالاً ، يكون كل واحد منهم صورة حية من صورة الفقيد ، وتمثلاً أنفع من تماثيل

إن نصب الغربيين التماثيل لنوابغ الرجال فلسفة تاريخية أرادوا بها تمثيل التاريخ اليوناني القديم ، وإنزال عظمائهم ونوابغهم منزلة الآلهة وأنصاف الآلهة في ذلك التاريخ ، أي أنها عادة منحوتة من الديانات الوثنية ، فهل يجعل بنا معشر المسلمين أمة محمد ﷺ هادم الأصنام وكاسر الأوثان ، أن نحفل بعادة هذا منشؤها ، وتلك غايتها ، وأن نستقبل بصدور رحب نصب التماثيل في بلد هي بقعة الإسلام ، وباب البيت الحرام ، ومعهد الأزهر الشريف ، ومدفن الصحابة والتابعين ، والأئمة المطهرين ؟!

أ يجعل بنا أن نتخذ هذه العادات الوثنية في عصر ندعو فيه إلى الإصلاح الإسلامي ، ونحارب العوائد الخرافية الداخلة في الدين لنرجع به إلى عصره الأول - عصر السلف الصالح حيث لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ؟!

على أنه إن كان الغرض من نصب التماثيل للرجل العظيم تخليد ذكره واستبقاء صورته مرتسمة في أذهان الأجيال المستقبلية حتى لا تنساه ، فإن جميع رجال الإسلام من علماء الدين إلى علماء الفنون لا تزال محفوظة بين الجوانح مآثرهم ومفاخرهم ، مذكورة على الألسنة أسماؤهم وألقابهم ، ولا نعرف لواحد منهم صورة مرسومة أو تمثالاً قائماً .

إن كان في أعمال الرجل وآثاره ما يضمن له بقاء ذكره في صدور الأجيال ، ومستقبل القرون ، فلا حاجة به إلى تمثال يخلد ذكره ، أو لا ، فمن المغالطة التاريخية الاحتفال على بقاء ذكره بنصب تمثاله .

إن المسلمين لم يألفوا قبل اليوم أن يعتبروا نصب التماثيل للرجل عنواناً عظمتهم ، أو جائزة أدبية يكافأ بها على عمله ؛ أي أنه لا يوجد فيهم من إذا رأى تمثالاً قائماً يقول : « ليتني أنفع أمتي ، أو أخدم وطني ، فيُنصب لي بعد موتي تمثال كهذا التمثال ! » فإذا لا يمكن أن يكون نصب التماثيل في البلاد

البرنز والأحجار .

هذا ما أراه ، أكتبه إليك ، وأملّي ضعيف أن
يحقّق الله رجائي فيه ، ولكنها الحقيقة لا بدّ من
الجهربها ، والسلام عليك ورحمة الله .

* * *

مدرسة الغرام

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدّم هذه الأمة ،
وارتقاءها ، ويلوغها في المدنية مبلغاً يؤهلها لمجاراة
الأمم الغربية في عظمتها وسلطانها ؛ فأصبحت أسأله
ألا يستجيب دعائي ، وألا يُنيلها من تلك المدنية فوق
ما أنالها .

أصبحت أعتقد أن مفسد الأخلاق ، والمدنية
الغربية شيان متلازمان ، وأخوان متحابان ، لا افتراق
لأحدهما عن صاحبه إلا إذا افترقت نشوة الخمر عن
مرارتها ، فكيف أتمناها لأمة هي أعزّ عليّ من
نفسي التي بين جنبيّ !

قرأت حوادث الانتحار في الغرب ، فقلت : « قوم
ضعفت قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه ؛
فلم يستطيعوا الوقوف بين يديها وقفة الشجاع
المستقتل ، ففروا من وجهه إلى حيث يجدون الراحة
الدائمة في كسور القبور ، وما أكثر الجناء في
مواقف الحروب ! »

قرأت حوادث المبارزة هناك ، فقلت : « قوم
عجزت يد المدنية الحاضرة أن تستلّ من بين جنوبيهم
ما كانوا يعتقدونه في عهد الهمجية الماضية من أن
العرض إناء إذا ألمّ به القذى لا يغسله إلا الدم
المسفوح ، وكثيراً ما أوردت العقائد النفوس موارد
الحتوف . »

قرأت حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت
ستار الليل إلى المقابر ، فينبشونها عن رفات الفتيات
المقبورات ، شوقاً إلى لثمة من خدّ صديده ، أو

رشفة من ثغر يتناثر دوده ، حتى إنه ليروقهم من منظر
الساكنات تحت الرجام ، فوق ما يروقههم من منظر
المقصورات في الخيام . وقرأت أن الحكومة طاردتهم
عن أمنيّتهم ، وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم ،
ومعاهد عشقهم وهيامهم ، فأرادوا أن يحتالوا على
الإمام بأولئك الموتى خيلاً لما فاتهم الإمام بهم
حقيقة ، فأنشأوا لأنفسهم تحت الأرض قاعة كبرى
كسوا حيطانها بالأمطار السوداء ، و وضعوا في
وسطها صندوقاً من صناديق الموتى تنام فيه فتاة حية
تتصنّع الموت باصفرار لونها ، وإسبال جفونها ،
وسكون أعضائها ، وتعليق أنفاسها ؛ فإذا لجّ بأحدهم
الشوق إلى قضاء حاجة من فتاة ميتة ، نزل إلى تلك
القاعة السوداء ، وعالج مخيلته على أن يتصورها قبراً
مظلماً موحشاً يضمّ بين أقطاره فتاة ميتة لا حراك
بها ، فيلمّ بها ، وهو يسمع نغمات الأحزان من
قيثارة أعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال .

قرأت هذا وقرأت أن من الناس ناساً في تلك
الديار تجاوزوا ذلك الحدّ إلى الغرام ببعض أنواع
الحيوان ، حتى إنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة
يلعبون فيها بالدجاج ، الإمام غيرهم بالنساء البغايا ،
فقلت : « لا عجب في ذلك ، وهل هو إلا فنّ من
فنون الجنون التي لا يجد المرء إلى حصرها سبيلاً ! »

إن كنت أغفر للمدنية الغربية كل ذنوبها ،
فإني لا أغفر لها ذنوبها في مدرسة الغرام التي أنشأها
قوم من الأمريكيين في وسط مدينة من مدن أمريكا ،
ليعلموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة
جَهرة من حيث لا يرون في ذلك بأساً ، ولا يجدون
فيه متلوماً ، وقد وضعوا لها هذا البرنامج الآتي :

يوم الأحد : دروس استعدادية .

يوم الاثنين : الغزل .

يوم الثلاثاء : المطارحة .

يوم الأربعاء : صناعة التجميل والتجميش .

يوم الخميس : فلسفة الدلال والتصبّي .

يوم الجمعة : انتقاء مواعيد اللقاء .

يوم السبت : الامتحان .

ثوباً يحسبك عليه لو يعقلُ ذاك الذي يفخر عليك
بخزّه وديباجه ، ودمّقه وحريه :

ولو يتّما عند قدريكما

لبتْ وأعلا كما الأسفل^(١)

* * *

أمس واليوم

مثلاً ، ومثل آياتنا الأولين من قبل طلوع شمس
هذا التمدّن الحديث ، ومن بعده كمثّل رجل ضلّ
به طريقه في ليلة ليلاء غدافية الإهاب ، حالكة
الجلياب قد تجسّد ظلامها حتى كاد يلمس بالراح ،
فانقلبَ جوهرًا بعد إذ هو عرضٌ ، فأصبح كأنما هو
فحم سائل ، أو مداد جامد ، فأنشأ هذا الضالّ
المسكين يخط في ذلك الديجور ترفعه النّجاد
وتخفضه الوهاد ، لا يرى علماً فيهندي به ، ولا يتنوّر
تجمّاً فيعتمد في سراه عليه .

وإنه لكلّ ذلك ، وقد استوت في نظره الجهات
الست ، فسماءه أرض ، وأرضه سماء ، ووراءه أمام
وأمامه وراء ، وإذا بقرن الشمس قد نجم في جبهة
الأفق ، وأفرغ في ناظره المملوء بالظلمة قطرات
ملتبهة من ذائب أشعته المتلاعبة ، فعشّي بعد أن كان
بصيراً ، فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئاً ، وما زال في
ضلاله القديم إلا أن ذاك ضلال الظلام ، وهذا ضلال
الضياء ، وهو شرّ الضلالين ، وأقتل الداءين ، فإنّ
ضلال الظلام يتخلله بريقُ الأمل في الضياء ، فأما
وقد أصبح الدواء داءً ؛ فلا أمل في الشفاء :

لو بغير الماء حلقي شرق

كنت كالعصان بالماء اعتصاري

ذلك مثلاً ، ومثل آياتنا من قبلنا بين يدي هذه
المدنية الجديدة التي همى سبلها على هذا العالم
(١) أي لو نزل كل منكما المنزلة التي يستحقها لأخذ الأعلى
مكان الأسفل ، والأسفل مكان الأعلى .

هذه هي المدرسة الغرامية ، وهذا نظامها ؛ فهل
سمعت في حياتك أن أمة من الأمم المتوحشة التي
يسمونها بالأمم البهيمية - إشارة إلى ما بينها وبين
البهائم من الشبه في حب الشهوات ، والاستهتار
فيها - بلغت في تهتكها ، وفساد أخلاقها مبلغ تلك
الأمة التي يقولون عنها إنها زهرة المدنية الحديثة ،
وتاجها المرصع ؟

لماذا نسّمى قبائل الزنوج قبائل متوحّشة ، ونحن
نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم
ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل إلى
مخالطة النساء ، فيأخذونهم جميعاً إلى مكان خاص
بهم خارج القرية ، يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة ،
ينثرون حولها تراباً معبداً ، حتى إذا أراد أحدهم أن
يختلس من ظلام الليل غرة ثم أثره عليه ؟ كما نعلم
أنهم يخطون فروج العذارى من نسايتهم حتى لا
يحدث أحد من الرجال نفسه بقرع ذلك الباب إلا
مالكه ، وصاحب الحق فيه ! ولماذا نسّمى الأمة
الأمريكية أمة متمدينة ، وما هي تفتح المواخير باسم
المدارس حتى لا تكون في نفس أحد من الناس
غضاظة في دخولها ، والأخذ بنصيبه من لذاتها
وشهواتها ؟

إن كان توحش الأولين لإغراقهم في صون
الأعراض ، فالآخرون أكثر منهم توحشاً لإغراقهم
في هتكها وابتدالها ، والإغراق في الخير خير من
الإغراق في الشر .

فيا أيها الزنجي المسكين ؛ لقد ظلمك من سمّاك
متوحّشاً ، ويا أيها الأمريكي المتوحش ؛ لقد كذّبك
من سمّاك متمديناً .

أيها الزنجي الأسود ؛ إن كنت أسود اللون ،
فالفضيّة أشرف عنصري من أن تنزل لاعتبار السواد
ذنبا تنفر منه ، وتأبى أن تأوي إليه ، وإن كنت جاهلاً ،
فهل استفاد صاحبك من علمه إلا إمتاع نفسه
بشهواتها ولذاتها ، والتفنن في فجور الحياة وفسوقها
تفنناً لا أحسبك تحن إليه ، أو تتقطع نفسك حشرات
عليه ، وإن كنت عارياً ، فربما لبست من الفضيّة

جامعتهم ، فتهذا حميتهم ، فتموت نفوسهم ، فإذا هم ميتون ، ثم لا يعيشون .

وكان بين الصغار في العائلة والكبار فيها معاهدة رحمة واحترام ، يحترم الصغير الكبير ، فيكبر عمله وإرادته ومذهبه ، فإذا أنزل نفسه منه هذه المنزلة أصبح بحكم الطبيعة مرآة له تنطبع فيها تلك الأعمال والإرادات والمشارب ، حتى إذا أصبح الصغير كبيراً وجد من صغيره ما وجد منه كبيره ، فلا تزال سلسلة التوارث في العائلة متصلة اتصالاً تعنى به الحوادث ، وتكبو دونه عاديات الليالي .

ويرحم الكبير الصغير ، فلا يألوه نصيحاً في حاضره ومستقبله ، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما التناسخ ، فإذا هو هو حتى إذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد الأسرة بفقدته شيئاً .

فمن لنا اليوم بتلك السعادة التي أكلتنا إياها المدنية الغربية يوم أظلتنا بعلومها ومعارفها ، ومخترعاتها الخالية ، وزخارفها اللامعة الباطلة ، فانقلبت المعيشة البيتية الاجتماعية أفرادية محضة ، فالأخوان متناكران ، والزوجان متنافران ، والولد شقي بأبيه ، والأب شقي بولده ، وكان ساحة المنزل ساحة الحرب ، لا ترى فيها غير وجوه مقطّبة ، ونفوس منقبضة ، وأشلاء فوق أشلاء ، ودماء إثر دماء ، وشقاء ليس يعلّله شقاء !

ومن كان في شك من هذه الحقائق ، فإني أكيله إلى جداول القضايا في المحاكم ، فإن لم ير أن أكثر المخاصمات فيها - خصوصاً المدنية منها - واقعة بين الأقارب وذوي الرحم ، فله حكمه ما شاء .

وإن أبيت إلا أن تتمثل لك الحقيقة بأكمل وجوها ، فاسمع قصة رجل مصري كان ذا ثروة متوسطة ، عاشت آباءه أجيالاً متعددة ، فما كانت تضيق بهم ، وما كانوا يضيّقون بها . وكان له ثلاثة أولاد و « امرأة جديدة » متعلّمة تعرف كل شيء إلا واجباتها وواجبات منزلها وزوجها وأولادها . وليتها جهلت كل شيء غير هذا ، فتكون قد علمت كل

الإنساني ، فرأى الغرب تربة طيبة صالحة ، فسقاها ، فاهتزت ريت ، وأنبئت من كل زوج بهيج ، ورأى الشرق تربة صامتة متحجرة قد نجم فيها كثير من الأعشاب الضعيفة والجدور الفاسدة ، فأما ما تحجر منها ، فلم تُغن عنه السقيا شيئاً ، وأما ما اخضر وترعرع ، فقد نما فاسداً كأصله ، وكان خيراً له لو ذهب ذلك الفيضان به وبجدوره .

أي أن المدنية الحديثة تمشت في صدر الغرب بقدم متناقلة ، فما خفق لها قلبه ولا اضطرب ، ثم وضعت يدها في أيدي الغربيين ، فصعدت بهم إلى سمائها خطوة خطوة - كما يعود الطفل الصغير على المشي - وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتنا ، فبلغوا ما أرادوا وهونوا إلى أعماق مما كنّا كالحجر الثقيل يُرمى به في الجو ، فإذا ارتد ارتد إلى حفرة يدفن نفسه فيها .

أي أن الغربيين أحسوا ، فنهضوا ، فجدوا ، فأثروا ، فتمتعوا بثمرات أعمالهم ، ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات ، ووثبنا إلى الغاية وثباً ، فسقطنا .

فهما كان نصيب آباءنا من الجهل ، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة ، فقد كانوا على علائهم أسعد منا حالاً وأروح بالاً ، وأهنأ عيشاً وأسدّ خطوات في سبل الحياة ، وكانت المعيشة فيهم اجتماعية أكثر منها فردية ، فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيء بالملكة الدستورية المنظمة يديرها عقل واحد في جسوم كثيرة متفقة في الرأي ، والدين والمذهب ، والأخلاق والعادات ، تجتمع حول المائدة كما تجتمع في نادي المسامرة ، وتتلاقى في قاعة الصلاة كما تتلاقى في ساحة المتنزه ، يحجون الله ولا يختلفون إلا في الطريق إلى رضاه ، ويحجون الوطن ولا يختلفون إلا في الطريق إلى خدمته ، ويحترمون عاداتهم وأخلاقهم ، ولغاتهم المكوّنة لهيئتهم الاجتماعية ، ويفرون من العادات والمشارب الغربية عنهم فرارهم من الأسد مخافة أن يرق هذا الحاجز القائم بينهم وبين الأم الأخرى ، فتتحلّ

ويسري عن نفسه ويقينه أن هناك حولاً أكبر من حوله ، وطولاً أعظم من طوله ، وإلهاً قادراً يقرب إليه ما يريد ممّا ضاق به ذرعه ، وقصرت عنه قوته .

وأما الوطن ، فلأن المدارس عندنا تديرها من وراء ستار أيدٍ أجنبية تربي التلاميذ لها ، لا لأوطانهم .

فكنت ترى منزل الرجل كأنما هو مجمع من مجامع السفراء ، عثمانى متمسك بعثمانيته ، وإنجليزي يهتف ليله ونهاره بأن دولة الإنجليز سيّدة البحار ، وأن الشمس لا تغيب عن أملاكها ؛ وفرنسي يعبد فرنسا ، ويسبح بحمدها ، ويصفها بأنها أمة العدل والرحمة ، وأن أسعد المستعمرات مستعمراتها ؛ وألماني يستظهر خطبَ الإمبراطور غليوم ، وينجم أن المستقبل لألمانيا يوم يمحي اسم إنجلترا وفرنسا من مصوّرات الجغرافيا . وكثيراً ما يقع بين المتفرنس والمتألن النزاع الطويل في شأن الألزاس واللورين ، وبين المتألن والمتجلنز الشقاق العظيم في واقعة واترلو ، وأيّ القائلين كان له القلب والفضل في كسر نابليون ، بلوخر أو والنغتون ؟ ولا يتفقون إلا في الساعة التي يذكرون فيها أمّتهم ، فإنهم يمثلونها لأنفسهم وللناس أقبح تمثيل ، ويلبسونها ورجالها ، قديماً وحديثاً ، أبواب المرافق المضحكة غير مستحيين من أنفسهم ، ولا من الناس ولا مبالغين بالأدمع المنهكة من عيني والدهم الجالس ناحية يندبهم ، ويندب نفسه معهم ، فيس الاختلاف حين يختلفون ، ولا حبلاً الاتفاق يوم يتفقون !

وهكذا انحلت الجامعة في هذا المنزل ، وتفرّق أفراد تلك العائلة أيما تفرق ، وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام ، فلا يصطحبون في متنزه ، ولا يجتمعون لصلاة ، ولا يتصافون في سمر ، ولا يتفقون في شأن من شؤونهم البيئية ؛ حتى أصبح لكل منهم من المأكّل والمشرب والملبس ، وجميع مرافق الحياة ما يطالبه به خلقه الميادين خلق أخيه أو أبيه .

فأتى لهم التعاضد الذي كان لآبائهم من قبل في خوض غمرات الحياة ، وأتى لوطنهم أن يسعد

شيء ! وتحب مطالعة الروايات الغرامية حباً ملك عليها مشاعرنا ونحوالجها ، فربما عرض لها المهم من الأمر ، فلا تخف له قبل فراغها . من الفصل الذي تطالعه ، وتحب التمثيل فتقضي ليلها في مشاهدته ، ونهارها في سرد وقائعه ومشاهده على أخدانها وأترابها ، وربما كانت تهمس في آذانهم أن ليتها ترى (روميو) فتكون له (جولييت) ، وتبغض الحجاب بغض الحرائر^(١) للفسفور ، فيومها نصفان نصف للخروج ، ونصف للتّهيء له ، فهي خارج المنزل من مطلع الشمس إلى مغربها . بنى بها زوجها بعد وفاة زوجها الأولى ، فلم يقتبط بها غير عام واحد ، ثم ضرب الدهر ضرباته ، فإذا بينهما عيشة لا أظن أن الجحيم أشد نكالا منها .

أما أولاده ، فأدخلهم مدارس مختلفة تعلّموا فيها لغات مختلفة : الإنجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ؛ ثم تخرجوا هذا إنجليزي يفظاظته وخشونته ، وهذا فرنسي بخلاصته واستهتاره ، وذاك ألماني بخيالاته وكبريائه ، وجميعهم متفرجون مشركاً ومذهباً ، ومطعماً وملبساً ومسكناً ، وما فيهم من تفرج همة وعملًا .

خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن ، أما الدين ، فلأن أكثر مدارسنا حتى الأهلية منها مادية محضة لا تعلق للدين بشأن من شؤونها ، والدين خلق شأنه كبقية الأخلاق لا يرسخ في النفس إلا بتكرّر الصور الدينية ، وتداولها عليه عهداً طويلاً ، فإن بعد عهداً به أغفلته وأنكرته ، وكذلك كان شأن هؤلاء الأولاد المساكين ؛ فقصت قلوبهم ، وجمدت نفوسهم ، وفقدوا بفقد دينهم أطيّب عزاء يستروحه الإنسان في هذه الحياة المملوءة بالمصائب ، الحافلة بالكوارث والهموم .

والإنسان مهما طال حوله ، وكثر طوله ، واتسعت مذاهب قوته ، فليس يبالغ من هذا الدهر المعاند ما يريد ؛ لولا زهرة الأمل التي يتعهد بها الدين بالسّقيا في قلب المؤمن ؛ فيستروح منها ما يروح عن قلبه ،

(١) الحرائر: جمع حرة .

يعتقدون كثيراً من الخرافات والأوهام ، وأن هناك أرواحاً خيرية وشرية تنفع وتضر ، وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد ، ويدعون لرؤساء الأديان تحنثاً^(٢) وتعبدًا ، ورأيي أن ديناً خرافياً وهمياً خيراً من لا دين ، لأن لهذه المعبودات الوهمية في نفوس المتعبدین لها سلطاناً قاهراً على نفوسهم يقاوم أهواء الشر فيها ويظهرها من كثير من الرذائل التي تعبى بها القوانين الشرعية والوضعية كالخيانة والكذب ، والحقد والحسد ، وسفك الدماء واغتتيال الأموال ، وغير ذلك من الشرور الإنسانية التي لا تنزجر النفس عنها ما لم يكن منها لها زاجر ، والتي فشت اليوم بين أكثر المتعلمين الذين أخذوا العلم مجرداً عن التربية الصحيحة كأكثر المتعلمين في مصر .

ولقد كان آباؤنا على علاتهم يعتمدون في أكثر عقودهم من بيع وشراء ، هبة وقرض ، ورهن على صدق ألسنتهم ووفاء قلوبهم ، فكان الرجل يأمن أن يُقرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك ولا شهادة شاهد ، فأصبحنا نكتب الصكوك ونستشهد الشهود على الدائق^(٣) والسحوت^(٤) ، والويل ثم الويل لصاحب الحق إذا ضاع صكُّه ، أو أنكر شهوده ، وكثيراً ما يفعلون !

وجملة الحال أنهم كانوا يجهلون أكثر ما نعلم ، ولكن لم يكن عليهم جهلهم أكثر مما جنى علينا علمنا ! وكانوا محرومين أكثر ما نعيم به اليوم من مساكن زاهرة ، ومراكب فاخرة ، وملابس زاهية ، ومناظر زاهرة ، وفرش وثيرة ، وآنية صقيلة ، وأدوات للمأكل والمشرب ثمينة ، ولكنهم لم يكونوا محرومين في أنفسهم وفي خطرات عقولهم شيئاً من هذا كله ، لأنهم ألفوا معيشتهم البسيطة كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة ، فنحن وهم سواء في الرضى بحالتنا ، إلا أن معيشتنا يكدرها الفقر والإفلاس الآجل أو العاجل ، ومعيشتهم لم يكن يكدرها من ذلك شيء ، وها هي دفاتر المصارف

بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم ، والمنزل قوام الأمة تسعد بسعادته ، وتشقى بشقائه .

وأي شأن لهذه المعلومات المتكثرة التي حشروها إلى أذهانهم ، وهل أفادوا بها إلا هنراً^(١) في المنطق ، وثرثرة في اللسان ، وشغلاً للأذهان لا يغني عن سعادة الحياة وهنائها قليلاً !؟

ولو عقلوا ؛ لعلموا أن المخترعات الحديثة ، والمكتشفات الجديدة ، والعلوم العصرية إنما هي خلد وحاشية بين يدي السعادة ، والسعادة هي اللذة الباطنية التي يحس بها الإنسان عند أداء الواجب عليه لنفسه وعشيرته ، و وطنه ودينه ، فما لم تكن مقدمة لهذه النتيجة كان وجودها أشبه شيء بالعدم .

ولو عقلوا ؛ لعلموا أن الغربيين إنما يحفلون بجميع العلوم العصرية حتى علوم الأخلاق والآداب والدين باعتبار أنها وسائل مادية يتوصل بها إلى تحصيل مرافق الحياة المحصلة لرفاهية العيش وسعادة الحال ، ولا اعتبار عندهم لذواتها وأعيانها ، فهم يعلمون للعمل ، ويخترعون للمتاجرة ، ويكتشفون للربح ، ومن ظن غير ذلك ، فقد ضلّ ضلالاً مبيناً .

ولو عقلوا لعلموا أن ذلك العلم القليل الذي كان يعلمه آباؤنا ، ونسميه نحن جهلاً وهمجية هو خير من علمنا الكثير المستفيض الذي نساجلهم به ، وننسى عليهم تاريخهم من أجله ، لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما تعجز عنه نحن بكثرتنا .

أجل إنهم كانوا يجهلون عدد أقسام الأرض ، وأن مصر في أفريقيا ، وسوريا في آسيا ، ولكنهم كانوا يعلمون أن وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوب لديهم ، وأن أبناء وطنهم أخوة لهم يسعدون معاً ويشقون معاً ، وأن سعادتهم في استقلالهم ، وشقاءهم في امتداد اليد الأجنبية إليهم . وكانوا يجهلون الفرق بين المملكة والإمبراطورية والجمهورية ، ولكنهم كانوا يعلمون أن صاحب الأمر فيهم كيفما كان لقبه يجب طاعته والالتفاف حوله ، للذود عنه ، وعن سلطته التي هي سلطتهم وقوتهم . وكانوا

(٢) تحنث: تعبد، وفعل ما يمحى الحنث (الذنب) .

(٣) الدائق: سنن الترمذ . (٤) السحوت: التز التافه القليل .

(١) كثرة الخطأ والباطل .

بخس ، وهو فيها من الزاهدين .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس ولم يَسمر بمكة سامر

هذه قصة منزل من منازلنا ، وكلُّ المنازل بيننا
ذلك المنزل إلا ما رحم الله ، فلو أن باكيًا بكى
على ما آلت عليه حالة هذه الأسرة الشقية ، فهو
إنما يبكي أسراً متعددة ، وأمة كاملة .

لقد لامني عند القبور على البكا

رفيقي لتذراف الدموع السوافك

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى

دعوني فهذا كله قبر مالك (٢)

وجملة القول إن للحاضر سيئات فوق الماضي ،
فلا خير في العصرين ، ولكنَّ وِلاً أخفُّ من ويلين ،
والأم لا تسعد بمعرفة الخير والشرِّ ، فالخير والشرُّ
معروفان حتى لأمة النمل ، وإنما سعادتها في معرفة
خير الخيرين وشرِّ الشرِّين ، ولكنَّ دام هذا الحال ،
واطرَّد المقياس ؛ فالغد شرٌّ من اليوم ، كما كان اليوم
شرًّا من الأمس .

* * *

المرقص

إن كان حقًّا ما يقولون من أن الكاتب لا يجمل
به أن يصف مشهداً من المشاهد ، أو يحدث عن
موقف من المواقف إلا إذا رآه بنفسه ، واضطلع به ،
وأحاط علماً بحقيقته ؛ فقد أسقط في يدي وارتقيت
في هذه النظرة مرتقى صعباً ، واستحال عليَّ أن
أكتب في هذا الموقف الذي أحاول الكتابة فيه سطرًا
واحداً ؛ لأنني لا أعرف من تقويم «الأزبكية» أكثر من
أنها بقعة واقعة بين بساط الغبراء ، وقبة السماء .

ولولا أنَّ الله أعانني بصديق من أصدقائي زار

(٢) الأبيات لشمس بن نيرة يرثي أخاه مالكا .

وبيوت الأموال مكتظة بديون الفلاحين التي كانوا في
غنى عنها لولا المدينة الحاضرة التي قلبت الكماليات
في نظرهم إلى حاجيات ، فنَبَا القصور ، وشادوا
الدور ، وما شادوا لو يعلمون إلا قبوراً دفنوا فيها
راحتهم وهناءهم ، ومستقبلهم ، ومستقبل ذريتهم
من بعدهم ، فإنَّ هؤلاء الأولاد المساكين بعد أن
خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن ، أرادوا أن
لا يُبقوا في قوس الحرية منزعاً ؛ فأطلقوا لأنفسهم
العنان في سبيل الشهوات واللذائذ ، فكانوا يسهرون
الليلَ بين رنين الكاسات ، وغزل الغانيات ، ثم
ينامون النهار بين التمطي والثَّوباءِ حتى تَبَّتْ بهم
وظائفهم التي هي كلُّ ما حصلوا عليه من علومهم
ومعارفهم ، فأبعدتهم عنها ؛ فأصبحوا كَلالاً (١) على
أبيهم وعلى الناس ، لم ينفعهم علمهم ، ولم تغن
عنهم شهاداتهم بعد أن نفخت الكبرياء في
صدورهم ؛ فأبوا أن يتنزلوا للاحتراف بما يقوم
معاشهم كما يفعل أولئك القوم الذين أنصَبُوا رُكائبَ
حياتهم في طريق تقليدهم ، وباعوا في سوق التشبه
بهم كل ما تملك أيمانهم وقلوبهم ، وبعد أن
ملكَت الشهوات قيادهم ، فما وجدوا في أنفسهم
متسعاً لسواها ، فأغروا بثروة أبيهم يأخذون منها
بالحق تارة ، وبالباطل تارات ، وقد كانوا قَلَصُوا
ظلالها أولاً بنفقات دراساتهم ، وثانياً بابتياح ما حسن
لفظة ، وقبح معناه من السلع الإفرنجية التي تفنى
خزائن روكفلر و روتشيلد قبل الوصول إلى إشباع
بطون تجارها ، فضُبط معينها ، ولم يبق منها حتى
الدَّماء (٢) ، فتبدل ذلك النعيم شقاءً ، وتلك السعادة
والرفاهية فقراً وعُدماً . أما الوالد فقضى شهيد العلوم
والمعارف ، والمخترعات ، والمستحدثات ؛ وأما الأولاد
فاغتالت أحدهم يدُ الزهري ، وكانت لأمثاله من
المغتالين ؛ واحتوى الآخر فراش السُّل حيث لا زائر
ولا طبيب ؛ واقترش الثالث تراب السجن على أثر
جناية دفعه إليها العوز والحاجة ؛ وفرت المرأة الجديدة
إلى معرض الأعراض حيث يتناحى الشقاء بضمن

(١) الكلُّ: مَنْ يكون عيماً على غيره .

(٢) الدَّماء: بقية النفس .

أعجب لشيء عجبي لهذه الحكومة التي تضمن جندياً أن يشتبه شاتم ، أو يلمسه لأمس ، فتغضب له غضبة مضرية تترأى فيها الشهامة والحمية ، والعزة والنخوة ، ثم لا تضمن به أن تؤجره نائحة في الجنائز ، أو قواداً في المراقص ، وهو هو بعينه الذي يمثلها في وقفات ، وينوب عنها في غدواته وروحاته .» وهذا ما كان يحدثني به ذلك الصديق ، وهو سائر بي إلى قاعة المرقص حتى وصلت إليها فماذا رأيت ؟

« إن كنت لم تسمع في حياتك أن فداناً واحداً من الأرض يتلع في جوفه ستة ملايين من الأقدنة فاعلم أنه المرقص الذي يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات ، فكأنه العين التي تسع الفضاء بأرضه وسمائه ، أو القلب الذي يحمل في سويدائه علم ما كان ، وما يكون .

« رأيت الدنانير ذائبة في الكؤوس ، والعقول جامدة في الرؤوس ، والخيال منصوبة لاستلاب الجيوب ، والسهام مسددة لاصطياد القلوب ، ورأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلاً وأذكاهم قلباً ، ومن كنت أراه فأغضى بين يديه لإجلالاً وإكباراً واقعاً في حباله بغي تقيمه وتقعده ، وتطويه وتنشره ، وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها ، وهو في غير هذا المكان قيصر الروم عزة وفخاراً ، وكسرى فارس أنفة واستكباراً !

« رأيت من يزعم أن الله قد وهبه عقلاً نخشق أشعته حجب الغيب ، وعلماً تتساوى أمامه المادة وما وراءها ، ومن لا يزال يتمثل صبحه ومساءه بقول الشاعر :

وعلمت حتى ما أسائل واحداً

عن حرف واحدة لكي ازدادها

يجهل بديهية من البديهيات التي يشترك في فهمها الأذكياء والأغبياء ، والعلماء والجهلاء .

« رأيته يجلس في المرقص ، فتعمر به البني ، فما هي إلا لمحة طرف ، أو غمرة كف ، حتى تحذته نفسه أنه قد وقع من نفسها ، وملاً فراغ قلبها ،

المرقص مرة واحدة في حياته ، و وصف لي المشهد الآتي من مشاهدته ؛ لنفضت يدي منه نفخ المودع يده من تراب الميت فراراً من تهكم المتهكمين ، وسخرية الساخرين !

حدث ذلك الصديق قال : « ذهبت ذات ليلة إلى مرقص من مرقص الأزبكية ، فرأيت على بابه جندياً يتمشى في عرصته مشية هادئة مطمئنة ، فذعرت لمراه ، وتراجعت قليلاً قليلاً ، وكدت أعتقد أنني أخطأت الطريق إلى المرقص ، وأنتي بين يدي دار من دور الحكومة يحرسها حاجبها ، لولا أنني لم أر في وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضطراب ، والذل والانكسار الذي اعتدت أن أراه في وجوه الشاكين والمتظلمين .

« وقت ساعة أتردد بين الإقدام والإحجام حتى لمس كتفي لأمس ؛ فالتفت ورائي ، فإذا صديق من أصدقائي يسألني : « ما وقوفك ههنا ؟ » فقلت له ما قاله أبو العيلاء لصاحبه حينما سأله عن سبب بكوره : « أراك تشاركني في الفعل وتفردني بالعجب . » قال : « أنا أفتش عن ابن عمي . » قلت : « وأنا أفتش عنك . » فابتسم ابتسامة المتهكم ، وقال : « هيا بنا ندخل قبل أن تمتد سلسلة التفتيش إلى حيث لا تنتهي حلقاتها ! » وأمسك بيدي حتى جاز بي باب المرقص ، فسألته : « ما هذا الجندي الواقف أمام الباب ؟ » قال : « كيف ذهب عليك أن حكومتنا قد أصبحت اليوم حكومة مدنية مادية ، لا أدبية ولا دينية ، فتساوت في نظرها « المصالح » والمراقص ، واختلط عليها الأمر بين مواقف القضاء ، ومعاهد البغاء ، فأصبح الجندي يحمي أبواب العاهرات ، كما يحمي أبواب النظارات ، ويقف أمام البارات ، موقفه أمام الإدارات .

« وإن العين لا تكاد تملك مداها سحاً وتذرفاً كلما أبهرت هذا الجندي الشريف ، واقفاً هذا الموقف الذليل يسمع قراع الدفوف ، لا قراع السيوف ، ويرى حمرة الصهباء ، لا حمرة الدماء ، ويحمي الفسق والفجور ، لا القلاع والثغور ، وما

السماء منا بصواعقها ورجومها ، ولا الأرض بزلزلاتها وبراكينها ، ما يبلغ منا المرقص ببغاياها ١
قال المحدث : « والحق أقول إنني دخلت المرقص ،
وأنا أحسب أنني أنفَس عن نفسي كربة ، فرأيت ما
زاد نفسي هماً ، وملأ قلبي غيظاً ، فقلت لصاحبي :
« هل لك في القيام ؟ » فقام وقمت ، وأنا أقول :
« والله ما أدري ما ترك هذا المكان لليمارستان ١ »

* * *

البعث

هي قصة خيالية الغرض منها تمثيل أي العلاء
المعري في أخلاقه وآرائه ، لم يكتب منها غير هذه
الأيام الثلاثة ، وقد نشر في الذيل من كلام أبي
العلاء عند المناسبات ما يميز بين الحقائق التاريخية
والتصورات الخيالية .

اليوم الأول

نبا (٢) بي مضجعي ليلة لهم نزل بي ، والههم
رسول من رسل الشر ينزل بأهداب العيون ، فلا يزال
يسعى حتى يوقظ الفتنة بين أشياعها (٣) ، فظلت
أساهر الكوكب حتى ملني وملته ، وضاق كل منا
بصاحبه ذرعاً ، فلما تقضى الليل إلا أقله ، ولم يبق
إلا أن تتفرج لمة الظلام عن جبين الصباح ،
سمعت طارقاً يدق الباب دقاً ضعيفاً ما كدت أتبينه
لولا هدوء الليل وسكونه ، فقلت : « من الطارق ؟ »
قال : « غريب حائر ضلَّ به سبيله في هذه الرقعة
السوداء ، وأعوزه المأوى يطلب كريماً يعتمد عليه ،
ومضجماً يأوي إليه ، وقد أعدُّ لمن يسدي إليه تلك
النعمة ذخيرة صالحة من شكر لا يبلى ودعاء لا
يخبث . » فأعجبت بعابر سبيل يمر بعفو لسانه من
فصيح القول وصحيحه ما يعنى على جهد المتكلفين ،

(٢) لم يطمئن إلى فراشه فلم يستطع النوم .

(٣) الأشياع : الأمثال والأشياء ، المفرد شيعه .

فيدعوها إليه ، فتنجلس بجانبه ، فما هي إلا ابتسامه
خالبة ، وكلمة كاذبة ، حتى يقسم بكل محرجه من
الأيمان ، أن نفسه صادقة فيما حدثته ، وأن الفتاة
علقت بحبه علوقاً لا نجاه لها من بعده إلى يوم
يبعثون .

« هنالك يبدل لها ما تشاء من نفسه وشرفه
وماله ، ويرى أن ذلك قليل في جانب ما تبدل له من
دقائق تقضيها بين يديه ، وابتسامات تجود بها عليه .

« لقد كذبتك نفسك أيها الرجل ، فما هي
المرأة بجانبك ، فهل ترى فيها منظرًا رائعاً ، أو جمالاً
ساطعاً ، يأسر أقدس النساء قلباً ، وأعصاهن عناناً .

« إن الفتاة التي أسمعك كلمة الحب قد
أسمعته قبلك ، وستسمعها بعدك كل صاحب
جيب مثل جيبك ، وعقل مثل عقلك .

« إن كنت في شك مما أقول ، فأمسك عن فتح
الزجاجات لحظة قصيرة ، ثم انظر بعد ذلك أين
مكانك من نفسها ، وموقعك من قلبها ، فإن لم
تمطر عليك سحائب اللعنات ، وتجعلك غرضاً
لسهام التهكمات ، فأنت أصدق الصادقين ، وأنا
أكذب الكاذبين !

« رأيت هنالك كل حاسة من الحواس قد لبست
منظاراً يكبر المنظورات ، ويضاعف المسموعات ، تغني
المغنية بصوت مضطرب النغمات ، بارد الترجيعات ،
ثقليل الحركات والسكنات ، فتمتلئ أرجاء القاعة
بالآهات ، وتدوي فيها الصيحات المزعجات ، وتطل
العجوز الدرديس على الناس بوجه مغضن ، وجفن
مقرح ، وسن بارز ، وخد غائر ، فتطير حولها
القلوب ، وتتحلب (١) لها الأفواه ، وتترامى تحت
أقدامها الوجوه ! فقلت في نفسي : « أ هذا هو
المرقص الذي تخرب فيه البيوت العامرة ، وتبدل فيه
الرياض الزاهرة ١٩ أ هذا هو الذي تندفق فيه الأموال
الغزار ، تندفق الأنهار في البحار ، وتقبر فيه نفوس
الكرام ، قبل أن تقبر تحت الرغام ١٩ والله لا يبلغ
العدو منا بخيله ورجله ، وأساطيله وقنابله ، ولا تبلغ

(١) تحلب القم : سأل .

ما أوسع الموتَ يستريح به الجسد

— المعنى ويخفت اللجب

حتى وصلنا إلى غرفة الأضياف ، فأعاد النظر إليّ ، وقال : « اذهب لشأنك فأنا في حاجة إلى الانفراد بنفسى . » فتركته وذهبت إلى غرفة منامى ، وقد أخذ منظر الرجل مكاناً من قلبي ، وشغلني من أمره ما كاد ينسيني هموم نفسي ، فلم أزل أقلب النظر في حاله ، وأذهب المذاهب في استيطان سرّه حتى أخذ عينيّ نومٌ ثقيل لم أستيقظ منه إلا في صفرة الأصيل .

سألت الخادم عن الضيف ، فعلمت أنه أخذ حظه من المطعم والمشرب ، والمضجع والمستحم ، وأنه لا يزال في مصلاه . فهبطت إليه في خلوته أهيباً ما أكون له ، فرأيت جالساً إلى قبلته يقلّب وجهه في السماء ، ويكرّر هذا الدعاء :

« اللهم لا رادّ لقضائك ، ولا مسخط على بلائك . أمرت فأطعنا ، وابتليت فرفضنا ، فأمطرنا غيث إحسانك وأذقنا برد رحمتك ، وألهمنا جميل صبرك ، وثبت قلوبنا على طاعتك ، فلا عون إلا بك ولا ملجأ إلا إليك ؛ إنك أرحم الراحمين ، وأعدل الحاكمين ^(٦) . »

ثم أطرق بعد ذلك إطراقاً طويلاً خلت أنه وصل فيه إلى مقام التجريد ، وأن الذي أراه بين يديّ جسد هامد قد أسريّ بروحه إلى الملأ الأعلى ، فجعلت أختلس الخطى إليه حتى صابقتها ^(٧) ، ورفع رأسه إليّ ذاهلاً ، وقال : « أنت هنا ؟ » قلت : « نعم . » قال : « في أيّ سنة نحن من تاريخ الهجرة ؟ » فعجبت لسؤاله ، وقلت : « في السنة التاسعة والعشرين بعد

(٦) حدث القاضي أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء في خلوته ، فسمعه يقول وهو لا يعلم بمكانه :

كم بودرت غادة كعوب وعمرت أمهسا المعجوز
يجوز أن تبطئ المناسيا والخلد في الدهر لا يجوز
ثم تأوه مرات وثلا قوله تعالى « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . » الآية . ثم صاح وبكى بكاءً شديداً ، وطرح نفسه على الأرض وهو يقول : « سبحان من هذا كلامه . »

قال : « فعلمت صحة دينه وبقينه . »

(٧) صابق: واجهَ وقاربَ .

ونزويق المزورين ^(١) . وقلت في نفسي : « ما لهذا الرجل بدٌّ من شأن ! » وفتح الباب ، فإذا شيخ كنتي ^(٢) من حملة أعباء الدهر قصير القامة ناحل الجسم زريّ الهيئة قد نيّف على الثمانين من عمره ، فخيّل إليّ أن ظهره المحدودب قوس ، وأن عصاه التي يعتمد عليها وترّ قد شدّ إلى تلك القوس ، وأنه قد أعدّ من هذه وتلك سلاحاً يذود به عن نفسه عادية المنون ^(٣) ، فلما شعر بمكاني رفع رأسه إليّ ورماني بنظرة خلت أنها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبي ، وأحاطت بما بين قمة رأسي وأخص قدمي ، فرأيت وجهاً أسمر اللون قد انتشرت في أكنافه حقائق الجذري ^(٤) ، وأسارير تنطوي تارة على غير القرون وحوادث الدهور ، وتنفرج أخرى عن أنوار الصلاح والتقوى ، ولحية بيضاء إلا أنها شعناء ، وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نور ساطع خفاق لا يراه الرائي حتى يطرّق له إجلالاً وإعظاماً ، وسحنة غريبة لا عهد لي بمثلها في حمراء الأم وسودائها ، وأحسب أن لو كان بين يدي مثال من صور الناس في القرون الغابرة لنسبتها ^(٥) فمشيت إليه مشية الهائب الوجل ، وقلت : « على الرحب والسعة يا سيدي ، لقد حللت بمنزل ألت صاحبه ، ووليّ الأمر فيه . » ثم قدمت إليه يدي ، فمشى معي يتوكأ ويتحامل ويهمس بهذه الكلمة :

(١) زور الشيء : حسنه وقومه .

(٢) الرجل الكنتي : الكبير العمر نسبة إلى قوله كنت في شبابه كيت وكيت .

(٣) وصف أبو العلاء نفسه في شيخوخته في إحدى رسائله بقوله : « ولّني لأعجز إذا اضطجعت عن القمود ، فرما استمنت بإنسان ، فإذا همّ بإحاثتي وسط يدي لهضتي ضربت عظامي لأنهنّ عرايات عن كسوة كانت عليهنّ . » وقوله في لزومياته :

يا نفس جسمك سرّبال له خطر وما يبدل في حالٍ يسريال
قد أنخلقته الليالي فانركبه لقسى فما يزيدك لبس المخلوق البالي
(٤) اعتل أبو العلاء في الرابعة من عمره بعلة الجذري ، فذهبت بصره وبقيت آثارها في وجهه بعد ذلك .

(٥) نسبتها: أي ذكرت نسبتها إلى نوع من أنواع تلك الصور .

قلت : « لم أفهم يا سيدي شيئاً عما تقول ! » قال : « أكتنم أنت عليّ سرّي ؟ » قلت : « نعم . » قال : « أ تقسم ؟ » قلت : « إن للوفاء عندي حرمة مثل حرمة القسم ، ولو كنت متهماً نفسي لأقسمت . » قال : « الآن عرفتك ، أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري . » فما قرعت هذه الكلمة مسمعي حتى أسقط في يدي ، وعلمت أنني قد هلكت ، وكان أول ما كان مني أن التفت ناحية الباب لأرى هل أجد السبيل إلى الهرب إن عرض لي من هذا المجنون عارضٌ سوء ، وكأنه ألم بما في نفسي ؛ فقال : « لا ألومك على ماظنت ، فقد قدرتُ قبل أن ألقى إليك كلمتي هذه أنها بالغة منك ما بلغت ، فهل تؤمن بالله ؟ » قلت : « نعم . » قال : « وتؤمن بالبعث ؟ » قلت : « نعم . » قال : « وما يريك من رجل أماته الله ثم بعثه بعد موته . » قلت : « ذلك يوم يبعثون . » قال : « هيها قصة إبراهيم إذ قال له ربه « فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً » ، وبعد فو الله يا بني ما كفرتُ مذ آمنت ، ولا كذبتُ مذ عرفتُ أن الصدق منجاة من النار ، ولا استردتُ الله مني نعمة العقل بعد ما منحتني إياها ، ولو كذبتُ الناس جميعاً ما كذبتُك فقد أسلفت إليّ من أياديك ما لا أحتاج بعده إلى كذبة أتفق بها عليك ، أو أردلف بها إليك ، وإني قاصر عليك قصتي ، فأصغ لها ولك بعد ذلك حكمك . » فسرّي عني قليلاً ما كان ألمٌ بنفسي من القلق ، فأقبلتُ عليه بوجهي فأنشأ يقول :

« لا أزال يا بني حتى الساعة أشعر بمرارة الحساب في فمي ، فقد حوسبت حساباً غير يسير على الكبير والصغير ، والدقيق والجليل ، والقومة والقعدة ، والخطرة واللمحة ، وكل ما وجدته حاضراً بين يدي في صحائفي ، فكادت حسناتي تكافؤ في الميزان سيئاتي ؛ لولا تلك الكلمات التي كنت أرددتها في حياتي الأولى في تهديد الناس في النسل

الثلاثمائة والألف . » قال : « ما اسم هذا المصبر الذي تمرّونه ؟ » قلت : « القاهرة المعزية . » قال : « أ في هذه الأمة كثير مثلك ؟ » قلت : « لم أفهم ما تريد يا سيدي . » قال : « لقد استفتحت هذه الأبواب التي تليك ، فلم أجد من ورائها إلا ضعيفاً لا يلبث أن يراني حتى يرعد مني فرقاً ، فيوصد بابه في وجهي ، أو ضيقاً يرى بؤسي وشكائي ، فيزوي ما بين حاجبيه ، ثم ينصرف عني ، أو أعجمياً لا يفهم ما أقول ، ولا أفهم ما يقول . » قلت : « ما في هذه الحلة التي تراها أعجمي . » قال إنهم خاطبوني بلحن لا أعرفه ، وإن شئت أعدته عليك كما سمعته . ثم أخذ يسرد عليّ الكلمات العامية التي سمعها من الناس في طريقه إليّ سرداً متواصلاً كما تسرد البيغاء كلماتها ، فقلت : « إنك قد أعدت يا سيدي بكائك هذا عهد أبي العلاء المعري ، فإنهم يتحلثون عنه أنه كان إذا سمع أعجمياً يتكلم حفظ كلامه بدون أن يفهم معناه . »^(١) فما سمع كلمتي هذه حتى اضطرب جسمه وانكفاً لونه^(٢) ، ورأراً بمقلتيه^(٣) ، وزحف إليّ حتى اصطكت ركبتي . فصجبت لأمره ، وما رأيت من استحالة حاله ، ثم قال لي : « من هو هذا المعري الذي حدثوك عنه ؟ » قلت : « رجل من علماء الأمة العربية وشعرائها عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة ، نقرأ سيرته في كتب التاريخ والأدب ، ونعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب . » قال : « وما ظنكم به ؟ » قلت : « إن الناس في أمره مختلفون ، ومن يرفضه أكثر من يتشيع له . » قال : « ومن أيهم أنت ؟ » قلت : « ممن يتشيع له ، فقد قرأت كتبه قراءة مستتبست بصبر ، فما شككت في مذهبه ودينه . » قال : « أ كنت تؤثر أن تكون في عصره أو أن يكون في عصرك حتى تراه ؟ » قلت : « ما أعديل بهذه الأمنية غيرها . » قال : « قد بلغك الله طلبتك . »

(١) ذكر المؤرخون لأبي العلاء قصصاً متعددة تتضمن أنه كان يحفظ مايسمعه من الأعاجم بلغتهم فيبقى في ذهنه زمناً طويلاً حتى يلتقي كما سمعه .

(٢) انكفاً لونه: تغير . (٣) رأراً بمقلتيه: حركهما وأدارهما .

لا بدّ من العقاب ، ففزعت إلى الروح الشريفة
المحمدية مستشفعا بها لا أريد ردّ القضاء ولكن أريد
اللطيف فيه ، فتعلق محمد ﷺ بقوائم العرش الإلهي
وقال :

« اللهم إنك تعلم أن عبدك هذا عاش في تلك
الدار كارها لها متبرما بها متسخطا عليها حابسا
نفسه في كسر بيته فرارا من أهلها ، يترقب فراقها
في جميع آناته وفيناته ، حتى لو رأى الشمس طالعة
لتمنى ألا يرى مغربها ، ولو رأى غاربة لتمنى ألا
يرى مشرقها . وقضى قضاؤك الذي لا مردّ له ولا
محيص عنه أن تعاقبه على ما اجترح من السيئات في
دار العمل ، فأسألك بقلمك التوراني الذي تمحو
به في لوحك ما تشاء وثبت ، أن تقي جسمه الذي
طهره في الحياة الدنيا بالزهد في شهواتها ولذائذها ،
والصبر على آلامها وأهوالها من عذاب النار (٢) وأن
تجعل عذاب قلبه فداء عذاب جسمه ، فعاقبه
بإرجاعه إلى تلك الدار التي كانت جحيمة ومستقر
عذابه ، وحسبه من العقاب أن يلقي فيها آخرها
ما لقي فيها أولا . إنك بعبادك لطيف خبير .»

« فقبل الله شفاعته نبيه وقضى أن أعود إلى الدار
الأولى لأقضي فيها من الأيام بعدد ما قضيت فيها
من السنين ، وقد علم سبحانه وتعالى أنني كنت
العهد الأول أحمله على العمى كما يحمله غيري
على البصر فردّ إليّ بصري لتنفذ مشيئته في عقابي
وتعليبي فله الحمد على سرائه وضرائه .

« هذه قصتي قصصتها عليك ، وهذا أول يوم من
الأيام التي سأقضيها في داركم هذه ، فاكمث عليّ

(٢) كان أبو العلاء يعتقد ما يعتقد جميع الموحدين أن ما لقيه
في هذه الحياة من عناء وشقاء وما أخذ به نفسه من الزهد
في العيش والرغبة عن لذائذ الحياة وأنتمها مدخر له أجره في
دار الجزاء كما يظهر من مثل قوله :
أأخشى عذاب الله والله عادل

وقد عشت عيش المستضام الملعوب

وقوله :

أصبح في الدنيا كما هو عالم

وأدخل نارا مثل قيصر أو كسرى

والزواج (١) فقد دخلت بها في زمرة المفسدين الذين
تنكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته في خلق النوع
البشري ، وطال حسابي عليها وحجاجي فيها وكان

(١) لأبي العلاء أقوال كثيرة في النهي عن الزواج والتزهد في
النسل جاء بها على صور مختلفة فتارة كان يفرح بموت
الطفل في مهده كقوله :

قدم الفتى ومضى بخير هيمه كهلل أول ليلة من شهره
لقد استراح من الحياة معجل لو عاش كابد شدة في دهره
وتارة كان يفضل بقاءه في عالم الغيب كقوله :

وإذا أردتم للبنيين كرامة فالجزم أجمع تركهم في الأظهر
وتارة كان يظهر سروره بأنه لم يتزوج ولم ينسل كقوله :

تواصل جبل النسل ما بين آدم وبينى ولم يوصل بلامي ياء
تثاوب عمرو إذ تثاوب خالد بعلوى فما أعلقتني الثوباء
وقوله :

بنت عن الدنيا ولا بنت لي فيها ولا عرس ولا أخت
وقوله :

لقد صرت في الدنيا غيبا مرورا

فأعفيت نسلي من أذاة ومن غبن فإن تخكمي بالجور في وفي أبي

فلن تخكمي في بناتي وفي ابني
وتارة كان يمد ولادة الوالد لولده جناية منه عليه كقوله :
ليذم والدك ولد ويعتب عليه فبفس عمري ما سعى له
وقوله :

هذا جناه أبي عليّ وما جئت على أحد
وظاهر أن الذي أثار هذه الخواطر في نفسه ما كان يتصوره من
أن الشقاء في هذا العالم لازم ضروري من لوازم النوع الإنساني ،
ولا خلاص له منه إلا من طريق العلم المحض ، وأن إسناده
الجناية إلى الوالد بولادة ولده ليس على ظاهره بل أراد به الإيمان
في تصوير هذا الشقاء وتبيين ضرورة اتصاله بالإنسان وأنه لو لم
يولد لما كان شقيا وقد أوضح غرضه هذا توضيحا بينا في قوله :

ألا تفكرت قبل النسل في زمن به حلت فتري أين تلقيه
ترجوله من نعيم الدهر متمما

وما علمت بأن العيش يشقيه
شكا الأذى فسهرت الليل وابتكرت
به الفتاة إلى شمطاء ترقيه
وأمه تسأل العراف قاضيه

عنه النذور لعل الله يقيه
وأنت أرشد منها حين تحمله

إلى الطبيب يداويه ويسقيه
ولو رقى الطفل عيسى أو أعيد له

بقراط ما كان من موت يوقيه

الناطق ينكر على الحيوان الصامت حتى حسه وجدانه ، ويأبى إلا أن ينظمه في سلك الجمادات الصم لأنه صامت لا ينطق ، وأخرس لا يبين^(٤) ١٩ وربما كان زقاء الديك ، وقوقاة الدجاجة ، وصرصرة البازي ، وهديل الحمام ، وزقزقة العصفور ، ونغاء الشاة ، ومواء الهرة ، وخوار الثور ، وحنين النيب^(٥) ، بكاءً بغير دموع وشكوى بغير لسان ، وربما كان يكتن ذلك الذبيح في نفسه من الوجد والبرحاء^(٦) ما لو استطاع أن يبين عنه لأبكى العيون دماءً ، وفجر الصخر عيوناً !

ثم رفع رأسه إلي وقال : « أ ما سمعت الدجاجات يقلن لك شيئاً عندما أردت ذبيهن ؟ » قلت : « لا يا مولاي ، ومتى قلن للناس شيئاً فيقلن لي ١٩ » فنظر إلي نظرة شزراء لا أنسى سهمها الواقع في قلبي ما حييت ، ثم قال : « أما لو أن الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقول له :

« مهلاً اريدك أيها القاتل السفاك ! لا تدن مني ، ولا تمدد يدك إلي ، فلا شأن لك معي ، ولا ترة^(٧) لك عندي !

« أنا صاحبة الحق المطلق في حياتي ، وأنا لا أريد أن أموت ، ولا رغبة لي في فراق الحياة ، لأن وراثتي أفرأخاً صغاراً هن إلى حياتي أحوج منك إلى مماتي . وليس من الرأي أن أكمل أمرهن إليك من بعدي ، لأنك شره طماع لا يشبع بطنك ، ولا تهدأ مدينتك . أنت لا تملك أن تعطيني الحياة ، فلا تملك أن تسلبني إياها .

« كل ما نستطيع أن نمن به علي أنك كنت تطعمني وتسقيني ، فهل تعلم أنك ماكنت تطعمني

(٤) من كلام أبي العلاء في إحساس الحيوان بالألم قوله في إحدى رسائله : « وقد علم أن الحيوان كله حساس يقع به الألم . » وقوله : « ولم يزل من ينتسب إلى الدين يرغب في هجران اللحم لأنها لا يتوصل إليها إلا بإيلاام حيوان يفر منه في كل أوان .

(٥) النيب جمع ناب وهي الناقة المسنة .

(٦) البرحاء : الشدة . (٧) الترة : الثأر .

أمرني حتى ينقضني أجلي ، وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها ، فقد اغتبطت بك مذ رأيتك وعلمت أن الله ما قبضك لي إلا وهو يريد أن يخفف عني العذاب مرة أخرى .

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثماً وتقبيلاً ، وعلمت أنني قد أحرزت في بيتي كنزاً لا أعدل به كنوز الأرض ظاهرها وباطنها ، وشعرت بما أضاء بين جوانحي من سرور ما كان يكدره علي إلا خوف انقضائه .

ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحمة الليل ، فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتمان سره ، ثم ودعته وتركته في خلوته على أن نلتقي غداً .

اليوم الثاني

ما كنت أجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يحب منه وما يكره ، ولكنني ظننت أنه بعث بطبيعة غير طبيعته ، ورأي غير رأيه ، فقدمت إليه في طعام العشاء دجاجات ريلات^(١) كنت أعددتهم للضيفان من قبل ، فلما أخذ بصره المائدة صار ينظر إليها مرة وإلي أخرى ، ثم قال : « ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه إلي ؟ » قلت : « إنهن دجاجات لم يكن للخدام الصغير عندي شأن غير رعايتهن والقيام عليهن والحدب بهن ، فكانت تؤثرن بأفضل ما نؤثرها به من طعام وشراب ، وتنزلهن من نفسها منزلة الواحد من أمه حتى امتلائن واكتنزن^(٢) واستدرن للذبيح . وكنت أبقى عليهن كلما طرقتي طارق إبقاءً على الفتاة أن ينفجر صدرها حزناً على أثرابها الصغيرات ، أما اليوم فلم أر من ذلك بدأً فذبحتهن إكراماً لك ، فسال من دموع الفتاة عليهن أكثر مما سال من دمائهن !

فوجم الشيخ ثم أطرق إطرافاً طويلاً سمعته يهين^(٣) فيه بهذه الكلمات : « وا رحمته ! لا تزال هذه المدي موكلة بهذه الأعناق ؟ لا يزال الحيوان

(١) الريل : الكثير اللحم . (٢) اكتنزن اللحم : اجتمع وصلب .

(٣) الهينة : الصوت الخفي .

« ذلك ما كان يسمعه الذابيح من ذبيحته لو أن الله وهبه أذنًا كالآذان وبصيرة كالبصائر ، ولكن الناس لا يعلمون .

« هيه يا صاحب الدجاجات حدثني عنك ، أ لم يكن لك في جميع ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها منادحٌ لإكرامي والقيام بحقي ، وأنت تعلم أنني رجل سلخت في دنياكم هذه من حياتي الأولى نيفًا وأربعين سنة لم أذق فيها لحم الحيوان ، ولا ثماره ، ولا نتاجه ؛ فحميت نفسي حتى غسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الأكتداء وأقتعتها بالبلسن طعامًا ، والبلس حلوى^(٥) لأنني كنت أعلم أن النبات طعامي الذي لا يلاعنني غيره ولا يشبهني سواه ، وأن لحم الحيوان إنما خلق للشفاة الغليظة والأنياب العريضة ، والأظفار الحادة والجلود المزارة^(٦) ، والأعضاء المتوتبة والهوامات الضخمة ، وكنت أرى أن أكلة اللحوم إنما يخادعون أنفسهم فيها ، ويجترّونها إلى طبائعهم اجترارًا ؛ لأنهم لا يأكلونها إلا إذا عاجوها بالطبخ والصف^(٧) ، والتقديد والشّي والقلّي ، ومزجوها بالخضر والتوابل والأبازير والأقزاح^(٨) مزجًا يكاد يخرج بها عن جوهرها إلى جوهر النبات ، حتى إذا نزل بهم عارض مرض نزعوا عنها ، وبرتوا إلى الله منها ، وفزعوا إلى النبات في طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم ؛ كأنما يطلبون شفاءهم في الرجوع إلى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له .

« وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم أنهم كانوا ينكرون عليّ رأيي في ترك ذلك الطعام ، ويمنعون في مساءلتي عنه وحجاجي فيه وحملتي عليه ، ويلحّون في ذلك إلحاحًا شديدًا حتى ظننت

إلا فتات مائدتك ، ولا تسقيني إلا غسالة يديك ، وأنت ما كنت تصنع ذلك رحمة بي ولا إحسانًا إليّ ؛ بل لتهيئَ لنفسك ما يسدُّ شهوتها ويطفئَ لوعتها ، وهل تعلم أنك أنت الذي سجتني في أقفاصك ، وحلت بيني وبين رزق الله أطعمه أتى ذهبت ، وأين حلت من حيث لا يساومني فيه مساوم ، ولا يحاسبني عليه محاسب ؟

« أ من أجل تلك الخشارة^(١) القذرة ، والجرعة الكدرة تسلبني حياتي وتفجع بي أفراخي ، ولا ذنب لي ولا لهنّ عندك إلا أنا كنا زينة بيتك ولعبة أطفالك ، وحماة آلك من بنات الأرض^(٢) وهوامها ورسل الفجر المنير إليك ؟

« لا تظلم السبع بعد اليوم ، ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه ، فكلّاكما وحش ، وكلّاكما مفترس لا فرق بينك وبينه إلا أنه لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن ؛ فهو يقر البطون بأظفاره وأنت تفري الأوداج بمُداك ، لا بل إن جريمتك أكبر من جريمته ، وعذرك أضعف من عذره ، لأنه يفترس ليشبع بطنه ، وأنت تفترس لترفه نفسك ، ولأنه يعجز عن الاحتيال لقوته ، وأنت على ذلك من القادرين^(٣) .

« استضعفتني فبرزت إليّ ، فهلا برزت لشبل الأسد أو ديسم الدب ، أو فُرعل الضبع ، أو حرش الحية ، أو هيثم النسر ، أو ناهض العقاب ؟^(٤)

« ما أنجبتك أيها الإنسان عاجزًا ! وما أظلمك قادرًا ! وما أشقاك بنفسك وأشقى العالمين بشقائقك !

(١) الخشارة: فضالة المائدة .

(٢) المراد بنات الأرض الحشرات التي تخرج من بطنها .

(٣) فضل أبو العلاء الحيوان على الإنسان في كثير من كلامه كقوله :

سيت بالكلب فأكرمه والكلب خير منك إذ ينبع
وقوله :

أقلّ منهم شرًا ومرزبة ما ركبوا في السرى وما ذهبوا
وقوله : خير من الظالم الجبار شيمته

ظلم وحيف ظليم يرتعي الذبحا
(٤) هذه فروق نتاج تلك الأنواع من الحيوان .

(٥) البلسن العلس ، والبلس التين ، ومن كلام أبي العلاء :
يقنعني بلسن يمارس لي فإن أنتني حلاوة بلس

(٦) الثوب المزأير الذي له زئير وهو ما يظهر من درزه .

(٧) الصف: تشريح اللحم عراضًا .

(٨) التوابل وما يليها ما يطيب به المطبوخ من الأشياء اليابسة .

كل عام من الرزق إلا نيفاً وعشرين ديناراً لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين^(٥) ، وما كنت أجِد السبيل إلى غيرها إلا من طريق الكدية والتكفف ؛ أي بقبول صلات الأُمراء وصدقات المحسنين . وقد علم الله من شأنِي أنني رجل لو علمت أنني إن أذلتُ ما صان الله من ماء وجهي على عتبة أمير أو قدم وزير أمطرت السماء عليّ ذهباً ، واستحالت الحصباء تحت قدمي ذُراً ما فعلتُ ضَنْناً بنفسِي على هذا الموقف المستوبل ، وإيثاراً للرضاء بقضاء الله وقدره في قسمة أرزاقه بين عباده^(٦) .

« فلم أرَ خيراً من ترك طعام لو اشتهيته لما قدرت عليه ، ولو قدرت عليه لما اشتهيته من حيث لا يكون

(٥) من كلام أبي العلاء في سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله في بعض رسائله : « وما حثني على ترك اللحم أن الذي لي في السنة نيف وعشرون ديناراً ، فإذا أخذ خادمي بعض ما يجب ، بقي ما لا يجب ، فافتصرت على قول ولسن ، وبعض ما لا يعلب في الألسن . » ومن كلامه الدال على أنه كان فقيراً معوزاً قوله :

وإلهامي بالمال أوجب أن يطلب مني ما يقتضي التمويل ويقول الغواة عولك الله كلبتم لغيري التخويل (٦) كان أبو العلاء غاية الغليات في قناعته وأثقة نفسه ، وقد ظهر ذلك في حالة معيشته واعتقاله ببيته ، وإنزوائه عن الناس مع رغبة الأُمراء فيه وإلحاح الكبراء عليه في البروز إليهم والكون معهم ، فضلاً عما كان لا يزال يهتف به من ذكر القناعة في شعره كقوله :

الحمد لله قد أصبحت في دعة أرضي القليل ولا أهتم بالقوت وقوله :

من مذهبي أن لا أشدُّ بفضة قدحي ولا أصبني لشرب معوج لكن أقضي ملتي بتقنع يغني وأخرج بالقليل الأروج هذا ولست أود أني قاكم بالملك في لوبي أغر متعوج ولما اضطر أن يخرج إلى آمد الدولة صالح وهو بظاهر المرة ليطلب منه إطلاق جماعة من الأسرى عنده ، قبل صالح شفاعته وأطلقهم ، ولكنه جرع بعد ذلك لهذه الضراعة جرْعاً ظهر في قوله :

تفبت في منزلي برهة مستير الميون فقيد الحسد فلما مضى العمر إلا الأقل وحس لروحي فراق الجسد بعثت شفيماً إلى صالح وذلك من القوم رأي فسد فيسمع مني سجع الحما فكم نفقت محبة ما كسد فلا يعجبني هذا النفاق

أنهم قاتلي من دونه^(١) ، كأنما يزعمون في ضوضائهم هذه أنهم إنما يأكلون لحم الحيوان باسم الشريعة الدينية لا باسم القرم والجعم^(٢) ، أو أن الله تعالى أنزل عليهم قرآنًا ألا يقيم لهم يوم القيامة وزنًا ، ولا يقبل منهم صرفًا ولا عدلاً إلا إذا قدموا عليه بيطون بجر^(٣) مكتظة بلحم الحيوان تتقدم بين أيديهم في منصرفهم من الحساب ، لتفتح لهم أبواب الجنان ! وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم أن يؤدوه ، وترك ما أمرهم أن يتركوه ، فلم يبق بين أيديهم من أبواب العبادة إلا باب التورع عن أكل اللحم مخافة أن ينقلب المباح بإعراضهم عنه حراماً ، كما ترك النبي ﷺ صلاة التراويح بعد أدائها مخافة أن تنقلب سنتها باستمراره عليها فريضة^(٤) .

« وأحسب أن لو كنت فيهم من أكلة السُّحت أو الميتة والدّم ولحم الخنزير ، أو أموال الناس بالباطل ؛ لأوسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح ، ما تركته نعمة على الشريعة ، أو تبرمًا بها أو تمرداً عليها . ولكنني كنت امرءاً جزوعاً يزعمني منظر الشرائع الحيوانية على مائدتي ؛ لأنه يذكّرني بمنظر الذبيحة وارتباعها وولهاها بين جبل الذابح وسكينه ؛ وكنت فقيراً بائساً لا أملك في

(١) كتب ابن عمران إلى أبي العلاء جملة رسائل يسأله فيها عن سبب امتناعه عن أكل اللحم ويكته فيها تبكيًا مؤللاً ويعرض عليه أن يحمل بعض الأُمراء على أن يرسل إليه ما يكفيه مؤونة ذلك إخراجاً له وإصناكاً ، وأبو العلاء يومئذ في أواخر حياته ومنتهى شيخوخته قد ضعفت شهوته عن اللحم وغيره ، ووهنت قوته عن المناظرة والجدل حتى قال في بعض أجوبته عن تلك الرسائل : « ولو مثل بحضرته السامية لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب ، وقد عجز عن القيام في الصلاة فإنما يصلي قاعداً والله المستعان . »

(٢) القرم والجعم : شهوة اللحم .

(٣) بجر : جمع أبحر وهو الممتلئ .

(٤) من كلام أبي العلاء في الذين يحفلون بصغار الذنوب ويغفلون كبارها :

يعيب أناس أن قومًا تجردوا

لحمامهم نصب العيون الشواذر

لقد سعدوا إن كان لم يجرعندهم

من الوزر إلا تركهم للمآزر

والنفوس لا تنفر إلا بما حلّ لها ، ولا تشتهي إلا ما حرم عليها .

« فويل لي من هؤلاء الناس ! شرّكتهم في دنياهم ، فقالوا شره طماع ، وصدفت لهم عنها فقالوا زنديق ملحد ، فصبر جميل واللّه المستعان على ما تصفون^(٤) . »

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد أو كاد فتفصّد جبينه عرفاً ، واستسرّ حديثه حتى ما يكاد يبين ، فرثيت له بما به ، وأمرت برفع المائدة من بين يديه ، وقدمت له مقترحه من الطعام ، فلبثنا نأكل صامتين حتى فرغنا ، فأردت أن أرفّه عليه ما أَلِمّ به من الهم ، فقلت له : « يا مولاي إن للحيوان اليوم شأنًا غير ذلك الشأن الذي تعرفه من قبل ، فقد ذهب كثير من الناس مذهب الفرق به والإحسان إليه ، واجتمع في كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحمين المحسنين ، يأخذون أنفسهم بمناظرة المدايح والسبل والأسواق العامة ، فإذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحتمل أو يسوطها^(٥) سوطاً عنيفاً ، رفعوا إلى الحاكم أمره ، أو رأوا حيواناً هزليلاً أو مهيبضاً^(٦) حملوه إلى مكان خاص بمعالجة أمراض الحيوان ، فعالجوه إن وجدوا إلى الرجاء فيه سبيلاً ، وإلا قتلوه رحمة به وإشفافاً عليه . »

قال : « لقد أحسنوا في الأولى ، وأساءوا في الأخرى ، ومن لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الأقدار في تحديد الآجال ، وها نحن نرى كل يوم مريضاً يُل^(٧) بعد إشرافه ، ويكاء الباكيات حوله ، وصحيحاً يخترم في اجتماع قوّته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تخترم الثمرة الغضة من غصنها الناضر ، فهلا وكلوه إلى منيته

(٤) من كلام أبي العلاء في علم رضاء الناس عنه حتى في زهده عما في أيديهم :

حورفت في كل مطلوب هممت به

حتى زهدت فما غليت والزهدا

(٥) ساط : ضرب بالسوط . (٦) المهيبض : الكسير .

(٧) يُل : يرجع ، أي يبرأ .

للتحريم والتحليل ، ولا للإيمان والزندقة في ذلك مدخل .

« وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ، ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات ، وانتهاك الحرمات ، فقد كان النبي ﷺ يجيع نفسه من غير عوز ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : « إن رسول الله لم يمتلئ قط شبعاً ، وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع ، فأمسح بطنه بيدي ، وأقول : « نفسي لك الفداء لو تبألت من الدنيا بقدر ما يقوئك . » فيقول : « يا عائشة ! إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم . » وكان يقول : « شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة^(١) . » وعلا عمر رضي الله عنه ولده عبد الله بن عمر بالدرة^(٢) ، إذ دخل عليه فرآه يجمع في طعامه بين الشريد والشواء ، وكان بعض الصالحين يعدّ الجمع بين الخبز والملح شهوة فيتجنبها ، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويحفره في الشمس ، ثم يأكله قائلاً : « كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء . » ومنهم من لم يأندم قط في حياته لا بالجوزاب^(٣) والكباب ، ولا بالخل والزيت .

« فهل كان واحد من هؤلاء بطراً بنعمة الله أو محرماً ما حلّ الله ؟ لا ، فما كل من أبغض حلالاً حرمه ، ولا كل من أحبّ حراماً حلّله ، فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بحلّ النبيذ فلما أريد عليه قال : « لو قطعت إرباً إرباً ما حرمته ، ولو قطعت إرباً إرباً ما شربته . » وعلم النبي ﷺ يحلّ الطلاق ، ثم قال : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق . » بل لو تبينت لعلمت أن قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية مصادرة النفوس في ميولها وشهواتها ،

(١) مخ الحنطة : خالصها .

(٢) الدرة : السوط يضرب به ، وكان في يد عمر بن الخطاب

رضي الله عنه الله درة لا تكاد تفارق يده .

(٣) الجوزاب : طعام يتخذ من سكر رز ولحم .

الرحمة محتاجون ، وإلى الله راغبون (٧) .

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب . وكان الظلام قد أظلنا بجناحيه ، فشعرت أن سنة من النوم قد رنقت (٨) في عيني ؛ فانسللت من بين يديه وتركته في مضجعه على أن ألقاه غداً .

اليوم الثالث

أصبحت في اليوم الثالث ، فإذا الشيخ قد فارق خلوته إلى حديقة المنزل فاقترب ترابها ، وتوسد أعشابها ، وأنشأ يردد النظر بين أزهارها وأنوارها ، ويسم للعصافير تنتقل بين أجمها (٩) وأشجارها ،

(٧) للمعري كلام كثير في الرفق بالحيوان والنهي عن إيلاده ومطارده ، وذبحه وأكل لحمه ، والانتفاع بألبانه وثماره كقوله في النهي عن ضرب الدواب :

لقد ساعني مفدى الفقير بجهله

على العير ضرباً ساء ما يتقلسد

يحملة ما لا يطيق فإن ونسى

أحال علسى ذي فترة يتجلد

وقوله يخاطب الحمامة ويؤمئها من غفره وختله :

لك النصيح مني لا أغادبك خائلاً

بمكر ولكني أغادبك مكرماً

إذا ما طردت الصقر يوماً فحاذري

أنا الإنسان أياماً وإن كان مُحرمًا

يصوغ لك الغادي قلادة هالكة

من الدم تخبي وجدك المتضرماً

وقوله في النهي عن صيد الوحش :

لا تطرد الوحش فما يلبث الـ

مطروء في الدنيا ولا الطارد

وقوله في النهي عن تقطيع لحم الحيوان المذبوح وقت

اختلاجه وقبل مفارقه الحياة :

روح ذبيحتك لا تعجله ميتته

فتأخذ التحض منه وهو يخلج

وقوله في الاعتراض على صيد الأسماك :

جاروا على حيوان البر ثم غدوا

على البحار فقالوا الصيد ما فيها

لم يقنع الحي منها ما تقتضيه

حتى أجاز أناس أكل طائفيها

وقوله يبيكي على الطائر المقتول :

و ابك على طائر رماه فتى

لاه فأوهى بفهره الكتفا

أو صادفته حباله نصبت

فظل فيها كأنما كتفا

بكر يبغي الماعش مجهداً

فقص عند الشروق أو تنفا

كأنه في الحياة ما فرع القصن

ففتى عليه أو هتفا

(٨) يقال رنق النوم في عينيه: إذا خالطهما كأنه مأخوذ من ترقيق

الطائر أي تخليقه ورفقه بجناحيه .

(٩) الأجم: جمع نجم بفتح النون وهو ما نجم من النبات على

غير ساق .

تأنيه هادئة مطمئنة حيث يسوقها القدر إليه (١) !

« ما أحسب هؤلاء الراحمين الذين تحتثني عنهم إلا مرأئين مصانعين ، ولا هذه الرحمة التي ينتحلونها لأنفسهم إلا حباله من الحبال نصبوها لاصطياد العقول ، واختتال النفوس ، ولا أنهم أرادوا بما فعلوا إلا أن يقول الناس عنهم إنهم رحموا الحيوان فأحرى أن يرحموا الإنسان ، فمثلهم كمثله المرائين في الدين الذين يتورعون عن التمرة حاللاً تذرعاً إلى البذرة (٢) حراماً .

« يا بني آدم دعوا النوق في مراحمها والشاء في زروبها ، والوحش في كتاسه والضب في جحره ، والذئب في وجاره ، والقطا في أفاحيصه ، ولا تزعجوا العصافير في أعشاشها ولا الحمام عن محاضنها ، ولا اليعاسيب عن خلاياها ، ولا الأسماك عن مسارحها (٣) . وجنبوها فحاحكم وشباكم وقتركم وزياكم (٤) ، ومداكم وشفاركم ، فإن لها نفوساً كنفسكم ووجداناً كوجدانكم ، ورجاء في الحياة كرجائكم ، واعلموا أن الله تعالى ما أغرى بعضكم ببعض ، ولا سلط قويكم على ضعيفكم ، ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين أحيائكم إلا بعد أن ضريرتم (٥) بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها ، وقطعتم إلى المتعة ما شتتم من الحلاقيم والغلاصم والأوداج والأباهر (٦) . فارحموها ترحموا أنفسكم واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم ، إنكم إلى

(١) من كلام أبي العلاء في عجز العالم عن إدراك الغيب :

وجدت الغيب تجهله البرايا فما شق هديت وما سطيع

(٢) البذرة: كيس به مقلد من المال .

(٣) هذه فروق أماكن تلك الحيوانات .

(٤) القتر: جمع قتره بضم القاف ، وهو التاموس الذي بينه

الصائد ليستتر عن الصيد . والزي: جمع زية بضم الزاي ،

وهي حفرة تحتفر في قمة الجبل لصيد الأسد .

(٥) ضرى الوحش باللحم اعتاده وألقه .

(٦) الغلاصم: جمع غلصمة وهي اللحم بين الرأس والعنق

والأباهر: جمع أبهر وهو عرق يخرج من القلب إلى سائر

الشرايين إذا انقطع مات صاحبه .

للمليك المذكرات عيسد
وكذاك المؤنشات إمساء
فالهلال المنيف والبدر والفر
قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنش
سرة والأرض والضحي والسماء
هذه كلها لربك ماعا
بك في قول ذلك الحكماء

ثم التفت إليّ وقال : « كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها ؛ لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ ، والمؤرخون يصانعون ويدهنون ، أو من أفواه الفقهاء ، والفقهاء تجار يرتزقون ، لا هداة يرشدون ، أو من خطرات عقولهم وقد أفسدها عليهم القائلون والكاثبون ^(٥) . والحقيقة موجودة ولكنهم لا يعرفونها ؛ لأنهم لا يعرفون الطريق إليها . » قلت : « وأين تجدها ؟ » قال : « في هذه الأودية الفيحاء ، تحت تلك القبة الزرقاء ، بين ذلك الظل والماء . »

« هنا يرى الإنسان ربّه في الغريسة يُلقِي بها

(٥) كثيراً ما نغم أبو العلاء على الرواة والقصّاص أخبارهم التي يضعونها من عند أنفسهم ، ويدونونها في كتبهم ، مصانعة للعامة واستهواء لقلوبهم وطلباً للريح منهم كقولهم :
ويقول الكرام قولاً وما في المر صر إلا الشخص والأسماء
وأحاديث خبرتها غواة وافترتها للمكسب القدماء
غلب اللين منذ كان على الخلق وماتت بغيتها الحكماء
وقوله في تكذيب ما ورد على ألسنتهم من أخبار المعمرين في التاريخ القديم :

وآدعوا للمعمرين أمورا لست أدري ما هن في المشهور
أترامهم فيما تقضى من الأيام علوا سنينهم بالشهور
وقوله في تكذيب القصص الذين يزعمون أن أول من شاب من الرجال هو سيدنا إبراهيم عليه السلام :

ما أقبح المين قلتم لم يشب أحد
: حتى أتى الشيب إبراهيم عن أم
كلبتهم ونجوم الليل شاهدة
أن المشيب قديماً حل في الألمم

وقوله :
لعمري لقد فضح الأولين ماكتبوه وماسطروا

ويصغي إلى سرار الحديث بين حصبتها وماتها ؛
فعرفت المدخل إلى قلبه ، والوسيلة إلى سروره
وغبطته ، فاقتترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد ،
ليرقه عن نفسه ما ألمّ بها من الحزن والألم ، فخرجنا
يتوكأ على يدي مرة ، وعلى عصاه أخرى حتى
وصلنا إلى وادٍ أبيض يهتز بصنوف الأشجار ، وأفانين
الأزهار ، ويترأى في ألوان من النبات مشبهات وغير
مشبهات ، من هائج وعيم ، وبارض وجميم ^(١)
وكروم وأعنان ، وسنايل وأعنان . وتفيض أرجاؤه
بالجداول والغدران والقني والخلجان ، مطردات
ومنعطفات ، ومجتمعات ومفترقات ، يُفضي أولها
إلى آخرها ، ويتصل أقصاها بأدناها ، ويعطف كبيرها
على صغيرها ، وقوبها على ضعيفها ، فكأنها صلال
رقشاء قد فرّت من حرّ الظهيرة إلى هذا الروض
الأريض تبتد بين روايه وأكمامه ، ومصاعده
ومنحدراته ، فهي تنقبض وتنيسط ، وتنساب
وتتمعج ^(٢) ، وتقبل وتدبر ، وتقوم وتقع ، وتتواثب
وتتراجع ، وتتواصل ثم تتقاطع ، وكأن حفيف أوراقه ،
وخريف مائه ، وغريد أطياره وضجيج نواحيه وعجيج
سائمه ، أنغام مختلفات يتألف من مجموعها لحن
بديع يسمعه السامع ، فيخيل إليه أنه هابط من أبواب
السماء ، أو أن سكان الألب ^(٣) فوق عروشهم يغنون ،
وسكان الأرض بين أليهم يستمعون .

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة
الحائر المشدوه ، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه
وبين نفسه ، فجمد في مكانه كأنه نصّب من
الأنصاب ، ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكونه
حتى فنيت كما فني في مشهده الذي بين يديه ، فلم
أرجع إلى نفسي حتى سمعته يقول :

(١) الهائج من النبات : الذي اصفر ويس ، والعيم منه ما عم
الأرض والبارض أول ما يبلو من النبات ، فإذا تحرك قليلاً
فهو الجميم .

(٢) تمعجت الحية : تلوت في سيرها وتنتت .

(٣) الألب في خرافات اليونان : مجمع آلهتهم ويقولون إن لتلك
الآلهة ساعات يشربون فيها في مجتمهم هنا ويطيرون .

« هنا يرى الإنسان السائمة تأكل العشب ، والعشب يأكل التراب ، والتراب يأكل السائمة ؛ فيستحيل الجماد نباتاً ، والنبات حيواناً ، والحيوان جماداً ؛ فيعلم أن المواليد الثلاثة مادة واحدة تتلون ذراتها ، وتتشكل جواهرها ، ويعلم أن هذا الإنسان الفاجر بنفسه ، والمذلّ بعظمته واقتداره ربما كان بالأمس صفيحة^(٢) ملقاة على جانب قبر ، وربما يكون في الغد جلدة بالية في ذؤابة^(٣) نمل^(٤) .

« هنا يرى الإنسان الأرض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى فيها البذور ، فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والرياح أن تعصف بذورها ، فيعلم أن الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر في قلوب الأشرار إلى أن تبلغ شغافها ، وأن الناس ما اختلفوا إلا لأنهم جاحدون ، ولا اقتتلوا إلا لأنهم ملحدون .

« هنا يرى الإنسان الشمس طالعة من مشرقها مصفرة اللون متقاربة الخطوات مخافة أن تعير إليها رشاشة سوداء من مآثم هذا العالم ومخازيه ، ثم لا

(٢) الصفيحة: الحجر العريض .

(٣) الذؤابة من الثمل: ما أصاب الأرض من المرسل منها على القمم .

(٤) ورد أبو العلاء هذا المعنى الخاص بتغير المادة وتشكلها كثيراً في كلامه ، فمن ذلك قوله :

مضى الأناس فلولا علم حالهم

لقلت قول زهير لية ملكوا

في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا

منه فكيف اعتقادي أنهم هلكتوا

وقوله :

وما يدريك والإنسان غمر وقد يدري خليلك وهو دار
لعل مفاصل البناء تضحى طلاءً للسقيفة والجدران

وقوله :

فلا يمس فخارا من الفخر عائد

إلى عنصر الفخر للنفع يضرب

لعل إزاء منه يصنع مــــرة

فياكل فيه من أراد ويشرب

ويحمل من أرض لأرض وما درى

قواها له بعد البلى يتغرب

وقوله في داليته المعروفة :

ربّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحك من تراحم الأضداد
ودفين على يقايا دفين في طویل الأزمان والآباد

غارسها في التربة ، فإذا هي نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزّراع ، ويراه في الحجة الدقيقة في الصرة المستديرة في النواة الصغيرة ، التي لا تلبث أن تأخذ مكانها من مغرسها ، حتى تصير نخلة سحوقاً تملأ الأرض خيراً بجذوعها وسعفها ، وجريدها وقنواتها ، وعثاكيلها وطلعها وبلحها وبسرها ، ويراه في الكواكب المائلة في السماء ، والأسماك السابحة في الماء ، والأجواء الملوّنة بالهواء ، والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلّى ؛ فيمتلئ قلبه يقيناً صافياً رائقاً لا تعبت به المناظرات ، ولا تشوّه جماله المجادلات ، ولا يحتاج بعده إلى متكلم يعلمه النظر ، ولا فقيه يلقيه الجدل ، فلا دليل على الله غيره ، ولا هادي إليه سواه^(١) .

(١) كان أبو العلاء من أشد الناس بغضاً للمناظرات الدينية لاعتقاده أنها تورث الأحقاد والأضغان ، فضلاً عما تلقىه أحياناً من الشكوك في نفوس الضعفاء ، وكان يكره من المتناظرين أن المناقشة وحبّ الغلب كثيراً ما يحملهم على الخروج عن الحق وإنكار البديهيّات كما يظهر ذلك من مثل قوله :

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت

كتب التناظر لا المغني ولا العمد

قد بالغوا في كلام بان زخرفه

يوهي الميون ولم تثبت له عمد

وما يزالون في شأم وفي يمن

يستنبطون قياساً ماله أمد

فدرهم ودناياهم فقد شغلوا

بها ويكفيك منها الواحد الصمد

وقوله :

يللّ غدت فرقاً وكل شرعة

تهدي لضمر غيرها إكفارها

وقوله :

علم الفتى النظر أن يصار

عميت فكم يخفى اليقين وكم يعم

لو قال سيد غضا بحثٌ بملة

من عند وسي قال بعضهم نعم

وقوله :

هذا الفتى أوقع من صخرة

يهت من ناظره حيث كان

ويُدعي الإخلاص في دينه

وهو عن الإلحاد في القول كان

يزعم أن العشر ما نصفه

خمس وأن الجسم لا في مكان

تلبث أن تأخذ مكانها من كبد السماء حتى تنحدر إلى مغربها هاربة ، فتغمس في ماء البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق ما ألمَّ به من تلك الأدران والأرحال ، ويرى الليل مُقبلاً يقطب وجهه ويزوي ما بين حاجبيه ويردُّ شيئاً فشيئاً حتى يسود غضباً على هذا المجتمع البشري ، فيما يقتصره تحت ستاره من المفاصد والشرور ، ولا يزال ماداً يديه بالدعاء إلى الله تعالى أن يعجل أوبته إلى مستقره حتى يستجيب له ويداول بينه وبين النهار ، ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام ثم أطلت بعيونها على هذا العالم الأرضي مرغمة ، لتنفس عن رفيفها الليل بعض ما خالط قلبه من الهم والكمد ، فلا تلبث أجفانها أن تطرف انغلاقاً وانفتاحاً مخافة أن يصيبها سهم نافذ من سهام الأشرار التي تتطاير يميناً ويسرة ، وصعوداً وهبوطاً ، فلا يقوم لها شيء إلا أتت عليه .

« هنا يرى الإنسان الحقيقة في هذا العالم عارية الجسم ، و يسمع صوتهها واضح النبرات من حيث لا يحجب بصره تكلف المتكلفين ، ولا خداع الخادعين ، ولا يصد سمعة قرع النواقيس ولا صياح المؤذنين .

فقلت : « حسبك يا مولاي ، فقد نال منك أجيح هذه الرمضاء ، وإنني أرى في رأس هذا الوادي رجلاً أحسبه فلاح هذه الأرض ، فامض بنا إليه علّه يسر لنا ظلة نفيء إليها ، وجرعة باردة نفثاً بها هذه الصارة^(١) . » ، فمشينا إليه حتى بلغناه ، فرأيناه مكباً على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافلها ، وقد شرست يده وششت قدماه وزأبر صدره^(٢) ، وأفرغ قرص الشمس في رأسه جعبة سهام ، فتصبَّب عرقاً حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر المضطرم ، فحينئذ بتحة حياً بأحسن منها ، وأفضينا إليه بطلبتنا ، فأشار بيده إلى

الشيخ : « من يملك هذه الأرض ؟ »
 الفلاح : « هي لسيدي ومولاي ، أطل الله بقائه وأتم عليه نعمته ، صاحب هذا القصر الذي تراه . » وأشار إلى قصر فخم يرفرف بأجنته في هذه البقعة الخضراء ، رفرة الحمامة البيضاء ، في القبة الزرقاء .

الشيخ : « أراك تدعو له وتتمنى له الخير والسعادة ، فلعلك سعيد بجواره مغتبط بمكانك منه ، ولعله يملكك ببره وإحسانه ويغدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه . »

الفلاح : « حسبي من سيدي أن أرى وجهه مرة في كل يوم أو يومين ، ممتطياً فرسه الدهماء في ركب من أصحابه وحاشيته ماراً بهذه الأجمات

(٣) يقال سَجَّ الحائط: إذا طلاها بطبقة رقيقة من الطين .

(٤) أسيطنة: تصغير أسطوانة .

(٥) رئة المتاع بكسر الراء: ساقطه .

(٦) الحشية: الفراش المحشو .

(٧) قزل به قزل: هو أقيح العرج .

(١) يقال فُتأ القدر: إذا سكن غليانها ، والصارة : العطش .

(٢) شرست اليد: إذا غلظ ظهرها من برد فتشقق ، وششت القدم:

إذا خشنت وغلظت ، وزأبر الثوب : إذا خرج له زئبر ، وهو

ما يظهر من حرزه .

فاستأثر بها ، وأما أنا فانكسرت رجلي وقدر الله لي الحياة فما أسفت على شيء أسفي على أن لم أكن قد لحقتُ بها ، فأكون قد هلكت في سبيل خدمة سيدي كما هلكت ليرحم علي كما ترحم عليها ، ويأمر بدفني في مقبرة أجداده كما أمر بدفنها .

الشيخ : « ربما كنتَ قانعاً من إحسان سيديك إليك وعطفه عليك ، بما تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه الأرض وثمراتها . »

الفلاح : « لا والله يا مولاي ما أعلمني نازعت سيدي نعمته وسعاده في قفيز بُر ، أو حفنة تمر ، إلا أن تسقط بين يدي ثمرة أعلم أنه لا يأبه لها ، فتكون قسمة بيني وبين ولدي ، أو أحتطب من أطراف هذا الوادي بضعة أعواد من الحطب أشعلها تحت قدري ، و أستغفر الله مما سهوت عنه أو أخطأت فيه . »

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول أن يكاظمني دمةً ترجح في مقلتيه ، فأشرت إليه بالقيام فقمنا ، ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل ، وقد نزل ستر الظلام فقلت : « أرجو يا مولاي أن أكون قد بلغت ما أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة . » قال : « ما ننص عليّ يومي إلا منظر ذلك الرجل الأبله المسكين في صغر نفسه ، وسقوط همته وذلة جانبه ، وما أحسب إلا أن الظلم قد ألح على نفسه حتى قتلها ، وسلبها حسناتها وجدانها ، فأصبح لا يعرف لنفسه حياة ذاتية مستقلة عن حياة ذلك الإنسان الذي يسميه سيده (٤) ، فهو لا يفرح إلا لفرحه ، ولا يغبط إلا باغباطه ، ويرضيه منه كل شيء حتى سوء مجازاته إياه على إخلاصه إليه ، وتعبه له بضربه وتعذيبه وتفتيقه (٥) الرزق عليه ،

(٤) ما كان أبو العلاء يرى لأحد فضلاً على أحد إلا بالفضائل النفسية ، وقد ردد هذا المعنى كثيراً في كلامه كقوله :

أسر إن كنت محموداً على خلق ولا أسر بأني الملك محمود وقوله :

وأقصائي عن الرؤساء كوني وكونهم لخالفنا عبيداً وقوله :

وإن أفضل من تعظيمهم رجلاً صفرًا من الحكم التعظيم للحمج (٥) التفتيق : التفتيق .

الملتفة ينتزه ويتروح ، ويطارد الثعالب والثئاب مطاردة الشجاع المستقتل ، ثم يعود إلى قصره مسروراً مغتبطاً بمصباحه وممساها .

الشيخ : « إنما أسألك عن أياديه عندك ، وصنائعه لديك ، لا عن منازحه وطرأته وملذاته وشهواته . »

الفلاح : « وهل يوجد في باب النعم ، جليلها ودقيقها ، نعمة أجل قدرًا وأسمى قيمة من أن أكون عبدًا مملوكًا لسيد كهذا السيد رفيع الجاه ، جليل القدر ، واسع النعمة ، تطأطي بين يديه رؤوس العظماء ويختلف إلى حضرته كبار الأمراء . »

الشيخ : « أيها الرجل ما عن هذا أسألك إنما أسألك ، هل يسلم عليك سيديك هذا إذا مرَّ ببابك ، أو يخلو بك أحيانًا ليتعرف همك ، وما تهتف به نفسك من رغباتك وحاجاتك ؟ »

الفلاح : « الحق أقول يا سيدي إنني ما سمعت في حياتي بأعجب من سؤالك هذا ، ومتى كان السيد يخاطب عبده إلا بالأمر والنهي ، أو يرفع إليه طرفه إلا بالنظر الشرر ، أو يلامس بيده جسمه إلا للتأديب والتعذيب ! ولقد تمرَّ بي وبعيالي الليالي ذوات العدد ولا نكاد نجد من الخبز المخشوش ما يملأ بطوننا ، فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد من نسيان سيدي إياي بضعة أيام أو إغفاله أمري ونهبي وزجري وتأديبي ، وقد أعد لي - حفظه الله - وأمتعني بدوام رعايته وعنايته - عصياً غلاظاً يتعهدي بها من حين إلى حين كلما نسيت أمرًا من أوامره ، أو قصرت في رعاية غرض من أغراضه ، فأغبط بذلك الاغبطاء كله ، لأنني أعلم أنني منه على ذكر (١) ، وأني قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه إغفاله وإطراحه وإلقاء حبله على غاربه (٢) . »

الشيخ : « وأين أم هذين الولدين ؟ »

الفلاح : « ماتت - رحمها الله - في سبيل خدمة سيدها ، فقد كنا يومًا نمتح (٣) على حافة بئر ، فزلقت أقدامنا وانبت بنا الحبل فسقطنا ، أما هي

(١) الذكر: التذكُّر . (٢) الغارب: الكاهل أو بين الظهر .

(٣) متح الماء: نزعه واستخرجه .

وكذلك يفعل الظلم في نفوس المستضعفين .
ثم تركني وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه
الكلمات :

يحسن مرأى لبني آدم
وكُلُّهم في الذوق لا يعذب
أفضل من أفضلهم صخرة
لا تظلم الناس ولا تكذب

* * *

الرسائل

كتاب في التقاضي

« أنا إن سألتك حاجتي - أعزك الله - وبسطت
إليك يد رجائي فقد طرقتُ باب المكارم ، واستمطرت
غيث المراحم ، ورجوت واحد الدهر همّة وحزماً ،
ونادرة الوجود كرمًا وفضلاً ، فإن أنجزتها فليست
أولى الهمم ، ولا واحدة النعم ، فلكم سبقتُ إليَّ
منك أيادٍ تخرس دونها ألسنة الشكر ، وتضيق بها
جرائد الحصر ولقد مثلتُ - أيّذك الله - بين أن
أستشفع إليك بذوي الجاه عندك ، والزلفى لديك ،
وبين أن أكل ذلك إلى كرمك وفضلك ، وما
طبعَ عليه نفسك الشريفة من خلال الخير ، وسجايا
البر ، فأريت أن الثانية بك أحرى ، وبفضلك أجدر ،
والسلام . »

كتاب مقاطعة

« أتاني كتابك وقد أبلتُ من مرض حبك ،
وصحوت من رقدة طال عليّ الغيب فيها حتى خفت
أن تتصل برقدة الموت ، فلم ترعني روائعك ^(١) ، ولا
أجدي عندي اعتذارك ، ولا أخذ حديثك من قلبي
مأخذه من قبل ، ولم أر بين سطورك ذلك النور الذي
كان يملأ عيني روعة ^(٢) ، وقلبي هيبه ، فالحمد لله

(١) أي لم تعجني محاسنك .

(٢) الروعة: المسحة من الجمال .

الذي أدلني منك ، وأعتقني من رقك ، وكشف لي
من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصري ؛
فجفت الدموع التي طالما أذلتها ^(٣) بين يديك ،
وقرت العين التي كنت أساهر بها الكركب شوقاً
إليك ، ولم يبقَ في خاطري من ذكرك إلا كما بقي
في قلوب الناس من الوفاء ، والحب شجرة يفرسها
الأمل في القلب ، ثم يغلّوها بمائه وهوائه ، فلا تزال
تشتجر أغصانها ، وترف ^(٤) ظلالها ، وترن أطيافها ،
حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت ، ولقد
عالجت هذا القلب الشُموس ^(٥) في الرجوع إلى
سالف عهدك ، وسابق ودك ، فجمّح جموح المهر
الأرن ^(٦) ، وركب رأسه إلى حيث لا مطمع في
أوبته ، وله العتبي فيما فعل ، فقد ملكني قياده برهة
من الزمان فأسأت عشرته ، وخفرت ذمته ، وأرغمت
معطسه ، وركبت به في سبيلك أخشن مركب ،
وأنهلت من جفائك وكبريائك شرّ منهل ، فما هو إلا
أن أمكنته الغرة فانطلق انطلاق السجين من سجنه ،
والطائر من قفصه ، فلا أوبة حتى يؤوب القارظان ،
ويلى الجديدان . »

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد

إليه بوجه آخر الدهر تقبل

كتاب تهكم

« علمت أن ساسانياً ^(٧) طرق بابك بالأمس ،
وما زال يكيد لك ويمالحك ^(٨) ، ويتغلغل في مواضع
الضعف من قلبك ، حتى خدعك عن نفسك ،
واقطف زهرة من روضة مالك ، وراح يفتّر عن ثغر
باسم ، ورحت تفرع سنّ نادم . فما هذا الخلق
الغريب الذي تخلّفته ، وما هذا المذهب الجديد الذي
اعتنقته ؛ ومتى أقامك آدم وصياً على أولاده من
بعده ، تكسو عاريهم ، وتشيع جائعهم ، على أن

(٣) أذلتها: أهنتها . (٤) رف النبات: اهتز واضطرب .

(٥) شمس: امتنع وأبى . (٦) المهر الأرن: النشيط .

(٧) النسبة إلى ساسان: وهو رجل كان معروفاً بالفقر والبصر

والاحتيال على الصدقات .

(٨) مالح: جادل .

ولقد كان لك في انزوائك واعتزالك ، واكتفائك بقرصك وزيتك ، وخلوتك بصندوقك في كسر بيتك ، من حيث لا تزور ولا تزار ، منادح عن هذه اللقمة التي أسهرت ليلك ، وأقضت مضجعتك ، وأقعدتك على مثل روق الظبي خيفة وحذارا ، فأياك والعود إلى مثلها يطل غمك ، ويسود عيشك ، والسلام .

كتاب ياس

« كتابي إلى سيدي ومولاي ، والنفس بين جنة من الأمل تغن^(٢) أشجارها ، وترن أطيافها ، وتشترج أغصانها ، وتعتق غدرانها ، وهاجرة من اليأس تلتطى نارها ، ويعتلاج أوارها ، وتحول بين الجفون

واغتماضها ، والجنوب ومضاجعها . والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الأضالع مشية الطائر الحذر ، ثم يدركه الأمن فيقر في مستقره ، قرار الماء في نهاية منحدره . وحالي كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم ، وسرور وحزن ، وقبض وبسط ، ومد وجزر ، أذكر الله ورحمته وإحسانه ، وأرقته وحنانه ، فيشرق لي من خلال ذكراه وجه الحياة الناضر ، ونورها البارق ، وجمالها الساطع ، وبشرها الضاحك ، ثم أذكر الدهر وصروفه ، والعيش وحثوفه ، والأيام وما أعدت في طياتها لبنها من عثرات في الخطوات ، ونكبات في الغدوات والروحات ، وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها ، والقلوب وأمانها ، فألس صديري يبدي لأعلم أين مكان قلبي من أضرابي ، ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا ، فليت الله يصنع لي فيمطر علي قطرة واحدة من غيوث رحمته وإحسانه أبل بها غلتي ، وأطفئ بها لوعتي ، أو ليت القدر ينسب أظافره بين سحري^(٣) ونحري نشوبا لا يستبقي بعده عرفا نابضا ، ولا نفسا مترددا ، فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمريض المشرف لا هو حي فيرجى ، ولا ميت فيبكي .

« يقولون : » ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ! « وأقول ما عذب الله عبادَه بنازلة القضاء ،

الفقراء في الدنيا كثير قد ضاقت بهم خزائن الأرض والسماء ، فكيف تسعهم خزائنك ، وهل بين الدرهم الذي أعطيت ، والدرهم التي أبقيت إلا حرف واحد^(١) ؟ فليت شعري من أين ذهبت ، ومن أي باب نفذ هذا الشيطان إلى قلبك ؟ وإن أخوف ما أخاف عليك أن تكون أتيت من باب تلك الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة ، فإن كانت هي فالخطب عظيم ، والبلاء جسيم ، فإنك حينما ذهبت ، وأتى حلتك ، لا تقع عينك إلا على يد شلاء ، ورجل بترء ، وعين عمياء ، وصورة شوهاء ، ونوب مخرق ، وشلو بمزق ، وطريح على التراب سقيم ، وجسم أعرى من أديم ، فإن لم تفارق الرحمة قلبك ، فارق المال جيبك ، فطفت مع الطائفين ، وتسوّلت مع المتسولين ، ثم لا تجد لك راحما ولا معيناً ، فارحم نفسك قبل أن ترحم سواك ، ولا تنس أن تردد في صباحك ومساءلك ، وفي مستأنف خطواتك ، وفي أعقاب صلواتك ، كلمة ابن الزيات « الرحمة خور في الطبيعة . »

« وعلمت أنك دعيت إلى وليمة فلان فتحلب لها فوك ، ورقصت لها أشداقك ، فطرت إليها ، ثم وقعت على خبزها وشوائها ، وفاكهتها وحلوائها ، مثلج الصدر ، ثابت القدم ، ساكن القلب ، طيب النفس ، كأنك لا تعلم أنها لذة الساعة ومرارة العمر ، وشيع اليوم وجوع الأبد ، وأنت إنما طعمت ما في الحباله من الحب ، تأكله اليوم ليأكلك غدا ، فمن لك بالنجاة من مضيئك إذا جاءك يوما يتقاضاك دينه ، وقد حفت به كوكبة من خللاته وصبحه ، فطار لمراه لبك ، وتمشى له قلبك في صدرك ، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك ، فالفقير إن منحت ، والعار إن منعت ، وأعجب من ذلك أنك ما برحت الوليمة حتى أخذ المغني مجلسه فسمعت وطربت ، ومن طرب شرب ، ومن شرب وهب ، ومن وهب خرب .

(١) يشير إلى الفرق بين مفرد الدراهم وجمعه حرف واحد وهو الألف اللينة في الجمع ويريد بذلك تعظيم شأن الدرهم وأنه لا يستهان به لأن الدراهم وإن كثرت فهي ليست إلا درهما على درهم .

(٢) تغن: تكثر . (٣) السحر: الرقة .

فأصبح عون النواكب عليه ، أو باكيًا يكي وليدًا كان يرحوه لمستقبل دهره ففجعت الأيام فيه ، أو ساعيًا دائبًا وراء غاية يطلبها من الدهر فلا يقرب منها حتى يتعد عنها ، ولا يمسك بها حتى تفلت من يديه ، أو ساهرًا متململاً لولا أمله أن تنيله الأيام ما يشتهي من هواه ما بات ليله شاكيًا باكيًا ، داعيًا مناجيًا ، لا تراه إلا عين السماء ، ولا تسمعه إلا أذن الجوزاء .

« هذه حالتي ، وذلك همّي ، وهذا ما وسوس لي أن أعتزل الناس جميعًا ، وأفارق عشيرتي وصحبي ، ويراعي ومجبرتي ، علني أجد في البعد عن مشارات الأمانني ومباعث الآمال راحة اليأس ، فالْيأس خير دواء لأمراض الرجاء .

« فها أنذا قابع في كسر بيتي ، لا مؤنس لي إلا وحشتي ، ولا أنيس إلا وحدتي ، أتخيل البيت قبرا ، والثوب كفنا ، والوحشة وحشة المقبورين في مقابرهم ؛ لأعالج نفسي على نسيان الحياة ، وأمانيتها الباطلة ، ومطامعها الكاذبة ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وهذا آخر عهدي بك وبغيرك والسلام .

* * *

الكلمات

الجرائد

لا أرى الصحف في مصر إلا ناديا من أندية القمار ، ولا هؤلاء الكتّاب إلا جماعة من اللاعبين قد وضعوا رعوس المصريين على مائدة اللعب ، كما توضع الأكر على طاولة «البليار» ، ثم داروا حولها يلعبون بها ، ويتدافعونها فيكسبها في الصباح «زبد» ، ويخسرها في المساء «عمرو» ، وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدور النحس دورته عليهم جميعًا ، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادي .

عبد الحميد

حضرت منذ أشهر قلائل تمثيل رواية في مسرح

وصاعقة العذاب ، وطاقية الطوفان ، والزلازل الأكبر ، والموت الأحمر ، والخوف من الجوع ، والنقص من الأموال والأنفس والثمرات ، بمثل ما عذبهم بالأمل الباطل ! وما ليلة نابغة ضرير نجمها ، حالك ظلامها ، بيت منها صاحبها على مثل روق الظني خيفة وحذارًا ، فوق أرض تعزف جنانها ^(١) ، وتخوم عقباتها ، وتزأر سباعها ، وتعوي ذئابها ، وتحت سماء تنهاوى نجومها ، وتتوالى رجومها ، وتتراكم غيومها ، بأسوأ في نفسه أترك من رجاء كاذب يتردد بين جنبيه ، تردد القصة بين لحيه ، لا هي نازلة فيطمعها ، ولا صاعدة فيقذفها .

« قد أصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوها في بطون الأودية ، وفتن الجبال ، أن أراها سارية في مسارها ، سارحة في مسارحها ، تتناول رزقها رغداً من بوارق المصادفات ، ومفاجآت المقادير ، لا يعينها الأسف على فائت من العيش ، ولا يقلقها الطمع في آت من الرزق ، قد قنعت من الماء بالكدير ، ومن العيش بالجشيب ^(٢) ، فتساوى لديها شحمها ولحمها ، وشيخها وقيصومها ، وسعدا ونحسها ، ونعيمها وبؤسها ، فما تحفل بنوازل القضاء ، ولا رجوم السماء ، ولا تبالي أ سقطت على الموت أم سقط الموت عليها !

« فمن لي بهذا العيش من عيش مثلي فيه كمثلي رجل عثرت به قدمه ، فسقط في جوف بئر بعيد غورها ، ناء مكانها ، فما زال يتخبط و يضطرب ، ويهب ويثب ، حتى عثر بمرقاة علق رجله بها ، ثم تلمس أخرى غيرها ، فما وجدها حتى بلغ منه الجهد أو كاد ، فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى فسقط ، فخاف الغرق فعاد إلى تلمسه ، فعاد إلى سقوطه ، فلا هو بالغ رأس البئر فينجو من الموت ، ولا هو بالغ قرارة الماء ، فينجو من الشقاء .

« أرم بطرفك حيث شئت من الناس ، هل تبصر إلا صريعا صرعه أمله ، أو قتيلا قتله رجاءه ، أو صديقا يشكو غدر صديق كان يعدّه لنواكب الدهر

(١) جمع جان . (٢) الجشيب: الخشن من الطعام .

ولا يتاع من الصحف الأسماء والألقاب ، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه والإشادة بذكره ، ولا يتمم ما يجده من النقص في أدبه بالغض من أدب غيره ، فترى للأول في هذا البلد الساذج دويًا كدوي الرعد ، وترى الآخر مطرًا مجفواً لا يؤه له ، والدر في الصدف أغلى قيمة وأرفع قدرًا من جميع ما على وجه الأرض من ألواح البلور ، وإن كان ملء العيون حسنًا وبهاء ، ورونقًا وماء .

فكاهة

حدثني بعض الأصدقاء أنه دخل في أيام الحرب الروسية/اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة أكثر من أفراد طائفته ، ليحلق له رأسه ، وكان عنده جماعة من زائريه ، فأجلسه على كرسي أمام مرآة ، وأمسك بالموسى وأنشأ يحلق له رأسه حلقًا غريبًا لا عهد له بمثله من قبل ، فكان يحلق بقعة ويترك إلى جانبها أخرى مستطيلة أو مستديرة ، وأخرى مثلثة أو مربعة ، حتى رجع الرجل ووطن أن الحلاق قد أصابه مس من الجنون ، فارتعش بين يديه ، وخاف أن يمتد به جنونه إلى ما لا تحمد عقباه ، واعتقل لسانه ، فما يستطيع أن يسأله عن سر عمله هذا .

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسية ، ورسومه الجغرافية حتى التفت إلى جلسائه ، وقال لهم كأنه يتمم حديثًا سابقًا بينه وبينهم : « لأجل فض النزاع بيننا ها قد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس الزبون ، هنا طوكيو ، وهنا بور آرثر ، وهنا انكسر كروياتكين ، وهنا انتصر أوياما . وفي هذا الخط مر الأسطول الروسي ، وفي هذه البقعة تلاقى الأسطولان . » وهنا أخذ يتكلم بحدّة وحماسة عن شجاعة اليابان وبسالتهم ، ثم أردف كلامه بقوله : « وفي هذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية . » وضرب بجُمع يده أم رأس الزبون ، فقام صارخًا يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسيين ، والروس واليابانيين ، والناس أجمعين !

لا أعلم إن كان المحدث هازلًا أو مجددًا ، وإنما أعلم أنه قد أجاد التمثيل .

عربي اختتمها جرق التمثيل بنشيد للسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة ، والرفق والإحسان ، ويدعو له بسلامة عرشه ، وطول بقائه ، فما سمع الناس اسمه حتى هتفوا له هتافًا يصم المسامع ، وصفقوا له تصفيقًا كاد يضم أضلاع المسرح بعضها إلى بعض . وحضرت ليلة أمس منظرًا من مناظر الصور المتحركة ، فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجلًا ظالمًا سفاحًا ، ضعيف الهمة ساقط النفس ، زمن المروءة^(١) ، جبانًا مستطارًا . و رأيتهم قد عملوا إلى صورته فجعلوها مواطع أقدامهم ، ومضارب سيوفهم ، فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق في أعينهم ، وابتهجوا لمرآة ابتهاجًا ملأ فضاء صدورهم ، فتمشى في أعصاب أدمغتهم ، حتى وصل إلى أعصاب أيديهم ، فصفقوا له تصفيقًا شديدًا بتلك الأكف التي رأيتهم يصفقون بها في مسرح التمثيل .

أنا لا أعلم إن كان عبد الحميد ظالمًا أو عادلًا كريمًا أو لئيمًا ، شريفًا أو ضيعًا ، وإنما أعلم أنني سأموت قبل أن أقف على حقيقة تاريخية في أمره مادام الناس عامتهم وخاصتهم ، كتابهم وشعراؤهم ، علماؤهم وجهلاؤهم ، هم الناس الذين يقول فيهم القائل :

والناس من يلق خيرا قائلون له

ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

الشهرة

لا يمكن أن تكون الشهرة بحال من الأحوال ميزانًا للفضل في مصر خصوصًا في عالم الأدب ، ولن يجري الفضل والذكر في ميدان واحد إلا إذا سلم السباق من كيد العايب وخدعة الأريب ، وأتى لنا ذلك ، وفي شعراء مصر من يغتصب الشهرة اغتصابًا ويلصقها بنفسه إصافًا ، وينزع إليها بوسائل لو عرفها الناس لأنزلوه منزلته ، وألبسوه حلتته ، بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه ، وإمتاع وجدانه ، فلا يترنم بقصائده في المنتديات والمعجم ،

(١) زمن المروءة: ضعيفها .

الأقسام

مدحك ، فهلا زجرتهم .» فقلت له : « إن آخرين قد أغرقوا في ذمي فلم أصنع شيئاً ، فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضاً ، فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضئ للناس مكان جوهره الحقيقة المدالة تحت الأقدام فيلتقطونها .»

الانتقاد

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها هناك فرقان : أحدهما يتعلق بالناقد ، والآخر يتعلق بأثر النقد في الأذهان ، أما الأول ؛ فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته ، فلو لم يكن للكتاب صاحب لانتقده ، وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه ، أي أنه لا ينتقد الكتاب ، بل صاحب الكتاب في كتابه ، وأما الثاني وهو أثر طبعي للأول ؛ فهو أن للانتقاد هناك أثراً ظاهراً في الكتاب من حيث رواجه وكساده ، وشهرته وخموله ، فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله ، وهنا يمر الانتقاد بالأذهان مرّاً فلا يبقى من آثاره فيها إلا أثر واحد ، وهو أن الكتاب جليل القدر سني القيمة ، ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل ، لذلك رأيت كثيراً من عقلاء الأدباء لا يرضون عن أنفسهم في هذا البلد إلا إذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم ، بل رأيت من يبلغ إلى أحد الناقلين أن ينتقد مؤلفه ، بل رأيت من يبلغ به الأمر أن ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منحول ، أولئك الذين يعرفون قيمة المنتقلين عندنا ، وأثر انتقاداتهم في نفوسنا ، أما الذين يغضبهم الانتقاد ويخرج صدورهم ، فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئاً .

الحزم

إن الدرهم الذي تمنحه لمن لا يستحقه ، يخرج من يدك ؛ فلا تجده في اليوم الذي ترى فيه أمامك من يستحقه ، وإن الدينار الذي تعطيه للشارب ليشتري به كأساً يقتل بها نفسه ؛ لا يتيسر لك أن تعطيه للفقير العائل ليشتري به رغيفاً يسد به جوعة ولده .

لا أعرف فرقاً بين حث الحائث في يمينه ، وكذب الكاذب في حديثه ، كلاهما ضعيف المنة ، وكلاهما ساقط الهمة ، وكما لا يستطيع الكاذب أن يكون صادقاً ، كذلك لا يستطيع الحائث أن يكون باراً ، وناقض العهد أن يكون وفياً ، فخداع من المتكلم أن يزعم أن لأحاديثه من الشأن في مواقف الأقسام ما ليس لها في غير تلك المواقف ، وأنه يتخرج في الحث ما لا يتخرج في الكذب ، فإن من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من بعده جرماً .

الدين

أيها الناشئ ؛ إن من الناس قوماً قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين ، وسلطان أمره ونهيه فخرجوا عليه ونبذوا طاعته ، ثم علموا أن الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم ، فلم يجدوا معذرة يعتدرون بها إليهم غير دعوى إنكار الدين وجحوده استثقلاً وتبرماً ، لا تقلداً وتلمهياً ، وما هم بمنكره ولا جاحديه ، فاعلم أن الله سيبتليك بهم ، وأنهم سيؤثرون لك إنكار ما يزعمون أنهم ينكرونه ، وسيخيلون إليك أنك لن تستطيع أن تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة ، وأن تنال الخطوة الباسقة في نفوس أصحابها إلا إذا تنكرت لدينك ، وتسلبت منه ، وخفرت ذمته ، فاحرص الحرص كله على أن لا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة ، واعلم أنك إلى نفسك أحوج منك إلى الناس ، وأن الناس لا يغنون عنك من الله شيئاً إن أنت أثرت مرضاتهم على مرضاته ، وأن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء ، وأنواع الآلام والتي لا يفيق المرء فيها من غمرة إلا إلى غمرة ، ولا يخل من عثرة إلا إلى عثرة ، لا يعين عليها إلا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته ، و تداركت عثراته ، ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب .

الحقيقة

قال لي بعض الناس : « إن قوماً يفرقون في

وإن كانت الأخرى فارباً بنفسك أن تكون من
الجاهلين الذين يتوهّمون أن في استطاعة الأكاذيب
أن تبقى طويلاً على ظهر الأرض .

الأدب

لا تكافئ السفية على سفهه بمثله ، فإنك إن
فعلت قضيتَ له على نفسك ، وأصبحت شريكه في
الخلة التي تزعم أنك تنقمها عليه ، فإن كنت لا يدُ
منتقماً ، فليكن مثلك مثل الأحنف بن قيس ، إذ
جاءه رجل قد جعل له بعض الناس جُلاً على أن
يغضبه ، فما زال يسبه ويشتمه ويلج في ذلك إلحاحاً
محرجاً ، والأحنف ساكت لا يقول شيئاً حتى ضاق
بالرجل أمره ، فانقلب إلى قومه بأكياً نادياً يأكل
أصبعه أكلاً ويقول : « و الله ما سكت عني إلا
لهواني عليه ! »

الأخلاق

مثلُ المتعلم غير المتأدّب ، كمثّل شجرة عارية لا
تورق ولا تثمر ، قد انتصبت للناس في ملتقى الطرق
تعرض الرائح وتصدّ سبيل الغادي ؛ فلا الناس بظلمها
يستظلون ، ولا هم من شرّها ناجون .

الاعتدال

بين الجبن والتهور منزلة هي الشجاعة والإقدام ،
وبين البخل والإسراف منزلة هي الكرم ، وبين العفو
والانتقام منزلة هي العقوبة ، وبين العجز والجهل
منزلة هي الحكمة ، فليكن من أفضل ما تأخذ به
نفسك التريثُ والتثبتُ عند النظر في الفرق بين
مشتبه الفضائل والردائل ، واعلم أنك لا تزال كريماً
حتى تنفق مالك في غير موضعه فإذا أنت مسرف ،
وأنت لا تزال حليماً حتى تغضب للباطل فإذا أنت
جهول ، وأنت لا تزال جباناً حتى تقاتل عن عرضك
وشرفك فإذا أنت شجاع ، وأن كل الناس يعرفون
الفضائل والردائل ويفهمون معانيها ، أما إدراك
الفرق بين مشتبهاتها ونظائرها فتلك رتبة العقلاء
الأذكياء .

البر

ربما كان لك من أبويك ، أو من ذوي رحمتك

الألم

إن في كثير من الآلام التي نعالجها لذاتك
ومسرّات يدركها من عرف أن الإنسان بطبيعته غافل
عما يهدّده من مصائب هذه الحياة وأرزائها ، وأن
الآلام الضعيفة التي تناله من العثرات الصغيرة ، تُدّر
تأثيه من عالم الغيب لتحذّره من الآلام الشديدة التي
تناله من السقطات الكبيرة .

الغفوان

ليس الحقد واحتمال الضغينة غريزة من الغرائز
اللازمة للإنسان ، فإن الرجل قد يصفح عن سيئات
الأطفال ، لأنهم لا يملكون الخيار لأنفسهم ،
ويذكر لأصحاب السيئات من الموتى حسناتهم ؛ لأن
الزمن الذي ذهب بهم ذهب بخيرهم وشرهم ، فلم
لا نغتفر ذنوب أولئك الذين ما أذنبوا إلا بعد حرب
مستعرة قامت بين عقولهم وقلوبهم ، ثم سقطوا
على أثرها صرعى ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا
نفعاً .

الدعوى

إن أردت أن تكون في الأمة الجاهلة كل شيء
فادّع لنفسك كل شيء ، تنل بقولك في الزمن
القصير ، ما لا ينال غيرك بفعله في الزمن الطويل ،
فإن الكاذب لا يزال يكذب حتى يصدقه الناس ، ثم
لا يزال يكذب حتى يصدق نفسه !

الدين والوطن

من لا خير له في دينه لا خير له في وطنه ، لأنه
إن كان ينقضه عهد الوطنية غادراً فاجراً ، فهو ينقضه
عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر ، وإن الفضيلة للإنسان
أفضل الأوطان ، فمن لم يحرص عليها فأحر به ألا
يحرص على وطن السقوف والجدران .

الحلم

إذا تورّدك متورّد بكلمة سوء فلا تبتس بها ،
فإنك في موقفك هذا بين اثنتين ، إمّا أن يكون
الرجل صادقا فيما يقول أو كاذبا ، فإن كانت
الأولى فاحمد الله تعالى على أن قيض لك من
أرشدك إلى عيبك ، وكشف لك عن خبيثة نفسك ،

لآخرين دليلاً على رفعة من يجنون و ضعة من يعضون ، وليست جرائمهم التي يقتربونها باسم الشعور الذي يشتركون فيه دليلاً على أن من يقتلون يستحقون القتل ، أو من يشتمون يستحقون الشتم ، أو من يحتقرون يستحقون الاحتقار ، بل كثيراً ما تكون الحقيقة على العكس من ذلك عندما يكون قائد تلك الجماعة من أشرار الناس وأدنيائهم .

الاندفاع

ليس انضمام فرد من أذكى الناس وعقلائهم إلى جماعة من الجماعات ، دليلاً على فضل تلك الجماعة ، أو شرف مقاصدها ، أو صحة مبادئها ، لأنه لا يجتاز عتبة مجتمعها إلا بعد أن يخلع عقله ومواهبه مع رذائله وعصاه خارج بابيه .

الشقاء

السبب في شقاء الإنسان أنه دائماً يزهّد في سعادة يومه ، ويلهو عنها بما يتطلّع إليه من سعادة غده ، فإذا جاء غده اعتقد أن أمسه كان خيراً من يومه ، فهو لا ينفك شقيّاً في حاضره وماضيه !

اللفظ والمعنى^(١)

لم أرَ فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأي الذين يفرّقون في أحكامهم بين اللفظ والمعنى ، ويصفون كلا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر ، فيقولون : « ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أن معانيها رديئة ! » ، أو « ما أبدع معاني هذه القطعة وإن كان أسلوبها قبيحاً ! » كأنما يخيّل إليهم أن اللفظ وعاء ، وأن المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء ، فتارة يكون خمرًا وتارة يكون خلا ، ويكون حيناً صافياً وأخرى كدركاً ، وما علموا أنهما متّحدان ممترجان امتزاج الشمس بشعاعها والخمر بنشوتها ، فكما لا يجوز أن نقول : « ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها ، ولا ما أعذب الخمرة وأمرّ نشوتها ! » كذلك لا يجوز

من تولوا شأنك في مفتتح عمرك ، من لم تساعده شؤون دهره ، أو عصور نشأته على أن ينال حظاً من العلم والمعرفة مثل ما نلت ، فإياك أن يدعوك ذلك إلى تسفيهه أو تجبيّه ، أو السخرية به ، أو الإدلال بنفسك عليه ! فإنك إن فعلت خسرت من الأدب أضعاف ما كسبت من العلم ، على أنه ربّما كان لكبيرك هذا - الذي عققته وظلمته وكفرت بفضل نعمته عليك - من العلم بتجارب الحياة ومقاتيلها ، وموارد الأمور ومصادرها ما يهّج علمك الذي تعتدّ به وتدلّ بمكانك منه عليه ، و هنالك تكون قد خسرت فوق خسران أدبك ، ما كان خليقاً بك أن تتلقاه بين يديه من علوم التجارب ، التي ليست علوم الدراسة بالإضافة إليها إلا كالنقطة من البحر ، والمدرة من القفر .

الرأي العام

ليس إجماع ألف ، أو عشرة آلاف ، أو مائة ألف متأثرين بشعور واحد مستمدّين من روح واحدة على رأي من الآراء دليلاً على صحة ذلك الرأي ، لأنه قد يكون رأي فرد واحد تأثر به الباقيون تقليداً وعدوى ، ورأي الواحد مترجّع بين الخطأ والصواب .

الزعامة

لا يشترط في قيادة الجموع أن يكون القائد مفرطاً في الذكاء أو العقل أو الدهاء ، بل يكفي من ذلك كله شيء من العلم بأذواق أتباعه وميولهم ، وسبل الوصول إلى قلوبهم ، لا يزيد على علم التاجر بأذواق زبائنه وروغباتهم .

الاستقلال

لا سبيل للإنسان إلى الخلاص من الاندفاع في تيار الجماعات وضلالها مهما كان ذكياً أو مفكراً إلا إذا حبس نفسه عن الانضمام إليها ، أو كان له من عزيمة الرأي ، وقوة النفس ما يمكنه من تربية نفسه على التجردّ حتى يصير طبيعة له ، فيحضرها شاهداً كغائب ، ومجتمعاً كمنفرد .

روح الاجتماع

ليس حبّ الجماعة لبعض الناس ، وبغضهم

(١) نشر المؤلف ، فيما بعد ، مقالا بالعنوان نفسه «اللفظ والمعنى» ، وبداً بما كتبه هنا ، ثم زاد عليه . انظر صفحة ٣١٠ من هذه الطبعة (النشر) .

أن نصف اللفظ بالجمال ، والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك . وليعلم الناشئ المتأدب أنه ليس للفظ كيان مستقل بنفسه ، فجماله جمال معناه ، وقبحه قبحه ، وأن القطع الأدبية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها وأغراضها ، وأن الذين يزعمون من الشعراء أو الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معاني شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو واهمون .

تم الجزء الثاني من « النظرات »

الجزء الثالث

الكتاب وأبينهم ، ولو شاء لكان شاعراً من أقدر الشعراء وأفضلهم ، وأنه ما أحسن إلا حيث ظن الإساءة ولا أساء إلا حيث ظن الإحسان .

و واللّه ما أدري ما الذي يستفيدة هؤلاء الكتاب والشعراء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن في أساليبهم الكتابية والشعرية وتكلف الإغراب والتعقيد فيها ، وهم يعلمون أنهم إنما يكتبون للناس لا لأنفسهم ، وأنّ الناس خصوصاً في مثل هذا العصر ؛ عصر المدنية والعمل والحركة والنشاط أضنّ بأنفسهم وبأوقاتهم من أن يقفوا الرققات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه ، أو سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظه عن كوامن معانيه . ولم لا يؤثر أحدهم إن كان يكتب للمنفعة العامة أن يستكثر من سواد المنتفعين بعلمه وفضله ، أو للشهرة والذكر أن ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها وخاصتها جاهلها وعالمها ، وهل الشعر والكتابة إلا أحاديث سائرة يحدث بها الشعراء والكتاب الناس ليفضوا إليهم بخواطر أفكارهم وسوانح آرائهم وخلجات نفوسهم ؟ وهل يعني المتحدث في حديثه شيء سوى أن يعي عنه الناس ما يقول وأن يجد بين يديه سامعاً مصغيّاً ومقبلاً محفلاً ؟ وأي فرق بين أن يجلس الرجل إلى جمع من أصدقائه ليقص عليهم بعض القصص أو يفضي إليهم ببعض الآراء ، فيتلطّف في تفهيمهم وإيضاح معانيه إلى نفوسهم ويفتنّ في اجتذاب ميولهم وعواطفهم وبين أن يجلس إلى مكتبه ليعث إليهم بهذه الأحاديث نفسها من طريق القلم ! ولم لا يعنيه في الأخرى ما يعنيه في الأولى ؟

ليس البيان ميداناً يتبارى فيه اللغويون والحفاظ أيهم أكثر مادة في اللغة وأوسع اطلاعاً على مفرداتها وتراكيبها وأقدر على استظهار نواورها وشواذها ومترادفاتها ومتوارداتها ، ولا متحفاً لصور الأساليب وأنواع التراكيب ، ولا مخزناً لحقائب المجازات والاستعارات ، وغياب الشواهد والأمثال ، فذلك أشياء خارجة عن موضوع البيان وجوهره ، إنما

البيان

عرفت فيما مضى من الأيام أديباً كان من أكبر أدباء هذا البلد المضطّلين باللغة وفنونها ، الحافظين للكثير الممتع من منظومها ومثورها ، وكان لا يكتب كلمة في صحيفة ولا ينشر في الناس كتاباً إلا أعجم كتابته وأبهمها وتعمّل فيها تعملاً يأخذ على القارئ عقله وفهمه ؛ فلا يدري أي سبيل يأخذ بين مسالكها وشعابها ، وكنت أحسبها غريزة من غرائزه الغالبة عليه الأخذة من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة والملكة الراسخة ، فلا سبيل له إلى التخلص منها والنزوع عنها ، حتي اطلمتُ له عند بعض أصدقائه على كتاب صغير كان قد أرسله إليه في بعض الشؤون الخاصة به وكتبه بتلك اللغة السهلة البسيطة التي يسمونها اللغة العادية ، فأعجبت بأسلوبه في كتابه هذا إعجاباً ورأيت أنه أبلغ ما قرأت له في حياتي من كتب ورسائل . وعلمت أن الرجل فصيح بفطرته قادر على الإبانة عن أغراضه ومراميه كأفضل ما يقتدر مقتدر على ذلك ، إلا أنه يتكلف الرُّكّة والتعقيد في كتابته تكلفاً ويأخذ نفسه بهما أخذاً ، ولو أنه أرسل نفسه على سجيته فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها كتابه هذا ؛ لكان من أعظم الكتاب شائناً وأكثرهم نفعاً وأرفعهم صوتاً في عالم الكتابة والأدب ، ولكن هكذا قُدّر له أن يقضي بنفسه على نفسه حتى مات رحمة الله عليه ، فماتت بموته نفثاته وآثاره .

وقرأت منذ أيام لأحد الشعراء المتكلفين ديوان شعر ، فلم أفهم منه غير خطبته النثرية ولم يعجبني فيه سواها ، وما أحسبها أفلتت من يده ولا جاءت على هذه الصورة من الجودة والحسن إلا لأنه أغفل العناية بها والتدقيق في وضعها ، فأرسلها عفو المخاطر لإرسال من يعلم أنه إنما يُسأل عن الإجابة في الشعر لا في النثر ، وأن الناس سيغفرون له ضعف الكاتب أمام قوة الشاعر ، غير عالم أنه كاتب من أفصح

والكتابية أسلوباً وسطاً معتدلاً جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها وبين تمثيل روح العصر وتصوير أسرار الحياة ، ولولاهم لبقيت اللغة في أيدي الجامدين فماتت ، أو غلبت عليها العامية فاستحالت .

قال لي أحد المتكلمين في معرض الاعتذار عن نفسه ، وقد عتبت عليه في هذا المنهج الخشن الوعر الذي يتجه في أسلوبه : « أنت تعلم أن الناس في هذا البلد قد ألفوا عن طريق خطأ الحس أن ينظروا بعين الإجلال والإعظام إلى كل أسلوب شعري أو كتابي معقد غامض - وإن تفهت معانيه وهانت أغراضه ، ويعين الازدراء والاحتقار إلى الأساليب السهلة البسيطة - وإن اشتملت على أشرف الأغراض وأبرع المعاني - أي أنهم لا يرون السهولة والانسجام حتى يتوهما التفاهة والسفولة ، ولا يرون الركافة والمعاظلة حتى يظنوا الحذق والبراعة وسمو المعاني وشرفها - وهي حالة طبيعية في جميع النفوس البشرية أن تزدري المبذول لها وتستسني قيمة المنوع عنها . وليس هذا شأنهم مع أدباء العصر الحاضر فحسب بل مع أدباء كل عصر وجيل ، فهم يسمون البحري وأبا نواس والشريف الرضي وأمثالهم شعراء الألفاظ ، ويسمون المتنبي والمعري وابن الرومي وأشباهم شعراء المعاني . وليس بين الأولين والآخرين فرق في جودة المعاني وشرفها إلا أن الأولين أمطروها على الناس ويعثروها تحت أقدامهم فهانت عليهم ، وضمن بها الآخرون ووعروا سبيلها فعظمت في أعينهم وجلت في صدورهم . » قال : « ولقد عرضت السلعتين في سوق الأدب فكتبت ألفه المعاني وأدونها في أختن الأساليب وأوعرها فنفتت في تلك السوق نفاقاً عظيماً ، وكثر المعجبون بها والمكبرون لها . وكتبت أشرف المعاني وأبرعها في ألطف الأساليب وأعذبها ، فما أبه لها إلا القليل من الناس وربما لم يأبه لها أحد ، فلم أرُ بُدّاً من أن أنتهج نفسي في الكتابة الخطة التي أعلم أنها أجدر بي وأجدى عليّ . »

فعبجت لرأيه هذا عجباً شديداً وقلت له : « أما

يَعْنَى بها المؤلفون والمدونون وأصحاب القواميس والمعاجم و واضعو كتب المترادفات ومصنفو تواريخ اللغة وتواريخ آدابها . أما البيان فهو تصوير المعنى القائم في النفس تصويراً صادقاً يمثل في ذهن السامع كأنه يراه ويلمسه لا يزيد على ذلك شيئاً ، فإن عجز الشاعر أو الكاتب مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه عن أن يصل بسامعه إلى هذه الغاية ، فهو إن شئت أعلم العلماء أو أفضل الفضلاء أو أذكى الأذكى ولكنه ليس بالشاعر ولا بالكاتب .

ما أشبه الجمود اللغوي في هذه البيئة العربية بالجمود الديني ، وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر ، لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنظون ويقتطعون من هضبتهم الشماء صخوراً صماء يضعونها عثرة في سبيل المدنية والحضارة حتى صيروه عبكاً ثقيلاً على كواهل الناس وأعناقهم ، فلمه الكثير منهم وبرموا به وأخذوا يطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه ، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه وتمشوا بأوامره ونواهي مع شؤون المجتمع وأحواله لاستطاع الناس أن يجتمعوا بين الآخذ بأسباب دينهم والأخذ بأسباب دنياهم . ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الألفاظ والصور يتشددون في اللغة وتحلقون ، ويتشبثون بالأساليب القديمة والتراكيب الوحشية ويغالون في محاسنها واحتدائها ، ويأبون على الناس إلا أن يجمدوا معهم حيث جمدوا ، وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا ، ويحاسبون الكاتبين والناطقين حساباً شديداً على الكلمة الغريبة والمعنى المبتكر ، وقيمون المناحات الشعواء على كل تشبيه لم تعرفه العرب وكل خيال لم يمر بأذهانهم ، حتى ملهم الناس وملوا اللغة معهم ، فتمردوا عليهم وخلعوا طاعتهم وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة في جميع مواقفهم وعلاقاتهم ، فسقطوا في اللغة العامية في أحاديثهم وشبه العامية في كتاباتهم . وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها لولا أن تداركها الله برحمته فقيض لها هذا الفريق العامل المستتير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا كنهه ، فاتخذوا لأنفسهم في منحهم الشعرية

سوى عقل الكاتب ونفس الشاعر ، وحتى لا يكون للمادة اللفظية شأن عنده أكثر مما يكون للمرأة من الشأن في تمثيل الصور والمخائل .

يجب أن يتمثل المعنى في ذهن المتكلم قبل أن يتمثل اللفظ ، حتى إذا حسن الأول أفاض على الثاني جماله ورونقه ، فاللفظ لا يجمل حتى يجمل المعنى ، بل لا مفهوم للفظ إلا المعنى الجميل .

لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع إليه من يريد معرفتها ومقياس تقاس عليه ، لوجب أن يكون قانونها العقلي أن يترك القائل في نفس السامع الأثر الذي يريده ، فإن عجز عن ذلك فلا أقل من أن يصور له المعنى القائم في نفسه ، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أي حرفة من الحرف ، مهما صغر قدرها وأتضع شأنها ، أعود بالنفع على الأمة وأجدي عليها من حرفة القلم .

لا ييك شاعر بعد اليوم ، ولا كاتب سقوط حظه في الأمة ولا يقض حياته ناعياً عليها وجهلها وقصورها كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصغية إليه ، فالأمة قد ارتقت واستنارت وأصبحت طماحة متطلعة ، لا يقتنعها من قلم الشاعر أن يرن على صفحة القرطاس دون أن يطربها ويملك عواطفها ، ولا من قلم الكاتب أن يسود وجه الصحف دون أن ينير لها أذهانها ويغذي عقولها ومداركها ، فإن كان لا بد باكياً ، فلييك على نفسه ولينع عجزه وقصوره ، وليعلم أنه لو استطاع أن يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الأمة أن تفهم عنه ما يقول .

إننى لا ألوم على الركافة والفهامة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم فأظلمت أفلانهم ، وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل ، ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة ، ولم يمارسوا أدبها ، ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها ، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغات الأجنبية على أمرهم قبل الإلمام بشيء من أدب لغتهم ، فأصبحوا إذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها مميز واحد من مميزات العربية ولا خاصة من خواصها ، وإذا كتبوا كتبوا

هذا الذي تذكره فإني لا أعرفه إلا لفظة قليلة من المشتغلين بالأدب فاسدة الذوق لا يعبأ بها عابى ، وليس هذا رأي جمهور المتأدبين ، بل ولا رأي العامة من أبناء هذه اللغة . وهب أن الأمر كما تقول ، فالأدب ليس سلعة من السلع التجارية لا هم لصاحبها سوى أن يحتال لنفاقها في سوقها ، إنما الأدب فن شريف يجب أن يُخلص له المتأدبون بأداء حقه والقيام على خدمته إخلاص المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم ، والأدباء هم قادة الجماهير وزعمائهم فلا يجمل بهم أن ينقادوا للجماهير وينزلوا على حكمهم في جهالاتهم وفساد تصوراتهم . وما زلت به حتى أذعن للرأي الذي رأيته له فحمدت الله على ذلك .

ليس من الرأي ولا من المعقول أن ينظم الشعراء الشعر ويكتب الكتاب الرسائل في هذا العصر ، عصر الحضارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذي لا يعرف أكثر من العامية إلا قليلاً باللغة التي كان ينظم بها امرؤ القيس وطرفة والقطامي والخطفي ورؤية والعجاج ، ويكتب بها الحجاج وزباد وعبد الملك بن مروان والجاحظ والمعري في عصور العربية الأولى ، فليس عصرنا كعصرهم ولا جمهورنا كجمهورهم . وأحسب لو أنهم بعثوا اليوم من أجدانهم لما كان لهم بد من أن ينزلوا إلى عالمنا الذي نعيش فيه ليخاطبونا بما نفهم أو يعودوا إلى مراقدهم من حيث جاءوا .

ليست الأساليب اللغوية ديناً يجب أن نتمسك به ونحرص عليه حرص النفس على الحياة ، إنما هي أداة للفهم وطريق إليه ، لا تزيد على ذلك ولا تنقص شيئاً .

يجب أن نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك بأوضاعها وميزاتها الخاصة بها ، ثم نكون أحراراً بعد ذلك في التصور والتخييل واختيار الأسلوب الذي نريد .

يجب أن يشف اللفظ عن المعنى شفاف الكأس الصافية عن الشراب ، حتى لا يرى الراثي بين يديه

ويغالبه ، ويزاحم العاملين بممكنيه ويفكر ويتروى ، ويجرب ويختبر ، ويقارن الأمور بأشياها ونظائرها ، ويستنتج نتائج الأشياء من مقدماتها ، ويعثر مرة ، وينهض أخرى و يخطئ حيناً ويصيب أحياناً ، فمن لا يخطئ لا يصيب ، ومن لا يعثر لا ينهض ، حتى تستقيم له شؤون حياته .

ذلك خيرٌ له من أن يجلس في شرفة من شرف قصر مطلقاً على العاملين والمجاهدين يمتع نظره بمرآهم ، كأنما يشاهد رواية تمثيلية في أحد ملاعب التمثيل .

أحب أن يمر بجميع الطبقات ويخالط جميع الناس ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينه بؤس البؤساء ، وشقاء الأشقياء ، ويسمع بأذنه أنات المتألمين ، وزفرات المتوجعين ، ليشكر الله على نعمته إن كان خيراً منهم ، ويشاركهم في همومهم وآلامهم إن كان حظه في الحياة مثل حظهم ، ولتتمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطف على الفقير عطف الأخ على الأخ ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم . أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر بالآلام الناس ومصائبهم ، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم . فإن حاول يوماً أن يمد يده بالمعونة إلى بائس أو منكوب ، فعل ذلك متفضلاً مُمتناً ، لا راحماً ولا متألماً .

والألم هو ينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض ، وهو الصلة الكبرى بين أفراد المجتمع الإنساني ، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه ، بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها ، فمن حُرِمَ حُرْمٌ كُلُّ فضيلة من فضائل النفس ، وكلِّ مكربة من مكوماتها ، وأصبح بالصخرة الصلدة الصماء أشبه منه بالإنسان الناطق .

أحب أن يجوع ليجد لذة الشبع ، ويظمأ ليستعذب طعم الري ، ويتعب ليشعر ببرد الراحة ، ويسهر لينام ملء جفونه ؛ أي أنني أحب له السعادة الحقيقية التي لا سعادة في الدنيا سواها .

وما السعادة في الدنيا إلا لمحات كلمحات

بأسلوب عربي الحروف أعجمي كل شيء بعد ذلك . فهو لاء جميعاً لا حول لنا فيهم ولا حيلة لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك ، إنما ألوم المتأدبين القادرين الذين عرفوا اللغة ، واطلعوا على أدبها ، وفهموا سر فصاحتها ، وأنقم منهم عدولهم عن المحجة البيضاء في البيان إلى الجمجمة والغممة فيه ، وأنعى عليهم نقص القادرين على التمام .

* * *

النَّاشِ الْفَقِير (١)

لي ولد وحيد في السابعة من عمره ، لا أستطيع على حبي إياه واقتناني به أن أتركه من بعدي غنياً لأنني فقير ، وما أنا بأسف على ذلك ولا مبيتس ؛ لأنني أرجو بفضل الله وعونه ، ورحمته وإحسانه ، أن أترك له ثروة من العقل والأدب هي عندي خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب .

أحب أن ينشأ معتمداً على نفسه في تحصيل رزقه ، وتكوين حياته ، لا على أي شيء آخر حتى على الثروة التي يتركها له أبوه . ومن نشأ هذا المنشأ ، وألف ألا يأكل إلا من الخبز الذي يصنعه ييده ، نشأ عزوفاً عيوفاً مترقماً لا يتطلع إلى ما في يد غيره ، ولا يستعذب طعم الصدقة والإحسان .

أحب أن ينشأ رجلاً ، ولا سبيل إلى الرجولة إلا من ناحية العمل ، وقلما يعمل العامل إلا بسائق من الضرورة ودافع من الحاجة ، وفرق بين الغني الذي يعمل لتنمية ثروته وتعظيم شأنها شرهاً وفضولاً ، وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوته ، وتقويم أود حياته .

أحب أن يعيش فرداً من أفراد هذا المجتمع الهائل المتحرك في ميدان الحياة ، يصارع العيش

(١) كتب المنفلوطي هذه المقالة جواباً عن سؤال هنا نصه :
« أيهما أصحح للإنسان : أن يولد فقيراً ، أو غنياً ؟ »

أعرضه لمخاطر الفقر وآفاه ، ولكنني أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر .

أخاف عليه أن يعتد بالمال اعتداداً كثيراً ، ويقدره فوق قدره ، ويعتبره الكمال الإنساني كله ، فلا يهتم بإصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه ، وألا يجد من حوله من أصدقائه ومعارفه مرآة يرى فيها هوائه وغيوبه ، لأن عشراء الأعيان متعلقون مداهنون يطرون سيفاتهم ، ويزخرفون حسناتهم .

أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفس مادية جامدة لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة ولا تُعنى بشيء سواها ، فيصبح رجلاً قاسياً صلباً ميت النفس والمواطف ، لا يرحم بائساً ، ولا يعطف على منكوب ، ولا يرثي لأمّة ، ولا يكي على وطن ، ولا يشترك في شأن من شؤون العالم العامة خيرها وشرها ، ولا يعنيه ما دام راضياً عن نفسه مغتبطاً بحظه ، أ سقطت السماء على الأرض أم بقيت في مكانها .

أخاف عليه أن يحتقر العلوم والفنون والآداب ويزدري المواهب والعقول والفضائل والمزايا ، فيصبح عار أمته وشئها ، ووصمته الخالدة التي لا تزول ، ومن أشرب قلبه حب المال ونزل من نفسه إلى قراراتها لا يحترم غيره ولا يقيم إلا لأربابه وزناً ، ويخيل إليه أن من عداهم من الناس لا قيمة لهم في الحياة بل لا حق لهم في الوجود .

أخاف عليه إن تزوج أن يأبى الزواج إلا من غنية يرى أنها هي التي تليق بمقامه ومنزلته ، ومن اشترط الغنى في زوجة قلما يستطيع أن يشترط شيئاً سواه ، فيسقط في زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه ماله ولا جاهه .

أخاف عليه إن ولد ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ يتولى فيها النظر في تهذيب ولده وتربيته ، فيتركه صغيراً في أيدي الخدم وكبيراً في أيدي عشراء السوء ، فيصبح نكبته الكبرى في حياته ، وعاره الدائم بعد مماته .

أخاف عليه أن يقضي أيامه ولياليه خائفاً مذعوراً مروّع القلب مستطار الفؤاد ، تقتله الخسارة إن

البرق تخفق حيناً بعد الحين في ظلمات الشقاء ، فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها . وأشقى الأشقياء أولئك المترفون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم ، فلا يزالون يمعنون فيها ويتقلبون في جناباتها حتى يستنفدوها ، فيستولي على عقولهم مرض السامة والضرر ، فيتألمون من الراحة أكثر مما يتألم التعب من التعب ، ويقاسون من عذاب الوجود أكثر مما يقاسي المحروم من عذاب الحرمان ، وقد تدفعهم تلك الحالة إلى الإلمام بمشتهيات غريبة لا تتفق مع الطبيعة البشرية ولا تدخل تحت حكمها ، تفريجاً لكربتهم ، وتنفيساً عن أنفسهم . وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم في ملاعب القمار ومجالس الشراب ومواقف الرهان إلا جماعة الفارين من سجون السامة والملل ، يعالجون الداء بالداء ، ويفرون من الموت إلى الموت .

أحب أن يكون غنياً بالمعنى الحقيقي ، لا بالمعنى الاصطلاحي ، أي أن يكون مُستغنياً بنفسه عن غيره ، لا كثير المال والثراء ، وما سُمي المال غنى إلا باعتبار أنه وسيلة إلى الغنى وطريق إليه . وهو اعتبار خطأ ما في ذلك ريب ، فإن أكثر الناس فقراً إلى المال وأشدّهم طمعاً في إحرازه وأعظمهم مخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيله هم الأغنياء أصحاب المال والثراء ، وإن كان في الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالاً ، فهو في جانب الفقراء المقلين ، أكثر منه في جانب الأغنياء الكثيرين . ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة إلى الحياة ، وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده ، فإذا هو في نظره الحياة نفسها ، يجمعه ولا يدري ماذا يريد منه ، ويعبده وهو لا يرجو ثوابه ، ولا يخشى عقابه ، ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بأنه لا ينتفع بقليله ، فضلاً عن كثيره ، وإذا بلغ المرء في حالته العقلية إلى درجة أن تنقلب في نظره حقائق الكون وتتغير نواميسه ، فيرى الرؤوس أذناناً ، والأذناب رؤوساً ، والوسائل غايات ، والغايات وسائل ، فقل على عقله السلام .

لا أكره أن ينشأ ولدي غنياً ، ولا أحب أن

في ميادينها ، يضحكون لنكاته ، ويؤمنون على أقواله ، ويصدقون أكاذيبه ، ويتركون بحرته ، ويسكنون بسكونه ، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين ويصبح صباح الثعالب . أما الثاني فقد كان عارياً إلا قليلاً ، يفتح إحدى عينيه من حين إلى حين كلما رُنت في أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم ، ويضم ركبتيه إلى صدره كلما أحس بصوت مركبة مارة بجانبه ، وقد ييسط كفه أحياناً وهو مغمض إن خيل إليه أن يدك تمتد إليه بالإحسان ، ولا يد هناك ولا إحسان .

رأيت هذين المنظرين الغريبيين المتباينين فثارت في نفسي في تلك الساعة عاطفتان مختلفتان ، عاطفة البغض والاحتقار للأول ، وعاطفة الرحمة والشفقة على الثاني ، وقلت في نفسي: « لو كان لي ولد وكان لا بد له من أن يكون أحد هذين الغلامين ، إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثرًا ، أو المتشرد النائم من تحته يسأل الناس لقمة فلا يجدها ، لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين ، على أن أراه بين جماعة الوارثين ، لأنني أرجو له في الأولى أن يجد بين الراحمين راحمًا يحسن إليه ويستنقذه من شقائه ويأخذ بيده في طريق الحياة الطيبة الصالحة ، أما في الثانية فإني لا أرجو له شيئاً .

إنَّ للرحمة طيشًا كطيش القسوة والشدة ، وأطيش الراحمين ذلك الذي يستنفد أيام حياته في جمع الثروة لأولاده دائماً ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر في شأن تربيتهم وتعليمهم ضناً بهم أن يزج نفوسهم بشيء من تكاليف الحياة وأثقالها . فإذا ذهب لسبيله وخلي بينهم وبين ذلك المال الذي جمعه لهم لا يكون لهم من الشأن فيه أكثر مما يكون لجماعة الحمالين في الانتقال التي يحملونها من مكان إلى آخر ، فهم ينقلونه من خرائنه شيئاً فشيئاً إلى خزائن الخمارين والمرايين والماهرين حتى ينتهي ، فإذا فرغوا منه جلسوا في عَرَصاتهم المقفرة جِلْسَةً الباكي الحزين ، صُفْرَ الأكف ، فارغي الحبوب ، مطرقي الرؤوس ، لا حول لهم ولا حيلة ، قد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم

خسر ، ويصعبه قُوْتُ الريح إن فاته ، ويطير بنومه وهدوئه ويذهب براحته وسكونه هبوطاً الأسعار ، ونزول الأسهم ، وتقلبات الأسواق ، وخسران القضايا ومنازعات الخصوم ، والآفات السماوية ، والجوائح الأرضية .

وما حَزُنُّ الفقير الذي أنفق آخر درهم بيده من حيث لا يعرف له طريقاً إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله ، بأشدَّ من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه ، أو الذي كان يؤمل أن يتمم به مليونه فلم يَتَّح له .

وما ليلة البائس المسكين الذي يتصايح أولاده من حوله جوعاً ولا يجد ما يمسك به رفقهم بأطول من ليلة الغني الذي يسقط إليه الخير بأن سلعة من سلعه قد نفقت ، أو أن سهماً من أسهمه قد نزل .

ولقد رأيت بعيني من جُنُّ وهو واقف ينظر إلى قصر من قصوره يحترق ، وسمعت كثيراً من حوادث المنتحرين والمصعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر التجارية التي لا تفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الإملاق ، وكلُّ أثرها عندهم أنها تنقلهم إلى منزلة في الغنى أدنى من منزلتهم الأولى .

أخاف عليه أن يصبح واحداً من أولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بأيديهم ، وهدم مآثرهم آبائهم وأجدادهم من مال وجاه ، فأندب حظي في قبري وأقرع السن على أن لم أكن فارقت هذه الحياة ولا مال لي فيها ولا ولد .

ولا أزال أذكر حتى الساعة أنني مررت بأحد شوارع القاهرة من بضع سنين ، فرأيت في مكان واحد منه منظرين مختلفين متناقضين ، رأيت غلاماً من الوارثين جالساً بإحدى العانات يمرح في نعمائه ، وآخر من المتشردين نائماً تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب في بأسائه . أما الأول فقد كان جالساً بين مائدة شراب وقمار ، تسلب الأولى عقله والأخرى ماله ، وقد أحاط به جماعة من الخلعاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة

لا أريد أن أقول إنَّ الغنى علة فساد الأخلاق ، وإنَّ الفقر علة صلاحها ، ولكن الذي أستطيع أن أقوله عن تجربة واستقراء إنني رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين ، ولم أر إلا قليلاً من أبناء الأغنياء عاملين .

إنَّ العلوم والمعارف ، والمخترعات والمكتشفات ، والمدنية الحديثة بأجمعها حسنة من حسنات الفقر ، وثمرة من ثمراته ، وما المداد الذي كتبت به المصنفات ودونت به الآثار إلا دموع البؤس والفاقة ، وما الآراء السامية والأفكار الناضجة التي رفعت شأن المدنية الحديثة إلى مستواها الحاضر إلا أبخرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم والأحزان . وما انفجرت ينباع الخيالات الشعرية ، والتصورات الفنية ، إلا من صدوع القلوب الكسيرة ، والأفدة الحزينة ، وما أشرقت شمس الذكاء والعقل في مشارق الأرض ومغاربها إلا من ظلمات الأكواخ الحقيمة والزوايا المهجورة ، وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء وحكماء وأدباء إلا في مهود الفقر وحجور الإملاق ، ولولا الفقر ما كان الغنى ، ولولا الشقاء ما وجدت السعادة .

إنَّ المجتمع الإنساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويقتلون ، لا يرحم أحد أحداً ، ولا يلوي مقبل على مدبر ، يَعدون ويُسرعون ، ويتصادمون ويتخبطون ، ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض ، كأنهم هاربون من معركة ، أو مفلتون من مارستان ، ودماء الشرف والفضيلة تسيل على أقدامهم ، وتموج موج البحر الزاخر ، يغرق فيه من يغرق ، وينجو من ينجو .

أ تدرن لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل إلى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية ؟ ولم هذا الجنون الاجتماعي النائر في أدمغة الناس خاصتهم وعامتهم ، علمائهم وجهلائهم ؟ ولم هذه الحروب القائمة ، والثورات الدائمة ، والنزاع المستمر بين البشر جماعات وأفراداً ، وقبائل وشعوباً ، وممالك ودولاً ؟

لا سبب لذلك سوى شيء واحد ، وهو أن الناس

وأجدادهم ، وهدموا في عام واحد أو عامين قرناً كاملاً مجيداً من أعلاه إلى أسفله ، ولا يعلم إلا الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك .

ولو أن أباهم كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم إشفافاً صحيحاً لرحمهم من هذا المصير المحزن وضمن بهم على هذا الميراث المشؤوم .

يقولون إنَّ الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات ، وأنا أقول إننا إذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي ، وألا ننخدع بصور الألفاظ وألوانها ، فإن للأغنياء جرائم كجرائم الفقراء بل أشد منها خطراً وأعظم هولاً . فإن كان بين الفقراء: اللصوص ، والقتلة ، والعيارون ، وقاطعو الطريق ، فبين الأغنياء المحتالون والمزورون والمتعصبون والخائنون والمداهنون والممالئون وأصحاب المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم ، والتجار الذين يسرقون من الأمة في شهر واحد باسم الحرية التجارية ما لا يسرقه منها جميع لصوص البلد وعياروه في سنة كاملة ، والقوَّام والأوصياء الذين يرثون الثروات من دون وارثها ، ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها ، والسامسة الذين يفتالون الأسواق بأجمعها ، والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها ، والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذاقها .

على أن جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغنى ، فلولا شح الأغنياء بأموالهم وكلبهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وجد في الأرض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق ، ولا يسرق السارق ولا ينهب الناهب ولا يلص اللص إلا جزءاً من حقه الذي كان يجب أن يكون له ، لو كان للمال زكاة وللرحمة سبيل إلى الأفدة والقلوب .

ليفتح الأغنياء المدارس ، وليبنوا الملاجئ ولينشؤ المصانع والمعامل للعاطلين والمشردين ، وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في ميدان الحياة بالمساعدة والمعونة ، فإن وجدوا بعد ذلك لصوصاً أو قتلة أو مجرمين فليتهموا الفقر ولينعوا عليه جرائمه وآثامه .

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقي ونفس هادئة وقلب شريف ، وأن تعمل بيدك فترى بعينيك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع فتغبتط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في الأرض التي فلحها بيده وتعهدها بنفسه وسقاها من عرق جبينه .

* * *

قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف منذ أيام أن رجال الشرطة عثروا بجثة امرأة في جبل المقطم ، فظنوها قتيلة أو منتحرة حتى حضر الطبيب ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعاً .

تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميتة الشنعاء في مصر ، وهذا أول يوم سجلت فيه يد الدهر في جريدة مصائبنا ورزايانا هذا الشقاء الجديد .

لم تمت هذه المرأة المسكينة في مفازة منقطعة أو بيداء مجهل ؛ فنفرع في أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل في جميع حوادث الكون التي لاحول لنا فيها ولا حيلة ، بل ماتت بين سمع الناس وبصرهم وفي ملتقى غاديتهم برائحهم . ولا بُدَّ أنها مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها ؛ فلم تسمع مجيباً ، ووقفت في طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على أمرها ؛ فلم يجد من يمد إليها يده بلقمة واحدة تسد بها جوعتها . فما أقسى قلب الإنسان ، وما أبعد الرحمة من فؤاده ، وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد البؤس ومواقف الشقاء .

لم ذهب هذه البائسة المسكينة إلى جبل المقطم في ساعتها الأخيرة ؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلباً من الإنسان فذهبت إليه تبته شكواها ، أو أن الوحش أقرب منه رحمة فجاءته تستمنحه فضلة طعامه . وأحسبُ لو أن الصخر فهم شكواها

يعتقدون اعتقاداً خطأ أن المال أساس السعادة وميزانها الذي توزن به ، فهم يسعون إليه لا من أجل القوت وكفاف العيش كما يجب أن يكون ، بل من أجل الجمع والادخار ، والمال في العالم كمية محدودة لا تكفي للء جميع الخزائن وتهدهه كافة المطامع ، فهم يتخاطفونه ويتناهيون ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف المطرحة ، ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة أو تنازع البقاء ، وما هو بالتنازع ولا التناظر ، إنما هو العراك والتناحر ، والدم السائل ، والعدوان الدائم ، والشقاء الخالد .

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخيفة المزعجة أن يفهم الناس أن لا صلة بين المال وبين السعادة ، وأن الإفراط في الطلب شقاء كالتقصير فيه ، وأن سعادة العيش وهناءته وراحة النفس وسكونها لا تأتي إلا من طريق واحد ، وهو الاعتدال .

الآن أستطيع غير خاش لوماً ولا عتياً أن أقضي للناشئ الفقير على الناشئ الغني قضاءً لا مجاملة فيه ولا محاباة ، ومن ذا الذي يجامل الفقراء ويحابيهم ؟ وأن أقول للناشئ الفقير: صبراً يا بني وعزاءً ، فإنك لم تخلق إلا للعمل ، فاعمل واجتهد ، ولا تعتمد في حياتك إلا على نفسك ، ولا تحصد غير الذي زرعه يدك . فإن لم تجد معلماً يعلمك فاعلم نفسك ، والزمن خير مؤدب ومهذب ، وإن ضاقت بك المدارس فادرس في مدرسة الكون ففيها علوم الحياة بأجمعها ، وإن كنت ممن لا يعدون وظائف الحكومة ومناصبها غنماً عظيماً كما يعدها القعدة العاجزون ، فما هو ذا قضاء الأرض أمامك فامش فيه وفتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور القواطع التي ليس لها مثل عقلك وفطنتك ، وحيلتك وقوتك ، فإن الله لم يخلقك في هذا العالم ولم يبرزك إلى هذا الوجود لتموت فيه جوعاً أو تهلك ظمأً . ولا تصدق ما يقولونه لك من أن الناشئ الغني أسعد منك حالاً أو أوفر حظاً وإن راقك منظره وأعجبك ظاهره ، فلكل نفس همومها وآلامها ، وهموم الفقر على شدتها أقل هموم الحياة وأهونها .

تفعل ، وكان في استطاعتها أن تعرض عرضها في تلك السوق التي يعرض فيها أعراضهن الفتيات الساقطات ، فلم تفعل لأنها امرأة شريفة تفضل أن تموت بحسرتها على أن تعيش بعارها ، فما أعظم جريمة الأمة التي لا يموت فيها جوعاً غير شرفائها وأعفائها .

* * *

الأدب الكاذب

كنا وكان الأدب حالاً قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر أو يحدث نفسه به أو يكون عوناً لفاعليه عليه ، فإن ساقته إليه شهوة من شهوات النفس ، أو نزوة من نزوات العقل وجد في نفسه عند غشيانه من المضض والامتعاظ ما ينغص عليه ويكدر صفوه وهنائه . ثم أصبحنا وإذا الأدب صور ورسوم وحركات ومسكنات وإشارات والتفتات لا دخل لها في جوهر النفس ولا علاقة لها بشموها ووجدانها ، فأحسن الناس عند الناس أدباً وأكرمهم خلقاً وأشرفهم مذهباً من يكذب على أن يكون كذبه سائماً مهذباً ، ومن يخلف الوعد على أن يحسن الاعتذار عن إخلافه ، ومن ييغض الناس جميعاً بقلبه على أن يجهم جميعاً بلسانه ، ومن يقترب ما شاء من الجرائم والذنوب على أن يتخلص من نتائجها وآثارها . وأفضل عندهم من هؤلاء جميعاً أولئك الذين برعوا في فن « الأدب العالية » أي فن الرياء والنفاق ، وتفوقوا في استظهار تلك الصور الجامدة التي تواضع عليها جماعة الظرفاء في التحية والسلام واللقاء والفراق والزيارة والاستراحة والمجالسة والمناذمة وأمثال ذلك مما يرجع إلى أدبها وكمالها ، فكأن الناس لا يستنكرون من السيئة إلا لونها ، فإذا جاءتهم في ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا إليها ، ولا يعجبهم من الحسنة إلا صورتها ، فإذا لم تأتهم في الصورة التي تعجبهم وتروقه عافوها وزهدوا

لأشكاها^(١) ولو أن الوحش ألم بسريره نفسها لرثى لها وحنا عليها ، لأنني لا أعرف مخلوقاً على وجه الأرض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام مشهد الجوع وعذابه غير الإنسان .

أ لم يلتق بها أحد في طريقها فيرى صفرة وجهها وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم أنها جائعة فيرحمها ؟

أ لم يكن لها جار يسمع أيتها في الليل ويرى غدوها ورواحها حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره ؟

أ أقفرت البلاد من الخبز والقوت ، فلا يوجد بين أفراد الأمة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكواخها رجل واحد يملك رغباً واحداً زائداً عن حاجته فيصدق به عليها ؟

اللهم لا هذا ولا ذاك ، فالمال والحمد لله كثير والخبز أكثر منه ومواضع الخلات والحاجات بادية مكشوفة يراها الراعون ويسمع صداها السامعون ، ولكن الأمة التي ألقت ألا تذل معروفها إلا في مواقف المفاخرة والمكاثرة ، والتي لا تفهم معنى الإحسان إلا أنه العُل الثقيل الذي يوضع في قارب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم ، لا يمكن أن ينشأ فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً .

لقد كان الإحسان في مصر كثيراً في عصر الاكتابات والحفلات ، وفي العهد الذي كانت تسجل فيه حسنات المحسنين على صفحات الصحف تسجيلاً يشهده ثلاثة عشر مليوناً من الشهود . أما اليوم وقد أصبح كل امرئ موكولاً إلى نفسه ومسئولاً أمام ربه وضميره أن يتفقد جبرته وأصدقائه وذوي رحمه ويتلمس مواضع خلاصهم وحاجاتهم ليسدها ، فهاهم الفقراء يموتون جوعاً بين تلال الرمال وفوق شعاف الجبال من حيث لا راحم ولا معين .

لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق رغباً تتبلغ به أو درهماً تبتاع به رغباً فلم (١) شكا إليه فأشكاه: أي أرضاه وقبل شكواه .

ما يلقي به العامة والدهماء فسمي متكبراً . وقال لمن جاءه يسأله في ذمته إنني أحبك ، ولكنني أحب الحق أكثر منك ؛ فكثر أعداؤه وقل أصدقاؤه .

أما الثاني : فأقل سيئاته أنه لا يفني بوعده بعده ، ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود ، فلا يسميه أحد مخالفاً . وما رآه الناس في يوم من أيامه عاطفاً على بائس أو منكوب ولكنه يبكي لمصاب البائسين والمنكوبين ويستبكي الناس لهم ، فعُدّ من الأجواد السمحاء . وكثيراً ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم ، ولكنه لا يزال يمسح رءوسهم ويحضنهم إلى صدره في المجامع والمشاهد كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين ، فسمي الوصي الرحيم . ولا يفتأ ليله ونهاره ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم إلا أنه يخلط جده بالهزل ومرارته بالحلاوة ؛ فلم يعرف الناس عنه شيئاً سوى أنه الماجن الظريف .

ذلك هو الأدب الذي أصبح في هذا العصر رأياً عاماً يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم ، وعقلاؤهم وجهلاؤهم ، ويعلمه الوالد ولده والأستاذ تلميذه ، ويقتتل الناس اقتتالاً شديداً على انتحاله والتجمل به كما يقتتلون على أعز الأشياء وأنفسها حتى تبدلت الصور وانعكست الحقائق وأصبح الرجل الصادق المخلص أخرج الناس بصدقه وإخلاصه صدراً وأضلهم بهما سيلاً ، لا يدري أيكذب فيسخط ربه ويرضي الكاذبين ، أم يصدق فيرضي نفسه ويسخط الناس أجمعين ، ولا يعلم أيهجر هذا العالم إلى عزلة منقطعة يقضي فيها بقية أيام حياته غريباً شريداً ، أم يبرز للعيون فيموت هماً وكمداً .

يجب أن يكون أدب النفس أساس أدب الجوارح ، وأن يكون أدب الجوارح تابعاً له وأثراً من آثاره ، فإن أبى الناس إلا أن يجعلوا أدب الحركات والسكنات أساس أعمالهم وعلاقاتهم وميزان قيمهم وأقدارهم ؛ فليعلموا أن العالم كله قد استحال إلى مسرح تمثيل وأنهم لا يؤدون فيه غير وظيفة الممثلين الكاذبين .

* * *

فيها . أي أنهم يفضلون اليد الناعمة التي تحمل خنجرًا على اليد الخشنة التي تحمل بكرة ، ويؤثرون كأس البلور المملوء سماً على كأس الخزف المملوء ماء زلالاً . ولقد سمعت بأذني من أخذ يعد لرجل من أصدقائه من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعاً للوث صحائفهم ثم ختم كلامه بقوله : « وإنني على ذلك أحبه وأجله لأنه رجل «ظريف» . » وأغرب من ذلك كله أنهم وضعوا قوانين أدبية للمغازلة والمعاورة والمقامرة ، كأن جميع هذه الأشياء فضائل لا شك فيها ، وكأن الرذيلة وحدها هي الخروج عن تلك القوانين التي وضعت لها ، وما عهدنا يبعد بذلك القاضي المصري الذي أجمع الناس في مصر على احتقاره وازدراؤه حينما علموا أنه تلاعب بأوراق اللعب في أحد أندية القمار وسموه لصاً دنيئاً ، والقمار لصوبية من أساسه إلى ذروته .

أعرف في هذا البلد رجلين يجمعهما عمل واحد ومركز واحد ، أحدهما خير الناس والآخر شر الناس ، وإن كان الناس لا يرون رأيي فيهما .

أما الأول : فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة كتب الأخلاق والآداب ومزاولة ليله ونهاره ، فقرأ فيها فصول الصدق والأمانة والعفة والزهد والسماحة والتجدة والمروءة والكرم وقصص السمحاء والأجواد والرحماء والمؤثرين . وافتتن بتلك الفضائل افتتاناً شديداً ، ثم دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر في نفسه أن الناس قد عرفوا من الأدب مثل ما عرف وفهموا من معناه مثل ما فهم وأخذوا منه بمثل الذي أخذ . فغضب في وجه الأشرار وابتنس في وجه الأخيار ، والأولون أكثر عدداً وأعظم سلطة وجاهاً ، فسمي عند الفريقين شرساً متوحشاً . وامتدح إحسان المحسن ، وذم إساءة المسيء ، والمحسنون في الدنيا قليلون ، فسمي وقحاً بذيلاً حتى بين المحسنين . وبذل معروفه للعاجز الخامل ومنعه القادر النابه فلم يشعر بمعرفه أحد ، فسمي بخيلاً . واعتبر الناس بقيمتهم الأدبية لا بمقاديرهم الدنيوية ؛ فلقي الأغنياء والأشراف بمثل

باسمة متطلقة ، وظل العصفور يلعب ويفرد تغريداً شجياً ، وهو لا يعلم أنه ينشد فوق رأسها أنشودة الموت .

وهنا وقف الشيخ الذي تبناها بجانب فراشها واجماً حزناً مشرد اللب ذاهل العقل ، ومد يده إلى يدها الضعيفة الواهية التي كانت بالأمس عكاز شيخوخته وسند حياته ، فأخذها ووضعها على صدره كأنما يريد أن يمد حياتها بتلك البقية الباقية في قلبه من الحياة لتعيش من بعده ولو ساعة واحدة حتى لا يراها تموت بين يديه . وظل على حالته تلك هنيهة ثم التفت فجأة إلى أصدقائه وقال لهم : « ها هي الحرارة قد بدأت تدب في جسمها شيئاً فشيئاً . » فنظروا إليه آسفين معزولين ، ثم نكسوا أبصارهم وأسلوا مدامعهم ، فظل يدير بينهم عيوناً حائرة ويتنقل بنظراته ههنا وههنا كأنما يسألهم المعونة على أمره ، ومن ذا يعين على القدر أو يعترض سهم المنية القاتل دون رميته !

وما هي إلا لحظة قصيرة حتى شعر أن يدها تجذب يده فانتفض وحنأ عليها فطوقته بذراعيها الضعيفتين وضمتة ضمة كانت فيها نفسها .

إننا لله وإننا إليه راجعون ؛ ماتت إيفون الصغيرة ، ماتت الطفلة الوديدة الجميلة ، ماتت الفتاة الرزينة الصابرة ، في سبيل الله نجم تلاً في سماء الحياة لحظة ثم هوى ، وغصن أزهر في روض المنى ساعة ثم ذوى ، وقدر من البلور لم تكد تلمسه الشفاء حتى انكسر ، وعقد من اللؤلؤ لم ينتظم في سمطه حتى انتثر .

هذه الغرف التي طالما أنارتها باتساماتها حتى في الساعة التي تختفي فيها جميع الابتسامات ، والحديقة التي كانت تقضي فيها كل يوم يضع ساعات من ليالها أو نهارها تلاعب أطيافها وتقطف أزهارها وتتعهد أشجارها ، والماشى التي كانت تخطر على حصبائها فيصيرها شاع خديها ياقوتاً ومرجاناً ، قد خلت جميعها منها ، وهيئات أن يسعدا الحظ برؤيتها بعد اليوم .

إيفون الصغيرة (١)

« مترجمة »

ماتت وكأنها لم تمت ، ليس على وجهها أثر واحد من آثار الآلام التي قاستها في مرضها ، يحسبها الرائي نائمة نوماً هادئاً لذيقك ويخيل إليه أنه يسمع صوت أنفاسها المترددة ، ويرى هبوط صدرها وارتفاعه .

أين صفرة الموت ونحوه ؛ أين آلام النزع وشدائده؟ أين الغضون التي خلفتها الأوجاع فوق جبينها ، والخطوط الزرقاء التي رسمتها حول جفنيها؟ لقد مات كل ذلك بموتها فعاد لها رونقها وبهاؤها ، وأصبحت كأنما قد خلقت الساعة ولما تنبعث الروح في جسدها .

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسة منذ أيام قلائل أمام المدفأة باسممة مطمئنة تلاعب هرتها ، وبهذا الفم الأرجواني القاني كانت تغني أمام قصص عصفورها أنشودة السعادة والحياة ، وبهاتين اليدين البضاوين اللينتين كانت تقطف أزهار الربيع وتقدمها هدية إلى أبيها الشيخ .

أما اليوم فقد انقضى ذلك كله لأن حياتها قد انقضت .

آخر كلمة نطقت بها قبل موتها : « سأموت الساعة فانتوني بعصفوري أودعه . » فأتوها بقفص عصفورها وعلقوه بقائم سريرها فظلت تنظر إليه

(١) هي فتاة صغيرة عشر بها في طفولتها على باب إحدى الكنائس في فرنسا ناظر مدرسة قروية ، وكان شيخاً كبيراً مات جميع أولاده وأحفاده وبقي هو من بعدهم وحيداً مستوحشاً ، فأنس بها حين وجدها أنسا شديداً وسماها « إيفون الصغيرة » لأنه لم يكن يعلم من أمر نسبها شيئاً . فأصبحت سلوته الوحيدة في شيخوخته ، وعني بتربيتها وتهذيبها حتى بلغت السابعة من عمرها . فأصابها مرض لم يمهلها إلا بضع ليال حتى ذهب بها إلى ربها ، فترانا أحد الشعراء الغربيين بهذه القطة .

وحدها ويدها الكتاب المقدس تتلو آياته .» ويقول الآخر: « لقد دخلت الكنيسة ليلة فرأيتها هائمة وحدها في الظلام الحالك تحت هذه الأقبية ، فعبجت لصلاحها وتقواها .» وتقول امرأة : « لقد عثرت ابنتي يوماً من الأيام في مُنصرفها من مدرستها ببعض الأحجار عثرةً برّحت بها ، فاحتملتها على ظهرها حتى جاءت بها إلى المنزل .» وتقول أخرى : « لقد كنت أراها تمر كل يوم بجارتنا فلانة المسكينة فتعطيها رغيفاً من طعامها ثم تستمر أدراجها إلى مدرستها .»

وهكذا ظل كل منهم يذكر ما يعرف عنها حتى حانت ساعة الدفن فعلت الأصوات بالبكاء ، ثم غيبتها في قبرها وحثوا عليها التراب ، وكان الليل قد أظلم المكان بجناحيه وساد فيه سكوت موحش رهيب فانصرفوا مطرقين واجمين يقولون :

« وارحمته لها ! لقد خرجت من الدنيا غريبة كما وفدت إليها .»

* * *

الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسي مذ أعلنت هذه الحرب - قبحها الله وقبح كل ما تأتي به - ألا أكتب كلمة في صحيفة سيارة في أي شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها حتى ينقضي أجلها ، وأن أترك هذا القلم في مرقد هادئاً مطمئناً مدرجاً في ذلك الكفن الأبيض الرقيق المنسوج من خيط العنكبوت حتى يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن ينبعث كما يريد لا كما يُراد منه . ولكن نازلاً عظيماً نزل بهذا المجتمع المصري منذ عامين أو ثلاثة لم أحفل به في مبدئه ، ولم ألق له بالا وعددته في النوازل الصغيرة المترددة التي لا تلبث غيومتها أن تتعقد في سماء البلد حتى تهب عليها نسمة من نسيمات الروح الإلهي فتنتشع . ولكن ها قد مضى العام والعامان

كانت إيقون جميلة الخلق طيبة النفس نقية الضمير تحب الأحياء جميعهم ناطقهم وصامتهم ، فلا تبذل من ودها لهرتها المريضة أقل مما تبذل منه لأبيها الشيخ العجوز ، ولا تتودد إلى الشيوخ الفانين أصدقاء أبيها وجلسائه أكثر مما تتودد إلى وافد غريب يهبط قرينها للمرة الأولى في حياته . وما علموها قط اختلفت مع فتى أو فتاة من تلاميذ مدرستها لأنها كانت تستهوي الطيب منهم بلطفها وأدبها ، والخبيث بعفوها وصفحها . وهي وإن لم تكن تعلم أنها لقيطة ، ولكن من كان ينظر في عينيها ويرى ذبولهما وانكسارهما ولعانهما الذي يشبه لعان الدمع الرقراق يخيل إليه أنها قد ألهمت ما كتبه الناس عنها ، وأنها كانت تعلم أنها لا تعيش في بيت أبيها بوصاية جدها كما كانوا يقولون لها ، بل في بيت محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أمر ميلادها شيئاً . وكانت لا تزال تتراءى بين شفقتها ابتسامة حلوة هي الرقية التي كانت تفتح بها أفقال القلوب ثم تنزل فيما تشاء منها المنزلة التي تريدها ، ولم تكن ابتسامتها ابتسامة التصنع والتكلف التي يرثها أكثر الفتيات عن أمهاتهن ، بل ابتسامة الحب والإخلاص والحنو والعطف .

لذلك عَجِل الموت إليها ، لأن سكان السماء لا يستطيعون أن يعيشوا على ظهر الأرض زمناً طويلاً .

دقت أجراس الكنيسة تنعاه فلم تسمعها ، ولو سمعتها لاهتزت لها في سريرها شوقاً ولهفةً كما كان شأنها في حياتها . ثم جاءت ساعة الدفن ، فحملوها على أيديهم ومشوا بها حتى وصلوا إلى الكنيسة ، فوضعوا نعشها في ركن من أركانها ، ثم اجتمعوا حولها يودعونها الوداع الأخير ، فيكاهها الشيوخ الذين كانوا يحبونهم ويأنسون بها والفتيان والفتيات من تلاميذ مدرستها ، والنساء اللواتي كن يحبينها من أجل حبها أبناءهن ، ويكاهها أكثر من هؤلاء جميعاً ذلك الشيخ العجوز المسكين لأنها كانت كل دنياه فخرها في ساعة واحدة .

وظل كثير من الوقوف يرددون ذكراها فيقول أحدهم : « طالما رأيتها في هذا الركن نفسه جالسة

الأماكن التي تطوُّها أقدامكم إنما هي مقابر المجد والشرف ، ومدافن الفضائل والأخلاق ، ومصارع الأعراض والحرمات ، وهل غاب علمٌ ذلك عن أحد منكم فأعلمكم منه مالا تعلمون ؟

لا يجهل أحد منكم شيئاً مما أقول ، ولكنه الشباب ما زال يغري الضعيف الذي لا يقوى على احتمال سلطانه وسيطرته بالإقدام على تلك المخاطر المهلكة ، فيمضي إليها قُدماً لا يجهل مكان الخطر منها ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومثاورتها حتى يتردَّى فيها ؛ وربما كان هذا هو كل الفرق بيني وبينكم .

إنني لا أرى في هذه المجامع التي تفتتتون بها وتتهافتون عليها حسنة تغتفر سيئة ، أو جمالاً يفني بقيح ، أو خيراً يعزي عن شر ، فتمثيلها سخيف بارد لا يستطيع من أوتي حظاً قليلاً من الذوق الأدبي أن يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر إليه ، ومَلَحْجها ثقيلة مستبشعة ، لو نطق بها ناطق في مجتمع من المجتمعات الخاصة ثم قلب نظره في وجوه الجالسين من حوله لرأى في ابتسامات السخرية المتفرقة في شفاههم ما يذيه حياءً وخجلاً ، وأناشيدها سوقية مبتذلة في موضوعها وصورة أدائها لا يطرب لمثلها إلا أصحاب الأذواق العامية الخسنة الذين يطربون لنشيد الأذكار وطبول الزار وتعداد النائحات في المآتم والمناحات ، فماذا بقي فيها من وجوه الحسن بعد ذلك !

بقي فيها الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة العاملة في الأمة كالفلاحين أبائنا وأولياء نعمتنا ، والشيوخ حفظة ديننا وأئمة لغتنا ، والمحامين والأطباء والمعلمين أفاضل الأمة وعيونها ، وغيرهم من طبقات الأمة كالصناع والعمال والأكابر والباعة والمستزقين .

بل بقي ما هو شر من هذا جميعه ، وهو تمثيل الشهوات البدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من رجالنا ونسائنا وأطفالنا ، وتصويرها بتلك الصورة القبيحة التي ترخى على مثلها الستور وتقام من حولها الدعائم والجران .

والثلاثة وهو باق في مكانه لا يتحول ولا يتحلل ، بل تزداد قدمه على الأيام ثباتاً ورسوخاً ، وأحسبه سيبقى في مستقبل أيامه أضعاف ما بقي في ماضيهما إن لم نُثر عليه معشر الكتاب حرباً شعواء ، تهز جذرائه هزاً وتدكها دكاً وتُلحق أعاليها بأسافلها .

لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبال بتلك الألية التي كنت آليتها فلعل أصدقائي من أفاضل الكتاب يساعدوني في هذا الشأن الذي إن عجزنا عنه اليوم ؛ فما نحن بقادرين عليه غداً .

نزلت بالأمة المصرية نازلة تلك المقاذر العامة التي يسمونها الملاعب الهزلية - وماهي في شيء من الهزل ولا الجد ، ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ولا بأي فن من الفنون الأدبية - فأقبل عليها الناس إقبالاً عظيماً ، وأغرموا بها غراماً شديداً ، فليقبلوا عليها ماشاءوا ، وليفتتنوا بها ما أرادوا ، ولكن فريقاً واحداً من الأمة هو الذي نضن به على تلك المواطن الساقطة أن تطأها قدمه ، أو يظلل رأسه سماؤها ؛ لأننا نضن به على كل منقصة في العالم تُزري به أو تنال من كرامته .

ذلك الفريق المضمنون به وبكرامته هو أنتم معشر الطلبة المصريين إخواننا وأبنائنا ، وعنوان مجلنا وشرفنا ، وصورة وجودنا وحياتنا ، ومناط آمالنا وأمانينا ، فائدنا لكاتب من كتابكم ، وصديق من أصدقائكم أن يحادثكم قليلاً في هذا الشأن كما يحادث الأب ولده أو الأخ أخاه ، لا قاسياً ولا متجبراً بل عاتباً متلطفاً ، وأمله عظيم أن ينتهي الحديث بينه وبينكم على ما يجب لكم وما يعتقد أنكم تحبون لأنفسكم .

الحق أقول إن الحياء يكاد يعقد لساني بين أيديكم فلا أدري كيف أحدثكم ، ولا ماذا أقول لكم ١٩

أ أعظكم في أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء عقابه مثل ما أعلم ، أو أدعوكم إلى اجتناب سيئة لا أحسب أن بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التي لم تُرزأ الأمة بمثلها في حاضر تاريخها أو ماضيه ، أو أقول لكم إن هذه

الريحاني في مكان واحد .

فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الأصدقاء وأنتم عيون الأمة اليقظة وعقولها المفكرة أن تنخدعوا بالآعيب هؤلاء الخبثاء المحتالين ، فترفعوهم بأيديكم إلى هذه المرتبة العالية التي لم يخلقوا لها ولم يمتوا إليها بسبب من أسباب العلم أو الذكاء أو الشرف أو الخلق ، وها هم نوابغ الممثلين في أمتكم أشقياء بؤساء ، لا يكاد يجد أكثرهم بين ظهرانيكم ما يقيمون به أود عيشهم أو يعينهم على ما هم بسبيله من خدمة الفن والقيام عليه ؟

من ذا الذي يذهب لمشاهدة التمثيل الجدي في مسارح أبيض ورشدي وعكاشه وأمثالهم ، إن كنتم أنتم لا تذهبون إليها ؟ ومن هو أولى بها من بعدكم إن قطعتم صلتكم بها ؟

أ يعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين يزورها غير العامة والسوقة والأميين والجاهلين ، فإذا فتش عنكم في مكان آخر غيرها راكم مزدحمين في مراقص كشكش والبريري وشرقطح راضين عن مقامكم فيها مغتبطين بسفاسفها وهذيانها ؟

أ لا تخشون أن يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد راعه هذان المشهذان الغريان - مشهذك في الأجواق الهزلية الساقطة ، ومشهد العامة والسوقة في الأجواق الجدية الشريفة - أن الأمة المصرية أمة غريبة الشأن يفسدها العلم ويصلحها الجهل ، أو أن يتطرف متطرف منهم في رأيه فيقول : « ليت الأمة عاشت جاهلة عمياء موفوراً لها حظها من الأخلاق والآداب ، فذلك خير لها من علم يهوي بها في مهواة الشقاء والعار . »

لقد رأيت في حياتي صنوف الحيل والكيد وضروب السماجة والوقاحة ، فلم أر بين المحتالين والمتوقحين من هو أعظم كيداً ولا أسمى وجهاً من هؤلاء القوم .

إنهم يحاولون دائماً أن يلبسوا مفاسدهم وشرورهم ثوب الفضيلة والجد ، وهو إن كان ثوباً شفافاً ينم عما

فلو أن غريباً وفد إلى هذا البلد وهو لا يعلم من شأنه شيئاً ، فذهب إلى مكان من تلك الأمكنة ليرى في مرآته صورة الأمة ممثلة في مسارحها الوطنية لقضى عليها للنظرة الأولى بأنها أحط الأمم وأدناها .

ذلك لما يسمعه السامع فيها من ألفاظ السب والشتيم وجمل الفحش والهجر التي لا يطرق أذنه مثلها في أي موقف من مواقف حياته أو مشهد من مشاهدنا إلا إذا قدر له أن يتغلغل بنفسه يوماً من الأيام في تلك الأحياء العامة الساقطة حتى يصل إلى « عرب اليسار » أو « عيش الترجمان » ؛ فيسمعها هناك في مشاجرات القرادين ومهاترات الشحاذين .

ولقد قال لي أحد الأصدقاء الظرفاء مرة : « إن شتائم (أم شولج) قد انتقلت إلى بيتي ولا أعرف كيف انتقلت إليه ، فإني أسمع الكثير منها يتردد في أفواه الأطفال هازلين ، وفي أفواه الخدم جادّين ! »

أ تدرون أيها الأصدقاء من هم أولئك القوم الذين يسمون أنفسهم ممثلين ، ويسمون ما يهذون به على مسارحهم روايات ، والذين يدعونكم معشر المتعلمين الراقيين إلى حضور مجامعهم باسم الآداب والفنون ؟

لو أن جماعة من الزامرين ، وآخرين من الطبايين ، وآخرين من القرادين ، وجماعات غيرهم من الرمالين والمداحين والصفاعين والبهلوانية والحواة والرقاة ، وبقية السائلين المستجدين الذين يعمرون أبواب منازلنا كل يوم ضاحجين صارخين - فلا نلقي لهم بالاً ، ولا نغيرهم أذنًا - اتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا جماعة واحدة تعمل يداً واحدة في مكان واحد ؛ لكانوا هم يعينهم جوق كشكش والبريري وشرقطح ، لا فرق بينهم وبينهم سوى أن أولئك يقفون بأبوابنا ضارعين مبتهلين يقنعون باللقمة ويجتزئون بالشرية ، وهؤلاء يأبون إلا أن نقف على أبوابهم وتتعلق بأستارها ، فلا يفتح لنا حجابهم إلا إذا دفعنا الإتاوة المضروبة علينا .

وألطف كلمة سمعتها في هذا الشأن قول بعض المفكرين : « كان الشرُّ مفرقاً في أنحاء البلد فجعله

عقلائكم أنفسه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب إلى تلك الملاعب وشرح مضارها وسيئاتها لهم ، فإن امتناع فريق منكم يؤثر على فريق آخر ، وهكذا حتى يصبح في عرفكم جميعاً أن الدخول إلى تلك الأماكن عار يخجل مرتكبه من الظهور به بين أصدقائه ومعارفه .

نحن في حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم الناس عنا في كل مكان أننا أمة أخلاق وآداب ، وأن في نفوس أفرادنا من الصفات والمزايا ما يرفعنا إلى مصاف الأمم العظيمة . ومقياسُ عظمة الأمم في نظر العالم إنما هو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون بأي شيء غير ذلك ، فإن فات أياً ما أن يورثونا خلق العظمة والإباء في عهدهم فلتتخلق به نحن لنورثه أبنائنا من بعدنا .

إنكم لا تذهبون في الحقيقة إلى هذه الأماكن وحدكم ، بل يذهب إليهما معكم إخوانكم وأخواتكم وبقية أفراد أسرهم لأنكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ما شاهدتم ، وتروون لهم ما سمعتم ، فكان سكان البلد جميعاً رجالاً ونساءً ، كباراً وصغاراً يجتمعون في هذه البؤر الفاسدة في ساعة واحدة ، فهل يستطيع أن يتصور مقصور خطراً على الأمة وعلى أخلاقها وآدابها أعظم من هذا الخطر ؟

إنني لا أدعوكم إلى الامتناع عن الإلمام بهذه المقاذر العامة من أجل أنفسكم فقط ، بل من أجل إخوانكم وأخواتكم اليوم ، ومن أجل أبنائكم وأحفادكم غداً ، ومن أجل مستقبل الأمة المصرية كلها الذي أعتقد أنه أمانة في أيديكم ووديعة موكولة إلى كرم نفوسكم وشرف ضمائركم .

اهدموا هذه الأماكن هدماً بالإعراض عنها واحتقارها وإزديائها ، ثم قفوا بعد ذلك على أطلالها البالية هاتفين صائحين صياح الظافر المنتصر قائلين : « ها قد نجت الأمة من خطر عظيم ، وها نحن قد قمنا جميعاً بالواجب علينا ! »

* * *

وراءه إلا أنه يكفهم للدود عن أنفسهم في مواقف الجدل والمناظرة ، كما يكفي البرقع الشفاف المرأة المتهتكة للدخول في سلك المتحجبات .

يمثلون الفلاح أقيح تمثيل ولا يتركون مفسدة من المفاسد ولا رذيلة من الرذائل إلا ويلصقونها به ، وينشدون مختلف الأناشيد في السخريه به والهزء بصفاته وأعماله . ثم لا يخلجون أن يقولوا بعد ذلك في بعض تلك الأناشيد : « ما دام بلادنا زراعية ، حبوا الفلاح إن كنتوا تحبوا وطنكم . »

وينتقدون في رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء وينقمون على المصري تبديد أمواله في سبيل شهواته ، وليس للنساء في مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم وإفساد عقولهم وإبتزاز أموالهم خصوصاً في الساعة التي تمثل فيها هذه الروايات .

ويهدمون اللغة العربية هدماً بهذه اللغة العامية الساقطة التي يكتبون بها رواياتهم وينظمون بها أناشيدهم وينشرونها في كل مكان ، ويفسدون بها الملكات اللغوية في أذهان المتعلمين ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم أنصار اللغة العربية وحمايتها ، فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة : « ما لها لغتنا العربية ، آل همجيه ، يادي المصبيه يادي العار ، فشر دي لغة المنديه ، أئمسكوا بها صغار وكبار . »

ولا يستحيون أن يجمعوا في نشيد واحد من رواية واحدة بين قولهم : « دانا أبيع هندومي عشان بومه ، من خدك القشطه يا ملبن ، يا حلوة زي البسبوسة ، يا مهلبية تمام واحسن » وبين قولهم : « مصر يحميك ربك ، ما تشوفي إلا أيام سعدك » أي أنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه الصفعات المؤلمة ثم يحاولون أن يترضوها بعد ذلك بتديد كلمات « الوطنية » و « حب وطنك » و « مت في سبيل الأوطان » وأمثالها من الكلمات العذبة الجميلة التي لا معنى لها في أفواههم إلا أنهم يعتقدون أن المصريين قد بلغوا من الغفلة والبله مبلغاً لا يبلغه أطفال المكاتب ولا سكان المارستانات .

لا أرى لكم ، معشر الطلبة المصريين ، أمام هذه النازلة العظمى التي نزلت بنا إلا أن ينتلب فريق من

الشيخ علي يوسف

فإذا هبت ريح عاصفة على تلك الدوحة فاقتلعتها من جذورها وطارت بها في جو السماء وأصبحنا من بعدها ضاحكين بارزين ، فإننا لا نجد بداً من البكاء والجزع ؛ لأن من الشقاء ما لا يستطيع احتماله ولا يطلق تجرع كأسه .

لقد كان هذا الرجل العزاء الباقي لنا عن كل ذاهب ، والنجم المتلألئ الذي كنا نتنوره من حين إلى حين في هذه السماء المظلمة المذمومة المقفرة من الكواكب والنجوم ، والدوحة الخضراء التي كنا نلوذ بظلالها من لفحات هذه الحياة وزفراتها ، فنحن إن بكينا ، فإنما نبكي الأمل الذاهب والسعادة الراحلة والحياة الطيبة ، ومن هو أولى بالتفجع والبكاء من سعادتنا وآمالنا !

ما كنا نرجو لهذه الأمة غير هذين الرجلين ، ميت أمس الشيخ محمد عبده ، وميت اليوم الشيخ علي يوسف ، فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكتافها ، يمسكها الأول أن تزل بها مزالي المدنية الخالصة فيذهب دينها ، ويمسكها الثاني أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها ، واليوم لا نرجو لها من بعدهما أحداً ، فويل للأمة في دينها ، وويل لها في جامعتها !

العلماء والخطباء والكتاب في هذه الأمة كثير ، ولكن الرجال قليل .

إنما ينفخ الأمة ويضطلع بخطوبها ، ويحمل أعباءها على عاتقه الرجل الذي يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس الأسرة من أسرته التي يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها والسعي لها ، فيقوم لها بكل ما تريد ويسعى لها سعي الكادح المجد ، ويهرم صغيرها ويحنو على كبيرها ويحمل مغارمها ويغتفر عبث أطفالها وجهل شيوخها ويرى لها في كل شأن من شؤونها خيراً مما ترى لنفسها - أرضها ذلك أم أغضبها - من حيث لا يمين عليها بذلك ، ولا يطلب عندها جزاء ولا أجر ، بل من حيث لا تعلم ما يلاقي بينه وبين نفسه من آلام الحياة وما يعالج من شدائدها في سبيلها .

هكذا تقوم القيامة ، وهكذا ينفخ في الصور ، وهكذا تطوى السماء طي السجل للكتاب .

أ فيما بين يوم وليلة يصبح هذا الرجل الذي كان ملء الأقدعة والصدور وملء الأسماع والأبصار ، وملء الأرجاء والأجواء ، جثةً نحيلة ضئيلة مُدرجة في كفن ملحدة في مهوى من باطن الأرض سحيق ؟ ما أعظم الفرق بين الحياة والموت ! تغرب الشمس ، فلا تلبث أن تطلع من مشرقها ، وتتراكم السحب من دونها ، فلا تلبث أن تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة ، وتعرى الأشجار عن أوراقها ثم تعود إلى جمالها مخضرة نضرة حينما تهب عليها نسيمات الربيع ، وينام الأحياء في مضاجعهم حتى إذا طلع عليهم الكوكب النهاري وعشت أشعثاً بأهداب جفونهم قاموا من مراقدهم وذهبوا في سبلهم التي خلقوا لها ، ويموت الميت فلا ينتظره منتظر ، ولا يؤمل أوبته أمل ، فكأن ما صار إليه العدم الذي لم يسبقه وجود .

اللهم إنا نعلم أن الموت غاية كل حي ، وأن مقاديرك التي تجريها بين عبادك ليست سهاماً طائشة ولا نيقاً عشواء ، وأن زهرة الحياة لا يمكن أن تنبت إلا في التربة التي نبت فيها أشواك الموت ، ولكننا لا نستطيع أن نملك عيوننا من البكاء ولا قلوبنا من الجزع إذا فارقنا عزيز علينا ؛ لأن ساحة الصبر التي منحتنا أضيق من أن تسع نازلة البلاء الذي ابتليتنا ، فاغفر اللهم لنا حيننا وبكائنا على الهلكى والداهبين .

اللهم إنك تعلم أنا نسير من حياتنا هذه في صحراء محرقة ملتهبة ، لا نجد فيها ظلاً نستظل به ولا أكمة نأوي إليها ، وأن الصديق الذي نعثر به في حياتنا هو بمنزلة الدوحة الخضراء التي ننتهي إليها في تلك الصحراء بعد الأئس والكلال وطول السير والسرى ، فتترامى في ظلالها الورقة ناعمين هادئين .

إليه يشكو حاجة من الحاج صادقاً كان فيها أم كاذباً ، ويسأله المعونة عليها من ماله أو جأهه إلا أعانه عليها ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، رحمة وإشفافاً ، لا رياء ونفاقاً . وكان يرى الرأي ويرى الناس جميعاً غيره ، فلا يثنيه عنه ثان حتى ينحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فإذا هو مصيب وإذا الناس جميعاً مخطئون .

ففي سبيل الله يا علي ما فقدنا بفقدك ! وفي ذمة الله وجواره تلك الروح الطيبة الطاهرة التي عاشت ما عاشت في هذه الدنيا سرّاً كامناً بين أحناء ضلوعك لا يدركه ولا يكتنه باطنها إلا قليل من الناس ، فما رآها الناس جميعاً رأي العين إلا وهي طائرة في جو السماء إلى ربها ! وكذلك شأن هذه الأمة البائسة المحدودة لا ترى رجالها ولا تعرف مكانهم ولا تشعر بعظمتهم إلا وهم ذاهبون إلى قبورهم حيث تنقطع الصلة بينها وبينهم ، فمثلها كمثّل صاحب الدار الذي يجهل أن في أرضها كنزاً مخبوءاً حتى إذا باعها لمن يستخرج ذلك الكنز منها ، جلس إلى ظل حائطها يبكي بكاء البائس المحزون .

لقد كنت يا علي مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا يفهمونها ، بل كنت أفضل من الحقيقة ، لأن الحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقائها . أما أنت فكنت تخدم أصدقاءك وأعداءك ، أما الأولون فلأنك كنت تحسن إليهم بجاهك أو بمالك أو برأيك ، وأما الآخرون فقد كانوا يقتاتون تلك القطرات من الدماء التي كانوا يستقطرونها من عرضك وشرفك ، فويل للفرقيين معاً من بعدك ! وكنت القطب الذي تدور حوله رحي الأقلام في البلد ، فقد كانت وظيفة الكتاب أن يشرحوا آراءك أو يفسروا كلماتك أو يكتبوها مقاصدك أو يوافقوك أو يخالفوك أو يمدحوك أو يذموك . فإن كتبوا في شأن من الشؤون غير هذا فترأوا واستبدروا ، فوا ضيعة الأقلام وما أضيق مذاهب الكتاب بعد رحيلك ! وكنت العصمة التي تعتصم بها الأمة في مواقف

وكذلك كان شأن الشيخ علي يوسف في أمته ، فقد مات بموته آخر من بقي لها من الرجال .

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونهم ؛ لأن الذين ينظرون ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم ، ولأن الحقيقة الكامنة في سويداء قلبه كانت أعمق مكاناً وأدق مسلكاً من أن تتناولها النظرة الأولى ، ولأنه كان مخلصاً محتشكاً يعمل في سره أكثر مما يعمل في علانيته ، ثم لا يدل بنفسه في كلتا الحالتين على نفسه .

رأيت في حادثة الأزهر في تلك الأيام التي كان يظن فيها كثير من الناس أنه حرب على الأزهر والأزهريين ، يقضي كثيراً من لياليه متردداً على أبواب القائمين بالأمر ضارعاً إليهم أن ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم أو بعض ما يريدون ، قائلاً عنهم ما كان يقوله النبي ﷺ عن فئة حنين : « اللهم إن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على ظهر الأرض أبداً » . فلا يقف في سبيله إلا حماقة أولئك الذين كانوا يظنهم هؤلاء المساكين أصدقاءهم ، وهم أعدى أعدائهم .

ورأيت يضم إلى كنفه كثيراً من أصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة عبد الحميد ، وتكرر لهم الناس جميعاً خصوصاً أولئك الذين كانوا يزولون إليهم أيام إقبالهم ويمسحون وجوههم على أعتاب قصورهم ، وكان يلاقي في سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللاتمين له ما لا يستطيع احتمالاه ، فلم يبال بشيء من ذلك .

ورأيت كثيراً من أعدائه الذين كانوا في بعض أيام حياتهم حرياً عليه وشقاء له يعودون إلى حظيرته واحداً بعد واحد يستغفرونه ، فيجلس إليهم ويتحدث معهم حديث المودة والإخاء ، كأنما كانوا معه على ميعاد .

وما رأيته في يوم من أيام حياته حاكماً ولا واجداً ، ولا منتقماً ولا طالباً بثأراً ، ولا ذاقتاً عن نفسه إلا في الساعة التي يعلم فيها أن قد جد الجد ، وأن قد أصبح عرضه وشرفه على خطر ، ولم أر سائلاً دخل

على مثالهم ، ولا داخل في كلية من كلياتهم العامة . فإذا نزلت نفس من نفسه هذه المنزل أصبحت لا ينظر إلى شيء من الأشياء بعين غير عينه ، ولا يسمع بأذن غير أذنه ، ولا يمشي في طريق غير الطريق التي مهدها بيده لنفسه ، ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شأنه وشأن صاحبه سلطاناً عليه في رأي أو فكر أو مشايعة لمذهب أو مناصبة لطريقة . بل يرى لشدة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم أنَّ حقاً على الناس جميعاً أن يستقيدوا له وينزلوا على حكمه ويترسموا مواقع أقدامه في مذاهبه ومراميه فترى جميع أعماله وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس وأعمالهم ، تبهر العيون وتدهش الأظفار وتملأ القلوب هيئة وروعة . فإن كان شاعراً كان مبتكراً في معانيه أو طريقته ، أو كاتباً أخذ على النفوس مشاعرها وأهواءها ، أو فقيهاً هدم من المذاهب قديماً وبنى جديداً ، أو ملكاً شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله ملك سواه ، أو وزيراً ساس أمته بسياسة جديدة لا عهد لهم بمثلها ، أو قائداً ضرب الضربة البكر التي تردد الآفاق صدها .

تلك هي العظمة ، وهذا هو الرجل ، ومن كان هذا شأنه كان فتنة الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم ومعترك أنظارهم وأفهامهم ومثار الخلف والشقاق فيما بينهم في استكثانه أمره وتقدير منزلته ، فيعجب به الذين فطروا على الإعجاب بكل غريب والافتنان بكل جديد حتى ينتقل بهم الإعجاب به إلى الافتنان بأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته ، والإغراق في حبه والمشايعة له ، والسير بعجائبه وغرائبه في كل صقع وناد ، فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والمتمردين على عبقرته ونبوغه موقفاً غير جميل ، فلا يجدون لهم بداً من مقابلة الإغراق في حبه بالإغراق في بغضه على قاعدة المشادة والمعادنة . وهناك تختدم للمعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه ، فيهاجمه هؤلاء يحاولون استلاب عظمتهم منه ، ويناضل عنه أولئك يريدون استيقاعها في يده وهو واقف بينهم يُدير أنظاره فيهم هاتكاً معتبطاً لا يحزن ولا يبتسئ ، لأنه يعلم أن جميع هذه الأصوات

يؤسها وشقائها ، ومواطن خطوبها وكروبها ، وما أحسب إلا أن الدهر يدخر لها من ذلك في مستقبل أيامها أكثر مما ادخر لها في ماضيها ، فما أكثر شقاءها وبلاءها بعد اليوم !

أيها الراحل الكريم : لقد كنت أرجو أن أجد بين جنبي بقية من الصبر أغالب بها هذا الحزن الذي أعالجه فيك حتى يتلى على مدى الأيام ، كما يتلى الكفن ، لولا قدرٌ أبعدني عن موطنك في آخر أيام حياتك ، فأحرمني جلسة أجلسها بجانب سريرك أسمع فيها آخر كلمة من كلماتك ، وأرى آخر نظرة من نظراتك . وحال بيني وبين خطوة أخطوها تحت نعلك أجزيك فيها ببعض ما مشيت لي من الخطوات في حياتك ، ووقفة أقفها عند قبرك ساعة دفنك ، أذرف فيها على تربتك أول دمة ينرفها الباكون عليك ، فلتن بكيت موتك يوماً ، فسأبكي حرماني وداعك أياماً طوالاً حتى يجمع الله بيني وبينك .

* * *

العظمة

إن رأيت شاعراً من الشعراء ، أو عالماً من العلماء ، أو نبيلاً في قومه ، أو داعياً في أمته قد انقسم الناس في النظر إليه وتقدير منزلته انقساماً عظيماً وانفرجت مسافة الخلف بينهم في شأنه ؛ فافتتن بحبه قومٌ حتى رفعوه إلى رتبة الملك ودان ببغضه آخرون حتى هبطوا به إلى منزلة الشيطان فاعلم أنه رجل عظيم .

العظمة أمر وراء العلم والشعر والإمارة والوزارة والثروة والجاه ، فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون والعظماء منهم قليلون ، وإنما هي قوة روحية موهوبة غير مكتسبة تملأ نفس صاحبها شعوراً بأنه رجل غريب في نفسه ومزاج عقله ونزعات أفكاره وأساليب تفكيره ، غير مطبوع على غرار الرجال ولا مقدود

الصارخة المختلطة حوله إنما هي أبواق شهرته وعظمته .

لا أريد أن أقول إن الرجل العظيم مصيب في كل ما يرى وما يفعل وما ينتهج لنفسه وللناس من سبل الحياة ، فربما كان مَنْ هو أضعف منه قوة وأخمل ذكراً أسدً منه رأياً وأصدق نظراً ، وإنما أريد أن أقول إن أحداً من الناس لا يستطيع أن يشغل أقلام الكتاب وعقول المفكرين والسنة الناطقين وقلوب المحبين والمبغضين إلا الرجل العظيم .

أحبُّ علياً قومٌ حتى كفروا بهجه ، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه . وسُميَ بعض الناس أباً بكر وعمر شيخي المسلمين ، وأتكر بعضهم صحتهما وإخلاصهما . وعاش محيي الدين بن العربي بين فئة تراه قطب الأولياء وأخرى تراه شيخ الملحدين . واختلط فريق من المسلمين بآهين رشد فسموه فيلسوف الإسلام ، ونقم عليه فريق فملأوا وجهه بصافاً في المسجد الجامع . وسُميَ قوم صاحب كتاب الإحياء حجة الإسلام ، ومزق آخرون كتابه ونثروه في مهاب الرياح . وعاش المغربي بين رضا الراضين عنه ونقمة الناقمين عليه ، يلثم الأولون مواطع قدميه ، ويسجيه الآخرون على وجهه في الطرقات العامة ، وشرب سقراط كأس السم بين أفواه باسمه شماعة به ، وعيون دامة حزناً عليه . وجرت الأقلام بمدح المتنبّي تارة فإذا هو سيد الشعراء ، وبذمه أخرى فإذا هو أكبر المتكلمين ، ورفع قوم شكسبير إلى مرتبة الكمال الإنساني فقالوا : « نابغة الدهر » . وهبط به آخرون إلى أدنى منازل الخسة والدناءة فقالوا : « المنتحل الكتاب » . واقتنن المنتنون بنابوليون الأول فعملوا به إلى رتبة الأنبياء ، وتكر له خصومه وأعداؤه فسلكوه في ملك الحمقي والممرويين . وذاق كل من لوثر وكالفين وجاليليو وفولتير ونيتشه وتولستوي كأس الحب والبغض في حياته وبعد مماته إلى القطرة الأخيرة منهما . وما انقسم الناس في هذا البلد في شأن رجل من الرجال انقسامهم في شأن جمال الدين ومحمد عبده وسعد

زغلول ومصطفى كامل وقاسم أمين .

وما كان واحد من هؤلاء جميعاً بالمنزلة التي يرفعه إليها المغرقون في حبه ، أو ينزل به إليها الغالون في بغضه ، ولكنهم كانوا قوماً عظماء فانقسم الناس في شأنهم وذهبوا في أمرهم هذه المذاهب البعيدة المترامية ، ولا ينقسم الناس هذا الانقسام العظيم ، إلا في شأن الرجل العظيم .

ليس معنى الوجود في الحياة أن يتخذ المرء لنفسه فيها نفقاً يتصل أوله بباب مهده وآخره بباب لمجه ، ثم ينزل في انزلاقاً من حيث لا تراه عين ولا نسمع ديبه أذن حتى يبلغ نهايته كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من نبات الأرض . وإنما الوجود قرع الأسماع واجذاب الأنظار وتحريك أوتار القلوب واستثارة الألسنة الصامتة وتحريك الراكدة وتأريث نار الحب في نفوس الأخيار ، وجمرة البغض في قلوب الأشرار ، عظماء الرجال أطول الناس أعماراً - وإن قصرت حياتهم - وأعظمهم حظاً في الوجود - وإن قلت على ظهر الأرض أيامهم .

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصدقائها ، ويحمل أحجاراً هيكلها على رؤوسهم هادموها وثنائها ، فحيث ترى سواد الأعداء فهناك سواد الأصدقاء ، وحيث ترى الفريقين مجتمعين في صعيد واحد ، فاعلم أن العظمة ماثلة على عرشها العظيم فوق أعناقهم جميعاً .

العظمة قصر مُشيدٌ مرفوع على دعائمتين منحوتتين من حب الناس وبغضائهم ، فلا يزال ذلك القصر ثابتاً في مكانه لا يتزعزع ولا يتحلحل ما بقيتا في مكانهما ، فإذا سقطت إحداهما عجزت الأخرى عن الاستقلال به ، فسقطت بجانب أختها فسقط هو بسقوطها .

لا يعجبك أن يتفق الناس جميعاً على حبك ، لأنهم لا يتفقون إلا على حب الرجل الضعيف المهين الذي يتجرد لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره ، ثم يُقعى على ذنبه تحت أقدامهم لإقعاء الكلب الذليل يضربونه فيصطبر لهم ، ويعبثون به

كان أم مخطئاً ، محقاً أم مبطلاً ، صادقاً أم كاذباً ، مخلصاً أم غير مخلص ، لأن النقد نوع من أنواع الاستحسان والاستهجان ، وهما حالتان طبيعيتان للإنسان لا تنفكان عنه من صراحة الوضع ، إلى أنه النزع . وكل ما هو طبيعي فهو حق لا ريبه فيه ولا مراء ، فإن أصاب الناقد في نقده فقد أحسن إلى نفسه وإلى الناس ، وإن أخطأ فسيجد من الناس من يدلّه على موضع الخطأ فيه ويرشده إلى مكان الصواب منه ، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ حتى يستقيم له الصواب كله .

فإن أئينا عليه أن ينتقد إلا إذا كان كُفُفًا في علمه ومخلصاً في عمله ، كما يشترط عليه ذلك أكثر الناس ، فقد أئينا عليه أن يخط سطرًا واحدًا في الانتقاد ، وقضينا على ذهنه بالجمود والموت ، لأننا لا نعرف لهاتين الصفتين حدودًا معينة واضحة ، فكل ناقد يزعمهما لنفسه ، وكل منتقد عليه يجرّد ناقدته منهما ، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالإخلاص المجرد في عمله فيسمح به لجماعة الناقدين !

على أن الناقد الناقم لا تمنعه نغمته من أن يكون مصيبًا في بعض ما يقول ، لأنه لم يأخذ على نفسه عهدًا أن يخلق جميع المآخذ التي يأخذها وألا يكتب إلا الباطل والمحال ، وإنما هو رجل عَيَّاب بالحق وبالباطل ، فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ إلى السيئات المختلقة ، ولقد كُتِبَ أول نقد في التاريخ بمداد الضغينة والمقصد . فقد كانت توجد في عهد اليونان القديم طائفة من الشعراء يجوبون البلاد ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية في الأسواق والمجمعات وبين أيدي الأمراء والعظماء فيكرمهم الناس ويجلونهم إجلالاً عظيماً ويجزلون لهم العطايا والهبات ، فنفس عليهم مكانتهم هذه جماعة من معاصريهم من الذين لا يطوفون في البلاد طوافهم ، ولا يحظون عند الملوك والعظماء حظوتهم ، فأخذوا يعيبونهم ويكتبون الكتب في نقد حركاتهم وأصواتهم ومعاني أشعارهم وأساليبها ، وكان هذا أول عهد العالم بالنقد ،

فيصيص بذنبه طلباً لرضاهم ، ويهتفون به فيقترب ، ويرجونه فيزدجر .

ولا يعجبنا أن يتفقوا على بغضك لأنهم لا يتفقون إلا على بغض الخبثاء الأشرار الذين لا يحبون أحداً من الناس فلا يحبهم من الناس أحد .

وليعجبنا أن يختلفوا في شأنك وينقسموا في أمرك ويذهبوا في النظر إليك وتقدير منزلتك كل مذهب ، فذلك آية العظمة وذلك شأن الرجل العظيم .

كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله من بين ذائد عنه وعادٍ عليه ، ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليستقي به دوحة العظمة التي ينعم في ظلالها القائد العظيم .

كن الناطق الذي تحمل الريح صوته إلى مشارق الأرض ومغاربها ، ولا تكن الريح التي تختلف إلى آذان الناس بأصوات الناطقين من حيث لا يابهون لها ولا يعرفون لها يدها عندهم .

كن النبتة النضرة التي تعتلج ذرات الأرض في سبيل نضرتها ونمايتها ، ولا تكن الذرة التي تطلوها الأقدام ، وتدوسها الحوافر والأخفاف .

كن زعيم الناس إن استطعت ، فإن عجزت فكن زعيم نفسك ، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظمة والتلصق بهم أو مناصبتهم العداء والوقوف في وجههم ، فإن فعلت كنت التابع الذليل ، وكانوا الزعماء الأعزاء .

* * *

حرية الانتقاد

سألني بعض الأصدقاء عن رأيي في الانتقاد وشروطه وحدوده وآدابه وواجباته ، ورأيي فيه ألا شروط له ولا حدود ولا آداب ولا واجبات ، وأن لكل كاتب أو قائل الحق في نقد ما يشاء من الكلام ، مصيباً

وأبا زيد والمبرد والجاحظ والقالي وقدامة وابن قتيبة والآمدي وأبا هلال والجرجاني بُعثوا في هذا العصر من مراقدهم ، وتكلفوا أن يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر مثلاً لما كرهوها ، أو يمدحوا مقالة يستقلها الناس من نثر « فلان » لما أحبوا ، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل إليها ، فهي تختفي حيناً أو تتنكر أو تتراءى في ثوب غير ثوبها ، ولكنها لا تتمحي ولا تزول .

فلنتطلق ألسنة الناقدین بما شاءت ، ولتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت ، فقد حرمتنا الحرية في كل شأن من شؤون حياتنا ، فلا أقل من أن تتمتع بحرية النظر والتفكير .

* * *

يوم العيد

أفضل ما سمعت في باب المروءة والإحسان أن امرأة بائسة في باريس وقفت ليلة عيدٍ من الأعياد بحانوت تماثيل يطرهه الناس في تلك الليلة لابتياح اللعب لأطفالهم الصغار ، فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات في حسنه وجماله ، فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيماً ، لا لأنها غريبة بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصبيانية ما يستفز الأطفال الصغار ، بل لأنها كانت تنظر إليه بعين ولدها الصغير الذي تركته في منزلها ينتظر عودتها إليه بلعبة العيد كما وعدته . فأخذت تسام صاحب الحانوت فيه ساعة والرجل يغالي به مغالة شديدة حتى علمت أن يدها لا تستطيع الوصول إلى ثمنه ، وأنها لا تستطيع العودة بدونه ، فاسقتها الضرورة التي لا يقدرها قدرها إلا من حَمَل بين جنبه قلباً كقلب الأم وفؤاداً مستطاراً كفؤادها إلى أن تمد يدها خفية إلى التمثال فتسرقه من حيث تظن أن الرجل لا يراها ولا يشعر بمكانها . ثم رجعت أدراجها وقلبه يخفق في آن واحد خفتين مختلفتين : خفقة الخوف من

والفضل في ذلك للضغينة والحقد ، فلرذيلة الحقد الفضل الأول في وجود الانتقاد وزوغ شمس المنيرة .

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من أن يكون رأيه في مثل هذا الموضوع رأياً صائباً ، لا بل ربما كان شعوره بحسن الكلام وقبحه - متي رزق حظاً من سلامة الذوق واستقامة الفهم - أصبح من رأي الأديب المتكلف الذي يعمل النقد تعملاً ، ويتعمق التعمق كله في التفتيش عن حسنات الكلام وسيئاته وقد يضل عنها . ورب ابتسامة أو تقطعية يمران بوجه السامع العامي عفواً أنفع للأديب حين يراها وأحزن له على معرفة مكان الحسنه والسيئة من كلامه ، من مجلد ضخيم يكتبه عالم مضطلع بالأدب واللغة في نقد شعره أو نثره . وإذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للأمة جميعها خاصتها وعامتها ، فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها ، متعلماً كان أو جاهلاً ، أن يدلِّي برأيه في استحسان ما يستحسن من كلامه واستهجان ما يستهجن منه .

وهل رَفَعَ العظماء من رجال الأدب إلى مواقف عظمتهم وسجل لهم أسماءهم في صحف المجد إلا منزلتهم التي نزلوها من نفوس السواد الأعظم من الأمة والمكانة التي نالوها بين عامتها ودهمائها ؟

وبعد فلا يترحم بالنقد ولا يضيق به ذرعاً إلا الغبي الأبله الذي لا ييالي أن يفهم الناس سيئاته بينهم وبين أنفسهم ، ويزعجه كل الإزعاج أن يتحدثوا بها في مجامعهم ، ولا فرق بين فهمهم إياها وحديثهم عنها ، أو الجأئ المستطار الذي يخاف من الوهم ويفرق من رؤية الأشباح ، ولو رجع إلى أناته ورويته لعلم أن النقد إن كان صواباً فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها ، أو خطأ فلا خوف على سمعته ومكانته منه ، لأن الناس ليسوا عبيد الناقدین ولا أسراهم ، يأمرونهم بالباطل فيذعنون ، ويدعونهم إلى المحال فيتبعون . ولئن استطاع أحد أن يخدع أحداً في كل شيء فإنه لا يستطيع أن يخدعه في شعور نفسه بجمال الكلام أو قبحه . ولو أن الأصمعي وأبا عبيدة

الصخر حزناً على أولادهم الواقفين بين أيديهم يسألونهم بألستهم أو بأعينهم ماذا أعدوا لهم في هذا اليوم من ثياب يفاخرون به أُنْدَادهم ، ولعب جميلة يزينون بها مناضدهم ، فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها .

فهل لأولئك السعداء أن يمدوا إلى هؤلاء الأشقياء يد البر والمعروف ، ويفيضوا عليهم في ذلك اليوم السعيد النزر القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأنفسهم في باب المروءة والإحسان ما سَجَّل لصاحب حانوت التماثيل !

إن رجلاً يؤمن بالله وآياته وكتبه ويحمل بين جنبيه قلباً يخفق بالرحمة والحنان ، لا يستطيع أن يملك عينه من البكاء ولا قلبه من الخفقان عندما يرى في يوم العيد في طريقه إلى معبده أو منصرفه من زيارته طفلة مسكينة ، بالية الثوب كاسفة البال ، دامة العين ، تحاول أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلاً من أترابها وأندادها أن تقع أنظارهن على بؤسها وقرها ورثاءة ثوبها وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به أيديهن ، فلا يجد بداً من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنو عليها وعلى بؤسها ومتربتها ؛ لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها أعماق قلبه عندما يمسح بيده تلك الدمعة المترققة في عينها .

حسبُ اليُوساء من محن الدهر وصروفه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم في سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة في كل عام مرة أو مرتين .

* * *

من الشيوخ إلى الشبان

لا نستطيع أن ننكر عليكم ، معشر الأبناء ، أن شبابكم أعظم قوة ونشاطاً وأبعد همة وأقوى عزيمة

عاقبة فعلتها ، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستقدمها بعد لحظات قليلة إلى ولدها ، وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته ، فما برحت مكانها حتى تبعها يترسم مواقع أقدامها حتى عرف منزلها ، ثم تركها وشأنها وذهب إلى مخفر الشرطة فجاء منه بجنديين للقبض عليها وصعدوا جميعاً إلى الغرفة التي تسكنها ، ففاجأوها جالسة بين يدي ولدها تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور ، فهجم الجنديان على الأم فاعتقلاها ، وهجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده ، فصرخ الولد صرخة عظيمة لا على التمثال الذي انتزع منه ، بل على أمه المرتعدة بين يديه . وكانت أول كلمة نطق بها وهو جاثٍ بين يدي الرجل : « رحمتك بأمي يا مولاي ! » وظل يبكي بكاء شديداً ، فجمد الرجل أمام هذا المنظر المؤثر وأطرق إطرافاً طويلاً ، وأنه لذلك إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بإشراق فجر العيد فانتفض انتفاضة شديدة وعظم عليه أن يترك هذه الأسرة الصغيرة حزينة منكوبة في اليوم الذي يفرح فيه الناس جميعاً ، فالتفت إلى الجنديين وقال لهما إنني أخطأت في اتهام هذه المرأة فإني لا أبيع هذا النوع من التماثيل ، فانصرفا لشأنهما ، والتفت هو إلى الولد فاستغفر ذنبه إليه وإلى أمه ، ثم مشى إلى الأم فاعتذر إليها عن خشونته وشدته ، فشكرت له فضله ومروءته وجبينها يرفض عرفاً حياء من فعلتها ، ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعل عيدهما أسعد وأهنأ مما كانا يظنان .

لا تأتي ليلة العيد حتى يطلع في سماءها نجمان مختلفان : نجم سعود ونجم نحوس ، أما الأول فللسعداء الذين أعدوا لأنفسهم صنوف الأودية والحلل ولأولادهم اللعب والتماثيل ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب ، ثم ناموا ليلتهم نوماً هادئاً مطمئناً تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرهم تطاير الحمام البيضاء حول المروج الخضراء ، وأما الثاني فلاأشقياء الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغصبي يثنون في فراشهم أنيناً يتصدع له القلب ويدوب له

فضل لكم في الحقيقة في هذا الذي تزعمون أن لكم الفضل فيه وحدكم من دون الناس جميعاً ، إنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدته ، ولا علاقة للعلم والجهل والذكاء والغباوة والتأخر بشيء من ذلك . وللشباب خصائص كثيرة وصفات متعددة ، وأخص صفاته قصر النظر وسرعة الحكم والعجز عن إحكام الصلة بين أدوار الزمن الثلاثة ماضيه وحاضره ومستقبله ، فهو لا يستطيع أن يتصور تصوراً ثابتاً متيناً أن الماضي أساس الحاضر ومنبع وجوده ، لا يشرق إلا من مطلعه ، ولا يئبث إلا في تربته ، وأن المستقبل بيد الطبيعة القاسية وقوانينها الصارمة ، وليس أقرب إليه من أن يتصور أن في استطاعته أن يمحو بيده في لحظة واحدة وجه الكون بأرضه وسمائه ، ثم يخلقه خلقاً جديداً على الصورة التي يريدتها ويتصورها ، وأن في إمكانه أن يحيل التراب أمواها والأمواه تراباً ، وأن يحجب بيده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع إلا بإرادته وأن يرغبها متى أراد أن تمزق حجاب الليل وتبرز في سمائه . ولا يزال يتخبط في أمثال هذه التصورات والأحلام التي لا فائدة فيها ولا نتيجة لها حتى تطلع عليه أول طليعة من طلائع الشيخوخة فتهذا ثورقه ، وتفتر حذته ، ثم لا يلبث أن يسقط جاثياً بين يدي القوة الإلهية والقوى الطبيعية معترفاً بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول وقوة هائفاً : « إن للكون إلهاً لا أستطيع محادثته وللطبيعة سنة لا أستطيع تبديلها » .

كنا نفكر كثيراً في شأن المرأة كما تفكرون اليوم ، ولا نجد حديثاً ألد ولا أطرب من الحديث عنها ، وكنا لشدة إعجابنا بها واهتمامنا العظيم بإرضائها وتدليلها والوقوع من نفسها موقفاً جميلاً ندافع عنها ضد أنفسنا ، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا أكثر مما تطلبه لنفسها ، ونتمنى بجدع الأنف لو أننا رأيناها متمتعة بالحرية إلى أقصى حدودها فتتبرج كيف تشاء ، وتُسفر كما تريد ، وتجلس إلى الرجل جنباً لجنب في المجتمعات العامة والخاصة دون أن يعارضها معارض ، أو يكدر عليها صفوها مكدر . بل كنا نذهب في مجاملتها

من شيخوختنا ، وأن أيدينا الشاحبة المعروفة لا تستطيع أن تصل إلى ما تصل إليه أيديكم الفتية المقتدرة ، وأن آراءكم وأفكاركم وجميع تصوراتكم وآمالكم التي تتلون بها شبوبيتكم أكثر حدة وحرارة ، وأبعد غوراً وعمقاً من آرائنا وتصوراتنا ، ولكن الذي ننكره عليكم ونعتب عليكم فيه أشد العتب هو زرايتكم علينا واحتقاركم لنا ورميكم إيانا بالجمود مرة والخرف أخرى ، كلما اختلفنا معكم في شأن من الشؤون ، كما أننا ننعي عليكم كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بأنفسكم ذلك الاعتداد العظيم الذي يخيّل إليكم معه أن هذه الألوان الجميلة التي تتلون بها حياتكم الحاضرة إنما هي خاصة بكم ووقف عليكم ، لم تمر بعصر غير عصركم ، ولم يزه بها شباب غير شبابكم ، وأنكم أنتم أصحاب الفضل الأول في ابتكارها وافتراع عُدّتها . ولو أنكم استطعتم أن تحملوا أنفسكم على الرويّة والأناة وأن تنتقلوا بأنظاركم من الحاضر إلى الماضي - وإن لم يكن ذلك من طبيعة الشباب ولا من طبيعته - لعلمتم أن هذا العهد الذي يمر بكم اليوم والذي تفاخرونا به وتدلّون علينا بأحلامه وأمانيه وتصوراتهِ وخيالاته قد مر بنا مثله في زماننا ، فقد كان لنا شباب مثل شبابكم ، نتصور فيه كما تتصورون ، ونفكر كما تفكرون ، ونزد في أنفسنا وأحادثنا وكتاباتنا جميع هذه الآراء والأفكار التي تردودنها اليوم ، حتى انطوى ذلك العهد وزالت معالمه وهذأت على أثره تلك الثورة النفسية الهائلة التي كانت تعترك بين جوانحنا ودخلنا غمار الحياة الحقيقية ، حياة الجد والعمل والنظر والتأمل والخبرة والتجربة فاستطعنا أن نرجع إلى نفوسنا ، ونثوب إلى رشدنا ، وأن نهبط بهدوء وسكون إلى أعماق قلوبنا ونستعرض تلك الآراء والأفكار والأحلام والآمال بإمعان وتدقيق فاستطعنا أن نميز صالحها من فاسدها ، وصادقها من كاذبها ، ومعقولها من موهومها ، وأن نقبّل الأشياء على جميع وجوهها ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح ونوازن بين هذه وتلك ، فأخذنا بما أريت حسناته على سيئاته وأطرحنا ما زادت سيئاته على حسناته ، فلا

لم تكن عقائد راسخة في نفوسنا بل أشباحاً وصوراً تتراءى في سماء حياتنا فتعجب بها ونستطير فرحاً وسروراً بجمال منظرها وبهجة ألوانها فأصبحنا معتدلين في آرائنا مثقلين في أحكامنا ، نحب حرية المرأة ولكننا نكره فسقها وفجورها ، ونأخذ مواد المدنية والرقى من الأمم المتقدمة ولكننا لا نقلدها ، ونحب أدب الغربيين وعلمهم ونعجب بأدبائهم وعلمائهم ولكننا لا نحقر من أجل ذلك رجالنا وتاريخنا .

نحن لا نطلب منكم ، معشر الأبناء ، في ثورة الشباب ونشوته أن تكونوا معتدلين مثقلين في أحكامكم وتصوراتكم أو هادئين في مطامعكم وآمالكم ، فليس من الرأي أن نطلب عندكم ما لم نكن نطلبه عند أنفسنا ، ولكن أمراً واحداً كنا نحرص عليه في عهدنا أشد الحرص هو الذي نطلب إليكم أن تحرصوا عليه مثلنا وتضربوا به ضئنا .

كنا نعتقد مثلكم أننا خير من آبائنا وأجدادنا وأوسع منهم علماً وأقوى إدراكاً ، وربما اعتقدنا في الكثير منهم كما تعتقدون فينا اليوم أنهم جاهلون أو مخرفون أو متأخرون أو جامدون ، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم منزلة الأبوة وكرامتها ، فلا نلقبهم بلقب من هذه الألقاب التي تلقبونها بها ، ولا نذكرهم في حضورهم أو غيبتهم بكلمة سوء تنقص عليهم ما قدر لهم أن يقضوه بيننا من أيام حياتهم . وكان شأننا معهم في برهم وإكرامهم واحترام عقائدهم ومذاهبهم مع اتساع مسافة الخلف بيننا وبينهم شأن خالد بن عبد الله القسري أمير العراق إذ كان مسيحياً ، فأسلم وحسن إسلامه ، وكان أبوه لا يزال على دينه فطلب إليه أن يني له بيعة في قصره يقوم فيها بأداء واجباته الدينية ، فبناها له كما أراد ولم ينع عليه شأناً من شؤونه طول أيام حياته حتى ذهب إلى ربه .

ذلك ما نضرب إليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لآبائنا وأجدادنا ، واذكروا أن سيأتي عليكم ذلك اليوم الذي أتى علينا وأنكم ستكفون فيه أن يعاملكم أبناءكم وأحفادكم بمثل

ومحاستها إلى أكثر من ذلك ، فكنا نتغتر لها سيئاتها الأدبية ونسميها سقطات أي هفوات فردية لا أهمية لها ، ونغريها بمحاسبة زوجها حساباً شديداً على خيانتها لها ومقابلة فعلاته بمثلها ، لأننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه ونقول لها ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها ، وكنا نظن أن هذه الآراء آراء حقيقية راسخة في نفوسنا صادرة من أعماق قلوبنا ، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا مخدوعين في أمرها ، وأنها آراء الشباب وخواطره وألغائه ودعائاته وأحلامه وتصوراته ، ولا يثقل على الشباب في مفتتح حياته شيء مثل ذلك الحجاب المسيل على وجه المرأة ، وذلك الجدار القائم بينها وبينه .

وكنا نتهيج بكل جديد كما تبهجون ، ونفر من كل قديم كما تنفرون ، ونعد الأول آية الآيات مهما سخف واستبرد ، والثاني نكبة النكبات مهما غلت قيمته وعظم قدره ، لا لأننا وازنا بينهما وفاضلنا بين مزايهما فحكمنا عليهما ، بل لأننا كنا قريبي عهد بزمان الطفولة ، والطفل سريع الملل كثير السآمة لا يصبر على لعبته أكثر من يوم واحد حتى يملها فيكسرها ويستبدل منها غيرها .

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به ، لا نكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصة تتركز عليها أعمالنا في الحياة ، بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف أنواعها وألوانها فنلتقطها بأسرع مما يلتقط «الفيلم» صوره كأن فضاء حياتنا معمل لتجارب الحياة واختباراتها .

وكان العارف منا بلغة أجنبية لا يلبث أن يفتتن بها وبأصحابها افتتاناً شديداً ربما حمله على احتقار لفته وتاريخها ، فيترفع عن ذكر رجالها وعظماؤها في أحاديثه واستشاداته ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان أحد غيره ، لا لأنه يفهمهم أو يفهم غيرهم بل لأنه كان بسيطاً غريزاً يحقر كل ما في يده ويستعظم كل ما في يد غيره .

ولم نعرف إلا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين في جميع هذه التصورات والأفكار ، وأنها

الرقود الهامدون كانوا بالأمس أشداء أقوياء ، تمد السنايل أعناقها خاضعة لمناجلتهم ، ويمن ظهر الأرض وبطنها تحت وطأة محاربتهم ، وترعد جذوع الأشجار الضخمة فرقا من ضربات قفوسهم .

أولئك الوجوم الصامتون كانوا بالأمس فرحين مستبشرين يرقصون ويغنون ويجدون السعادة في كل شيء يحيط بهم ، فيطربون لوقع حوافر ماشيتهم على الحصباء كأنما يسمعون قيثارة مطربة ، ويجدون في ضجعتهم فوق الأعشاب اليابسة الراحة التي يجدها أصحاب الأسرة فوق مهدهم الوثيرة ، ويشعرون في تناولهم للقمح الجافة السوداء بعد الجوع باللذة التي يشعر بها الأغنياء عند تناولهم ألوان الطعام الشهى حول موائدهم ، ويغترفون بأكفهم الماء من الأنهر والخلجان ، فيتلذذون بارتشافه كأنما يتناولون صافية الصهباء في كؤوس البلور والذهب .

أولئك الخاملون المغمورون الذين لم تُنصب لهم التماثيل ، ولم ترفع فوق قبورهم القباب كانوا في حياتهم شرفاء عظماء لأنهم كانوا متحابين متآخين ، لا يحسد فقيرهم غنيهم ، ولا يبغى قويهم على ضيفهم ، ولا يحقدون ولا يغدرون ، ولا يخافون شيئا حتى الموت ، ولا يعبدون إلها إلا الله .

كذلك كانوا بالأمس ، واليوم طواهم الرمس ، فرحمة الله عليهم يوم كانوا على ظهر الأرض وبعد ما أصبحوا في بطنها .

فليجئ فوق رمال هذه القبور المبعثرة وبين صفائحها المتهدمة المتساقطة أرباب المطاعم في الحياة وطلاب المعجذ والعظمة خاشعين مستكينين خافضين رعوسهم إجلالاً وإعظاماً ، وليمسكوا قليلاً عن الإدلال بعزم وجاههم والمكاثرة بفضتهم وذهبهم ، وليخفوا في أعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترققة على شفاههم ، وليعلموا أن طريق المعجذ والعظمة التي يسرون فيها - وإن كانت مخضرة جميلة مفروشة بالأعشاب محفوفة بالأزهار الأريجة - فإنها تؤدي في نهايتها إلى هذا المصير الذي صار إليه هؤلاء المقبورون .

ما تعاملوننا به اليوم ، فائقوا الله فينا وفي شيخوختنا فنحن أبأؤكم الذين ولدناكم ، وأسألتكم الذين ربيناكم ، ومن أكبر العار عليكم وعلى تاريخكم أن تسبوا أسألتكم وآباءكم ، وأن ترموهم في وجههم بالجهل والجمود ، وما هم بجاهلين ولا جامدين ، ولكنهم شيوخ عاجزون .

* * *

الموتى

« مترجمة »

دقت أجراس المساء تنعى اليوم الراحل ، وتندب جماله الزائل ، وأخذت قطعان الماشية تعود من مراعيها إلى حظائرها ، ومشى وراءها رعاتها يهشون عليها بعصيتهم لا يريدون بها شراً ولا أذى ، لأنهم يحبونها وتحبهم ، بل يخافون عليها الضلال فهم يهدونها الطريق ، ومد الظلام رواقه الأسود على جسم الطبيعة المنبسطة كأنما ظن أنها تنام كما ينام البشر ، فهو يقيها برد الليل وعائلته ، وساد سكون رهيب في تلك الأنحاء فلا يسمع إلا صوت البلبيل يشكر للمقر ما أهدى إلى جناحيه من أشعة متألقة ، ونعيب اليوم يمد صوته بالشكوى إلى الله تعالى في سمائه ، وما شكائه إلا أن بعض السائحين يطأون أرضه ويتنهكون حرمة خرباته المقدسة . وهناك تحت ظلال الأشجار الضخمة اليابسة رقد أسلاف سكان تلك المزرعة تحت أعماق الأرض رقدة طويلة بل أكثر من طويلة ، لأنها لا نهاية لها ، فلا نسائم الصباح الباردة ، ولا تغريد الطيور الصادحة ، ولا صياح الديكة ، ولا رنين الأجراس ، ولا هتاف الرعاة ، يوقظهم من رقدتهم هذه .

أسفي عليهم ، لقد أمسوا ولا نيران توقد في أكواخهم ، ولا زوجات صالحات يذهبن ويجعن في تهيئة طعام عشائهم ، ولا صبية صغاراً يستقبلونهم عند عودتهم ليقبلوهم ويستقبلوا قبيلاتهم ، أولئك

حتى هبت عليها رياح الصحراء المحرقة ؛ فأذبلتها .
وكم من ماسة في منجم فحم وضاعة عجز المعدنون
عن استخلاصها من معدنها ؛ فانطفأ نورها في منجم
الفحم المظلم . وكم من قريحة وقادة لم تصقلها
العلوم والتجارب ؛ فعاشت مغفلة مهملة حتى
انطفأت ، ولو أنها صقلتها لغيرت وجه الكون وبدلت
الأرض غير الأرض .

نعم كان بين هؤلاء القرويين المقبورين من كان
له قلب كقلب «هميدن» إلا أن التاريخ لا يعرفه ،
ومن كان له لسان كالسان «ملتن» إلا أنه لم ينصب
له تمثال ، ومن كانت له همة كهمة «كرومويل» إلا
أنه لم يقدر الجيوش ، ولكنهم عاشوا في هذه الفلوات
المنقطعة عن العلم والحضارة فدفن الجهل
مواهبهم ، وأحمد الفقر نار ذكائهم وفهمهم ،
فمروا بهذه الدنيا لم يشعر بهم أحد ، ثم ماتوا ولم
يذكرهم أحد .

هنيئاً لهم جهلهم وخمولهم ، فلو أنهم كانوا
عظماء لقضوا أيام حياتهم يسفكون الدماء ويمزقون
الأشلاء ويغتالون حقوق الضعفاء سعيًا وراء أغراضهم
ومطامعهم ، لا بل إنهم كانوا عظماء ، ولكنهم
يرثون من آثام العظيمة وجرائمها .

رحمة الله عليهم قد ذهبوا ، ولم يبق لهم من
بعدهم مما يدل عليهم سوى حجر قديم ملقى في
طريق مقبرتهم ، قد كتب عليه بخط سقيم هذا
البيت البسيط من الشعر :

أيها المار في هذا المكان احترم تربته

و لا تظأ بقدميك رفات الموتى

هذا كل ما طمعوا فيه من شؤون الحياة بعد
موتهم ، لم يطلبوا تمثالا يقام لهم ، ولا قبة ترفع
فوق ضرائحهم ، ولا صفحة من صفحات التاريخ
تخلد فيها أعمالهم ، بل لم يطلبوا طاقة زهر تؤنس
مضجعهم ، ولا قطرة غيث قبل ثراهم ، فما كان
أقنعهم وأزهدهم !

* * *

أيها الناعمون في عيشهم ، المدلون بعزمهم
وجاههم ، المفتخون بقوتهم وجمالهم ، لا تحتقروا
هؤلاء المقبورين المساكين إن رأيتم أجداثهم مشعة
بالية وقيابهم متهدمة خاوية ، ولم تروا أسماءهم
منقوشة بأجمل الألوان وأزهارها على صفائح
قبورهم ، واصفوا قليلاً تسمعوا آيات مدحهم والثناء
عليهم ترددها الجداول والغدران والحقول والمروج
والطيور المغردة فوق أعالي الأشجار ، والسوائم
الهائمة على ضفاف الأنهار ، فهم أصحاب اليد
التي رصعت التاج للملك ، وصنعت السيف
للقائد ، ونسجت المسوح للراهب ، وبنت القصور
للأمراء ، وصاغت الحلبي للأميرات ، وغرست
العُشب للسائمة^(١) ، ووضعت الحب للطائر ، وهبأت
للأحياء جميعهم ، ناطقهم وصامتهم ، طعامهم
وشرابهم ودثارهم ومهادهم .

أيها القوم العظماء : لا تُخلد التماثيل المنصوبة
غير ذكرى ناحيتها ، ولا تطمس السطور الذهبية
المنقوشة فوق صفائح القبور سطور السيئات التي
يخطها التاريخ في صفحاته ، ولا تسمع آذان الموت
الصماء نغمات الملق المترددة في أناشيد الرثاء .

رب يد تحت هذه الأرض لو أُتيح لها الحظ في
حياتها لكانت يد العازف الذي يشنف الأذن ، أو يد
البطل الذي يهز العروش ويزعزع التيجان ، أو يد
الشاعر الذي يثير الأشجان ، ويبعث إلى القلوب
السرور والأحزان ، ورب قلب في هذه الحفائر
المظلمة لو عاش في جو غير هذا الجو وعالم غير هذا
العالم لكان قلب ملك عظيم مملوء بالآمال العظام ،
والأمانى الجسام ، أو قلب زعيم جريء يحاسب
الظالمين على ظلمهم وينذو النوم عن أجفانهم ،
أو قلب نائب كبير يستهوي بلباغته القلوب ويسترعي
الأسماع ، فتدوي له بالتصفيق قاعة مجلس النواب
أو قاعة مجلس الشيوخ .

كم من لؤلؤة لم تعثر يد الفواص بها ؛ فظلت
دفينة بين صدفيتها . وكم من زهرة أريجة لم تتفتح

(١) السائمة : كل ماشية تُرسل للرعي ولا تُعَلَف .

الزهرة الذابلة

ورد إليّ من حضرة صاحب التوقيع الكتاب الآتي :

« أنا تلميذ في السابعة عشرة من عمري تحصلت على شهادة الدراسة الابتدائية ، ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم أفلح . غير أنني عزمت على الكد للعام المقبل ، وما دريت ما يخفي الغيب في سره حتى فوجئت بمرض الحمى العضال الذي ضعفتني وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابني الصمم الكامل ، فضاعت بذلك آمالي وأظلمت الأرض في وجهي ، فرأيت أن أستغيث بك لعلك تسدي إليّ جميلك بكلمة تعزية من عندك وأنا أحق الناس بالعزاء ، والسلام . »

٦ يناير ١٩١٤

م . ر

لا أستطيع أن أعزيك عن مصابك يا بني ، فهو فوق ما يحتمل المحتمل ويطيق الجلد الصبور ، ولو أنني حاولت ذلك منك لكذبتك وغششتك ، ولكان شأنني معك شأن أولئك الهازلين العابثين من المعزين الذين يختلفون ليلهم ونهارهم إلى منازل المنكوبين والمرزوقين ليقولوا للتاكل ولده : « لقد قدمت بين يديك شفيحاً يشفع لك يوم حسابك بين يدي ربك . » وللباكي أباه : « ما مات من خلف مثلك . » وللباكي أخاه : « إن في الباقي عزاء عن الماضي . » وللباكية زوجها : « الشباب غض والرجال كثير . » وللفاقد بصره : « حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقي الله لك من نور بصيرتك . » وللمحضر المشرف : « إن في لقاء الله عوضاً عن لقاء الدنيا . » ولن حلت به نكبة مثل نكبتك : « لقد كفاك الله بما ابتلاك سماع أقوال الكذب وكلمات السوء . »

كأنما هم يحسبون أن الفواجع والرزايا صفقات تجارية إذا قاس فيها المرء ربحه بخسرانه ، ووازن بين دخله وخرجه هان عليه هذا لذلك ، واغترى ما فات

لما هو آت ، ولا يعلمون أن الحزن على الذاهب المفقود إنما هو زفرة من زفرات الحب أو نفثة من نفثات الرفاء ، ولا دخل للحساب والمعاوضة في شيء من ذلك ، وأن أقسى الآباء قلباً وأصلبهم فؤاداً لو ساومه مساوم في فلذة كبده ووضع تحت قدميه خزان الأرض والسماء لكان رأيهم في ذلك رأي ابن الرومي في قوله :

وما سرنى أن بعته بثوابه

ولو أنه التخليد في جنة الخلد

وأن الأم تبكي وحدها كما تبكي عاشر عشرة من أولادها ، والصديق يبكي فراق صديقه وإن كثّر أصدقائه في كل محلة يحل بها ، والزوجة تبكي زوجها وإن كان تحت كل نافذة من نوافذ منزلها خطيب يترقبها ، وأن البائس المسكين الذي يعيش من دنياه في مثل جحر الضب ضنكا وبؤساً يضمن بحياته الضن كله إذا أحس بفراقها ، وإن علم أنه سينتقل منها إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فهم في الحقيقة يسخرون من مصائب الناس وأرزائهم ويؤلون نفوسهم فوق أَلَمها باحتقار أحزانهم وازدراءها وتصغير شأنها في أعينهم ، ويلقون في نفوسهم اليأس من أن يجدوا بجانب قلوبهم قلوباً تحس بإحساسها وتشعر بشعورها من حيث يظنون أنهم يخفون آلامهم ويأخذونهم بنسيانها .

وأعوذ بالله أن أكون يا بني من الكاذبين في تعزيتك أو الغاشين لك فيها ، ولو أردت نفسي على ذلك لما استطعت ، وكيف يستطيع أن يعزيك عن مصابك من لا يستطيع أن يعزي نفسه عن مصابه فيك ، فلقد ترك كتابك هذا بين جنبي لوعة من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التي تعتلج بين جنبيك من الحزن على نفسك ، حتى صرت كإنني ابتليت بما ابتليت به ، وكأن الذي أصابك من البلاء قد أصابني من دونك . فلقد انقطع عنك بفقد سمعك أيها البائس المسكين كل ما كان بينك وبين الناس جميعاً من سبب وصلة ، فأصبحت وأنت في دار الأنس والاجتماع ، وبين ضوضاء الحيا

لك صديق أو يصفو لك حميم .

فإن فررت من الناس نجاة بنفسك من لؤمهم
وقسوتهم ، فررت إلى خلوة موحشة قائمة تتراءى لك
فيها خيالات الذكرى المؤلمة كلما وازنت بين
حاضرِكَ وماضيك ، وقارنت بين ما كنت ترجو
لنفسك في أيامك الأولى وما انتهى إليك أمركَ في
أيامك الأخرى ، فلا تنفك خلوة ، ولا يؤنسك
اجتماع .

وأخوف ما أخاف عليك إن استمر بك هذا الشأن
- ولا أسأل الله لك دوامه - وظللت تنطق ولا
تسمع ، وتقول ولا تفهم ما يقال ؛ أن تصبح في يوم
من أيامك لا سامعاً ولا ناطقاً ، فالسمع مادة النطق
التي يستمد منها قوته وحياته ، ومن لا يسمع لا
يحسن النطق ، ومن لا ينطق لا يحسن التفكير .

وكثير عليك يا بني وأنت زهرة يانعة في روض
الشباب ، وابتهامة لامعة في ثغر الآمال ، وفجر
مشرق في سماء الحياة أن تعلو هذه الربوة الزاهرة
المخضلة من ربي الحياة ، فلا تلبث فيها إلا قليلاً
حتى يمر بك فارس الدهر فيخطفك من مكانك ،
ثم يعدو بك عدو الظلم (٣) المذعور حتى يلقيك على
هذه الصخرة الصماء .

فوا رحمته لك يا بني بما بك اليوم ، وما
يستقبلك به الدهر غداً ! فأسأل الله تعالى لك أن
يرفع عنك محنتك ، أو يمنحك عينا ثرة من الدعم
لا ينضب معينها ، تسكب منها صباح كل يوم
ومساءه سجلاً على فؤادك الملتاع فتبرد غلته ، وتفتأ
لوعته ؛ فالدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ إليها
المنكويون والمحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في
مذهب من مذاهب الأرض ولا شعب من شعاب
السماء ناصراً ولا معيناً ، والسلام عليك من الرائي
لك ، الباكي عليك ، ورحمة الله .

* * *

وضجيجها كأنك تعيش من وحشتك وكآبتك في
مدينة متحجرة من مدن التاريخ القديم ، لا تأنس فيها
بأحد ولا يأنس بك فيها أحد ، ولا ترى بين يديك إلا
نصباً مائلة وتماثيل جامدة :

تحسب العين أنهم جد أحياء

لهم بينهم إشارة خرس

ولا يرقه عن نفسك في ساعة من ساعات ضيقك
وضجرك نعمة غناء ، ولا رنة حذاء ، ولا خرير نهر ،
ولا تغريد طير ، ولا حفيف شجر ، ولا زفيف ريح ،
ولا نغاء شاه ، ولا نقيق ضفدع ، ولا صرير جندب ،
سواء لديك ليلك ونهارك ، وصبحك ومساوك ،
ويظنك ومنامك . فإن فررت من وحشتك هذه إلى
مجتمع من مجتمعات العامة ، فجلست إلى الناس
ساعة تنفج (١) فيها مما بك لا تسمع شيئاً مما يقولون
ولا يعينهم أن سمعوا شيئاً مما تقول ، فإن قلبك نظرك
في وجوههم لتستقط حرقاً أو كلمة من حركات
شفاههم أو إشارات أيديهم أنكروا عليك نظراتك
وسخروا منك في أنفسهم ، لا بل صارحوك
بكلمتهم التي يضمرونها في أنفسهم من حيث لا
تعلم ، فإن رأوا منك ذلك ورأوا أنك تقتضب
الأحاديث بينهم اقتضاباً وتذهب منها في أودية غير
أوديتهم ، وأنتك تخدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على
مقياس أسماعهم فتعلو به عليها أو تنزل به دونها ،
وأنتك تبسم في موضع التقطيب وتقطب في موضع
الابتسام ، أصبحوا ينظرون إليك بتلك العين التي
ينظرون بها إلى الأطفال الصغار بالبله الأغرار (٢) .
فإن ألمت بسر نظرتهم هذه إليك ألم بك من الحزن
والهم مالا طاقة لمثلك في سنك وضعف ممتك
باحتمال مثله ، وأصبحت ترتاب بكل نظرة تتجه إليك
وكل ابتسامة تتراءى لك ، واعتادك سوء الظن بكل
جالس يجلس إليك من أصدقاتك وأقربائك وذوي
رحمك ، بل من أبويك وإخوتك ، فلا يكاد يسلم

(١) طلب الفرجة والراحة .

(٢) جمع غر ، وهو من يتخذ بسهولة .

(٣) الظلم : الذكر من النعام .

الدهر إليك وما عهدتُك شارباً ولا عاهراً ، ولا مقامراً
ولا مستهتراً ، وما للدهر منخلٌ يشرب منه إلى
خزائن الأغنياء غير هذا المدخل ١٩

الوجه : « أين يذهب بك أيها الصديق ، هل
يؤتى الأغنياء في هذا البلد إلا من طريق المجد
الباطل والسمعة الكاذبة ؟ وهل يَكْبُ العظماء على
وجههم ويلصق بالرغام معاطسهم إلا الشغف بنظرة
الأمير ، ولفتة الوزير ، وزورة المدير - وأنت تعلم أن
رجلاً مثلي لا يمكن أن يكون له مطعم في المجد
الصحيح ، فلست بصاحب علم فأفخر به ، ولا
صاحب قلم فأستبما يمت به أصحاب الأفلام من
خدمة المجتمع الإنساني وتهذيبه ، فلم يبق أمامي
غير هذا المجد الكاذب ، وهو مجد القربى من
الحكام والعمال ، ولا سبيل إليه إلا ببذل ثمن غال
تقصر عنه خزائن قارون وكنوز ركفلر . وقد أنفقت
فوق الطاقة ووراء الفاقة في بناء القصور نزلاً للحكام ،
وغرس البساتين منازةً لهم ، وإعداد الفرش والآنية
الشمينة لمآديهم ولائمهم ، فلما نضب معين
الذهب وعيت الأرض أن تثمر فوق ما تثمر لجأت إلى
مصرف من المصارف فأقلقني بالديون وأرهقني
بالطلب ، ففرغت منه إلى آخر ، ثم إلى آخر ،
فكنت كناقش الشوكة بالشوكة ، أو غاسل الدم
بالدم ، ولو كُشف لك من أمري ما كُشف لي منه
لعلمت أن جميع ما كنت أملك من أطيان وعقار ،
ودور وقصور ، لم يبق لي منه إلا تلك الخطوط
السوداء المسطورة في جرائد الصياف ، وها أنذا اليوم
طريد المصارف والغرماء ، وغريم القضاة : قضاء
الأرض وقضاء السماء .

ذلك ما يستفيد الوجه من وجاهته - قبحها الله
وقبح كل ما تأتى به - فلا تحسد الوجه على مظهره
الكاذب ، وزخرفة الباطل ، ولا تنفس عليه بؤسه
الكامن وشقاءه الخفي ، فهو أتعس خلق الله
وأكثرهم همماً ، وأثقلهم مؤونة وأخسرهم حاضراً
ومستقبلاً ، يكون عنده من الضياع أو الدور جملة لا
تثمر له من المال أكثر مما يسع ترفيه نفسه وتربية أولاده
وصلة رحمة فيسميه الناس وجيهاً . والوجهاء كلمة

الوجهاء

جرى بيني وبين أحد الوجهاء المصريين الحديث
الآتي :

الكاتب : « ما هذه الطبقة التي تكسو وجهك
فتحجب منه ما يحجب صفحة السماء من السحب
السوداء ؟ »

الوجه : « إن بين جنبيّ همماً يعتلج ، وكمداً
يذهب باللبّ ويطيّر بشظايا القلب ، وناراً من الحزن
متأججة مضطربة دخانها هذا الذي تراه . »

الكاتب : « أحقّ ما تقول وأنت الرجل السعيد
بحظه ، المغتبط بعيشه ، قصر غمدان ، وخورنق
النعمان ، وحرور ولدان ، وظل ظليل ، ونسيم عليل ،
وخزائن تموج بالذهب ، موج التنور بالذهب ، ذلك
إلى ما أسبغ الله عليك من صحة البدن ، وسلامة
الحواس ، وأمدك به من الجاه العريض ، والكلمة
النافذة ، والشفاعة المقبولة ، فليت شعري ما شكائك
بعد ذلك ١٩ »

الوجه : « أشكو الفقر الباطن في الغنى الظاهر ،
والشقاء المقبل في السعد المدبر ، وأني لأرى في
السماء غمامة دكناء توشك أن تنفجر بالصاعقة
الكبرى ، والكارثة العظمى . »

الكاتب : « ما كنت أحسب أن الشقاء يمر لك
ببال بعدما أعطاك الدهر عهداً مكتوباً بالأحرف
الذهبية ألا يسدد سهمه إليك ، ولا يدور دورته
عليك . »

الوجه : « متى كان للدهر عهد يوثق به ، أو
ذمام يعتمد عليه ١٩ فالناس في يده كالكرة ذات
الألوان في يد الصبي يديرها فترى الأسود في مكان
الأبيض ، والأبيض في موضع الأسود ، وكذلك
بقية الألوان تلو أسافلها وتسفل أعاليها ، ودورة
السعود والنحوس أسرع في عمر الدهر من لمح
الطرف ، ولفتة الجيد . »

الكاتب : « هل لك أن تخدثني من أيّ منفذ نفذ

له إذا أقبل ولا يشيعه إذا انصرف لأنه لا يلبي دعوة ولا يحضر مجمعا ولا يكتب رقما في قائمة اكتتاب ، فلا يلبث أن يسلس قياده ، ويحول عناده . هذا هو الاستبداد الخفي الذي ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير أن تُشهر عليهم سلاحاً أو تعد لهم سجنًا ، ولكنها تبلغ به في شهر ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و «الويركو» و «البطانطا» والعوائد الشخصية في عام ، ولقد راجعت صحيفة حساني في هذا العام ، عام الأزمة والجلب ، فوجدت أنني دفعت خراج الأطيان مرة أخرى .»

الكاتب : « هب أن الأمر صحيح كما تقول فالحكومة لا تودع هذا المال خزائنها ولا تقضي به أغراضها ، وإنما تنفقه فيما ينفع الأمة في تربيتها وتهذيبها وتقديمها وارتقاها .»

الوجيه : « ذلك ما يجب أن تنفق عليه الحكومة من خزائنها التي تملأها من أموال الأمة لهدم الأغراض التي تذكرها ، ولكنها تضن بمال هي في حاجة إليه لإصلاح السودان وبناء العمائر وتشديد القصور وترقية كبار الموظفين خصوصاً الأجانب منهم ، وإقرار عيون السياح الأوروبيين بالمنظر البهجة والآثار الجميلة ، فلا ترى لها بداً من حمل تلك الحملات على أعناقنا بلا رحمة ولا شفقة ولا نظر إلى ما تنكبه في هذا السبيل مما يذيب الشحم ، ويعرق العظم . وليتها كانت تتدرج في الطلب وترشف المال ارتشاقاً ولا تعب عباً ، فتدرك في ذلك سياسة الحكومات السالفة المعروفة باستبدادها وإرهاقها .»

« فقد حُكي عن أحد رؤسائها أنه علم أن أحد المديرين سلب أهالي مدينته المال دفعة واحدة ، وأنهم ضاقوا به ذرعاً فأحضره في مجلسه وأمر أن تنزع من لحيته شعرات متفرقة فما أبه لذلك ولا احتفل به ، ثم أمر أن تنزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتألّم ، فقال له هكذا يجب أن يكون أخذ الأموال من الرعية متفرقاً تحتمله ، لا مجمعة تتألم له .»

الكاتب : « حسبك من ذلك ثواب الله وأجره

صغيرة معناها في نظر الناس كبير كأنما هي عندهم من جوامع الكلم ، فالوجيه في اصطلاحهم هو الرجل الذي يمد لكل غريب نزل بلدته مائدة ، ويوضح بالعطاء لكل عابر سبيل مرّ بحيه ، ويشترك في جميع الجرائد والمجلات - وإن كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب - ويتنازع تذاكر حفلات جميع الجمعيات الخيرية على اختلاف مذاهبها وأنواعها - وإن كان لا ينتفع بواحدة منها - ويشترك في جمعية الرفق بالحيوان ، وجمعيات الرفق بالإنسان ، ويتنازع المؤلفات الحديثة التي يكلفه المدير أو المأمور بابتياعها - وإن كان عمدة أو شيخ بلد - وكان الكتاب في علم الفلسفة - ولا تتم شروط الوجاهة عنده فيأخذ منها الحظ الأوفر إلا إذا بذل للحكومة المعونة الكبرى في مشاريعها من بناء المستشفيات والمدارس والكتاتيب وأمثال تلك الضرائب التي تضربها الحكومة علينا ضرب الجزية على أهل الذمة في سالف الأزمان ، والتي لا فرق بينها وبين خراج الأطيان وعشور النخيل وعوائد الأملاك .»

الكاتب : « إنها تبرعات ومبرات لا إيجاب فيها ولا إلزام ، فالحكومة لا تُشهر عليكم سلاحاً ، ولا تعد لكم سجنًا ، وكل ما في الأمر أن رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم إلى هذه الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة .»

الوجيه : « لا أزال أكرر القول إن رجال الحكومة يضربون علينا ضرائب ليست في شرع ولا قانون ، والوجيه في الحقيقة كالعبد في اصطلاح علماء التوحيد مجبور باطنًا مختار ظاهرًا ، أما الظاهر فهو ما ترونه من إقامة المحافل وخطابة الخطباء والتلطف في الطلب وشكر المحسن على إحسانه ، وأما الباطن فهو أن الوجهية منا كما علمت مفلس من جميع أنواع المعجذ إلا مجد الزلفى عند الحكام . والحكام يعرفون ذلك منه فيدخلون عليه من بابه ولا يفتحون له باب القربى منهم إلا على مقدار ما يفتح من أبواب خزائنه بين أيديهم ، فمنا من يزوره المدير أو المفتش لأنه وهاب الآلاف ، أو المأمور لأنه من أصحاب المئات ، ومن لا يزوره أحد منهم ولا ينهض

السيف والقلم ، ولا أرى أنك كنت تتفق في سبيله إلا بعض ما أنفقت في هذا المجد الكاذب ، وما يصيبك في الأول من الشقاء ما أصابك في الثاني . فالكریم معان على أمره مبارك له في عيشه متى صح له معنى الكرم ، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه إلى تفقد الضعفاء ، ومواساة الفقراء ، من حيث لا يتغنى على ذلك أجراً سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن المثوبة والأجر ورفع الذكر في الآخرة والأولى . ولكنكم بخلتم بأموال الأمة عليها واحتجتموها دونها ، وأبنت لكم همتمكم الضعيفة أن يكون لكم كما لأمثالكم من أغنياء الأمم الأخرى آثار في بناء المدارس والملاجئ والمستشفيات تسمى بأسمائكم وتعد من أعمالكم ، فتتألون بها ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة ، فعاقبكم الله على ذلك بأن سلط عليكم من يعذب بعقولكم ، ويلعب بأهوائكم ، ويرغمكم على الإحسان إرغاماً من حيث يكون له الغنم وعليكم الغرم ، فلا ذكرأ حصلتم ، ولا مالا حفظتم ، وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون .

* * *

جرجي زيدان

لا أعلم أين تذهب نفس الإنسان بعد موته ، ولا أين مكانها الذي تستقر فيه بعد فراق جسدها ، ولا ماهي الصلة التي تبقى بين المرء وبين الحياة بعد رحيله عنها ؟ فإن كان صحيحاً ما يقولون من أن ساكن القبور يستطيع أن يجد بين صخورها وصفاتها منقلاً يشرف منه على هذه الدار ، فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكر جميل وثناء عاطر وسيرة صالحة ومجد باق ؛ فإن نصيب جرجي زيدان اليوم من الهناء والغبطة بما ترك في حياته الأولى من جليل الآثار وصالح الأعمال أوفر الأنصبة وأجلها . ما أنعم الله على عبده نعمة أسنى قيمة ولا أغلى

على إحسانك وبذلك المال في سبيله وللآخرة خير وأبقى .

الوجيه : « من أين يأتيني الثواب والأجر وهل يثاب المرء إلا على نيته وإخلاصه في عمله ١٩ وإني أعترف لك عني وعن جميع الوجهاء أمثالي بما عرفت من أحوالهم ، ومارست من طباعهم ، أننا لا نريد من بذل ما نبدل إلا رضا الحاكم والتودد إليه وموافقة رغبته لاستكمال أسباب الوجاهة مرة وقضاء المآرب والحاجات أخرى . والله لقد أفسد علينا هؤلاء القوم بخلتهم هذه غرائزنا وسجاينا ، وعودونا من الرياء في الإحسان ، والنفاق في المعاملة خلة قست معها قلوبنا ، واستحجرت أفئدتنا ، حتى أن أحداً لا يكاد يحسن بالدرهم الواحد إلى جاره الفقير البائس إلا أمام قاض فظن وشهود عدول ، وحتى زهد فينا الفقراء ولوت المساكين وجوهها عن أبوابنا ، وجفاننا ذوو الرحم والأقرباء ، وأصبحت قصورنا في نظرم قبوراً يستدرئون لها الرحمات ، لا يرجون منها الصدقات ، وأقبرت « مضافنا » ، إلا من عريضة المطرشين ورطانة المبرنطين ؛ فمن أين لثواب الله أن يعرف طريقنا عافاك الله ؟ »

الكاتب : « أ تغضبك إن قلتها لك أيها الصديق ؟ »

الوجيه : « قل ما تشاء فقد ملأ الهمة ما بين جوانحي فاستحجر قلبي حتى ما يغضبي حق ولا باطل . »

الكاتب : « أعجب ما رأيت من أمرك في حديثك معي أنك تعرف الحق وتتنكر له كأنك لا تعرفه ، وتمد يدك إلى الصواب ثم تعجز عنه ، فقد زعمت أن مجد القربى من أولياء الأمر مجد باطل ، ولقد أصبت فيما تقول ؛ فما شأنك به وما نهوضك إليه ومالك واللصوق بأمر أنت تعلم قلة جدواه وسوء مغبته . ولقد كان لك طريق مختصر إلى المجد الصحيح لو كنت أكبر منك همة وأصبح رأياً وأقوى عزيمة ، فمجد الكرم ليس بأقل شأنًا من مجد

غزارة المادة وجمال الأسلوب ومهولة التناول ما لا يجد السبيل إليه في غيرها ، وبكاه قارئ رواياته لأنه كان يجد في خيالها وبراعة تصوراتها عوناً له على هموم الحياة وأرزائها ، أما أنا فبكيته لأمر فوق ذلك كله .

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه الكائنات ، ناطقها وصامتها ، ساكنها ومتحركها ، جامدها وسائلها ، فتستمد جميع ذراتها منها مادة حياتها التي تقومها أو صورتها التي تتشكل بها ، وتأخذ منها النباتات نماءها ، والأزهار ألوانها ، والنار حرارتها ، والأجسام الحية قوتها ، والأجسام الجامدة صورتها ، والأجواء طهارتها ونقاءها ، والآفاق جمالها وبهاءها ، وكذلك كان جرجي زيدان في سماء هذا البلد .

كان بطلاً من أبطال الجد والعمل والهمة والنشاط ، يخرج أحسن المجلات ، ويؤلف أفضل الكتب ، وينشئ أجمل الروايات ويناقش ويناضل ، ويبحث وينقب ويستنتج ويستنبط ، ويجيب السائل ويفيد الطالب في آن واحد ، لا يشغله أمر من تلك الأمور عن أمر غيره ، ولا يشكو مللاً ولا ضجراً ولا يحس بخور ولا فتور ، فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين ، يتعلمون منه أن قليلاً من العلم يتعمده صاحبه بالتربية والتنمية ، ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمتة من العلم الكثير والعمل القليل .

ولو شئت أن أقول لقلت : إن جرجي زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التي وفدت إلى مصر في أواخر القرن الماضي فغيرت وجه العالم المصري تغييراً كلياً ، وغرست في صحرائه الفاحلة المجدبة أغراس الجد والعمل والشجاعة والإقدام والهمة والاستقلال ، وعلمت أبنائه كيف يؤلفون ويترجمون وينشئون الجرائد والمجلات ، وكيف يتخذون من هذا العمل الشريف صناعة يقومون بها حياتهم المادية وحياة أمتهم الأدبية ، ويتقون بها مذلة الوقوف على أبواب الدواوين صباح مساء يتكفون رؤساعا ويسألونهم أن يتخذوهم عبيداً لهم يخدمونهم على موائد عزهم

جوهراً ولا أحسن أثرًا من نعمة الاعتقاد بالجزاء الصالح على العمل الطيب ، فهو يعتقد أنه مجزي على عمله ، مكافأ به ، مؤمناً كان أو ملحدًا ، معترفًا بنعيم الآخرة أو منكراً له ، فإن كان الأول ساقه إلى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد وحورها وولدانها ، ولؤلؤها ومرجانها ، وروحها وريحانها ، وإن كان الثاني ساقه إليه شغفه بالذكر الجميل والسيرة الصالحة والحياة الباقية في السنة الأجيال وبطون التواريخ ، ولولا هاتان الجنتان : جنة المؤمنين وجنة الملحين ما جدّ في هذه الحياة جدّ ولا عمل فيها عامل .

إن ميدان الحياة الدنيا أضيق من أن يسع بين غايته العمل الصالح والجزاء عليه معاً ، وكيف يسعهما ، والمرء لا يكاد يفرغ في حياته من عمله الذي يتوقع عليه الجزاء قبل أن تنطفئ ذبالة حياته وتحترق فحمة شبابه حيث تموت في قلبه لذة العظمة وتنضب في فؤاده شهوة المجد ، فإن فرغ منه قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعة من ساعات فراغه يستطيع أن يسكن فيها إلى نفسه ليستشعر برد الراحة ولذة الجزاء ، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أخرى غير هذه الحياة ، إما حياة الأجر ، وإما حياة الذكر .

مات جرجي زيدان فنحن نبكيه جميعاً ، أما هو فبيتسم لبكائنا ويرى في تفجعنا عليه والتباينا لفراقه منظرًا من أجمل المناظر وأبهأها ، لأنه يعلم أن هذه الدموع التي ترسلها أجفاننا وراء نعشه أو فوق ضريحه إنما هي ألسنة ناطقة بحبه وإعظامه والاعتراف بفضله والثناء على عمله ، وأنها المدد الإلهي النوراني الذي تُكتب به في صحيفة تاريخه البيضاء آيات مجده الخالد وعظمته الباقية ، وذلك ما كان يريد أن يكون .

مات جرجي زيدان ، فبكاه صديقه لأنه كان يحمد وده وإخاءه ، وبكاه جاره لأنه كان يجد في جواره لذة الأُنس وجمال العشرة ، وبكاه معتفيه لأنه كان ينتفع بماله ، وبكاه صنيعته لأنه كان ينتفع بجاهه ، وبكاه قارئ كتبه لأنه كان يجد فيها من

ولم يسألوه من أين نَقَلَ ولا كيف استند ، بل سألوهم لم لم يكتب كما كتبوا ، ويستنتج مثل ما استنتجوا ؟ كأنما لم يفهم منه أن يروه بينهم مسيحياً متسامحاً حتى أرادوا منه أن يكون مسلماً متعصباً ، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون ، وينهج كما ينهجون ، فلما لم يجدوه حيث أرادوا ؛ رموه بسوء القصد في علمه ونجس النية في مذهبه ، ولم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم الجامعة على أن يقولوا إن الرجل باحث مستنتج يخطئ مرة ويصيب أخرى ، أو يقولوا إن له في تاريخ الإسلام حسنات تصغر جانبها سيئاته فيه فلتغتفر هذه لتلك . وما أحسب أن واحداً منهم يعتقد شيئاً مما يقول ، ولكنهم كانوا يرون أن الدين سلعة تبايع وتشتري ، وأن سلعته ملك لهم ووقف عليهم ، لا يجب أن تُعرض في حانوت غير حانوتهم . وكانوا يظنون أن الرجل تاجر مثلهم يريد أن يفتح بجانب حانوتهم الحانوت التي يخافونها ؛ فاستوحشوا منه وأنكروا مكانه واستثقلوا ظله . وقالوا مرة إنه مسيحي لا يؤمن على الإسلام ولا على تاريخه ، كأنما ظنوا أنه ينقل حوادث التاريخ ووقائعها من العهد القديم أو العهد الجديد . وقالوا أخرى إنه سوري دخيل وفد إلى هذا البلد مستزقاً أو متجراً فما هو بمخلص ولا بأمين . وفاتهم عفا الله عنهم أنه كان ضيفاً ؛ فليس من أدب الضيافة ولا من خلال المروءة والكرم أن يمن المضيف على ضيفه بيده عنده ، وأن يعد عليه لقماته التي يطعمها على مائدته ، وإن كان تاجراً فقد باعهم بهذا النزر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر عقله وينبوع ذكائه ومادة حياته ، فما كانوا من الخاسرين ، ولا كان من الرايحين .

و والله ما أدري كيف تتسع صدورهم للخمار الرومي واللص الإيطالي والقواد الأرمني أن يفتح كل منهم في كل موطن قدم من مدنها وقراهم حانة يسلب فيها عقولهم أو مقمرًا يسرق فيه أموالهم أو ماخراً يهتك فيه أعراضهم ، فلا يطاردون ولا يجارون ولا يسمونه دخيلاً ولا واغلاً ، ثم يضيّقون ذرعاً بالعالم الشرقي ينزل أرضهم نزول الديمة

وسعادتهم التي يجلسون عليها ، فإما عطفوا عليهم فألقوا إليهم بالنزر القليل الخسيس من فئات تلك الموائد ، وإما طردوهم منها كما يطردون الكلاب الجرباء .

وكان شريف النفس بعيد الهمة ، متجملاً بصفات المؤرخ الحقيقي الذي لا يتعصب ولا يتحيز ، ولا يدهن ولا يجامل ، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالاً للعبث بجوهر التاريخ وحقائقه ، فكتب وهو المسيحي الأرثوذكسي تاريخ الإسلام في كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذي لا يكتب الحسنة إذا رآها ، ولا يشمت بالسيسة إذا عثر بها ، فاجتمع بين يديه في مجلس علمه من أبناء الأمة الإسلامية خواصها وعوامها ، عربها وعجمها جمع لم يجلس مثله بين يدي عالم من علماء الإسلام ولا مؤرخ من مؤرخيه في هذا العصر . فأقام بهذا العمل العظيم لهذا الدين القويم حجة أمام أولئك المتعصبين من الأوربيين الذين لا يثقون في خبر من أخباره ، ولا في بحث من أبحاثه بحديث شيعة وأبنائه ، وكان في تسامحه هذا القدوة الصالحة للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ بلسان التاريخ لا بلسان الدين ، والمثل الأعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع أن يتجرد من عواطفه وميول نفسه وخواطر قلبه أمام الأمانة للعلم والوفاء بحقه .

وكان مستقيماً في عمله ، أميناً في علاقته ، لا يكذب ولا يتلون ، ولا يخس بعهده ، ولا ينكث وعده ، ولا يكسو بضاعته لونا غير لونها ليزخرفها على الناس ويجمّلها في عيونهم ، فتعلم منه العاملون أن الكذب في المعاملة ليس شرطاً من شروط الربح ولا سبباً من أسباب النجاح .

وكان واسع الصدر فسيح رقة الحلم ، وقف له في طريق حياته كما وقف لغيره من قبله ومن بعده فريق المقاطعين في هذا البلد الذين لا ينطقون ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه ، وكمتموا وراء أكمة الدين ليرموه فيصمونه . وقالوا إنه شوّه وجه التاريخ الإسلامي وعبث بحقائقه ،

أولاً ، ولأتمه ثانياً ، ولنفسه أخيراً ، وأن الحب سعادة الإنسان والبغض شقاءه وبلاؤه . وأن الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب أن الأول يتسع صدره لكل شيء حتى لمخالفه ومحاربه ، وأن الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه ، وأن الله تعالى أوسع رحمة وأعلى حكمة من أن يسد في وجوه عباده كل طريق للوصول إليه إلا طريق السيف والنار ، وأن هذه الأحقاد الدنيئة التي تلتهب في صدور الناس التهاباً لا تؤججها في صدورهم الأديان نفسها ، بل رؤساء الأديان الذين يستخدمونها ويتجرون بها في أسواق الغباوة والجهل ، وأن الذين يقصدون هذه الأحقاد ويباركونها ويعتبرونها جزءاً من ماهية الدين ومقوماً من مقوماته ؛ إنما يقولون من حيث لا يشعرون إن الإلحاد في العالم والفوضى الدينية فيه وعبادة الشمس والقمر والتراب والحجر أنفع للمجتمع الإنساني وأحسن عليه عائدة من عبادة الإله المعبود .

ولقد كان جرجي زيدان روحاً من تلك الأرواح العالية تمنينها برهة من الزمان حتى وجدناها فلم ننعم بها إلا قليلاً ، ثم فقدناها أحوج ما كنا إليها فذلك ما ييكينا عليه ويحزننا على فراقه .

الكاتب كالمصور كلاهما ناقل وكلاهما حاك ، إلا أن الأول ينقل مشاعر النفس إلى النفس ، والثاني ينقل مشاهد الحس إلى الحس .

وكما أن ميزان الفضل في التصوير أن تكون الصورة والأصل كالشيء الواحد ، كذلك ميزان الفضل في الكتابة أن يكون المكتوب في الطرس ، خيال المكنون في النفس .

بهذه العين التي لا أزال أنظر بها إلى الكتابة والكتاب وأوازن بها بين أقدارهم ومنازلهم ، كنت أقرأ ذلك الأسلوب العذب البديع الذي كان يكتب به المرحوم جرجي زيدان كتبه ورواياته ؛ فأفنيه مرآة نقية صافية قد ارتسمت فيها صورة نفس الكاتب جلية واضحة ، لا غموض فيها ولا إيهام .

وقليلاً ما كنت أجد في نفسي هذا الشعور عند النظر في كتابة كاتب سواه ؛ لأن الكاتب إن

الوظفاء بالصحراء المحرقة ، فيعلمهم العلم ، ويهذب نفوس أبنائهم ، ويثقف عقول ناشئتهم ، ويبعث في نفوس ضعاف العزائم منهم روح الهمة والنشاط والشجاعة والإقدام .

ذلك هو شقاء الأم ، وهذا جواب السائلين عن أسباب سقوطها وانحطاطها .

لم يضق الرجل ذرعاً بهذا كله ، بل كان شأنه معهم أن كان يعتب عليهم ولا يشتمهم ، وينبههم إلى أدب المناظرة وواجباتها ولا يؤنبهم ، ويدعوهم إلى اتخاذ كلمة الحق سواء بينه وبينهم ولا يكرهم ، حتى انقلب عنهم يحمل لواء الفضيلة والحلم ، حتى وإن كان مخطئاً . وانقلبوا عنه يحملون فوق ظهورهم رذيلة التعصب والجهل وسوء الخلق وضيق العطن ، حتى وإن كانوا مصيبين .

ولقد وضع بخطه هذه في مناظرة خصومه ومجادلتهم أول حجر في بناء الأخلاق الفاضلة في هذه الأمة ؛ فتعلم منه كثير من أدباء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون أن يتناظروا ولا يتشامتوا ، وأن يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون أن يريقوا في معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف . فإن تم لهذه الأمة في مستقبل حياتها حظها من شرف الأخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد في جميع شئونها وأغراضها ؛ فلتذكر دائماً أن جرجي زيدان كان أحد الذين أسسوا في أرضها هذه الدولة الفاضلة ، دولة الآداب والأخلاق .

نحن لا نعوزنا المؤلفات ولا المترجمات ، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون ؛ وإنما الذي يعوزنا روح عالية تخفق في سماء هذه الأمة خضوق النجم الزاهر في سمائه ، وتشرق في نفوس أبنائها إشراق الشمس في دارتها فتبعث العزيمة في قلب العاجز والشجاعة في فؤاد الجبان ، وتقوّم من الأخلاق معوجها ، وتصلح من الآداب فاسدها ، وتثبت من العقول مضطربها ، وتعلم كل صغير وكبير وقوي وضعيف أن قيمة المرء في حياته أداء واجبه للإنسانية

إن سر الحياة الإنسانية وينبوع وجودها وكوكبها الأعلى الذي تنبعث منه جميع أشعتها ينحصر في كلمة واحدة : « قلب الأم » .

ولا يستطيع الرجل أن يكون رجلاً تام الرجولة حتى يجد إلى جانبه زوجة تبعث في نفسه روح الشهامة والهمة ، وتغرس في قلبه كبرياء المسؤولية وعظمتها ، وحسب المرء أن يعلم أنه سيد وأن له رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثققتها فيه وتستظل بظل حمايته ورعايته وتعتمد في شؤون حياتها عليه حتى يشعر بحاجته إلى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه في نفسه ، فلا يزال يعالج ذلك ويأخذ نفسه به حتى يتم له ، وما تصح الرجل بالجد في عمله والاستقامة في شؤون حياته وسلوك الجادة في سيره ولا هداه إلى التدبير ومزاياه والاقتصاد وفرائده والسعي وثمراته ، ولا دفع به في طريق المغامرة والمخاطرة والدأب والمثابرة مثل دموع الزوجة المنهلة ويدها الضاربة المبسوطة .

ولا يستطيع الشيخ الفاني في أخريات أيامه أن يجد في قلب ولده الفتى من الحنان والعطف والحب والإيثار ما يجد من ذلك في قلب ابنته الفتاة ، فهي التي تمنحه يدها عكازاً لشيخوخته وقلبها مستودعاً لأسراره وهواجس نفسه ، وهي التي تسهر بجانب سرير مرضه ليلها كله تتسمع أنفاسه وتصغي إلى أناته ، وتحرس الحرص كله على أن تفهم من رعشات يديه ونظرات عينيه حاجاته وأغراضه . فإذا نزل ستار الموت بينها وبينه كانت هي من دون أهله جميعاً الوارثة الوحيدة التي تعد موته نكبة عظيمة لا يهونها عليها ولا يخفف من لوعتها في نفسها أنه قد ترك من بعده ميراثاً عظيماً ، وكثيراً ما سمع السامعون في بيت الميت قبل أن يحف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون ويشجرون في الساعة التي يجتمع فيها بناته ونسأوه في حجراتهن نائحات باكيات .

وجملة القول أن الحياة مسرات وأحزان ، أما مسراتها فنحن مدينون بها للمرأة ؛ لأنها مصدرها وينبوعها الذي تتدفق منه ، وأما أحزانها فالمرأة هي التي تتولى تحويلها إلى مسرات أو ترويحها عن نفوس أصحابها على الأقل ، فنحن مدينون للمرأة بحياتها

استطاع أن ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه أو براعة معناه أو سعة خياله أو قوة حجته ، فإنه لا يستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم إلا إذا كان من الصادقين المخلصين .

كنت أرى عذوبة نفسه في عذوبة لفظه ، وطهارة قلبه في طهارة لسانه ، وصفاء ذهنه في وضوح أغراضه ومراميه ، وجمال ذوقه في جمال ملحوظاته واستنتاجاته . وكان خير ما يعجبني منه ترفعه عن مجارة المتكبرين من الكتاب في كبرياتهم ونزوله في كثير من مواقفه إلى منازل العامة ليحلثهم بما يفهمون ، لأنه كان من كتاب المعاني لا من كتاب الألفاظ ، ولأنه كان يؤثر أن يتعلم عنه الجاهلون ، على أن يرضى عنه المتحذلقون .

وإن كان الرجل هو الأسلوب كما يقولون ، فلا أعلم أحداً في هذا البلد كان أولى بوصف الكاتب من المرحوم جرجي زيدان فوا رحمته له و وا أسفاه عليه !

* * *

احترام المرأة

نعم إن الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى في كتابه العزيز ، ولكن المرأة عماد الرجل وملاك أمره وسر حياته من صرخة الوضع إلى آلة النزع .

لا يستطيع الأب أن يحمل بين جانبيه لطفه الصغير عواطف الأم ، فهي التي تحوطه بعنايتها ورعايتها ، وتظلله بجناح رحمته وشفقتها ، وتسكب قلبها في قلبه حتى يستحيل إلى قلب واحد يخفق خفوقاً واحداً ويشعر بشعور واحد ، وهي التي تسهر عليه ليلها ، وتكلؤه نهارها وتحتمل جميع آلام الحياة وأرزائها في سبيله غير شاكية ولا متبرمة ؛ بل تزداد شغفاً به وإيثاراً له وضئاً بحياته بمقدار ما تبذل من الجهود في سبيل تربيته ، ولو شئت أن أقول ؛ لقلت

كلها .

وأستطيع أن أقول وأنا على ثقة بما أقول إن الأطفال الذين استطاعوا في هذا العالم أن يعيشوا سعداء معنيًا بهم ويتربيتهم وتخريجهم على أيدي أمهاتهم الأرامل الضعيفات أضعافُ الأطفال الذين نالوا هذا الحظ على أيدي آبائهم الأقوياء الأثرياء بعد فقد أمهاتهم ، وللرحمة الأمية الفضل العظيم في ذلك .

فليت شعري هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التي أسدتها إلينا وجازيناها بها خيرًا !

لا ؛ لأننا إن منحناها شيئًا من عواطف قلوبنا ومشاعر نفوسنا فإننا لا نمنحها أكثر من عواطف الحب والود ، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والإجلال ، وهي إلى نهلة واحدة من موارد الإجلال والإعظام أحوج منها إلى شؤبوب متدفق من سماء الحب والغرام .

قد نحنو عليها ونرحمها ، ولكنها رحمة السيد بالعبد لا رحمة الصديق بالصديق ، وقد نصفها بالعفة والطهارة ، ومعنى ذلك عندنا أنها - عفة الخدر والبخاء ؛ لا عفة النفس والضمير ، وقد نهتم بتعليمها وتخريجها لا باعتبار أنها إنسان كامل لها الحق في الوصول إلى ذروة الإنسانية التي تريدها وفي التمتع بجميع صفاتها وخصائصها ، بل لنعهد إليها بوظيفة المربية أو الخادم أو الممرضة ، أو لنتخذ منها ملهاة لأنفسنا وننديمًا لسمرنا ومؤنسًا لوحشتنا ، أي أننا ننظر إليها بالعين التي ننظر بها إلى حيواناتنا المستأنسة ، لا نسدي إليها من النعم ولا نخلع عليها من الحلل إلا ما ينعكس منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسرورًا .

إنها لا تريد شيئًا من ذلك ، إنها لا تريد أن تكون سرية الرجل ولا حظيته ولا أداة لهواه ولعبه ، بل صديقتها وشريكة حياته .

إنها تفهم معنى الحرية كما يفهمها الرجل ؛ فيجب أن يكون حظها منها مثل حظه .

إنها لم تخلق من أجل الرجل بل من أجل نفسها ؛ فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه .

يجب أن ننفس عنها قليلًا من ضائقة سجنها لتفهم أن لها كيانًا مستقلًا وحياة ذاتية ، وأنها مسؤولة عن ذنوبها وآثامها أمام نفسها وضميرها لا أمام الرجل .

يجب أن تعيش في جو الحرية وتستروح رائحته المنعشة الأريجة ليستيقظ ضميرها الذي أحمدته السجن والاعتقال من رقدته ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها ومراقبة حركاتها وسكناتها ، فهو أعظم سلطانا وأقوى يدًا من جميع الوازعين والمسيطرين .

يجب أن نحترمها لتعود احترام نفسها ، ومن احترم نفسه فهو أبعد الناس عن الزلات والسقطات . لا يمكن أن تكون العبودية مصدرًا للفضيلة ولا مدرسة لتربية النفوس على الأخلاق الفاضلة والصفات الكريمة ، إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدرًا للنور والموت علة في الحياة والعدم سلمًا إلى الوجود .

كما لا أريد أن تتخلع المرأة وتستعثر وتهيم على رأسها في مجتمعات الرجال وأنديتهم وتمزق حجاب الصيانة والعفة المسبل عليها وهو المعنى الذي يفهمه البسطاء من العامة عادة من كلمة الحرية عند إضافتها إلى المرأة ، كذلك لا أحب أن تكون مستعمرة ذليلة يسلبها مستعمرها كل مادة من مواد حياتها ، وبأخذ عليها كل طريق حتى طريق النظر والتفكير .

وبعد ؛ فإما أن تكون المرأة مساوية للرجل في عقله وإدراكه أو أقل منه ، فإن كانت الأولى فليعاشرها معاشرة الصديق للصديق ، والنظير للنظير ، وإن كانت الأخرى فليكن شأنه معها شأن المعلم مع تلميذه والأب مع ابنه ، أي أنه يعلمها ويدربها ويأخذ بيدها حتى يرفعها إلى مستواه الذي هو فيه أو ما يقرب منه ؛ ليستطيع أن يجد منها الصديق الوفي والعشير الكريم ، والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله ، والأب لا يحقر ابنه ولا يزدريه .

* * *

الانتقام « مترجمة »

١

عينه حتى يغلبه على أمره ؛ فنام في مكانه والقلم معلق بين أصابعه في الساعة التي تكون فيها زوجته بين جمع من أصدقائها وصديقاتها في بعض الملاعب أو الحانات أو المجتمعات الخاصة راقصة لاهية عابثة بجميع الفضائل الإنسانية . فإذا استيقظت ابنته أثناء الليل ورأته على هذه الحالة مشت إليه برفق وهدوء وجلست على كرسي أمامه واجتذبت إليها الدفتر الذي بين يديه وأتمت فيه العمل من حيث قطعه ، ثم توقظه بعد ذلك لينام في فراشه ؛ فيشكر لها يدها ومعونتها ، ثم يسألها سؤال المتتمرر الممتعض : « أ لم تعد فلانة حتى الآن ؟ » فتجيبه بالصمت : أن لا ، فيذهب إلى سريره حاملاً بين جبينه من الهم والألم ما الله به عليم .

وجملة القول أن الرجل كان شقياً منحوساً ، يسير من شئون حياته في ظلمة داجية لا ينتهي بصره فيها إلى مدى ، ولا يرى في سمائها نجماً واحداً يتنوره إلا ذلك النجم الضئيل الذي كان يلعب من حين إلى حين في جبين ابنته الراحمة الشفوقة ، فيتنفس أمامه تنفس الراحة وبأذن لقمه أن يتنفس في ضوءه ابتسامة الغبطة والسرور .

وإنه لجالس ذات يوم في غرفة مكتبه من المصرف إذ دعاه إليه مديره وسلم له ورقة مالية قيمتها خمسة آلاف فرنك ليودعها الخزينة ويسجلها في دفاتر المصرف ، فتناولها منه وعاد بها إلى غرفته ووضعها على مكتبه وتناول الدفتر ليقيدها ، فما أمسك القلم بيده حتى دخل عليه بواب المصرف ، وقال له : « إن فتاة من هيئتها كيت وكيت واقفة بالباب تسأل عنك وهي تكتم اسمها وتأبى الدخول . » فاضطرب اضطراباً شديداً ، ومرّ بخاطره أنها ابنته وأن حادثاً عظيماً حدث بالمنزل دعاها إلى الحضور إليه ، ولم يكن من شأنها أن تحضر إليه في المصرف قبل اليوم ، فترك كل شيء في مكانه وخرج مسرعاً ليراه ، فإذا هي بعينيها واقفة تحت جدار المصرف وقفة الحياء والخجل وإذا بيدها كتاب تحمله من زوجته فاخطفه منها وقرأه ، فإذا هي تقول له فيه إنها تريد أن يرسل إليها في هذه الساعة خمسة آلاف فرنك لتبتاع بها

قضى المسيو كابريني برهة طويلة من أيام حياته سعيداً مغتبطاً بزوجة جميلة وثروة طائلة وخلق طيب شريف يجبه إلى الناس جميعاً ، ثم نكبه الدهر نكبة عظيمة ذهبت بماله وبزوجته ، فبكاهما ما شاء الله أن يفعل . ثم بلّى حزنه كما تبلى جميع الأحزان في قلوب الناس ، ولم يجد بدءاً من أن يعيش لابنته إيلين ليتولى تربيتهما وإسعادهما ، فالتحق بمصرف من المصارف المالية بمرتب قليل ، ثم لم يزل يبذل جهده في خدمة العمل الذي وكل إليه حتى أصبح بعد مدة قصيرة وكيلاً لذلك المصرف ، فكان يعمل فيه سخابة نهاره ثم يعود ليلاً إلى منزله فيرى ابنته منهوكة متضعضة لكثرة ما كانت تبذل من الجهد في خدمة المنزل ومناظرة شقونه ؛ فرأى أن يتزوج ليخفف عنها متاعبها وآلامها ففعل ، وكان سيئ الحظ في اختياره ؛ فتزوج من امرأة فاسدة خليعة لاهم لها في حياتها سوى ترفيه عيشها وتذليل نفسها والتقلب بين أعطاف شهواتها ولذائذها ، فلم ينتفع منها بشيء بل زادت همومه وآلامه وأثقال عيشه . ولكن ماذا يعمل وقد وضعت السلسلة في عنقه وانتهى الأمر ، وأصبحت ابنته بعد أن كانت سيدة بيتها وأميرة نفسها أسيرة في يد امرأة قاسية داهية تسومها أنواع الخسف وصنوف العذاب ، فكانت تختمل ذلك كله بصبر وجلد ، وكانت تكتم أباهما كتماناً شديداً ضمناً براحتهم وسكونه ، بل كانت تكتم عنه علائق زوجته وصلاتها بمعارفها وأصدقائها رحمة به وإشفاقاً عليه .

وكثيراً ما كان يعود إلى منزله في بعض لياليه حاملاً بعض دفاتر المصرف في يده ليتمم فيها العمل الذي أعجله الوقت عن إتمامه هناك فيجلس إلى مكتبه ساهراً ليله مكباً على عمله ذائداً النوم عن

حلة جميلة رأيها في حانوت بعض تجار الملابس، وإنها إن فاتها أن تبتاعها اليوم فربما لا تجدها غداً . فانفجرت شفتاه عن ابتسامة الغيظ والألم وأخذ ابنته ناحية وقال لها : « بلغيتها أنني لا أملك هذا المبلغ اليوم ولا غداً ، وربما لا أستطيع ذلك العام كله . » ثم ألقى عليها نظرة العائب لحضورها إليه في المصرف وكان لا يحب ذلك منها ، فأطرقت برأسها ولم تقل شيئاً ، لأنها لا تستطيع أن تقول له إن زوجته هي التي أرغمتها على ذلك فتزيد همومه همماً جديداً ، ثم عادت أدراجها .

وكان بين عمال المصرف عامل سيئ الأخلاق فاسد النفس والضمير ، ما زال مذ دخل هذا المكان يرصد الغفلة من مديره أو وكيله عله يتوصل إلى اختلاس شيء من المال لنفسه ، فدخل غرفة الوكيل في اللحظة التي خرج فيها لمقابلة ابنته ليقدّم إليه بعض الأوراق ، فلم يجده ولمح الورقة المالية التي تركها على المكتب ، فحذته نفسه باختلاسها فدار بنظره ههنا وههنا ، ثم انقض عليها و وضعها في جيبه ، ثم خرج متسللاً لم يشعر أحد بدخوله ولا بخروجه ، وما هي إلا لحظات حتى عاد المسيو كابريني وفي يده الكتاب الذي أرسلته إليه زوجته فمزقه بضع مِرَق وألقى به في سلته ، ثم ألقى نظره على المكتب ، فلم ير الورقة المالية حيث تركها فدّعر ذعراً شديداً وأخذ يفتش عنها في كل مكان ، فلم يجدها فاشتد حزنه وهمه . وأخذ يسأل العمال والخدم عمن دخل غرفته في غيابه فلم يعترف له بذلك أحد ولم يشهد به أحد ؛ فظل يصرخ صرخات عظيمة تقيم المصرف وتقعده ، فسمع المدير الضوضاء فحضر ليرى ماذا حدث فأففضى إليه الرجل بالقصة كما هي لم يكتمه منها شيئاً ، إلا أنه لم يشأ أن يخبره بموضوع الرسالة التي جاءت فيها ابنته ضناً بأسرارها البيتية أن يعلمها أحد غيره . فارتاب به الرجل بينه وبين نفسه ولم يكن يعتد عليه بسيئة قبل اليوم ولا يعرف له ماضياً مرياً ، ولكنه كان يعلم أنه فقير مقلّ فظن به الظنون - وقديماً كان الفقر ينبوع التهم ومثار الشكوك والريب - ثم تركه في غرفته وخرج

إلى العمال والخدم يحادثهم في هذا الشأن عله يصل إلى معرفة الحقيقة ، فأخبره البواب أن الفتاة التي حضرت إليه كانت تحمل في يدها كتاباً وأنه أخذها جانباً وأسرّ إليها حديثاً لم يسمع منه شيئاً ، فازداد شكه وارتياحه وعاد إليه فوجده واقفاً في مكانه مذهولاً يقلب كفيه فلم يقل له شيئاً ، وأخذ يدور بعينه في أنحاء الغرفة ويقلب بيده الأوراق عله يعثر بذلك الكتاب الذي أخبر به البواب فلم يجده ، فألقى نظره على السلة فرأى تلك المِرَق فجمعها ، فإذا هي الكتاب الذي يريد قراءه ، ثم ألقى على الرجل نظرة شزاء وقال له : « إنني أتهمك يا مسيو كابريني بأنك اختلست تلك الورقة وأرسلتها إلى زوجتك مع ابتك لتبتاع بها الحلة الجميلة التي أعجبته . » فدهش الرجل دهشة شديدة وورد عليه من الأمر ما طار بلبه وأخذ عليه أنفاسه ، ففصمت لحظة وبعد لأي استطاع أن يقول له : « نعم إنها أرسلت إليّ هذا الكتاب ، ولكنني لم أحفل به ولم أرسل إليها شيئاً ، بل رددتها ردّاً قبيحاً لأنني رجل فقير لا أملك هذا المقدار ، ولأنني رجل شريف لا أختلسه . » فلم يحفل المسيو «لورين» بدفاعه ولم يرث لضراوته واستراحته ، ولم يلبث أن رفع أمره إلى النيابة ، فما أتى آخر النهار حتى كان الرجل في السجن ، وكانت ابنته المسكينة في حال من الهم والحزن تشير الأشجان وتستذرف العبرات . أما زوجته فلم يكن يهمها في ذلك الموقف شيء سوى السعي للحصول على ثمن الحلة الجميلة من طريق غير هذا الطريق .

لم ينفع الرجل دفاعه عن نفسه ، ولا دفاع ابنته عنه ، ولا شهادة الذين شهدوا بشرفه واستقامته من جيرانه وأصدقائه لأن المحققين لا يستطيعون أن يصدقوا أن رجلاً عظيماً سرياً مثل المسيو لورين صاحب المصرف المشهور يكذب أو يلفق أو يخطئ في فراسته وتقديره ، وأن رجلاً فقيراً مقلّاً مثل المسيو كابريني يتعفف عن اختلاس المال الذي يقع تحت يده متى وجد السبيل إلى ذلك ، وكثيراً ما ساقط أمثال هذه الأقيسة الفاسدة والنظرات الطائشة الحمقاء الأبرياء والأشراف إلى أعماق السجون وقضت عليهم

فعل لما ضره ذلك شيئا ، وما هي إلا أيام قلائل حتى حكمت عليها محكمة الجنائيات بالسجن خمس سنين ، وكانت قد حكمت على أبيها قبل ذلك بالسجن عامين .

٢

دخلت إيلين سجن النساء لتقضي فيه المدة المقدرة لها ووضعت في غرفة مع امرأة عجوز ساقطة قضت جزءا عظيما من حياتها في هذا المكان المظلم القاتم حتى ألغته وجمدت نفسها عليه ، فلم تعد تحفل بشيء في هذا العالم ولا تفكر إلا في الساعة التي يقدم فيها إليها الطعام فتلتهم التهاما بشره ولهفة وهي تضحك وتغنى كأنما هي أبعد الناس عن الهموم والأحزان . فذعرت إيلين حين رأتها ذعرا شديدا وانسلت إلى زاوية من زوايا الغرفة فقبعت فيها واستسلمت لهمومها وأحزانها ، ولم تدع قطرة من الدمع في عينها إلا ذرفتها وأبت أن تتناول الطعام الذي قدمه إليها السجن ، فوضعه بين يديها وتركها وشأنها ، فبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هدا بعض ما بها فعمدت إلى كتاب صغير من كتب الأخلاق كانت لا تزال تحمله في جيبيها ما تفارقه ، فأخرجته وأخذت تتلوه بتقليب صفحاته ، فكان أول ما وقع نظرها عليه من كلماته هذه الكلمة : « العفو أشد أنواع الانتقام » .

فانتفضت عند قراءتها انتفاضا شديدا وعلق نظرها بها ما يتقل عنها ، وأخذت تراجع الحوادث التي مرت بها وتستعرضها واحدة بعد أخرى ، وتفكر في المظالم التي نالتها ونالت أباه ، وما اقترفا ذنبا ولا جنيا على أحد حتى أوردتهما هذا المورد من الشقاء ، فشعرت بدبيب الشر في نفسها للمرة الأولى في حياتها ، وظلت تقول في نفسها : « إن الذين مرت على ألسنتهم أمثال هذه الكلمات إنما كانوا يعيشون في عصر غير هذا العصر ، وبين أناس غير هؤلاء الناس . ولو أنهم عاشوا بيننا لكان لهم في العالم وأهليه رأي غير هذا الرأي ، ولما اجترأوا على المجازفة بتدوين هذه الأفكار في كتبهم ؛ لأن العفو

وعلى عائلاتهم القضاء الأخير كما قضت على هذا الرجل المسكين اليوم ، فإن قاضي التحقيق لم يلبث أن سمع شهادة خصمه عليه وعرف قصة الكتاب الذي أرسلته إليه زوجته حتى اقتنع بإجرامه وأحاله إلى محكمة الجنائيات .

فاستطير عقل إيلين وجن جنونها ، فلم تجد بدا من أن تذهب إلى المسيو لورين لتستعطفه لأبيها وتضرع إليه أن يساعد على تبرئته ، فذهبت إليه في منزله فاستأذنت عليه ، ثم دخلت فدهش دهشة عظمى حين رأى أمامه فتاة رشيقة جميلة ، بل هي آية من آيات الحسن والجمال لا عيب فيها إلا أنها نحيلة صفراء متضعضة - وقد يكون الضعف عند بعض الناس حلية من حلي الجمال - فافتتن بها حين رآها إلا أنه أخطأ في الحكم عليها كما أخطأ من قبل في الحكم على أبيها . فظن أنه يستطيع أن يستثمر لنفسه ضرورتها وحاجتها ، فأخذ يحدثها في الشأن الذي جاءت من أجله ، ثم ذهب معها في الحديث مذاهب أخرى لم تفهم غرضه منها إلا بعد حين لأنها لم تألف سماع مثلها قبل اليوم ، فأخذ وجهها يريد شيئا فشيئا ، ثم انتفضت انتفاضة الليث في غيله ، وألقت عليه نظرة هائلة لو ألقتها على رجل غيره لصبغ في مكانه ، ولكنه كان رجلا وقاحا متبلدا ؛ فلم يحفل بنظرها وتقدم نحوها وحاول أن يغلبها على أمرها فدافعت عن نفسها دفاعا شديدا حتى عجزت ، فأرادت الفرار من بين يديه فاعترض طريقها فدارت بنظرها في أنحاء الغرفة تتلمس سبيلا إلى الخلاص ، فوقع نظرها على مسدس كان فوق مائدته فاخطفته لتهده به ، فانطلقت منه رصاصة خطأ فأصابته في ذراعه فصرخ صرخة عظمى ، وما هي إلا لحظات قلائل حتى قبض عليها وسيقت إلى السجن بتهمة أنها دخلت على المسيو لورين في منزله لتسأله أن يساعد على تبرئة والدها فلم يحفل بها ؛ فأخرجت مسدسا كانت تخفيه في طي رداءها وأطلقت عليه تريد قتله فلم تصبه إلا في ذراعه .

وقد كان في استطاعة المسيو لورين أن يعترف بالحقيقة التي يعرفها حتى المعرفة فلم يفعل ، ولو

يا بنيتي لا تنظري فيها ، وانزعي عنك همومك وأحزانك وكل الطعام الذي يقدم إليك هاتئة مغتبطة لا تلوين على شيء مما وراءك ، فسيأتي قريباً أو بعيداً ذلك اليوم الذي يفتح لك فيه هذا الباب الموصود دونك فتخرجين إلى الانتقام من الرجل الذي أساء إليك وساقك إلى هذا المكان ، وتنالين منه فوق ما نال منك كما سأفعل أنا يوم خروجي بالرجل الذي ساءني وأفسد عليّ حياتي ، فليس العفو أشد أنواع الانتقام كما يقولون ، بل الانتقام أعظم ملذات الحياة .

فهدأت نفس إيلين قليلاً واستطاعت أن تتناول شيئاً من الطعام الذي قدم إليها ، إلا أنها كانت إذا جاء الليل رأت أباهاً في منامها يقاسي أنواع العذاب وصنوف الآلام في سجنه ، فتصبح باكياً نادبة لا يهون عليها آلامها بعض التهوين إلا ثرثرة تلك العجوز وهذيانها ، حتى نامت ذات ليلة فرأته ميتاً على سرير من أسرة مستشفى السجن تحيط بجثته شمعتان مشتعلتان ، فاستيقظت فزعة مذعورة تبكي وتنتحب . وما هي إلا هنيهة حتى دخل عليها السجان يدعوها للمقابلة مدير السجن فذهبت إليه فأبلغها أن أباهاً توفي الليلة في المستشفى ، فصعقت صعبة كادت تذهب بنفسها ، ثم استفاقت فإذا هي في غرفة سجنها وإذا هي أشد عباد الله بؤساً وأعظمهم شقاء .

٣

قضت إيلين سنواتها الخمس في سجنها ثم خرجت ورفيقتها العجوز تشيعها إلى الباب ، وتقول لها : « لا تنسي ، يا بنيتي ، أن تتقمي من عدوك الذي أساء إليك ، وتنكلي به تنكيلاً عظيماً ، وسأبعثك على الأثر عما قريب لأنتقم من عدوي مثلك ، وهل للمثلي ومثلك في هذه الحياة الشقية البائسة لذة غير لذة الانتقام ! »

فودعتها وانصرفت لا تعلم أين تذهب ولا أي طريق تسلك ، بل لا تعلم أين تجد قوت يومها أو المضجع الذي تأوي إليه سواد ليلتها ، فقد انقطعت

لا يكون انتقاماً إلا من أصحاب الضمائر الطيبة الطاهرة التي يقلقها الذنب ويخجلها العفو والتي تصدر عنها سيئاتها زلات وهفوات ، أما الضمائر القاسية المتحجرة التي لا تعبأ بشيء ولا تخجل من شيء ، فلا يزيدها العفو والصفح إلا تمرداً وطفياناً .

وانها لذهابة هذه المذاهب المختلفة من خواطرها وأفكارها إذ دنت منها جارتها العجوز تخلص الخطي إليها اختلاساً حتى وقفت وراءها ، ونظرت في الصفحة التي تنظر فيها ؛ فوق نظرها على تلك الكلمة التي كانت تنعم النظر فيها ؛ فقهرت ضاحكة بصوت عال غريب فارتعدت إيلين والتفت وراءها صارخة : « ماذا تريدن يا سيدتي ؟ » قالت : « لا تخافي يا بنيتي ولا تراعي ؛ فما أنا بمجنونة كما ظننت وكما يظن سكان هذه الدار ، ولكنني رأيتك مستغرقة في هذا الكتاب ، لا ترفعين نظرك عنه فجئت لأقول لك : دعي الكتب وشأنها لا تحفلي بها ولا تعوّل على شيء مما فيها ؛ فإن أصحابها الذين وضعوها غرباء عن هذا العالم لا يفهمون من شأنه شيئاً إلا كما نفهم نحن من شؤون عالم الجن أو سكان المريخ ، بل هم قوم معتوهون ممرورون قضوا أيام حياتهم في معتزلاتهم الخاصة المملة التي لا توجد فيها نافذة واحدة تشرف على العالم وما فيه ؛ فملوا وسثموا وأرادوا أن يروحوا عن أنفسهم ويتلهوا بما يسري عنهم مللهم وسأمهم ، فأخذوا يدنون هذه المبادئ التي انتزعوها من جوانب أدمغتهم ، لا من طبيعة المجتمع الذي يحيط بهم ، ويقررون الآراء التي يستحسنونها ويعجبون بها لا التي تتفق مع طبيعة الكون ومزاجه . فهم ينصبون المجرم أن يقلع عن إجرامه ، ثم يخيل إليهم أنه قد أقلع ونزع فيطلبون إلى من أجرم إليه أن يعفو عنه قائلين له : « إن العفو أشد أنواع الانتقام » كأن الفضيلة عندهم هي الحالة الأساسية للنفس ، وكأن الإجرام عرض من أعراضها الطارئة عليها ، لا تليث أن تهب عليه نسمة من نسيمات العظة والاعتبار حتى تذهب به ، فما أسخف عقولهم وما أقصر أنظارهم وما أبعدهم عن فهم حقائق الحياة وطبائع النفوس . دعي الكتب

والأدب - واستحالت نفسها الطاهرة الكريمة إلى نفس أخرى غيرها لا صلة بينها وبينها ، فلم ينحدر برقع الظلام عن وجه الصباح حتى رآها الناس سائرة مع أحد العمال المرييين هادئة ساكنة باسمه متطلقة ، لم يبق في وجهها من دم الحياة إلا بضعة قطرات قد أخذ لونها يستحيل شيئا فشيئا إلى لون البياض لتلحق بأخواتها .

٤

وكذلك هوت تلك الفتاة المسكينة البائسة في تلك الهوة التي حفرها المجمع الإنساني لأمثالها من الفتيات البائسات ، فظلت تنتقل من يد إلى يد ومن مضجع إلى مضجع ، وكأنَّ الحظ الذي فارقتها وتجهَّم لها في حياة الطهارة والعفة أقبل عليها بوجهه الباسم المتهلل في حياة السقوط والفساد . فما هي إلا أيام قلائل حتى طلعت في سماء باريس نجما ساطعا متألِّفا تثير كل أفق تشرق فيه وتعطر كل أرض تخطر بأرجائها وتعبث بالأبواب الرجال عبث النسائم بأوراق الأشجار .

ولها لجالسة ذات ليلة في مقصورة من مقاصير بعض الملاعب التمثيلية في جمع من أصدقائها المستهترين بها إذ وقع نظرها على خصمها المسبورين جالسا في المقصورة المقابلة لها مع إحدى خليلاته ، فانتفضت حين رآته وارت في نفسها نائرة الغيظ والحق وظلت تردد النظر في وجهه طويلا ، فلمحها وهي تنظر إليه ، فأعجبه منظرها البارع الجميل إلا أنه لم يعرفها فقد تغير كل شيء فيها حتى ملامحها وشمائلها . فما انتهى الفصل الأول من الرواية حتى نهض من مكانه مسرعا وذهب يروود حول مقصورتها حتى التقى بأحد أصدقائه وأصدقائها في دهليز المقاصير ، فسأله عنها فأخبره أنها السيدة لوسي الماريسلية أجمل فتاة وفدت إلى باريس في هذا العام . فتوسل إليه أن يقدمه إليها ففعل ، فأحسنت لملتها وقد أضمرت له في نفسها شرا ما يضر عذرا لعدوه ، وأقبلت عليه تحذره وتلطّف به وتمدّ له الحبال التي اعتادت أن تمدّها كل يوم لأمثاله . فما لبثت

صلتها بالعالم كله بعد موت أبويها ووسم جبينها بلقب المجرمة الذي خرجت به من سجنها .

ولم تزل سائرة ساعات طويلة حتى شعرت بالتعب وأحسّت بالجوع يعبث بأحشائها ، فحدّثتها نفسها بالانتحار فرارا من الألم وهذا في الحياة وظلت تترجّع ساعة بين الأنس بهذا الخاطر والنفور منه حتى غلبها على أمرها فأخذت طريقها إلى النهر . وكانت الليلة داجية مكفهرة تلمع بروقها وتهطل غيومها وتدمدم رعوها وتعصف رياحها ، فاستمرت أدراجها حتى إذا لم يبق بينها وبين النهر إلا بضعة خطوات سمعت قعقة مركبة مقبلة نحوها من بعيد يمزق نور مصباحيها المشتعلين أحشاء الظلمات ، فتربّت هنيهة في مكانها حتى مرت المركبة بها ، فإذا المسبورين جالسا بين بضعة فتيات خليعات يعابهن ويداعبن ويقهقه قهقهة عالية ترنّ في أجواز الفضاء . فاخبت وراء شجرة حتى مرّ ثم برزت من مخبئها تحدّث نفسها وتقول : « ها هو المجرم سعيد في حياته ، مغتبط بعيشه ، يتقلب في أعطاف العيش الناعم لا ينغص عليه عيشه منقّص ولا يكدر حياته مكدر ، وهأنذا البريقة الطاهرة التي لم ألوث يدي في حياتي بجريمة ، ولم أقترف بيني وبين ضميري إلما أهيم في هذا الوادي الفسيح على وجهي ، لا أعرف لي ملجأ ولا مأوى ، ولا أعرف سبيلا للعيش ولا مذهبا ، ولو عرفت لما استطعت أن أتفجع بمعرفتي ، لأنني مجرمة قاتلة ، ومن ذا يأمن على نفسه أن يتصل بالقتلة المجرمين أو يعطف على بأساتهم وضرائهم ! »

« لا ، لا ، لا بُدّ أن أعيش ولا بدّ أن أنتقم ، وما دامت الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية قد عجزت عن أن تنتصف للناس من الناس ، فلينتصف الناس بأنفسهم لأنفسهم . »

وانحدرت من طريق النهر إلى طريق المدينة وقد ودّعت في تلك اللحظة جميع خواطر الخير التي ملأت فضاء نفسها طول حياتها وخلعت ذلك الثوب الجميل المتألّج الذي لبسته منذ برزت إلى الوجود حتى اليوم - ثوب الشرف والكرامة والطهارة

فشيئاً ، ويقول بصوت مضطرب متقطع : « إذن أنت لست ... فقاطعته ، وقالت : « نعم لست حبيبتك لوسي كما تعتقد ، بل عدوتك لإيلين التي تريد أن تنتقم منك لفجيعتها في أبيها وفي نفسها . أنا إيلين التي جثت تحت قدميك منذ ستة أعوام تسألك أن ترحم أباهاً وترحمها فأبيت إلا أن تساموها في عرضها ، فلما ضمنت به عليك أردت النكاية بها فاتهمتها بتهمة القتل كذباً واقتراءً كما صنعت بأبيها من قبلها فصلق القضاة الأغبياء دعواك ، فحكموا عليها بالسجن خمس سنوات كابدت فيها من صنوف العذاب وأنواع الآلام ما لا يستطيع أن يحمله بشر . خرجت من سجنها مصفرة اليد من كل شيء في العالم ، من بينها وأهلها وكرامتها وشرفها وكل ما تملك يدها ، حتى من القوت الذي تقيم به صليها يياض يومها وسواد ليلها . وكان لا بد لها من المغامرة بنفسها في إحدى الهوتين : إما هوة الموت لترتاح من هموم الحياة وآلامها ، وإما هوة الفساد لتنتقم لنفسها من عدوها الذي نكبتها وأفسد عليها حياتها ، فأثرت الانتقام على الموت ، لأن نفسها الطاهرة الطيبة قد استحالت إلى نفس شريرة حاقدة لا تريد أن تسمح لعدوها أن يبنى سعادته على أنقاض شقاها ، وأن يفلت من العقوبة التي هي النتيجة الطبيعية لجميع الذنوب والآثام ، وها هي قد انتقمت لنفسها وروحت عنها همومها وآلامها . »

فنگس رأسه ملياً ، ثم رفعه وقال : « إذا ما أحببتني قط يا لوسي . » قالت : « نعم ، بل ما اتصلت بك إلا لأسوقك إلى هذا المصير الذي صرت إليه اليوم . أنت الآن متألم جداً ، بل لا يوجد في العالم كله ألم مثل الألم الذي يعتلج في أعماق نفسك ، لأنك فقدت في يوم واحد شرفك وكرامتك ومالك وحريتك وموضوع حبك ووجهة آمالك في حياتك . وهذا ماكنت أريده وأرجوه ، وهذه هي الساعة الوحيدة التي شعرت فيها بلذة العيش وهناءته من بين جميع ساعات حياتي . »

فنظر إليها نظرة متضعضة دامعة وقال : « ما كنت لأحفل بخسران شيء في الحياة لو أنني

هرعت إلى غرفة التليفون وبلغت رئيس الشرطة خبر عزمه على الهرب ، وأشارت عليه بإرسال من يقبض عليه في الحال . ثم أمرت الخدم بغلاق الأبواب والوقوف في وجهه إن أراد الفرار ، ثم عادت إليه فسألها هل أعدت كل شيء ، فنظرت إليه نظرة غريبة لم يفهم معناها ، ثم انفجرت ضاحكة بصوت عال فدهش وسألها ما بالها ، فقالت : « لا شيء سوى أنك ستبقى سجيناً هنا حتى يأتي رئيس الشرطة للقبض عليك . » ثم ألقت عليه نظرة هائلة فعجب لأمرها ، ولم يعلم أمارحة هي أم نزل بها عارض من عوارض الجنون ، ونهض من مكانه مسرعاً ودنا منها وقال لها : « ماذا عرض لك يا لوسي ، فقد طلبت إليك أن تهبطي نفسك للسفر معي فهل فعلت ؟ فقد أزف الوقت ولسنا الآن في موقف مزاح ، وأخاف أن تفاجئنا الشرطة الساعة فتفوت الفرصة . » فضحكت ضحكة أخرى ، وقالت : « قد بلغت رئيس الشرطة أنك عازم على السفر ، وأشارت عليه أن يبادر بإرسال الجنود ، وقد أمرت الخدم بغلاق الأبواب دونك حتى لا تتمكن من الهرب قبل حضورهم . » فجن جنونه وقد بدأ الريب يدب في نفسه وإن لم يفهم لما يرى سبباً ، فركض إلى الباب ليتحقق الأمر بنفسه فوجده مغلقاً ، فأمرها أن تفتحه فأبت فهجم عليها هجمة شديدة وهو يصيح : « أين المفتاح أينها العاهر ؟ » فقالت : « أ تريد أن تقتلني كما قتلت أبي بالأمس ؟ » فلم يفهم معنى كلمتها ووقف في مكانه ذاهلاً يقول لها : « لم أفهم من أمرك شيئاً ، ماذا تريد ؟ ومن هو أبوك ؟ » قالت : « هو المسيو كابريني وكيل مصرفك بالأمس الذي اتهمته ظلماً وعدواناً بالسرقة ، وأنت تعلم أنه رجل شريف مستقيم لو علم أن شرب الماء يفسد مروءته ما شربه ، فكانت نهاية أمره أن مات في سجنه ميتة الأشقياء البؤساء لا يعود من أهله عائد ، ولا يحتضنه إلى صدره في ساعته الأخيرة محتضن ، ولا يوجد بجانب مضجعه من يسمع منه آخر كلماته . »

فاصفر وجه لورين وظل جسمه يرتعد ارتعاداً شديداً ، وأخذ يحدق النظر في وجهها ، ويتراجع شيئاً

بديب السامة والملل في نفسها وخيل إليها أنها ستعيش بعد اليوم عيشة نافهة مملولة لا طعم لها ولا لذة فيها ، ورأت كأن سحابة سوداء من شقاء الحياة وبؤسها تدنو منها شيئا فشيئا ، وأخذت تسأل نفسها هل أصابت فيما فعلت أم أخطأت ؟ وهل سعدت بالانتقام أم شقيت ؟ وهل كان خيرا لها أن تلقى بنفسها في عباب الماء عندما فكرت في ذلك يوم خروجها من سجنها أم تعيش لتضحى عرضها وشرفها وكرامتها في سبيل انتقامها ؟ وهل خرجت من المعركة التي خاضتها ظافرة تمام الظفر أم نالها من الخسران فيها ما يذهب بيهاء ذلك الانتصار الذي انتصرته ؟

ولم تزل تسأل نفسها هذه الأسئلة ، فلا تسمع جوابا يرضيها حتى مضى الليل إلا أقله فحاولت أن تأوي إلى مضجعها فلم تستطع ، وأن تسري عن نفسها بعض همومها فأعجزها ما أرادت ، فلم تنقض دولة الظلام حتى كانت قد حكمت بنفسها على نفسها أنها مجرمة آثمة ، وأنها لم تستفد شيئا من كل ما عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الأثمان وأدناها ، وأنها لم تسر إلى الرجل الذي أرادت الانتقام منه بقدر ما أساءت إلى نفسها ؛ فعزمت على الالتحاق بأحد المستشفيات الخيرية لتكفر عن ذنبها بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها حتى يوافيها أجلها .

٦

دخلت المستشفى وأخلصت إلى الله في عملها ، فسهرت على المرضى وأحسنّت مواساتهم وبذلت في ذلك من الجهد ما يعجز غيرها عنه حتى أصبحت مضرب المثل في صلاحها وتقواها ورحمتها وإحسانها .

وكانت المحكمة قد حكمت على المسيو لورين بالسجن عامين ، فلقى في سجنه من المتاعب والآلام ما لا طاقة لثله باحتماله ؛ فسقط مريضا لا يحفل به أحد ولا يواسيه مواس حتى اشتد به المرض وأشرف على الهلاك ؛ فنقلوه إلى المستشفى التي كانت

ريحتك يا لوسي ؛ أما وقد أصبحت يدي صفرًا منك ؛ فلا خير في العيش من بعدك . ثم تهافت على مقعد بجانبه وانفجر باكيا لا تهدأ دموعه ولا يفتر نشيجه حتى حضر الجند ، فاعتقلوه وساقوه إلى سجنه وهو صامت واجم لا يرفع طرفه ولا يلتفت وراءه ، وليلين تشيعه بنظرات السرور والاعتباط حتى انقطع أثره .

٥

نعم إن الانتقام للذي جدد كما يقولون ، ولكنه اللذة التي يعقبها الندم والأسف وتأتي على الحشرات والآلام ، وما استطاع منتقم قط أن يزن عمله بميزان العدل والحكمة ، فتهدأ نفسه ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه كما تهدأ نفس القاضي العادل بعد صدور حكمه بالعقوبة التي يراها . والفرق بينهما أن القاضي يصدر في رأيه عن نفس هادئة مطمئنة مستمسكة قادرة على الروية والأناة والمقارنة والمقابلة والوزن والتقدير ، والمنتقم يصدر في عمله عن روح هائجة محتدمة لا هم لها إلا أن تلتهم وتستأصل وتأتي على كل ما تستطيع الإتيان عليه . فهو يقضي قضاءه لا ليعاقب المجرم على جريمته ، ولا ليدفع عن المجتمع شروره وآثامه ؛ بل ليخرج نفسه ويؤلمها وينال منها أقصى ما يرى أنه كاف لشقاء حقه وإطفاء غلته ، فيجازي على الشتم بالضرب وعلى الضرب بالقتل ، وعلى القتل بالتشويه والتمثيل ، ولا يأبى أن يأخذ البريء بذنب المجرم ، والجار بذنب الجار ، فالانتقام جريمة كيفما كان الباعث عليه والدافع له ، وكل جريمة تترك في نفس صاحبها نصيبا من الألم والحسرة بمقدارها ، ما من ذلك بد . ولقد صدق الذي يقول إن العفو مرارة ساعة ثم السعادة إلى الأبد ، وإن الانتقام لذة ساعة ثم الشقاء الدائم الذي لا يفنى .

عادت ليلين إلى غرفتها بعد ذهاب لورين وكان الليل قد أظلم ، فجلست تراجع فهرس حياتها الماضية وتقلب صفحاتها صفحة صفحة ، فشعرت

الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير نعي أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه ، ثم سكت فجعل لونه يحمر مرة ويصفر أخرى ، فقال رجل من قريش لآخر بجانبه : « ما له لا يتكلم ، فوالله إنه للخطيب اللبيب ! » فقال له الرجل : « لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب ، فيشتد ذلك عليه ، وغير ملوم إن جزع . »

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول في حفلة تأبين أخيه فتحي باشا زغلول وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة ، فاحتقن بالبكاء وارتج عليه وهو الرجل الجلد الشجاع الذي ما جزع في حياته قط ، والخطيب المفوه الذي ما ارتج عليه مرة في أصعب المواقف وأخرجها وأذهبها بالعقول والألباب ، فما أشبه هذا البطل الباكى ، بذلك البطل الجازع .

وكذلك عظماء الرجال يضيئون بدموعهم على نكبات الدهر وأرزائه أنفة وإباء حتى إذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التي لا أمر فيها إلا لله وحده لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضيئون به من قبل .

على أن البكاء الذي حال بين سعد باشا وبين كلمته التي أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين في ذلك الموقف وأنطقهم ، فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين كاملتين فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر في النفوس أن كان السامعون يتهامون فيما بينهم بالإعجاب بفصاحة القصيص أو نباهة المؤرخ أو بلاغة الشاعر أو إبداع المبدع في معانيه أو إحسان المحسن في إلقائه حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة ، فبكى الناس جميعاً لبكائه كباراً وصغاراً شيوخاً وشباناً ، وكان مشهداً مؤثراً لم نر مثله في حفلة تأبين قبل اليوم ، فكان لتلك الخطبة القصيرة الصامتة

تُمرّض فيها إيلين فعرفته حين أنه رغم تغير صورته واستحالة حالته ، فلم تستطع أن تملك عينها من البكاء . ثم حثت عليه وأخذت نفسها بتمريضه والعناية به وهو ذاهل مستغرق لا يشعر بشيء مما حوله حتى استفاق في بعض الأيام ، فرآها واقفة بجانب سريره تمد إليه يدها بالدواء فظل يحدق النظر في وجهها طويلاً حتى عرفها ؛ فتناهض من مكانه وأكب على يدها يقبلها ويسألها العفو عن ذنبه إليها فازداد نشيجها وبكاؤها ، وقالت له : « إنني أنا التي أسأت إليك ، وأنا التي أطلب منك العفو والصفح ! » وكأنَّ حياتها الجديدة التي انتقلت إليها ؛ حياة الصلاح والبر قد أنستها حياتها الأولى وأكاذيبها وأباطيلها ؛ فلم يبق في قلبها أثر للبخس ولا للحقد ، وأصبحت سريرتها سريرةً بيضاء نقية لا تجول فيها غير خواطر الخير والإحسان ولا تنطوي على غير حب الإنسانية وحب الله .

وكذلك ظلت تعالج هذا المسكين بإخلاص لا تضمّر مثله الأم لواحدتها وتقوم على خدمته ليلا ونهارها ما تهدأ ولا تفتر ، ولكن الداء كان قد تمكن منه فلم يغن عنه العلاج شيئاً . وما هي إلا أيام قلائل حتى حضره الموت ، فجلست بجانبه تعزيه وتواسيه وتلقي في نفسه أن الله قد غفر له جميع سيئاته في حياته بما كابد فيها من العلل والأسقام والهموم والآلام ، وأن جوار الله في دار جزائه خير له من جوار هذه الحياة الباطلة الفانية حتى أسلم روحه بين ذراعيها .

وفي صباح اليوم الثاني رآها الناس سائرة بهدوء وسكون في طريق الدير ، وقد لبستُ مُسوحها وسوادها ، وعلقت صليها على صدرها حتى بلغت ، ففتح بين يديها بابه العظيم الذي لا يخرج منه داخله إلى الأبد ، فدخلته وكان ذلك آخر عهدها بالعالم وما فيه .

صاحبه ، ولا يَغْمُضُ إلا لأن معناه غامض في نفسه ، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام ، ولا المتأثر عن التأثير ، ولا المقتنع عن الإقناع ، وما البيان إلا المرأة التي ترسم فيها صورة النفس ، فحيث تكون النفس جميلة فهو جميل ، أو قبيحة فهو قبيح ، أو مضيق فهو مضيق ، أو مظلمة فهو مظلم ، فإذا استطعنا أن نتصور امرأة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها ، استطعنا أن نتصور بياناً يختلف في وصفه عن وصف نفس صاحبه .

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة :

ولما قضينا من مِني كل حاجة

ومَسَّحَ بالأركان من هو ماسح

وشدت على حذب المهارى رحالنا

ولم يعلم الغادي الذي هو رائج

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

وسالت بأعناق المطي الأباطح

إنها جميلة الأسلوب ولكنها تافهة المعنى مردولته لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير ، كأنهم لا يعلمون أن التصوير نفسه من أجمل المعاني وأبدعها ، بل هو رأس المعاني وسيدها والغاية الأخيرة منها ، وقد رَسَمَ الشاعر في كلمته هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج في حلهم ومرتحلهم يسمعها السامع بأذنه وكأنه يراها بعينه ، فقد أتى بأجمل المعاني في أجمل الأساليب .

ولأن وصفاً قصيراً لحركة صغيرة من حركات النفس كقول الشريف :

وتلفت عيني فمد خفي

عني الطلول تلفت القلب

لخير ألف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعاني الغريبة والخواطر المبتكرة التي لا تمثل الحقيقة ، ولا تلثم مع النفس ومزاجها كقصيدة المتنبي التي مطلعها : « أيطمع في الخيمة العذل » ويقولون أيضاً عن هذا البيت :

المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم من الأثر في النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال .

ليس الذي يكي صديقاً كان يأنس بحديثه ، أو عالماً كان ينتفع بعلمه ، أو كريماً كان يستظل بظلال مروءته وكرمه ، كمثل الذي يكي شظية طارت من شظايا قلبه .

* * *

اللفظ والمعنى

لم أر فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأي أولئك القوم الذين يفرقون في أحكامهم بين اللفظ والمعنى ، ويصفون كلا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر ، فيقولون : ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أن معانيها ساقطة مردولة ! أو : ما أبدع معاني هذه القطعة لولا أن أسلوبها قبيح مضطرب ! كأنما يخيل إليهم أن اللفظ وعاء ، وأن المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء ، فتارة يكون خمرًا ، وتارة يكون خلا ، ويكون حيناً صافياً ، وأخرى كدركاً ، والوعاء باق على صورته لا يتغير ، وما علموا أنهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها ، والخمر بنشوتها . فكما لا يجوز أن نقول : ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها ، ولا : ما أعذب الخمرة وأمر نشوتها ، كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال ، والمعنى بالقبح ، أو نكسر ذلك فليعلم الناشئ المتأدب أنه ليس لللفظ كيان مستقل بنفسه ، فجعله جمالاً معناه وقبحه قبحه ، وأن القطع الأدبية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف بذلك معانيها وأغراضها ، وأن الذين يزعمون من الشعراء أو الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معاني شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو واهمون .

لا يضطرب اللفظ إلا لأن معناه غامض في نفس

أنى يكون أبا البرية آدم

وأبوك والثقلان أنت محمد

الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء ، ثم يأتي بعد ذلك جمال الوصف وحسن التصوير وتمثيل الحقيقة واستخراج أسرار الكون وتحليل مشاعر النفس ، وأمثال ذلك من الأغراض والمقاصد على أن تكون تلك النغمة الموسيقية أساسها والروح السارية فيها ليتحقق الفرق بين الشعر والفلسفة ، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها وحججها وبراهينها ، والشعر غذاء النفس برناته ونغماته وأهازيجه ونبراته .

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية إلى اليوم ، فمات جميع ما نظموا ولم يبق منه إلا البيت الموسيقي الرنان الذي لو لم يغنّه مغنيه لغنى وحده . وسيموت شعر جميع الشعراء في هذا العصر ولا يبقى منه في المستقبل إلا كما بقي من الماضي في الحاضر .

* * *

الآداب العامة

يتحدث كثير من الناس عن ففة من المصريين المتعلمين قد ظهوروا في هذه الأيام ، واتخذوا لأنفسهم في حياتهم العامة طريقاً غير الطريق اللاتفة بهم وبكرامتهم ويمنزلة العلم وشرفه ، فأصبحوا متبذلين في شهوراتهم ، مستهترين في ميولهم ، ينتهكون حرمان الأعراض ما شاءوا وشاءت لهم نزعاتهم وأهواؤهم ويعبثون بها في كل مكان عبث الفاتك الجريء الذي لا يخاف مغبة ولا يخشى عاراً ، وأهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغرون الفتيات الطالبات اللواتي لا يزلن يختلفن إلى مدارسهن أو اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن ، وينصبون لهن صنوف الجبائل وأنواع الأشرار لاصطيادهن وإسقاطهن في هوة الإثم والعار ، وهذا ما أريد أن أتكلّم عنه قليلاً .

أ صحيح ما يقولون عنكم أيها الفتيان التعسسون أنكم تتخذون صلة العلم التي هي أشرف الصلّات وأكرمها صلة فساد بينكم وبين أولئك الفتيات

إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى ، وهم واهمون فيما يقولون فإن ذلك المعنى الجميل الذي يتوهمونه ليس معنى هذا البيت ، بل المعنى الذي خطر على أذهانهم وانبعث في أفئدتهم عند سماعه ، فالصقوه به إلصاقاً وتوهموه له توهماً ، أما البيت نفسه فلا معنى له مطلقاً ، وهذا شأن جميع المعاني التي يتوهمها متوهموها عند سماع بيت مستغلق أو كلمة غامضة ، فهي بأن تكون معاني السامعين ، أولى من أن تكون معاني القائلين .

إذا سمعت بيتاً من الشعر ؛ فأطربك أو أحزنك أو أقنعك أو أرضاك أو هاجك وأنت ساكن ، أو هدأ روعك وأنت ثائر ، أو ترك أي أثر من الآثار في نفسك كما تترك النغمة الموسيقية أثرها في نفس سامعها ، فاعلم أنه من بيوت المعاني ، وأن هذا الذي تركه في نفسك من الأثر هو روحه ومعناه ، وإن مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه وثقل عليك ظله وشعرت بجمود نفسك أمامه وخيل إليك أنك بين يدي جثة هامدة لا روح فيها ، فاعلم أنه لا معنى له ولا حياة فيه ، فإن وجدت صاحبه وافقاً بجانبه يحاول أن يوسوس لك أن وراء هذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نوراً متوهجاً يكمن في طياتها ، فكذبّه وفرّ بنفسك وأدبك وذوقك منه فراقاً لا عودة لك من بعده .

هذا هو الميزان الذي يجب أن تزن به الكلام ، ونصيحتي إليك ألا تصدق تعريفاً واحداً من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة التي يضعها واضعوها من الأدباء لأشعارهم خاصة لا للشعر عامة ، واجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن به ما تسمع .

فكما أنك لا تعتمد على تعريف من تعريفات الجمال ، ولا تلجأ إلى قانون من قوانينه عند وقوع نظرك على وجه امرأة لمعرفة درجتها من الحسن ، كذلك لا تعتمد في استحسان ما تستحسن من الكلام واستهجان ما تستهجن إلا على شعور نفسك وإلهام حسك .

وضمائرهن حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن ؛
فتشركوهن معكم في شرب الخمر وتناول المخدرات
سائلها وجامدها ، فلا تلبث أن تنتهي حياتهن بما
تنتهي به حياة جميع النساء الساقطات اللواتي يلفظن
أنفاسهن الأخيرة في أقبية الحانات أو بين جدران
المواخير ؟

أ صحيح أنكم فقدتم في تلك السبيل التي
تسلكونها خلق الرجولة والشهامة ؛ فأصبحتم
تتجملون للنساء بأخلاق النساء وتزلفون إليهن بمثل
صفاتهن وشمالهن ، وأصبح الرجل منكم لا هم له
في حياته إلا أن يتجمل في ملبسه ويتكسر في مشيته
ويرقق من صوته ، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان
التضعيع والفتور ، ويقضي الساعات الطوال أمام
مرآته متعهداً شعره بالترجيل وبشرته بالتنضير وثناياه
بالصقل والجلاء ، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم
التي لا تنفك عنكم ، وحتى سرى التأث من
أجسامكم إلى نفوسكم ؛ فلم يبق فيكم من صفات
الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب ؟

إن كان حقاً مايقولون كله أو بعضه ؛ فرحمة الله
عليكم أيها الفتیان المساكين وسلام على الفضيلة
والشرف ، سلام من لا يرجو عودة ولا ينتظر إياباً .

إن هذه الفتاة التي تحتقرونها اليوم وتزدورنها
وتعشون ما شئتم بنفسها وضميرها إنما هي في الغد
أم أولادكم وعماد منازلكم ومستودع أعراضكم
ومروءاتكم ، فانظروا كيف يكون شأنكم معها غداً
وكيف يكون مستقبل أولادكم على يدها .

أين تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل
حياتكم إن أنتم أسدتم الفتيات اليوم ؟ وفي أي جو
يعيش أولادكم ويستنشقون نسمات الحياة الطاهرة إن
أنتم لوثتم الأجواء جميعها و ملأتموها سموماً
وأكداراً ؟

لا تتكون أخلاق الفتاة تكوناً صحيحاً في طفولتها
أو كهولتها أو شيخوختها ، بل في عهد شبابها ، فإذا
سلم لها ذلك العهد سلم لها كل عهد بعد ذلك ،
فدعوها تجتز هذه المرحلة الوعرة من مراحل حياتها

الضعيفات ، وأن الحبال التي تنصبونها لهن
لاصبطيادهن إنما هي حبال القلم الذي هو أفضل
أداة للخير وأعظم وسيلة للفضيلة وخير واسطة للأدب
والكمال ؟

أ صحيح ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن
ليكتبن إليكم وتهدون إليهن صوركم ليهدين إليكم
مثلها ، فإذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن
ورسائلهن أخذتم تنشرونها في كل مكان وتعرضونها
في كل معرض ، وأخذ بعضكم يفاخر بعضاً بكثرة
ما يملك منها ، أو جماله أو رونقه كما يفخر المرء
بأفضل المزايا وأشرف الخصال ؟

أ صحيح أنكم تقفون لهن بكل طريق وتأخذون
عليهن كل سبيل وتضايقونهن في مغداهن ومراحهن
وحيث ذهبن إلى عمل ، أو خرجن لزيارة ، أو برزن
في مجمع ، فإذا عجزتم عنهن في الطريق أرسلتم
وراءهن الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن ،
وربما توسلتم إليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم ؛
ليسفرن بينكم وبينهن ويدخلنهن مداخلة الأصدقاء
حتى يجتذبنهن إلى منازلكم ؟

أ صحيح أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على
كتابة رسائل الغرام وتهذيها وتنقيحها ، وأكثر
أيامكم حوماً حول المنازل تنتظرون خدمها الذين
اصطنعتموهم لأنفسكم ليحملوا رسائلكم إلى
ساكنيها ، أو جلوساً على أبوابها بجانب البوابين
والحوزيين ترقبون نوافذها وكواها عليها تنفرج لكم
عمن تحبون ؟

أ صحيح أنكم أصبحتم لا تقنعون في أمر أولئك
الفتيات البائسات اللواتي يقعن في مخالبتكم بإفساد
أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلاً
موقعاً عليه يتوقعاتهن مستشهداً عليه بصورهن
وخطوطهن ؛ لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك وتحولوا
بينهن وبين التفأل من أيديكم ، والحياة بعيداً عنكم
في جو غير جوكم ، وجوار غير جواركم عذاري أو
متزوجات ؟

أ صحيح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذي أهدت إليه حبيبته رسمها موقعاً عليه بتوقيعها ، فلما تزوجت وكان لا يحب منها ذلك أراد الانتقام منها ؛ فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عار بتلك الطريقة الفنية المعروفة ، ثم أرسلها مع كتاب وشاية إلى زوجها ليلة عرسها ، فما لبثت أن خسرت في لحظة واحدة سمعتها وسعادتها .

وحدثني من أتق به أن كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهداً أمام أصدقائهن على أن يكنّ لهم بعد الزواج ، أي بعد أن يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها . وقبلما تزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت عليه ليلة البناء بها أو صبيحتها كتبّ الوشاية بها والسعاية من الأشخاص الذين أحببتهم وأخلصت إليهم ، فانتهى أمرها في حياتها الجليدة بالشقاء والعار .

نحن في حاجة إلى أن نعلم بناتنا ؛ لأننا لا نريد أن يعشن جاهلات متأخرات ، فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفسدون ليستطعن أن يختلن إلى مدارسهن آمنات مطمئنات على أنفسهن وأعراضهن ، ولا تزعجهن بفضولكم وإسفافكم ، فإننا لم نبعث بهن في تلك السبيل ليُفسدن شرفهن وعفتن ؛ بل ليضعن إلى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العقل والعلم .

أفسحوا الطريق لهن ، وللعاملة الخارجة في طلب رزقها ، والأرملة المستزقة لبنيتها ، والفقيرة العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها ، والذاهبة لصلّة رحمها ، والسائرة لزيارة قبر فقيدتها ، ولا تكونوا حجر عثرة في سبيل حرية المرأة وعملها واضطرابها في مذاهب الأرض سعيًا وراء رزقها وقضاء حقوقها ، فإن أيتّم عليها ذلك فاعتزفوا أنكم أعداؤها الألداء المتوحشون ؛ لأنكم تأبون عليها إلا إحدى الخطيتين القاتلتين : إما الجهل الدائم أو السقوط العظيم .

الفضيلة الفضيلة أيها القوم ! فهي العزاء الوحيد لهذه الأمة المسكينة عن جميع آلامها ومصائبها ،

شريفة طاهرة تجدوا فيها بعد قليل من الزمان خير زوجة للزوج ، وخير أم للولد ، وخير سيدة للمنزل .

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلاً ؛ لتستطيعوا أن تجدوها غداً زوجة طاهرة شريفة في منازلكم ، بدلاً من أن تجدوها فتاة ساقطة מזدراة مطرحة على أعتاب المواخير والحانات .

لا تزعموا بعد اليوم أنكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحات شريفات ، يحفظن لكم أعراضكم ويحرسن سعادتكم وسعادة منازلكم ؛ فتلك جنابة أنفسكم ، وثمرة ما غرست أيديكم ، ولو أنكم حفظتم لهن ماضيهم ؛ لحفظن لكم حاضرهم ومستقبلهم ، ولكنكم أفسدتموهن وقتلتم نفوسهن ، ففقدتموهن عند حاجتكم إليهن .

إنني لا أفرغ في أمركم إلى القانون ؛ فالقانون في هذا البلد مدني لا أدبي ، ولا إلى الحكومة ؛ فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها ؛ ولا إلى الدين فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم ؛ ولا إلى آباءكم وأولياء أموركم ؛ فقد عجزوا عنكم وأصبحوا ييكون مع الباكين عليكم ؛ بل أفرغ في أمركم إلى ضمايركم التي هي الأمل الباقي لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم ، فاصغوا إلى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه إليكم ، وصوت الضمير أقوى من كل صوت في العالم .

أصغوا إليه تسمعوه يقول لكم إن هؤلاء الفتيات اللواتي لا تستحيون أن تمدوا إليهن أعينكم وأيديكم إنما هن أخواتكم الحميمات يجمعكم ولباهن أب واحد وهو النيل ، وأم واحدة وهي البلد ، وشرف الإخوة هو الملجأ الأمين لأعراض الأخوات .

يجب ألا يفتح قلب الفتاة لأحد من الناس قبل أن يفتح لزوجها ؛ لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هاتمة لا ينقصها ذكرى الماضي ، ولا تختلط في مخيلتها الصور والألوان ، ولا أعرف فتاة في هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط ، فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف .

وتراث مرازيته ودهاقينه ، وعمر لاه عن نفسه سرورا
بما سمع وفرحا بما تم .

وذكرت صلاح الدين وهو يقود الجحفل
الجب ، والجيش العرمم ، إلى حيث يستنقذ الثغور
ويستخلص الأمصار ، ويخوض جمرة الحرب المتأججة
ليفتردي بنفسه أجساما إن لم تلتهمها النيران فكأن
قد ، وذكرت محمدا الفاخ وهو يلعب بكرة الأرض
لعب الصبي بكرته ، ويخترق بسفائن البحر رمال
القفر ، حتى نزل بالقسطنطينية نزول القضاء من
السماء ، وسجد في معبد آيا صوفيا سجدة الشكر لله
على نعمته وحسن توفيقه ، وذكرت صقر قريش وقد
طار بمفرده من الشرق إلى الغرب ، فأنشأ وحده دولة
خضعت لها إفريقيا وبعض أوروبا . وذكرت مع أبطال
الحرب أبطال السلم ، فذكرت عمر بن عبد العزيز
وعدله ، والمأمون وفضله ، والغزالي وحكمته ، وابن
رشد وفلسفته ، ومعاوية وسياسته ، وعبد الملك
وكياسته ، وذكرت مدارس بغداد وبخارى
والإسكندرية والقاهرة وغرناطة وأشبيلية وقرطبة ،
وذكرت مترجمي كتب أفليدس وبطليموس وأرسطو ،
و واضعي علوم الجبر والمقابلة والكيمياء ، وذكرت
مخترعي البندول والبوصلة « بيت الإبرة » والساعة
الدقيقة التي أهداها الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا
ففرغ منها سامعوها فرعا شديدا وسموها شيطاناً رجيماً
أو آلة سحرية أو مكيدة عربية ، إلى كثير من أمثال
هذه الآثار العربية والمفاخر الإسلامية .

ثم ذكرت الإسلام إذ ضربه الدهر بضرباته ورماه
بنكباته فأصبح أثراً من الآثار ، أو خبراً من الأخبار ،
وعليلاً حار فيه أطباؤه ، ومله عواده ، وظل متراوفاً
بين داهيتين ، ومترجفاً بين غائتين : إما أن يموت
موتة أبدية وبالله العباد ، أو يحيا حياة مادية لا حياة
أدبية ، وينهض جامعة تجارية لا جامعة إسلامية ، ما
دامت المادة قاعدة الحكومات عدوة الأديان ، وما
دامت الأديان لا تبلغ غايتها إلا في فضاء من الحرية
لا يبلغ البصر أطرافه . لذلك أحزنني عند سماع
خطبة الخطيب ما يحزن الأسيب من ذكرى الشباب
إذا عشر بين أوراقه البالية على رسائل الحب وأناشيد

والأمل الباقي لها إن ضاعت - لا قدر الله - جميع
آمالها وأمانيتها ، والشرف الشرف ، فربما جاء يوم لا
يبقى لنا فيه شيء سواه .

* * *

المؤتمر الإسلامي

سرني منظر ذلك الرجل ^(١) العظيم والداعي
الكريم ، وهو قادم إلى مصر يتخطى البلدان ويطوي
الغبراء طي الكواكب الخضراء ، يقوده الأمل
ويسوقه الرجاء ، وبين جنبه همة عالية ونفس كبيرة
وقلب مشيع وفؤاد في الأفئدة كالنسر في الطير ،
يخلق في جو الإسلام تخليق من يحاول أن يظلمه
بجناحيه .

سرني منظره وإن لم أره وهو قائم بين جماعة
المسلمين يحاول أن يرأب صدعهم ، ويلم شعثهم ،
ويجمع كلمتهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويدعو إلى
الله تعالى دعوة النبوة الأولى ، إلا أن تلك عربية
تدعو الأعجمية ، وهذه أعجمية تدعو العربية
الفصحى .

هنا ذكرت الإسلام ومجده ، والإسلام وجنده ،
والإسلام ودولته ، والإسلام وصولته ، وذكرت أبا بكر
وهو يقاتل أهل الردة ويقول : « والله لو منعوني عقلاً
بعير لقاتلتهم عليه . » وذكرت عمر وهو واقف في
مرايض المدينة في حمارة القيط يستقبل شبحاً أسود
يرفعه الآل ويخفضه ، ويديه الأديم ويخفيه ، حتى
اقترب منه فبينه ، فإذا هو أعرابي قادم من سواد
العراق ، فجعل يسايره وهو راجل ، والأعرابي راكب
لا يعرفه ، وجعل يسأله ما فعل الله بسعد وجنده ،
فيحدثه القدام عن فتح القادسية والملدائن ، وما أفاء
الله به على المسلمين من عرش كسرى وذخائر

(١) كتبت بمناسبة حضور المصلح الإسلامي الشهير إسماعيل بك
غصيرنسكي الروسي إلى مصر سنة ١٩٠٨ للدعوة إلى مؤتمر
إسلامي عام .

وليتنا إذ أخذنا جاهليتهم أخذناها كما هي رذائل وفضائل فيهن على المصلحين أمرها ، ولكننا أسأنا الاختيار ، فلنا خرافاتهم الدينية ، وأدواؤهم الاجتماعية ، وليس لنا كرمهم وفأؤهم ، وغيرتهم وحميتهم ، وعزتهم ومنعتهم ، فكيف لا يكون الأمر خطيراً ، وكيف لا تكون الجاهلية الأخرى أحوج إلى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الأولى .

نبئني عن الإسلام أين مستقره ومكانه ، وأين مسلكه ومضطربه ، وفي أي موطن من المواطن حل ، ومعهد من المعاهد نزل ؟

أ في الحانات والمواخير التي ينص بها الفضاء ، وتتن منها الأرض والسماء ، والتي ينتهك فيها المسلمون حرمات دينهم بلا خجل ولا حياء ، وكأنما هم يشربون الماء الزلال ، ويفشون البضع الحلال ، ولقد هان عليهم أمر أنفسهم حتى لو وجلوا بينهم من يرى البقيا في عمله أو التجميل في أمره سموه جباناً جامداً ، أو متكلفاً بارداً ، كل ذلك على مرأى ومسمع من الحكومة الإسلامية والمعاهد الدينية والقضاة الشرعي والنظامي ؟

أم في حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح والغبن الفاحش ، مزخرفاً بالأقوال الكاذبة ، والأيمان الباطلة ؟

أم في مجالس الأحكام حيث للدينار الأحمر السلطان الأكبر على سلطان العدل وسلطان الذمة وسلطان الشرائع ، اللهم إلا ما كان من تلك الألواح المكتوب فيها : (العدل أساس الملك) أو : (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ؟

أم في المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كانت الفترة بين الصلاتين مائة عام ، وكانت تلك الأعوام مملوءة بالآثام والجرائم ، والمفاسد والمظالم ، لكفت تلك الحركات التي يسمونها صلوات ، ويحسبونها حسنات ، لغفران تلك السيئات ؟

أم في معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسماً بلاروح ، وعلماً بلا عمل ، كأنما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الدائرة ، أو أحد الأديان

الغرام ، وأمضئي ما يمض العاشق المفارق ، إذا مر بالآثار ، وأطلال الديار ، فرأى النؤي والأحجار ، وموقد النار ، ومجال الخيول ، ومجرّ الذبول ، فذكر ما كان ناسياً ، وهاج من وجده ما كان كامناً ، فبكى واستعبر :

وودّ بجذع الأنف لو عاد عهدهما

وعاد له فيها مصيف ومريح

* * *

الجاهليتان

ليست الجاهلية الأولى بأحوج إلى الإصلاح الديني من الجاهلية الأخرى ، بل ربما كانت هذه أحوج من تلك إليه .

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها إلى الله زُلْفى ، وجاهليتنا تعبد الأحجار والأشجار ، والأحياء والأموات ، والأبواب والكوى ، والقواعد والأعمدة ، تبركاً أو تقرباً ، لفظان مترادفان ، مختلفان لفظاً ، متفقان معنى ، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه .

كانت الجاهلية الأولى متفرقة قبائل وشعوباً ، وجاهليتنا متفرقة منازل وبيوتاً ، بل آحاداً وأفراداً ، فلا تراحم ولا تواصل ، ولا تعارف ولا تعاطف ، حتى بين الأخ وأخيه ، والأب وبنيه .

كانت جاهليتهم تسفك الدماء في طلاب الأوثان ، وجاهليتنا تسفكها في سبيل السرقات وقضاء الشهوات . وكان أفظع ما في جرائمهم وأد البنات ، فصار أخف ما في جرائمنا الانتحار . وكان بعضهم يبغى على بعض بسرقة ماله ، أو استياق ماشيته ، ففعلنا مثل ما فعلوا وفوق ما فعلوا ، ثم فضلناهم بعد ذلك بتزوير الأوراق وتزوير الصكوك وتقليد الأختام والبراعة في النصب والاحتيال ، يكاد يستوي في ذلك العالم والجاهل والشريف الهاشمي والفلاح القروي .

هل يستطيع المصلحون أن يكونوا كذلك ليصلحوا في الآخرين ما أصلح المصلحون في الأولين ؟

« لست أدري ولا المنجم يدري »

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

* * *

في أكواخ الفقراء (مترجمة)

مضى الليل إلا قليلاً ، والظلام مخيم على الكون بأجمعه ، والكواكب ملتفة بأردية السحب ، ما يستشف منها الناظر بصيصاً ولا قبساً ، والقضاء بحر مترامي الأرجاء إلا أنه ساكن الصفحة ، جامد الحركة ، يقصر فيه قابُ العين ، وتضل في تيهه أشعة النظر حتى عن نفسها ، والغيوث منهلة متواصلة تهجم بقوة واحدة ، وقوام واحد ، لا تغزُر ولا ترقُ ، ولا تلتف خيوطها ، ولا تختلف نغمتها ، كأنما هي شباك ممتدة بين السماء والأرض ، وكوخ السماك «فيليب» جاثم في مجمله بين الأكواخ المحيطة به لا يرى فيه الداخل غير مصباح ضئيل يجاهد ذبائله جهاداً شديداً في تمزيق قطع الظلام المتكاثفة حولها ، ومجمرة هامة قد خبت نارها إلا بقايا جمرات شاحبات قد التفت بأكفانها البيضاء . وأخذت طريقها في مدرجة الفناء ، وقد يرى الناظر على ضوء ذلك المصباح الضئيل بضع شباك ومناوِد معلقة بالجدران كأنها الأشباح الماثلة ، ومنضدة عارية قد نُشرت فوقها بضع أوان نحاسية تلمع لمعاناً ضعيفاً في ذلك الحندس كأنها عيون الجنادب . فإذا دار الواقف بنظره حوله رأى حشية مطرحة على الأرض قد اضطجع فوقها ثلاثة أطفال متلاصقين أخذ بعضهم بأعناق بعض ، كما تتأخذ الأفراخ في أعشاشها ، وكما يضم الخوف الضلوع إلى الضلوع .

الغابرة ، وحيث يتلقون كشكولاً عجيباً ، وخلقاً غريباً من الأكاذيب والترهات ، فلا تكاد تسمع من أفواههم إلا حديثاً موضوعاً ، أو قولاً مصنوعاً ، أو خرافة تاريخية ، أو بدعة دينية ، وحيث يقضون حياتهم في المناظرات والمجادلات ، والتحاسد والتباغض ، والتقاطع والتدابير ، وهي بعينها الأخلاق والردائل التي ما جاءت الأديان إلا لمحاربتها والقضاء عليها ، فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون ، ويسيثون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟

أم في مجالس المتصوفة حيث الألعاب الجمبازية ، والحركات البهلوانية ، والسرقات باسم العادات ، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات ؟

إن أراد المصلحون لأنفسهم نجاحاً وللإسلام صلاحاً ، فليبدعوا عملهم بتهديب العقائد الدينية وتربية النشء الحديث تربية إسلامية لا تربية مادية ، أي أنهم يدخلون إلى الإصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة ، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلاح حالهم ومآلهم ، ودنياهم وآخرتهم ، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب ، والمعلم والمهذب . والإسلام وإن كان دين العقل والفطرة والتهديب والإصلاح إلا أن الخطر كل الخطر على المسلمين أن يكون في نظرهم تابعا للعقل وأن يكون العقل هو الحكم بينهم وبينه ، والخير في أن يكون الدين حاكما ، والعقل مُفسراً ومُبيناً ، فإذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة ، والحكمة والسياسة ، فقد تم لهم كل شيء ، وتم للمسلمين ما يريدونه من هذا الباب نفسه ، وفي هذا الطريق المستقيم . فهل يستطيع دعاة الإصلاح في الجاهلية الأخرى أن يكونوا كدعائه في الجاهلية الأولى ، وهل يستطيعون أن يخلصوا لله في عملهم جادين مثابرين لا تأخذهم فيه هواة ولا عنه سينة ، وألا يرى أحدهم لنفسه على أخيه فضلا إلا بالإيمان والتقوى ، وأن يرى كل منهم نفسه بمنزلة المجاهد في سبيل الله ، يتحمل الأذى ويستسهل الوعر ويحمل الكريهة ، لا يجعل لليأس إلى قلبه سبيلا ، ولا للهوان على نفسه سلطانا ؟

للأسماك التي كانوا يظنون منذ ساعة أنها ستصبح طعاما لهم .

« هنالك يأتينا نعيهم فنبكي ونندب ونهرع إلى الشاطئ واليهين مدلهين ، ونقف أمام ذلك العالم المجهول الغامض صائحين : أن رد إلينا أيها الوحش المفترس بعولتنا وأولادنا وأفلاذ أكبادنا ، أو تكشف عن نفسك قليلا علنا نرى جشهم في قاعك ، فلا نسمع مليكاً ولا مجيئاً ».

وهنا هدأت الزوينة قليلاً وخفتت أصوات الرياح ، فسكن بعض ما بها ، ونهضت من مكانها فتناولت المصباح وفتحت باب الكوخ وقبّلت وجهها في أفق السماء لترى كم بقي بينها وبين الصباح . وكان الظلام لم يزل حالكا والمطر لم يزل متدفكاً فمدت يدها بالمصباح أمامها لترى هل من مقبل يتقدم أو شيخ يتحرك ، فلم يقع نوره إلا على كوخ بعيد منفرد لا نور فيه ولا حركة ، فتذكرت حينما وقع عليه نظرها أنه كوخ تلك الأرملة المسكينة «جانت» التي مات زوجها غريقاً منذ بضعة شهور وخلف لها أطفالاً صغاراً ، تقاسي الآلام الشداد والأهوال العظام في تدبير عيشتهم وتقويم أودهم . فمرّ بخاطرهما أن تزورها وتتعرّف حالها ، لأنها كانت تعلم أنها مريضة مدنفّة وأنها كابدت ليلة أمس من دائها عناءً عظيماً ، وأقرب ما تكون النفوس إلى النفوس إذا جمعتها في صعيد واحد وهموم الحياة وآلامها . فأخذت طريقها إلى ذلك الكوخ حتى بلغت ، فوقفت على بابهِ وقرعته مراراً كثيرة فلم يرد عليها أحد ، فدفعته ففتحت فدخلت رافعةً مصباحها بيدها فأثار لها ما حولها ، فرأت بين يديها للنظرة الأولى ما أرعد فرائصها واستوقفت دقات قلبها وأمسك الدم عن جريانه في عروقها .

رأت الكوخ يهتز ويضطرب في أيدي الرياح المتناوذة ، ورأت مياه الأمطار تسيل من سقفه الواهي الأخرق فتبيل كل شيء فيه ، ورأت فراشاً قذراً من القش قد رقدت فوقه الأرملة «جانت» رقدة ساكنة جامدة لا حس فيها ولا حركة ، فندت منها فإذا هي ميتة ، وإذا قطرات من الماء تنحدر على جبينها ورأسها

وعلى مقربة من فراشهم امرأة صفراء شاحبة جاثية على ركبتيها تصلي وتدعو الله تعالى بصوت خافت متهافت أن يرد لها زوجها سالماً . وكان قد خرج كمادته لصيد السمك من البحر فلم يعد حتى الساعة .

وإنها لذلك إذ هبت الزوينة هبوباً عظيماً فاهتزت لها جوانب الكوخ اهتزازاً شديداً وأن وقعها الأطفال في لفائف أغطيتهم فطار قلبها فزعاً ورعباً ، وخيل إليها أن هدير الأمواج ودمدمة العود وزفيف الرياح وقعقة السقوف والجدران ، إنما هي تذرّ السوء تُنذرها بمصير زوجها المسكين في أعماق ذلك الأوقيانوس العظيم ، فظلت تردد بينها وبين نفسها : « ربّ إني باتسة مسكينة لا سند لي ولا عضد ، وإن هؤلاء الأطفال الصغار عاجزون لا يستطيعون أن يقننوا أنفسهم ، ولا أن يعتمدوا على حولهم وحيلتهم في شؤون حياتهم ، فاحفظ لي ولهم حياة ذلك الرجل المسكين الذي أسلم أمره إليك ، وأودع حياته بين يديك ، وخرج في طلب الرزق من عندك ليعود به على هذه الأسرة الفقيرة المعدمة ، فلم يعد حتى الساعة ، ولا ندري ما فعلت به يد الأقدار .

« ما أعظم يؤسنا وشقائنا نساء الصيادين وأولادهم !

« إنهم يتركوننا وحدنا في هذه الأكواخ الموحشة ويذهبون لطلب العيش في ذلك التيه العظيم الذي لا نهاية لعمقه ولا حدّ لاتساعه ولا عاصم من مخاطره ، ويحاولون انتزاع رزقهم من بين ماضي تلك الأمواج المؤتبة الفاغرة أفواها كالذئاب الجائعة تحاول التهام كل ما يدنو منها . ولعل القدر الذي نخشاه عليهم في هذه الساعة قد نزل بهم ، فلم تغن عنهم شيئاً تلك الألواح الخشبية الرقيقة التي يسمونها زوارق . ولعلمهم لبثوا ساعات طوالاً يصارعون الأمواج وتصارعهم حتى غلبتهم على أمرهم ، فداروا بأعينهم من حولهم ليفتشوا عن زوارقهم المتقلبة ، فلم يروا منها إلا بقاياها المتطايرة في أيدي الرياح فحاولوا أن يسبحوا إليها فأفلتت من أيديهم ، فنال منهم العياء فهروا إلى ذلك القاع العميق ليصبحوا فيه طعاماً

ثم نهضت ومشيت إلى مكان الطفلين وانحنيت عليهما وحملتهما يرفق وسكون وسارت بهما حتى بلغت كوخها فوضعتهما بجانب طفليها وأسبلت عليهما جميعاً رداءً واحداً .

ثم جلست بجانبهم تقول بينها وبين نفسها : « لا أدري أ أصبت فيما فعلت أم أخطأت ، وإنما أدري أن المرأة التي أودع الله قلبها شعور الأمومة ورحمتها لا تستطيع أن ترى طفلين طريحين على فراشهما ، في كوخ عار من كل شيء إلا جثة أمهما ، ثم تتركهما وشأنهما دون أن تعلم ما مصيرهما بعد ذلك .

« إن المنظر الذي رأيته ما كان ليسمح لي بالتفكير في نتيجة العمل الذي أعمله ، فإن تبين لي بعد ذلك أنني مخطئة ، فليس معنى هذا أنني كنت أستطيع تجنب الوقوع في هذا الخطأ ، لأن قلبي من لحم ودم ، لا من فولاذ وصوان .

« نعم إن زوجي فقير ، وإن طفلي لا يكادان يشبعان من الخبز ، وإن عناءنا في تربية أربعة أطفال سيكون ضعف عنائنا في تربية طفلين ، ولكن لا يجوز لنا ضمناً براحة أنفسنا أن نترك طفلين صغيرين يموتان على مرأى منا ومسمع برداً وجوعاً .

« ذلك ما سأقوله لزوجي عند رجوعه ، وما أحسبه قاسياً ولا متوحشاً ، فينقم عليّ قلماتي هذه ويأمرني بإلقائهما خارج الباب .

ثم وقفت عن الكلام فجأة لأنها سمعت صرير الباب وهو يدور على عقبه فارتعدت ، ثم علمت أنها الريح ، فأطرقت برأسها ساعة ذهبت فيها بتصوراتها وأفكارها كل مذهب فبكت وضحكت ، وغضبت ورضيت ، وأملت وشتت ، ورحمت وقست ، وحمدت فعلتها وندمت عليها ، وأحسن الظن بزوجها وأساءته به . وظل فؤادها نهياً مقسماً في يد الهموم والأفكار حتى شمرت بسواد يتقدم نحوها ، فاستطير قلبها خوفاً ورعباً ، وانتبعت فإذا زوجها داخل يحمل شيكته وأعواده على ظهره والماء يقطر منها فنهضت إليه وعانقته ، ثم ألقت نظرها على وجهه

وغطاها البالي الممزق ، فوقفت أمام هذا المنظر المخيف المرعب ذاهلة مشدوهة ثم صاحت :

« هذه نهاية الفقراء على ظهر الأرض ، وهذا مصيرهم الذي يصيرون إليه بعد جهادهم في سبيل الحياة زمناً طويلاً .

« إنهم يعيشون في هذا العالم مجهولين مغمورين ، لا يعرفهم أحد ثم يخرجون منه متسللين متلاوذين لا يشعر بخروجهم أحد ، حتى أهلهم وذوو أرحامهم .

« ما يدريني ألا يكون مصيري ومصير أولادي غداً هذا المصير الذي أراه الآن ، وقد لا تدخل علينا في تلك الساعة جارة مثلي ترانا وترثي لحالنا كما أرثي الآن لحال هؤلاء المساكين !»

ثم خلعت رداءها فأسبلته على جثة الميتة ودارت بمصباحها في أنحاء الغرفة ، فرأت طفليها الصغيرين نائمين على فراشهما وجهاً لوجه وعلى ثغر كل منهما ابتسامة صغيرة كأن شيخ الموت الهائم حول مضجعهما لا يخيفهما ولا يزعج سكونهما . ورأت رداء أمهما ، وكانت تعرفه قبل اليوم مسبلاً على جسمهما ، فخيل إليها أنها ترى منظر تلك المرأة المسكينة قبل ساعة أو ساعتين وهي تعالج في فراشها سكرات الموت ، ثم تلتفت من حين إلى حين إلى طفليها النائمين والمطر يتساقط عليهما والبرد يعبث بأعضائهما ، فتشفق عليهما وترثي لهما حتى ضاقت بها ساحة الصبر فخلعت عنها رداءها وهي أحوج ما تكون إليه وألقت عليهما ثم ألقت بنفسها على فراشها وأسلمت روحها .

وقفت « ماري » أمام هذه المناظر المؤلمة ، والريح تنن أنين الواهين المتسللين ، والموج يعج عجيج أجراس الموت وقطرات الماء تنحدر من جبين الميتة إلى خديها الشاحبين كأنما هي تذرف دموع الحزن على فراق ولديها . وكان الفجر قد أخذ يمسح عن وجهه صبغة الظلام ويرسل بعض أشعته في جوانب الكوخ فأطفأت المصباح الذي بيدها ووضعت جانبا ، ثم جثت بجانب الميتة وصلّت لها ما شاء الله أن تفعل ،

ثم التفت إلى زوجته وقال لها: «إنني متألم جداً يا مدلين، ويخيل إليّ أن روح تلك المرأة المسكينة واقفة الآن أمام هذا الباب تقرعه، وتصرع إلينا أن نأخذ ولديها إلينا ونكفلهما من بعدها، ولكن كيف العمل يا إلهي؟»

فقال: «إنني أكاد أسمع هذا الصوت الذي تسمعه يا فيليب وإن ألمي عظيم كألمك.»

فصمت هنيهة، ثم انتفض انتفاضة شديدة ودنا منها وقال لها: «ألم يمت لنا طفلان في العامين الماضيين يا مادلين؟» قالت: «بلى» قال: «ماذا كنا نصنع لو أنهما بقيا حين حتى اليوم؟» قالت: «لا شيء سوى أننا نفرع إلى الله في أمرهما.» قال: «فلنفرع إلى الله في أمر هذين الطفلين اليتيمين، وكان ولدينا بقيا حين حتى اليوم، أو كأنهما بعثا من قبرهما بعد موتهما.»

«اذهبي إليهما يا مدلين وأحضريهما، فربما استيقظا بعد هنيهة من نومهما، فربما ينظر أمهما الميتة في فراشها فماتا خوفاً ورعباً.»

«اذهبي إليهما وأحمليهما برفق وهدوء دون أن توقظيهما وأضحيهما على فراش ولدينا، فسيكون منظرهم جميعاً غريباً جداً حينما يستيقظون من نومهم وينظر بعضهم في وجوه بعض، وحرام عليّ النبذ واللحم بعد اليوم حتى أستطيع أن أقوم بنفقة هذه الأسرة الكبيرة التي أصبحت سيدها وعائلها. اذهبي يا مادلين ونقي أن الله سيملاً علينا بيتنا خبزاً وفحماً ببركة هؤلاء الأطفال الطاهرين.»

فتهلل وجهها بشراً وسروراً، ونهضت من مكانها ومشيت إلى مضجع الأطفال فرفعت عنهم الغطاء ونظرت إلى زوجها صامتة لا تقول شيئاً، فما إن وقع نظر فيليب على هذا المنظر الغريب حتى استطير فرحاً وسروراً، وهرع إلى زوجته واحتضنها إلى صدره، وقال لها: «ما أشرف قلبك يا مادلين!»

يا سكان القصور، ليتكم من سكان الأكواخ لتستطيعوا أن تكونوا من المحسنين!

* * *

فأنكرت شحوبه وتضعضه كما أنكر ذلك من وجهها حين رآها، وسألته كيف كان حظه الليلة، وماذا كان شأنه مع العاصفة، فألقى بشباكه وقصبه على الأرض وظل يقول: «أما الليلة فكانت مزعجة جداً لم أر في حياتي مثلاً، وأما الصيد فما هي يدي صفر منه كما ترين، ولولا رحمة الله بي وبكم لهلكت، وما أنا بأسف على شيء ما دمت أراكم بخير. كيف حال الولدين؟» فارتعشت وقالت: «هما بخير.» قال: «ما لي أراك شاحبة صفراء، وكيف قضيت ليلتك؟» فأطرقت برأسها وقالت: «قضيتها في خياطة قميصين للولدين، وكنت كلما سمعت صوت العاصفة وهدير الأمواج خفت عليك، أما الآن فقد زال كل شيء والحمد لله.» ثم نظرت إليه وبين شفيتها كلمة تحاول أن تنطق بها فلا تستطيع، ثم استنصرت جلدتها وقوتها وقالت: «وشيء آخر أحزنتني جداً.» قال: «وما هو؟» قالت: «قد علمت الساعة قبل رجوعك بقليل أن جارتنا «جان» توفيت، وأن ولديها الصغيرين قد أصبحا وحيدين في هذا العالم لا عائل لهما.»

فاضطرب عند سماع هذه الكلمة ونهض من مكانه وتمشى قليلاً، ثم ألقى بقبعته المبللة بالماء على سريره، وظل يعبث بشعر رأسه فيشده أحياناً ويمسحه أخرى، وهي تتبعه بنظراتها لتقرأ صورة نفسه على وجهه، ثم جلس على المنضدة الممتدة في وسط الكوخ وظل يقول بينه وبين نفسه بصوت ضعيف متهدج:

«ربّ إني وإن كنت رجلاً جاهلاً فدماً وليس في استطاعتي أن أفهم حكمتك في حرمان هذين الولدين البائسين من أمهما إلا أنني لا أستطيع أن أنكر وجودهما، ولعل الذين يعلمون أكثر مما أعلم يفهمون من شؤونك وتصرفاتك أكثر مما أفهم.»

«نعم إنني فقير مسكين أعيش تحت رحمة المصادفات والاتفاقات، وربما مرّ عليّ وعلى أولادي عدة أيام لا نجد فيها ما نأكل به، ولكن ماذا أصنع وقلبي يتألم لحال هذين اليتيمين الصغيرين أكثر مما يتألم من الجوع والسغب.»

الشيخ محمد عبده بين العلماء

ابتلي عظيم من العظماء في أمته كما ابتلي في هذه الأمة هذا الرجل العظيم الذي نظر إليها نظر الطبيب الحاذق إلى عليله ، فرأى بُعد ما بين سابقها ولاحقها وانقطاع ما بين حاضرها وماضيها ، فعلم أن داءها داء دوي وبلاءها بلاء عظيم ، ورأى أجزاء جسمها تتحلل إلى ذرات لم تتلاشى ، ورأى صفرة الموت تجول في وجهها ، وأغربة الفناء تخلق فوق رأسها وقد أوشكت أن تملأ الفضاء نعيًا ، فلم يكد يملك نفسه من البكاء على أمة ضربها الدهر بضرباته ورماتها وهي محلقة في سماء عزها ومجلها بسهم نقد ما بين جنبيها فهوت من مدار الأجرام ، إلى مقر الرغام ، تشكو فلا تجد مُشَكِّي ، وتستغيث فلا ترى مُغيثًا ولا مُعينًا ، فراحه من أمرها ما راحه وكاد ينقطع خيط الرجاء في قلبه ، لولا أن وهبه الله نفسًا قوية وعزيمة ثابتة وجنانًا لا تحوم حوله الأوهام ولا تأخذ منه نكبات الأيام وأودع ما بين جنبيه قلبًا مصوغًا من الشفقة والرحمة . فنظر في حال هذه الأمة البائسة نظر العاقل البصير ، وتلمس موضع دائها وسبب سقوطها ، فوجد أن داء أدوائها وعلة عللها إغفالها أمر دينها الذي عرفه سابقوها وعلقوا بحبله ، فكان سر ارتقايتهم وتقدمهم وعلوهم فوق علياء الأكاسرة والقيصرة وامتداد فتوحاتهم في قليل من السنين إلى ما لم تمتد إليه يد من قبل ، وأهملتها هي فودعها مجدها وفارقها عزها ووصلت إلى حيث تضرب بذلتها الأمثال ، وحيث أصبحت أكلة الأكليين ، ونهبة الطامعين ، وعلم - حفظه الله - أنه إن صلح لها دينها صلح لها كل شيء من آخرتها وأولها ، فأخذ نفسه بالدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة مخلصًا لله في عمله ، مستعينًا بحوله وقوته ، مصداقًا وعده في قوله سبحانه وتعالى :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلًا » ، وقوله

تعالى : « إن تصبروا لله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

هذا هو الشيخ محمد عبده وهذه هي مقاصده ومذاهبه ، فما الذي تتقنون منه أيها العلماء الأعلام ، كما يلتقيكم غرغواؤكم أر كما تلقون أنفسكم ؟

ما قام عظيم من العظماء في أمة جاهلة متأخرة يحاول إصلاح ما فسد من أمرها وعلاج ما عضل من دائها والأخذ بضيعيها والإنافة بها على اليقاع والنهوض بها من أرض الجمود والموت إلى سماء الحركة والحياة ، إلا انقسم أفرادها في شأنه قسمين ضرورة انقسامهم إلى أغبياء وأذكياء . ففريق وهو الأكثر عددًا وجهلًا والأقل إدراكًا وفهمًا أطلق الله نور عقله ، وأقام بين بصيرته وبين الحق حجابًا كثيفًا من الجهل والجمود يعترض نفاذها ويسد سبيلها ، فلا يزال نائمًا فوق قديمه نوم الشحيح على ماله كلما سمع نامة غريبة وأحس نبأه لم يعرفها من قبل فزع قلبه وطار طائر له وصباح صباح الممرور المختل : « قديمي قديمي » فلا يزال قديمه هذا قيدًا في رجليه يمنعهما من الحركة والانطلاق ، وسدًا في أذنيه يحجب عنهما نداء الحق ، وغشاوة في عينيه لا يرى من دونها غير الظلام المتكاثف ، وسلاحًا في يديه يحارب به ذلك المصلح الذي يريد به خيرًا مما يريد بنفسه ، وأتى له - بعد أن نال منه قديمه ما نال - أن يرى ويسمع فيعلم ما هذا الذي يدعى إليه أ خير هو أم شر . وفريق آخر وهو الأقل عددًا والأوفر ذكاءً وعقلًا يدعى إلى الحق فيجيب ، ويقاد إلى الخير فيتبع ، لم تفسده عصبية ، ولم تقعد به همجية ، ولم تضق به بصيرته أن يتبين عند بزوغ فجر الدعوة بياض الحق من سواد الباطل ، أولئك هم أعوان المصلح وأنصاره ، لا يزال الحرب سجالًا بينهم وبين أعدائهم حتى يصنع الله لهم فيقلب بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

وعظيم الأمة الإسلامية ومصلحها اليوم هو سيد العلماء وواحد الأتقياء ، الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية . وما من الله على الأمة في كثير من قرونها الماضية كما من عليها به اليوم ، ولا

وأعمالكم ، فلا أنتم في دنياكم تذكرون ، ولا أنتم في أخراكم تؤجرون . ولو أراد الله بكم خيرا لوفقكم إلى اتباع سبيله والاهتداء بهديه والتأدب بأدابه والتخلق بأخلاقه ، فهي ملاك السعادة ومناط العزة وملقى خيرى الدنيا والدين ، ولكنها الأقدار يسعد بها أقوام ويشقى بها آخرون ، ومن يضل الله فما له من هاد .

إنكم والله ما تتقون منه زيفاً في عقيدة ، ولا سعيًا في فساد كما تزعمون ، ولا يعنيكم حرم الربا أم حل ، ثبتت الشفاعة أم لم تثبت ، قام الدين أم قعد . فنحن أدرى منكم بكم ، وأعلم بمنزلة الدين والفضيلة من نفوسكم ، وإنما عز عليكم أن تروا بجانبكم رجلاً ثبت في تربتكم ودرج من عشكم واستقى من وردكم الذي منه استقيتم ، ثم ما لبثت الأيام أن دارت دورتها ، فإذا هو شمس تتلألأ في سماء المجد والشرف بما وهبه الله من علم واسع وبصيرة نافذة تكاد تخرق حجب الغيب ، ونفس سماوية محصتها الفضيلة فلم تعلق بها الرذائل ولا طارت حولها المفاصد والأطماع ، وذكر بعيد تردده الأقطار ، وتتهاداه الأمصار ، وجلال تطاطى له الهامات وتغضي من مهابته الأبصار ، وحج مبرح تتعقد عليه قلوب الملايين من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وإذا أنتم لا تزالون في أرض خمولكم لاصقين بها لصوق الحسد بصدوركم ، فتقل جواره عليكم ، وألهب منظره نار الغل والحقد في أفئدتكم ، حتى لوددت لو افتديتم أنفسكم من جواره بجوار مالك في الجحيم ، وقد فعلتم !

* * *

عواطف البنين

أنا لا أعجب لشيء عجيب لهذا الإنسان الذي يغضب الغضب كله إذا أحس أن مخادعاً يخدعه في شأن من شؤونه ، وهو يخدع نفسه بنفسه في جميع

وما هذه الضجة التي سددتم بها منافذ القضاء ؟ وما هذه الثائرة التي طمستم بها وجه السماء ؟ وما هذه النار التي تتأجج في صدوركم من البغضاء ؟ ومتى كان عهدكم بلعن فرعون و هامان قتلعتوا رجلاً هو أصدقكم إيماناً وأثبتكم يقيناً وأكرمكم خلقاً وأعلاكم همة وأشرفكم نفساً وأعفكم لساناً ويداً وخيركم لنفسه وللناس ؟ أنسيتم يوم «هانوتو» ، يوم وقف أمامه وقوف الشجاع المستبسل ، يدود عن دينه ودينكم ، ويناضل دونه حتى قهر قرنه وأطفأ فتنة كادت تحترق في نار شبهاتها ألوف من المسلمين ، وأنتم صامتون مستسلمون لا تحيرون جواباً ؟ أنسيتم كتابه «الإسلام والتصرانية» الذي انتصف به للإسلام من أعدائه فرضي به الله والمسلمون ، وخرست به ألسنة الجاحدين المتخربين ؟ أنسيتم « رسالة التوحيد » التي أظهر فيها الدين الحنيفي جوهرًا خالصًا محصًا من شوائب البدع والخرافات التي شوهمت بها وجهه أنتم وأمثالكم ، فلما رآها مسيحي أوروبي قال : « إن كان الإسلام كما وصفه الشيخ محمد عبده في رسالته ، فأنا مسلم منذ اليوم لولا أنني أخاف أن يكون الرجل قد خدعنا ببلاغته ؟ » فقد عرف المسيحي الأعجمي من شأن الرسالة ما لم تعرفوا ، وأدرك من فضل صاحبها ما لم تدركوا . ومن قابل بين هذه القصة وقصة رسالة الرد على هانوتو يوم ذهب ناشرها بنسخ منها ليقدمها إلى مشيخة الأزهر ، فأبت قبولها بحجة أن كاتبها قد أثم باهتمامه بشأن الرد على رجل من القوم الكافرين ، ورأى منظرًا عجبًا ونادرة من أغرب النوادر ما رأى قبلها الراؤون ولا سجل مثلها في تواريخ الماضين . أنسيتم مقامه فيكم سنين عدة يعلمكم أخلاق العلماء ، وما يجب عليهم في عفة أيديهم وطهارة أنفسهم والعلو بأنفسهم عن مواطن الذل والضميم والنبو بها عن مظان الشبه والريب ، ويرشدكم كيف تؤدون وظيفتكم التي عهد الله بها إليكم ، والتي هي أوسع ميدانًا وأفسح مجالاً من جلستكم جلسة الذليل الضارع وراء أعمدتك الحجرية تختلفون إليها صباح مساء حتى تموتوا فتموت معكم آثاركم

ساعاته ولحظاته .

(٣) إن الذي يلد ولدًا في غير مهده يجني عليه جناية كبرى ؛ لأنه يرمي به في بحر زاهر لا يقوى على السباحة فيه ، ولا يرى حوله من يمد له يدًا لنجاة ، أو يسوق إليه زورقًا لخلاصه ، لأنه لا يعرف أحدًا ولا يعرفه أحد ، فهو إما أن يعيش طريد الهلاك ، أو يموت فريسة الأسماك .

(٤) لو علمت المرأة أن ساعات السرور التي تقضيها مع عشيقها ستقلب في مستقبل الأيام أعوام حزن عليها وعلى عشيرتها لما مشعت الوحدة في مضجعها ، ولا استوحشت لانفرادها في غرفتها ، ولا لذًا لها أن تطلب هذا الأُنس الكاذب والسرور الموهوم .

هذه عبرة الرواية وهذا مبلغ تأثيرها في النفوس ؛ فشكرًا للكاتب ما كتب وللمعرب ما عرب وللممثل ما مثل .

* * *

الرثوة

كان المرحوم الشيخ محمد عبده يقرأ في مسجد الأزهر درسًا عنوانه التفسير ، وحقيقته البحث في كل ما يتعلق بالمرء في حياته الآخرة والأولى . فكان الرجل في ذلك الدرس مفسرًا للقرآن وروايًا للحديث ، ومعلمًا واعظًا ، بل كان كل ما يستطيع امرؤ أن يكون .

ولقد حدثنا فيما كان يرويه لنا في دروسه من وقائع ومشاهد أنه ركب القطار في إحدى لياليه كعادته إلى بلدته « عين شمس » فلم يستقر به المقام في مجلسه من القطار حتى وقف أمامه شيخ معمم ملتصق ، فسأله ماذا يريد ، فقال له : « أنا يا سيدي من طلاب الامتحان في الأزهر ، وقد جئتكم أطلب إليكم أن تساعدني عليه . » قال : « إن كنت تريد أن أساعدك بمنع الظلم عنك فاعلم أنني لا أترك يدًا تمتد إليك بظلم . » قال : « يا سيدي أنا رجل فقير ،

حضرت تمثيل رواية « عواطف البنين » في دار التمثيل العربي ، وعرفت أن الشيخ سلامه ليس هو الكونت « دي موراي » ، وأن الممثلة « ميليا » ليست الكونتس زوجته ، وأنها لم تطرد من منزلها ولم تنتهم في عرضها ، ولم يمر بخاطرها الحزن على هجر زوجها أو فراق ابنتها ، وعرفت أن الممثلة « متميل » ليست فتاتهما ، وأن الهم لم يقسم فؤادها شطرين ؛ شطرًا لأبيها وشرطرًا لأمها ؛ ولكنني خدعت نفسي ورثيت لمصاب تلك الأسرة الكريمة وحزنت لحزنها حزنًا لم أملك معه دموعي التي طالما غلبتها في أخرج المواقف على أمرها حتى غلبتني في أهون المواقف على أمري .

إن نفسي أعز عليّ من كل شيء في هذه الحياة ، فهيهات أن أخدعها أو أصور لها من الوهم شيئًا يحزنها أو يخيلًا يبيكها ، وإنما خدعتني هؤلاء الممثلون البارعون ، فقد طاروا بي في فضاء الخيال وما زالوا يأخذون عليّ نظري حتى محوا صورهم الحقيقية من ذاكرتي ، فلم أر أمامي غير زوج حزين ، وزوجة مظلومة ، وفتاة تبكي على أبيها بكاء الحزين إثر الحزين .

الممثل البارع هو الذي يستطيع أن يتجرد من نفسه وأن يتقمص شخصًا غير شخصه حتى يكاد ينكره عارفوه ، وكذلك كان شأن هؤلاء الممثلين في رواية « عواطف البنين » ، فقد أجاد كل منهم تمثيل دوره المبحزن المؤثر ، وبلغ من الإحسان الغاية التي لا غاية وراءها ، حتى رأيت العيون شاخصة والأنفاس معلقة والدموع مرسلة ، وحتى خيل إليّ أنني أسمع خفقان القلوب بين الجوانح .

أما الرواية فإنها تشتمل على عبر كثيرة أذكر منها ما يأتي :

(١) لا يستطيع الإنسان أن يبلغ منزلة الوفاء إلا إذا لقي في هذا السبيل شقاء كثيرًا وعذابًا أليمًا .

(٢) المراتي يني بيته على شفير هار ، فلا يكون بينه وبين الانهيار إلا أن تهب عليه بعض العواصف الممجانحة .

زواه الله عني ، كما لا أعلم أي نظرت إلى زخرف هذه الحياة وزبرجها نظر المشتهي المتعني الذي يشتد في أثرها عدوك ويقتل نفسه وراءها صبراً ، ولقد مرت بي في كثير من أيامي الماضية ساعات كان لي فيها من الدالة على أصحاب هذا المصر وأربابه وذوي الجاه والسلطان فيه ما يملأ بيتي فضة وذهباً ، ورحاني عبيدك وخولا لو ابتغيت السبيل إلى ذلك ، فغافت كل ذلك نفسي ، ولا أكتفكم أي كنت أعالج من مجاهدة هذه الشهوات ومدافعتها ما يجب أن يعالجه كل من نشأ منشئ بين قوم شرهين طامعين . وكنت أحسب أنه قد انتشر لي بين الناس من الدكر بالعفة والشرف وإيلاء النفس ما يتلج به صدري وتطمئن إليه نفسي ، فلما رأيت من حال هذا الرجل أمس ما رأيت علمت أنه لا يزال يوجد في الناس من يظن بي ظن السوء ، ويتوهم أنني من سفلة الناس وجهلائهم الذين لا يطلبون الوظائف إلا ليرتشوا ، ولا يرتشون إلا ليظلموا .

« لقد مرت على هذه القصة سنون عدة ، والله يعلم أنني أصبحت لا أسمع بواقعة من وقائع الرشى التي اسودت بها رقعة الأرض واحمر لها وجه السماء إلا ذكرتها ، فأجيمُ وجوم الحزين المتألم ، وأنماسك تماسك المتجلد المتثبت ؛ إبقاء على مدامعي أن يستثيرها الحزن فيرسلها ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ! »

* * *

القضية المصرية

من مايو سنة ١٩٢١ إلى مارس سنة ١٩٢٢
العاصفة

إن قلبي يرتعد خوفاً ورفقاً ، أسمع قعقة في جوف السماء ، فهل هي نذير العاصفة التي يريد الله أن يرسلها علينا ؟ أرى الوجوه شاحبة والعيون

وانك لن تجد أحداً هو أحق بالإحسان مني . قال : « لو كنت طالب إحسان لما منعتك شيئاً مما أقدر عليه ، ولكنك على ما أظن تريد مني أمراً جلالاً ليس في استطاعتي أن أمنحك إياه ، ولو استطعت ما تركت أحداً يمكنك منه . إنك تريد أن أكون شاهد زور في قضيتك هذه ، وما كانت شهادة الزور في وجه من وجوها حسنة من الحسنات . إن في الأزهر خمسمائة طالب مثلك يتقدمون للامتحان ، فإن منحتك الشهادة من دونهم فأين العدل ، وإن منحتكم جميعاً فأين الامتحان ؟ »

وما إن وصل الشيخ من حديثه إلى هذا الحد حتى وصل القطار إلى المحطة ، فنزل وترك الرجل مكانه ، فما مشى إلا قليلاً حتى شعر بمشيته وراءه ، فالتفت إليه وقال له : « إنك قد فهمت كل ما يمكنني أن أقوله لك وكفى . » فاقترب منه وقال له : « إن معي هدية يا سيدي أريد أن أقدمها إليك وأن تتفضل بقبولها . » ففهم الشيخ غرضه وأراد العبث به فقال : « كم تريد أن تعطيني ؟ » قال : « ثلاثين جنيهًا . » قال : « ذلك قليل . » قال : « سأعطيك ثلاثين أخرى عن صاحب لي يريد منك ما أريده ، وأنت من القوم المحسنين . » وهنا غضب الشيخ غضبته المعروفة ونظر إلى الرجل شزراً ، وقال له : « يا شيخ ، إنني إن احتملت منك كل شيء ، فإنني لا أستطيع أن أحتمل من طالب من طلبة الشريعة الإسلامية أن يسمي الرشوة وفساد الذمة إحساناً وكرماً . » ثم حمل عليه بعصاه وضربه ضربة ولى من بعدها على عقبه إلى حيث لا مطمع في أوبته .

قص علينا الشيخ رحمه الله هذه القصة في درسه ، ولم يذكر لنا من شأن الرجل ولا من صفاته ما يدل عليه ، ثم أطرق برأسه واستمر على ذلك ساعة خيل لنا فيها أنه يكاتمتنا دمة تترقق في عينيه ، ثم رفع رأسه وأنشأ يتكلم بنغمة محزنة مؤثرة ما تركت في مكان المحاجر دمة إلا أسالتها ، وقال :

« لقد خضت غمرات هذه الحياة وما بلغت العشرين ، وما أنا قد نيفت اليوم على الخمسين ، ولا أعلم أنني طمعت في يوم من أيام حياتي في شيء مما

ويتهدم ولكنه قد تعب جداً ، ونال منه الجهد والنصب لأن الحمل ثقیل ولأن الهادمين من خصومه المصريين معترفون بالقوة الخارجية وقوتهم لا تفنى ، فهل تستطيع الأمة أن تمتد يدها إليه وتعينه على عمله الشاق ؟

هنالك قوتان هائلتان جداً : قوة العدو الخارج مستترة ، وقوة العدو الداخل ظاهرة ، وهما تعملان معا بنظام واحد وفكرة واحدة لغرض واحد ، هو أن تسلمنا أخراهما لأولاهما ، فلنتقدم نحوهما بقوة أعظم من قوتيهما شأنًا وأكبر خطراً وهي قوة العقيدة الراسخة والإيمان الثابت والثقة بالنفس والأمل الواسع والثبات على المبدأ ، نَظْفُرُ بهما ونقض عليهما ، فلا يبقى لهما عين ولا أثر .

إن الساسة الإنجليز يريدون أن يمزقوا شمل وحدتنا الوطنية التي بذلنا في سبيلها الشيء الكثير من ذات أنفسنا وذات أيدينا ؛ ليستثمروا شقاءنا وآلامنا ، فهل نسمح لهم بذلك !

لا ، فقد أصبحت الأمة غير الأمة والعقول غير العقول والأفهام غير الأفهام ، وليست هذه النهضة التي نهضناها اليوم ترديداً لأصوات القائلين ، أو تقليداً لحركات الناهضين ، أو فضلاً تشبيلياً ، أو لعبة بهلوانية ، وإنما هي عقيدة راسخة في النفس رسوخ الإيمان في نفوس المؤمنين ، فليطلبوا لهم مرتزقاً غير هذا المرتزق ، في سوق غير هذه السوق ، فما نحن بسلع تباع وتشتري ، ولا بمأدبة عامة يهوى إليها الغادون والرائحون .

إننا لم نجاهد يوم جاهدنا من أجلهم ، بل من أجل وطننا ، ولم نغنم في معاركنا التي أدرناها هذه الوحدة الشريفة ؛ لنضعها يوم نظفر بها في أيديهم يمزقون شملها ، ويشوهون صورتها ، ويلعبون بها لعب الصوالج بالأكبر .

محال أن نسمح لهم بها طائعين مختارين ، فهي حياتنا وروحنا وأئمن ما تملك أيدينا وخير ما استفدنا من جهادنا ، بل كل ما استفدناه منه ، وسنود عنها دَوْدَ الأم الرؤوم عن واحدتها ، والعداء العفيفة عن

حائرة والجهاء عابسة ، فهل شعر الناس بويل مقبل انقبضت له صدورهم واقتشعرت له جلودهم ؟

ما هذا المنظر المرعب المخيف ؟ ما هذه الضوضاء المرتفعة بالمجادلات والمناقشات في المجتمعات العامة والخاصة ؟ ومن هم هؤلاء الذين يتصارعون ويتجادبون ويغني بعضهم على بعض ؟ إن كانوا مصريين فويل لمصر وأهلها ومستقبل الحياة فيها بعد اليوم ، كذلك كان شأن الأمم البائدة في أدوار سقوطها واضمحلالها وفي ساعة وقوفها على حافة الهوة العميقة .

لقد ظننت في ساعة من ساعات حياتي أنني قد أمنت على مصر أبد الدهر ، وكان قلبي يستطير فرحاً كلما سمعت تلك (الجوقة) الموسيقية الجميلة تتغنى في أرجائها بنغمة واحدة وتوقيع واحد . وكنت أصغي إليها بسرور واهتباط إصغاء العاشق الولهان إلى تغريد الحمام المتزئمة فوق أفنانها ، ثم ما لبثت أن شعرت أن النغمة قد اختلفت ، والتوقيع قد اضطرب ، فذعرت وارتعبت ورفعت رأسي فإذا أنا في «بيزنطية» وإذا الناس جميعاً في كنيسة أيا صوفيا يتناقشون ويتجادلون جداراً شديداً في مسألة الطبيعة والطبيعتين ، وأبواب المدينة تقعقع تحت ضربات معاول العدو فلا يسمعون لها صوتاً .

كنا جميعاً وكان الشمل منتظماً ، وكان كل ما يعزينا عن بؤسنا وشقائنا منظر تلك الوحدة الجميلة التي كنا نُشرفُ على روضتها الزاهرة الغناء من نوافذ سجننا فتبهون علينا همومنا وآلامنا ، ولم يكن منظر في العالم أجمل ولا أبعد من منظر تلك الدموع الرقراقة التي كانت تتلألأ في عيوننا جميعاً ؛ لأنها كانت في الحقيقة دموع السرور والاعتباط بالتحادن واتفاقنا ووحدة كلمتنا وقوة جامعتنا .

لا تزال العاصفة تدوي وتعصف ، ولا يزال البناء يضطرب ويهتز ، فليت شعري هل يتماسك ويعود إلى سكونه واستقراره ، أم قدر له السقوط كما قدر لأمثاله من البنى في عهود التاريخ الغابرة ؟
ها هو ذا «سعد» يمسك البناء بيده أن يتداعى

خلقاً أهون على الله وعلى الناس منا .

* * *

حكم القوة

اكتبوا يا أنصار سعد عرائض الثقة به عشرات ومئات وألوفاً وعشرات الألوف ، فإن ذلك لا يجديكم نفعاً ولا يغني عنكم شيئاً لأن القوة أصدرت حكمها بأنكم من أنصار الحكومة وأوليائها .

ألفوا الوفود العظيمة من جميع مدنكم وقراكم وعزبيكم وكفوركم حتى يبلغ مجموع عددها ثلاثة عشر مليوناً وتسعمائة وتسعة وتسعين ألفاً ، فأنتم جميعاً حمقى لا قيمة لكم ، ولا عبرة برأيكم ، ولا يوجد فيكم عاقل ولا رشيد غير تلك الألف الواحدة التي تخلفت عنكم ، وانفصلت عن صفوفكم .

املأوا الأرض صراخاً وعويلًا بالشكوى من الاغتيات عليكم في أمركم الخاص بكم وبمستقبل حياتكم وحياة أولادكم وأحفادكم ، فإن رجلاً فضولياً من رجالكم لا شأن له ولا قيمة هو الذي عبث بعقولكم وأغراكم بهذا السخط والغضب والصراخ والعويل ، ولو أنه ترككم وشأنكم ؛ لاستحال بكاؤكم ضحكاً وابتهاجاً ، وخوفكم وقلقكم سكوناً وارتياحاً ، ولأسلمتم بلدكم إلى أعدائكم راضين مغتبطين .

اجمعوا جموعكم الهائلة في أي مكان تريدون ، واهتفوا بجميع ما يمر بخواطركم من أمانيتكم الوطنية ورغباتكم القومية حتى تبح أصواتكم وتنشق حلوقكم ؛ فأنتم في نظر الساسة الإنكليز لصوص مجرمون ، ما خرجتم مخرجكم هذا إلا لسرقة الحوائت ونقب الجدران واختطاف الأمتعة من أيدي المارة وتكدير صفاء الناس والإخلال بالأمن العام .

لا تتركوا وسيلة من الوسائل تعلمون أنها تعبر عن مشاعركم وخوارج نفوسكم إلا واتخذوها وتذرعوا بها

عرضها ، وسنبذل في سبيل استبقائها في أيدينا فوق ما بذلنا في سبيل الحصول عليها .

ليس من السهل علينا ولا مما نتحمله أطواقنا أن يتحدث الناس عنا - وقد بدأوا يتحدثون - أن تلك النهضة التي نهضناها إنما كانت رواية تمثيلية ، خلينا بها عقول المتفرجين ساعة من الزمان ، حتى إذا نزل الستار عليها إذا الوجوه الوجوه ، والصور الصور ، وإذا الداء القديم والمرض العضال .

إن الشرق لم يشق بالجهل ولا بالضعف كما يقولون ، فلطالما عاش الضعفاء والجهلاء أحراراً مستقلين بفضل اتحادهم وقوة جامعتهم ، بل لأنه يوجد في كل شعب من شعوبه أقوام أمثال هؤلاء الأقوام الذين ابتلينا بهم في مصر ، خبثاء الأغراض والمقاصد ، مَوْتِي العواطف والمشاعر ، لا يتألمون إلا لأنفسهم ، ولا يكون إلا على نقص في أموالهم وثمراتهم .

والشعب المصري أول شعب شرقي نهض نهضة سياسية في هذا العصر ، ثم مشت الشعوب الشرقية بعد ذلك على أثره ، فيجب أن يكون أول شعب يعرف كيف يمحى الدسيمة الكامنة بين أحشائه لتتعلم منه الشعوب الأخرى كيف تمحق الدسائس الكامنة بين أحشائها ، فيعود بالفخرين ، ويلبس التاجين .

إننا لا نريد أن نحارب المنشقين والخارجين ، فالقوة التي لا قبل لنا بها من ورائهم تحميهم ، ولا أن نجادلهم ، فإن لهم تحت جِلْدَةٍ وجوههم ذخيرة من السماجة والصفاقة كافية لإنكار أن الأرض أرض والسماء سماء ، وأن هناك فرقاً بين لون الليل ولون النهار ، بل نريد أن نقى أنفسنا شر دسائسهم ومكائدهم ، ولا سبيل لنا إلى ذلك إلا إذا أعرضنا عنهم وصننا أنظارنا عن رؤية وجوههم ، وأسماعنا عن سماع أصواتهم ، كما يتعوذ المتعوذ من الشيطان الرجيم . فإن فعلنا فقد انتصرنا انتصاراً عظيماً لم نوفق إلى مثله في جميع أدوار تاريخنا من عهد سيزستريس حتى اليوم ، وإلا فما خلق الله في العالم

بما قدره الله لنا في مستقبل حياتنا لو أن ذلك الذي يراد بنا لا يجري باسمنا ولا يطبع بطابعنا ، فتستمر حجتنا قائمة ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماءً ، ولكن من لنا بالراحة وهدوء النفس واستقرارها ؛ وما هي وفود الثقة بالحكومة تفد إليها من جميع أنحاء البلاد ، وما هي عرائض تأييدها ونصرها تملأ دفتارها وسجلاتها ولا يعلم غيرها طريقة التوقيع عليها ؟

وعدتنا الوزارة بالنزول على رأينا في مبدأ تأليفها فلم تفعل ، فاقترحنا عليها إشراك وفدنا معنا في العمل فاعتذرت ، فطلبنا منها التخلي عن مركزها فأبت ، فسألناها عقد الجمعية الوطنية لأخذ رأيها في اختيار المفوضين الرسميين فامتنعت ، فسألناها أن تذهب للمفاوضة باسمها لا باسمنا ، وألا تجعل ثقتنا بها أساس مفاوضاتها فرفضت .

لقد سدت السبل علينا جميعها ، وانقطع الرجاء بنا ، ولم يبق بين أيدينا إلا رجاء واحد هو أن نمد يد الضراعة إلى إخواننا الخارجين علينا من أعضاء الوفد وغيرهم قائلين لهم : « الرحمة الرحمة أيها الأصدقاء بأنفسكم وبأمتكم ، فنحن جميعاً أبناء وطن واحد تقلنا أرض واحدة وتظلمنا سماء واحدة ، فعودوا إلى صفوفنا وضعوا أيديكم في أيدينا فلا سبيل لعدونا أن ينال منا قلامة ظفر إن أنتم عدتم إلينا . ولا يوجد شيء في العالم كله يحول بينه وبين إهلاكنا جميعاً إن بقيتم خارجين علينا .

« تعالوا إلينا لنسعد معاً ؛ إن قُدرت لنا السعادة في مستقبل حياتنا ، أو نشقى معاً ؛ إن كانت الأخرى ، بل لنعيش سعداء في كلتا الحالتين ، فلا سعادة في الدنيا غير سعادة الحب والسلام ، ولا شقاء غير شقاء الانقسام والانشقاق .

« إننا لا نتهمكم بخيانة ولا بمالأة ؛ لأن الدم المصري لا يحمل بين كراته كرة اللؤم والغدر ، ولكننا نعتقد أنكم مخدوعون ، وأنكم ما أتيتم من ناحية الخيانة والمالأة بل من ناحية السذاجة والبساطة وضعف القلب وغرارة النفس والثقة العمياء بوعود أولئك الذين ما صدقوا في وعد من وعودهم مرة

فهي جميعها مظاهر كاذبة ومناظر تمثيلية ؛ لأن القوة قد حكمت بذلك ، وحكم القوة هو الحكم العادل الشريف الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

هذا هو ما يجري الآن في جو مصر ، وهذا ما سيجري في جوها غداً ما بقيت الوزارة في مركزها أو خلفتها وزارة مثلاً .

اقتطعت السياسة الإنجليزية قطعة صغيرة من الضعفاء عن الوفد والأمة وسمتها (الأمة) بعد أن عجزت عن ذلك عامين كاملين ، فهي تتعهدنا بالعناية والرعاية وتحوطها بالصور والتهاويل ؛ تعظيماً لشأنها وتفخيماً لأمرها ، وتصل في كل يوم صفحتها وتجلوها ؛ ليكون لها بريق يخطف الأبصار ويختلب الأنظار ، تفعل ذلك كله لتتخذها تكأة تنكئ عليها في الثقة بالمفوضين الرسميين اليوم والتصديق على المعاهدة المنتظرة غداً ، وما هي إلا رواية واحدة تعرض فصولها على مسرح التمثيل فصلاً فصلاً حتى ينزل الستار على الفصل الأخير منها .

أما الأمة نفسها فهي في نظر الصحف الإنجليزية أقلية ضعيفة جداً أو مجموعة خاملة بلهاء لا عقل لها ولا فكر ، فإن تطأَتْ فنتطقها مصطنع ، وإن بكت فبكاؤها مكذوب ، وإن احتجت فاحتجاجها عصيان ، وإن صاحت فصياحها ثورة ، وإن صمتت فصمتها تسليم وإذعان ، وإن رفضت أن توقع على صك شقائها فلا قيمة لرفضها أو قبولها ، لأن الأمة شيء سواها .

آه ، ماذا نعمل ؟ لقد بُحَّتْ أصواتنا ، وحفيت أقدامنا ، ونضبت محابرنا ، وجفت أقلامنا في سبيل الشكوى من هذا الحال ؛ فلم نجد راحماً ولا معيناً حتى من أبناء وطننا الذين يفهمون لغتنا ويدركون شعورنا ويحسنون قراءة البؤس والألم المسطور على جباهنا ، كأن العالم كله آلب علينا ، وكأنَّ قد سدت من دوننا أبواب السماء ، فلا تصعد شكوى ولا ينفذ دعاء .

ولقد كنا نستطيع أن نحمل أنفسنا على الرضا

الكلمة المخزية ، وأثقوا يوماً يفتح فيه أولادكم وأحفادكم هذه الصحيفة السوداء من تاريخكم ، فيطرقون حياءً وخجلاً حينما يرون أن هذه الأسماء التي يقرأونها إنما هي أسماء آبائهم وأجدادهم .»

* * *

إلى خصوم سعد باشا

١

سعد باشا خصم السياسة الإنجليزية في مصر وعدوها الألد . ما في ذلك شك ولا ريب ، فجميع خصومه السياسيين من المصريين أصدقاء لتلك السياسة وأعوان لها على أمتهم .

هذا الذي أستطيع أن أفهمه ويفهمه الناس جميعاً ، ولا فرق عندي بين أن توضع في عنقي جامعة أقاد بها إلى دار المارستان لأقضي فيها بقية أيام حياتي ، وبين أن أفهم غير ذلك .

فاشتموا يا خصوم سعدٍ سعداً ما شئتم ، وتفننوا في النيل من كرامته ما أردتم ، فلا معنى لذلك عندنا إلا أنكم آله صماء في يد السياسة الإنجليزية ، تتولون بالنيابة عنها زحزحة العقبة الكبرى التي تعترض طريقها وتعرقل مساعيها ، وتقف سداً حائلاً دون تنفيذ تلك الفكرة الجهنمية الهائلة ، فكرة تسجيل الحماية الإنجليزية على مصر . واحلفوا بالله جهد أيمانكم أنكم وطنيون مخلصون ، ما خلق الله بين أرضه وسماؤه خلقاً أظهر قلباً ولا أنقى سريرة ولا أنبل مقصداً منكم ، وأنكم لا تريدون بما تفعلون إلا خير الوطن وأهله ، وهنأة الأمة وسعادتها ، فليس بحزن عنكم عندنا شيئاً ، لأن الوطني لا يحارب الوطني ولا يبتغي له الغوائل ، ولا ينصب الجبال لهدمه وإسقاطه . دعوى الوطنية كلمة بسيطة تصدر من الفم بسهولة ، كما يتنفس المتنفس ويتنهد المتنهد ، وقد نطق بها جميع الناس في مصر حتى سكينه

واحدة ، ولا عجزوا عن أن يجدوا من يصدقهم في كل مرة يكذبون فيها ، فالوعود سلعتهم التي يتجرون فيها ، والخلف ربحهم الذي يربحونه منها .

« ولو أنكم روأتم في الأمر قليلاً ونظرتم إلى المسألة بعيونكم لا بعيونهم ، لعلمتم أن لا استقلال هناك ، ولا شبه استقلال ، ولا شيء مما يعدونا به ويمنوننا ، وكل ما في الأمر أنهم يريدون وضع الحماية الرومانية موضع الحماية الإنكليزية ، وهي التي كان يسطها الرومان في تاريخهم القديم على الأمم الضعيفة باسم المحالفة والمعاهدة ، أي أنهم يريدون أن نصدق لهم على الحماية التي بسطوها علينا في سنة ١٩١٤ ، بعد أن عجزوا عن ذلك سبعة أعوام . ونحن لا نريد أن يكون حظنا معهم حظ ذلك الرجل الذي انتزع منه بعض المغتصبين أية فضية ، فذهب إليه ليستردها منه وهدده برفع أمره إلى الشرطة إن لم يفعل ، فقال له : « لا أعطيك إياها حتى تكتب لي صكاً بأن الآنية هدية منك إليّ حتى آمن غدرك بي فيما بعد . » فكتب له الصك الذي أراد وأعطاه إياه ، فاحتفظ بالصك ولم يعطه الآنية .

« تعالوا أيها الأصدقاء إلى صفوفنا ، ولا تصدقوا أن أعداءنا يعطوننا متفرقين ما يعطوننا مجتمعين ، فإن كان لا بد لنا من أن نستمر في مفاوضاتهم - وكان قد بقي لنا شيء من الأمل فيهم - فلنذهب إليهم جميعاً صفاً واحداً تحت قيادة قائد واحد نلقي إليه قيادنا ، ونمنحه نصرنا وتأييدنا ، فإن نجحنا فذاك ، وإلا فحسبنا من الفخر والشرف أننا أول أمة شرقية قد نجحت من حباثل المستعمرين ومكائدهم .

« سيكتب التاريخ صفحاته غداً ، والتاريخ لا يجامل ولا يحايي ، ولا يقبل هواة ولا عذراً ، ولا يصدق كلمة واحدة من هذه الكلمات التي تعتنون بها اليوم عن أنفسكم . ولا يستطيع أن يكتب إلا أن الأمة المصرية كانت يدك واحدة وقوة واحدة ، ولم يكن بينها وبين نجاحها في قضيتها إلا أيام قلائل فخرجتم من صفوفها فانتقض عليها أمرها وأقلت النصر من يدها . فاحذروا أن يكتب التاريخ عنكم هذه

وأنتكم قوم أحرار أباة ، متشبعون بروح العدل والشرف .

فإن لم تفعلوا فائذوا لنا - ولنا العذر الواسع في ذلك - أن نعتبركم أعداءنا وأعداء حريتنا واستقلالنا ، وأن تتمسك بالإخلاص للرجل الذي يذود عنا ويجهاد في سبيلنا ويحارب ظالمينا .

أ تدرن متى نتخلى عن سعد باشا ونخذله ونرتاب في صدقه وإخلاصه ؟ يوم ترضى عنه السياسة الإنجليزية ، وتلدو عنه الصحف الإنجليزية ، وتثني عليه الدوائر الإنجليزية ، وتدافع عنه القوة الإنجليزية ، وتستحيل نفسه إلى نفس إنجليزية ، يحس إحساسها ويشعر بشعورها ، ويتحرك بحركتها ، ويسكن بسكونها . ويوم تضمه الحكومة الإنجليزية إلى صدرها ، وتحنو عليه حنو الوالدة المشفقة على طفلها الصغير ، معتقدة أن حياتها في حياته ، وموتها في موته . ومادام سعد باشا باقيًا في صفوفنا لم يفارقنا ولم يتخل عنا ، فمن الخبل والسفاهة وسقوط النفس أن نفارقه ونتخلى عنه ، فإن عجز عن أن ينفعنا بشيء في قضيتنا ، فلا أقل من أن يشفي غليلنا بتنغيص ظالمينا ، ولا شيء في العالم ألد للنفوس ولا أشهى إليهما من تنغيص الظالمين .

ليست الفضيحة أيها القوم أن يعلم أعضاء مجلس النواب الإنجليزي أن رجال الإدارة المصرية لا إرادة لهم أمام السلطة الإنجليزية وسيطرتها كما تقولون ، فليس في العالم كله لا في إنجلترا ولا في غيرها من بلاد العالم من يجهل ذلك أو يستنكره ، إنما الفضيحة الكبرى أن يعلم الناس عتًا أن السياسة الإنجليزية قد استطاعت أن تضحك على ذقون فقه من علماء المصريين ووجوههم ، وتتخذ منهم عصا حديدية تضرب بها الوحدة المصرية وتمزقها ، وأن جماعة من الذين كانوا يعدون سعدًا بالأمس ويقدمونه قد أصبحوا اليوم يشتمونه وينالون من كرامته ، لا لشيء سوى أنهم يدورون مع القوة حيث دارت ، ويسيرون وراء المصلحة حيث سارت .

أنتم تعلمون أن اليد الإنجليزية الخفية هي التي

مجرمة الإسكندرية ، فقد زعمت أنها إنما كانت تخدم الوطن بقتل النساء العاهرات ليعتبر بمصرعهن الحرائر الشريقات فلا يسقطن في مثل ما سقطن فيه ، فهي دعوى محتاجة دائمًا إلى برهان ، وبرهانها الوحيد الذي نستطيع أن نتعقله بلا تكلف ولا تعمل ولا فلسفة ولا حذلقه هو مجافاة السياسة الإنجليزية والانحراف عنها والتجهم لها وسلوك كل طريق غير طريقها . وما دمت متفققين معها في اعتبار سعد باشا خصمًا سياسيًا خطرًا يجب هدمه وإسقاطه ، فأنتم أعوانها وأنصارها ومحال أن تكونوا أعواننا وأنصارنا .

السياسة الإنجليزية تخلق الحرية السياسية في مصر وتضرب على أيدي الكاتبيين والسنة الناطقين وعقول المفكرين ، وتأبى إلا أن تسوق الناس جميعًا في طريق السياسة التي ترضاها لنفسها ، وسعد باشا يحتج كل يوم على ذلك ، ويصرخ الصرخات المزعجات التي ترتجف لها جوانب الأرض وتهتز لها أركان السماء . وأنتم سكوت صامتون ، لا تحتجون ولا تغضبون ، فهو الوطني المخلص من دونكم .

بيننا وبينكم أمر واحد إن أنتم فعلتموه نلتهم ماشتم من حيننا ورضانا وإكرامنا وإجلالنا ، ونزلتم من نفوسنا المنزلة التي ينزلها الوطنيون المخلصون ، هو أن تعقدوا اجتماعًا عامًا تكتبون فيه احتجاجًا شديد اللهجة إلى الحكومة الإنجليزية على بقاء الأحكام العرفية في مصر حتى اليوم ، وعلى القوانين الاستثنائية وقانون المطبوعات ، وتقييد حرية الخطابة والكتابة ، ومنع المظاهرات السلمية والاجتماعات السياسية ، واعتبار الوطنية جريمة تعاقب عليها المحاكم العسكرية والنظامية ، ثم تختمون احتجاجكم بهذه الكلمة : « إنا لا نقبل مفاوضة سياسية تجري بين فريقين ، أحدهما سجين في سجن مظلم ضيق لا يستطيع التنفس فيه ولا الحركة ، والآخر سجان قاس مستبد يجر على رأسه سيف القوة والقهر ويملي عليه ما يريد ويشتهي » .

هذا هو البرهان الوحيد الذي نستطيعون أن تقنعونا من طريقه بوطنيتكم وإخلاصكم لأمتكم ووطنكم ،

الخاصة ، فما يستطيع أن ينطق ناطق ولا يكتب كاتب إلا إيماءً وتعريضاً .

ليس سعد باشا هو الذي لعب بعقول فريق من أعضاء الوفد وأغراهم بالانفصال عن الجامعة الوطنية والخروج عليها ليتوصل بذلك إلى تمزيق شمل الأمة وتفريق وحدتها ، وليس هو الذي استثمر بدسائسه ومكائده طمع الطامعين وجبن الجبناء وغواية الأغبياء ليستعين بهم على خراب وطنه ودماره .

ليس سعد باشا خصمكم ، بل خصومكم أولئك الذين يغرونكم به ويسلطونكم عليه ، لأنهم يعلمون أن الأمة لا تفلح بغير زعيم ، وأن لا زعيم فيها يعني عناءه ويسد مكانه ، فإن ظفروا به فقد ظفروا بالأمة جميعها وحلوا العقدة التي عجزوا عن حلها أربعين عاماً ، فحولوا سهامكم إلى خصومكم ، ووجهوا ضرباتكم إلى المرقب الذي تتساقط منه السهام عليكم .

ارحموا أمتكم ولا تثيروا حفيظتها بإهانة زعيمها ونصيرها الباقي لها بعد تخلي جميع أنصارها وأعوانها عنها ، ولا تنتهزوا فرصة ضعفها وعجزها فتدفعوها إلى إحدى السوائين : إما الغضب الذي ليس من مصلحتها ، وإما الذل الذي فوق طاقتها ، واذكروا كيف يكون شأنكم غداً ، أمام أنفسكم وأمام ضمائرهم ، إن تمت لأعدائكم الغاية التي يرومونها من مصر على أيديكم ، لا قدر الله ولا سمح ، بل كيف يكون بكاؤكم وعويلكم على وطنكم وبلادكم حينما تستيقظون من رقدتكم وتستفيقون من سكرتكم ، فتعلمون أن العدو قد اقتحم البلد ، وأنكم أنتم الذين فتحتم له أبوابه بأيديكم ؟

٢

والله لا ندري ما هي دلتكم علينا وصنيتكم عندنا ونعمتكم التي قلدتم بها أعناقنا فطلبوا إلينا كل يوم في خطبتكم وبياناتكم ورسائلكم وكل ما تهتف به ألسنتكم وأقلامكم أن تنفض من حول سعد باشا وتلتف من حولكم ، ونخله ونصركم ، ونفارق طاعته إلى طاعتكم !

تدير شؤون مصر السياسية والإدارية والقضائية منذ أربعين عاماً ، وتقهّر رجال حكومتها من وزرائها إلى خفرائها على تنفيذ أوامرها والخضوع لسياستها ، ولم يطرأ حتى اليوم طارئ جديد يغير هذا النظام ويبدله ، ولولا ذلك ما شكونا ولا تألمنا ولا نهضنا لطلب الحرية والاستقلال ، بل ولا سافرت البعثة الرسمية في المهمة التي سافرت فيها . وتعلمون أن تلك اليد القاهرة هي التي تولت أمر اغتصاب الثقة بالوزارة الحاضرة وقهرت رجال الإدارة على الاشتراك معها فيها تمهيداً للاتفاق المنتظر الذي تريد أن تلبسه صورة الرضا والاختيار من أساسه إلى ذروته ، كما هو شأنها في سياستها دائماً ، وكما هي قاعدتها التي تجري في جميع أعمالها . فدفاعكم عن رجال الإدارة في هذه المسألة إنما هو دفاع عن السياسة الإنجليزية نفسها وبتربة لذمتها من سوء النية والقصد في إدارة الشؤون المصرية ، ومساعدة لها على أن تجري في مسألة الانتخابات المقبلة للجمعية الوطنية على مثال الطريقة التي جرت عليها بالأمس في مسألة العمال المتطوعين ، من حيث لا تعلق بها تهمة ، ولا يتجه إليها لوم ولا عتاب . فأنتم لم تغضبوا لرجال الإدارة ولا لسمعة مصر والمصريين كما تزعمون ، بل تخافون أن تفشل السياسة الإنجليزية في تنفيذ المعاهدة المنتظرة ، فتتخلى القوة عنكم ، فتصبخوا أمام الأمة وجهها لوجه ، وما أضمرتم بين جوانحك من البغضاء لسعد باشا لأنه أهان رجال الإدارة أو جرح عواطفهم بل لأنه الزعيم الوطني الوحيد الذي يستطيع أن يفسد كل سياسة خبيثة يراد بها اغتصاب رضا المصريين واستخذائهم لتلك الكارثة العظمى التي تسمونها استقلالاً لا شك فيه ، ونسميها حماية لا ريب فيها .

ماذا تنقمون من سعد باشا أيها القوم ، وأي جناية جناها عليكم في أنفسكم أو في أمتكم فتحملوا له بين جوانحك هذه الموجودة وهذه البغضاء ؟

ليس سعد باشا هو الذي اغتصب بلادكم واستأسر أوطانكم وأذل أعناقكم وأرغم أنوفكم وخنق الحرية السياسية في مجامعكم العامة ومجالسكم

منا في سبيل وطنه وأنتم تشمتون به وتفرحون وتقولون هذا جزء المخاطرة والمجازفة . سعد باشا يثير الثائرة كل يوم على الأحكام العرفية والقوانين الاستثنائية وأنتم ترضون عنها بل تؤيدونها بل تشتركون في وضع موادها . سعد باشا يريد أن تتطهر الإدارة المصرية من رذائل الكذب والنفاق والظلم والإرهاب وأنتم تفرونها بارتكاب هذه الرذائل جميعها وتماثلونها عليها ، وتغضبون وتصخبون كلما شعرت أن يدا من الأيدي تحاول زحرة الستار عنها . سعد

باشا يصيح في جميع مواقفه ومشاهده : يجب أن يكون الشعب حراً مطلقاً يختار لنفسه السياسة التي يريد ، وأنتم تصيحون : يجب أن يساق الشعب إلى السياسة التي تراء منه لأنه شعب جاهل منط لا يفهم مصلحته ولا يستطيع تقديرها ! سعد باشا يصادق الأحرار من أعضاء مجلس النواب الإنجليزي ، ليستعين بهم على حكومتهم الاستعمارية وأنتم تصادقون أعضاء تلك الحكومة أنفسهم ، لتستعينوا بهم على استعباد أمتكم وإرهاقها . سعد باشا يربي الأمة على الفضيلة وشرف الخلق ، ويث فيها روح الهمة والعزيمة والأنفة والصدق والصرامة والشرف والإباء ، وأنتم تفسدون أخلاقها وتمزقون أديم آدابها وتطلبون من القاضي أن يحكم بغير ما يعتقد ، ومن الشاهد أن يشهد بغير ما يعلم ، ومن الفقيه أن يفتي بما يخالف أحكام دينه وقواعده ، ومن الموظف أن يعتمد في رقيه وتقدمه على المداينة والمداجة لا على الكفاءة والعمل ، ومن التلميذ أن يطرق إلى نجاحه في الامتحان باب « التأييد » والتوقيع ، لا باب الجِد والاجتهاد ، ومن الفلاح أن يبيع ذمته وضميره برتبة أو لقب أو قضاء مصلحة مالية ، ومن الكاتب أن يحول قلمه الذي وضعته الأمة في يده ليدافع به عنها ويدود عن مصلحتها إلى سهم رائش مسموم يصيب قلبها ، ومن الأمة كلها أن تتجرد من شخصيتها وهويتها وتتحول إلى قطيع من الأغنام يسير به كل راع في الطريق التي يريد .

سعد باشا يقول فيصدق ، وما عرفنا له كذبة قط مذ عرفناه واتصلنا به حتى اليوم ، وأنتم تطلعون علينا

لسعد باشا على الأمة ثلاث آياد لا نستطيع أن ننسأها مدى الدهر : أنه أسس الوحدة المصرية التي عجزت عنها القرون الثلاثة عشر الماضية ، وأنه نقل الفكرة الوطنية من دور الأمانى والأحلام إلى دور الجد والعمل ، وأنه نشر الدعوة الوطنية في أنحاء العالم كله حتى وجدت فيه مسألة تسمى المسألة المصرية إن لم تتحقق فيها الآمال اليوم فغداً ، فماذا قدمتم أنتم إلينا من الخدم وقلدتم به أعناقنا من المنس ؟

هبونا كما تزعموننا قوماً سُدجاً بسطاء ، طائشي العقول والأحلام ، لا نستطيع أن نعيش بغير معبود تعبده ونخضع له . أ ليس من الطبيعي والمعقول أن نفضل عبادة الشمس التي نرى نورها ونشعر بحرارتها ونتمتع بضيائها على عبادة الحشرات التي لا نكاد نشعر بوجودها ، ولا نرى لها فائدة في شؤون حياتنا ؟ من أنتم أيها القوم ، وأي شأن لكم عندنا ، وما هي الصلة النفسية التي تجمع بيننا وبينكم ، وأين موافقكم التي وقفتموها في خدمة قضيتنا ، وأين صحائفكم التي شغلتموها من تاريخ بلادنا ، وما الذي يفرنا بكم ويهزنا من شؤونكم لعبدكم ونستسلم إليكم ونضع في أيديكم قيادنا وقياد حاضرتنا ومستقبلنا ؟

إننا نعرفكم جميعاً بأشخاصكم وأعيانكم ، ونعرف جميع ميولكم وأهوائكم والجهة التي تتجهون إليها دائماً في شؤون حياتكم والسياسة التي تظاهرونها وتماثلونها مذ برزتم إلى الوجود حتى اليوم ، ونعرف أنكم ذلك الفريق الذي يعثر به المستعمر دائماً في كل أمة يريد القضاء عليها ؛ فيستعين به على أغراضه ومآربه لا أكثر من ذلك ولا أقل . فكيف تطمعون في أن تتخذكم زعماء لنا في سياستنا ، بل كيف تطمعون في أن نعدكم مصريين تشتركون معنا في شعورنا وإحساسنا !

سعد باشا يبنى الوحدة الوطنية وأنتم تهدمونها . سعد باشا يحارب خصومنا ويناولهم وأنتم توالونهم وتظاهرونهم . سعد باشا يكي دماً يوم يستشهد شهيد

ظننتم أنكم بإلقاء بعض الخطب وكتابة بعض الرسائل وتديير بعض المكائد وإنفاق بعض الأموال تستطيعون تحويل الأمة المصرية بأجمعها من حب سعد إلى بغضه ، ومن الثقة به إلى الثقة بغيره ، ومن التمسك والتشدد في المطالب الوطنية إلى القناعة والتهاون فيها ، ومن سوء الظن بالسياسة الإنجليزية إلى حسن الظن بها ، ومن السخط على مشروع ملنر إلى الرضا عنه والاعتباط به ، وبدون استناد إلى حجة ولا برهان ! كأن ماتفضون به إلى الناس آيات منزلة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وما طمع صاحب الآيات المنزلة نفسه جل جلاله أن يؤمن الناس بآياته ويدعوا لها دون أن يدعّمها بالحجة والبرهان . وأما احتقاركم لأنفسكم ، فهو اعتقادكم أنها أمة بسيطة ساذجة تأتي بها كلمة وتذهب بها كلمة ، وتعلو بها فكرة وتهبط بها أخرى ، وكأنما أنتم تقولون في أنفسكم إن الروح الوطنية التي تختلج في صدرها إنما هي روح صناعية غرستها الحوادث والظروف ، فلم لا تنتزعها الحوادث والظروف ؟ وإن الوحدة الوطنية التي تربط بين أجزائها إنما هي وحدة كاذبة موهومة ، فلم لا نبدها ونمزق شملها ؟ وإن المنزلة التي نالها سعد باشا فيها إنما نالها بالسفسطة والثروة ، فلم لا نسلط عليها السفسطة والثروة لتذهب بها ؟ وما دام هذا مقدار عقلها وتصورها ؛ فمن السهل أن نعدّها بأننا نحن الذين سننيلها جميع آمالها لتطمئن إلينا حتى إذا حان وقت الوفاء بوعدنا قدمنا لها القيد الحديدي الذي أعدناه لها وسميناه خلخالاً ذهبياً ؛ فتصدق وتغبط وتستطير فرحاً وسروراً .

إن كان هذا هو مائضمرون في أنفسكم - وما أحسبكم تضمرون غيره - فوالله ما احتقر أحد في العالم هذه الأمة احتقاركم لها ، ولا رأى شعب من الشعوب فيها حتى الشعب الذي يستعبدونها ويستذلها هذا الرأي الذي ترونه . واسمحوا لي أن أقول لكم بعد ذلك إنه ما دامت أفكاركم وآراؤكم في المجتمع وشعونه والأم وطبائعها والنفوس ومشاعرها لا يمكن أن تتجاوز هذا القدر الذي وصلت إليه ، فليس بينكم رجل واحد يستطيع أن يكون زعيماً لأمة

كل يوم بأكلوبة جديدة لا ينتهي العجب منها حتى تتبعها أختها ، حتى سقطتم من أعيننا سقطة لم تسقطها طائفة من قبلكم ، وحتى قال عنكم بعض أصحاب الرأي من الشيوخ المحنكين إنكم قد أفسدتم من أخلاق الأمة في بضعة شهور فوق ما أفسد الاحتلال الإنجليزي منها في أربعين عاماً .

فهل من أجل هذا ننفض من حول سعد باشا ونلتف من حولكم ، ونخلد وننصركم ، ونترزع عن رأسه تاج الزعامة لنضعه فوق رؤوسكم ؟

إنكم إذن تريدون أن تقرروا أن أرض مصر قد استحالت إلى دار مارستان كبرى يعيش فيها أربعة عشر مليوناً من المخولين ، وأن تشهدوا العالم كله على أننا أمة بلهاء ممرورة لا تستحق استقلالاً كاملاً ولا ناقصاً ، بل لا تستحق البقاء في هذا الوجود .

ليس لنا أيها القوم زعيم نعبده ونخضع له غير المبدأ ، وما ولينا سعد باشا زعامتنا إلا لأنه ينزل على إرادتنا ، وإرادتنا أن لا ينزل على إرادتكم ، ولا يأخذ بركبكم ولا يسير في أي طريق يعلم أنكم تسرون فيها ، وما دام هذا شأنه فمحال أن تغلر به ونخفر ذمته ، ومحال أن نخلي بينكم وبينه ونسمح لكم بشفاء غليلكم منه ونحن شهود نسمع ونرى .

عجباً لكم ! فيكم العالم والمستنير والكهل المجرب والشيخ المحنك ، فكيف فاتكم جميعاً أن تفهموا أن للطبيعة سنة لا يمكن تحويلها ولا تبديلها ، وأن تحويل أمة مستنيرة ذكية عددها أربعة عشر مليوناً من الحياة إلى الموت في بضعة شهور ليس بالأمر السهل الهين ، وأن نقل الزعامة من يد إلى يد ليس من الأشياء الخاضعة لقانون الحول والقوة ، بل لقانون الانتخاب الطبيعي الذي تخضع له الجمعية البشرية منذ أشرقت عليها شمس الحياة حتى اليوم ، وأن توجيه النفس الإنسانية من شعور إلى ضلله لا يأتي من طريق القوة والقهر ، بل من طريق الحجة والإقناع أو من طريق الاستدراج والاستهواء على الأقل ؟

ما أشد غروركم بأنفسكم أيها القوم ، وما أشد احتقاركم لأنفسكم ! أما غروركم بأنفسكم فلا أنكم

أوزعيماً لنفسه .

٣

أصدقاء لها يعطفون عليها ويتمنون لها الخير والسعادة ، وأن اتفاق السياستين : سياسة الحكومة المصرية وسياسة الحكومة الإنجليزية في الأقوال والأفعال ، والشعور والإحساس ، والميول والرغبات ، والأساليب والتصورات من باب توارد الخواطر ووقوع الحافر على الحافر كما يقول البلاغيون . وأن الديمقراطية الصحيحة هي أن تخضع أكثرية الأمة العظمى لأقليتها الضئيلة المتهاكمة ، فإن لم تفعل فهي المنقسمة والمنشقة والمنحرفة عن سواء السبيل . وأن الزعيم الوطني يجب أن يكون رجلاً مجرداً من صفات البطولة والنبوغ والشخصية القوية والذكاء الخارق ليصلح لرعاية الأمة وقيادتها ، وأنه كان من الواجب على سعد باشا كلما برز إليه رجل من الرجال ، وقال له : « تنح لي عن زعامة الأمة وقيادتها ؛ لأنك لها من دونك ، وأمدني فوق ذلك بقوتك ونفوذك وقتك ؛ لأستطيع أن أنزل من نفوس الأمة المنزلة التي تنزلها ، وأتمتع بحبها واحترامها بدلاً منك . » وجب عليه أن يفعل ذلك ، فإن أبي فهو مستبد جبار لا تقع تبعه انقسام الأمة وتفرقها إلا على رأسه ولا يؤخذ بها أحد سواء . وأن المفاوضات الذي لا يمثل إلا فئة قليلة من الشعب لا تجرؤ أن ترفع صوتها إلا بين جدران الحصون ، وتحت ظلال السيوف أعظم قوة وأكبر نفوذاً وأثبت قدماً وأقدر على استنزال مفاوضه على حكمه من الزعيم الذي يمثل أربعة عشر مليوناً يغضبون لغضبه ويرضون لرضاه . وأن المستر سوان وزملاءه القائلين بنظرية استقلال الأمة وحريتها وحققها المطلق في تقرير مصيرها قوم استعماريون محافظون تجب مقاطعتهم ومجافاتهم وطردهم وإهانتهم ، وأن اللورد ملتر منظم الحماية الإنجليزية في مصر ومسجلها عليها رجل حر شريف متسامح تجب مواصلته ومفاوضته والحفاوة به ، وأن وفود جماعة من أعضاء مجلس النواب الإنجليزي إلى مصر كما يفد إليها السياح الأوروبيون في كل يوم للاطلاع على الحالة السياسية العامة فيها تدخل في شؤوننا الداخلية يجب الغضب له والأنفة منه . أما صدور أمر من السلطة العسكرية الإنجليزية بمنع رجل

إن كنتم تريدون أن تجردوا سيف القوة والقهر على رؤوسنا لتستلوا من بين أشداقنا كلمات الحمد لكم والثناء عليكم ، والاعتراف بأنكم أصدق الناس وطنية وأشداهم إخلاصاً وأعدلهم حكماً وأشداهم رأياً وأبعدهم نظراً ، وأنكم خير من يتولى قيادة المسألة المصرية حتى يبلغ بها الغاية المرجوة لها ؛ فلكم ماشئتم ، ولا عار علينا في ذلك ، فقينا الضعيف والعاجز والمضطرب وصاحب الحاجة . ومن قبلكم عالجت محكمة التفيتش في إسبانيا من أهلها مثل ما تعالجون منا اليوم فنطق الموحد بكلمة التلث ، وليس صاحب العمامة القلنسوة ، وعلق حامل المصحف الصليب ، ومن قبل ذلك أرغم كثير من أمراء الإسلام العلماء والفقهاء على اتباع المذاهب والنحل التي ينتحلونها ، فلم يجدوا بداً من الإذعان لهم والنزول على حكمهم . غير أن لنا عندكم رجاء واحداً لا نضرع إليكم في شيء سواه ، وهو أن تعترفوا بالطريقة التي حملتمونا بها على الإذعان والتسليم ، وألا تكذبوا علينا فتتشرروا في الناس أنكم أقنعتمونا فاقنعتمنا ، وأقنعتم لنا الحجة فسلمنا ، وأتينا آمناً بكم طائعين مختارين ، فتلك النكبة العظمى والرزيفة الكبرى التي لا قبل لنا باحتمالها . وخير لنا أن يتحدث الناس عنا أننا ضعفنا وجننا بين أيديكم ، فلم نستطع إلا النزول على حكمكم والتسليم لكم بما تريدون من أن يقولوا عنا إننا انخدعنا بكم وصدقنا أكاذيبكم .

لا نطيق أن يتحدث الناس عنا أننا صدقنا أن أصدقاء الحماية بالأمس أعداؤها اليوم ، وأن الذين أغمدوا في صدورنا تلك المخاطر المسمومة قد تحولوا اليوم إلى أطباء راحمين يحاولون انتزاعها منا ، وأن الفارين من صفوف الجيش الوطني إلى صفوف جيش العدو ليحاربونا معه ويعينوه علينا وطنيون مخلصون ، وأن الذين يرمون الأمة بالجهل والغباء والانقياد إلى زعمائها انقياد القطيع لراعييه بلا تصور ولا إدراك

أردتم أن تجمعوا إلى متعة الظلم الوحشي الذي تتعمون به متعة السمعة الحسنة والذكرى الطيبة ؟

تريدون أن تظلموا فيسمي الناس ظلمكم عدلا ، وأن تقتلوا فيقبل المقتول أيديكم اعترافاً بفضلكم ، وأن تختلسوا الثقة من الناس اختلاساً فيشكر لكم هؤلاء الناس تفضلكم بقبول الهدية التي قدموها إليكم ، وأن تضعوا الأغلال الثقيلة في عنق الأمة فترقص فرحاً وسروراً بالعقود اللؤلؤية الجميلة التي قلدتكم بها جيدها ، وأن تملأوا الجوهاء ثقباً خائفاً فيستشقه الناس هواء طلقاً عالياً ، وأن تضعوا على قرص الشمس حجاباً كثيفاً حتى ما ينبعث منها شعاع واحد فيتهيج الناظرون بمنظر نورها المتلألئ الساطع .

لقد رمتم مراماً لم يرمه أحد من قبلكم ، وبلغتم في الأنانية والذاتية الغاية التي لا غاية وراءها ، فآه لو استطعتم أن تفهموا وتيسر لكم أن تعلموا أن المستحيل لا يمكن أن يكون ممكناً ، والممكن لا يمكن أن يكون مستحيلاً ، وآلا وجود لشيء في العالم غير الحقيقة المجردة !

آه لو فهمتم أن هذه الأمة التي تحتقرونها وتزدرونها وتصفونها بالجهل والغباوة والغرارة والبساطة أمة عظيمة جداً ، لا مثيل لها بين الأمم في سلامة فطرتها وذكاء قلبها ودقة شعورها وإحساسها وسمو خصائصها ومزاياها ، وأن عيبها الوحيد الذي لا عيب فيها سواه أنكم من أبنائها وسلالتها ، وأنكم العقبة الكؤود التي لا تزال تعثر بها كلما حاولت المضي في طريقها والسعي إلى الغاية التي هيأتها الأقدار لها ! ولولاكم ولولا أنكم اليد التي يضرها العدو بها والقنطرة التي يجازها إليها لما استطاع أن يلمس شجرة من رأسها ولا أن يخطو خطوة في أرضها ، فمتى نفرغ منكم ، ومتى يحكم الله بيننا وبينكم ؟

لا عذر لكم بعد اليوم ، فقد قتلتم كل شيء وفعلتم كل شيء ، واستفدتم جميع ما وهبكم الله من القوى العقلية والمادية ستة شهور كاملة في سبيل إسقاط سعد باشا فلم تسقطوه ، وفي حمل الأمة

مصري صميم من الانتقال من بلد إلى بلد ، فهو سائح مقبول ، لا رائحة فيه للتدخل مطلقاً ولا خطر منه على استقلال الإدارة المصرية وحريتها . وأن الواجب علينا أن نصبر ونترث وألا نسيء الظن بأعدائنا قبل أن نرى منهم عين الغدر ، وأن نسمح لهم بالزحف علينا ، ثم باجتياز العقبات التي تعترضهم في طريقهم إلينا ، ثم باحتلال القلاع والحصون المشرفة علينا ، ثم بتوجيه فوهات مدافعهم إلى منازلنا وبيوتنا ، فإذا شرعوا في إلقاء القنابل وقذفها علمنا أنهم يريدون السوء بنا فحاربناهم وقاومناهم ، وأن سعد باشا زعيم الأمة ورئيسها المفدى وموضوع حبها واحترامها وإجلالها وإعظامها ظمآن إلى الرئاسة ، يتلهف شوقاً إليها ويتهالك وجداً عليها ، أما عدلي باشا فهو رجل زاهد فيها قال لها ، ما يحتمل أن يشاك شوكة في سبيلها .

لا نطبق أن يتحدث الناس عنا أننا صدقناكم في شيء من هذا كله ، ولو أننا فعلنا لوضعنا في أيديكم مستنداً قوياً هو أقوى في دلالة على غاوتنا وجهلنا من جميع المستندات التي جمعتوها حتى اليوم لتكون في يد السياسة الإنجليزية أسلحة تحتج بها علينا وتدفع بها في صدور الذين يزعمون أننا أمة رشيدة نستطيع أن نحكم أنفسنا بأنفسنا .

اصنعوا بنا ما شئتم ، وافتنوا في ظلمنا وإرهابنا ما أردتم ، وخذوا من عرائض الثقة والتأييد ما تملأون به غرف وزارة الخارجية الإنجليزية من أرضها إلى سمائها ، فذلك لإرادة الله التي لا محيص عنها ، ولكن إياكم أن تزعموا أننا أعطيناكم من قلوبنا ما أعطيناكم من ألسنتنا ، فذلك ما نغضب له كل الغضب وما يملأ صدورنا غيظاً وحنقاً .

نقسم لكم بالله أننا ما رأينا في حياتنا ولا في تاريخنا الحاضر أو الغابر أطمع ولا أشره منكم ! أ لم يكفكم مساعدة الدهر لكم ونزوله على حكمكم ، وأن القوة الحربية من ورائكم تمدكم بكل ما تفرحون من سلاح وعدة ، وأن في استطاعتكم متى شئتم أن تقهرونا على كل ما تريدون دون أن يحاسبكم عليه محاسب أو يراقبكم مراقب ، حتى

للفصل في القضية المصرية ، ورشحتموه لعضوية الجمعية الوطنية التي تتولى البت في حاضرمصر ومستقبلها ؟

أ هذا هو الحزب المفكر العامل الذي يمشي إلى أغراضه السياسية بخطوات هادئة رزينة يعجز عن مثلها الجمهور الأهرج المستطار الذي تنعون عليه كل يوم طيشه وخفته وجهله ورعوته ؟

أما إني لو كنت مكان رئيس الوزارة الذي تزعمون أنكم حماته ودعائه ، وأنصار سياسته ، وعماد وزارته ، لأحسنت تأديبكم على غشكم إياي ، وخذيعتكم لي ، حينما زعتم أنكم رؤساء مطاعون في عشائركم وقبائلكم ، وأن في استطاعتكم تكوين حزب سياسي قوي يغمر بقوة وعظمته ونبله وشرفه حزب الرعاع الذي كونه سعد باشا ، فإذا أنتم لا شيء ، وإذا الحزب الشريف النبيل الذي كونتموه وسميتموه باسمي ، ونسبتموه لي ، جماعة من قطاع الطرق يترفع عن الاتصال بهم عمدة قرية صغيرة ، فضلاً عن رئيس حكومة عظيمة !

ما هكذا تساق الأم أيها البلهاء ، ولا هكذا تقاد الشعوب ، ولا بمثل هذه الأساليب توجه الأفكار إلى الخطط السياسية ، وما سمعنا قط إلا في عرفكم واصطلاحكم أن النبايت والعصي والخناجر والبنادق وسيلة من وسائل التأثير والإقناع !

حاربوا الرجل بالألسنة والأقلام كما يحاربكم ، وقارعوه بالحجة والبرهان كما يقارعكم ، وحاجوه بالصراحة والصدق والنبيل والشرف كما يحاجكم ، فإن أمكنكم ذلك فذاك ، وإلا فلا تلجأوا إلى الضربة الخائنة الغادرة التي يلجأ إليها المبارز الجبان حينما يعجز عن الثبات أمام خصمه ، ويشعر بتفوقه عليه .

ما أقساكم وما أغلظ أكبادكم ! أ من أجل تقديم مستند بسيط للسياسة الإنجليزية تعتمد عليه في إثبات أن الرجل الذي يفاضونه اليوم يمثل الأمة المصرية أو أكثريتها ، وأن الاتفاق الذي يعقدونه معه كيفما كان شأنه اتفاق سائغ مشروع ، ومن أجل أن يتيسر لوكيل وزارة الخارجية الإنجليزية أن يصرح في

على التهاون في حقها فلم تستطيعوا ، فماذا تنتظرون ؟

أ مصممون أنتم على الاستمرار في خطتكم هذه إلى النهاية ؟ أ عازمون على أن تعتبروا الأمة كمية مهملة لا حساب لها ، وأن تؤلفوا من هذه الفئة البسيطة المسكينة جمعية وطنية تزعمون أنها الأمة بأجمعها لتصدق لكم على المشروع الإنجليزي المنتظر ؟

إن كان هذا هو ما تريدون ، وما أحسبكم تريدون غير هذا ، فاعلموا أن للأمة شأنها المستقل عن شأنكم وشأن مشروعكم وجمعيتكم ، وأن ما تعملونه لا ينفعكم ولا ينفع أصدقاءكم ، ولا يغني عنكم ولا عنهم شيئاً .

٤

أ تدرون ماذا فعلتم بالأمس في أسبوط ، وماذا كنتم تريدون أن تفعلوا في كل بلد ينزله سعد باشا في رحلته لو وجدتم إلى ذلك سبيلاً ؟

إنكم قد وقّعتم بأنفسكم على صك اعترافكم بعجزكم وقصوركم وفراغ أيديكم من كل حول وقوة ، وأن هذا منتهى ما في وسعكم ، وكل ما تملك أيما نكم .

أ بعد ستة شهور كاملة تكتبون وتخطبون وتدسون وتكيدون وتلفقون وتكذبون وتصادرون حرية الألسنة والأقلام والنظر والتفكير ، وتنتشرون ذهب المعز ، وتجردون سيفه في كل بقعة وأرض ، لتكوين حزب سياسي عظيم ، يعضد الإنجليز في سياستهم ، ويعين الوزارة على البقاء في مركزها ، ويقارع حزب سعد باشا مقارعة البطل للبطل ؟ ينكشف الستار عنكم فإذا أنتم رؤساء عصابات ، وإذا الحزب الذي كونتموه فئة من اللصوص المجرمين حملة الهراوات والنباييت ، وسكان الأحراش والغابات ، يستطيع كل إنسان يأمن جانب الحكومة ويملاً يده منها وإن كان أجبن الجبناء ، وأضعف الضعفاء ، أن يستعين بمثلهم على مثل ما استعنتم بهم عليه .

أ هذا هو الحزب السياسي العظيم الذي هيأتموه

للعمل والإحسان فيه ؟

لم يتكرر الناس لسعد باشا ، ويتحولون من مسالمين له إلى محاربين ؟ هل خان الأمانة التي عهدوا بها إليه ؟ أم قصر في المطالبة بحقهم ، والتعبير عن آمالهم وأمانيتهم ؟ أم وعدهم بالنزول على رغبتهم فقادهم بالسيف والنار إلى النزول على رغبته ؟ أم حول الحرب التي كانت بينهم وبين أعدائهم إلى حرب بينهم وبين أنفسهم ؟ أم وضع الكمائن في أفواههم فلا ينطقون ، والأغلال في أيديهم فلا يتحركون ؟ أم نقص عليهم حياتهم الاجتماعية ، وحول ابتساماتهم إلى دموع ، ومسراتهم إلى أحزان وآلام ، وآمالهم في الحياة السعيدة إلى يأس وكمد ؟!

أ لم يصدروا قرارهم الإجماعي في أمره يوم احتفلوا بقدومه من أوروبا احتفالاً لم يظفر به متوج ولا فاح كبير ، فأبى الأحداث أحدث بعد ذلك فيتذكروا له ، ويضمروا له البغضاء بين جوانحهم ؟
أ لم يزل يهتف بالاستقلال التام لبلاده كما كان يهتف به من قبل ؟

أ لم يزل يقارع الأعداء الغاصبين في حاضره كما كان يقارعهم في ماضيه ؟
أ لم يحاولوا خداعه والعبث بضميره واستنزائه عن صلابته وعناده في التمسك بحقوق بلاده ، فلم يفتروا ولم ينخدع وأثر أن يستهدف لهذه الحرب الهائلة التي يثيرها عليه أعداؤه وأنصار أعدائه من بني وطنه على أن يفرط في ذرة واحدة من حقوق الوطن المقدسة ؟

أ لم يكن في استطاعته أن يقبل رئاسة الوزارة حينما عرضوها عليه ليتمتع برؤية رجال الإدارة الذين يتنافسون اليوم في الإساءة إليه والنيل من كرامته ، وهم وقوف على بابيه يتلقون أوامره ويطيرون بها في كل شرق ومغرب ؟ فلم يفعل وفضل أن يكون فرداً من أفراد أمته ، واقفاً بجانبها يتلقى معها اضطهاداتها الحكومة ونكباتها ويشرب معها بالكأس التي تشرب منها على أن يكون آلة في يد السياسة الإنجليزية

مجلس النواب بوجود فتنة في مصر بين حزب زغلول باشا وحزب الحكومة ، تسفكون دماء أبناء وطنكم ، وتقتربون أكبر جريمة تعاقب عليها الشرائع السماوية والأرضية ، وتلبسون أنفسكم وأبناءكم وذرايكم العار الذي لا يلى أبد الدهر !

أ ليس لكم أولاد تخافون أن ينتقم الله منكم فيهم ، ونساء تخشون أن يذرفن الدموع غداً على فلذات أكبادهن بما أذرفن من دموع أولئك الثكالى المساكين اللواتي فجعتنهم في أولادهن وفلذات أكبادهن ؟

أين هم أولئك العدليون الذين تتحدثون عنهم وتحاولون إقناع السياسة الإنجليزية بوجودهم ، وفي أي أرض يقطنون ، وتحت أي سماء يعيشون ؟

أ من أجل بضعة شراذم من الضعفاء المخدوعين ، وآخرين من التملقين المذاهنين الذين يوجد مثلهم في كل أمة وشعب ، والذين يطيطرون مع القوة حيث طارت ، ويقعون معها حيث وقعت ، ويعضدون كل حكومة حتى حكومة نيرون تزعمون أن الأمة منقسمة على نفسها ، وأنها فريقان : سعديون ، وعدليون ؟

لم يتكون حزب سياسي في مصر لعلي باشا ، والناس لا يعرفون من أمر الرجل شيئاً سوى أن السياسة الإنجليزية اختارته لرئاسة الوزارة والمفاوضة في المسألة المصرية ؟ فإن ذكر ذاكر منهم شيئاً من ماضيه لا يذكر له سوى أنه كان عضواً مهماً في وزارة الحماية التي ضربت على مصر في سنة ١٩١٤ ، وأنه أول رجل ثغر في جنح الظلام ذلك السد المتين الذي أقامته مصر لمقاطعة لجنة ملنر ، وأنه أول رئيس وزارة اجترأت على مفاوضة الانجليز في المسألة المصرية رغم إرادة الأمة وإرادة وكلائها .

لم يتكون حزب سياسي لعلي باشا يتشيع له ويحتد في مناصره وتأيدته ويحمل النبايت والعصي لمحاربة خصومه قبل أن يحرك يداً أو لساناً في القضية المصرية ، وقبل أن يعلم الناس ما هو صانع فيها غداً . أ يفني بالوعد الذي وعدهم إياه ، أم تحول الحوائك بينه وبين الوفاء ، وهل الثقة إلا نتيجة طبيعية

لقتلها وخنق حريتها .

ويطلق عليهم مسدسه المحشو بالرصاص الكاذب ، فيخافون منه ويفرون من بين يديه فرار الجؤثر من بين يدي الأسد الرئبال . وقد مثل الرواية كما وضعها وكاد ينجح في تمثيلها لولا أن الفتاة كانت ذكية الفؤاد فقرأت على وجهه حين دنا منها آية التصنع والتكلف ، فلم تحفل به ولم تقدم له كلمة شكر على بطولته وشجاعته ، وسارت في طريقها وهي تغرب في الضحك عليه وعلى غرابة تصوراتها .

هذه هي المسألة لا أكثر من ذلك ولا أقل .

ما أجرأكم أيها القوم على الله وعلى الناس أجمعين !

أ تكذبون على أربعة عشر مليوناً من النفوس أحياء يرزقون ، يقولون لكم بالستهم وأقلامهم وبجميع ما يعرفون من الطرق والوسائل إنهم أنصار سعد باشا وأعداء السياسة الإنجليزية ، فتقولون لهم لا بل أنتم أنصار عدلي باشا وأصدقاء السياسة الإنجليزية.

أ يسيل النيل وشاطئاه بالهاتفين للرجل والمرحبين به والخائفين عباب الماء إلى سفينته مخاطرين بأنفسهم عليهم يرون وجهه ، أو يسمعون صوته حتى احتجم في دفعهم وردهم إلى ضرب الرصاص وإعمال السيوف ، ثم تقولون بعد ذلك إن البلاد تكره سعد باشا ولا تطيق رؤيته ؟ أ ترون بأعينكم لمعان السيوف في أيدي رجال البوليس ، وتسمعون بأذانكم طلقات بنادقهم ، وتشاهدون مطاردتهم الناس وهدمهم الزينات ووضعهم العقبات ، ثم تقولون بعد ذلك إن الإدارة على الحياد ، وإن حزب عدلي باشا القوي العظيم في أسبوط هو الذي أرغمها على منع سعد باشا من النزول إلى البر ؟

دعونا من سياسة الدسائس والمكائد والمواربة والمداخلة والتلفيق والتأويل ، فهي سياسة عقيمة لا تصلح تربة مصر الطيبة الطاهرة لإنباتها واستثمارها ، ودعونا من أساليب المكر والدهاء والخبث والرياء ومن قتل القتييل والسير وراء نعشه ، وخنق الحرية والبكاء عليها ، والإخلال بالأمن العام باسم حفظه وصيانتها ،

أ من أجل هذا يبغضه الناس ويتكرون له ، ولا يقنعون منه بذلك دون أن يحملوا له الهراوات والعصي ليمنعوه من النزول ببلادهم ؟

هل تنازلوا عن مطالبهم الوطنية ونفضوا أيديهم منها ، فهم يتكرون عليه تمسكه بها وتشدده فيها ؟

هل صفت مياه الود بينهم وبين الإنجليز ، وحل الحب والوثام بينهما محل البغضاء والشحاء ، فهم لا يريدون منه أن يكدر عليهم هذا الصفاء ؟

هل كانوا يجاملون فيه عدلي باشا يوم أجلوه وأعظموه وأحلوه ذلك المحل الأعظم من نفوسهم ، فلما تنكر له الرجل وجافاه تنكروا له معه وغضبوا لغضبته ؟

هل كانت وطنيتهم نوية من نويات الجنون كما كان يشيع عنهم أعداؤهم ، فلما استفاقوا رأوا أن ينتقموا من ذلك الإنسان الذي أثار في نفوسهم تلك العاطفة وأجج نارها في صدورهم ؟

اللهم لا هذا ولا ذاك . وكل ما في المسألة أن الوزارة تريد البقاء في مركزها ، ولا يمكنها البقاء فيه إلا إذا نفذت المشروع الإنجليزي المنتظر ، ولا سبيل لها إلا إذا فضت الأمة من حول سعد باشا وحملت على الالتفاف حولها وتأييد سياستها . وقد عجزت عن أن تصل إلى ذلك فهي تزعمه وتدعيه وتمثل هذه الرواية الغريبة ، التي هي أشبه الأشياء بقصة ذلك الرجل الذي أراد أن يتوصل إلى قلب حبيبته بعمل من أعمال البطولة التي يجيها النساء ويمنحهن الرجال عطفهن من أجلها ، كأن ينجيها من غرق أو ينقذها من هوة أو يخلصها من أيدي اللصوص - وهو أعجز الناس عن ذلك - فاستأجر جماعة من الغوغاء واتفق معهم على تمثيل رواية خلاصتها أنهم يكمنون لها في طريق مرورها تحت جناح الظلام حتى إذا مرت بعربتها هجموا عليها وتظاهروا بأنهم يريدون قتلها وسلبها ؛ فيمر هو في تلك الساعة ، كأنه في طريقه مصادفة واتفاقاً ؛ فيهجم عليهم هجمة شديدة تلقي الرعب في قلوبهم

لو أنكم أيها المنشقون بقيتم تحت لواء زعيمكم لم تفارقوه ولم تنتقصوا عليه إن لم يكن ذلك من أجله ، فمن أجل كرامة الأمة وشرفها والإبقاء على وحدتها وجامعتها ، ولو أنكم إذ أبيتم إلا أن تفارقوه فارقتموه بهدوء وسكون ، لم تثيروا الثائرة عليه ولم تطعنوا خلقه وشرفه وكرامته تلك الطعنات الداميات التي لا يحتمل وقعها في فؤاده أحقر الناس وأصغرهم في عين نفسه شأنًا . ولو أنكم يا أعضاء الوزارة بدلا من أن ترسلوا رشدي باشا إليه يوم استعصى عليكم أمره ليؤذنه بالحرب ، وليقول له : « إننا قد قررنا رفض شروطك وإغفال أمرك وإطراحك والاستقلال بالعمل من دونك ، رغم أنك وأنف الأمة التي تعز بها » أرسلتموه إلى دار الوكالة البريطانية ليقول لصاحبها إننا قد عجزنا عن إقناع سعد باشا بالتنازل عن شروطه التي اشترطها للمفاوضة ، وليس في استطاعتنا وهو زعيم الأمة وقائدها وقلبها الخفاق أن نخاطر بمجافاته ومناوئته إلا إذا قررنا المخاطرة بوحدة الأمة وجامعتها ، وذلك ما لا نرضاه لأنفسنا وما يابأه علينا شرفنا وإخلاصنا ، فما هي وزارتكم فخذوها إليكم فهي ونحن وكل ما تملك أيدينا فداء لأمتنا ووطننا . ولو أنكم إذ أبيتم إلا البقاء في مراكزكم وإلا أن تذهبوا إلى للمفاوضة رغم إرادة الأمة وإرادة زعيمها ذهبت باسمكم وحدكم ، دون أن تفتحوا باب العرائض والوفود وتدخلوا الأمة في شأن الثقة والتأييد ، فإن عدتم لها بالنجاح شكرت لكم فضلكم وأولتكم ودها وثقتها وإلا فلا يعنيها من فشلكم وإخفاقكم شيء .

لو أن ذلك كله كان لبقية الأمة طول حياتها في موقفها الجليل العظيم الذي وقفته في أعوامها الثلاثة الماضية : موقف الاتحاد والتضامن ، والقوة والبأس ، والعزة والشرف ، وظلت سائرة في طريق جهادها الوطني تحت قيادة زعيمها حتى تصل إلى الغاية التي رسمتها لنفسها أو تموت من دونها .

فأنتم يا خصوم سعد باشا ، وخصوم الأمة جميعها

وانتهاك حرمان الناس باسم حمايتها والذود عنها ، وأمثال ذلك من الأساليب العتيقة البالية التي ذهبت وانقضت عصرها بانقضاء عصور الجهالة والسذاجة ، وخدوا بنا في الحقائق المجردة الواضحة التي لا لبس فيها ولا إبهام .

ارفعوا الأحكام العرفية والقوانين الاستثنائية ، ودعوا الناس أحراراً يفكرون كيف يريدون ويقولون ما يشاءون مما لا يخرج عن دائرة القانون والنظام ؛ نصديق أنكم قوم أحرار تقدسون الحرية ومجملون شأنها . ترحضوا قليلاً عن تلك الحائظ الأجنبية التي تسندون إليها ظهوركم ، وتستظلون بظلها وتضربون تحت حمايتها ، وليكن النضال بيننا وبينكم وجهاً لوجه ؛ نصديق أنكم أصحاب رأي وعقيدة ، وأنكم إنما تعلمون بما توحيه إليكم آراؤكم وأفكاركم .

أشيروا على الوزارة بقطع المفاوضات وقولوا لها إن الأمة غير راضية عنها ولا عن نتائجها ؛ نصديق أنكم تنزلون على إرادة الأمة ورغبتها ، وأنكم تحترمون إجماعها وتنزلون على حكمها .

اعترفوا بالحقبة الواقعة التي تعلمونها وتعلمون أن الناس جميعاً يعلمونها ، وهي أن حزب الحكومة في مصر حزب مصنوع موضوع لو نفس عنه الخفاق قليلاً ، وتخلي عنه العاملان المهمان : ذهب المعز وسيفه لحظة واحدة لطار في أجواز الفضاء ، ولما بقي منه في مكانه إلا أفراد قليل لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد أو اليدين ، وأن مصر لا يوجد فيها إلا حزب واحد تطارده الحكومة وعمالها وأنصارها ؛ نصديق أنكم قوم صادقون مخلصون لا تقولون إلا ما تعتقدون .

هذه هي السبيل الوحيدة لما تطلبون إلينا من الثقة بكم والاعتماد عليكم واحترام آرائكم وأفكاركم وإجلال مقاصدكم وغاياتكم ، فإن فعلتم ؛ فأنتم إخواننا وأصدقائنا وأكرم الناس علينا ، وإلا فقد علمتم رأينا فيكم وما نحن بظالمين ولا عادين ، ونسأل الله لكم الهداية والتوفيق .

حقيقياً لا تمثيلياً ، فاتهمته بحب الرئاسة ، والسعي وراء الشخصيات ، ورميتموه بسوء النية والقصد !

وقال لكم إن الإنجليز لا يريدون بفتح باب المفاوضات معكم إلا الاستعانة بكم على تمزيق شمل الأمة وتبديد وحدتها ، وهي القوة الوحيدة التي تملكها ولا تملك غيرها وألا خير يرجى من هؤلاء القوم لكم ولا لغيركم ، فترتم في وجهه وسمحتم لأنفسكم أن تسيئوا الظن به ولا تسيئوه بالإنجليز .

وقال لكم احلروا أن تخطوا خطوة واحدة في طريق المفاوضات قبل أن تستوثقوا لأنفسكم بمرسوم سلطاني يحدد موضوع المفاوضات ، ويكون أساساً لها ، فأنكرتم ذلك عليه وزعمتم أن في أيديكم من الوعود المؤكدة والأقسام المغلفة ما يغنيكم عن هذا الاحتياط والاستيثاق .

وقال لكم إن الإنجليز يخافون أكثر مما يستحيون ، وإنهم لا يعرفون في السياسة مودة ولا إساءة ، وإنهم لا يريدون من استبدال مفاوض بمفاوض إلا الهرب من شدة الثاني والطمع في لين الأول ؛ فسفهم رأيهم وزعمتم أنهم قوم ذوو أخلاق كريمة وآداب عالية وعواطف شريفة وأمزجة رفيقة ، وأنهم يمنحون الصديق الذي يحسنهم أضعاف ما يمنحون العدو الذي يخاشنهم !

وقال لكم في نهاية الأمر لا إرادة لي ولا لكم في ما تقضي به الأمة وما تراه في شأني وشأنكم ، فلنتحاكم إليها ولننزل جميعاً على حكمها ، فأنكرتم ذلك منه وسميتموه رجلاً ثائراً متمرداً لا يخضع لقانون ولا نظام .

قال لكم كل شيء ، وحذرکم من كل شيء ، فلم تلومونه اليوم وتلقون تبعه إخفاقكم عليه ؟ ولم يملأ بغضه صدوركم حتى يصرفكم عن الالتفات إلى عدوكم الحقيقي الذي لعب بكم ، وعبت بعقولكم ، وكون منكم جيشاً جراراً لمحاربة أمتكم وتنغيص عيشها وتكدير صفاتها ، حتى إذا قضى حاجته منكم وفرغ من تمزيق شمل الأمة وصدع وحدتها على أيديكم ؛ أدار وجهه عنكم ونبذكم نبذ

المستولون عن ذلك الشمل المبدد ، والأديم الممزق والجامعة التي تشوه وجهها وزال رونقها وبهاؤها ، وعن حوادث الإسكندرية وطنطا وأسيوط وجرجا ، وجميع المظالم التي نزلت بالوطنيين الأبرياء في الأشهر السبعة الماضية ، من قتل وسجن وإعلام وتشريد وتعذيب واضطهاد ، وعن تلك النهاية المحزنة الأليمة التي انتهت بها المفاوضات الأخيرة . فاعترفوا بذلك ولا تكتسموه الناس عسى أن تجدلوا لكم في زوايا بعض القلوب مكاناً للرحمة بكم والإشفاق عليكم ولا تحاولوا إلقاء التبعة على غيركم فتضمنوا إلى جرائمكم الماضية جريمة العناد والإصرار .

من الذي عهد إليكم بالاستئغال بقضية مصر السياسية ؟ وأين هو المؤتمر الوطني أو الهيئة النيابية أو الجمعية الوطنية التي عهدت إليكم بذلك واختارتكم له ؟ ومتى كانت الشؤون السياسية ميداناً للتجارب والاختبارات ينزل فيه كل من أراد أن يجرب حذقه ومهارته ؟

إن الأمة لم توكل في قضيتها غير رجل واحد قد اختار بضعة أفراد منكم فيمن اختاره من أصدقائه ومعارفه للاستعانة بهم على عمله ، ثم لم يحمدهم أمرهم حين أحس منهم الغدر به وبالقضية المصرية فعزلهم وعزلتهم الأمة معه ، فما هذا التشبث البارد بعضوية الوفد والوكالة عن الأمة والنطق باسمها والمفاوضة عنها ، والأمة لا تعرفكم ولا تفهمكم ، ولا صلة نفسية بينها وبينكم ، ولم تعتقد في وقت من أوقاتها أنكم وكلائها أو نوابها أو أمانؤها على سياستها حتى أوردتموها بالحاحكم وفضولكم وسوء سياستكم هذا المورد الويل .

لا تلوموا سعد باشا على فشلكم وإخفاقكم ولوموا أنفسكم ، فقد أبلى الرجل البلاء العظيم في نصيحتكم وتحذيركم ، وتنبأ لكم بكل ما وقع لكم اليوم - كأنما كان يطالع صحيفة من صحائف الغيب - فلم تكتثروا له ولم تحفلوا بنصحه .

قال لكم إن المفاوضات الإنجليز لا يحفل ولا يعاب إلا بمفاوض يعتقد أنه يمثل أمة وينطق بلسانها نطقاً

حرصاً على مصلحة البلد وضناً بخلاصه وإنقاذه .

أ فهمتم الآن أنه لو كان نزل على رأيكم وخضع لأوامركم وأحلامكم ، وهذا هو ذنبه الوحيد الذي تأخذونه به ، لدفن معكم في الهوة التي دفنتم فيها اليوم ، ولم يبق في الأمة من بعده صوت صارخ ينادي بحريتها واستقلالها .

أ فهمتم الآن أنه لا يوجد بينكم رجل سياسي واحد يكتنه بواطن السياسة ويستشف أحماقها ، ويدير معركتها الإدارة الكافلة بفوز الأمة وانتصارها ، أو إنقاذها من خطر الوقوع في رقة الأسر على الأقل ، وأنه لو تم على يدكم إسقاط سعد باشا كما كنتم تريدون ، لظل حزنكم وبكاؤكم يوم تطلبون غيره ليقوم مقامه ويملاً فراغه ، فلا تجدون ؟

ماذا كان يظن أعضاء بعثتكم بأنفسهم يوم ذهبوا للمفاوضة على الصورة التي ذهبوا عليها ، وكيف كانوا يتصورون أن المفاوض الإنجليزي يعطيهم الاستقلال تاماً أو ناقصاً ، وقد تقدموا إليه بيد فارغة من كل قوة يستطيع المفاوض أن يعتمد عليها في مقارعة خصمه ، واستنزاه على حكمه ؟

لا يستطيعون أن يقولوا له إن الأمة قوية مسلحة تستطيع أن تنتصف لنفسها بنفسها إن لم تنصفوها ؛ لأنه يعلم كما يعلمون أنها ضعيفة عزلاء لا تحمل من الأسلحة أكثر من عصي الساحل ونبايت الحواتكة . ولا أن يقولوا إنها متحدة يداً واحدة ، وقد يكون الاتحاد قوة تقوم مقام القوة المادية لأنهم قدّموا إليه قبل ذلك الوثائق والمستندات الدالة على أنها منقسمة على نفسها ، وأنها فريقان : سعديون وعدليون يقتتلون في كل مكان يلتقون فيه ، كما كان يفعل البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا ، والمسلمون والوثنيون في الهند . ولا أن يقولوا له إنها متشددة في مطالبها الوطنية لا تقبل فيها مساومة ولا مهانة ؛ لأنهم قالوا له وأقسموا على ما قالوا : « إن أكثريتها قد انفضت من حول سعد باشا والتفت من حولهم » أي أنها قد تحولت من خطة التشدد والتطرف إلى خطة القناعة والاعتدال . ولا أن يقولوا

النواة بلا رحمة ولا شفقة ؟ وهذا هو المعنى الحقيقي للمفاوضة التي أجراها على أيديكم ، وهذا هو كل الغرض المقصود منها .

ليسأل عدلي باشا اللورد ملنر عن هذه النتيجة المحزنة التي انتهت إليها أمره ، فهو الذي خدعه وغشه ومناه الأمانى الكاذبة ، ووقف به على رأس ذلك الطريق الجميل الذي ظن أنه ينتهي به إلى زعامة الأمة وقيادتها ، ثم لم يلبث أن خذله وتخلّى عنه ، بل استقال من وظيفته حتى لا يتقيد بالوعد الذي وعده إياه .

ليسأل المنشقون عدلي باشا عن السقطة الأدبية العظمى التي هوت بهم من سماء العزة والشرف إلى حضيبض المهانة والضعفة فهو الذي زين لهم الانشقاق على زعيمهم والخلاف عليه وأغراهم باتخاذ خطة في السياسة غير خطته ، ففعلوا فكان ذلك عاقبة أمرهم وخاتمة مطافهم .

ليسأل الوزراء جميعاً المنشقين والوزراء عن خيبة الأمل التي لحقت بهم والصدمة الكبرى التي اصطدمت بها آمالهم وأمانيتهم ؛ فهم الذين خطبواهم واستهووهم وأطمعوهم في الجوائز والمنح والوظائف والترتب يوم يتم لهم الانتصار على أيديهم ، فلا هم أدركوا ما أملوا ، ولا هم بقوا في صفوف أمتهم يعملون معها ويجهادون في سبيلها !

ليسأل كل منكم صاحبه عن نكبته التي نزلت به ولا تسألوا سعد باشا عن شيء ولا تلوموه في أمر ، بل اشكروا له فضله عليكم ويده عندكم . فلولا جهاده ومعارضته ووقوفه في وجهكم ووجه مشروعيكم وقفة الأسد الهصور لثمت على يدكم الجريمة الكبرى ؛ جريمة تسليم البلد إلى أعدائه ، ولسجل التاريخ عليكم في صحائفه أنكم أصحاب تلك الجريمة ومقترفوها .

أ فهمتم الآن أن سعد باشا أصدق منكم نظراً ، وأعلى رأياً ، وأنفذ بصيرة في بواطن الأشياء ، وأنه ما كان يعارضكم يوم عارضكم حباً في الرئاسة ، أو سعيًا وراء الشخصيات كما كنتم تزعمون ، بل

بصورة أخرى غير صورتها ، ليقى لنا شقاؤنا وبلاؤنا الذي نحن فيه مدى الدهر ؟ وهل برئنا من دائها تمام البرء أم لا تزال بقية منه كامنة في أعماق صدورنا لا نعلم ما الله صانع بها ؟

وبعد : فأين هي المفاوضات التي تزعمون أنها قامت بها ، أو أنها قطعتها ، أو وصلتها ؟

إنها لم تفعل شيئا سوى أنها تقدمت لأداء الامتحان أمام اللورد كرز في القدرة على حمل مشروعه إلى الأمة وتنفيذه فيها فأخفقت فعاتت أدراجها !

فهل هذا هو الفخر الذي تزعمونه لها وتحتلونها إياه وتريدون حملنا بالأساليب الإدارية المعهودة على الاحتفال بها من أجله ؟

إن كان تمزيق شمل الأمة وتبديد وحدتها والاستعانة بالقوة الأجنبية على إخضاعها وإذلالها وسفك الدماء البريئة في الساحات والشوارع ، وزج الوطنيين المخلصين أفواجا أفواجا في أعماق السجون ، وابتياح الدم والضمائر ومحاولة إفساد الأخلاق القومية في جميع الدوائر والهيئات حتى في المدارس والمعابد والمحاكم ، والتفريق بين الوالد وولده والأخ وأخيه والصديق وصديقه والزوج وزوجه ، وإفساد سياسة الأمة عليها وإطعام أعدائها فيها والهبوط بالمفاوضات بعد ذلك كله وبعد تضحية جميع هذه الضحايا من مشروع ملنر إلى مشروع كرز ، مجداً وفخراً يستحق أصحابه الإجلال والإعظام والاحتفاء والاحتفال ، فرحمة الله على الفضيلة ولييك الباكون عليها وعلى مصيرها المحزن الأليم !

كونوا أيها القوم كيفما شئتم ، وأضمرنا لنا من النيات ما أردتم وربوا لنا في أذهانكم كل يوم مكيدة جديدة ودسيئة مبتكرة ، فمحال أن تنالوا منا مثلاً أو تصلوا من طريقنا إلى غاية ، فسنبني بعون الله وإسعاده كل ما هدمتم ونصلح كل ما أفسدتم . وسنعيد إلى حظيرتنا جميع إخواننا الذين أفسدتموهم علينا واختطفتموهم من صفوفنا ، لا نضعف ولا نفر

له إنها راقية متمدينة تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها ؛ لأنه يعلم كيف حصلوا على عرائض الثقة التي قدموها إليه وماذا صنعوا بآمتهم في سبيلها ، فماذا يعنيه من أمرهم بعد ذلك ؟

لا رعاكم الله أيها القوم ، ولا رعى يوماً اتصلنا بكم فيه ، فقد أفسدتم علينا كل شأن من شؤون حياتنا ، وهدمتم بحمقكم وخرقكم وسوء رأيكم في لحظة واحدة ذلك البناء الفخم الجميل الذي قضينا في بنائه ثلاثة أعوام كاملة ، ولم تقنعوا منا بذلك حتى جئتم اليوم تمنون علينا بأن بعثكم قد قطعت المفاوضات ، وأن لها ولكم الحق في الاختيار بذلك !

مرحى ! مرحى ! أ لم تكن المفاوضات مقطوعة من قبل اليوم على يد سعد باشا ! فهل كان غرض البعثة من ذهابها أن تقطعها مرة أخرى ، حتى إذا تم لها عادت تفخر بنفسها وتفخرون بها وتدعون الناس إلى الاحتفال بها عند قدومها ؟

تريدون أن نحتفل بها لنجدد بذلك عصر الجاهلية الأولى أيام ضراعة الشعوب وذلها ومهانتها واستخذائها وتقييلها يد ضاربها ، حين يضربها وشرب نخب انتصاره عليها .

تريدون أن نحتفل بها ليتحدث الناس عنا أننا قد رضينا بجميع المظالم التي نزلت بنا وأغضينا جفوننا على قذاها ، وغفرناها لها لأنفسه الأسباب وأهونها ، فيطمع فينا كل طامع ، ويعبث بحقوقنا كل عايب !

أ تريدون أن نحتفل بها لتبرز لنا كل يوم هيئة جديدة تفتح باب المفاوضات في القضية المصرية ، ثم تفلته لتتمتع بكلمات الثناء عليها ومشهد الاحتفال بها ، ونحن فيما بين هذا وذاك هلكى ضائعون !؟

أ تريدون أن نحتفل بها قبل أن نعلم هل نفضت يدها من المفاوضات إلى الأبد أو أنها قطعتها اليوم لتصلها غداً ، وهل صرفت النظر عن عرض مشروع « كرز » على الأمة ، أم تريد عرضه من طريق غير طريقها ؟ وهل الوزارة مصممة على الاستقالة أم تريد البقاء في مركزها ، أم تريد أن تنحل لتتألف مرة ثانية

والجانب الآخر من الميدان ؛ فرأيت سعد باشا واقفاً في مكانه أعزل لا سلاح معه ، ولا يحيط به إلا سواد الأمة الأعزل مثله ، فانبعثت من صدري صرخة الرعب والخوف ، وأيقنت أن الرجل هالك هو وأمته ما في ذلك ريب ولا شك . ثم هجم ذلك الجيش العظيم هجمته الكبرى التي لم يسمح بمثلها في تاريخ هجوم الأقوياء على الضعفاء والتي استمرت سبعة شهور كاملة لا تهدأ ولا تفتر ، فثبت الزعيم في مكانه ثباتاً غريباً مدهشاً ، وكأنما استحال إلى كرة فولاذية ملساء تتساقط عليها السهام ثم تنزلق عنها ، وربما أصابت جسمه بعض الجراحات ، ولكن لم يستطع سهم واحد أن ينفذ إلى قلبه ، وثبتت الأمة ببيائه فلم تهين ولم تضعف ، ولم تعاً ولم تحتفل ، ولم تأخذ بليلها الصور والتهاول ، ولم تتل من نفسها الأكاذيب والأراجيف ، ولم تعبت بعقيدتها الألسنة الخالية ، والأقلام الخادعة ، وها هي الأيام قد أخذت تدور دورتها ؛ فانقلب الجيش المهاجم مدافعاً والجيش المدافع مهاجماً ، ولله في خلقه شؤون !

انظر إليهم ها هم يقهقرون ، وإن كانوا لا يزالون بضربون . ها هي ألسنة خطبائهم تتلجلج في أفواههم ، وأقلام كتابهم تضطرب في أيديهم . ها هي وجوههم قد علتها غبرة الموت ، وقلوبهم تنزى بين جوانحهم تنزي الكرة في أيدي ضاربها . ها هي أصواتهم قد مزجها آئين محزن كآئين المحضر ، وصرخاتهم قد استحالت إلى عواء كعواء الثئاب . ها هم يخلطون ويهذون ويسبون ويشتمون ويصخبون ويستخدمون - أي أنهم يلجأون إلى السلاح الأخير الذي يلجأ إليه المقهور في ساعته الأخيرة . ها هم يخافون من كل شيء ، حتى من خطية يخطيها أزهري في مسجد ، أو كلمة يلقيها طالب في متنزه ، أو صرخة صرخها صارخ في محفل ، ومن همس الهامس في أذن أخيه ، ونظرة الناظر في وجه صاحبه ، ومن قدوم جماعة من أعضاء مجلس النواب الإنجليزي الأحرار إلى مصر لا يملكون إلا قليلاً من الحول والقوة ، ومن سفر الزعيم من بلد إلى بلد لا يحمل إلا قلبه ، ولا يملك إلا لسانه .

ولا نهن ولا نبأس ، فما خلقت الأم إلا للجهاد . ولا لذة للحياة إلا بالعمل ، حتى يأتي عليكم ذلك اليوم الذي تفتننونه فيه تمام الاقتناع بأن في الأمة رأياً عاماً جدياً ، لا يسمح لرأس معوج يريد أن يرتفع على حسابها ، وحساب ظلمها وإساءتها بالبروز من ممكنه ، وأن لا قوة في مصر غير قوة الشعب ، ولا حكم فيها إلا حكمه .

* * *

عبرة الدهر

الآن أمنت على مصر أبد الدهر ، وأيقنت أن الباطل ظل زائل لا ثبات له ، وأن الحق صخرة عاتية لا تزعزها العواصف ولا تعبت بها عاديات الأيام .

فقد مرت في غضون الأشهر الفائتة ساعات أعترف أنني خفت فيها على الحق أن يقتاله الباطل ويصرعه عندما أشرفت على ذاك الميدان الواسع الفسيح - ميدان المعركة السياسية المصرية - ورأيت ذلك الجيش اللجب العرمم ؛ جيش الباطل زاحفاً بخيله ورجله ، وفي مقدمته القوة الإنجليزية بمدافعها وطياراتها وصواعقها ورجومها ، وفي مؤخرته القوة المصرية بينادقها وسيوفها وسياطها وعصيها ، وفي جناحيه الوزارة يحيط بها أنصارها وصنائعها وذوو الحاجة إليها ، والمنشقون يحيط بهم خدمهم وفلاحوهم وأجراؤهم وأهلوه وذوو أرحامهم . وفيما بين هذا وذلك الكتاب الكاذبون والخطباء الخادعون والدعاة الخبثاء ، والجواسيس الدهاة ، والأحكام العرفية والمجالس العسكرية والقوانين الاستثنائية ، والأكاذيب والأراجيف والعمور والتهاول ، وكل مايمكن أن يسمى قوة يهجم بها هاجم على خصمه ليسلبه في آن واحد قوة جسمه وقوة قلبه وقوة يقينه . وقد ذهبت لذلك الجيش في آفاق السماء جلجلة الرعد القاصف وانتشر له في جميع الأنحاء يريق يخطف الأبصار ، ويعشي الأنظار ، فالتفت إلى

بسلح الخديعة والمكر الذي ألّفتكم أن تنتصروا به على الشعوب الشرقية قرونًا عدة فانهزمتم أمامنا ، واستطاع هذا الشعب الشرقي الصغير ، حديث العهد بالسياسة وأساليبها وألاعيبها ومناوراتها أن يدرك خبايا مقاصدكم ومراميكم ، وأن يمزق عن وجوهكم ذلك الستر الكثيف الذي كان يجللها ، وأن يقول لكم بصوته العالي المرتفع : « لا أقبل الخدع والألاعيب ، فإما الاستقلال تامًا صريحًا لا رية فيه ، أو لا شيء » .

إننا أقوى منكم ؛ لأنكم لم تستطيعوا أن تخذعونا عن أنفسنا ، ولا أن تستزلونا عن عقيدتنا وبقينا ، أما تلك القوة الميكانيكية التي تهبوننا بها في شوارع البلاد وأزقتها ، وتملأون بهارجة الأرض وجو السماء ، فهي مما لا يفخر به الفاجر ولا يدل به المدل ؛ لأنها شيء ، والصفات النفسية والمزايا العقلية شيء آخر .

هل استطعتم بعد مقامكم بيننا أربعين عامًا أن تصطنعوا رجلا واحدًا من بين هذه الملايين الكثيرة يحكم ويخلص لكم ؟

هل استطعتم بعد أن سقط ذلك البرقع الكثيف عن وجوهكم ، وبدت للناس صفحتكم أن تجدوا ثمانية أشخاص يؤلفون لكم الوزارة التي تريدونها لتستعينوا بها على تنفيذ مشروعاتكم ؟

هل تستطيعون أن تزعموا أنكم على ثقة تامة بإخلاص شخص واحد من هؤلاء الموظفين الكثيرين الذين قضى عليهم سوء حظهم أن يعملوا معكم ، ويخضعوا لسلطتكم ، حتى الذين غمرتموهم منهم بالنعم ، وملأتم عليهم ديارهم رغداً وهناء ؟

هل تستطيعون أن تبتاعوا بأموالكم الكثيرة التي لا حد لها قلما مصريًا صميمًا يتولى نشر دعوتكم ، وتأييد سياستكم ، كما تفعلون في كل مكان حتى في أوروبا وأمريكا ؟

إذن أنتم ضعفاء ونحن أقوياء ، ولنا أن نفخر بهذه القوة التي نعتمد فيها على شرف أخلاقنا ، وعزة نفوسنا ، ومثانة عقيدتنا ، وشدة إخلاصنا لوطننا . وليس لكم أن تفخروا بتلك القوة التي تعتمدون فيها على

ما بالهم ، وما الذي دهامهم ؟ ولم يخافون ، والقوة في أيديهم ، والأيام مواتية لهم ، والدهر نازل على حكمهم ؟ نعم ، ولكنهم مبطلون ، والباطل لا قوة له وإن اجتمعت في يده جميع القوى . تلك عبرة الدهر التي يجب أن يعتبر بها أولادنا وأحفادنا من بعدنا .

فلتقرأوا يا أبناء الأجيال المقبلة هذه الصفحة المجيدة من تاريخ حياتنا لتعلموا أن رجلاً واحدًا من أبناء أمنكم تمسك بالحق ، فاستطاع أن يثبت أمام أقوى قوة في العالم ، وأن يثبته أنقذ مصر من أعظم نكبة كان يدخرها لها الدهر في طيات تصاريفه ، ولتحنوا رءوسكم أمام هذه الذكرى المجيدة إجلالاً لها وإعظاماً لشأنها ، ولتجعلوها مثلكم الأعلى في مستقبل حياتكم ، وعبرتكم البليغة التي تغنيكم عن جميع العظات والعبر .

الآن أمنت على مصر أبد الدهر ، فما في العالم قوة تستطيع أن تهاجمها أعظم من هذه القوة ، وليس في الإمكان أن تخل بساحتها نكبة أهول من هذه النكبة ، وما أحسب إلا أن الله تعالى قد أراد أن يهلوها ويختبرها فامتحنها بهذه المحنة الفادحة ؛ ليرى كيف يكون صبرها واحتمالها ، وقوة يقينها وإيمانها ، فيمنحها من حسن الجزاء على قدر ما تبذل من حسن البلاء ، وقد أبلت بلاء لم يله أحد من قبلها ، فلتنتظر الجزاء الأوفى ، والمثوبة العظمى ، ولتهنأ منذ اليوم بالمستقبل الباهر السعيد .

* * *

إلى أعدائنا

١

نعم إنكم أقوياء جدًا ، بل لا توجد قوة في العالم توازي قوتكم ، ولكننا على ضعفنا وخلو أيدينا من السلاح والعدة أقوى منكم ؛ لأنكم حاربتُمونا

وهيبكم الله من دهاء سياسي وحيلة عقلية في هذا السبيل ، فنحن المنتصرون ، وأنتم المنخذلون .

٢

ماذا جنى الرجل عليكم ، فتنفوه إلى أقصى بقعة من بقاع الأرض ، وما هو بثائر ولا محارب ولا عرف له الناس موقفاً يدعو فيه بدعوة الجاهلية الأولى ، أو ينطق فيه بكلمة الدم التي ينطق بها الثائرون في كل شعب وأمة ؛ ليستثيروا بها حفاظ النفوس ، ويدفعوا بها الرجال إلى موطن الموت ؟

أين هو الجيش الذي قاده لمحاربتكم ، وأين هي الجموع التي سلحها وزحف بها عليكم ، وأين هي الثورة التي أشعل نارها ، أو الفتنة التي أحيا مواتها ، فتعاقبوه هذا العقاب الشديد الذي اعتدتم أن تعاقبوا به زعماء الثورات وقواد المؤمرات ؟ لا بل إنكم ما عاقبتم زعماء أعدائكم الذين رروا الأرض بدمائكم ، وغطوا وجهها بأشلائكم ، ونالوا منكم أشد ما ينال محارب من محاربه يمثل هذا العقاب المؤلم الشديد ، وقد كنتم تزعمون ويزعم كثير من الناس لكم أنكم أمة العدل والقانون ، وأن الشمس لا تطلع في مدار من مداراتها على محكمة مثل محكماتكم ، وقضاة مثل قضاةكم ، وميزان قسط وإنصاف مثل ميزان قسطكم وإنصافكم .

إن الرجل لم يكن جباناً ولا رعديداً ، ولا من المغرقين في حب حياتهم ، أو الضائين بها على مواقف المجد والشرف ، ولو شاء أن يشعل نار الثورة في كل مكان وأن يقود الرجال إلى موطن الموت لفعل ، ولكنه لم يفعل ، ولا فكر في شيء من ذلك ، لأنه من فريق الدعاة لا من فريق الثوار ، ولأنه رجل عاقل حكيم لا يخطو الخطوة الواحدة حتى يقدر لها موضعها . وكانت لهجة الدائمة التي لا تفارقه في جميع مواقفه ومشاهدته الدعوة إلى السكون والهدوء والعمل في دائرة القانون والنظام والمطالبة بالحقوق الوطنية بالطرق المشروعة السائغة ، أي أنه كان رجل حجة وبرهان ، لا رجل نزال وطعان ، فلماذا لم تعرفوا له هذا الشعور الطيب

السيف والنار ، كما كان يفعل الهون في أوروبا ، والمغول في آسيا ؛ لأنها أقرب إلى صفات الوحشية وغرائزها ، منها إلى روح المدنية ومزاجها .

نعم إنكم اعتقلتم سعد باشا ، ولكن بعد أن صرع زعماءكم وقادتكم في ميدان السياسة ، وأفسد عليكم تلك المؤامرة العظمى التي كانوا يريدون بها اعتقال مصر واستعبادها إلى الأبد ، فقد صودر سعد باشا واعتقل ، ولكن مصر قد نجت .

في استطاعتكم أن تصبغوا وجه مصر بالدماء ، وأن تملأوا بطنها بالأشلاء ، ولكن ليس في استطاعتكم أن تتقوا نظرات الاحتقار والازدراء التي نلقيها عليكم حين نراكم ، ولا أن تطفئوا نار الحقد والموجدة التي تنبعث من ألسنتنا وصدورنا إلى وجوهكم ، ولا أن تتألوا من تلك العقيدة الراسخة في قلوبنا ، وهي أنكم أضعف الضعفاء ، وإن كنتم أقوى الأقوياء ، وأن هذه القوة التي تعتمدون عليها وتُدُلُّون بها ليست قوة السياسة ولا قوة الفكرة ولا قوة التدبير ، وإنما هي قوة الشر والغضب .

اقتلونا ولكن بأيديكم لا بأيدينا . ألقوا الوزارة ولكن من رجالكم لا من رجالنا . املكوا علينا كل شيء إلا قلوبنا وأفئدتنا . احكمونا باسم الأحكام العرفية والأساليب العسكرية ، لا باسم القوانين الشرعية والأحكام السماوية والأرضية . افتخروا بأنكم قمعتم الحركة المصرية ، وأنكم أخفتم الناس وأرهبتموهم ، ولكن لا تفخروا بأنكم حللتم مشكلة مصر إلى الأبد .

إنكم لا تحاربونا من أجل احتلال البلاد ، فأنتم محتلوها ، ولا من أجل الاستيلاء على مواردها وأرزاقها ، فهي جميعها تحت سلطتكم وسيطرتكم ، ولا من أجل إطفاء الثورة وقمعها ، فالأمة التي لا سلاح لها لا ثورة فيها ، ولكنكم تحاربونا من أجل إرغامنا على الاعتراف بمركزكم الشرعي في مصر ، وما دمت لم تصلوا إلى هذه الغاية بعد بذلك ما

سوى أنكم ظلمتم الرجل وبؤتم يائمه ، لا أكثر من ذلك ولا أقل !

ماذا جنى سعد باشا عليكم سوى أنه كان يطالبكم بحقه وحق بلاده بالحجة والبرهان ، ولا يوجد في تاريخ من تواريخ الأمم القديمة أو الحديثة قانون متمدين أو متوحش يعتبر هذا العمل جريمة يعاقب عليها صاحبها بإزعاجه من مأمنه ، وإقصائه عن أرضه ، ووضع ذلك السد المنيع بينه وبين جمال الحياة ورونقها ؟

لَمْ تنتزعونه من سرير نومه قبل أن تتبعث الطير من وكناتها وتطيرون به إلى ذلك المنفى القضي البعيد الذي لا يعلم إلا الله ما يكون مصيره فيه ، وما هو بقاتل ولا سارق ولا مختلس ولا داع إلى ضلالة ولا قائم بفتنه ، ولا طالب شيئاً سوى أن يعيش هو وقومه أحراراً كما تعيش الطيور في أجوائها ، والسوائم في مراتعها والأسماك في دمائها ؟

لَمْ لم ترحموا شيخوخته ومرضه ، وأنه رجل أعزل ضعيف لا يملك من القوى غير لسانه الذي يذود به عن وطنه وقومه ، ومتى كانت الألسنة والأقلام جيوشاً وجحافل تنازلها الجيوش والجحافل ؟

لَمْ لم تحاجوه وتقنموه بحقكم الذي تزعمونه لأنفسكم بدلا من أن تقولوا له : « إما السكوت وإما النفي » ؟

ما أغرب شأنكم أيها القوم وما أعجب تصوراتكم ! أ فيما بين يوم وليلة تنقلبون معنا من أصدقاء أوفياء تجالسونا على منضدة واحدة لتفاوضونا على قاعدة الحرية والمساواة والود والإخاء ، إلى أعداء حاقدين واجدين تسفكون دماءنا وتمزقون أشلاءنا وتشردون زعماءنا تحت كل نجم وكوكب ! موقنا لم يتغير ولم يتبدل سوى أننا وقفنا لحظة أمام المشروع الذي قدمته إلينا نعم النظر فيه ، هل هو استقلال حقيقي كما تقولون ، أم شيء غير ذلك نسمنه استقلالاً ؟

نقسم لكم بالله لقد جعلتمونا نرتاب فيكم ، وفي كل ما تطلع عليه شمسكم ، ونقيء عليه

الشريف الذي كانت تشتمل عليه سريرة نفسه ، ولم لم تحترموا فيه تلك العاطفة الطاهرة الكريمة التي كانت تتدفق بين جنبه شرقاً ونبلاً ، وتسيل رحمة وإحساناً ؟

إنكم أقوياء جداً ، ما نازعكم في ذلك منازع ، وها هي جيوشكم وأساطيلكم وأسلحتكم ودباباتكم وطياراتكم تملأ البحار والقفار ، والسهول الجبال ، والتهائم والنجود ، والشوارع والأزقة ، والأجواء والآفاق ، فماذا عليكم لو أنكم تركتم الرجل في مكانه هادئاً مطمئناً لا تهيجونه ولا تزعجون ، حتى إذا أثار عليكم الثائرة التي تخشونها لجأتكم إلى قوتكم ، فقمتموها كما تفعلون اليوم وقد قامت لكم الحجة عليه واعتصمتم في أمره باليقين الذي تطمئن إليه نفوسكم ، وتنقطع به حجج المؤاخذين لكم ، والناقمين عليكم ؟ وإن كانت الأخرى كفيتم أنفسكم وكفيتمونا هذا الشر المستطير بيننا وبينكم ، وحقتكم تلك الدماء التي سالت في بطاح الأرض بلا جريرة ولا سبب !

تؤكد لكم يا قوم أن الأمة المصرية لم تكن آلة في يد سعد باشا يصرفها كيف يشاء كما وهمتم أو كما أوهمكم ذلك الضعفاء منا ، وأن روح الوطنية المنتشرة فيها ليست روحاً صناعية كاذبة يحييها وجوده ويميتها نفيه ، وأن نفيه إلى أقصى بقعة من بقاع الأرض ، بل الذهاب به إلى مصير أعظم وبلاداً وهولاً من هذا المصير لا يحل عقدة واحدة من عقد المسألة المصرية ، ولا يغير وجهاً واحداً من وجوهها ، ولا ينتقل بها خطوة من مكانها . أي أنه لا يسمح للمستوزرين بتأليف الوزارة التي يريدونها ، ولا براحتهم وهدوئهم فيها إن هم ألفوها ، ولا يفسح لأولئك القوم الذين تسمونهم المعتدلين ، ونسميهم المساكين ، مجالاً أوسع من المجال الذي يضطربون فيه ، ولا يفتح في جدار الوطنية ثغرة صغيرة تتمكن مكيده المشروع الكرزوني أو الملنري من الانحدار منها ، وأنكم لم تستفيدوا من كل ما عملتم شيئاً

إلى بعض ، ولا أعلم هل تلك الحمرة الخفيفة التي جالت في وجوههم في تلك الساعة كانت خالصة كلها للسرور والغبطة ، أم كان يمازجها شيء للخجل والحياء ؟ ولعلها كانت الثانية ؛ فإني من لا يعتقد أن الضمير الإنساني إذا جمد ينتهي به جموده إلى الموت .

أنت سجين وهم مطلقون ، أنت معذب وهم ناعمون ، أنت مستوحش منفرد في قفرة جرداء لا أنيس لك فيها ولا سميع إلا بضعة أفراد مثلك منفردين ، وهم مؤتسسون بالعيش في قصورهم وبساتينهم وملاعبهم ومسارحهم ، بين نسائهم وأولادهم وصحبهم وخلانهم ، أنت مكتئب حزين يتقاسم قلبك همًّا : هم نفسك ، وهم قومك ، وهم فرحون متهللون ، يطفرون ويمرحون ، ويطيرون بأجنحة سرورهم وجورهم في كل جو وأفق ، لا يخالط نفوسهم هم واحد .

ولكن هل أنت على ذلك شقي ؟ وهل هم على ذلك سعداء ؟ لا ! لقد كانت لهم أمنية أن تغيب عنهم فيغيب عنهم اسمك وذكرك ، وضوضائك وجلبتك ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فالنفوس نائرة ، والقلوب واجدة ، والهتاف باسمك يملأ الآفاق والأجواء ، والدعاء بشارك يلاحقهم في كل مكان يسرون فيه ، وعيون الحقد والبغضاء تضرب حولهم نطاقاً نارياً لا سبيل لهم إلى التفكُّت منه والخروج من دائرته ، فأنت الحر الطليق ، وهم الأسراء المسجونون ، ولكنهم يتجلدون ويصابرون !

أنت تعيش من فضيلتك وشرفك ، ومن رضاك عن نفسك واغترباطك بأداء واجبك ، ومن راحة ضميرك واستقراره ، وهدوء نفسك وسكونها ، في أرحب من رقعة الأرض وأفسح من ديباجة السماء ، وهم يعيشون من وخزات ضمائرهم ، وقلق نفوسهم ، ووساوس صدورهم ، وخوفهم على تلك اللقيحات المفلوظات التي هي كل ما ظفروا به من حياتهم أن تهب عليها عاصفة من العواصف ، فتطير بها وتطير بهم معها ، ومن شبك الهائل المخيف الذي لا يفارق

ظلالكم ، وفي الريح التي تهب من أرضكم ، والماء الذي ينحدر من بحركم ، بل وفي العلم الذي تشتمل عليه كتبكم ، والمحور الذي تدور عليه مدينتكم ، ولقد مرت بنا أيام كنا لا نتمنى على الله فيها شيئاً سوى أن نصل في المدنية إلى الذروة التي وصلتم إليها ، فقد أصبحنا ولا أبغض إلينا من التشبه لكم ، والتخلق بأخلاقكم ، والسير على آثاركم ؛ مخافة أن تصبح مدينتنا في مستقبل أيامها مدنية وحشية ، لا عهد فيها ولا ذمام !

سنأكل الشيع والقيصوم إن عز الطعام إلا من أيديكم ، ونلبس الجلود والفراء إن أفقرت الأرض إلا من مصانعكم ، ونشرب الملح الأجاج إن أبى العذب الزلال أن ينبع إلا في أرضكم ، ونعيش في الظلمة الداجية إن أبت الشمس أن تشرق إلا من آفاقكم ، وسنخلع عن أرضنا ثوب الخصوبة والجمال ونلبسها ثوب القحط والجذب لنقطع سبيل مطامعكم فيها ، ونكدر عليكم صفاء العيش بين ظلالها وأموائها ، غير شاكين ولا متبرمين ، فلا خير في نعمة يكدرها اللذ ، وبعدك الماء لا يشربه شاربُه إلا ممزوجاً بدم !

إن في السماء إلهاً ، وإن في الأرض عدلاً ، وإن العناية الإلهية التي تضم إلى أجنحتها ضعف الضعيف ، ويؤس البائس ، ومظلمة المظلوم أرحم من ألا تحفل بهذه الدموع التي تدرفها الأمة حزناً على شيخها الشهيد المظلوم :

رويدك حتى تنظري عم تنجلي

غمامة هذا العارض المتألق

* * *

إلى سعد باشا في منفاه

في الساعة التي نزلت فيها إلى قاع السفينة « نوراليا » لتفارق هذا العالم كله إلى جزائر « سيشيل » صعد خصومك إلى كراسي مناصبهم فرحين متهللين يهنئ بعضهم بعضاً ، ويسم بعضهم

مهدة هي هامة اليوم أو غدا .

. فهم لم يفقدوا إلا وجهك ، ولم ينالوا إلا من جسمك ، ولم يحصلوا في أيديهم من كل ما عملوا إلا على إثم الجريمة وعارها !

آه يا سيدي لو تيسر لك أن تراهم لرأيت قوماً معذبين متألين ، حائرين ذاهلين ، لا يهناون في نوم ولا يقظة ، ولا يهدأون في سكون ولا حركة ! قد ضاقت بهم الحيل ، وتشعبت بهم السبل ، وانتشرت عليهم الآراء والأفكار ، لا يعلمون ماذا يأخذون وماذا يتركون ، لا عمل لهم في حياتهم سوى أن يسألوا أنفسهم ليلهم ونهارهم : ألا يستطيع هؤلاء الناس أن يرضوا منهم بدون عودتك ، وعودتك موتهم الأحمر ، وشقاؤهم الأكبر !

يثرنون الذهب على الناس نثرًا ؛ ليتألفوهم ويستندونهم فيلتقطونه وهم يلعنونهم ؛ لأنه مالهم قد أخذوه منهم ، ثم نثروه عليهم .

يوزعون الرتب والنياشين على الخاملين والمغمورين ، ليكونوا أعوانهم وأنصارهم بدل الأعوان والأنصار ، فيمنحونهم من ألسنتهم ووجوههم ما لا يمنحونهم من قلوبهم وأفئدتهم ؛ لأن الحب لا يشتري بالأسماء والألقاب .

يخلعون الوظائف الكبرى والمناصب الخطيرة على صغار الموظفين وأحداثهم ؛ ليخلبوهم ويهروا عقولهم فلا يصنعون لهم شيئاً سوى أن يجاملوهم في مجالسهم ببعض ما يحبون ، فإذا خرجوا من عندهم خرجوا بهم ساخرين .

يتنازعون أقلام فقراء الكتاب وضعفائهم ؛ ليكتبوا لهم ما يحط من شأنك ويرفع من شأنهم ، فيفعلون كارهين متبرمين ؛ لأن القلم لا يجد لذة المراح والجولان إلا في ميدان الصدق والاعتقاد .

يصيحون في الناس بلهجة الخبثاء الماكرين : أبشروا أيها الناس ؛ فقد جئناكم بالاستقلال الذي هو خير لكم من سعد ، فيجيئونهم بهدوء وسكون : لو كان صحيحاً ما تقولون لكان سعد أول من يتمتع به لأنه صاحبه .

مضاجعهم ، ولا يرح يقظتهم ومنامهم ، ولا يزال يتمثل لهم في طعامهم الذي يطعمون ، وشرابهم الذي يشربون ، وفي جميع ما تمتد إليه عيونهم ، وتتصل به أسماعهم ، في أضيق من كفة الحابل وأضنك من عيش السجين !

لا سجن في الدنيا غير سجن النفس ، ولا حرية فيها غير حريتها ، وليست سعادة المرء بمقدار ما يحيط بجسمه من الفضاء بل بمقدار ما يحيط بنفسه منه .

فما سجنك الذي تعيش في جوه الموحش المكتئب وبين جدران المتقاربة المتدانية بمانعك من أن تطير بنفسك العالية الخفاقة في ما تشاء من الآفاق والأجواء ، وأن تتمتع برؤية هياكل مجدك وعظمتك المقامة لك على ضفاف النيل من طيبة إلى الإسكندرية ، وأن تسمع دقات القلوب الخافقة بجلك ، وأحاديث النفوس الهائفة بذكرك .

وما فضاؤهم الرحب الفسيح الذي يحيط بهم بمجد عليهم شيئاً إذا حاولوا الحركة والاضطراب فيه ؛ لأنهم يعلمون أنهم يعيشون في أمة قد تروها وأسفوها ، وغرسوا الحقد والبغضاء في صدورهم ، فهم على قوتهم وبأسهم ، وعلى ضعفها وتجردها من كل سلاح وعدة ، يخشونها ويخافونها ، ولا يطيقون أن يحتملوا نظراتها النارية التي تلمح وجوههم ، ولا صرخاتها الدموية التي تلوي في آذانهم ، فهم دائماً فارون مطاردون كأنهم بعض المجرمين ، لا عمل لهم في حياتهم سوى أن يسألوا أنفسهم أين يعيشون ، وكيف يعيشون ؟

إنهم لم يريدوا مطاردة جسمك بل نفسك ، ونفسك باقية في مكانها لم ترحه ، ولم يعتقلوك من أجلك ، بل من أجل القضاء على الروح الوطنية من بعدك ، والروح الوطنية نامية زاهرة تضرب أعراقها في أعماق القلوب ، وتهفو ذوائبها في آفاق السماء . ولم ينقموا عليك حياتك ولا وجودك ، بل وقوفك في وجه متحتهم بمناصبهم التي هي كيان حياتهم وقوام أمرهم ، والتي لا سبيل لهم إلى العيش إلا في ظلها ، ولا الحياة إلا في دائرتها ، ومناصبهم منغصة

سبيل إلى البقاء .

وكذلك ينتقم الله لك منهم يا مولاي انتقاماً تهتز له أقطار الأرض ، وتضطرب له أكناف السماء ، وكذلك يسجل لهم التاريخ في صفحاته من العار والشنار ما سجل لأمثالهم من الخارجين المارقين .
مولاي !

لا الشمس الطالعة من مشرقها صفراء كالذهب تنشر الأضواء في الآفاق ، وتعاث بأشعتها اللامعة المتألقة ذوائب الأشجار وقمم الجبال ورؤوس الهضاب وتبعث الأزهار من أكمامها والطيور من أوكارها .

ولا البدر السائر في سمائه بعظمته وجلاله بين حاشية من كواكبه ونجومه ، يمسح بليقته الفضية جبين السماء ، ويمزق حجب الظلام عن وجه الغبراء .

ولا الربيع المقبل في أثواب زهره ورياحينه ، ومطارف غدرانه وجدوله ، يوشى بساط الأرض بأبدع الألوان وأبهائها ، ويملأ الفضاء الرحب بأطيب الروائح وأعبقها .

ولا الطيور الصادرة على أفنانها ، توقع نعماتها على خريف الماء ، وترجم في توقيمها عن شجو النفوس وحنينها ، وخفقان القلوب وأنينها .

ولا أحلام الحياة اللذيذة المنبعثة في النفوس انبعاث الراح في الأجسام ، تخفي موانها ، وتستثير نشوتها ، وتهز أعطافها ، وتديقها حلالة المني ولذة الأمل .

ولا الدنيا وجمالها ، ولا الأرض وبهجتها ، ولا السماء وزينتها ، ولا البحار وروعيتها ، ولا المروج وخضرتها ، ولا الأزهار ونضرتها ، بقادرة على أن تنسينا أيامك الفر البواسم التي كانت غرر الدهر وحجرله ، وزينة الدنيا وبهجتها ، ولا بمستطاعة أن تنزع من بين قلوبنا مرارة الحسرة على فراقك ، واللهف إلى لقاءك ، فمتى يجمع الله بيننا وبينك !
لا أوحشت دارك من شمسه

ولا خلا غابك من أسده

يحلفون لهم بالله جهد إيمانهم أنهم لا يريدون بهم إلا خيرا ، ولا يضمرون لهم إلا ما يحبون فيقولون لهم : ولماذا إذن نفيتم سعدا ؟

يحاولون بكل ما يعرفون من الوسائل أن يفصلوا بين قضيتك وقضية مصر ، فكأنما يحاولون الفصل بين الشمس وشعاعها ، والنار وحرارتها ، والمقدمة ونتيجتها .

يصخبون أخيراً ويحتدمون ويقولون إن التشبث بعودة سعد مسألة شخصية ، فتتجاوب الأصداء من كل ناحية : هبوا أن الأمر كما تقولون ، وهل تشيئكم بمناصبكم وعضكم عليها بالنواجذ ومخاطركم بكل شيء في سبيلها مسألة غير شخصية !

فأنت يا مولاي قذى عيونهم ، وغصة حياتهم ، وشغل قلوبهم وأفئدتهم ، والحجة القائمة عليهم أحسنوا أم أساءوا ، أعطوا أم منعوا ، نفعوا أم ضروا .

ولقد تخدثهم نفوسهم أحياناً بالتخلي عن تلك المناصب الشقية وتوديعها إلى الأبد سامة وضجراء ، وضيقاً وحسراً ، ولكن يحول بينهم وبين ذلك علمهم أن الأران قد فات ، وأن الأمة لا تغفر لهم ذنوبهم ، ولا تقبل لهم عثرائهم ، وأنهم لا يستطيعون أن يجدوا في فضاء الأرض ذات الطول والعرض ظل حصاة يلجأون إليه من نقمة الأمة وغضبها ، فلا يجدون لهم بُدّاً من أن يستمروا قابعين وراء تلك الأكمة التي تخميهم وتذود عنهم ، وربما كانوا يكون وراعيها دماً !

فمثلهم كمثل الفأرة من بيت أبيها إلى بيت خليلها ، يلحقها الندم ، وتضييق بها ساحة العيش ، فتود لو رجعت إلى بيتها الأول ، ولكنها لا تستطيع .

وكانهم يحمانهم وقد ملوهم وشموهم ، وضجروا بمكانهم ، لأنهم ما منحروهم هذه المناصب حباً وإيثاراً ، أو منة وفضلاً ، بل ليمهدوا لهم السبيل إلى ذلك الاتفاق الذي يريدونه ، ويقوموا لهم بوظيفة تحويل شعور الأمة إلى سياستهم ، واقتيادها إلى حظيرتهم ، من طريق الكيد والدهاء ، لا من طريق القوة والعنف ، وقد عجزوا عن ذلك ، فلم يبق لهم

ويسعدون بها . وكيف تتولى أمر نفسها بيدها ، حتى لا يخذعها الخدم عن مالها ، إن كانت ذات خدم ؛ أو تستغني عن معاونتهم ، إن عجزت عن اتخاذهم . وكيف تستنبط من ثقب الإبرة ، في اليوم الذي تفقد فيه عائلها ومعينها ، قطرات من الرزق تقيم بها أودها ، وتصون بها ماء وجهها .

وكتابك - يا سيدي - هو الجواب عن جميع ما تطلبه ، وتسائل نفسها عنه ؛ فلا غرؤ إن أعجبها وأطربها ، ولا عجب إن فضلت على كل كتاب حتى كتاب أبيها .

أشكر لك ، يا أنطون ، تلك اليد البيضاء التي أسديتها إليّ وإلى أمّتك ، وأنصح لجميع الآباء والأمهات أن يجعلوا كتابك هذا خير هدية يقدمونها إلى فتيانهم ، وأن يأخذوهن بتلاوته مع كتب صلواتهن في مطلع كل شمس ومغرب ؛ فما أحرزت الفتاة في بيتها خيراً من كتاب « الفتاة والبيت » .

* * *

الضمير

أ تدري ما هو الخلق عندي ؟

هو شعور المرء أنه مسؤول أمام ضميره عما يجب أن يفعل ؛ لذلك لا أسمي الكريم كريماً حتى تستوي عنده صدقة السرّ وصدقة العلانية ، ولا العفيف عفيفاً حتى يعفّ في حالة الأمن كما يعفّ في حالة الخوف ، ولا الصادق صادقاً حتى يصدق في أفعاله صدقة في أقواله ، ولا الرّحيم رحيماً حتى يكي قلبه قبل أن تبكي عيناه ، ولا المتواضع متواضعاً حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأي الناس فيه .

التخلق غير الخلق ، وأكثر الذين تُسميهم فاضلين ، متخلّقون بخلق الفضيلة ، لا فاضلون ؛ لأنهم إنما يلبسون هذا الثوب مُصانعةً للناس ، أو خوفاً منهم ، أو طمعاً فيهم ، فإن ارتقوا عن ذلك قليلاً لبسوه ؛ طمعاً في الجنة التي أعدها الله

« الفتاة والبيت »

حضرة صديقي الكاتب الفاضل ، أنطون أفندي الجميل^(١) :

أهديت إليّ كتابك « الفتاة والبيت » فأهديته إلى ابنتي ؛ لأنه مكتوب لها ولأترابها من الفتيات الناشئات . وربما كانت ، وكن ، أقدر مني ومن الرجال جميعاً على فهم مزّيته ، وتقدير منزلته ، فلما قرأته عادت إليّ تقول إنني لم أهدِ إليها في حياتها خيراً من هذا الكتاب .

سامحها الله ! فقد كان فيما أهديت إليها كتاب « النظرات » ! فقد فضّلت على كتاب أبيها . ولكن ما لها وللنظرات ، وأمثالها من كتب الكلّيات العامة والخيالات السائرة ؛ فهي فتاة على باب المستقبل يهيمها أن تعرف أسباب الحياة المنظمة ، التي لا تستطيع فتاة في هذا العصر أن تعيش بدونها ، والتي عجز أبواها عن أن يرشداها إليها ؛ لأنهما بقية من بقايا العصر الماضي ؛ عصر المصادفات والاتفاقات ، ولا يزال عصرهما لاصقاً بهما حتى اليوم .

يعنيها أن تتعلم كيف تنسج من أخلاقها وآدابها ثوباً يغنيها جماله عن الجمال ، وتعيش من عقلها وحكمتها في ثروة تقوم لها مقام ثروة المال . وكيف تدبّر القليل من الرزق وتنتفع به ، إن قُدّر لها أن تعيش عيش المقلّين ، وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقي عليه ، إن قُدّر لها حظ الكثيرين . وكيف تكون شمساً مشرقة في أفق بيتها تضئ نفوس جميع ساكنيه ، من زوجها إلى خادمتها ، فتسعد بهم

(١) صحفي وأديب مصري من أصل لبناني (١٨٨٧-١٩٤٨).

نشأ في بيروت ، ثم انتقل إلى القاهرة . وأصدر عام ١٩١٠ مجلة « الزهور » الأدبية ، ثم عمل محرراً بجريدة « الأهرام » اليومية ، وتولى رئاسة تحريرها منذ عام ١٩٣٣ حتى وفاته . وكتاب « الفتاة والبيت » من تأليف ج . س . دويوك ، وقد ترجمه أنطون الجميل إلى العربية ، وصدر في القاهرة أول مرة عام ١٩١٦ .

قد كَفَرَتْ بذلك عن سيئاتها طول العام !
إلى كثير من أمثال هذه النقااص التي يزعم
أصحابها ، ويزعم لهم كثير من الناس ، أنهم من
ذوي الأخلاق الفاضلة والسيرة المستقيمة .

الخلق هو الدمعة التي تترقق في عين الرحيم ،
كلما وقع نظره على منظر من مناظر البؤس ، أو
مشهد من مشاهد الشقاء .

هو القلق الذي يساور قلب الكريم ، ويحول بين
جفنيه والاعتماد ، كلما ذكر أنه رَدَّ سائلاً
محتاجاً ، أو أساء إلى ضعيف مسكين .

هو الحمرة التي تلبس وجه الحي ، خجلاً من
الطارق المنتاب (٣) الذي لا يستطيع رده ، ولا يستطيع
مد يد المعونة إليه .

هو اللجلجة التي تعترى لسان الشريف حينما
تحلته نفسه بالكذبة ، ربما دفعته إليها ضرورة من
ضرورات الحياة .

هو الشر الذي ينبعث من عيني الغيور حينما
تمتد يد من الأيدي إلى العث بعرضه أو بكرامته .

هو الصرخة التي يصرخها الأبي في وجه من
يحاول مساومته على خيانة وطنه ، أو ممالأته (٤) عدوه .

الخلق هو أداء الواجب لذاته ، بقطع النظر عما
يرتب عليه من النتائج ، فمن أراد أن يعلم الناس
مكارم الأخلاق ، فليخفي ضمائرهم ، وليبت في
نفوسهم الشعور بحب الفضيلة ، والثفور من الرذيلة
بأية وسيلة شاء ، ومن أي طريق أراد ، فليست الفضيلة
طائفة من المحفوظات تحشى بها الأذهان ، بل
ملكات تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن
الكوكب ، والأريج عن الزهر .

* * *

للمحسنين ، أو خوفاً من النار التي أعدّها الله
للمسيئين . أما الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة ، أو
يتقي السيئة لأنها سيئة ، فذلك من لا نعرف له
وجوداً ، أو لا نعرف له مكاناً .

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشرّ خوفه من
عذاب النار ؛ لأنه لا يعدم أن يجد بين الزعماء
الدينيين من يلبس له الشرّ لباس الخير ، فيمشي في
طريق الرذيلة وهو يحسب أنه يمشي في طريق
الفضيلة ؛ أو خوفه من القانون ، لأن القوانين شرائع
سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب ؛
أو خوفه من الناس ، لأن الناس لا يتفرون من الرذائل
بل يتفرون مما يضرب بهم ، رذائل كان أم فضائل .
وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو قائده الذي يهتدي
به ، ومناره الذي يستنير بنوره في طريق حياته .

وما زالت الأخلاق بخير حتى خلّلتها الضمير
وتخلّى عنها ، وتولّت قيادتها العادات والمصطلحات ،
والقواعد والأنظمة ، ففسد أمرها ، واضطرب جلّها ،
واستحالت إلى صور ورسوم وأكاذيب وألعيب .
فأبنا الحاكم الذي يقف بين يدي الله ليؤدي صلاته
وأسواط جلاديه تمزق ، على مرأى منه وسمع ،
جسم رجل مسكين ، لا ذنب له عنده إلا أنه يملك
صباية (١) من المال يريد أن يسلبه إياها ، والأمير الذي
يتقرب إلى الله ببناء مسجد قد هدم في سبيله ألف
بيت من بيوت المسلمين . والفقيه الذي يتورّع عن
تدخين غليونه في مجلس القرآن ، ولا يتورّع عن
مخالفة القرآن نفسه من فاشحته إلى خاتمته ! والغني
الذي يسمع أنين جاره في جوف الليل من الجوع ،
فلا يرق له ولا يحفل به ، فإذا أصبح الصباح ذهب
إلى ضريح من أضرحة الأولياء ، ووضع في صندوق
النذور بذرة (٢) من الذهب ، قد ينتفع بها من لا
حاجة به إليها . والمومس التي تصدق بنفسها ليلة
في كل عام على روح بعض الأولياء ، وعندها أنها

(١) الصباية : البقية القليلة من الماء ونحوه .

(٢) البذرة : كيس فيه مقدار من المال يتعامل به ، ويقدم في
العطايا .

(٣) المنتاب : الزائر .

(٤) الممالأة : المساعدة والمعونة .

لأن للثروة طغياناً كطغيان الشراب ، لا سبيل إلى دفعه والخلاص منه ، ولكنني لا أستطيع بحال من الأحوال أن أعذره في زوجه التي طلقها واستبدل بها سواها .

عجائز « بوشنج »

إنها رفيقة حياته ، وعشيرة صباه ، وشريكته في سرّائه وضرّائه ، وُسْره وعُسْره ، وشَبَعه وجوعه ، وورثه وظلمته . وأحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها ، وخلّا لها وجه السماء ، بسطت يديها بالدعاء إلى الله تعالى أن يبدل عسره يسراً ، وضيقة سعة ، وشدته رخاء ؛ فليس من الرأي ، ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أنوابه وأرديته ، وأن يلقها وراء ذلك السد كما يلقى نعله وأداته !

إنها شاركته في شدته ، فيجب أن تشاركه في رخائه ، واحتملته والدَّهر مُدْبِرٌ عنه ؛ فيجب أن يحتملها والدَّهر مقبل عليه ، وأقرضته الصبر على عشرته ، فيجب أن يوفّيها الصبر على عشرتها ، إن كان يرى أنها عبء ثَقِيلٌ عليه .

أ يريد أن يتمنّى النساء جميعاً لأزواجهن دوام الفقر والفاقة ، حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل إلى ذلك ؟!

إنهن يتمنّين ذلك فعلاً ، بل يَسْعين له ؛ لأنهن يجدن الأمان على أنفسهن في ضاحية الفقر ، أكثر مما يجدنه في ظلال الغنى . فيا للفظاعة والهول ، ويا للمعيشة التكدّ المريرة ، ويا للشقاء الذي يهدّد الحياة الزوجية وينذرهما بالمحو والفناء !

حدّثني من أتق به أنه دُعي إلى وليمة أقامها أحد أولئك الحديثي النعمة ، فلما قضاوا ليلتهم وانصرفوا ، لفت نظرهم منظر امرأة بائسة واقفة تحت جدار البيت تتحدّث إلى بعض الناس ، وتقول لهم إنها سيدة هذا البيت بالأمس ، وإن زوجها طلقها وطردها هي وطفلها الصغير في اليوم الذي أنعم الله فيه عليه بنعمة الغنى .

وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله ، فكفأها مؤونة العيش وحماها عادية الشقاء ، بل تركها في قريتها وحيدة منقطعة ، لا يعود عليها بقليل من المال

القاعدة المطردة في هذا البلد أن الرجل إذا ابتسم له دهره يوماً من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر ، إلى سماء الثروة والغنى ، بنى بينه وبين ماضيه سدّاً مُحْكَمًا ، لا تنال منه المعاول ، ولا تعصف به العواصف ، ثم ألقى وراء ذلك السد جميع متعلقات ذلك الماضي ، زيّه وهياته ، ولغته ولهجته ، ومناخه ومسكنه ، وعاداته وأخلاقه ، وأصحابه وعشراءه ؛ وجميع صلاته وعلاقته ، ولو استطاع أن يلقى بالآخرين الوحيديين الباقين له : صورته واسمه لفعل .

يريد أنه أصبح إنساناً غير ذلك الإنسان الأول ، لا صلة له به ، ولا شأن له معه ، وأنه خلّق خلقاً جديداً .

إنها لخلّة رديئة جداً ، ما رأيت في الخلال أقيح منها .

إنه يفعل ذلك لأنه يعتقد أن الفقر عيب وعار ، والفقر ليس بعبء ولا عار ، فإن كان لا بدّ له أن يرى ذلك ، فليعلم أنه قد قضى على أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه ، بل على السواد الأعظم من أمته ، بل على نفسه أيضاً ؛ لأنه قضى عصر شبابه ، والشباب هو الحياة من ميدنها إلى منتهاها ، في الفقر والخصاصة ، والعدم والإفلال .

ولا أدري ماذا يكون شأنه غداً إذا استردّ الدهر هيبته منه ، وكثيراً ما يستردّ الدهر هيبته وعطاياه ، بل لا يكاد يهب هبةً ، أو يمنح منحة حتى يستردها .

عذّرت في ثوبه الذي خلعه ، وقلت : « قد لبس لكل حالة لبوسها » . وفي داره التي هجرها ، وقلت : « لا بد أن يكون هناك فرق بين حياة السعة وحياة الضيق » . وفي لهجته التي غيّرّها ؛ لأنه يعيش في قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم . وفي خدّه الذي صبره ، وصدره الذي أبرّزه ، وأنفه الذي شمخ به ؛

الأربعون (١)

الآن وصلتُ إلى قِمةِ هرمِ الحياة ، والآن بدأتُ
أنحدر في جانبه الآخر ، ولا أعلم : هل أستطيع أن
أهبط يهدوء وسكون ، حتى أصل إلى السَّفح
بسلام ، أو أعثر في طريقي عثرة تهوي بي إلى
المصرع الأخير هُويًا ؟

سلام عليك أيها الماضي الجميل ، لقد كنت
ميدانًا فسيحًا للأمال والأحلام ، وكنا نظير في
أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين ، طيران
الحمام البيضاء في آفاق السماء ، لا نشكو ولا
نتألم ، ولا نضجر ولا نسأم ، بل لا نعتقد أن في
العالم همومًا وآلامًا . وكان كل شيء في نظرنا
جميلًا حتى الحاجة والفاقة ، واحتمال أعباء الحياة
وأثقالها . كان كل منظر من مناظرِكَ قد لبس ثوبًا
قشيبًا من نسيج الزهر الأبيض ، فأصبح فتنة الأنظار ،
وشرك الألباب !

وكان يُخيلُ لينا أن هذا الزروق الجميل الذي
ينحدر بنا في بُحيرتك الصافية الرائقة سيستمر في
طريقه مطردًا مُتَدَقِّعًا ، لا يعترضه معترض ، ولا يلوي
به عن طريقه لا شيء إلى ما لا نهاية ، لا طرادُه وتدفعه .
وكان كل ما نعالج فيك من آلام وهموم ، أن
يكون لنا مأربان من مأرب الحياة ، فنظفر بأحدهما
وفوتنا الآخر ، أو غرضان من أغراضها ، فنصل إلى
القريب ، ونبيت دون البعيد .

وكان كل ما يَسْتَدْرِفُ الدَّمْعُ من أعيننا هجرًا
حبيب ، أو طلعة رقيب ، أو أرقى ليلة ، أو ضجّر
ساعة ، أو نظرة شَرَرٍ يُلْقِيها بَغِيض ، أو نَفْثَةُ شَرٍّ يرمينا
بها حقود . ثم لا تلبث مسراتنا ومباهجتنا أن تطرد
تلك الآلام أمامها كما يطرد النهر المتدفق الأقدار
والأكدار بين يده ، وتَسْلَمُ لنا الحياة سائغة لا كَدَر

ولا بكثير ، ولا ذنب لها ولا لولدها عنده سوى أنه
أصبح ذا زوجة جديدة ، ووَلَدَ ، وقالت إنها تحاول منذ
ساعتين أن تدخل المنزل لتقابله ، وتسأله المعونة
والمساعدة ، فيمنعها الخدم .

إنه لموقف مؤلم جدًا أن تقف امرأة على باب
البيت الذي كانت سيدته بالأمس ، موقف السائل
المتكفف ، فلا تجد من يمنحها ما يمنح السائلين
المتكفين !

لا يجد المرء لذة الطعام إلا إذا ذكر الجوع ، ولا
لذة الماء إلا إذا ذكر الظمأ ، ولا لذة السعادة إلا إذا
تمثل أمام عينيه عهد الشقاء ، فما أخرج - إذا
انتقل من عذاب الفقر إلى نعيم الغنى - إلى
أصدقاء عهده الأول وعشرائه ؛ ليجلس إليهم من
حين إلى حين ، ويتحدث معهم عن ماضيه وحاضره ،
فيشعر بلذة الانتقال من حال إلى حال . وما أخرج
إلى زوجه التي قضى معها عهد شقائه أن تبقى معه
في عهد سعادته ؛ ليرى في مرآة وجهها صورته
القديمة والحديثة ، فيعلم حين يقارن بينهما أن قُضِلَ
الله عليه كان عظيمًا .

وتعجبني كثيرًا قصة خالد بن برمك ، جدّ
البرامكة ، وكان رجلًا أعجميًا من قرية من قرى
فارس اسمها « بوشنج » ، وفد إلى بغداد وحظي عند
الخلافة ، فَوَلَّاهُ الوزارة ، فلما ركب في الموكب
الذي اعتاد أن يركب فيه الوزراء يوم العهد إليهم
بذلك المنصب العظيم ، وقف الناس له صفوفًا على
جانبي الطريق ، وأطل عليه النساء من نوافذ الدُور
والقصور ، وهو مُطَرِّقٌ واجِمٌ ؛ فقال له أحد أصدقائه
وكان يسير بجانبه : « أ لا ترى هؤلاء النساء
الجميلات ، المشرفات عليك من نوافذ قصورهن ؟ »

قال : « نعم أراهن ، ولكنني كنت أفضل أن أرى
بدلاً منهن عجائز « بوشنج » ! »

أي أنه كان يتمنى أن العيون التي رآته بالأمس
وهو وضيع ، تراه اليوم وهو رفيع .

* * *

(١) كتب المؤلف هذه المقالة بعد بلوغه الأربعين من حياته ،
وكأنما كان يتبأً يَتَبَأُ أَجَلَهُ ، وقد مات عام ١٩٢٤ ، وهو
في الثامنة والأربعين من عمره .

فيها ولا تنغيص .

سلام عليك أيها الشباب النّاهب . سلام على دَوْحِكَ الْفَيْنَانَةِ الْغَنَاءِ ، التي كنا نمرح في ظلالها ، مَرَحَ الطُّبَاءِ الْمُقَرَّرِ فِي رَمَلَتِهَا الْوَعَاءِ ، ننظر إلى السماء فيخيل إلينا أنها مَغْدَى وَ مَرَاخٌ لَنَا ، وإلى الآفاق البعيدة فيخيل إلينا أنها مَجْرَى سَوَابِقِنَا وَمَجَرٌّ رَمَاحِنَا ، فَكَأَنَ الْعَالَمَ كُلَّهُ مَمْلُوكَتِنَا الْوَاسِعَةِ الْعَظِيمَةِ ، التي نسيطر عليها ونتصرف في أي أقطارها شطنا .

أبيك يا عهد الشباب ، لا لأنني تمتعت فيك بِرَاحٍ أَوْ غَزَلٍ ، ولا لأنني رَكِبْتُ مَطِيئَكَ إِلَى لَهْوٍ أَوْ لَعِبٍ ، ولا لأنني ذَقْتُ فِيكَ الْعِشَّ بَارِدَ الْهَوَاءِ ، كما يذوقه النَّاعِمُونَ الْمُتَرَفُّونَ ؛ بل لأنك كنت الشباب وكفى !

أبيك لأنني كنت أرى في سمائك نجم الأمل لامعاً متلألئاً ، يؤنسني منظره ، ويطربني لألأؤُهُ ، وينفذ إلى أعماق قلبي شعاعه المتروّج الملتهب ، فلما ذهبت ذهب بذهابك ؛ فأصبح منظر تلك السماء منظر قَلَاةٍ مَوْحِشَةٍ مَظْلَمَةٍ ، لا يضيئها كوكب ، ولا يلمع فيها شعاع .

أجل ، لم أتمتع فيك بمتعة من المتع ، ولا بلذة من الملاذ ، ولا نلت في عهدك مأرباً من مآرب المجد أو الجاه ، ولكنني كنت أؤمل وأرجو ، وبذلك الأمل كنت أعيش ، وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أهنأ وأنعم .

أما اليوم وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة إلى جانبها الآخر ، فقد احتجب عني كل شيء ، ولم يبق بين يدي مما أفكر فيه إلا أن أعدّ عُدَّتِي لتلك السَّاعَةِ الرَّهِيْمَةِ التي أنحدر فيها إلى قبري .

مضى عهد الشباب وبدأت أختلف إلى الأطباء الثلاثة : طبيب العيون ، وطبيب المعدة ، وطبيب الأسنان . وتقرّيت خطواتي ، فأصبح قَرَسَخِي (١) ميلاً ، وباعني ذِراعاً ، ونعى النَّاعُونَ إِلَيَّ كثيراً من أصحابي وأترابي ، أي أنهم نعوإ إلي نفسي ، ورأيت أصدقائي الذين نشأت معهم في طريقي فأنكرت استحالة حالهم ، واغبرار وجوههم ، واحمرار

(١) الفرسخ : مقياس للطول يساوي نحو ٥ كيلو مترات .

خدودهم ، وابتضاض شعورهم ، فعلمت أنني أولهم وأنهم ينكرون مني ما أنكر منهم . ودعا لي الدّاعُونَ بالقوة والنشاط وطول البقاء ، وحسن الختام ، أي أن قوتي في هبوط ، ونشاطي في اضمحلال ، وسلامي في خطر ، وحياتي على وشك الانحدار إلى مغربها .

ومررت بمجامع الشُّبَّانِ الحافلة بالقوة والنشاط ، والمرح والسرور ، فخيّل إليّ أنني غريب عنهم ، لا صلة لي بهم ، ولا شأن لي معهم ، وأنني أعيش في عالم غير العالم الذي يعيشون فيه . وانتقلت من النّظر في شأن نفسي ، وشأن مستقبلي إلى النّظر في شأن أولادي وشأن مستقبلهم ؛ لأن مستقبلي أصبح ماضياً ، وغداً أصبح أمس لا رجعة له إلى الأبد . وسمعت كلمة « الجد » يهتف بها أحفادي الصغار ، فلم أنكرها ولم أبتس ، كأنني معترف أنها الكلمة التي يجب أن أسمعها ، ونصحني النّاصحون بالاقتصاد والتدبير ؛ إبقاءً على مصلحة أولادي الفقراء ، كأنهم يقولون لي إنك موشك أن ترحل ، فأعدّ لن ورائك من أهلك وبنيك ما يُغنيهم عنك يوم يَفْقِدُونَ وجهك .

وهذأت نفسي بعد ثورتها وجماحها ، فأصبحت سمحاً كريماً ، عفواً غفوراً ، لا أبغض أحداً ، ولا أحقد على أحد ، ولا أقابل ذنباً بعقوبة ، ولا إساءة بمثلها ، كأنني أقول في نفسي : « ما لي وللعالم ولما يحويه من خير وشر وأنا مفارقه وشيكا ، إن لم يكن اليوم فغداً . » وأخذت أتحدّث عن الماضي أكثر مما أتحدّث عن الحاضر ، لا لأن الأول أجمل من الثاني ؛ بل لأن الشُّبَّانِ أجمل من الشَّيْخوخة .

وذكرت الجلسة البسيطة التي كنت أجلسها أيام الطُّلُبِ (١) في غرفتي العادية الصّغيرة بين زملائي الفقراء البسطاء ، فبكيتها ورثيتها ، ولم تُنسني إليها جلستي اليوم في منزلي الأنيق الجميل ، بين خير الناس أدباً وفضلاً ، ومجداً وشرفاً ؛ لأن الأولى كانت في سماء الأحلام الحلوة اللذيذة ؛ أما الثانية ففي أرض الحقيقة المرّة المؤلمة .

وكنت أنعم في صباي بكثير من الملاذ الوهمية

(١) زمان الطُّلُبِ : أي زمن أن كان طالباً .

ما أَلَمْتُ في حياتي بمعصية إلا وتردّدت فيها قبل الإلمام بها ، ثم ندمت عليها بعد وقوعها ، ولا شككت يوماً من الأيام في آيات الله وكتبه ، ولا في ملائكته ورسله ، ولا في قضائه وقدره ، ولا أذعنت لسلطان غير سلطانه ، ولا لعظمة غير عظمته ، وما أحسب أنه يحاسبني حساباً عسيراً على ما فرطت في جثتي بعد ذلك . وأما مَنْ ورائي فالله الذي يتولى السائمة في مرّعتها ، والقطة في أفحوصها (١) ، والعصفور في عشه ، والقرخ في وكّره ، سيتولى هؤلاء الأطفال المساكين ، وسيبسط عليهم رحمته وإحسانه .

وداعاً يا عهد الشباب ، فقد ودّعْتُ بوداعك الحياة ، وما الحياة إلا تلك الحَقَقَات التي يخفّوها القلب في مطلع العمر ؛ فإذا هدأت فقد هدأ كل شيء ، وانقضى كل شيء !
أيا عهد الشباب وكنت تَنَدَى

على أفياءِ سَرَحِكَ (٢) السَّلامُ

* * *

الشيخوخة المتمردة

حدث منذ عهد قريب أن أحد الوجهاء الرّيفيين كان يختلف إلى أسرة كريمة ليخطب إليها فتاة من فتياتها لابنه ، ثم اتفق أن وقع نظره على تلك الفتاة عرضاً ، فشغف بها حباً وخطبها لنفسه ، فلم ير أهلها مانعاً من أن يزوجهها منه ، على تقدم سنّه ، وإدبار أمره ؛ لأنه أكثر من ابنه مالاً ، وأوسع جاهاً وسلطاناً . فكانت نتيجة ذلك أن هجر الابن منزل أبيه هجرة لا رجعة له من بعدها ؛ لأنه كان يحب الفتاة

(١) الأفحوص : حفرة تخفيها القطة أو الدجاجة لتبيض وترقد فيها .

(٢) السَّرْح : شجر عظيم طوال ، الواحدة : سَرَحَة .

الكاذبة ، فكنت أجد في نفسي غبطة عظّمت حينما أجلس لمطالعة قصّة ألف ليلة وليلة ، أو سيرة سيف ابن ذي يزن ، أو حروب عنترة ، أو وقائع أبي زيد ، أو أساطير الجن والشياطين ، وحين آوي إلى مضجعي فأرى في منامي رؤى بدیعة ، يجتمع لي فيها جميع ما أحب وأشتهي من مطاعم الحياة ومآربها ، وملاذ العيش ومباهجه ، وحين أختلف إلى مقابر الصّالحين ومزارات الأولياء ، وأقف موقف الضّراعة أمام حلقات أبوابهم فأشعر بسكينة في قلبي يعيشها الأمل ويزجيها الرّجاء .

والآن وقد حرّمت ذلك كله منذ السّاعة التي عرّفتُ فيها أن أساطير الأولين أكاذيب وأباطيل ، وأن الرّوى والأحلام هُوس وجنون ، وأن الأولياء والصّالحين ، أحياء أ كانوا أم أمواتاً ، في شاغل بأنفسهم عن غيرهم ، لا يستطيعون نفعاً ولا ضرراً ، أي أنني شقيت حين علّمت ، وكنت سعيداً قبل أن أعلم !

وكان كلُّ ما أفكر فيه أن أشيد لي بيتاً جميلاً ، أعيش فيه عيش السّعداء الآمنين في مدينة الأحياء ، فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن أن أبني لي قبراً بسيطاً ، يضمُّ رَفَاتِي في مدينة الأموات . وكنت أدهش لبلاغة البليغ ، ودَلالة الخطيب ، وبراعة الشاعر ، وقدرة الكاتب الصّائغ ، ونبوغ المبتكر ، وأطرب لكل عظيم وجليل مما أرى وما أسمع ، فأصبحت لا أدهش لشيء ولا أعجب من شيء ؛ لأنّ مرآة نفسي قد صدّئت فلا ينطبع فيها غير الكوكب الفخم العظيم ، وأين ذلك الكوكب فيما يقع عليه نظري من كواكب السماء ونجومها ؟

ما أنا بأسف على الموت يوم يأتيني ؛ فالمت غاية كل حي ، ولكنني أرى أمامي عالماً مجهولاً ، لا أعلم ما يكون حظي منه ، وأترك ورائي أطفالاً صغاراً لا أعلم كيف يعيشون من بعدي ، ولولا ما أمامي ومَنْ ورائي ما باليتُ : أ سقطتُ على الموت أم سقطَ الموتُ عَلَيَّ ؟

لكن ما أرادته الله ، أما ما أمامي فالله يعلم أنني

الجهة الشرقية من الحديقة على شاطئ الجدول ، فذهب إليها وقَدَّم لها هديتك بنفسك .»

فذهب حيث أشارت ، فراه أنه لم يجد أمامه طفلة في السادسة من عمرها كما كان يظن ، بل فتاة كاعياً رائعة الجمال في السادسة عشرة ، فوقف أمامها موقف الحائر الذاهل لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول ، حتى رُتت من ورائه ضحكة مرجريت ، وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر فارْقَضُ^(١) جيبه عرقاً ، وتقدمت مرجريت نحو ابنتها وقالت لها :

« أَقَدَّم لك ، يا ماري ، صديقي جورج الذي حضر اليوم ليهديك حصاناً خشبياً جميلاً . فهل تحسنين ركوب الخيل الخشبية ؟! »

فابتسمت ماري وفهمت القصة ، فألَّز في نفسها خجل جورج وإرتباكها ، فمشَّت إليه ووضعت يدها في يده وقالت له : « أشكر لك هديتك يا سيدي ، وأقبلها منك باغباط وسرور ، وأَعِدُّكَ أَنِّي سأحفظها لك عندي تذكارك دائماً لا أنساه . »

فسرِّي عنه ما لحقه من الخجل وجلسوا جميعاً يتحدثون ويسْمرون ، ومَرَّ لهم أطيَب يوم مرَّ لأحد ، حتى أَظْلَمَ الليل فاستأذَن جورج وعاد إلى منزله .

وأصبح بعد ذلك يختلف إلى منزل مرجريت ، لا من أجل الأم وحدها ، بل من أجل الأم والبنت ، حتى حضر صباح أحد الأيام ، وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها ، فوجد ماري وحدها ، فشعر في نفسه بشيء من الارتياح ، لم يكن يشعر بمثله من قبل ، وكأنه كان يتمنى أن يجدها خالية فوجدها . وكانت جالسة على شاطئ الجدول في المكان الذي رآها فيه أول ما رآها ، فجلسا معاً يتحدثان حديثاً طويلاً ذهباً فيه مذاهب مختلفة ، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من حديث الحب ، فورداه ، فإذا كُلُّ منهما يُضْمِرُ لصاحبه من الوجْدِ فوق ما تضرر الأفئدة والقلوب .

وإنهما لمُضْطَبَّحَان وجهاً لوجه على ذلك البساط الأخضر الجميل ، ضِجَّةً يتمنى المصور أن يراها في رسمها ، فيرسم فيها صورة السعادة الكاملة

حباً حباً ، وأصاب الفتاة ذهول شديد لا يزال ملازماً لها حتى اليوم ، وأصبح الشَّيْخ حزيناً بانساً ؛ لأنه أصبح بلا زوجة ولا ولد .

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيراً ، ثم قرأت حادثة أخرى وقعت في فرنسا في العام الماضي سَأَفْصُها عليك ؛ لتوازن بين الحادثتين كما وازنتُ ، وتستنتج منهما ما استنتجت :

فُجِعَتْ سيدة اسمها « مارجريت بونفيل » بوفاة زوجها وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها ، وكانت امرأة بارعة الجمال ، رائعة الحسن ، لا يراها الرائي حتى يُخَيَّل إليه أنها الكوكب المشبوب^(١) رونقاً وبهاءً ، وأنها لا تزال في مُسْتَهْل العقد الثالث^(٢) من عمرها ، فاستوحشت لوفاة زوجها استيحاشاً شديداً ، وبدأت تَخْتَلِف إلى بعض الأندية العامة ؛ عليها تُرَوِّح عن نفسها وحشتها وكآبتها . فاتصلت هناك بفتى من نبل الفتيان أعجبها منه جمال صورته ، وعذوبة أخلاقه ، وحلاوة سَمَره ، ورقة آدابه ، فأحبته وافتننت به ، وأضمرت في نفسها أن تتَدَرَّع بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه ، وإن كان أصغر منها سنًا بنحو عشر سنين .

فلم تَزَلْ تتودَّد إليه ، وتستدني قلبه حتى نزلت من نفسه المنزلة التي تريدها ، وكانت إذا جلست إليه للحديث معه يَرُدُّ على لسانها كثيراً ذكر ابنتها التي خَلَعَتْها من زوجها المتوفى ، فكان يُخَيَّل إليه أن تلك الابنة طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها ، حتى زارها في منزلها يوماً من الأيام ، فحمل معه لطفلتها هَدِيَّةً من اللعب التي يجيها الأطفال ويطربون لها . فلما وقع نظر مرجريت عليه وعلى ما يحمل ضحكت وقالت :

« ما هذا الذي تحمل ؟! »

قال : « إنها هدية لماري ، أريد أن أقدمها إليها ، وأين هي ؟! »

فأرادت العبث به ، وقالت له : « إنك تجدها في

(١) المشبوب : المتوهج اللون .

(٢) لمل الكاتب هنا يقصد العقد الرابع .

(١) ارقض العرق : سأل وقرشش .

بينهما . وما هي إلا أشهر قلائل حتى رُفَّتْ إليه ،
وولدتَ لهما بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك
الحصان الخشبي الذي أهدها أبوها لأمها منذ عامين ،
حين ظن أنها طفلة في السادسة من عمرها .

وكانت قد بقيت بقية من مرارة الألم في أعماق
قلب مرغريت ، لم تزل تتضائل شيئاً فشيئاً ، حتى رنَّ
في أذنها يوماً من الأيام صوت حفيدتها تدعوها :
« جدي ! » فكان هذا آخر عهدا بها . وكذلك
استطاعت مرجريت أن تعيش بعد ذلك سعيدة هائلة ،
في ظل سعادة ابنتها وهنائها .

ذلك ما فعل الرجل في السبعين من عمره ،
وهو يخطو إلى القبر خطوات حثيئة ، وهذا ما فعلت
المرأة وهي تصفّ ، لا إلى الشيخوخة ولا إلى
الشباب ، فجُزِيَّ هو على تمرّده على الطبيعة ،
وخروجه عن سنّتها شرّ الجزاء ، وجُزِيَّتْ هي على
تعقلها ورزانتها ، وتأديبها بأدب الحياة أحسن الجراء .

* * *

الماضي والحاضر

عندي أن الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح
أمران اعتباريان ، يختلفان باختلاف الأمكنة والأزمنة ،
فكما أن الجمال في أمة قد يكون قبحاً في أمة
أخرى ، كذلك الفضيلة في عصر ، قد تكون رذيلة
في عصر آخر .

ليست الفضائل والرذائل أسماء توقيفية كأسماء
الله تعالى ، لا يمكن تغييرها ولا تبديلها ، وليست
الفضيلة فضيلة إلا لأنها طريق السعادة في الحياة ،
ولا الرذيلة رذيلة إلا لأنها طريق الشقاء فيها ، فحيث
تكون السعادة في صفة فهي الفضيلة ، وإن كانت
صفة اللؤم ! وحيث يكون الشقاء في صفة فهي
الرذيلة ، وإن كانت صفة الكرم !

اعتاد علماء الأخلاق في كل زمان وفي كل
مكان ، من عهد آدم إلى اليوم ، أن ينشروا لها

التي يفتش عنها الناس جميعاً فلا يجدونها ، إذ وقفت
بهما الأم من حيث لا يشعران ، فرأبها منظرهما ،
وتخيّل إليها أنهما يتحدثان في شأن غير الشأن
الذي يأخذان فيه عادةً أمامها ، فأصغت إليهما ،
فألمتْ بطرف من حديثهما ، فدارت بها الأرض
الفضاء دورة كادت تصعق فيها ، وتمثّل لها أن
صرح حياتها الشامخ العظيم قد خرّ بين يديها دفعة
واحدة ، فثارت من حولها عبّرة قاتمة حجبت عن
عينها كل شيء ، فألمست^(١) من مكانها أملاًساً ،
ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى
غرفتها فتهافتت على فراشها ، وبكت ما شاء الله
أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها . فمسحت عبرتها
بيدها فإذا المرأة أمامها ، وإذا شعرات بيض سانحات
تهتف بها أن قد انقضى عصر شبابك أو كاد ، وقد
خطوت الخطوات الأولى إلى شيخوختك ، فأخلي
مكانك لابنتك ؛ فهي أولى به منك ، وحسبك من
السعادة أن تفرحي لفرحها ، وتهنئي لهنائها .
واعلمي أن للطبيعة حكماً قاسياً ، لا يختلف عليه
مُختلف ، ولا يتمرّد عليه متمرّد إلا هلك .

ومرّت بها على حالتها تلك ساعة ، كانت
عواطف قلبها ونوازعها تتحرّك فيها اعتراكاً ، وكان
يميل بها الميزان نحو نفسها مرة ، فتثور ثائرتها ،
وتأبى إلا أن تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها
أمثالها ، ونحو ابنتها أخرى ، فتلين عريكتها ،
ويسلس قيادها ، وتقول في نفسها إنها أولى به مني ؛
لأنه خلّق لها وخلقت له ، حتى غلبت نزعة الخير
فيها على نزعة الشرّ ؛ فخرجت من غرفتها باسمه
متطلّفة حتى وصلت إلى مكانهما ، فرأتها
مستغرقين في شأنهما الذي كانا فيه لا يشعران
بشيء مما حولهما .

فصاحت بهما : « أ أنتما هنا يا ولدي ؟ »
فاضطربا إذ رأياها ، فابتسمت لهما ووضعت يدها
في أيديهما وعادت بهما إلى غرفتها ، وجلست
تتحدث إليهما حديثاً طويلاً انتهى بعقد الخطبة

(١) ألمست من الأمر : أفلت ، وتسلّك .

في أحاديثهم عن أنفسهم ؛ فلا يعترف بالبؤس إلا البائس ، ولا يلبس القديم إلا من عجز عن لبس الجديد . أما اليوم وقد ذلت النفوس ، وسفلت المروءات ، فليس ثوب الفقر غير الفقير ، وانتحل البؤس غير البائس ، وأصبح نصف الناس كسالى متبطلين ، لا عمل لهم إلا اللجوء إلى ظلال القلوب الرحيمة ، يعتصرونها ويحلبون دُرَّتَها حتى تجف جفاف الحشف البالي ، فالرحمة هي الفقر العاجل ، والخسران الممين .

وكانت الشجاعة فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه ويتبعون خطواته في طريقه التي يذهب فيها ، فلا يتخلون عنه ولا يخلدونه ، حتى يتم له الظفر الذي يريد . أما اليوم وقد فترت همم الناس ، وهت عزائمهم ، وماتت في نفوسهم الحفائظ والغير ، وكل أمره إلى صاحبه . فإن رآه قائماً بدعوة وطنية أو اجتماعية ، أغروه بالمضي فيها ، ووقفوا عن كُتب ينظرون ماذا يفعل ، فإن ظفر هتفوا له ، واندحدروا إليه يقاسمون الغنيمة التي غنمها ، وإن فشل خذلوه ، وتنكروا له ؛ فالشجاعة لا يجد صاحبها من ورائها إلا التهلكة والشقاء .

وكانت القناعة يوم كان الفضل هو الميزان ، يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم ، ويوم كان الفقر مَفْخَرَةً للشريف إذا عفت يده وعزفت نفسه ، والغنى مَعْرَةً للذنيء إذا سفلت مساعيه وأغراضه .

أما اليوم وقد مات كل مجد في العالم إلا المجد المالي ، وأصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم ، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأعمالهم ؛ فالقناعة ذل الحياة وعارها ، وبؤسها الدائم ، وشقاؤها الطويل !

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيلة الحلم ، ويُقدِّرونها قدرها ويظايطون رؤوسهم إجلالاً لصاحبها . أما وقد أصبح الناس أشراراً ، يحملون شرورهم على كواهلهم ، ويدورون بها في كل مكان ، يطلبون لها رأساً يصبونها عليه ، ولا يعجبهم مثل الرأس الضعيف المتهالك ، الذي لا

في كل كتاب يؤلفونه أو رسالة يُدُونونها جدولين ثابتين لا يتقلان ولا يتحلقان ، يكتبون على رأس أحدهما عنوان « الفضائل » ، ويحتته كلمات : الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة ؛ وعلى رأس ثانيهما عنوان « الرذائل » ، ويحتته كلمات : الجبن والبخل والخيانة والغتر والطمع والكذب والظلم والقسوة .

وأرى أنه قد آن لهم أن يعلموا أن الناس اليوم غيرهم بالأمس ، وأن أساليب الحياة الحاضرة غير أساليب الحياة الماضية ، وأن كثيراً من الصفات التي كانت في عهد البداوة والسداجة رذائل يجتوبها^(١) الناس ويترمون بها ، ويستقلون مكانها قد أصبحت في هذا العصر ، عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح ، حالة واقعة مُقررة في نظام المجتمع البشري ، وأسساً ثابتة تُبنى عليها جميع أعماله وشؤونه . فلا بد للناس منها ، ولا غنى لهم عنها ، ولا مندوحة لهم إن أرادوا أن يخوضوا مُعْتَرَك الحياة مع خالفه من أن تعلموها تعلماً نظامياً ، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي يتوقف عليها نظام عيشهم ، ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم .

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه ، ويعرفون له يده التي أسداها إليهم ، فإذا هوى به كرمه في هوى من هوى الفقر ، لا يعلم أن يجد - من بين الذين أحسن إليهم ، أو عظم في نفوسهم شأن إحسانه - من يمد إليه يد المعونة ليستنقذه من شقاؤه ، أو يرفقه عليه .

أما اليوم وقد أنكر الناس الجميل ، واستقلوا حمله على عوائقهم ، بل أصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل به قدمه ، ويصنّبون على رأسه جميع ما في كتب المترادفات من أسماء الجنون وألقابه ؛ فليس الكرم فضيلة ، وليس من الرأي الدعاء له ، والحض عليه !

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين

(١) اجوى الطعام : كرمه ولم يوافق .

المروءات والكرام والإيثار ، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعِزَّة النَّفْس وإيَّائها ، إنما هي روايات تاريخية قد مضت وانقضت عَهْدُهَا ، حتى لا يصبح ناعماً على العالم يوم ينكشف له وجهه ، ويرى سوائه وعوراته ، وحتى لا يضيع عليه عمره بين التجارب والاختبارات .

وليت الذين يعرفون من شؤون الرذائل ودخائلها فوق ما أعلم يضعون للناس كتاباً مدرسياً على نمط كتب التاريخ ، يوضحون له فيه كيف يكذب التاجر ، وينش الصانع ، ويُفكّر المحامي ، ويُدجّل الطبيب ، ويختلس المراهبي ، ويرائي الفقيه ، ويصنع السياسي ، ويتقلب الصحفي .

ثم يقولون له : « هذه هي الحياة ، وهذا هو ما يجري فيها ، فإن أردتها على علانتها فذاك ، أو لا ، فدُونك مغارة موحشة في قمة من قمم الجبال ؛ فعش فيها وحدك بعيداً عن العالم وما فيه ، وكلّ بما تأكل حشرات الأرض ، واشرب بما تشرب منه ، حتى يوافيك أجلك ! »

الشر لا يُقارم إلا بالشر ، والظلم لا يُدفع إلا بالظلم ، وحامل السيف لا يُحمّده في غمّده إلا أمام حامل سيف مثله ، والسيل الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد في وجهه سدّاً يعترض طريقه ، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً ، والمحتمل لا يحتمل إلا إذا وجد أمامه غيباً ، والناس لا يتحامون ، ولا يتحاجزون ، ولا يأمن بعضهم بأمن بعض إلا إذا برزوا جميعاً في ميدان واحد ، يتقّلدون سلاحاً واحداً ، من نوع واحد .

من أراد الفضيلة للفضيلة ، فسيبيلها المقدّس الشريف معروف ، لا رية فيه فليسلكه كما يشاء ، ومن أرادها على أن تكون وسيلة من وسائل العيش ، في عصر مثل هذا العصر ، وناس مثل هذا الناس ، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق ، وأضل السبيل .

ما أجمل الفضيلة ، وما أعذب مذاقها ، وما أجمل العيش في ظلالها ، لولا أن شرور الأشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها ، فرحمة الله عليها ، وأسفاً على أيامها وعهودها !

يُحسن الدّباد عن نفسه ؛ فلا خير في الجلم ، والخير كل الخير في الغضب !

الحياة مُتَرَكَّ أَبْطالُه الأشرار ، وأسْلَحَتْهُم الرذائل ، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى .

يجب أن يكون الناس جميعاً إما فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم ، أو أدنياء ليتقي بعضهم بأس بعض . أما أن يتقلد سوادهم سلاح الرذيلة ، والتزّ القليل منهم سلاح الفضيلة - وهو أضعف السلاحين وأوهاهما - فليس لذلك إلا معنى واحد هو أن يهلك أشراف الناس وفضلاؤهم في سبيل أدنيائهم وأنذالهم !

إن الدّعاء إلى البر والإحسان ، والرّحمة والشفقة ، والعدل والإنصاف ، والصدق والإخلاص في هذا العصر ، إنما هو حيلة ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ؛ ليخدعهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها ، فيستأثروا بها من دونهم . فلا يدعو الدّاعي إلى الكرم إلا لينقل ما في جيوب الناس إلى جيبه ، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يناله من الشر شيء ، ولا إلى القناعة إلا ليقلل من سواد المزاحمين له على أعراض الحياة ومطامعها ، ولا إلى الصدق إلا ليتمتع وحده بثمرات الكذب ومزايده .

كلنا يكذب ؛ فلم يعب بعضنا بعضاً بالكذب والتلفيق ؟ وكلنا يسم لعنوه وصديقه ابتسامة واحدة ، فلم نستنكر الرّياء والمصانعة ؟ وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها ؛ فلم نستفطع الطمّع والجشع ؟ وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليخطفه عما في يده ؛ فلم نشكو من الظلم والإرهاق ؟

إننا لا نفعل ذلك إلا لأننا نريد أن نستخدم الفضيلة في أغراضنا ومآربنا ، كما كان يستخدم رجال الدين الذين في الأعصر الماضية .

يجب أن يتعلّم الطفل من أوّل يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أن الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب ، وأن قصص الفضائل التي يقرءونها ، ونواد

منتخبات من شعر المؤلف

وصف القلم

يا يراعي لولا يد لك عندي

عفت نظمي في وصفك الأشعارا

يا يراع الأديب لولاك ما أصـ

بح حظ الأديب يشكو العثارا

غير أني أحتو عليك وإن لم

تلك عوناً في النائبات وجارا

أنت نعم الممين لولا

أن للدهر همة لا تجارى

* * *

يتجلى في النفس^(١) شمس نهار

في دجى الليل تبعث الأنوار

جمع الله فيه بين نقيضيهـ

من فكان الظلام منه نهارا

فهو حيناً نارٌ تلظى وحيناً

جنة الخلد تنثر الأزهارا

وتراه ورقاء^(٢) تندب شجواوتراه رقطاء^(٣) تنفث نارا

وتراه مغنياً إن شدا حرّ

لك بين الجوانح الأوتارا

وتراه مصوراً يرسم الحسنـ

من ويغري برسمه الأبصارا

فتخالُ القرطاس^(٤) صفحة خد

وتخال المداد فيه عينا

هو جسر تمشي القلوب عليه

لتلاقي بين القلوب قرارا

(١) النفس: المداد يكتب به . (٢) الورقاء: الحمامة .

(٣) الرقطاء: الحبة الخبيثة . (٤) القرطاس: الصحيفة يكتب فيها .

صامت تسمع العوالم منه

أي صوت يناهض الأقدارا

فهو كالكهرباء غامضة الكتبـ

ه وتبدو بين السورى آثارا

* * *

كم أثار اليراع^(٥) خطباً كميناً

وأما اليراع خطباً مثاراً

قطرات من بين شقيه سالت

فأسالت من الدما أنهارا

كان غصناً فصار عوداً ولكن

لم يزل بعد يحمل الأثمارا

كان يستمطر السماء فحال

أمر فاستمطر العقول الغزارا

* * *

يسعد الناس باليراع ويلقى

رُبه ذلة به وصغارا

وا شقاء الأديب هل وتر^(٦) الدهر

ر فلا زال طالباً منه ثارا

أ رفيق المحراث يحيا سعيداً

ورفيق اليراع يقضي افتقارا

ما جنى ذلك الشقاء ولكن

قد أراد القضاء أمراً فصارا

ليس للنسر من جناح إذا لم

يجد النسر في الفضاء مطارا

حاسبه على الذكاء وقالوا

حسبه صيته البعيد فخارا

أوهموه أن الذكاء ثراء

فمضى يسحب الذبول اغترارا

(٥) اليراع: القلم . (٦) وتره: أصابه بئس . يقول كان

الدهر موثراً لذلك الأديب فهو طالبه بالثار .

عشرون عاماً لم تحل حالتي
ما أشبه الآخر بالأول
أعدو إلى المعمل في شملة^(٥)
خرقاء لم تكن ولم تشمل
كأنها برقع مصرية
لا تحجب الوجه عن المجتلي
تنب عن جسمي كما نم عن
نفسي غزير المدمع المرسل
يميل بي الهم ميل النقا
بين جنوب الريح والشمال
فمن رأي ظن بي نشوة
أجل يكأس الحزن لا السلسل
أقضي نهاري مقبلاً مُدْبِراً
كأنني الآلة في المعمل
وصاحب المعمل لا يرتضي
مني بغير الفادح الثقيل
فإن شكوت النزر^(٦) من أجره
برح بي شتما ولم يُجمل
حتى إذا عدت إلى منزلي
وجدت سوء العيش في المنزل
أرى أيامي يشتكين الطوى
إلى يتامى جوع نُحْل
أبيت والأجفان في سهدا
كأنما شُدْتُ إلى يذبل^(٧)
بين صفار سُهْد في الدجا
يُذرون دمع الثاكل المرمِل
بين ضعيف الخطو لم يعتمد
وشاخص في المهْد لم يُحول^(٨)

(٥) الشملة: كساء يتلف به . (٦) النزر: القليل .

(٧) جبل معروف . (٨) لم يعتمد: أي لم يتكل في مشي
على نفسه . والمحول: الذي بلغ حولا .

يَحسب النقد للقصيدة نقداً
ويرى البيت في القصيدة داراً
ليس بدعاً من هائم في خيال
أن يرى كل أصفر ديناراً
إن بين المداد والحظ عهداً
وذمماً لا يلتوي وجواراً
فالليب اللبيب من ودع الطر
س^(١) وولى من اليراع فراراً

* * *

على لسان عامل فقير

زاحفت أيامي وزاحفتني
دهراً فلم تنكل ولم أنكل^(٢)
لا عزمها واه ولا عزمتني
تصادم الجنل^(٣) بالجنل
رمت فلم تبق على مفصل
لكنها طاشت عن مقتل
وليبتها أصمت^(٤) فما أبتغي
من عيشها إن أنا لم أقتل
لا خير في الصبر علي غمرة
لا بأمل الصابر أن تنجلي
صبرت في البأساء صبر الذي
قيد إلى القتل فلم يحفل
لا فضل في الصبر لمستسلم
عي عن الفعل فلم يفعل

* * *

(١) نكل: نكص وجبن . (٢) أصماه السهم: رماه فقتله .
(٣) الجنل: الصخر العظيم . (٤) أصماه السهم: رماه فقتله .

يدعون أماً تتلفى أسى

حذار يوم الحادث المتكسر

و والدك عي يساعفهم

في العيش عي الفارس الأعزل

* * *

ما زال رب الدهر يتابني

بالمعضل الفادح فالمعضل

حتى رماني بالتي لم تدع

إلا بقايا الروح في هيكل^(١)

فها أنا اليوم طريح الضنى

وليس غير الصبر من معقل

في لفحة الرمضاء لا أتقي

وهبة النكباء لا أصطلي^(٢)

هذا هو البؤس فهل من فتي

تم له في البؤس ما تم لي

* * *

وقال ينعي^(٣) على جماعة الفوضيين مذهبيهم
في قتل الملوك ، ويشير إلى حادثة الفوضوي الذي
وضع قبلة في طريق الفونس الثالث عشر ملك
إسبانيا وهو عائد من الكنيسة مع عروسه في يوم حفلة
قرانه ، عام ١٩٠٦ ، فأصابته القبلة خيل المركبة ،
وقتل بعض الحاشية ونجا الملك وعروسه وقبض على
الفوضوي فقتل :

أيها الفاتك الأثيم رويدك

كل يوم تكيد للتاج كيدا

لا أرى التاج في البرية إلا

فلكا دائرك وأخذك وردا

(١) يردد بها الحمى . (٢) الرمضاء: شدة الحر والنكباء

الريح الباردة . (٣) ينعي: ييب .

يتخطى الرعوس رأساً فرأساً

ماشياً في العصور عهداً فعهداً

فمحال أن يهدم المرء صرحاً

أعجز الدهر بأسه أن يهدا

عبثاً تقتل الملوك وعذراً

لك فيهم لو كنت تحمل حقدا

آفة العقل أن يرى الحمد ذماً

ويرى الخطة الدنيئة حمدا

لا ييالي بالموت من عرف الموت

ت ومن لا يرى من الموت بُداً

غير أن الآجال فينا حدود

كل حي تراه يطلب حداً

أي جفن أجريت منه دموعاً

كان لولاك في السماكين بعدا !

أي روح أسكنته في فؤاد

كان في فادح الحوادث جلدا !

ما بكى الفونس خشية بل غراماً

ودموع الغرام أشرف قصدا

إن قلب الجبان يخفق رجياً

غير قلب المحب يخفق وجدا

كان بين الحياة والموت شبر

بُدل النحس في مجاريه سعدا

فرأينا القاتيل يعمر قصرًا

وغريم القاتيل يعمر لحدًا^(٤)

أنت تقضي والله يقضي بعدل

في البرايا والله أكبر أيدا^(٥)

جمرة أطفأ القضاء لظاها

فندا جمرها سلاماً ويردا

إن للمالك الكريم قلوباً

وقفت بينه وبينك سداً

(٤) اللحد: القبر . (٥) الأيد: القوة .

وما أنس م الأشياء لا أنس ليلة
جلاها الدجى قمراء في ساحة القصر
كأن الثريا في الدجى طرة ^(٦)
مرصعة الأطراف بالؤلؤ النثر
كأن سهيلاً ^(٧) حاسد كلما رأى
أخا نعمة يريمه بالنظر الشزر
كأن السهى ^(٨) حق تعرض باطل
إليه فألقى دونه مسبل الستر
كأن الدجى فحم سرى في سواده
من الفجر نأراً فاستحال إلى جمر
كأن نسيم الفجر في الجو خاطراً
من الشعر يجري في فضاء من الفكر
وفي القصر بين الظل والماء غادة
تميس بلا سكر وتناى بلا كبر
تريك عيوناً ناطقات صوامتاً
فما شئت من خمر وما شئت من سحر
لهوت بها حتى قضى الليل نجه
وأدرجه المقدار في كفن الفجر
* * *

لعمرك ما راحت بلبي صباية
ولا نازعتني مهجتي سورة ^(٩) الخمر
ولا هاجني وجد ولا رسم منزل
عفاء ولكن هكذا سنة الشعر
ومن كان ذا نفس كنفسى قريحة
من الهم لا يعنى بوصل ولا هجر
كأنى ولم أسلخ ^(١٠) ثلاثين حجة
ولم يجر يوماً خاطر الشيب في شعري

فافتدته فكُنْ خير فداء
لمليك وكان نعم المفضى

* * *

في الوجديات

سقاها وحياً تربها وإبل القطر
وإن أصبحت قفراء في مهمه ^(١) قفر
طواها البلى طي الشباب رداءه
وليس لما يطوي الجديدان ^(٢) من نشر
مرابض آساد وماوى أراقم
تجاور في قيعانها الغيل ^(٣) بالجحر
يكاد يضل النجم في عرصاتها ^(٤)
ويزور عن ظلماتها البدر من دعر
لقد فعلت أيدي السوافي بنؤيها ^(٥)
وأحجارها ما يفعل الدهر بالحر
وقفت بها في وحشة الليل وقفة
أثار شجاها كامن الوجد في صدري
ذكرت بها العهد القديم الذي مضى

ولم يبق منه غير بالي من الذكر
وعيشاً حسبناه من الحسن روضة
كساها الحيا منه أفانين من زهر
فأنشأت أبكي والأسى يتبع الأسى
إلى أن رأيت الصخر يبكي إلى الصخر
وما حيلة المحزون إلا لواعج
تفيض بها الأحشاء أو عبرة تجري

(١) المهمة: المفازة، أي الصحراء، البعيدة.

(٢) الجديدان: الليل والنهار.

(٣) الأراقم: الحيات، والغيل: موضع الأسد.

(٤) العرصات: جمع عرصه، وهي ساحة الدار.

(٥) السوافي: الرياح، والنؤي: الحزير حول المخاء أو الخيمة

يمنع السيل.

(٦) الطرة: الشعر المقدم في الجبهة.

(٧) سهيل: نجم معروف بشدة الاحمرار والخفقان.

(٨) السهى: نجم ضعيف.

(٩) سورة الخمر: حلتها وأثرها. (١٠) سلخ عامه: أمضاه.

قلصت ظل الليل عنه وما
رعيت حق الله في مده
أنشأت روضاً زاهراً حوله
يعطر الكون شذا نده^(٣)
ورحت بالرتبة في صدره
تُدِلُّ دَلَّ الملك في جنده
كأنما الرتبة كل الذي
ينيله الكوكب من سعده
هب أنه اللوفر^(٤) في حسنه
أو قصر بوكهام^(٥) في جده
وهبك رو كفير^(٦) الذي
يضلل الحاسب في عده
فالمال إن أجهده ربه
فالفرق والعدم مدى جهده
والمال كالتائر إن هو مست
حرأسه طار إلى فينده^(٧)
والمجد للمال وكل الذي

تراه من مجد فمن مجده
هذا شهاب ساطع مشرق
والليلة الليلاء من بعده
بنيت للبنك فأغنيته
بجذك المبدول عن جده
بنيت ما لو قد را مدره
لقليل هذا الميت في لحده
وأدت فيه الأمل المرجى
حيًا ولم تأس على وأده
أغمدت فيه صارمًا طالما
تثلثم الدهر على حده

(٣) اللند: العطر . (٤) اللوفر: قصر في باريس .

(٥) قصر في لندن . (٦) أحد الأغنياء في أمريكا .

(٧) هوم: هز رأسه من النعاس، والفند الجبل .

أخو مائة يمشي الهونا كأنه
إذا ما مشى في السهل في جبل وعر
إذا شاب قلب المرء شاب رجاؤه
وشاب هواه وهو في ضحوة العمر
حييت بأمالى فلما كذبني
فنتعت فلم أحفل بقل ولا كثر
وأصبحت لا أرجو سوى الجرعة التي
أذوق إذا ما ذقتها راحة القبر
وليست حياة المرء إلا أمانيا
إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر
جزى الله عني اليأس خيرًا فإنه
كفاني ما ألقى من الأمل المر
وراض جماحي للزمان وحكمه
بما شاء من عدل وما شاء من جور
فما أنا إن ساء الزمان بساخط
ولا أنا إن سر الزمان بمغتسر

* * *

وقال في شأن غني من الأغنياء غلبته المدينة
الحديثة على بساطته الطبيعية ، فابتنى قصرًا فخماً
كان سبباً في فساد حاله وسوء مصيره :

يا صاحب القصر الذي شاده
فاستنفذ المذخور من وجده^(١)
أقمته كالطود في هضبة
ترد عادي الدهر عن قصده
أزرقه^(٢) الأبراج في جوها
فانتظم الأجم في عقده
أطلعت فيه كوكبا دائيا

أغنى عن الشامع في بعده
(١) الوجد: الغنى والسعة . (٢) أزرقه الشيء: حملة على زيارته .

فهزله أنفذ من جسده
ورهبه أسرع من وخده^(٣)
وتسح لمصر وأبنائها
مما يريخ^(٤) الدهر من كده
نعيش بالهم ونرضى به
عيشاً ونقضي العمر في نقده
كشارب الكأس يرى عابساً
منه ولا يقوى على رده
فإن لمحنا بارقاً خاطئاً
لا نسمع القاصف من رده
وسرع خوض البحر في جزره
وجزره ينبيء عن مده
والكل ظمآن يرى صادراً
وما قضى الأربة من ورده

* * *

وقال في الحكم

إذا ما سفیه نالني منه نائل
من اللم لم يخرج بموقفه صدري
أعود إلى نفسي فإن كان صادقاً
عتبت على نفسي وأصلحت من أمري
ولا فما ذنبي إلى الناس أن طغى
هواها فما ترضى بخير ولا شر

* * *

وقال يهنئ الشيخ محمد عبده بعودته من إحدى رحلاته:

وَأَرَيْتَ فِيهِ وَلَدًا لَيْتَهُ
قضى قرير العين في مهده
وليته ماشب في زُخرفِ
يكي يد^(١) الدهر على رغه
فليس من يأسى على مطلب
ناء كمن يأسى على فقده
غدرت بالبيت الذي بثك الـ
ود فلم تبق على وده
هدمته والمجد ظل له
فما بقاء الظل من بعده
لكننت من كوخك في نعمة
تذيب قلب الدهر من حقه
وكان ينتابك مسترفداً
من بت محتاجاً إلى رفده
فاليوم لا القصر كما ترجي

منه ولا الكوخ على عهد
واليوم رب القصر يذري دماً
من جفنه أنا ومن كبده
يدعو إليه الموت من بعد ما

نالت يد الأيام من أيده
واسود ذلك الجون من جلده
وابيض ذلك الجون من فوده^(٢)
هل يعلم الشرقي أن الردى
سر بصدر الدهر لم يده
وأنه يفجؤنا بالأسسى
يوما خروج السيف من غمده
وأن هذا الدهر في هزله

يغر بالكاذب من وعده

(٣) الرهو: السير السهل، والوخد: السير السريع .

(٤) يريخ: يريد .

(١) يد الدهر: فضله ونعمته .

(٢) الجون: وصف للأبيض والأسود، والفود: ناحية الرأس .

في أوروبا

حينما حاصره الحجاج في مكة حتى أخرجه ، ثم
عرض عليه التسليم فاستشار أمه فأشارت عليه
بالاستقتال فقاتل حتى قتل :

إنَّ أسماءَ في الوري خير أنثى
صنعتُ في الوداع خير صنيع
جاءها ابن الزبير يسحب درعاً

تحت درع منسوجة من نجيع^(٣)
قال يا أمُّ قد عييتُ بأمرِي
بين أسرٍ مُرٍّ وقتل فظيع

خانني الصحب والزمان فما لي
صاحبٌ غيرُ سيفي المطبوع
وأرى نجميَ الذي لاح قبلا

غاب عني ولم يعد لطلوع
بذل القوم لي الأمان فمالني
غيره إن قبلته من شفيع

فأجابت والجفن قفر كأن لم
يكُ من قبلُ موطنٌ للدموع
واستحالت تلك الدموع بخاراً

صاعداً من فؤادها المصدوع
لا تُسَلِّمُ إلا الحياة وإلا
هيكلا شأنه وشأن الجذوع

إن موتاً في ساحة الحرب خير
لك من عيش ذلة وخضوع
إن يكن قد أضاعك الناس فاصبر

وثبتت فالله غير مضيع
مت هماماً كما حييت هماماً
واحي في ذكرك المجيد الرفيع

ليس بين الموت والحياة إلا
كرة في سواد تلك الجموع

راح يباري النجم في جده
وعاد كالسيف إلى غمده

رأى السرى والسهد مهر العلا
فجد وارتاح إلى سهده
لا يصبر الخطب جليلاً ولا

تلوى به الأهوال عن قصده
مسدد العزم إذا ما مضى
يحار صرف الدهر في رده

كالسيف يجلوه القراع^(١) ولا
يأخذ ضرب الهام^(٢) من حده
كان لمصر بعد توديعه

صبابة الصادي إلى ورده
واليوم قد عاد لها كل ما
ترجو من النعمة في عوده

وافتر عنه ثغرها مثلما
يفتر ثغر الروض عن ورده
بدا وقد حفت به هية

كأنما عثمان في برده
ما فيه من عيب سوى أنه
يحسده الناس على مجده

ما حيلة الحساد في نعمة
أسبغها الله على عبده
* * *

وقال في حادثة عرية وقعت بين أسماء بنت أبي
بكر الصديق وولدها أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير

(٣) النجيع: الدم .

(١) القراع: الحرب . (٢) الهام: جمع هامة ، وهي الرأس .

وقال على سبيل الفكاهة في شأن كلب اسمه
«بيل» وفي لسيده ، فطوقه طوقاً من الذهب وأوصى له
بخمسة آلاف دينار :

ليهنك يا «بيل» الجلال وعزة
يكاد لها القلب الكسير يطير
ملكنت على الزهد الألوف وكلنا
إلى قطرة مما ملكنت فقير
إذا كان هذا الطوق كالتاج قيمة
فأنت بألقاب الملوك جدير
وما المال إلا آية الجاه في السرى
فيح تراه فالمقام خطير
ولو كان بين الجاه والفضل لحمة

لزال عروش جمّة وقصور
فيا «بيل» لا تجزع فربّ متوج
شيهك إلا منبر وسرير
وما أنت في جهل المقادير آية
فمثلك بين الناطقين كثير
لكن فأتك النطق الفصيح كما ترى
فسهّمك من نطق الفؤاد وفير
وفيت بعهد للصديق وما وقى
بعهد صديق جرّول^(٢) وجرير
فمش صامتاً واقنع بحظك واغبط
فما النطق إلا آفة وشورور
ضلال يُري الإنسان فضلاً لنفسه
وساعده في المكرمات قصير
وما المرء إلا صدقه وفؤاده
وكل كبير بعد ذاك صغير
وماذا يفيد المرء حسنُ بيانه
إذا عي بالنطق الفصيح ضمير

ثم قامت تضمه لوداع
هائل ليس بعده من رجوع
لمست درعه فقالت لعهدي
بك يا ابن الزبير غير جزوع
إن بأس القضاء في الناس بأس
لا ييالي بيأس تلك الدروع
ففضاها^(١) عنه وفر إلى المو
ت بدرع من الفخار منيع
وأتى أمّه النعي فجادات
بعد لأي بدمعها المنوع

* * *

وقال في الشيب

ضحكات الشيب في الشّعْر
لم تدع في العيش من وطر
هُنّ رسل الموت سائحة
قبله والموت في الأثر
يا بياض الشيب ما صنعت
يدك العسراء بالطير
أنت ليلُ الحادثات وإن
كنت نور الصباح في النظر
ليت سوداء الشباب مضت
بسواد القلب والبصر
فالصبّبا كل الحياة فإن
مرّمرت غبطة العُمُر

* * *

(٢) جرّول: لقب الحظيفة الشاعر، وجرير: شاعر أموي .

(١) فضاها عنه: فخلع الدرع عنه .

فما زلت أبغي الحبّ حتي وجدته
فلما أردت القرب كان التمتع
فلم يبق لي عن ذلك الحبّ مهربٌ
ولم يبق لي في ذلك القرب مطمع
كأنّي في جو الصباية ريشةٌ
بأيدي السوافي ما لها الدهر موقعٌ
كأنّي في بحر الهيام سفينةٌ
أحاط بها موج الردى المتدفعُ
كأنّي في يبداء دهماء مجهل
تضلّ رُخاء في دجاها وززع^(١)
فلا أنا فيها واجدٌ من يدلني
ولا نجمها يبدو ولا البرق يلمع
فمهلاً رويداً أيها اللاتم الذي
يجرعني في لومه ما يجرع
نصحت فلم أسمع وقلت فلم أطمع
فما نصح صب لا يطيع ويسمع
فيا حبّ هذا القول لو كان مجدياً
ويا نعم ذاك النصع لو كان ينفع
قضى الله ألا رأي في الحبّ لامرئ
وذاك قضاء نافذ ليس يدفع
* * *

مررت على الدار التي خف أهلها
وطال بلاها فهي قفراء بلمع
معاهدا كانت أهلاتٍ وكان لي
مصيفٌ تقضى في رباها ومربعٌ
فيا ليت شعري هل يعودن عيشنا
بمعهدا والشمل بالشمل يجمع
تقضى لبانات وتطفئ لواعج
وتبرد أكباد وتنضب آدمع
(١) رخاء وززع : نوعان من الرياح ، الأولى طيبة والأخرى
مدمرة .

مدحك يا « بيل » لأنّي شاعر
وأنت على حسن الجزاء قدير
ولو كنت تدري ما أقول لقمّت لي
بما لم يقم للمادحين أمير
* * *

في الوجديّات

جرى الدمع حتى ليس في الجفن مدمع
وقاسيت حتى ليس في الصبر مطمع
وما أنا من ييكى ولكنه الهوى
يريد من الأسد الخضوع فتخضع
فلله قلبي ما أجلّ اضطباره
وأثبتته بالسيف بالسيف يقرع
ولله قلبي ما أقلّ احتماله
إذا ما نأى عنه الحبيب المودع
إذا لاح لي سيف من الخطب رعتُ
وإن لاح لي سيف من اللحظ أجزع
وأقتاد ليث الغاب والليث مُخْدِرُ
ويقتادني الظبي الغرير فأنبع
وليل أضلّ الفجر فيه طريقه
فلم يدرك ضلّ من أين يطلعُ
سهرت به أرمى الكواكب والكرى
عصياً علي الأجفلن والدمع طيّعُ
أود لو أن الطيف مَن يزوره
وكيف يزور الطيف من ليس يهجع
لقد عشت دهرًا ناعم البال خاليًا
من الهم لا أشكو ولا أتوجّع
أروح ولي في معهد الغي مربّع
وأغندو ولي في مسرح اللهو مرتّع

فقلت ولم تعلق بذيلي رية
ولا كلن إلا ما يشاء الترفع
وودعتها والحزن يغلب صبرنا
وأحشاؤنا من حسرة تتقطع
فقلت أ هذا آخر العهد بيننا
وهل لتلاقينا معاد ومرجع
قللت ثقي يا فوز بالله أنها
«سحابة صيف عن قليل تَفْشَع»

وسرتُ وقلبي في الخيام مخلف
ولي نحو قلبي والخيام تطلع
* * *

حنانيك رفقا أيها الدهر واتشد
فحسبي ما ألقى وما أنجرع
ورحماك بي فالسيل قد بلغ الزبي
ولم يبق في قوس الصبر منزع
على أنني أصبحت لا متخوفا
بلاء ولا إن نالني الرزء أجزع
قد اعتصمت بالصبر نفسي وقوضت
إلى الله ما يعطي الزمان ويمنع

* * *

بول و فرجيني

يا بني القفر سلاما عاطرا
من بني الدنيا عليكم وثناء
وسقى العارض من أكواخكم
معهذ الصدق ومهذ الأتقياء
كنتم خير بني الدنيا ومن

سعدوا فيها وماتوا سعداء

فما أنس م الأشياء لا أنس ليلة
تجشمت فيها الهول والهول مفزع
ولا مؤنس إلا ظلام ووحدة
ولا مسعد إلا فؤاد مروع
ولا صاحب إلا المطية حولها
ذئاب تعادى في الفلاة وأضبع
ولا عين إلا النجم ينظر باهتا

ويعجب لي ماذا بنفسي أصنع
إذا ماتشكت من كلال مطيعي
وقد كلمتها ألسن السوط تسرع
أسير بها سير السحاب كأنني

بأذرعها عرض الفدافد أذرع
إلى أن تنورت الخيام ولاح لي
ضياء بدا من جانب الخدر يسطع
فأقدمت نحو الحي والحي هاجع
وخضت سواد القوم والقوم صرع
ولا عهد لي من قبل أين خباؤها
ولكن هداني نشرها ^(١) المتضوع
فبت وبانت يعلم الله لم يكن

سوى أذن تصغي وعين تمتع
نخال دوي الريح في الجو واشيا
بنا وضياء البرق عينا فنفزع
ولا عين إلا خوفنا وارتياعنا

ولا ناظر يرنو ولا أذن تسمع
وأعذب ورد راق ما كان نيله
عزيزا وأحلى القرب قرب ممنع
فكانت يرغم الدهر أحسن ليلة
رأيت بعمر ي بل هي العمر أجمع
وما راعنا إلا هدير حمامة
على فنن ^(٢) عند الصباح ترجع

(١) نشرها: راحها الطيبة .

(٢) الفنن: النمن المستقيم من الشجرة .

عشتُم من فقركم في غبطة
ليت (فرجيني) أطاعت (بولسا)
ومن القلة في عيش رخاء
وأنا لله مناه في البقاء
لا خصام لا مرأ بينكم
ورثت للأدمع اللاتي جرت
لا خساع لا نفاق لا رياء
من عيون ما درت كيف البكاء
خلق بَر وقلب طاهر
مثل كأس الخمر معنى وصفاء
ووفاء ثبت الحب به
فارقته لم تكن عالمة
وئبات الحب في الناس الوفاء
أصبحت قصتكم معتبرا
في البرايا وعزاء البؤساء
يجتلي الناظر فيها حكمة
ما لفرجيني وباريس أ ما
حكم لم تقرأوا في كتبها
كان في الفقر عن الدنيا غناء
لم يسطرها يراع الحكماء
قطرة الخمرة فيه بدماء
لا ينال المرء منه جرعة
غير أن طالعتمو صحف الفضاء
وكتاب الكون فيه صحف
يقرأ الحكمة فيها العقلاء
إن عيش المرء في وحدته
خير عيش كافل خيرهناء
فالورى شر وهم دائم
وشقاء لا يدانيه شقاء
وفقير لغني حاسد
وغني يستذل الفقراء
وقوي لضعيف ظالم
وضيف من قوي في عناء
في فضاء الأرض منأى عنهم
ونجاء منهم أي نجاء
إن عيش المرء فيهم ذلة
وحياة الذل والموت سواء
* * *

ما لفرجيني وباريس أ ما
كان في الفقر عن الدنيا غناء
إن هذا المال كأس مزجت
قطرة الخمرة فيه بدماء
لا ينال المرء منه جرعة
لم يكن في طيها داء عياء
عرضوا المجد عليها باهرا
يدهش الأبواب حسنا ورواء
وأروها زخرف الدنيا وما
راق فيها من نعيم وثرأ
فأبته وأبى الحب لها
نقض ما أبرمه عهد الإخاء
ودعاها الشوق للفقير وما
ضم من خير إليه وهناء
فعدت أهواؤها طائرة
بجناح الشوق يزجيها الرجاء
يأمل الإنسان ما يأمله
وقضاء الله في الكون وراء
* * *

ما لهذا الجور أمسى قاتما
ينذر الناس بويل وبلاء

زهرة في الروض كانت غضة	ما لهذا البحر أضحى مائجاً
تملاً الدنيا جمالاً وبهاء	كبناء شامخ فوق بناء
من يراها لا يراها خلقت	وكأن الفلك في أمواجه
مثل خلق الناس من طين وماء	ريشة تحملها كف الهواء
ظنت البحر سماءً فهوت	ولفرجيني يد مبسوطة
لتباري فيه أملاك السماء	بدعاء حين لا يجدي دعاء
هكذا الدنيا وهذا منتهى	* * *
كل حيٍّ ما لحيٍّ من بقاء	لهفي والمساء يطفو فوقه
	هيكل الحسن وتمثال الضياء

تم الجزء الثالث من « النظرات »

رقم الكمبيوتر 01 C 199101

رقم الإيداع : ١٩٩١/٢٤٥٠

الترقيم الدولي : ٤-١٨-٠٠١٦-٩٧٧ ISBN

طبع في دار إلياس العصرية للطباعة والنشر

يطلب من : شركة أبو الهول للنشر

٣ شارع شواربي بالقاهرة